

فيض الخاطر

فبراير 2022 إلى فبراير 2025

خالد محمد مندور

الفهرس

المقدمة

ضرورة فيض الخاطر

هل هناك ضرورة لكتابة فيض الخاطر التي جمعتها في هذا الكتاب؟ بالقطع هناك ضرورة وهى حيوية لفهم التغييرات الاجتماعية الجارية على قدم وساق ، فدراسة التغيرات الاقتصادية في منتهى الأهمية إلا أنها غير كافية ، فالتغييرات الطبقية تؤثر فيها عوامل متعددة من ضمنها التغييرات الثقافية والتغييرات في الحياة السياسية وشكل الحكم ومستوى الحريات الديمقراطية ، وأوضاع التنظيمات الحزبية والنقابية الجمعيات الاهلية و أجهزة الاتصال الجماهيري ، الصحافة وأجهزة البث التليفزيوني والإذاعي ، ثم الاتصال عن طريق أدوات الاتصال الحديثة ، شبكات الاتصال الإلكتروني المتعددة الأنواع ، وأخيرا تطورات الصراع السياسي والاقتصادي الإقليمي والدولي ، والعلاقات مع العالم الخارجي بدولة ومؤسساته ، ثم أوضاع الحركة الجماهيرية ، كل ذلك للوصول الى فهم أعمق يتجنب الفهم الاقتصادي الضيق للصراع الطبقي.

لقد درست التطورات الاقتصادية ، ومازلت ، وأصدرت كتابين عنهما ، هما ، الوضع الحالي للرأسمالية المصرية في القرن الواحد والعشرون التي كانت البداية الأولى للفهم ، لاكتشف أنها غير كافية لفهم التغييرات الجارية على قدم وساق ، فالأمر كان يستدعى دراسة التغييرات الجارية وتناقضاتها والمصالح المختفية خلفها ، سواء أكانت هذه التغييرات مرتبطة بالتغييرات الداخلية أم في علاقاتها مع السوق العالمي والرأسمالية الأجنبية والمؤسسات الدولية ، لاكتشف أن هذه الدراسة يجب أن تكون ديناميكية ، أي مستمرة تتابع التغييرات الاقتصادية السريعة الجارية ، فأصدرت تجميع الجزء الأول من الدراسات حول كيف تعمل الرأسمالية المصرية ، وهى مهمة لن تنتهى بحكم طبيعتها ، إذا أردنا حقا البدء في فهم حقيقة ما يجرى.

والان حان أوان نشر المتابعات للتغييرات الاجتماعية والسياسية والثقافية الأخرى، تغيير شكل الحكم وأوضاع الصراع العالمي والإقليمي والتطورات الفكرية الوطنية وأوضاع الصراع الاجتماعي وتطورات الحركة السياسية والمنظمات الشعبية والتغييرات الثقافية وغيرها، الامر الذي تجده بوضوح في فهرس الموضوعات التي يحتويها هذا الكتاب.

ولا أدعى أن هذا الجهد كافي للاستجابة للضرورات الملحة لفهم الصراع الطبقي الجاري بكافة جوانبه، فالمهمة شاقة وطويلة وتحتاج جهدا جماعيا يتم وفق منهج متماسك يتجاوز الانطباعات السريعة وسياسة تسجيل المواقف أو الصياح الغير مجدي الذي كثيرا ما يقود الى الديماغوجية، واعرف تماما أننا بعيدين كثيرا عن حسن التصدي للمهمة، سواء على المستوى الفردي أو على مستوى منظمات المجتمع الأهلي من أحزاب وجمعيات أو حتى مؤسسات بحثية وعلمية رسمية.

يبقى أخيرا أن أوضح ثقتي في أننا نمتلك الإمكانيات الفكرية البشرية القادرة على التصدي لهذه المهمة الشاقة، شريطة الخروج من حالة الإحباط المتفشية وعدم الاستسلام لسيادة مناخ للهزيمة، مهمة تتطلب عملا جماعيا منظما ولا تتطلب أشكالا تنظيمية مسبقة، بل سيادة موقف إجابي يتجاوز المواقف العدمية.

فهل أن الأوان؟

يبقى أن أشير أن المقالات مرتبة من الاحدث الى القدم.

المسؤولية

سؤال صعب حول المسؤولية، هل يجب أن تكون في مستوى المسؤولية؟ أم أن تكون المسؤولية في مستواك؟ الامر الذي يطرح مزيدا من الأسئلة، فهل حقا أن الواقع يجعل المسؤولية تتجاوز القدرات الشخصية الامر الذي يفترض ان يرفع من يفترض أن يقوم بها من قدراته والتزامه كي يقوم بها؟ وماذا إذا كانت هذه المسؤولية تقل عن قدراته؟ هل يتصدى لمسؤوليات جديدة؟ فما الذي يحدث في الواقع مع هذه المسؤوليات؟ ويبقى الإجابة على الاستفسار الأساسي، هل حقا وفعلا أن مسؤوليات الحياة العادية يمكن قياسها بالقدرة على القيام بها ؟ أم أن الإجابة توجد في تفسير أخر؟ وما هو هذا التفسير إن كان يوجد ؟

والاجابة واضحة وصريحة ومباشرة، لا توجد صعوبة في التصدي لأى مسؤولية، فاكتساب الخبرات ممكن والاستشارة ممكنه وواجبة وضرورية ، لكن تبقى الصعوبة الاصلية ، هي الرغبة في التصدي للمسؤولية ، فالصعوبة الحقيقية هي توفر الرغبة وبعدها تتضاءل كل الصعوبات ، وفى الغالب الاعم فإن أصحاب هذه الرغبات يبحثون عن مزيدا من المسؤوليات بما يمكننا من أن نطلق عليهم " أبو خطوة ".

فهل انت "أبو خطوة " وهل ترغب أن تصبح صاحب خطوات؟ الامر يعود لك فهو الطريق الوحيد للخروج من الاسى على النفس في مواجهة مصاعب الحياة و .... مسؤولياتها.

ألا هل بلغت؟ اللهم فأشهد!!

يبقى أن أشير أن كاتب هذا التعليق هو من " أبو خطوة" وسيكون أكثر من سعيد عندما يلقى استجابة من " أصحاب الخطوات " الذين لا يعلمون بعد أنهم منهم رغم القبس من النور الذي أضاء الدنيا منذ زمان قريب منهم هم " أصحاب الخطوة"

الحذر والمراجعة

عنوانا يبدو غريبا " الحذر والمراجعة "، لكنة المطلب الأساسي لأى بحث علمي، ويزداد الامر أهمية اذا كان هذا البحث متعلقا بالعلوم الاجتماعية التي تشمل الاقتصاد والسياسة والتغييرات الاجتماعية حيث لا يمكن اخضاع نتائج هذه الأبحاث للاختبار الفوري مثل غيرها في مجالات العلوم التي يمكن التحقق من سلامتها بإخضاعها للاختبار ومراقبة نتائج التطبيق.

أما في العلوم الاجتماعية فالأمر قد يحتاج الى العديد من السنوات للتحقق من سلامة الاستنتاجات، ويزيد الامر صعوبة أن التفاعلات في مجالات العلوم يمكن التحكم فيها بدقة تضمن سلامة النتائج الامر غير المتحقق في مجالات العلوم الاجتماعية، فالعلوم الاجتماعية هي في النهاية من فعل البشر الذين لا

يتحكم في نشاطهم الإنساني قوانين صارمة وفورية التطبيق، ولذلك فان نتائج البحث العلمي في العلوم الاجتماعية تعتمد، الى حد بعيد، على سلامة مناهج البحث وأكرر سلامة مناهج البحث.

وبصرف النظر عن اختلافات مناهج البحث بين مختلف التوجهات الفكرية فان الكثير من عناصر هذه المناهج تجدها متماثلة، فعلى سبيل المثال تجد كتاب راس المال الاحتكاري لبول سويزى الاشتراكي الأمريكي وكتاب صعود وهبوط القوى العظمى لبول كنيدي داعية الرأسمالية الامريكية، يقفان على نفس الأرضية العلمية الراسخة.

ولذلك فان البحث الاجتماعي يجب ان يعتمد على مناهج متماسكة وان يخضع الوصول الى استنتاجات الى منتهى الحذر، بل أيضا الى المراجعة المستمرة من خارج الصندوق.

ومن خارج الصندوق الأخيرة هذه في منتهى الأهمية، فكثيرا ما تتحكم التقديرات الأولوية في مسار البحث الاجتماعي وتقود الباحث الى البحث عما يؤيد أفكاره وتجاهل أو سوء تقدير الظواهر الأخرى التي من الممكن ان تكون تتراقص أمام عينية، ولكن يتم تجاهلها.

لقد وصل بي الامر، عند متابعة كتابات بعض الكتاب، الى توقع ما سيكتبونه عند تناول مختلف القضايا، لأنهم وببساطة يبحثون عما يدعم وجهات نظرهم وليس دراسة الواقع ثم الوصول الى الاستنتاجات مع اخضاعها للمراجعة، برغم ان بعض من هذه الكتابات تمت بعد جهد حقيقي في تجميع البيانات، تجميعا لا يخلو أيضا من نفس الاقتراب الإسقاطي المسبق، فأصبحت كتاباتهم تصيبني بالملل.

ويزداد الامر فداحة حين يغيب المنهج الذي يتباه هؤلاء الكتاب، برغم الإعلان عن التبني الرسمي لمناهج معينة، ولكنك لا تجده يطل من بين عناصر التحليل، ويترتب على مثل هذا التوجه اختلاط الحابل بالنابل، فلا تستطيع التمييز بين الليبرالي والاشتراكي والإسلامي، وتغيب الفوارق بين المشاريع الفكرية والاجتماعية، ولا يبقى متضحا الا الغضب غير المنتج وتسود الديماغوجية .

انها دعوة الى الحذر والى "المراجعة "، أي المراجعة من داخل وخارج الصندوق، فلا أحد يأتيه وحي من السماء، اليس كذلك.

ثقافة الاعتذار

" ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"

ثقافة تكاد تختفى من حياتنا الاجتماعية وتمتد الى حياتنا السياسية فلا أحد يخطئ ، فالجميع تأخذهم العزة بالإثم ، فيتمترس حول افعاله وأقواله ويدافع عنها دفاعا مستميتا ، وإذا كانت النتائج الاجتماعية لغياب ثقافة الاعتذار يترتب عليها مخاطر حقيقية بتحطيم صلة الرحم وقطع حبال الود والصداقة فإن غيابها من الحياة السياسية تمثل خطرا داهما على مستقبل الوطن ، فالعاملين بالعمل العام سواء أكانوا أفرادا أم قوى سياسية منظمة يخطؤون في مواقفهم سواء اكانت هذه الأخطاء ناتجة عن سوء التقدير

السياسي أو نتيجة لتبنى مناهج فكرية معينة أو حتى نتيجة لاتباع سياسات انتهازية تراعى المصالح الشخصية أو المصالح السياسية لهذا الفصيل السياسي أو ذاك.

وتاريخنا السياسي الحديث مليء بالمواقف التي تستوجب اعتذار قوى سياسية وأفرادا من العاملين بالعمل العام ، خصوصا عندما تتبنى مثل هذه التيارات سياسات ومواقف تدعى اختلافها مع التوجهات التاريخية الاصلية لهذه التيارات دون تصفية الحساب الفكري والسياسي باتخاذ موقف نقدى حقيقي من سلوكياتها وسياساتها ، فعندها ينتاب الشك العميق أي متابع في حقيقة تغيير هؤلاء الافراد والتوجهات السياسية لتوجهاتها الموجبة للاعتذار ، ولعل أحد أبرز الأمثلة على هذا هو تيارات الإسلام السياسي وعلى رأسها تيارات الاخوان المسلمون ، بكل فصائلها ، الاخوان والوسط ومصر القوية ، الذين لم يقدموا موقفا نقديا من مواقفهم وافكارهم النظرية عبر الزمان التاريخي منذ تأسيس الجماعة ثم انشقاقاتها ، منذ تأييدهم للحكم المطلق في ثلاثينيات القرن الماضي الى دعمهم لحكومات الأقليات في الاربعينات وتأييدهم لمشروع معاهدة صدقي – بيفن في مواجهة هبة شعبية غامرة ترفض المعاهدة ، ثم تحالفهم مع مجلس قيادة الثورة لتحطيم الحريات الديمقراطية المحدودة التي انتزعت في العصر الملكي ، ثم خلافهم معه حول السلطة ، الامر الذى يتكرر في موقفهم من النظام الناصري المعادي للاستعمار وصولا لاستخدامهم العنف في الجامعات في سبعينات وثمانينات القرن الماضي بتحالفهم مع نظام السادات ، واستمرار تبجيلهم ودفاعهم عن قادتهم الكبار الذين اسسوا العنف والانتهازية السياسية بحثا عن المصالح الضيقة لتنظيماتهم الحزبية .

وإذا كانت هذه هي المواقف الانتهازية لتيارات الإسلام السياسي بالإضافة بالطبع لتوجهاتهم الفكرية والسياسية الرجعية فالأمر لا يقتصر عليهم ، فالكثير من التيارات السياسية المدنية ، ليبرالية وناصرية ويسارية ، قد ارتكبت الكثير من الأخطاء التي تستوجب الاعتذار مع الاتضاح الذى قدمه التطور السياسي والاجتماعي لخطأ مواقفهم ، خصوصا إذا كانت هذه الأخطاء ناشئة عن العجز عن فهم حقيقية الصراع الاجتماعي الدائر وحدوده وأفاقه ، فهل يعقل أن تؤيد تيارات سياسية يسارية تعتبر نفسها أقصى اليسار الاخوان المسلمون وتتحالف معهم ؟ وهل يعقل أن يؤيد ناصريون وليبراليون الاخوان المسلمين ويحضرون اجتماع فندق فيرمونت السيء السمعة قبل إعلان نتيجة الانتخابات الرئاسية الأولى بعد الثورة؟ وهل يعقل أن يتحالف حزب الوفد مع الاخوان ويفتحوا الطريق لهم لعضوية برلمان 1984، وجميعها أخطاء فادحة تستوجب الاعتذار ، لكنها ، في غالب الأحوال ، لا تمثل انتهازية سياسية تبحث عن المكاسب الحزبية والشخصية الضيقة بل هي التعبير السياسي للعجز عن فهم حقائق الصراع الاجتماعي أو تعبيرا عن مصالح طبقية تعبر عنها هذه التيارات ، وتقدير دوافع هذه الأخطاء يجب أن تستند على تحليل اجتماعي سياسي يتضمن نظرة فاحصة للتأكد من غياب المصلحة الشخصية ، فهل يعقل أن يتم أتهام حمدي قنديل بالبحث عن مصالحه الشخصية لأنه حضر اجتماع فيرمونت ؟

لذلك فإن مراجعة التيارات السياسية وقادتها لمواقفهم يجب أن تلقى الترحيب وان يناقش اعتذارهم بجديه كاملة بعيدا عن الاتهامات بالانتهازية والبحث عن المصالح الشخصية، خصوصا عندما تغيب

مثل هذه المصالح فلا يوجد ما هو مخفى، وهي دعوة للجدية فالاعتذار يفتح الطريق لفهم الحاضر انطلاقا من فهم التطورات التي قادت اليه.

ويبقى أخيرا تقديم تحية خاصة للمعتذرين الذين يتمتعون بالشجاعة للمساهمة في فتح طريق لفهم المستقبل.

"ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر" – انجيل يوحنا

الاكراد والمصير والازمة السورية

بالقطع تواجهه سوريا الكثير من المصاعب، مصاعب اقتصادية وسياسية في فترة تغيير كبير ، تغيير علية ان يواجه مطالب واحلام وامال الشعب السوري ، مطالب لا تقتصر على مطالب واحلام ومخاوف التركيبات العرقية المختلفة بل تمتد الى القوى السياسية والعسكرية المؤيدة والمعارضة داخل وخارج البلاد ، مصاعب مواجه رغبات وطموحات الدول الكبرى والإقليمية ، ولعل أحد أهم التحديات التي برزت على السطح ، في الأيام الأخيرة ، هي التحدي الكردي ، فنتيجة للصراع المسلح الذى أمتد لما يزيد عن عشرة أعوام سيطرت قوات سوريا الديمقراطية (قسد) ، المشكلة بنسبة كبيرة من الاكراد ، على مناطق شرق سوريا من الشمال الى الجنوب (أنظر الخريطة – اللون الأصفر) ، منطقة تشمل المناطق الكردية التاريخية وتمتد خارجها نتيجة للصراع المسلح الذى خاضته هذا القوات في مواجهة داعش ، صراع كان بدعم أمريكي واضح ، عسكريا واقتصاديا بالحصول على موارد عائدات النفط التي سيطرت عليها الولايات المتحدة شرق سوريا ، ولعلة من الواجب أولا أن نتوقف أمام المشكلة الكردية التي تمتد بين العراق وإيران وتركيا وسوريا.

فلقد قسمت المناطق الكردية بين هذه الدول في أعقاب انهيار الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وإعادة تقسيم مناطق احتلالها بما يتلاءم مع مصالح الدول الغربية المنتصرة ، بحيث أسفر الامر عن توزيع السكان الاكراد ومناطقهم بين هذه الدول ، فعدد الاكراد في تركيا يبلغ حاليا ما بين 11 الى 18 مليونا وفى العراق 6.2 الى 6.5 مليونا وفى إيران 6.5 الى 7.9 مليونا وفى سوريا 1.75 الى 2.2 مليونا ويتوزع الباقي بأعداد اصغر بين أذربيجان و لبنان وروسيا و تركمانستان وأرمينيا و كازاخستان والأردن وجورجيا بعدد أجمالي يبلغ 475 الفا ، أما الاكراد المهاجرون الى أوروبا هربا من الاضطهاد فيبلغ حوالى 2.846 مليونا يتركز غالبيتهم في ألمانيا ثم فرنسا على الترتيب ، ولا يغيب أن مستوى دقة ارقام عدد السكان الاكراد ، بالذات في دول الشرق الأوسط ، تخضع لتدخلات السلطات المحلية ، لكن أعداد السكان الاكراد وتوزيعهم توضح أننا أمام شعب كردى كبير العدد يعانى المصاعب في أماكن معيشته الاصلية واضطر الى الهجرة بأعداد كبيرة ولا يتمتع بحق تقرير المصير.

لقد واجهت حكومات المنطقة المطالب الكردية، التي بدأت بالمطالبة بدولة واحدة تجمع مناطق كل أكراد المنطقة ، بعنف بالغ فدمرت المئات من القرى وهجر السكان الى مناطق بعيدة عن موطنهم

الأصلي ، وشنت عيهم حملات عسكرية كبيرة كانت ضحاياها كبيرة جدا ، واعتقل قادتها ، وتلاعبت القوى العظمى والإقليمية بهم ، بعقد اتفاقيات والتعاون معهم لخدمة أغراضها ثم تخلت عنهم ، فالملا مصطفى البرزاني ، الزعيم التاريخي للأكراد ، الذى كان وزيرا للدفاع في أول دولة كردية أنشأها الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب العالمية الثانية في شمال إيران ، اضطر الى اللجوء للاتحاد السوفيتي بعد الانسحاب السوفيتي من إيران ، لمدة أثني عشرة عاما ، ويعود بعدها الى العراق في مصالحة غير كاملة مع حكم صدام حسين ثم يتوفى ، بعد خلافة مع الحكم ، في الولايات المتحدة ، ومنعوا من استخدام لغتهم أو حتى من استخدام لقب كردى في بعض البلاد ومنها تركيا الاتاتوركية وتم تجاهل وجود القوميات المختلفة في العديد من البلدان ، ومنها القومية الكردية ، في وثائقها الرسمية كالدستور .

ومع التطور السياسي والاجتماعي استقرت مطالب الاكراد، في دول المنطقة، على الحكم الذاتي والبقاء داخل الدول الحديثة التشكيل مطالبين بالاعتراف بهم كقومية مستقلة لها لغتها الخاصة، ومطالبين بحكم ديمقراطي في كل البلاد كضمانة لمستقبلهم.

لقد نجح اكراد العراق في الحصول على الحكم الذاتي وعلى نسبة من موارد البترول وحق الاحتفاظ بقوة مسلحة، البيشمرجة، وعلى حق التمثيل البرلماني وعلى رئاسة الدولة ، في النظام الطائفي الذى ابتدعته الولايات المتحدة في العراق ، ولعبت البيشمرجة دورا أساسيا في مواجهة القاعدة التي تحولت الى داعش في شمال العراق وتمددت الى سوريا ، ودعمت أكراد سوريا في مواجهتهم لجبهة النصرة في سوريا.

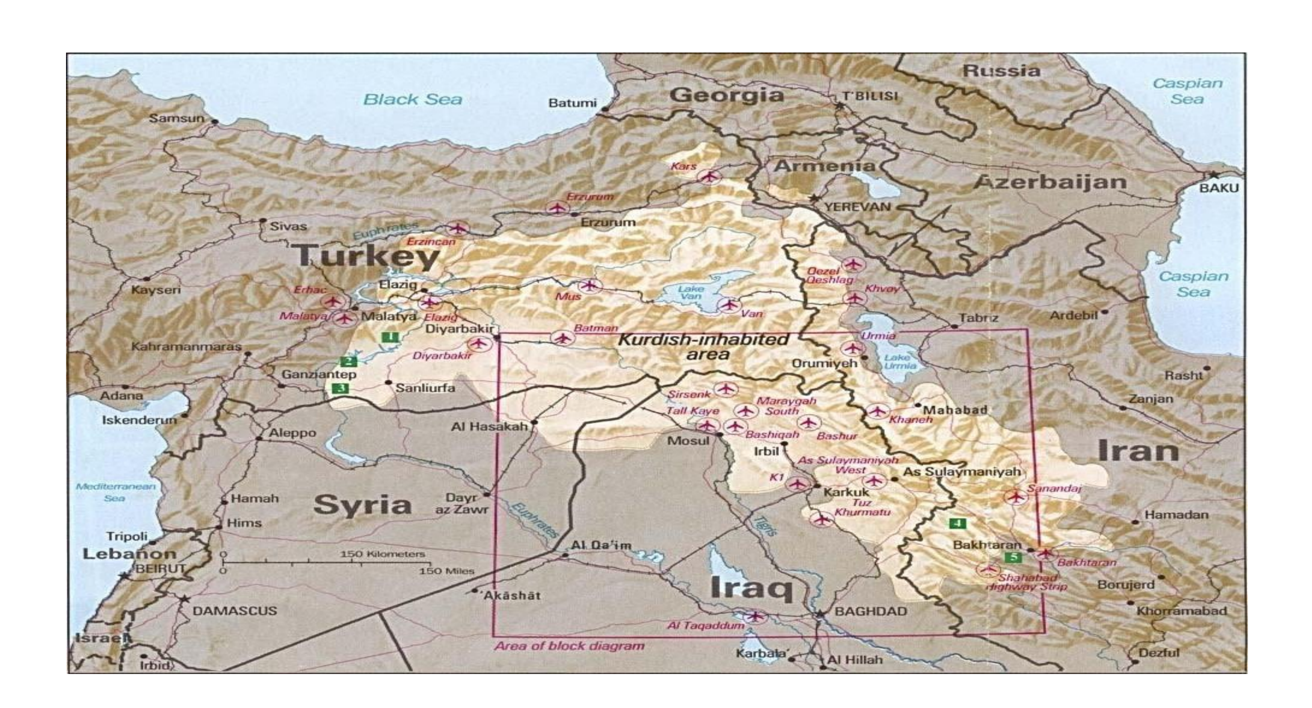
وبرغم ذلك فإن الحركة الكردية في الجانب التركي، بقيادة حزب العمال الكردستاني التي امتدت تأثيراته ومنظماته الى العراق وسوريا ، قد أستخدم الكفاح المسلح والاعمال الإرهابية داخل وخارج تركيا ، الامر الذى ترتب علية الاف من الضحايا من الجانبين ، وتزايد التوتر بين تركيا وسوريا الأسد ، فطرد الزعيم التاريخي للحزب خارج سوريا وتم اعتقاله وحبسه منذ 25 عاما ، إلا أن الدولة التركية استخدمت الأحكام بالإعدامات المنهجية للمدنيين الكرد والتعذيب والتهجير القسري وتدمير القرى والاعتقالات التعسفية واختفاء أو قتل الصحفيين والنشطاء والسياسيين الأكراد ، بحيث دخلت القضية الكردية التركية الى نفق مظلم.

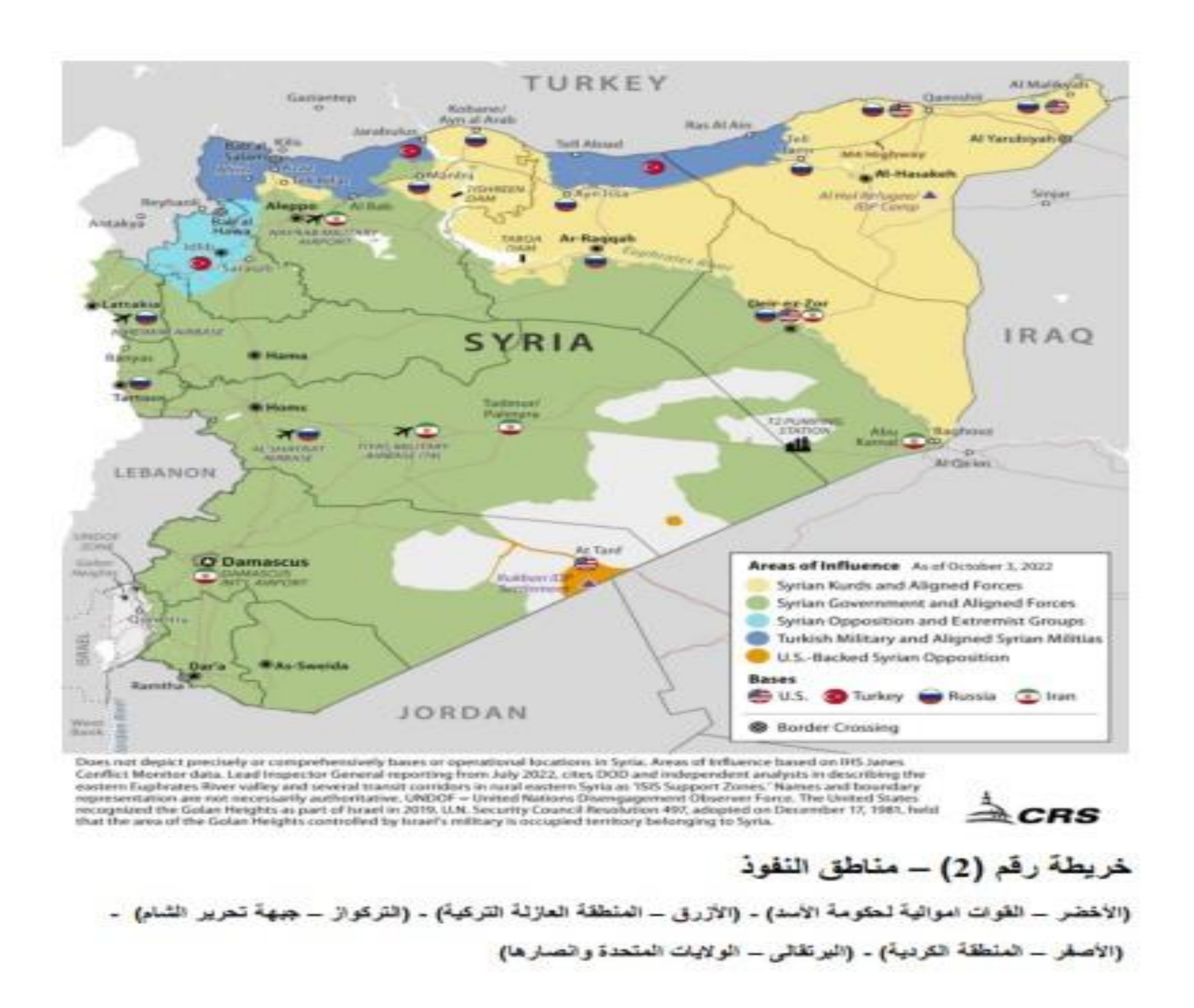
لقد أسفر الصراع حول سوريا وداخلها الى خلق و تسليح ميليشيا كردية وتنظيمها في قوات سوريا الديمقراطية (قسد) ، قوات لعبت أدوارا هامة في التصدي لداعش وسيطرت على شرق سوريا ، وبرغم ذلك فإن الاكراد السوريين لا يطالبون بالانفصال عن سوريا ، بل يطالبون بإنشاء سوريا علمانية ديمقراطية وفدرالية ،رغم وجود تأثيرات قوية لحزب العمال الكردستاني ، الامر الذى يلقى معارضة حارة ليس فقط من الدولة التركية الاردوغانية بل أيضا من السلطة الجديدة السورية التي أعلن وزير دفاعها الجديد ، بتصريح قاطع بأنه لن تكون هناك دولة فيدرالية أو حكم ذاتي ، وتصاعدت المطالب بتسليم السلاح والخضوع للدولة المركزية الجديدة التي تبنيها جبهة تحرير الشام وحلفائها ، برغم أنه ما زالت هناك بقايا لمنظمة داعش في البادية السورية ، وتصاعدت الضغوط العسكرية والاشتباكات المسلحة بواسطة الجيش السوري الحر الذى تسيطر علية وتوجهه تركيا الذى يهاجم المناطق التي تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية الكردية.

أن احتمالات تطور الصراع المسلح بين قوات النظام الجديد وبين القوات الكردية قائم وبشدة لكن ستتحكم في اندلاعه وتطوره عوامل متعددة ، عوامل يقف على راسها مدى تقبل وثقه الدول الأجنبية وعلى راسها الولايات المتحدة وتركيا في الإعلانات الرسمية لجبهة تحرير الشام وفى التوافق والموافقة على الإجراءات الداخلية المتسارعة ، تطور واستتباب النظام السوري الجديد ونجاحة في دمج كل الفصائل المسلحة ، قيام النظام الجديد بتنفيذ تعهداته بعدم التفريق أو الانتقام من المجموعات العرقية والسياسية والدينية المتعددة ، ثم الحصول على ثقة الشعب السوري بسياسات تدعم العدل الاجتماعي ومقاومة الفساد و توسيع الديمقراطية ، وجميعها خيارات صعبة تتناقض مع البنية الفكرية الاصلية القاعدية للجبهة ، ثم أخيرا اكتمال انهيار بقايا داعش .

أن التاريخ الحديث للأكراد يمكن اختصاره في تعرضهم الدائم للخيانة من الحلفاء الدوليين المؤقتين منذ أن نشطت الحركة الكردية من أجل الاستقلال في اربعينات القرن الماضي، وبرغم تغيير مطالبهم في سوريا والعراق بالاكتفاء بالحكم الذاتي، فإن حزب العمال الكردستاني في تركيا مازال يتبنى مطالب الاستقلال ولم يستجب لدعوى زعيمه المعتقل منذ 25 عاما في تركيا ، عبد الله أوجلان ، بالاكتفاء بالمطالبة بالحكم الذاتي والامتناع عن الاعمال الإرهابية ، الامر الذى يفسر الانزعاج التركي الذى لا يقبل حتى حكما ذاتيا للأكراد في تركيا.

يبدو أن القضية الكردية ما زالت بعيدة عن الحل وأن هناك مزيدا من الصراعات المسلحة، إذا لم يستمع الجميع الى صوت العقل الإنساني، بالاتفاق على حكم ذاتي في كل البلاد التي يوجد بها أكراد ، أي في سوريا والعراق وإيران وتركيا ، والا ستستمر معاناة أحفاد صلاح الدين وتتعرض شعوب المنطقة لمزيد من الخسائر والتدخلات الاجنبية.





خريطة رقم (2) – مناطق النفوذ

(الأخضر – القوات اموالية لحكومة الأسد) - (الأزرق – المنطقة العازلة التركية) - (التركواز – جبهة تحرير الشام) - (الأصفر – المنطقة الكردية) - (البرتقالى – الولايات المتحدة وانصارها)

نظرية المؤامرة والميلودراما السورية

تبدو التغييرات الأخيرة داخل سوريا كما لو كانت التعبير الأمثل عن مؤامرة كاملة ضد حكم ال الأسد ، فقوات التحالف الإسلامي بقيادة جبهة تحرير الشام ، النصرة سابقا ، التي تطورت من كونها جزءا من القاعدة الى أن وصلت الى وضعها الحالي ، بتشذيب اللحى وتغيير اللباس العسكري وتغيير لغة الخطاب السياسي ، تهاجم وتتقدم بسهولة تامة وبلا مقاومة من أدلب في أقصى الشمال الغربي لتصل الى أقصى الجنوب الغربي ، والجيش السوري يختفى بفعل فاعل فيذهب الجنود الى منازلهم وتبقى المعدات وشبكات الدفاع الجوي والاسطول الحربى بدون جنود ، والقواعد العسكرية الروسية على المتوسط تراقب وتتمتع بالجو الدافئ ، والقوات الامريكية في الشمال الشرقي والجنوب في قواعدها الجوية تكتفى بالمراقبة رغم سابق تدخلها بضرب تنظيم داعش المتمرد على القاعدة ، ويبدو أن كل هذا كان معروفا للأسد ، أسد لم يحاول فهم عمق الازمة والاحتياج العميق للتغيير منذ ثلاثة عشر عاما ، فتحول الى فأر مذعور " فخلع " ، ، وتتحرك إسرائيل وتضرب كل معدات الجيش السوري وتتمدد داخل الجنوب وتخلق

منطقة عازلة واسعة ومن ضمنها جبل الشيخ ، وتحتج حكومة جبهة تحرير الشام احتجاجا بليدا في الأمم المتحدة دون أي إجراء داخلي لمجابهة توسع الاحتلال ، والغريب والعجيب أن الأعلى صوتا في العداء لإسرائيل والولايات المتحدة ، أي حزب الله وإيران ، ينسحبوا دون إعلان رغم انتهاء القتال في لبنان والعودة الى ما وراء الليطاني ، فهل حقا هناك مؤامرة ؟

وبالقطع فإن السياسة بها الكثير من المؤامرات لكنها تبقى، دائما، محدودة التأثير، فلأيمكن لها أن تحدث مثل هذا التغيير الكبير في بلد له هذه الأهمية الجيوسياسية في منطقة حافلة بالاضطراب ومحاولات فرض التغيير عليها من القوى العظمى ، فلو نظرنا الى مناطق تحكم القوى السياسية والدولية المختلفة وتوزيع قواتها ، بعد ثلاثة عشر سنة من التغيير المتلاحق ، المرفقة مع هذا المقال ، لاكتشفنا كيف تشكلت عناصر التغيير الحادث بشكل تدريجي الى أن أتت لحظة التغيير النوعي ، فيبدو الامر كما لو كانت مؤامرة كاملة ، يشارك فيها الجميع بوعى أو بدون وعى ، الامر الذى لا يوافق علية كاتب هذا المقال ، الامر الذى يستدعى التوقف عند تطور مواقف الأطراف المشاركة في هذا الصراع.

ولعلنا نحتاج أولا للتوقف امام التصورات السابق تقديمها في مقال سابق حول التغييرات التي تمت في اعقاب انتصار جبهة تحرير الشام ودخولهم لدمشق حيث كتبت

" وإذا كانت تجربه الاخوان المسلمين في مصر قد قدمت برهانا ساطعا على انعدام قدرة الاخوان على الحكم ، فالمأساة في سوريا ستكون أشد وانكى ، فالتيارات السياسية الاسلاموجية في سوريا هي اكثر تخلفا وعنفا من الاخوان المسلمين المصريين وستنتهى في المدى المنظور علاقة الدعم والمساندة من الحليف العثماني التركي نتيجة لاختلاف المصالح والتصورات لمستقبل المنطقة وللصراع الاثنى (عرب واكراد وارمن ....الخ) والاجتماعي داخل سوريا ، كما لن يحظى هذا النظام الجديد بدعم من أي من البلاد العربية او من الدول الغربية الرئيسة ، رغم ان كلا منها لن يتوقف عن محاولات الاحتواء ، وسيحتدم الصراع الاجتماعي الداخلي بأشكال عنيفة بعد أن تختفى حالة " الايفوريا " الحالية الناتجة عن سقوط نظام بوليسي وإرهابي وفاسد ، وستدخل سوريا في نفق أشد إظلاما من النفق الأسدي الذى أستمر خمسون عاما بين الاب والابن ، ولا يجب أن يتوقع أحد خروجا سريعا من الازمة الاجتماعية أو أن يتوقع الا تحتدم الحرب الاهلية من جديد ، كما لن تتوقف التدخلات الإسرائيلية ، التي كانت مستمرة منذ اندلاع الاضطرابات منذ ما يزيد عن عشرة أعوام ، بل ستتزايد وهو ما نراه أمام اعيننا الان بتدخل الطيران الإسرائيلي بقصفه لبعض المواقع المدنية السورية العائدة لأجهزة الدولة ، كما أحتلت إسرائيل مزيدا من الأراضي السورية الحدودية."

والفقرة السابقة تنتهى باستنتاج واضح قاطع حول الاحتمالات ، لكن منذ كتابه هذا المقال توفرت مواد صحفية واحاديث تليفزيونية وتحليلات سياسية ، سواء اكانت قديمة منذ عشرة سنوات أم بالغة الحداثة ، الامر الذى يستدعى مراجعة هذه الاستنتاجات في ارتباط وثيق مع تطور مواقف الأطراف المختلفة المؤثرة على مسار الاحداث ، مواقف جبهة تحرير الشام وحلفائها من الجماعات المسلحة الأخرى ، ومواقف القوى الدولية المشاركة في الصراع ، تركيا والولايات المتحدة وروسيا ، ومواقف

ومصالح المجموعات الاثنية والدينية السورية ، ومواقف النظام السوري الذى سقط وحلفائه ، أي حزب الله وإيران ، ثم أخيرا الموقف والسلوك العملي الإسرائيلي .

فجبهة تحرير الشام تغيرت تغيرا كبيرا منذ أن تأسست باسم جبهة النصرة التابعة لتنظيم القاعدة في العراق والذى تحول الى تنظيم القاعدة في العراق والشام بقيادة الزرقاوي ، هذه القاعدة التي تحولت الى " داعش " عندما دب الخلاف مع القاعدة بقيادة أيمن الظواهري ، فرفضت جبهة النصرة سيطرة " داعش " وأعلنت ولائها للقاعدة ، ولكن مثل هذا الخلاف لم يترتب علية اختلاف في أساليبها ، حيث قامت بالكثير من عمليات الاغتيال ووضع العبوات الناسفة في المدن ومهاجمة العلويين والدروز والمسيحيين والشيعة ، والقيام بعمليات اعدام للمدنيين ومهاجمة الفصائل المسلحة الأخرى ، لقد اسفر تطور الصراع عن تزايد نفوذ جبهة النصرة وسط الفصائل المسلحة المعارضة للنظام لكن هذا التصاعد في الاعمال المسلحة لكل الفصائل الإسلامية المتطرفة أثار قلق كل القوى الدولية والإقليمية ، خصوصا مع انهيار قوى النظام السوري ، وتزايد مساهمة حزب الله وإيران في دعم النظام السوري (انظر الخريطة التفاعلية التي توضح تطور سيطرة القوى المختلفة على الأراضي السورية).

وبرغم ذلك فإن سيطرة تنظيم داعش على الأراضي السورية توسعت توسعا كبيرا انطلاقا من الحدود العراقية ، بعد سيطرتها على الشمال الغربي العراقي المحيط والشامل لمدينة الموصل سنة 2014 ، الامر الذى دفع القوى الإقليمية والدولية للتدخل العسكري ، فتدخلت روسيا ثم الولايات المتحدة وساهمت بعض البلاد العربية في عمليات القذف الجوي ، الامر الذى أسفر عن تقلص الأراضي التي تسيطر عليها خصوصا بعد انهيار سيطرتها على شمال غرب العراق ، لقد ترتب على ذلك ، أيضا ، انحسار المناطق التي تسيطر عليها جبهة النصرة التي غيرت من اسمها وأعلنت فك علاقتها مع تنظيم القاعدة.

لقد أدركت جبهة تحرير الشام (النصرة سابقا) ضرورة تغيير خطابها السياسي وموقفها من القوى الاثنية السورية المختلفة ومن القوى الدولية والإقليمية المشتركة في الصراع الدائر ، الامر الذى تم بشكل تدريجي وأتاح لها استمرار السيطرة على منطقة ادلب حتى الحدود التركية ، الامر الذى توضحه الاحاديث التليفزيونية لأبو محمد الجولانى عبر العديد من السنوات ، هذا التغيير الذى أتاح لها موارد مالية يعتد بها ، فللمرة الأولى يتوفر بديلا محليا ، في تقدير الدول الأجنبية وبالذات تركيا ، بديلا يمكن دعمة لأسقاط النظام السوري دون ان يترتب على ذلك عواقب وخيمة ، كما يعتقدون ، فشكلت موارد الجمارك والتجارة مع تركيا موردا ماليا كبيرا يعتد به ، وساهم ذلك مع فشل الاعتماد على الجيش السوري الحر (المنشق عن الجيش السوري الرسمي) ، في النجاح في ضم والسيطرة على فصائل مسلحة أخرى كانت تعانى من هجمات القوى الدولية والإقليمية وحلفاء النظام السوري (ايران وحزب الله) ، رغم تقلص المساحات التي تسيطر عليها (راجع الخريطة التفاعلية) ، ويزداد الامر وضوحا إذا تتبعنا أوضاع القوات التي تبين بجلاء واضح ان منطقة نفوذها في شمال غرب سوريا (ادلب)، السابقة عن التطورات الأخيرة ، تحميها القوات التركية (راجع الخريطة رقم 1) .

وقبل اختبار حقيقة التغييرات في السلوك السياسي والمعتقدات الفكرية لجبهة تحرير الشام لابد أولا من التوقف حول مصالح وسياسات القوى المحلية والإقليمية والدولية وموقعها على الأراضي السورية،

توقف لابد منه لتوضيح احتمالات تطور الصراع ومدى استجابة القوى المختلفة لهذا التطور، ومنها بالطبع وفى النهاية تغير سلوك الجبهة.

فتركيا تحتل شريطا حدوديا وتدعم جبهة تحرير الشام وتوفر لها موارد مالية كبيرة عن طريق الجمارك من المعبر الحدودي ، باب الهوى ، كما تناهض نشاط الاكراد السوريين الذى يبحثون عن حقوقهم القومية ويتعاونون مع أكراد العراق وتركيا ، ولا يغيب أن بدايات الخلاف السوري التركي كانت حول النشاط الكردي بقيادة عبد الله اوجلان ، التركي الجنسية ، من داخل المناطق الكردية السورية ، خصوصا مع تراجع تركيا الاردوغانية عن الاستجابة الجزئية لمطالب الاكراد واستمرار نضال الاكراد في تركيا ، المدني والإرهابي ، ضد السلطات التركية ، وكان من المنطقي أن تنزعج تركيا انزعاجا كبيرا من تقدم داعش وامثالها من التنظيمات الإرهابية المسلحة ، صاحبة البرنامج المتجاوز للقوميات ، وفشل جهودها في تدعيم الجيش السوري الحر الذى انهار سريعا تحت ضغط الجماعات المسلحة ، وكان من المنطقي أن تبحث عن حلفاء محليين ، الامر الذى توفر في جبهة تحرير الشام بعد تغيير خطابها السياسي.

إلا أن التدخل التركي لم يكن تدخلا وحيدا ، فكل القوى الدولية والإقليمية لم يكن من مصالحها انتصار داعش التي تقدمت مناطق نفوذها تقدما كبيرا (راجع الخريطة التفاعلية وتوقيتاتها) ، فانتصار القاعدة في الموصل وتقدمها في اتجاه بغداد كان يشكل تهديدا خطيرا على استمرار الاحتلال الأمريكي للعراق واحتمال انهيار نفوذها ، كما يشكل تهديدا خطيرا للدول العربية التي اتفق على تسميتها بالمعتدلة ، إذا انتصرت القاعدة في العراق ، وكان تقدم داعش في سوريا يضاعف من هذا التهديد لمصالح القوى الدولية والإقليمية ، فتدخلت ايران وحزب الله اللبناني دعما لحليف يناوئ النفوذ الأمريكي ويمثل القناة الخلفية لإمداد الحزب بالمدد الإيراني ، ثم أعقب ذلك التدخل الروسي الذى يبحث عن قدم في المياه الدافئة والمقاوم للتوسع الغربي في المنطقة وفى الشرق الأوربي ، كما تدخلت بعض الدول العربية بأعمال عسكرية محدودة ، ثم تدخلت الولايات المتحدة في الغرب والشمال وتدخل محدود في الجنوب ، مقدمة تبريرا في حماية الأقليات وبالذات الأقلية الكردية التي تعرضت لضغوط مزدوجة من تركيا ومن داعش (9% من الإسكان) ، لقد أمن التدخل الأمريكي استمرار نفوذها في العراق ، بعد هزيمة القاعدة في الموصل وانهيار علاقتها مع داعش ، لذلك كان من الضروري هزيمة داعش لتأمين العراق ، وترتب على ذلك توسع المنطقة التي تخضع للنفوذ الكردي والمئات من اسرى داعش وعائلاتهم ، لقد أسفر الامر على خضوع كل الغرب السوري للأكراد وتم تأمين العراق (راجع الخريطة رقم 2)

والغريب أن القيادة الرسمية السورية لم تدرك عمق الازمة الاجتماعية والخطر الداهم من المنظمات الإرهابية المتأسلمة التي هددت دمشق نفسها، فاستمرت في نفس سياساتها السابقة معتمدة على التدخل الدولي والإقليمي من روسيا وإيران وحزب الله وتضارب المصالح بين داعش والنصرة والأتراك، فاستمر انهيار الجيش السوري وأصبح الاعتماد على القوى الأجنبية السبيل الوحيد للبقاء.

لقد اسفر تطور الصراع المسلح عن تقسيم مناطق النفوذ كما توضحها الخريطة رقم 2، حيث انهارت داعش وتركزت جبهة النصرة في أدلب وخضع الغرب لسيطرة الاكراد مدعوما بالولايات المتحدة،

وتركزت القوات الروسية في قواعدها على البحر المتوسط وتراوحت مناطق تمركز قوات حزب الله مدعومة بالمساندة الإيرانية حسب مقتضيات الصراع المسلح ولكن بتركز خاص جنوب دمشق وغربها كي تؤمن مناطق نفوذ حزب الله في الجنوب اللبناني.

لقد أدركت جبهة النصرة عمق الازمة التي تعانى منها ، فلقد تسبب تطور الصراع في عزلتها في جيب جغرافي محدود الاتساع تحيط به القوات التركية من الشمال والغرب والقوات الموالية للدولة في باقي الاتجاهات ،وعزلتها عن القاعدة في العراق التي تعرضت للهزيمة ، فادركت حتمية تغيير خطابها السياسي وسلوكها العملي سبيلا وحيد للبقاء ، خصوصا مع تصاعد القلق الاثنى والديني داخل المكونات الشعبية السورية من سياساتها وارتباطاتها مع القاعدة ، فالمجتمع السوري يشكل فيه السنة العرب 63% و الاكراد 9% و المسيحيون العرب 10% و الدروز 3% والعلويين العرب 12% ، فغيرت أسمها وأعلنت فك الارتباط مع القاعدة (بموافقة الظواهري) وأعلنت ان مهمتها إقليمية فقط داخل سوريا وغيرت مواقفها المعلنة من الأقليات الاثنية والدينية السورية ، الامر الذى مكنها من الحصول على التأييد التركي والحصول على موارد مالية كبيرة وتخفيف الضغوط العسكرية نتيجة تركيز القوى الأخرى على المنظمات الأكثر خطورة ، فتحولت منطقتها لمركز لجوء وحماية للفصائل العسكرية الإرهابية والمتطرفة المنهزمة ، فتعاظمت قوتها.

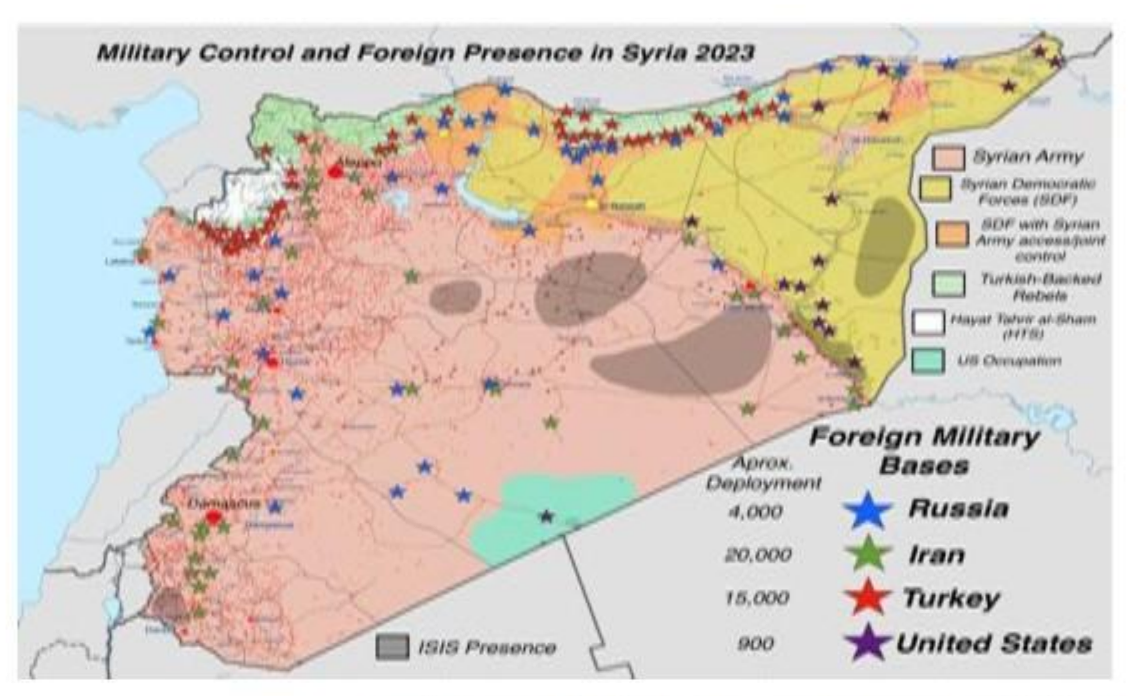
لقد تواكب مع هذا التطور تغييرات دولية وإقليمية ، فروسيا انهمكت في الصراع من اجل تأمين حدودها الغربية في مواجهة احتمالات توسع حلف الناتو في أوكرانيا ودفاعا عن استمرار وصولها الى المياه الدافئة عن طريق استمرار سيطرتها على جزيرة القرم ، فاشتبكت في صراع مسلح ما زال دائرا حتى الان ، وفكر حزب الله وقدر وكانت تقديراته خاطئة في أن المواجهة الأساسية في غزة وليس في سوريا ولبنان ، فتعرض لضربات كبيرة ومؤثرة من إسرائيل ، وبرغم ذلك يحتفل بالنصر مفترضا أن هدف إسرائيل كان تحطيم الحزب واحتلال جنوب لبنان وصولا لنهر الليطاني على الأقل ، في حين كان الهدف الإسرائيلي تأمين الشمال والاستمرار في تصفية حماس ، فسحب الحزب قواته من لبنان ، فحققت إسرائيل ما تريد بدعم أمريكي قاطع وواضح ، وخلقت منطقة عازلة في الجنوب اللبناني ، وتهيأت الشروط لتقدم جبهة تحرير الشام في مواجهة جيش منهار وفاقدا للرغبة في القتال ولا يتوفر له دعم ملائم من حلفاء النظام الأسدي ، فوصلت الى دمشق خلال أيام وهرب الرئيس.

وبرغم الدعم التركي والخطاب الحذر من جبهة تحرير الشام التي أعلنت تمسكها باتفاقيات الفصل من القوات وعدم معارضتها للوجود الأمريكي في سوريا، ما عدا مطالبتها بان يكون في شكل اتفاقا قانونيا، فإنها لم تحظ بالاطمئنان من الحلف الإسرائيلي الأمريكي، فتقدمت القوات الإسرائيلية لخلق منطقة عازلة وحطمت أسلحة الجيش السوري المتروكة.

لقد استعرضت أهم ملامح الصراع على الأرض السورية لتوضيح مواقف واهداف القوى المحلية والإقليمية والدولية المشاركة فيه ، وتطور مواقفها عبر تاريخ الصراع ، نافيا الفهم التأمري في الميلودراما السورية ، لذلك يجب مراقبة التوجهات الجديدة نسبيا لجبهة تحرير الشام ، فالجبهة تواصل تغيير الواقع السوري بالعديد من الإجراءات ترسخ فيها سلطتها ، بالتعيينات الجديدة وحل كل الميلشيات

المسلحة وإلغاء التجنيد الإجباري بحيث تصبح هي القوة الوحيدة المسلحة وتطلق العديد من الوعود وتحاول طمأنة التجمعات الدينية والاثنية السورية ، مدركه ضرورات دعايتها وحدود قدراتها على المناورة ، لكن هل حقا لدينا جبهة لتحرير الشام مختلفة عن جبهة النصرة في توجهاتها ، وهل تنجح المناورات السياسية الحالية في تجنب الصدام مع القوى الإقليمية والدولية وتحظى بتأييد الشعب السوري بعد انتهاء حالة الايفوريا الحالية ، وقبل ذلك هل تنجح في الحفاظ على وحدتها ودمجها للفصائل المسلحة الأخرى ؟ اشك كثيرا في ذلك فماضيها والمعتقدات التي تأسست عليها ستشكل عائقا كبيرا ليس فقط أمام وحدتها، بل أيضا للحصول على تأييد الشعب السوري، فالمهام الكبيرة التي يجب مواجهتها تتطلب مواجهة النفوذ الأجنبي والدفاع عن الاستقلال الوطني وتحرير الاراض السورية المحتلة وتبنى سياسات اجتماعية مختلفة، مهام لا تستطيع أن يفهمها مثل هذا النوع من التنظيمات المنبثقة من الماضي المظلم، الامر الذي يؤكده التغييرات التي أدخلتها والتي ستتعاظم مع الوقت لتشكل مظاهر جديدة للازمة الاجتماعية المحتدمة.

قلوبنا مع الشعب السوري فلقد انتقلت الازمة الاجتماعية الى وضع جديد سيكون مليئا بالآلام.

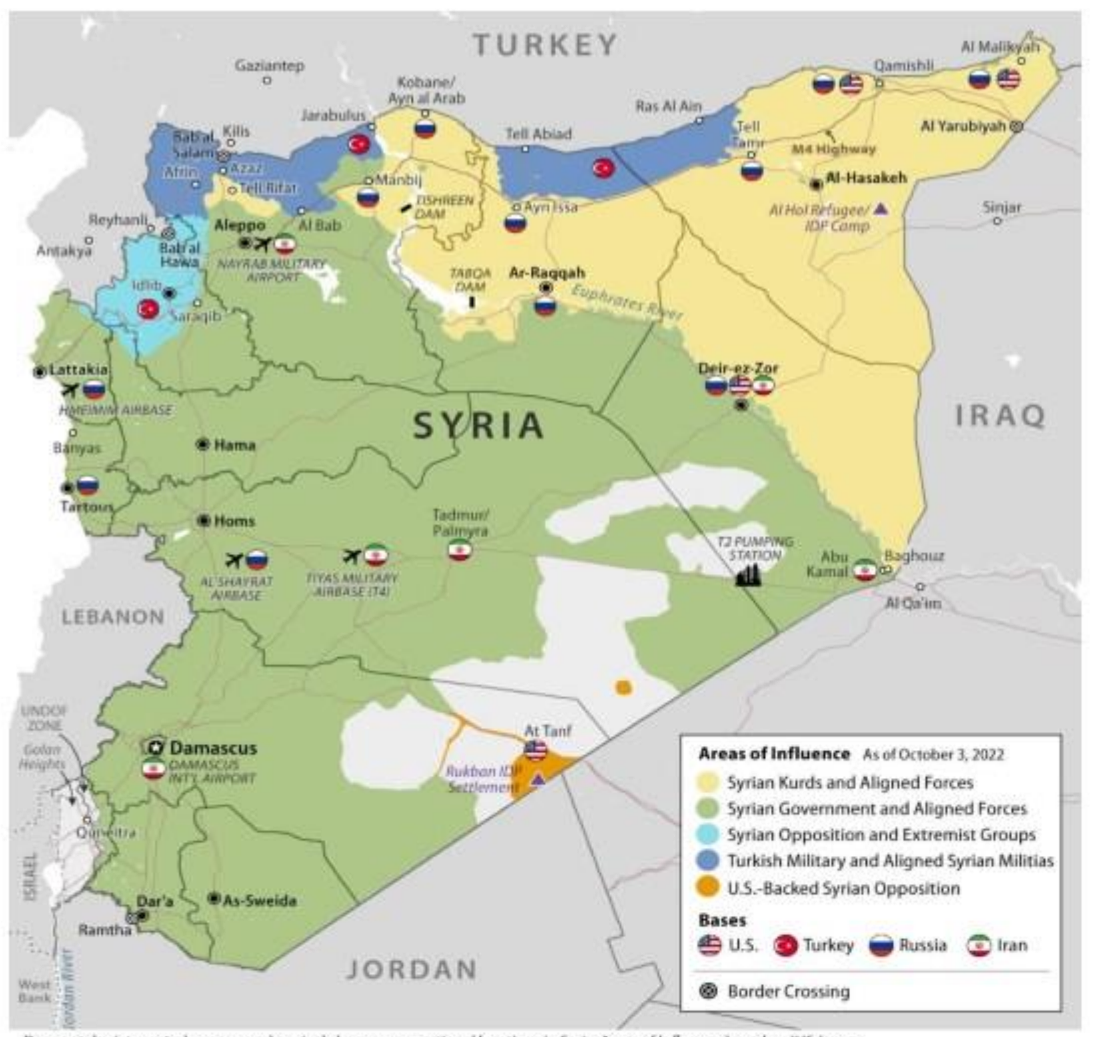


خريطة رقم (1) – توزيع القوات ومناطق السيطرة قبل الاحداث الأخيرة

(الأصفر – مناطق تحت السيطرة الكردية) - (البنى المحمر – مناطق تحت سيطرة القوات الحكومية وحلفائها)

(الأبيض – جبهة تحرير الشام) - (الأخضر (اقصى الشمال) – المناطق العازلة التركية)

(التركواز (اقصى الجنوب) – تحت السيطرة الامريكية) - (البنى الغامق – بقايا داعش)



Does not depict precisely or comprehensively bases or operational locations in Syria. Areas of Influence based on IHS Janes Conflict Monitor data. Lead Inspector General reporting from July 2022, cites DOD and independent analysts in describing the eastern Euphrates River valley and several transit corridors in rural eastern Syria as 'ISIS Support Zones.' Names and boundary representation are not necessarily authoritative. UNDOF = United Nations Disengagement Observer Force. The United States recognized the Golan Heights as part of Israel in 2019. U.N. Security Council Resolution 497, adopted on December 17, 1981, held that the area of the Golan Heights controlled by Israel's military is occupied territory belonging to Syria.



خريطة رقم (2) – مناطق النفوذ

(الأخضر – القوات اموالية لحكومة الأسد) - (الأزرق – المنطقة العازلة التركية) - (التركواز – جبهة تحرير الشام) -

(الأصفر – المنطقة الكردية) - (البرتقالى – الولايات المتحدة وانصارها)

التاريخ بين الوثائق والانحياز

مشكلة كبرى تواجهه من يكتب في التاريخ، سواء اكان متخصصا أم هاوى، وما اسهل الهواية بين المثقفين، وتزداد المشكلة إذا كانت الكتابة ممن كان مساهما في الاحداث، فمن الممكن أن يتأثر ما يكتبه بوجهة نظرة الشخصية، مشكلة كبرى ان من يريد ان يكتب علية ان يحدد لماذا يكتب ولمن، هل يكتب مذكراته الشخصية أم يكتب كي يقدم رؤية شاملة لمرحلة كان مساهما فيها ، وتزداد المشكلة تعقيدا إذا كانت هذه الكتابة مقرونة بنشر وثائق ، فما هي الوثائق التي سيتم اختيارها للنشر ؟ خصوصا إذا كان حجم الوثائق كبيرا.

لذلك فإن التحديد الأولى مطلوب وبشدة، دون أي أدعاء أو محاولة لإخفاء الوجه، فإذا كنت تكتب لكى تعبر عن وجه نظرك، فانت وشانك ، تكتب ما تريد وكيفا تريد ولمن تريد وتستعين بما تختاره من الوثائق ، ويصبح ما تكتبه خاضع للنقد والتمحيص والمراجعة من الاخرين ، أما إذا كنت تكتب مدعيا انك تقدم التاريخ محايدا فمن المؤكد انك واهما ، فلا يوجد حياد في الرؤية التاريخية ، فانت تحقق الوثائق وتختار منها وهذا في حد ذاته موقفا من احداث الزمان الذى تتحدث عنة ، فعليك أن تتحلى بشجاعة الاعتراف انك تقدم رؤية مدعومة بما اخترته من وثائق لكن عليك ان تتحمل النقد والتمحيص والمراجعة .

اليس كذلك!

مشايخ و ....مشايخ

يبدو الأمر وكأنه لغزا برغم تكراره في مجالات مختلفة وفى عصور مختلفة، الأمر الذي يستدعى التانئ والروية والصبر لمحاولة الفهم وعدم القفز إلى الاستنتاجات والمقولات الجاهزة.

فالعلاقة بين البنية الفوقية، أي المعتقدات الاجتماعية والثقافية وحتى الدينية وتعبيراتها مع البنية التحتية، إى علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، أكثر تعقيدا من كونها انعكاسا ميكانيكيا رغم وجود علاقات يمكننا أن نسميها بالعلاقات الجدلية.

فكثيرا ما نقع فريسة لمقولات الاختزال المريحة والضارة جدا، حين يتم الربط بين تيارات سياسية أو دينية وبين طبقات اجتماعية بعينها في لحظة معينة من تاريخ تطورها، وكأننا نتبنى مقولات نهاية التاريخ التي تخلى عنها أصحابها سريعا، وان كان المنطق الذي قاد اليها مازال سائدا لدى الكثير من المفكرين والتيارات السياسية والثقافية.

ويبدو أن " التحليل الملموس للواقع الملموس " قد اختفى وسط هيولي المقولات، الأمر الذي اضر ضررا بليغا بالإنتاج الفكري والثقافي، وغابت النظرة النقدية التحليلية، واصبح أصحابها فريسة للانتقاد ليس انتقالا من نظرة تحليلية نقدية تصل إلى استنتاجات مختلفة، بل انطلاقا من "المقولات " التي أعيت الجميع بما فيهم أصحابها انفسهم، فلم يعد يسمع لهم احد.

لقد اثأر هذا التعليق مقال لاحد الكتاب السياسيين نشر في جريدة الأهرام منذ خمسة سنوات وأعاد أحد الأصدقاء نشرة من جديد على موقعة، وبرغم انى لا ارغب في مناقشة المقال، ولكنى ارغب في لفت الانتباه فقط لضرورة بحث أسباب نشوء وانتشار تيارات الإسلام السياسي وعنفها بعيدا عن المقولات ونظريات المؤامرة والعمالة وغيرها من المقولات المريحة والتي بتبنيها نعجز عن تبنى الأساليب الملائمة لمواجهة هذا السرطان الذي ينهش جسدنا.

فلماذا نشأ تيارا تجديديا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر؟ لماذا ظهر تيار الأفغاني ومحمد عبدة وعبد الله النديم؟ وكيف تطور هذا التيار إلى كتابات الشيخ على عبد الرازق والقاضي الشرعي احمد أمين وكيف تجلى السلوك العملي الجديد في الشيخ صفوان أبو الفتح، وكيف ولماذا نشأ الإخوان المسلمون ولماذا استطاعت التوسع والتمدد؟ هل لان هيئة قناة السويس قد تبرعت لهم بخمسمائة جنية؟!

وبالقطع فان هذه الأسئلة تمتد إلى التغيرات اللاحقة إلى يومنا هذا، الأمر الذي يتطلب بحث الظاهرة من خارجها وداخلها، أي في علاقتها بالتغييرات الاجتماعية والسياسية والدولية بعيدا عن المقولات الجاهزة التي أعيت الجميع.

نعم أيها السادة نحن لدينا مشايخ ومشايخ فلنتروى قليلا ونبحث بجدية لعلنا نجد لنا مخرجا من هذا الكابوس المسمى بالإسلام السياسي أو الإرهابي، سمة ما شئت!!

سوريا والشام بين النار والرماد

هل انتهى الصراع داخل سوريا وحولها أم انتقل الى مرحلة جديدة؟ هل انتهى الصراع حول قلب العروبة النابض في دمشق ويبدأ التغيير في الشام الكبير؟ وما هي افاق التغييرات المنتظرة في لبنان والأردن وإسرائيل؟ أسئلة صعب الإجابة عليها وسط " ايفوريا " حماسة الاتجاهات الإسلامية التي تعالى صوتها وأمالها في امتداد الحالة السورية الى غيرها من بلدان المنطقة، حماسة امتدت الى بعض التوجهات الليبرالية التي لم تتعلم من تاريخها القريب في فيرمونت حين لم تدرك الفارق بين الطابع الاجتماعى للثورة الشعبية وبين التيارات الإسلامية المعادية لهذا الطابع الاجتماعي والتي تسلقت ورقصت على كل الحبال، ولا يخلو الامر من بعض من يعتقد انه يساري وهو لا يدرك انه ليبرالي مشوه رغم الرطانة اليسارية المملة.
قبل محاولة الإجابة على هذه الأسئلة الصعبة لابد من التوقف الديناميكي حول اللحظة الراهنة من الصراع الدائر داخل وحول الشام الكبير، ويبدو مثل هذا التعبير مخادعا، فكيف يجتمع التوقف والديناميكية؟ نعم يمكن تحقيق مثل هذا الجمع، هو أمر يعرفه جيدا أي هاوي للتصوير الفوتوغرافي، فعندما تكون سرعة العدسة سريعة تبدو الحركة كما لو كانت ثابتة، أما لو كانت سرعة الكاميرا بطيئة فتظهر الصورة الحركة في تعدد أوضاع الجسم المتحرك، أي أننا سنحاول رؤية الامر المتحرك بالعدسة البطيئة، وبلغة أهل السياسة ديالكتيك التغيير في اللحظة الراهنة.

فوسط غبار المعارك الدائرة في فلسطين ونشاط ما يسمى بجهات المساندة في لبنان واليمن، التي تحظى بالدعم الإيراني، بدا الامر كما لو كانت المعركة الرئيسية دائرة حول غزة في حين انها كانت في مكان أخر!، لقد كان التحضير يتم في قلب الشام، تحضير بالتسليح والتنظيم وتغيير الطابع المعلن للجماعات الجهادية، فيغير الإرهابي أبو محمد الجولانى، قائد تنظيم النصرة التي أصبحت جبهة تحرير الشام، أسمه ليستخدم أسمه الحقيقي " أحمد الشرع " ويهذب لحيته !، تحضير في انتظار اللحظة المناسبة والضوء الأخضر من تركيا الاردغانية.
فحلفاء النظام الرسمي السوري تتضاءل إمكانياتهم في مساندته، فروسيا تركز جهودها على صراعها الكبير مع الغرب حول وداخل أوكرانيا والبحر الأسود، وحزب الله ينجر الى معركة خاسرة مع إسرائيل، فيضطر الى سحب قواته من سوريا ويتعرض لخسائر جسيمة في قادته وبنيته التحتية ويضطر الى العودة الى أتفاق 2006 والقرار 1701، فلا تتحقق المساندة للقطاع ويفقد الإيرانيون الحليف الرئيسي داخل سوريا، والغريب انهم يتحدثون عن تحقيق النصر!، ولا يدرك النظام الأسدي السوري عمق ورطته واحتياجه الى جهود حلفائه للبقاء والاحتياج الملح للتغيير ، فالجيش السوري كان قد قارب على الانهيار في الشهور الأولى للأحداث ، الامر الذى يتكرر الان بدون مساندة حلفاءه ، فالجيش قد انهار وتوقفت مقاومته لتقدم تيارات الإسلام السياسي.
والان يبدو الامر وكأن تيارات الإسلام قد انتصرت في سوريا، لكن مثل هذا التصور لا يفتقد فقط عمق فهم هذه التيارات السياسية المسلحة، بل أيضا الى فهم الطبيعة الاجتماعية لسوريا والى دورها الاستراتيجي داخل الشام الكبير وفى المنطقة، فهذا النصر الحالي هو المقدمة لصراع كبير سيحتدم داخل سوريا وحولها، صراع سيحتدم وستشارك فيه القوى العظمى والإقليمية، فمازالت الولايات المتحدة وروسيا تمتلك قواعد وقوات فى سوريا وستبقى لزمن قادم، وما زالت تركيا تحتل أجزاء من شمال سوريا وتمتلك كذلك حق المنع والمنح .
فهذه التيارات السياسية الاسلاموجية تتحكم في توجهاتها أفكارا اجتماعية من القرون الوسطى لا تستطيع التخلص منها، حتى ولو استطاعت أبداء بعض المرونة التكتيكية المؤقتة، ولا تمتلك رؤية تستطيع قيادة مجتمع رأسمالي متخلف الى تجاوز هذا التخلف الى رأسمالية حديثة، رأسمالية حديثة لا يمكن تحقيقها إلا بالتخلص من النفوذ الاستعماري بالاستناد الى حكم شعبي ديمقراطي حقيقي لن تمثل هذه المرحلة سوى مرحلة انتقالية ليست بالضرورة إجبارية.
وإذا كانت تجربه الاخوان المسلمين في مصر قد قدمت برهانا ساطعا على انعدام قدرة الاخوان على الحكم ، فالمأساة في سوريا ستكون أشد وانكى ، فالتيارات السياسية الاسلاموجية في سوريا هي اكثر تخلفا وعنفا من الاخوان المسلمين المصريون وستنتهى في المدى المنظور علاقة الدعم والمساندة من الحليف العثماني التركي نتيجة لاختلاف المصالح والتصورات لمستقبل المنطقة وللصراع الاثنى والاجتماعي داخل سوريا ، كما لن يحظى هذا النظام الجديد بدعم من أي من البلاد العربية او من الدول الغربية الرئيسة ، رغم ان كلا منها لن يتوقف عن محاولات الاحتواء ، وسيحتدم الصراع الاجتماعي الداخلي بأشكال عنيفة بعد أن تختفى حالة " الايفوريا " الحالية الناتجة عن سقوط نظام بوليسي وإرهابي وفاسد ، وستدخل سوريا في نفق أشد إظلاما من النفق

الأسدي الذى أستمر خمسون عاما بين الاب والابن ، ولا يجب أن يتوقع أحد خروجا سريعا من الازمة الاجتماعية أو أن يتوقع الا تحتدم الحرب الاهلية من جديد ، كما لن تتوقف التدخلات الإسرائيلية ، التي كانت مستمرة منذ اندلاع الاضطرابات منذ ما يزيد عن عشرة أعوام ، بل ستتزايد وهو ما نراه أمام اعيننا الان بتدخل الطيران الإسرائيلي بقصفه لبعض المواقع المدنية السورية العائدة لأجهزة الدولة ، كما أحتلت إسرائيل مزيدا من الأراضي السورية الحدودية.
ومن المؤكد أن حلفاء النظام السوري في لبنان سيتعرضون لضغوط متزايدة، فلقد فقد حزب الله حليفا هاما وتعرض لهزيمة عسكرية وسياسية كبيرة، رغم صيحات الانتصار التي تحاول الحفاظ على الروح المعنوية، فوحدة الجبهات المساندة قد تحطمت وسينعم الشمال الإسرائيلي بالهدوء لفترة ممتدة، ولن تتوقف حرب الإبادة الجارية على قدم وساق في غزة، وستتزايد الصيحات الداخلية اللبنانية لتدجين حزب الله ونزع سلاحه.
يبقى الإشارة ان الشأن السوري ليس شانا داخليا، بل يتعلق بمصير المنطقة وليس بالشام الكبير فقط، وان التغييرات الداخلية في الشام وثيقة الصلة بالأمن القومي المصري، الامر الذي يستدعى اتباع سياسات اجتماعية وسياسية تراعى تزايد الضغوط الدولية والإقليمية، ولكنها قصة طويلة أخرى، اليس كذلك!
فما أصعب النار وما أخطر رمادها.

كيف ترى الولايات المتحدة التغييرات في السياسة المصرية (نشر عام 2019)

المقال من موقع صحفي أمريكي
" ترجمت هذا المقال ونشرته في بوست منفصل منذ عام كامل وهو يحتاج الى اعادة نشرة من جديد بمناسبة التهديد الاخير للولايات المتحدة بفرض عقوبات على مصر اذا نفذت صفقة السوخوى - خالد "
يحدث تقارب بين مصر وروسيا و فى هذه الاثناء فان العلاقات الأمريكية مع مصر مازالت تراوح مكانها مع بقاء بعض المناصب الدبلوماسية خالية (السفير – المترجم).
ومع بداية الرئيس المصري عبد الفتاح ولايته الثانية، فإن فصلا جديدا فى العلاقات المصرية الروسية. يتم كتابته. نتيجة خيبة الأمل إزاء السياسة الامريكية فأن القاهرة قد عززت روابطها مع موسكو.
ان مسار جديد ينبع من عدم التدخل الأمريكي القوى، قد ترك الباب مفتوحا بالنسبة لروسيا ان تشق طريقها على حساب واشنطن.
فى الشهر الماضي, وقعت مصر وروسيا اتفاقا لمدة 50 عاما فى موسكو لإنشاء منطقة صناعية روسية ، فى منطقة قناة السويس للتنمية الاقتصادية ، المشروع الذى بدأه اصلا السيسي فى عام 2014 . وتأمل مصر أن المشروع الذى وقع خلال الاجتماع الحادي عشر للجنة المشتركة

المصرية الروسية، أن يجذب ما يصل الى 70 مليار دولار من الاستثمارات وخلق 35 ألف فرصة عمل. وتأمل روسيا فى استخدامه لتصنيع مجموعة واسعة من السلع بما فى ذلك الشاحنات الثقيلة والمحركات. وبالنسبة لموسكو التى تواجه استمرار عقوبات الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي، فان المشروع سوف يوفر نقطة وصول السلع المصدرة للأسواق الخارجية وخاصة فى الشرق الاوسط، وافريقيا، وامريكا اللاتينية
ان هذا الاتفاق ليس اول علامة لتعميق العلاقات بين مصر وروسيا.، ففي ثاني زيارة لبوتين للقاهرة منذ توليه عبد الفتاح السيسي السلطة فى كانون الأول/ديسمبر الماضي، فإنه رأس التوقيع على محطة الطاقة النووية، الصفقة التي تشمل قرضا قيمته 25 مليار دولار من موسكو، مع أربعة مفاعلات خمسة غيغاواط من المقرر استكمالها بحلول عام 2029 طبقا لروساتوم المملوكة للدولة الروسية.
وفى ابريل, استأنفت موسكو ايضا الرحلات المدنية الى مصر بعد تفجير الدولة الاسلامية لطائرة روسية فى عام 2015 مما أدى الى مقتل 224 شخصا، و لذلك توقف تدفق السياح الروس الى مصر برحلات مباشرة من روسيا الى المنتجعات السياحية فى الغردقة وشرم الشيخ, فإنها لم تستأنف بعد . ولكن بعد المحادثات فى 14 ايار/مايو مع نظيره المصري سامح شكري، ، قال وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف أن استمرار التعاون الوثيق مع مصر حول القضايا الامنية سيسهل استئناف الروابط الجوية المباشرة الى منتجعات البحر الاحمر.
وهذه التطورات تعبر عن اتجاه الاحترار العام في العلاقة بين القاهرة وموسكو التي قد تعمقت خلال السنوات القليلة الماضية، فالصادرات المصرية إلى روسيا تزايدت بنسبة 26 فى المائة فى عام 2017 لتصل الى رقم قياسي مقداره 3.8 مليار دولار ولذلك فان مجلس الأعمال Russia-Egyptian **يأمل أن يزيد حجم التجارة الثنائية من 6 بليون دولار الى 10 بليون دولار فى عام 2018. وفى قطاع الطاقة، فان عملاق النفط الروسي, روسنيفت تشتري 30 بالمائة من حصة الشريك الأجنبي فى حقل ظهر بقيمة 1.125 مليار دولار لتصبح لاعبا اساسيا فى تطوير احد اكبر احتياطي الغاز فى البحر الابيض المتوسط. وعلاوة على ذلك، فإن روسنيفت وفليت للطاقة توقعان اتفاقا اطاريا فى اواخر ايار/مايو لتوفير امدادات الغاز الى مصر**
منذ عام 2014 فان مصر تتحول بصورة متزايدة إلى روسيا لمبيعات الأسلحة. قرارا كان فى البداية بسبب "خيبة أمل السيسي مع واشنطن بعد ازالة نظام الرئيس محمد مرسى الإسلامي فى عام 2013 عندما توقفت ادارة اوباما عن تسليم الأسلحة التى سبق التعاقد عليها و منها المقاتلة من طراز إف-16 والهليكوبتر ايه اتش-64 أباتشي، وإلغاء مناورات عسكرية مشتركة بين القوات المسلحة المصرية والأمريكية.
بدء السيسي وبوتين فى التحدث. وخيبة الأمل لم تنته مع انتهاء ولاية اوباما. رغم ما يبدو من دفء العلاقات الشخصية بين السيسي و الرئيس دونالد ترامب، ففي أغسطس 2017 قررت ادارة ترامب شرط المساعدات الاقتصادية والعسكرية للقاهرة على سجل حقوق الإنسان والديمقراطية وسيادة القانون. بذلك كخلفية، صعدت روسيا لملء الفراغ، مع عدد من صفقات

الاسلحة بمليارات الدولارات وقعت أثناء رئاسة السيسي، 50 مقاتلة من طراز ميج-29 تم شراؤها فى عام 2014 والتسليم بدأت أواخر العام الماضي و شراء 46 من النسخة البحرية كاموف كا-52 التمساح لاستخدامها مع حاملات الطائرات الهليكوبتر الفرنسية التي كانت القاهرة قد اشترتها من باريس فى سبتمبر 2015. (فرنسا بنت السفينتين اصلا لروسيا، ولكنه الغى البيع بعد ضم موسكو للقرم).

هذه التطورات العسكرية تتجاوز مبيعات الأسلحة، مع تزايد التعاون الاستراتيجي. ففي نوفمبر 2017, وقع البلدان اتفاقا خلال زيارة قام بها وزير دفاع روسيا الى القاهرة يتيح الاستخدام المشترك للمجال الجوي والقواعد العسكرية لكل منهما. فى صفقة مدتها خمس سنوات يمكن تمديدها اذا وافق الطرفان على ذلك والتي اثارت ضجة كبيرة فى واشنطن. اذا ما نفذت، فإنها تعزز الوجود العسكري الروسي فى الشرق الاوسط وانشاء نقطة انطلاق محتملة اوسع للعمليات الروسية فى شمال افريقيا.

لقد عقد جيشي البلدين عدة تدريبات مشتركة فى تلك الفترة، ففي عام 2015, قامت روسيا ومصر تدريبات بحرية مشتركة قبالة سواحل البحر الأبيض المتوسط فى مواجهة ميناء الاسكندرية المصري وفى عام 2016 شاركت قوات المظليين المصرية والروسية فى تدريبات عسكرية مشتركة بعنوان "المدافعين عن الصداقة " وهو الأول من نوعه فى افريقيا وتبعتها تدريبات مماثلة فى روسيا فى عام 2017. وتستضيف مصر القوات الروسية مرة اخرى فى عام 2018, طبقا لوزارة الدفاع الروسية

واخيرا مصر وروسيا تتشاطر وجهات نظر مشتركة حول القضايا الإقليمية. ففي حال سوريا، كان البلدان يدعون الى الحفاظ على السلامة الإقليمية البلد وأمنه الوطني. وفى تشرين الاول/اكتوبر 2017, تشارك البلدان فى ضمان وقف إطلاق النار الذي تم التوصل اليه فى جنوب دمشق. وفى ليبيا فان البلدين يدعمان الجيش الوطني الليبي الذى يقوده خليفة حفتر، القائد العسكري الذى يسيطر على شرق ليبيا. وبالإضافة الى ذلك، فان تعامل روسيا مع الأجواء الجوية المصرية يجعلها أقرب الى الليبيين ويزيد من احتمال زيادة مشاركة عسكرية روسية.

ومع انتخاب الرئيس دونالد ترامب، فلقد أمل السيسي فى تحسين العلاقات مع واشنطن من اجل الحفاظ على استقرار البلد فى مواجهة التحديات الاقتصادية التي تواجهها. ومن الواضح ان ذلك لم يتحقق بعد. فان الاحتفاظ بدفء فى العلاقات مع المنافس الجيوسياسي للولايات المتحدة، لعبة مصر على دراية تامة بها و ينبغي للإدارة ان تمضى بعناية وبدون انحياز عاطفي

ولكن بالنظر الى الوضع المتدهور فى الشرق الاوسط الكبير واندفاع روسيا لاستغلالها لتقوية نفسها بوصفها صاحبة مصلحة فى المنطقة، فلا يوجد أى مبرر لأن تقف الولايات المتحدة موقف المراقب سلبا. ينبغي لإدارة ترمب ان تتوسع فى الاشتباك مع المصريين لمعالجة المخاوف المستمرة ومحاولة تحقيق تقدم فى علاقاتها مع مصر حيثما أمكن ذلك وعلى مجلس الشيوخ ترشيح ديفيد شينكر كمساعد لوزير الخارجية لشئون الشرق الادنى, و يجب على ادارة ترامب ترشيح السفير الأمريكي لدى مصر فى

أقرب وقت ممكن. فبدون موهبة دبلوماسية على الأرض فإن واشنطن تخاطر بالتخلي عن تأثيرها فى المنطقة دون أدنى مقاومة

السحر والكتابة

هل الكتابة هي ضرب من السحر؟ بالقطع هي ضرب من السحر، فالسحر في عرف المعتقدات البشرية القديمة، بل والحديثة هو خلق الشيء من لا شيء ،فهكذا يبدو الامر لمن لا يمارس السحر، اقصد الكتابة، لكنه سحر إخراج النفس البشرية مكتوبا للقارئ الذي كثيرا ما تصيبه المفاجأة، مفاجئة إدراك الغير مدرك والذى يبدو كما لو كان سحرا، ولكنه في حقيقته ليس سحرا بل هو تراكم الاحاسيس والمعارف والخيال الذى يعمل في النفس البشرية فيخلق هذا السحر الخلاب، الكتابة.

لذلك فالكتابة إذا كانت لا تعبر عن هذا الخليط الساحر لن تلفت انتباه القارئ ولن يعتبرها سحرا، فالسحر هو الصدق في التعبير عن مكنونات النفس البشرية، مكنونات يشكلها هذا السديم من الادب والفن والتاريخ والعلوم واساطير الأوليين، بل والسياسة، وهي تنصهر في هذا الاتون كي تخرج إلينا في هيئتها السحرية، في الكتابة.

لذلك فلقد أدرك أجدادنا القدماء هذه الحقائق، فرب الحكمة هو تحوت وهو أيضا رب الكتابة وهو رسول رع كبير الالهة، وهو لا يعمل وحيدا فمعه " ماعت " ربه العدل والصدق والحقيقة، وكلاهما يجلسان على مركبه رع وهي تعبر السماء ناثرة الخير والنماء على الوادي الخصيب، فيالة من خيال خلاب يجمع العدل والحكمة والكتابة كي يخلق لنا هذا السحر في الادب المصري القديم، في الكتابة على جدران المعابد.

فما أسهل السحر وما أصعبه!

اقتسام وإعادة اقتسام العالم والدور المحوري لمصر

لا يمكن الحديث عن تطوير و تحديث و عصرنة و بلادنا إلا بعلاقتها بالدور المحوري لبلادنا في منطقتنا، ومجالها الحيوي القريب و البعيد، الذي سيؤثر، بلا جدال، على مصالح الدول العظمى العالمية وصراعاتها لإعادة اقتسام العالم ، هذه العملية الدائمة الديمومة نتيجة لديمومة تغيير الأوزان النسبية لهذه القوى.

ان تاريخ بلادنا الحديث منذ عهد محمد على وحتى الآن يتمحور، بشكل أساسي، حول الدور المحوري المطلوب من هذه الدولة المحورية في مجالها الحيوي القريب والبعيد، من قبل الدول العظمى المتصارعة، وبالرغم من أهمية السيطرة على السوق المصرية، إلا أنه لم يكن ابدا العامل الحاسم في سياسات الدول العظمى حول بلادنا.

حدث ذلك في عهد محمد على ومشروعه النهضوي التوسعي وتكرر في عهد الخديوي إسماعيل ثم تكرر بعد ذلك في عهد جمال عبد الناصر وما اعقبه.

ولو توقفنا قليلا عند الزمن الناصري وتتبعنا تطورات العلاقة مع الدول العظمى الرئيسية، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لاكتشفنا ذلك بجلاء واضح عبر تطور هذه العلاقات في علاقتها بقدرة النظام الناصري على التملص من محاولات السيطرة في التحكم في دورة مع تعاظم إمكانياته الذاتية.

هل يمكن التخيل ان المساعدات الامريكية لم تنقطع عن مصر الا في عام 1963؟

لقد كنت أتابع التطورات في سياسات مصر الخارجية منذ 30 يونيو 2013 لتقدير هل نحن نتعامل مع توجهات جديدة أم هي استمرار للسياسات القديمة التي استقرت في الزمن المباركي؟

لقد تراكمت عبر السنوات القلية الماضية، وحتى الان، تغييرات في السياسة المصرية، تدفعنا للتوقف عندها، لمحاولة الوصول لفهم أعمق لمغزاها وحدودها وآفاقها.

لقد حدثت تغييرات واضحة في سياسة التسليح ، فبدلا من الاعتماد الكامل على مصدر وحيد للتسليح الحديث ، الولايات المتحدة ، مع بقاء العلاقة مع روسيا في حدود صيانة وتحديث المعدات السوفيتية المتقادمة ، و الذى كان يعرضنا لضغوطات كبيرة ومباشرة شديدة الفجاجة والوقاحة ، تغيرت هذه السياسات ، فعقدت صفقات تسليح كبيرة مع فرنسا و اخرى اكثر اهمية ، عسكريا وسياسيا ، مع روسيا ، بعضها أعلن بشكل رسمي ، مثل صفقة الطائرات المروحية و السفينة القاذفة للصواريخ ، او بشكل غير رسمي ، كما صرح رئيس تحرير الأهرام ، عن صفقة تطوير شبكة الدفاع الجوي و ال 50 طائرة ميج 35 و الدبابات ال 500 طراز تي 90 ، و هي تغيرات كبيرة جدا في سياسات التسليح لن تحظى برضاء الطرف الآخر برغم عدم تصريحه بذلك ، حتى الآن .

كما لوحظ تغييرات في السياسات السياسية والاقتصادية مع العالم الخارجي بمحاولات تدعيم العلاقات الاقتصادية مع الصين وروسيا وتطور حجم التجارة الخارجية معهما وقدر كبير من الصفقات الاقتصادية الهامة، ومحاولات الانضمام للمنظمات الاقتصادية العالمية التي تقودها كلا منهما، و اتخاذ مواقف سياسية فيما يتعلق بسوريا و ليبيا تقترب من الموقف الروسي.

وبرغم ان مدى وحدود هذه التغييرات وتطورها شديد الارتباط مع صراعات القوى العظمى و وتطور هذه الصراعات، إلا أنها، في النهاية، لابد وان تكون انعكاسا لاحتياج داخلي، اى انها ستبقى رهينة للتطورات الداخلية الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية.

ولا يمكن تطوير أو حتى استمرار تغيرات أكثر استقلالا، دون الاستناد الى القوى الشعبية الداخلية وهو ما يتطلب تغييرات داخلية واسعة النطاق، سياسية واقتصادية واجتماعية، فالأمر لا يمكن اختصاره في الإرادة السياسية للنظام.

منذ 6 سنوات كنت أفكر هكذا فماذا تغيير منذ ذلك التاريخ؟

" اقتسام وإعادة اقتسام العالم والدور المحوري لمصر

لا يمكن الحديث عن تطوير و تحديث و عصرنة و بلادنا إلا بعلاقتها بالدور المحوري لبلادنا فى منطقتنا، ومجالها الحيوي القريب و البعيد، الذي سيؤثر، بلا جدال ، على مصالح الدول العظمى العالمية وصراعاتها لإعادة اقتسام العالم ، هذه العملية الدائمة الديمومة نتيجة لديمومة تغيير الأوزان النسبية لهذه القوى.

ان تاريخ بلادنا الحديث منذ عهد محمد على و حتى الآن يتمحور، بشكل أساسي، حول الدور المحوري المطلوب من هذه الدولة المحورية فى مجالها الحيوي القريب والبعيد، من قبل الدول العظمى المتصارعة، و بالرغم من أهمية السيطرة على السوق المصرية، إلا أنه لم يكن ابدا العامل الحاسم فى سياسات الدول العظمى حول بلادنا.

حدث ذلك فى عهد محمد على ومشروعه النهضوي التوسعي وتكرر فى عهد الخديوي إسماعيل ثم تكرر بعد ذلك فى عهد جمال عبد الناصر وما اعقبه.

و لو توقفنا قليلا عند الزمن الناصري و تتبعنا تطورات العلاقة مع الدول العظمى الرئيسية، التحاد السوفيتي و الولايات المتحدة لاكتشفنا ذلك بجلاء واضح عبر تطور هذه العلاقات في علاقتها بقدرة النظام الناصري على التملص من محاولات السيطرة فى التحكم فى دورة مع تعاظم إمكانياته الذاتية،

هل يمكن التخيل ان المساعدات الامريكية لم تنقطع عن مصر الا فى عام 1963؟

لقد كنت أتابع التطورات فى سياسات مصر الخارجية منذ 30 يونيو 2013 لتقدير هل نحن نتعامل مع توجهات جديدة أم هي استمرار للسياسات القديمة التي استقرت فى الزمن المباركي؟

لقد تراكمت عبر السنوات القلية الماضية، وحتى الان، تغييرات فى السياسة المصرية ، تدفعنا للتوقف عندها ، لمحاولة الوصول لفهم أعمق لمغزاها و حدودها و آفاقها.

لقد حدثت تغييرات واضحة فى سياسة التسليح ، فبدلا من الاعتماد الكامل على مصدر وحيد للتسليح الحديث ، الولايات المتحدة ، مع بقاء العلاقة مع روسيا فى حدود صيانة وتحديث المعدات السوفيتية المتقادمة ، و الذى كان يعرضنا لضغوطات كبيرة ومباشرة شديدة الفجاجة والوقاحة ، تغيرت هذه السياسات ، فعقدت صفقات تسليح كبيرة مع فرنسا و اخرى اكثر اهمية ، عسكريا وسياسيا ، مع روسيا ، بعضها أعلن بشكل رسمي ، مثل صفقة الطائرات المروحية و السفينة القاذفة للصواريخ ، او بشكل

غير رسمى ، كما صرح رئيس تحرير الأهرام ، عن صفقة تطوير شبكة الدفاع الجوي و ال 50 طائرة ميج 35 و الدبابات ال 500 طراز تى 90 ، و هي تغيرات كبيرة جدا فى سياسات التسليح لن تحظى برضاء الطرف الآخر برغم عدم تصريحه بذلك ، حتى الآن .

كما لوحظ تغييرات فى السياسات السياسية والاقتصادية مع العالم الخارجي بمحاولات تدعيم العلاقات الاقتصادية مع الصين وروسيا وتطور حجم التجارة الخارجية معهما وقدر كبير من الصفقات الاقتصادية الهامة، و محاولات الانضمام للمنظمات الاقتصادية العالمية التي تقودها كلا منهما، و اتخاذ مواقف سياسية فيما يتعلق بسوريا و ليبيا تقترب من الموقف الروسي.

وبرغم ان مدى وحدود هذه التغييرات وتطورها شديد الارتباط مع صراعات القوى العظمى و وتطور هذه الصراعات، إلا أنها، في النهاية، لابد وان تكون انعكاسا لاحتياج داخلي، اى انها ستبقى رهينة للتطورات الداخلية الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية.

ولا يمكن تطوير أو حتى استمرار تغيرات أكثر استقلالا، دون الاستناد الى القوى الشعبية الداخلية وهو ما يتطلب تغييرات داخلية واسعة النطاق، سياسية واقتصادية واجتماعية، فالأمر لا يمكن اختصاره في الإرادة السياسية للنظام."

في انتظار اليسار - استيقظوا وترنموا!

مسرحية شهيرة للكاتب الأمريكي كليفورد أوديتس كتبت في ثلاثينيات القرن الماضي وبرغم مرور هذا الزمان الطويل فما زال العالم في انتظار اليسار، ويبدو ان هذا الانتظار يحتاج الى أن تستيقظوا وتترنموا ، فالتاريخ لا يعرف التوقف وهو يطحن الافراد والأحزاب والتيارات السياسية التي تعجز عن أدراك واقع التغييرات السياسية والاجتماعية ، خصوصا إذا كانت هذه التغييرات في أعقاب ثورات اجتماعية كبرى أحيت الآمال في إحداث تغييرات عظمى ثم تعرضت للهزيمة ، هزائم عانت منها كل الثورات الكبرى في تاريخ الإنسانية في العصر الحديث ، هزائم فادحة ولكنها ليست بالضرورة هزائم نهائية تسد باب الحلم بالتغيير ، فلا توجد نهاية للتاريخ ، فالثورة الفرنسية الكبرى تتعرض للخيانة وتسلم السلطة لبونابرت الذى يتوج نفسه إمبراطورا ، ويثور الشعب الفرنسي ثورة كبيرة عام 1848 ولكنها تنتهى بإمبراطور كاريكاتيريا جديدا هو ابن أخ البونابرت الأول ، ويثور الشعب للمرة الثالثة عام 1870 وتتكون أول سلطة شعبية حقيقية هي كميونه باريس التي تهزم هي أيضا بعد كفاح مرير ، لكنها تحقق أهداف الثورة الاجتماعية الفرنسية الأولى عام 1789بتأسيس الجمهورية الفرنسية ، ولا يتوقف الامر عند ذلك فهي تقدم الرؤية لقوى اليسار عن طبيعة شكل الحكم في الدولة الاشتراكية المنتظرة.

ويثور الشعب الروسي عام 1905 وتتشكل الكميونة بشكل تلقائي تحت أسم سوفيات العمال والفلاحين وتهزم الثورة ويتعرض قادتها للملاحقة ويضطر الكثير منهم للهجرة خارج البلاد ومنهم اهم قائدين لها

، لينين وتروتسكى ، وتسود فترة من الضعف وفقدان الاتجاه وتشرذم القوى الثورية لكن القيادة الثورية تستيقظ وتترنم ، وتعيد تنظيم الصفوف وتدرس نتائج الثورة واخطاء القوى الثورية وتعيد إصدار الصحف الحزبية وإعادة تنظيم الصفوف ، وعندما تنفجر الثورة من جديد عام 1917 تكون القوى الثورية مستعدة لهذا الحدث الكبير ، وتناضل نضالا طويلا وحكيما كي تكتسب ثقة الشعب المنظم في مجالس السوفييت ، وتنجح في ذلك بعد عشرة شهور كاملة وتنتصر الثورة ، انتصارا لم يكن ممكنا الا لان القوى الثورية لم تستسلم لواقع هزيمة 1905 وجهزت نفسها للزمن القادم ، زمن لا يمكن تحديد زمن حدوثه فالثورات ليست عملا مخططا بل هي انفجار جماهيري تلقائي وتتوقف احتمالات تحقيقها للنصر وشكل هذا النصر على توافر قوى ثورية منظمة وواعيه وتدرك طبيعة المرحلة والصراع الطبقي الدائر، بالإضافة بالطبع إلى توفر عناصر أخرى تؤمن وتوفر إمكانيات تحقيق النصر.

وإذا كانت هتان الثورتين هما أهم ثورات العصر الحديث ، عصر الرأسمالية ، فإن تاريخ بلادنا الحديث مر بمجموعة من الثورات ، منذ الثورة العرابية الى ثورة 1919 انتهاء بثورة 2011 ، ثورات هزمت جميعها مع تحقيق بعض النتائج الفرعية هنا وهناك ، ولعل أحد أسباب الهزيمة كانت غياب قوى ثورية شعبية حقيقية منظمة وتتملك الوعى اللازم للاستجابة للواقع المتغير ، هذه القوى التي لا يمكن لها ألا أن تكون قوى الديمقراطية الثورية التي تعبر عن المرحلة الأولى للثورة ، قوى الديمقراطية الثورية التي يشكل اليسار قلبها النابض وعقلها المفكر ، لذلك فعلى كل قوى الديمقراطية الثورية واليسارية أن تستعد للزمن القادم ، بدراسة خبرات الثورات وباتخاذ موقف نقدى حقيقي من تاريخها وهى تدرس تغييرات الواقع الذى يتسارع ، أما الاستسلام لواقع الهزيمة تحت ضغط القوى الرجعية التي انتصرت فهو بالضبط البحث عن تكرار الهزيمة ، هزيمة لا يمكن لها إلا أن تكون بشكل أفدح.

فلا تنتظروا اليسار، بل استيقظوا وترنموا واصنعوا يساركم أنتم وفقا للزمان المتغير، ولا تعتقدوا، أبدا، ان الاستعداد للثورة هو في الاعمال الكبرى فالعمل الثوري هو في حقيقته عمل تراكمي من الاعمال الصغيرة المتراكمة التي تتحول الى قوى مادية عاتية عندما تأتي لحظة التغيير الثوري، وعندها لن تبحثوا عن زعماء أو قادة أو عن من يدرك حقائق الصراع الطبقي فلقد صنعوا بالفعل بالعمل التراكمي الصغير والمتراكم.

ميلودراما قناة البحرين

كان حلما قديما منذ زمن هؤلاء العظام الذين أقاموا حضارة بازغة في بلاد رع المحلق في رحلته الأبدية من الشرق الى الغرب، يحميها رب العدل والخير، محلقا في السماء ورابعا خلف رؤوس حكامها، فالعدل والخير طريقا وحيدا لان يحميك حورس.

حلم وصل البحرين حيث يقوم سنوسرت في الاسرة التاسعة عشر بحفر قناة البحر الأحمر الى النيل ومنة الى البحر المتوسط، ومن ذلك الزمان البعيد كانت قناة البحرين شديدة الارتباط بدور مصر السياسي في

المنطقة والعالم وبمستوى تطورها، سواء اكانت عن طريق النيل أم مباشرة، ولكن في كلا الأحوال عن طرق البحيرات المرة.

ويا لها من مرارة توقعها ساكن الجنان، محمد على باشا، حين رفض مرارا وتكرارا الموافقة على مشروع قناة البحرين، مدركا حقيقة الأوضاع الدولية وخطر وجود القناة على استقلال مصر وتطورها، لكن لا يعفى زمن من قدر فيوافق ابنه على حفرها، ويتدعم موقع ومكان مصر الجيوسياسي وتتزايد طموحات الدول الاستعمارية الكبرى في السيطرة عليها.

ميلودراما تاريخية طويلة ينتهي فصلها الأول الطويل بشاب صغير السن وجدع يعيدها من جديد لأرض الوطن، ويدور الصراع ويستمر كي يسفر عن مرور شحنات بضائع الجار الثقيل طبقا للاتفاقية الثانية للفصل بين القوات سنة 1975، ثم يمر رافعا علمه ومحيا علم البلاد برفع علمها في أعقاب كامب ديفيد سنة 1979.

اتفاقية تمثل التعبير القانوني الأمثل عن الخضوع والاستسلام للنفوذ الاستعماري، اتفاقية تمثل جزءا من سياسات لا تبقى حجرا على حجر من سياسات سابقة تحاول تحقيق قدر من الاستقلال الاقتصادي والسياسي ، اتفاقية لا يمكن إلغائها إلا بتبني سياسات بديلة وكثيرة تحتاج زمنا طويلا لتحقيقها ، سياسات تعدل من موازين القوى وتحتاج الى وضع دولي مواتي ، وتصبح المطالبة بإلغاء اتفاقية " الخيانة الوطنية " فورا مجرد مزايدة ديماغوجية لمن يجلس في مقاعد المعارضة متحررا من نار المسؤولية الوطنية ، فهناك فارقا كبيرا بين معارضة اتفاقية لا شك في ضررها على المصالح الوطنية والعربية وبين المطالبة الفورية بإلغائها ، مطالبة لن تدعم نفوذ هذه المعارضة في تبنى سياسات بديلة او في وصولها الى الحكم حيث تفترض غفلة الجماهير وعدم إدراكها لمصالحها ، حتى ولو استجابت لحمى الديماغوجية وهى تشاهد السفن الحربية تعبر القناة رافعة العلم البغيض بجوار العلم المصري كي تقاتل في جنوب البحر الأحمر ، في بلاد اليمن الغير سعيد ، الذى اختطفته قوى التخلف الطائفية التي ستحرر فلسطين بمسيراتها وصواريخها وهى عاجزة عن تحرير بلادها من التخلف ومن تعاظم نفوذ الملالي الفارسيين.

وبرغم غصة القلب ونحن نرى هذا المشهد البغيض إلا ان طريق التحرر منه هو طريق طويل وشاق ولا يبدأ من إلغاء المعاهدة، بل ينتهي به، فصبرا أل ياسر هذا العصر، فنحن نشاهد هذا الهم منذ خمسون عاما ولعلنا ننجح في الا يطول الى خمسون عاما قادمة!

التلقائية والمزاج الجماهيري

مرض خطير يصيب الساسة والتيارات السياسية وهو الخضوع للتلقائية الامر الذى يمكننا أن نسميه في جانب من جوانبه بالخضوع للمزاج الجماهيري، خضوعا يفقدها هويتها وقدرتها على التأثير في الجماهير ، فعلاقة أي قوى سياسية مع الجمهور هي علاقة تبنى عبر الزمان حيث توضع توجهات واراء هذه القوى

السياسية موضع الاختبار الجماهيري الدائم ، فالجمهور يتعلم من خبراته الخاصة ، ولا يعنى عدم الخضوع للمزاج الجماهيري الصدام المباشر معه لان مثل هذا الصدام سيشكل حاجزا أمام فهم الجمهور لآراء وتقديرات هذه القوى السياسية ، لذلك فعندما تختلف تقديرات القوى السياسية مع المزاج الجماهيري فإن عليها أن تشرح بمنتهى الصبر والتأني هذه التقديرات والا تصطدم بتصورات الجمهور، بل توضح الرؤية اللازمة لكى يدرك الجمهور بتجربته الخاصة صحة رؤية هذه القوى السياسية وعندها سينشأ رابط معنوي هائل بين الجمهور وهذا التيار السياسي ويعظم من نفوذة ويضعه موضع الثقة في التطورات السياسة اللاحقة.

لقد قدمت الخبرات التاريخية للكثير من التيارات السياسية عبر العالم دروسا ثمينة يجب الاستفادة منها ، خلل الثورة الروسية في 1917 ، في اعقاب فبراير ، كانت الجماهير تثق في الحكومة الثورية المؤقتة ، هذه الحكومة التي كانت تتمتع بالأغلبية داخل مجالس السوفيات ، في نفس الوقت الذى شكل فيها حزب البلاشفة الأقلية داخلها ، حزب لم يكن كبيرا بل يتراوح عدده حوالى 20 الفا فقط ، وبرغم إدراك القيادة البلشفية لعداء الحكومية المؤقتة للشكل الجديد من الحكم الذى يتمتع فيه أنصارها بالأغلبية وفى إدراك موقف الحكومة المؤقتة في العداء لأهداف الثورة ، فإنها لم ترفض الاشتراك في الحكومة المؤقتة إلا أنها اشترطت تبنى سياسات معينة شرطا لدخولها بصفة اقلية ، رغم إدراكها باستحالة قبول مثل هذه المطالب ، ومع تطور الصراع الاجتماعي والاستمرار في الحرب العالمية وخسائرها الكبيرة فإن البلاشفة ركزوا في دعايتهم على مطالبة الحكومة المؤقتة بتدابير ملموسة وعدم المطالبة بالإطاحة بها ، طريق وحيدا لأقناع الجماهير بخطأ موقفها في دعم الحكومة المؤقتة، رغم أن هذه الحكومية قد أصدرت قرارات باعتقال قادة البلاشفة وتقديمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى ، لقد اسفر تبنى البلاشفة لهذه السياسات إلى أقناع الجماهير ، من واقع خبراتها الخاصة ، بخطء موقفها ، فتزايدت عضوية البلاشفة لتصبح نصف مليون و تحظى بالأغلبية داخل مجالس السوفييت تتهيأ الشروط لثورة مسلحة يخوضها هذا الجمهور بقيادة البلاشفة وحلفائهم من القوى السياسية الأخرى للاستيلاء على السلطة وطرد الحكومة المؤقتة ، وتندلع الحرب الاهلية وتخوض الجماهير معاركها تحت قيادة البلاشفة وتنتصر.

ويتكرر الامر في التاريخ الحديث لمصر ، فمنظمة حزبية يسارية راديكالية تتشكل في نهاية عام 1969 وهى تدرك الطبيعة الطبقية للنظام الناصري ، وتدرك أيضا أن قدرته على الصمود في مواجهة الهجمات الاستعمارية ستنهار ، وتطرح هدفها الاستراتيجي الإطاحة به لإقامة نظام اشتراكي حقيقي ، لكنها وهى تدرك مزاج الجماهير واستمرار النظام في مواجهة الهجمة الاستعمارية ، لا تطرح أسقاط النظام كهدف معلن ما دام مازال يقاوم الاستعمار ، بل تطالب بتدابير ملموسة ، وعندما تبدء حرب أكتوبر تدرك هذه المنظمة أن الخطوة القادمة ، بعد الحرب ، ستكون الاستسلام للمطالب الاستعمارية فتصدر بيانا يوم 9 أكتوبر ملغية فيه التحفظ التكتيكي على شعار الإطاحة وشارحا لمصار التطورات السياسية المتوقعة ، لكنها تواجه الواقع الأليم ، فهذه المنظمة وبرغم تأثيرها الكبير في الحركة الجماهيرية لم تكن موحدة حول هذا الفهم ، فلقد كانت النقاشات تدور حول الحرب القادمة ، هل هي حرب كبيرة محدودة أم

اشتباكات واسعة ، ولم تتشكل دعايتها وتحريضها حول الحرب القادمة وسط الجماهير، واستسلمت للتلقائية في مطالبة الجماهير بالحرب ، وعندما تبدأ حرب أكتوبر تحدث تغييرا جذريا في المزاج الجماهيري وبدا الامر كما لو كان الامر قصورا في الدعاية بعد الحرب ولم تدرك هذه المنظمة عمق التغيير في المزاج الجماهيري فاستمرت في نفس أساليب الدعاية ومحتواها وكأن شيئا لم يحدث .

وبرغم هذا الخطأ الاستراتيجي في الاستسلام للتلقائية في حقل الدعاية والتحريض، فإن المنظمة يزداد عددها لكن بما لا يتناسب لو كانت قد شرحت وقاومت التلقائية، وتعجز عن إدراك حقيقة التغيير في المزاج الجماهيري وتبحث عن تفسيرات في ضعف الدعاية والتحريض وليس في محتواه ولغته ، ويضطر بعض من الكادر القيادي لكتابة مجلات الحائط بحثا عن مواجه تقصيرا في مجال اخر ، ولا يمكن توجيهه أصابع الاتهام لاحد ، فالأمر رهن بالحداثة ونقص الخبرة وضعف التنظيم وتخلف أدواته ، فحتى ذلك الزمان لم يكن التنظيم يصدر جريدة جماهيرية منتظمة أو نشرة داخلية أو جريدة نظرية ، الامر الذى ترتب علية الخضوع للتلقائية والتأثير على وحدة المنظمة لاحقا.

وللأسف الشديد فإن النقاشات الداخلية في هذا التنظيم وحتى بعد انتهائه ، التي دارت بين كوادره وأعضاءه حول مشاكلة التنظيمية والسياسية ، وضعت تضادا بين أولوية القضية الوطنية واولوية الانخراط في النضال الاقتصادي الذى تصاعد في أعقاب حرب 1973 ، وكأنهما قضيتان منفصلتين ، ولم تدرك التوجهات المختلفة أنهما قضية واحدة شديدة الارتباط بالمزاج الجماهيري ، ولم تدرك اهمية تغيير لغة الخطاب السياسي ، وليس رؤيته، كى يستجيب لهذا المزاج ويقوده في اللحظات الحاسمة ، عدم الإدراك الذى قاد لنتائج خطيرة في حقل التنظيم ، ليس هنا مجال تناولها فهي قضية كبيرة في خبرة هذا الحزب الملهم وتحتاج لتوقف خاص ، ولحسن الحظ فإن الوثائق الداخلية لهذه النقاشات متوفرة ومحفوظة ويمكن الاطلاع عليها ، الامر الذى سيمكن من دراستها بدقه مع دراسة ذكريات البعض من العناصر القيادية التي كتبت في زمن لاحق.

ويبدو أن الخضوع للتلقائية قد أمتد ليصبح المرض العضال للتوجهات التي كانت راديكالية في الزمان السابق ، ففقدت قدراتها التحليلية ولم تراقب وتدرس التغييرات الطبقية وتوجهات الصراع الاجتماعي في علاقتها بالتطورات السياسية وبالعلاقات مع العالم الخارجي ، أي مع الرأسمالية العالمية ومع المحيط الإقليمي ، بحيث اسفر الامر ، في كثير من محاولات تفسير واتخاذ مواقف الى سيادة الفهم التأمري وتحولت السياسة الى الصياح الغير مجدى الذى يدعو لمواجه التخيلات السياسية والاقتصادية الغير مستندة على دراسة الواقع في تطوره ، في فترة محتدمة من التغيير لا تجد من يراقبها بشكل حقيقى ، وبحيث اختفت التخوم بين التيارات السياسية المختلفة وسادت داخلها التوجهات الليبرالية في محتوها رغم التمسك اللفظي بالأفكار الاشتراكية ، واصبح المثل الذى لا يفرق بين الشامي والمغربي واقعا حقيقيا ، مرض عضال امسك بتلابيب الحركة الثورية واصبح سائدا داخلها ، فافقدها طابعها الثوري الحقيقي اكتفاء بالصياح الديماغوجي ، والامثلة كثيرة ومتعددة .

ولعلنا في حاجة للتوقف عند بعض الأمثلة ، فتصفية شركة الحديد والصلب المصرية تحظى باهتمام كبير وتتعالى الصيحات عن تصفية أملاك الشعب وعن العداء للصناعة ولا يمنع الامر من الحديث عن

العمولات وفساد مالي وادارى ، ولا تتوقف المعارضة وتتمهل لتدرس ما الذى يحرى في قطاع الصلب ، فالقطاع العام بما فيها شركة الحديد والصب لا يحدد طبيعتها شكل الملكية ، فملكية الدولة تصبح ملكية الشعب فقط إذا كانت سلطة الدولة سلطة شعبية ويصبح ترديد انها أملاك الشعب ترويجا لوهم كبير ، كما أن تصفية الشركة ليست مجرد قضية سياسية بل هي أيضا قضية اقتصادية في المقام الأول ، فشركة تعمل بكامل طاقتها منذ ما يتجاوز خمسون عاما قد تصبح كفاءتها غير مناسبة للعصر المتغير وقد لا يمكن تجديدها لطبيعة معداتها الكبيرة ، لكن هذا الاهتمام لم يتحول الى دراسة حقيقية لواقع صناعة الصلب في البلاد وتطور الطاقات الإنتاجية و طبيعة التحالفات الطبقية، فإنتاج الحديد والصلب قد تطور داخل البلاد ليتجاوز عشرة أضعاف أنتاج الشركة المذكورة عندما كانت في كامل طاقتها ، وحدث تزاوج كبير بين رأسمالية المدنية والعسكرية داخلها (حديد الدخيلة وابوهشيمة والجارحي وبشاي) وتوسعت الطاقات الإنتاجية خلال السنوات القليلة الماضية بما يتجاوز ضعف انتاج شركة الحديد والصلب المصرية ، وبرغم ذلك فما زالت صناعة الصلب تعانى من خلل هيكلي يترتب علية أن يصبح الميزان التجاري سالبا بما مقداره ما بين 2 الى 3 مليار دولار ، ولم يتطور إنتاج الصلب السبائكى ، كما أن محاولة الدولة لتعديل الهيكل الإنتاجي بطرح رخص تعالج هذا الخلل لا يعلم بعد نتائجها رغم مرور زمن طويل ، لقد أسفر الامر عن خلق احتكاران كبيران هما جهاز الخدمة الوطنية وحديد عز وعن تزاوجهما في أحد المصانع ، إذن نحن نواجه أوضاعا جديدة حيث يتزاوج راس مال الدولة مع القطاع الأجنبي والخاص ويتصارعان ، فكيف استجابت المعارضة لهذه التغييرات الطبقية ما عدا الصراخ الديماغوجي حول بيع أملاكنا .

ولعل مثال أخر يقدم دليلا إضافيا، فالمعارضة تشن حملة ضد بيع قناة السويس مقدمة خلطا كبيرا بين أنشاء صندوق خاص للهيئة وبين بيع القناة، وبديلا عن مناقشة سياسات الصناديق الخاصة يتم جمع توقيعات ويتلاشى الامر وتموت الحملة ولا تباع قناة السويس!

ويكثر الحديث حول استثمارات القوات المسلحة وجهازها للخدمة الوطنية لكن لا تتم متابعة حقيقية لنوع وطبيعة هذه الاستثمارات وعلاقتها مع استثمارات الدولة المدنية وشركاتها مع راس المال المحلى والأجنبي والاكتفاء بتقديرات جزافية حول حجمها ودورها في السوق والنتائج السياسية المترتبة عليها، حديث يفتح الباب أمام الأوهام السياسية والاقتصادية والمبالغات القادمة من مراكز فكرية خارجية، الامر الذي يعيد من جديد اشباح أفكار الماضي حول أن مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون.

أما على الصعيد السياسي فإن الاحداث الجارية في الضفة والقطاع لتقدم لنا مثالا واضحا حول الموقف الذيلي الخاضع للمزاج الجماهيري وللتلقائية الامر الذي أدى الى تحول هذه المعارضة الى ذيلا سياسيا لتوجهات وسياسات منظمات سياسية دينية وطائفية في لبنان والقطاع لا يمكن لها تحقيق تقدم الى الامام في قضية الكفاح ضد إسرائيل والقوى الاستعمارية الداعمة، ولقد سبق أن قدمت رؤية كاملة حول هذا الصراع وحدوده وافاقة الامر الذي أثار بعض من هذه القوى اليسارية بدعوى أن الوقت غير مناسب!

وليس هنا مجال تعداد كامل لهذه المواقف في كافة المجالات وحملات جمع التوقيعات التي تنقرض سريعا، واخفاء الوجه بدعوى أن اللحظة غير مناسبة، بحيث يبدو الامر مثيرا حقا للعجب، كما لو كان الظاهر هو الباطن وانه لا توجد سياسات مختلفة حقا عن السائد والمعلن.

إن الخضوع للتلقائية وللمزاج الجماهيري قد أصاب العقل الجمعي بأفة خطيرة، افة المبالغة والتهويل والمزايدة والديماغوجية وترويج المزايدات، خضوع لا يمكن ان يؤسس لمنظمة ثورية حقيقية تكافح من اجل التغيير الثوري في البلاد ولن ينتج عن ذلك الا منظمات برجوازية صغيرة تعاني من تذبذب وانتقائية وعشوائية هذه الفئة الاجتماعية وتشكل عائقا امام النضال الثوري الحقيقي.

والامر هنا يتعلق بتوجهات سياسية وليس عن افرادا يتمتع الكثيرون منهم بالسمعة الحسنة والتاريخ النضالي الطويل، لكن هذا التاريخ لا يعفى من مسؤوليات الحاضر ولا يمكن الاحتماء او التعليل به للدلالة حول صحة سياسات الحاضر، فالماضي لا يبقى منه إلا خبراته فقط لا غير، والامثلة كثيرة ومتعددة في الحركة الاشتراكية العالمية عن زعماء كبارا لعبوا أدورا تاريخية لم يشفع لهم تاريخهم عندما لم يفهموا التغييرات واتخذوا مواقف خاطئة.

هل الحرب هي امتداد للسياسة بوسائل أخرى؟

وهل الهدف منها هو إجبار الخصم على تنفيذ إرادة المنتصر؟

سؤال كبير تفكر فيه البشرية منذ أن انعم عليها التاريخ بالحرب، سؤال نجحت في الوصول الى إجابته منذ زمان بعيد على أيدي مفكرين أفذاذ، منذ سون تزو الصيني في القرن الخامس قبل الميلاد، ليصل هذا الفهم الى كماله على أيدى كارل فون كلاوزفيتز النمساوي في القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك الزمان تطور فهم الإنسانية للحرب خصوصا في اعقاب الحربين العالميتين وحروب تحرير المستعمرات، لكن المفاهيم الأساسية كان قد تم الوصول اليها في القرن التاسع عشر، قرن الأفكار الكبرى التي مازالت تؤثر في عالمنا الراهن.

وللأسف الشديد كثيرا ما يضيع هذا الفهم ويصبح مجرد مقولات تستخدم لتحلية الآراء ولا تشكل أساسها النظري والفكري، يضيع كنتيجة لأسباب متعددة، فقد يستخدمها البعض لتبرير سياساته أو توجهاته السياسية، أو عندما يقع البعض فريسة للانفعال العاطفي، أو تحت التأثير الغلاب للبطولات الفردية والجماعية، وما أكثرها خصوصا في حروب الاستقلال او الدفاع عن الوطن.

ولعلنا لا نحتاج للتوقف كثيرا حول نتائج حرب 1948 فنتائجها واضحة ، هزيمة عسكرية تحولت الى واقع سيأسى جديد ، لقد اسفرت الحرب عن تنفيذ إرادة الخصم كما سمح له نصرة العسكري وموازين القوى العالمية والاقليمية ، لكن الخلاف يتسع حول فهم حرب 1956 ، فالناصريون يتحدثون عن النصر الأكيد ويشيدون بالصمود الأسطوري لقائد وطني قرر أن يقاتل ، أما أعداء الناصرية فيتحدثون عن الهزيمة العسكرية ويرجعون فشل العدوان في تحقيق أهدافة الى أتفاق القوى العظمى على انسحاب

المعتدين ، وفى الحقيقة فإن مصر الناصرية قد انتصرت ، فلقد فرضت إرادتها على الخصم بصرف النظر عن نتائج العمليات العسكرية سواء اكانت نصرا أم هزيمة . وبصرف النظر عن تأثير مواقف القوى العظمى، فالنتيجة النهائية هي انتصار السياسة الناصرية، أليست الحرب هي امتدادا للسياسة.

أما حرب 1967 فهي مثيرة للمزيد من الجدل، فالهزيمة العسكرية كانت فادحة، واحتلت كل فلسطين والجولان وسيناء، لكن العدو لم ينتصر!، فلقد عجز عن فرض إرادته على الخصم، واصبحت هذه الحرب مجرد معركة كبيرة من حرب ممتدة تنتظر جولتها القادمة، وفى حقيقة الامر فإن هذه الحرب لم تتوقف أبدا رغم وقف إطلاق النار لفترات ممتدة ، الى ان تأتى حرب 1973 لتثير جدلا أكبر ، ويبلى الجيش المصري بلاءا حسنا ، وتمتلئ الذاكرة الوطنية بالعديد من الابطال ، ويتحدث النظام السياسي عن النصر الكبير الذى تحقق في ميدان القتال ، ويتحدث البعض عن أنها حرب للتحريك هدفها هو الخضوع لإرادة العدو وحلفائه بشكل يحافظ على النظام السياسي القائم باستعادة سيناء المحتلة والخروج من الصراع الدائر وتغيير التحالفات الدولية ,إجراء التغييرات الداخلية التي يطالب بها الخصم الحقيقي المختفي خلف العدو الذى يقاتل ، ويتحدث البعض في كيف خذلت السياسة الحرب حين استجابت القيادة السياسية لمطالب العدو المقاتل والخفي خلفة ، وجهة نظر تنطلق من تقدير أن هناك نصرا عسكريا كبيرا قد تحقق، تقدير يفترض كما لو كانت القيادة السياسية هي قيادة بلهاء أو حتى عميلة لا تدرك عمق ما حققته ، وبصرف النظر عن تقديرنا لنتائج العمليات العسكرية وعن وجهة نظرنا في القيادة السياسية ، التي لا أتفق مع تقديرات أصحاب "السياسة التي خذلت الحرب" حولها ، فإن النتيجة النهائية هي الخضوع لإرادة العدو وحلفائه بالخروج المنفرد من الحرب وتحقيق مطالبة في السياسات الدولية والتغييرات الداخلية ، وبذلك فلقد قد انتصر الخصم ، حتى ولوكان هذا الانتصار قد اكتمل بعد سنوات من العمليات العسكرية نفسها ، فالحرب هي السياسة ولكن بوسائل أخرى ، ولقد انتصرت سياسة العدو ومن خلفة، لكنها هزيمة للشعب المصري وليس للنظام السياسي الذى كان قد قرر سبيله للبقاء أمام ضغط شعبي متزايد ، فهو لم يكن أبلها أو عميلا بل يعرف جيدا ما يريده ، فلقد أنتصر أيضا النظام السياسي ووجه ضربة كبيرة لقوى المعارضة ، فانهزم الشعب والجيش، وبقى هذا النظام الى أن يطيح به الشعب عام 2011.

ويتكرر الامر الان في الصراع الكبير الدائر الان الممتد من إيران الى اليمن وغزة ولبنان ، فهي أيضا امتداد للسياسة ، وتنسى الكثير من القوى السياسية أن الحرب هي امتداد للسياسة ولا يمكن اختصارها في الصمود أو في إيقاع الخسائر في العدو أو في الانتقام من عدو متوحش ، بل في الهدف السياسي منها ، ولعلنا في حاجة الى التوقف عند الأهداف السياسية لاهم المشاركين فيها ، فحماس تطمح الى هزيمة العدو وإقامة الدولة الإسلامية وطرد اليهود الى البحر ، وحزب الله يدعم حماس بإطلاقة الصواريخ على العدو معتقدا أن هذه الصواريخ تقدم دعما كبيرا لحزب الله ،وإسرائيل وحلفائها اتيحت لهم الفرصة لتصفية اعدائها في غزة ولبنان ، وليس من اهداف الحرب الحالية التوسع الإسرائيلي ، فما زالت إسرائيل في حاجة للوقت لهضم وابتلاع الضفة الغربية وتدعيم هضمها للجولان السورية وبقائها في المناطق اللبنانية المتنازع عليها في الجنوب اللبناني.

أن سير العمليات العسكرية يوضح أن اهداف حماس البعيدة لا يمكن تحقيقها سواء فيما يتعلق بموازين القوى أم بالأوضاع الدولية أو حتى بإحداث صراع سيأسى داخلي يؤدى الى انهيار دولة إسرائيل ، فهذه الأهداف والسياسات لن تؤدى إلا الى زيادة التماسك الداخلي وتقليل الصراع الاجتماعي الدائر داخلها، واضعاف القوى السياسية ، التي مازالت صغيرة جدا ، التي تنادى بالدولة الديمقراطية الواحدة ، وتدعيم نفوذ التيارات السياسية الصهيونية المتطرفة الأكثر ارتباطا بمستوطني الضفة الغربية ، حتى ولو كان هذا التطور بشكل مؤقت ، ومهما كانت نتائج الحرب فإن إضعاف حماس إضعافا كبيرا هو نتيجتها المؤكدة ، فلا ناجى من حرب التصفية الجارية الان والتي ستستمر مادام تيار الدعم المادي والتسليحي والسياسي من الولايات المتحدة جاريا ، إضعاف يجردها من إمكانياتها العسكرية على أضعف تقدير، أما دورها السياسي في غزة والقطاع فسيضعف كثيرا وقد لا يختفى ، فالأمر رهن برؤية الشعب الفلسطيني في نهاية الجولة.

وإذا كانت هذه تقديراتنا لمصائر حماس إلا أن الامر يختلف في حالة حزب الله ، فالحزب يستند الى وضع طائفي ويمتلك بنية تحتية اقتصادية واجتماعية وعسكرية كبيرة ، بنية لا تتركز في الجنوب أو الضاحية بل تمتد الى العديد من المقاطعات اللبنانية وتعتمد على دعم مؤكد من الدولة الإيرانية ، وضع تهاوت فيها الدولة اللبنانية وعجزت عن انتخاب رئيس جديد وجيش محدود القدرات وممزق الهوية ، وقد يعترض البعض في وصفى لاستناد حزب الله على الوضع الطائفي رغم أن برنامج الحزب يدعو الى نبذ الطائفية والتخلص منها ، لكن الامر في النهاية رهن بالسلوك السياسي الفعلي وليس بالبرامج السياسية ، فالقوى السياسية الوحيدة القادرة على تغيير النظام السياسي اللبناني وتنفيذ أتفاق الطائف هي حزب الله ، لكن السلوك السياسي الفعلي للحزب كان استمرارا في التعايش مع الطائفية ، الامر الذى أوصل الى أن حزب الله يقاتل وحدة استنادا على نفوذه داخل الطائفة والدعم الذى يتلقاه ، لكن الشعب والجيش اللبنانيين لا يقاتلوا معه ، لقد اضعف حزب الله نفسة كثيرا منذ حرب 2006 ، فالقوة الحقيقية في الشعب اللبناني بكل طوائفه وجيشة ، لو كان لدى الحزب رؤية عميقة للدفاع عن استقلال لبنان ، لكان قد حارب الطائفية حربا دروسا وحول لبنان الى بلد عصري قادر على الدفاع عن نفسه بجيشة وقواته الشعبية ، وبرغم ذلك فلا يمكن القضاء على حزب الله حتى ولو احتلت إسرائيل الجنوب ، لكن سيتم إضعافه وأبعاده عن الجنوب ولو بشكل مؤقت ، فتقديرات الحزب في أن إطلاقة الصواريخ على إسرائيل ستضعف هجومها في غزة لم تتحقق ، بل حدث تكثيف للهجوم على الجبهة اللبنانية وتعرض الحزب لخسائر فادحة بفقده أبرز قياداته، وستحقق إسرائيل ومن يدعمها جزء من أهدافهم بثمن فادح من حياة الشعب اللبناني وتعاظم هجرته الداخلية المؤقتة بعيدا عن ميدان القتال.

أما عن الأوهام المنتشرة عن حرب إقليمية تمتد من إيران الى لبنان فهي وهم كبير ، فلا أحد يرغب فيها ، فإيران تكتفى بالدعم كلما أمكن ذلك وتطلق صواريخها بما يمكن أن نسميه " على سبيل التذكار " وليس تدخلا حاسما لردع إسرائيل ، وإسرائيل تستجيب بشكل يتلاءم لحفظ ماء الوجه والتصرف وفقا لمتطلبات السياسة الامريكية التي لا ترغب في حرب شاملة مع إيران ، حرب لا تريدها كل البلاد العربية وخصوصا الخليجية لأنه سيترتب عليها نتائج اقتصادية وسياسية فادحة ، بل تحاول تطبيق سياسات

العزل والحصار والضغط الاقتصادي ، رغم نتائجه المحدودة ، ومهما كانت جولات الصواريخ مستمرة فستنتهي عندما تكمل إسرائيل مهمتها في غزة ولبنان.

ويبدو الامر كما لو كانت إسرائيل ستنتصر ، لكن مثل هذا النصر سيساهم في إضعاف النفوذ الصهيوني داخلها وخارجها ، فالدوافع لدى يهود العالم قد تغيرت ، فلم يصبح الامر إنقاذا لليهود من التمييز الديني والاضطهاد في الدول الاوربية ، فلقد انتهى ذلك منذ زمان بعيد معلنا بداية النهاية للصهيونية ، هذه النهاية التي يدعمها سلوك إسرائيل الوحشي والعنصري ، لكن الذاكرة الشعبية قصيرة البقاء ، فلعلنا مازلنا نتذكر كيف كان الشعور الشعبي في بلاد العالم في مواجهة الوحشية الإسرائيلية في زمن الانتفاضة الأولى في الضفة والقطاع سنة 1997 وما أعقبها ، لذلك علينا تغيير استراتيجيتنا وأهدافنا بما يتلاءم مع الحل الوحيد الممكن ، أي الدولة الديمقراطية من النهر الى البحر.

فهل نستطيع؟

كيف يرى الراديكالي الثوري الديمقراطي الثوري

(بين إبراهيم فتحي والدكتور برادة عن الدكتور محمد مندور)

الراديكالي الثوري إبراهيم فتحي يعلق على كتاب البنيوي الدكتور برادة عن الديمقراطي الثوري الدكتور محمد مندور ، شارحا الفكر النقدي للديمقراطي الثوري ومدافعا عنه دفاعا مجيدا ، لكن الدرس البليغ الذى يقدمه هذا الراديكالي الثوري لا يمكن اختصاره في عمق رؤيته وتقديره للديمقراطي الثوري بل فى منهجه ، هذا المنهج الخالي من الدوجماتية والجمود العقائدي ، فالماركسي العتيد يقدم الديمقراطي الذى لا يفهم الماركسية باعتباره أشد يسارية من اليسار الماركسي مستندا على واقع الآراء والسلوك الثقافي والسياسي ، رابطا بين هذه الآراء والواقع الاجتماعي والسياسي في زمانها .

درس بليغ فى المنهج لمن يريد فعلا أن يتعلم من الراديكالي والديمقراطي معا فى كيف يجب أن نفكر ،وهكذا اتمنى أن أصبح تلميذا نجيبا !

الجزء الثاني من مقال إبراهيم فتحي المنشور فى جريدة أدب ونقد بمناسبة بمرور اربعون عاما على وفاة مندور.

"الفكر النقدي للديمقراطية الثورية

يجب أن نفرق في كتابة مندور بين الاتجاه الفكري ومضمونه الاجتماعي من ناحية، وبين طريقة العرض سواء في الصحيفة أو الكتاب أو المحاضرة الجامعية من ناحية أخرى. لقد كان سيف الرقابة وقانون المطبوعات والسجن والمحاكمة مرفوعا على رقبته ليل نهار. ولم تكن مناقشة نظام الحكم الملكي في

مصر مما يسمح به دستور 23، ولم يكن ذلك من حق البرلمان، كما أن مجرد الدفاع عن الماركسية أو تحبيذها أو عرضها عرضا موضوعيا، كان يعني في المذكرة التفسيرية لأحد القوانين الجنائية الشهيرة «دعوة إلى قلب نظام الحكم بالقوة المسلحة».

لذلك من التجني أن ينسب أحدٌ إلى مندور قبوله للنظام الملكي، وهو الذي حارب كل دعائمه الاجتماعية والفكرية، أو أن يدرجه أحدٌ في إشكالية مع الذين كتبوا القصائد في المليك المفدَّى.

كما أن العدالة الاجتماعية التي كان يقاتل من أجلها ضد «الباشوات الرأسماليين» الذين كانوا يتحكمون في الشركات الكبرى ويتملكون نسبة عالية من الأرض الزراعية، لم تكن منقولة عن نموذجية الغرب أو الاشتراكية الديمقراطية لليون بلوم، فلم يعرف عن أحد من هؤلاء الاشتراكيين حدة العداء للاحتكارات الرأسمالية والتشهير بها، وكانوا على رأس حكومات تستعمر البلاد العربية لصالح الرأسمال العالمي. كما كان دور مندور في الهجوم على معاهدة "صدقي بيفن"، و"بيفن" من قادة حزب العمال، دورًا مشهودًا في كشف أن استمرار العلاقة مع «الإنجليز» وراء ما يسمى بالدفاع المشترك.

أما استشهاد مندور بمراجع غربية لتبرير دعوته إلى تشريع نظام للضرائب التصاعدية، أو لتحديد دور الرأي العام لتفادي الاتهام بقلب نظام الحكم بالقوة فلا يمكن أن يتخذ دليلا على تبعيته الثقافية للغرب. ولقد شعرت بالحيرة في تلك الأجزاء من كتاب برادة التي يعتمد فيها على دراسات أنور عبد الملك عن المثاقفة والوقوف عند تجاور الثقافتين العربية (الإسلامية؟) والغربية (البورجوازية؟) دونما تركيب.

فهل يعتقد أن الديمقراطية والمجالس التشريعية وسياسة الضرائب التي تأخذ في اعتبارها مصالح الجماهير والحد من الاستغلال كلها خضوع للغرب وتكريس لنموذجيته؟ حقا لا بد أن تأخذ هذه المضامين الديمقراطية العالمية العامة أشكالها القومية التي تتلاءم مع درجات التطور الاقتصادي، وطبيعة الهياكل الاقتصادية، والصراع الطبقي والفكري.

أما ترديد القول بالخصوصية الاستثنائية للعرب والمسلمين، فهو تكريس للتخلف والعزلة. وربما كان من الأصوب القول إن الثقافة الرأسمالية في الغرب القائمة على استغلال العاملين والمستعمرات، ليست نموذجا أبديًّا للتقدم بدلًا من اجترار عبارات مثل "الشرق شرق" و"الغرب غرب" ولن يلتقيا. وما أظن، برادة ينتمي إلى ذلك التيار.

إن مندور تابع متابعة متعمقة إنجازات الأدب العربي والأدب العالمي، ولم يقف عند المتابعة، فهو كما قال برادة بحق أول ناقد للأدب العربي، وبقي أن يضيف أنه قد انتقد التركة الفكرية والفنية «للغرب» أيضا مطورًا ما وجده من كنوزٍ ثمينة.

وهو يشبه الديمقراطي الثوري الروسي بيلنسكي، على سبيل المثال، في بعض النواحي الرئيسية، السياسية والجمالية. لقد ناضل كما ناضل سلفه الذي ربما لم يهتم مندور بدراسته معبرا على حد تعبير لينين عن مصالح طبقات الشعب من أجل الحقوق الأولية التي كانت تنتهكها في غلظة «مؤسسات النظام»، وكانت أفكار «مليكي وبلادي» عن كتلةٍ قومية لا صراعَ فيها هي الفكر الذي يناوئه مندور، كما كان الفكر

السلفي الذي يستجدي حتى عند أبرز الكتاب تصفيقَ المتخلفين، بإصدار كتبٍ دينية لا تضيف جديدًا، وتبرر الأوضاع الظالمة في العصر الملكي، هدفًا لهجومه الشجاع.

ويوضِّح برادة في هذا الصدد أن المثاقفة لم تظل متجمدة عند مستوى التقبل والاندماج (ص 40). كما يبرز بحق أن مندور لا يكتفي بنقل التفكير الأوروبي، فالتفكير الخصب بألفاظ مندور «هو الذي نستمده من الحياة، ونبنيه على الواقع، وعلى هذا لا يكون لنا بد إذا أردنا أن نجدد حياتنا الروحية عن أن نغير من مقومات تلك الحياة واتجاهاتها وقيمها» (الميزان الجديد ص 68) (ولكن برادة يعود ليؤكد استنادًا على أنور عبد الملك غياب «التركيب»، كما أسلفنا).

لقد أكد مندور دائمًا الربط بين الفكر والفن، وبين الواقع والحياة، والابتعاد عن الخرافات، ونقد العلاقات الاجتماعية، وتحليل الاتجاهات الفكرية، وطوال الفترة السابقة لحركة 1952 لم يتهادن مندور مع السلطة ولا مع أساسها الاجتماعي، وكان ينتمي إلى يسار الحركة الوطنية، بل إلى أقصى يسارها. وبعد 1952 أكد على ضرورة الديمقراطية السياسية، وحاول أن يخوض عام 1957 معركة الانتخابات لمجلس الأمة عن دائرة المنيل في القاهرة أمام مصطفى كامل مراد على أساسٍ من برنامج متسق الوطنية والديمقراطية، وكان أكثر يسارية من بعض الاتجاهات الماركسية التي أيدت في البداية مصطفى كامل مراد على أنه من «ضباط الثورة» كما أيدت أحمد سعيد مذيع صوت العرب الشهير في دائرة مصر القديمة المجاورة أمام «سيزا نبراوي» حتى رفض المرشحان الحكوميان تأييد هؤلاء الماركسيين لأنهم في الزعم الكاذب عملاء للاتحاد السوفيتي أما محمد مندور فقد رحب بالتعاون مع اليسار الشيوعي في حملته الانتخابية، ودافع عن برنامج الجبهة الوطنية الديمقراطية، ولم يكن عجيبًا أن اعترض عليه «الاتحاد القومي» ومنعه من الترشيح بحجة مدعاة وهي علاقته «بالوفد»، ويعلم الجميع أن مندور كان ممثلًا للشعب داخل الوفد، وكان يسجن متهما بالشيوعية وتوضع العقبات أمام قيامه بالعمل الأكاديمي والصحفي من جانب وزراء الوفد وبعض قادة الوفد، كما لم يشترك مندور في البيان الذي كتبه عدد من اليساريين المعترض عليهم، يعلنون تأييدهم للرئيس على الرغم من اعتراضه عليهم.

وبمناسبة هذا الاعتراض، فلم يكن المطروح للمناقشة تأييد الرئيس فهو معلن في البرامج والمواقف السابقة، بل الاحتجاج على هذا الموقف المعادي للديمقراطية من جانب الاتحاد القومي الذي فرض وصايته على حق الشعب في الانتخاب، ومن المعروف أن المجلس الذي تمخض عن هذا الانتخاب ضم ما يزيد على العشرين عضوًا من الأعضاء السابقين للحزب السعدي حليف السراي والاستعمار دونما اعتراض.

ولم يتوقف مندور، بل جدد فكره ملتمسا السبيل إلى الاشتراكية، مناديًا بشكلٍ خاص من الواقعية الاشتراكية، وعلى الرغم من انتقاداته الخاطئة لبعض المفهومات الماركسية التي يتوهم أنها حتمية اقتصادية أو دوجماطيقية (تقريرية في ترجمة مندور) فقد عمد إلى محاولة تطعيم منهجه الديموقراطي الثوري بعناصر منها.

نموذج المثقف العضوي:

ويقحم برادة مفهوم جرامشي للمثقف العضوي في غير سياق، وكأنه حكم قيمة يمتدح المثقف العضوي مقابل التقليدي.

وبادئ ذي بدء يقرر برادة أن مندور مثقف عضوي لأنه ينتمي إلى الطبقة الريفية المتوسطة المتشبهة بالتقاليد وبتعاليم الدين الاسلامي والتي أسهمت عن طريق الفلاحين في البادية (11) أو بواسطة أبنائهم في المدن في الكفاح من أجل الاستقلال (ص 67 وهامش 26 ص 83)، وقد بحثت في مرجع برادة وهو «الأرض والفلاح» لإبراهيم عامر ص 115 وما بعدها عن «البادية» فلم أجدها بطبيعة الحال ولعله يقصد الريف).

ويواصل القول «ولا شك في أن حزب الوفد الذي كان يقوده في البداية زعيم «فلاح» قد جعل منها (الطبقة الفلاحية) أداة سياسية قادرة على إحراز الاستقلال وامتلاك السلطة.

ومن المعروف أن الفلاحين بالتحديد أو كتلتهم الأساسية «على الرغم من قيامهم بوظيفة جوهرية في عالم الإنتاج، لا يقدمون أو ينتجون مثقفيهم العضويين، ولا يتمثلون أي شريحة من المثقفين التقليديين، على الرغم من أن الطبقات الأخرى تأخذ من الفلاحين مثقفيها (أبناء الفلاحين) كما أن نسبة عالية من المثقفين التقليديين من أصل فلاحي» (كلمات جرامشي من مختارات من دفاتر السجن- طبعة لورنس آند ديشارت الإنجليزية ص 6).

فالفلاحون المتوسطون لا ينظمون أنفسهم بأنفسهم، وليست لهم أيديولوجيتهم المستقلة، ومن النادر أن يكون لهم تنظيمهم السياسي الذي يقودونه كقوةٍ مستقلة.

وكلمة مثقف تقليدي لا تعني ازدراء أو نقصا في المكانة عند جرامشي بل تعني المثقفين الذين يمثلون استمرارا تاريخيا في المجال الثقافي لا تقطعه التغيرات الجذرية في الأشكال السياسية والاجتماعية. وهم يرون أنفسهم المستقلين عن الطبقة السائدة (ص ٧) - وتضم فئة التقليديين كل الفنانين الإبداعيين والمتعلمين عمومًا. أما المثقف العضوي فهو على علاقة أكثر مباشرة بالبنية الاقتصادية لمجتمعه، مثل المنظم الرأسمالي (لا أعلم إن كان يقصد بها كلمة المنتمي مثلا أم لا)، مثلا، وهو يحيا حياة طبقته ملتصقا بها منظما لها ناشرا وعيها.

ولا تعني التقليدية هنا أنها في تضاد مع التجديد والعصرية، بل تصف المثقف المستمر عبر التاريخ داخل التراث الثقافي.

ولا أظن أن إدخال صفة العضوية على مندور بمعنى عضويته في الحركة الوطنية، ثم سحبها منه بعد ذلك، مما يفيد كثيرًا. ومن الملاحظ أن الحدود الطبقية عند برادة مطاطة إلى أقصى مدى فهو يعتبر سعد باشا زغلول الوزير قبل الثورة (١٩١٩) والمحامي المثقف وصهر أحد كبار الملاك «فلاحًا».

عودة إلى النقد:

والجديد الباقي عند مندور، أنه يركز نظره في الأدب باعتباره فنا لغويا، وموضع دراسته أو طابعة العلمي لا يأتيه من علم الاجتماع أو النفس أو نظرية التطور، بل من علوم اللغة ومناهج اللغة (في الميزان الجديد ص 181). واللغة عنده لبست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات (ص 185)، وهو يقارن بين عبد القاهر الجرجاني، وبين «رأس علم اللسان الحديث» فرديناند دى سوسير (رأس البنيوية) (ص 186) وهو لا يرفض روح العلم، وإن يكن يرفض العلموية المزيفة التي تطبق قوانين العلم الطبيعي والنفسي علي الأدب (ص 192). ويقترب مندور من إحاطة شاملة بالشعر فهو طبع ودوافع وإرادة، وجهد وصناعة، ولكنه يعود بالأدب إلى الدراسة اللفظية التي أفسدته وسلبته روحه. فاللغة مستودع تراثنا الروحي، ومن الثابت أننا لا نملك من أفكارنا وأحاسيسنا إلا ما نستطيع إيداعه لفظا الذي يوضح الفكرة ويميز الإحساس (ص194).

والفكرة والإحساس في الأدب عنده يولدان مجسمين في العبارة، فلا تدري أفطن الكاتب إلى الصورة أولا أم إلى موضوعها (أيذكرنا مندور بقول ماركس اللغة وعى عملى، واقع أول للفكرة).

والنقد عند مندور وضع مستمر للمشاكل، ولكل جملة أوبيت مشكلة داخل القصص، ولابد لنا من فلسفة كبيرة لنلاحظ ما يقع عليه بصرنا (الوقائع الجزئية) ، ونحن لأنقف عند الألفاظ أو الجمل وإنما تنظر في المعني عند تمامه والفراغ من تأليف عناصره التهابية. هكذا تكلم مندور بلسان الغد.

وهنا تجدر الاشارة إلى أن مندور يفرق بين الدراسات الأدبية وبين النقد الأدبي، وهو لا يقحم الذوق المدرب في الدراسة الأدبية التاريخ الأدب أو عرض مناهجه ومدارسه، ولكنه يؤكد على دور الذوق في نقد النصوص الأدبية فالنقد ليس تحليلا وفق قواعد جاهزة لعينة معطاة. إنه يقوم على إدراك عالم لا متناه متعدد الأوجه هو العمل الأدبي، ودون التذوق مرشدا لا سبيل إلى دخول هذا العالم.

ولن أستطيع عرض نظرات مندور وتطبيقاته، فهي حية اليوم كما كانت عند كتابتها أول مرة، يرددها الكثيرون دون أن يعوا انتسابها إلى المعلم العظيم.

والسؤال الذي يبقى: هل تستطيع البنيوية التكوينية أن تدرس فكرا في مرحلة انتقال من المضمون الديمقراطي إلى المضمون الاشتراكي، ومن تراكم العناصر العلمية والجدلية إلى تكاملها تعبيرا عن مواقع طبقية متناقضة لشرائح تتجه إلى وضع الطبقة العاملة في عملية طويلة الأمد حافلة بالتناقضات والمعوقات؟

وفي النهاية، لقد كان موضوعى نقد النقد، لذلك لم أقف طويلا عند ما في أطروحة الدكتور محمد برادة من نظرات نافذة وأحكام صائبة. وهي كثيرة تقدم زادًا للتفكير والاختلاف وطرح الأسئلة.

ومرحبا بالربط بين البنية والتاريخ.. ولكن أيمكن للتضادات التي تفسر التزامن أن تصلح لتفسير التعاقب في الزمان؟"

المعبود الجديد

أنا لست ناصريا ولست من أصحاب الدوجما من أي نوع ، لذلك تصيبني الدهشة من مواقف وأراء بعض القوى السياسية التي خضعت للمعبود الجديد المسمى بالاستثمار الأجنبي ، خضوعا يتناقض مع اعلانهم أنهم ناصريون أو يساريون أو حتى ديمقراطيون ليبراليون ، فكيف رأى جمال عبد الناصر الاستثمار الأجنبي ؟

لكن ما لم يقله عبد الناصر أن الاستثمار الأجنبي ليس مسألة اقتصادية بل هو في حقيقته مسألة سياسية فى المقام الاول، الامر الذى يفسر الى حد بعيد خبراتنا التاريخية والحالية مع هذا الاستثمار الأجنبي ، خبرات تبدء من عهد الخديوية الى الناصرية الى الجمهورية الجديدة.

لذلك تزداد الحاجة الى دراسة أوضاع الاستثمار الأجنبي ليس فقط داخل البلاد، بل أيضا فى المناطق الحرة المتناثرة داخل البلاد، لحسن تقدير النتائج وتأثيرها على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية وعلى تراكم راس المال و ميزان المدفوعات وعلى الاكذوبة التي يرددها الكثيرون حول حرية السوق وتأثيره على تشجيع الاستثمار.

الكثير من الاقوال الشائعة التي اقتربت من أن تصبح الحقيقة الوحيدة التي يتأثر بها ليس فقط الرأي العام بل القوى السياسية فى خضوع ذليل للتلقائية ولدعاية أصحاب المصلحة.

فتمردوا تصحوا (بمنتهى الادب رغم اقتراب هذا الادب من الانتهاء وتزايد الحاجة للعودة الى الكلمة الفرعونية الدالة على الاحتجاج سواء بمعناها الفرعوني أم بمعناها الحالي!)

كيف تجعل إسرائيل حياة المعتدلين صعبة

العنوان لمقال قديم نشر في سبعينات القرن الماضي وبرغم ذلك فمن الواضح ان إسرائيل مازالت تجعل حياة المعتدلين صعبة، بصرف النظر عمن هم هؤلاء المعتدلين، فما يسمى بالاعتدال رهن بالظروف التاريخية محل البحث، ومن المؤكد أن إسرائيل تجعل حياة الجميع صعبة وليس فقط المعتدلين في الزمان السابق، بل وفى زماننا هذا.

فالمشروع الاستيطاني التوسعي العنصري مازال يتلقى الدعم من القوى الاستعمارية الكبرى القديمة والجديدة ، دعم كان ممكنا تبريره أمام شعوب هذه الدول بالاستغلال البشع للهولوكست التي قام بها الغرب نفسه لإخفاء الحقيقة المرة في الدوافع والمصالح الاصلية في إنشاء ودعم إسرائيل ، فإسرائيل هي جزء من المشروع الاستعماري الكبير في منطقتنا ، مشروع يطمح لتأمين الحصول على مصادرنا الطبيعية وعلى تأمين الاستغلال ونزح الفائض الاقتصادي ، مشروع يدرك الأهمية الكبيرة لتأثير التغيير في منطقتنا على الصراع العالمي ، ولعل هذا التأثير يأتي على راس الأولويات ، حتى بعد اختفاء الكتلة السوفيتية

والتغيير الكبير في التوجهات السياسية والاقتصادية للصين الشعبية ، فما زال الصراع دائرا على أشدة واحيانا بالسلاح وخصوصا حول أطراف المصالح المستقرة.

وبدون إدراك هذه الحقائق المرة فإن مواجهة المشروع الاستعماري في منطقتنا والدفاع عن حقوق شعب فلسطين لن يكتب له النجاح ، والحديث يطول حول تأثيرات ونتائج التدخلات الاستعمارية في التغييرات الداخلية في بلدان المنطقة ، فبرغم أن التدخلات الاستعمارية كانت دائما موجودة منذ بزوغ الرأسمالية العالمية وحركة الاستعمار، الا أن التأثيرات الأكبر كانت مع تحقق الاستعمار المباشر وخلق وتأييد المصالح لطبقات اجتماعية تطمح للتحالف مع الرأسمالية العالمية ، واستمرت هذه التدخلات في زمن الاستقلال ، تدخلات بمختلف أشكال التدخل والتأثير بما فيها التدخلات العسكرية بالوكالة أم بشكل مباشر.

فحرب 1956 وحرب 1967 كانت التعبير الأمثل للحروب بالوكالة، وكالة الدولة القميئة مع الغير أم منفردة، حروب تصدى لها هذا القزم القميء الذي لا يستطيع الصمود وحده، ثم الحروب بالأصالة في العراق وسوريا وليبيا، لذلك كان توجه بعض الأنظمة للاستنكاف عن مواصلة الصراع مع القزم بدعوى أن الولايات المتحدة أصبحت طرفا في المعركة المحددة الدائرة بقوة السلاح ليس فقط مثيرا للسخرية حقا حين تتجاهل رؤساء العصابات وتكتفى بمواجه البلطجي الذي أرسلته، بل يوضح النوايا القادمة بالخضوع للسياسات الاستعمارية.

ويزداد الامر تعقيدا فيما يتعلق بفلسطين، فنحن لا نتحدث هنا عن استعمار أجنبي يحتل بلدا بشكل مباشر، بل عن استعمار استيطاني عنصري يطمح للبقاء بالتوسع وإحلال السكان، لا يضع لنفسه حدودا في التوسع وفى استخدام أبشع الأساليب اللاإنسانية، مروجا لأقاصيص الاولين الدينية ومضخما لبشاعات الهولوكست وخالقا لقومية يهودية مدعاة بين يهود العالم، للحصول على تأييد اليهود والشعوب والأمم، ومتحالفا مع القوى الاستعمارية الكبرى، عبر الزمان، وفى خدمتها.

ان تاريخ الصراع ضد الاستعمار الصهيوني، قبل وبعد إنشاء إسرائيل ، في منطقتنا ، ملئ بالأخطاء الفكرية والاستراتيجية ، أخطاء حسابات موازيين القوى ونقص الاستعداد وسوء التقديرات السياسية والعسكرية بل وحتى الى مستوى سوء اختيار الاستراتيجية والتكتيك العسكريين ، ويبقى من أهم الأخطاء الاستجابة العكسية للدعاية الصهيونية ، والغريب أنه كان مسموحا بالدعاية والتنظيم الصهيونيين في مصر لسنوات طوال منذ ظهور الصهيونية كحركة سياسية في نهاية القرن التاسع عشر، صهيونية ظهرت في مصر بقيادة اليهود المهاجرين من أوروبا هربا من الاضطهاد برغم تشكك وحرص اليهود المصريين ، ظهور تشكل في منظمات سياسية واجتماعية وصلات مع كبار اثرياء العائلات اليهودية وجمع للتبرعات ، لقد أسفر الامر في النهاية وعبر مراحل تطور الصراع في فلسطين عن تغيير المزاج الجماهيري وبدء تغيير مواقف السلطات المصرية ، تدريجيا في نهاية العهد الملكي وما بعده ، فالاستجابة الرسمية ، الغير معلنة ، والشعبية المعلنة هي المساواة بين الصهيونية كحركة سياسية علمانية وبين اليهود ، ونزع الصفة الوطنية عن أي يهودي حتى ولو كان معاديا للصهيونية ، والترويج لدعوى عنصرية معادية لليهود وأحيانا متلبسة بدعاوى دينية ، دعاوى عنصرية لعبت فيها بعض القوى السياسية المصرية دورا هاما وبالذات

الاخوان المسلمين ومصر الفتاة ، الامر الذى ساهم في أنتشار الصهيونية داخل بلادنا العربية بين اليهود وتزايد هجرتهم سواء كاستجابة للضغوط الحكومية أم للعداء الشعبي المتزايد ، الامر الذى أسفر في النهاية أن نصف السكان اليهود في فلسطين المحتلة 1948 هم من اليهود العرب ، رغم أن الكثيرون منهم قد هاجروا لبلدان الغرب والبلدان التي تقبل الهجرة .

لقد كشفت التطورات السياسية والعسكرية منذ الحرب الأولى سنة 1948، وحتى فيما قبل الحرب الأولى وحتى الان ، عن تكرار السياسات التي أصبحت كلاسيكية ، سياسات لا يمكن في الحقيقة ترقيتها الى مستوى الأخطاء بل هي سياسات دول ومنظمات تعكس واقعها الاجتماعي والقوى السياسية التي تمثلها ، فالنشاط الصهيوني كان مسموحا به ويمارس داخل البلاد العربية ، وجمع التبرعات كان على قدم وساق ، والاشتراك في الأنشطة الثقافية في الجامعة العبرية كان يتم من بعض من كبار المثقفين المصريين مبكرا وقبل إنشاء إسرائيل ، هذه الجامعة التي نال ستة من أساتذتها جائزة نوبل في العلوم ، ونحن نفخر بمهاجر مصري نالها وذهب الى إسرائيل ليعطى محاضرات مدعيا أن العلم ليس له وطن !

فحرب 1948 تخوضها البلدان العربية والمتطوعين منها ، كلا لأغراضه الخاصة ، وهي غير مستعدة سواء من حيث توحد الإرادة السياسية أو من حيث حجم القوات والتسليح أو حتى بالبحث عن حلفاء بين من ساندوا المشروع الصهيوني ، فينجح صهاينة مهاجرون يبلغ تعدادهم 750 الفا في حشد قوات تبلغ ضعف عدد القوات العربية وافضل تسليحا وتدريبا ، فلا تكتفى الصهيونية بقرار التقسيم الذى كان يعطيها 55% من فلسطين التاريخية وتستولى على 76% من الأرض وتضم الضفة الغربية لمملكة الأردن ويتحقق هدف حاكمها ويخضع قطاع غزة بعد تقزيمه للإدارة المصرية ، ولا تنشا دولة فلسطين طبقا لقرار التقسيم ويجبر 800 الف فلسطيني على اللجوء داخل الضفة والقطاع والدول العربية المحيطة ، ويترتب على هذا الوضع قيام الدول العربية بحماية أمن إسرائيل من الزاوية الفعلية ، فحركات المقاومة الفلسطينية في الضفة والقطاع كانت تتعرض للقمع بدعوى اتاحة الفرصة للبلدان المحيطة لبناء قوتها لمواجه إسرائيل ، الامر الذى أنهار بعد حرب 1967 حيث سمح للمقاومة بالعمل بتأييد الدول العربية واحيانا رغم أنف بعضها .

حرب 1956

وتحدث حرب 1956 كاشفة عن الوجه الحقيقي لإسرائيل ودورها، فمساهمتها مع القوى الاستعمارية التقليدية والقديمة كان بالغ الدلالة في محاولة وقف المشروع الناصري الذي اتضحت بعض من جوانبه في رفض الاحلاف وتنويع مصادر السلاح ثم تأميم قناة السويس وتأسيس حركة عدم الانحياز، ولم تحقق الحرب أهدافها رغم التفوق العسكري، نتيجة للصمود المصري وتأييد الحلفاء والاختلافات داخل الدول الغربية، لكن إسرائيل تحصل على مكسب جديد وهو حق المرور في خليج العقبة.

ويتضح واقع السياسات الإسرائيلية في سياسات الخطوة خطوة، فهي ليست اختراعا كسنجري، بل هي اختراعا صهيونيا، فإسرائيل دولة بلا حدود وتتوسع حسب قدرة الجيش، المسمى زورا بجيش الدفاع، الامر الذي يتأكد في حرب 1967.

حرب 1967

وتأتى حرب 1967 معبرة على السلوك الفعلي العدواني التوسعي لإسرائيل وفى خدمة المصالح الاستعمارية العالمية ، فما فشلت فيه القوى الاستعمارية القديمة في تقويض المشروع الناصري وبعد ان أصبحت المهمة منوطة بقيادة الولايات المتحدة الامريكية وبعد فشل محاولات الاحتواء الطويلة ، تتصدى إسرائيل للمهمة بدعم كامل من القوى الاستعمارية ، ما عدا دولة كبرى غربية واحدة هي فرنسا ، ويبدو ان موقف فرنسا الاستعمارية العريقة استثناء نتيجة لوجود زعيم تاريخي أكثر إدراكا للتغييرات العالمية ، وفى كل الأحوال تنتهى السياسات الفرنسية المستقلة باختفائه من المسرح السياسي ، و تأتى الحرب والدول العربية غير مستعدة لها ، فالجولان تحتل بدون قتال فعلى لانسحاب الجيش السوري لحماية الثورة في دمشق ، والضفة الغربية تحتل بقتال محدود في مواجهة جيش صغير غير معد ، رغم أن الأردن لم يشارك في المعركة ، وتحتل سيناء بانهيار القيادة العسكرية المصرية كاشفة عن ضعف القيادة وتشتتها وضعف التدريب والاستعداد والحديث يطول عند معرفة كافة التفاصيل التي بحثتها القوات المسلحة المصرية في دراسة كبيرة وطويلة تدرس في كلية القادة والاركان ، لكنها دراسة داخلية سرية غير متاحة للرأي العام ، والهام هنا أن السبب الذى أتخذ " سبوبة " لبدء الهجوم الإسرائيلي هو إعادة اغلاق خليج العقبة ، اغلاق كانت القيادة السياسية المصرية تدرك انه إعلانا للحرب ولكنها لم تكن تدرك أنها غير مستعدة لها ، فتنهار القيادة السياسية لكن ، ويا لها من لكن ، يتدخل الشعب المصري تدخلا حاسما برفض الهزيمة ويصر على بقاء الزعيم الذى يثق به.

وتتحقق الأهداف الإسرائيلية باستيلائها على الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وسيناء واقترابها من تحقيق الحلم الصهيوني، فسيناء والضفة والجولان هي أجزاء من إسرائيل الكبرى ولم يتبق إلا شرق الأردن وشمال جزيرة العرب، وتبدء في تطبيق سياسات الاستيطان بشكل تدريجي وبالتركيز بشكل خاص على الضفة الغربية، لكن الأكثر أهمية أن التمرد على النفوذ الاستعماري الذي تقوده مصر أصبح تحت ضغوطا كبيرة الامر الذي أسفر عن الانسحاب من اليمن والمصالحة مع الأنظمة العربية الأخرى والانكفاء للدفاع عن النفس.

لكن قوانين الحياة تفعل فعلها فالهزيمة تؤدى الى استيلاء المنظمات الفلسطينية المقاتلة والسرية والغير معترف بها على منظمة التحرير الفلسطينية، المنظمة الشكلية التي أنشأتها الدول العربية، ويصبح شعار المنظمة هو تحرير فلسطين من النهر الى البحر بإنشاء دولة واحدة تستوعب الجميع دون دعاوى " القاء اليهود في البحر "، ويصبح هناك تمثيل سياسي مستقل للشعب الفلسطيني للمرة الأولى بعد 1948، لكن هل حقا وفعلا تبنت المنظمة في طورها الجديد هذا التوجه في سلوكها العملي؟

سياسات الدولة الديمقراطية الواحدة

إن هدف إنشاء دولة ديمقراطية واحدة على كامل التراب الفلسطيني تستوعب الجميع يتطلب تبنى سياسات تؤدى الى ذلك ، سياسات تخضع العمل العسكري والسياسي له ، فمثل هذا الهدف يتطلب كسب موافقة سكان الأرض المحتلة علية ، كما يتطلب تأييدا دوليا شعبيا يشل أيدى الحكومات

الاستعمارية عن تأييد المشروع الصهيوني ، كما يتطلب مساندة شعبية عربية تضمن مساندة الدول العربية الرسمي والشعبي ، كما يتطلب وضعا دوليا مؤاتيا ، هدف يحتاج وقتا وجهدا وتضحيات وضبطا للسلوك لا يستجيب لاستفزازات ووحشية العدو الصهيوني وحلفاء القوى الاستعمارية في بلادنا ، وللأسف الشديد فإن السلوك الفعلي للمنظمات الفلسطينية كان مازال يتبنى منطق " رمى اليهود في البحر " وانتظار الفرج بهزيمة دول الطوق العربية لإسرائيل هزيمة ماحقة تزيلها ، الامر الذى انعكس في سلوكها الفعلي بالتدخل في الشؤن الداخلية للبلدان العربية المستضيفة وخطف الطائرات وعدم التفرقة بين السكان والقوات المسلحة للعدو في الاعمال العسكرية ، وعدم إقامة صلات مع القوى السياسية في الأرض المحتلة التي تتفق مع هدف الدولة الواحدة ، سلوك عم جميع المنظمات الفدائية بدرجات مختلفة من التفاوت.

وإذا كانت منظمة التحرير قد رفضت قرار مجلس الامن رقم 242 الصادر سنة 1967 لأنه يتضمن الاعتراف بإسرائيل وبالمرور في الممرات الدولية (خليج العقبة وقناة السويس) ولا يتضمن حق العودة للاجئين ولا يعالج القضية القومية الفلسطينية ، وبرغم قبول مصر للقرار فإن إسرائيل معتمدة على الصياغة المكيافيلية البريطانية لنص القرار باللغة الإنجليزية، الذى يتحدث عن الانسحاب من إراضي محتلة بدلا من الأراضي المحتلة في النص باللغة العربية ، تطالب بتعديلات حدودية و بالمفاوضات المباشرة ، أي أن إسرائيل وهى تدرك اختلال موازين القوى لصالحها لا تثمن التنازل الكبير الذى قدمته مصر في عهد الزعيم الكبير وتجعل حياة الذين اعتدلوا جزئيا صعبة.

حرب الاستنزاف وأيلول الاسود

وتدور معارك ساخنة على جميع الجبهات وتشكل مصر وسوريا والمنظمات الفلسطينية المشارك الرئيسي فيها، معارك تطورت وبالذات على الجبهة المصرية الى ما أطلق علية حرب الاستنزاف، حيث عمدت في النيران قوات الجيش المصري المعاد تنظيمها وتشكيلها وتسليحها، معارك شكلت ضغطا كبيرا على كل المشاركين فيها، وتأتى مبادرة روجرز الثانية مقترحه أسسا للاتفاق بين مصر وإسرائيل، فهي تنص على

- 1وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر قابلة للتمديد

– 2الاعتراف المتبادل بين مصر والأردن وإسرائيل وحرية المرور في خليج العقبة وقناة السويس

-3الانسحاب من الأراضي التي احتلت وحل مشكلة اللاجئين

-4تعيين ممثل من كل دولة للتفاوض مع مبعوث الأمم المتحدة لتنفيذ قرار مجلس الامن رقم 242

وتوافق عليها مصر مع ملاحظات بان يشمل الاتفاق جميع الأراضي المحتلة والحقوق المشروعة لشعب فلسطين.

ويبدو الامر دراميا، فإسرائيل تطمح لوقف إطلاق النار فقط والولايات المتحدة سعيدة بقبول مصر للمبادرة التي تؤكد قبول مصر لقرار مجلس الامن ، ومصر تحتاج لمهلة لاستكمال بناء حائط الصواريخ ، فالكل يغنى على ليلاه ولا نية حقيقية في التنفيذ من الولايات المتحدة وإسرائيل ، لكن قبول المبادرة شكل صدعا في جبهة المقاومة واضطربا سياسيا كبيرا بعد الهجوم العلني والحاد من المقاومة الفلسطينية على عبد الناصر ، فتهيء المناخ السياسي لتصفية وجود المقاومة الفلسطينية في مركزها الرئيسي في الأردن فيما سمى بأيلول الأسود ، وترحل المقاومة مجبرة الى لبنان وتتحرر إسرائيل من ضغط كبير.

ويبدو كما لو كان الامر لعبه مجنونة ، قرارات من مجلس الامن ومبادرات أمريكية بحيث بدى كما لوكان الهدف هو حماية إسرائيل وتحقيق ديمومة دورها ، لكن لأشيء يتحقق ، فالهدف كان اوسع من ذلك كثيرا ، لقد كان الهدف الأساسي تطويع الدول العربية المتمردة بتغيير سياساتها الدولية وإجراء تغييرات داخلية تضمن ضمان وديمومة هذه التغييرات مع حماية إسرائيل بالطبع فهي عامل أساسي في ديمومة هذه السياسات ، فليست فقط إسرائيل التي تجعل حياة المعتدلين صعبة بل هو اللهو الخفي القابع خلفها في حقيقة الامر، لمن يريد أن لا يتجاهل الحقائق.

حرب 1973

ويستمر وقف إطلاق وتوسيع الاستيطان والكفاح المسلح الفلسطيني من لبنان وفق نفس السياسات العملية ، وتحاول القيادة السياسية المصرية الجديدة البحث عن حلول سلمية وتجنب الوسائل العسكرية وسط ضغط شعبي يتزايد ، ضغط شعبي يمتد من المجالي الطلابي الى المجالات المهنية والعمالية وبين المثقفين ، واختلافات داخل القوات المسلحة حول طبيعة الاستراتيجية الواجب اتباعها مع تدهور العلاقات مع الحليف الوحيد القادر على إمداد القوات المسلحة بإحتياجاتها ، وتتجاهل الولايات المتحدة محاولات القيادة المصرية في الاتصال للحصول على حلول سلمية ، ولا يصبح هناك بديلا عن خوض معركة كبيرة وفق استراتيجية لم تكن توافق عليها القيادات السابقة للقوات المسلحة ، وتتحسن جزئيا العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ، فتقع حرب 1973 حيث تتفاجئ إسرائيل وحلفائها بالهجوم المصري السوري المتزامن لأسباب متعددة ، وبرغم النجاح الباهر في الأيام الاولى من القتال فإن القيادات السياسية والعسكرية المصرية تقرر عدم تطوير الهجوم وتبلغ أمريكا في رسائل يحملها مسؤول الامن القومي المصري بعدم نيتها تطوير الهجوم يوم السابع من الشهر بعد يوم واحد من بدء القتال ، تطوير ما زال النقاش يدور حولة بين كبار العسكريين والسياسيين ، وليس هنا محل التوقف حولة ، لكن الامر الهام أن الاستراتيجية والتكتيك العسكريين كان يتفق مع الهدف السياسي من الحرب الذى تبنته القيادة السياسية المصرية ، أي الوصول الى حل سلمى يضمن استعادة مصر لأراضيها المحتلة وإنهاء الصراع مع إسرائيل وخروج مصر من جبهة الصراع.

ويتم التحرك ببطء شديد حيث يتم الاتفاق الأول للفصل بين القوات على الجبهتين المصرية والسورية، ثم الاتفاق الثاني للفصل بين القوات على الجبهة المصرية معلنا بداية النهاية للتوحد بين الموقفين

المصري والسوري بعد أن تعرض لخطر داهم أثناء الحرب لعدم التزام مصر بالاتفاق باستمرار القتال حتى الوصول للممرات ثم التوقف وقفة تعبوية.

وبدا الامر كما لو كان تعنتا من جانب إسرائيل، فلقد حصلت على كنز استراتيجي كبير باستعداد مصر بالخروج من دائرة الصراع، لكن الحقيقة أن هذه النوايا المصرية كان المطلوب تحققها على الأرض كي يضمن الطرف الأساسي ديمومتها، أي الولايات المتحدة الامريكية، أي تغيير السياسات والتحالفات الدولية والبدء في تغيير البنية الاجتماعية الداخلية وتفكيك البنيان الاجتماعي الناصري وفتح قناة السويس.

كامب ديفيد

لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فبرغم أن الشعب المصري قد وقع في حبائل دعايات النظام حيث لم تكن المعارضة قادرة على توضيح مسار الصراع ، رغم أنها كانت تدرك بشكل مبكر على حرب 1973 كيف ستتم هذه الحرب وماهي الأهداف السياسية من ورائها ، معارضة لم تتنبه للأهمية الحاسمة لتوعية الجمهور الثائر الذى كانت تقوده هي بنفسها قبل حرب 1973 بما هو أتى، فأصمت الجماهير أذانها عن الدعاية اللاحقة وحقق النظام هدفة الأول بتخفيف الضغوط الداخلية ، لكن احتدام الازمة الاقتصادية وتلكؤ الولايات المتحدة للأسباب السابق الإشارة اليها ، دفع الجماهير المصرية الى هبة جماهيرية ليس لها مثيل من أجل أهداف اقتصادية صغيرة ، هبة جماهيرية تلقائية أثارت فزع النظام فأستخدم القوات المسلحة وشن حملة اعتقالات كبيرة متهما الشيوعيين وعلى راسهم حزب العمال الشيوعي المصري بشرف لم ينالوه ، فلا أحد يمكنه تنظيم هبة جماهيرية كبيرة.

لقد ادركت القيادة السياسية المصرية أن الوقت ينفذ وأن المهلة التي حصلت عليها بحرب أكتوبر قد قاربت على الانتهاء ، فالإضرابات العمالية تتزايد ، والحركة الطلابية تتصاعد من جديد ، والمنظمات الشيوعية السرية يزداد نفوذها وتأثيرها وانتشارها ، خصوصا أكثرها راديكالية ، ثم الإنذار شديد اللهجة بانتفاضة 18 و19 يناير 1977، فتتم زيارة القدس ، وبدا كما لو كانت إسرائيل في ظل حكومتها الجديدة الليكودية لا تدرك أن الفرصة السياسية المتاحة على وشك الانتهاء ، فتتمسك بمطالب صغيرة مثل الاحتفاظ بمستعمرات شمال سيناء وبنقاط مراقبة واستطلاع في وسطها ، مطالب كان لا يمكن لأى قيادة مصرية قبولها ، لكن الطرف الأصيل كان يدرك أن الوقت قد حان للاتفاق ، فمصر غيرت من سياستها في المنطقة والعالم ، والتغييرات الداخلية جارية على قدم وساق ، والمخاطر الداخلية تتفاقم ، فتم الاتفاق بما يحفظ الحد الأدنى من سمعة القيادة المصرية ، رغم المثالب الكبيرة للاتفاق ، سواء من حيث المناطق المنزوعة السلاح أم التطبيع الإجباري ، والتغيير الكبير في موازين القوى في المنطقة لصالح النفوذ الاستعماري ، لقد كانت اتفاقية كامب ديفيد كارثة قومية كبرى ما زالت تؤثر حتى الان على مصير المنطقة وعلى مسار الصراع الدائر داخلها.

وبرغم ان اتفاقية كامب ديفيد كانت تمثل تغييرا استراتيجيا كبيرا، إلا أن منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها المقاتلة لم تدرك الأهمية الحاسمة لتغيير الاستراتيجية والتكتيك ، ولا يقصد من ذلك التخلي

عن الكفاح المسلح بل تبنى استراتيجية تضع الكفاح المسلح في خدمة السياسة التي سبق توضيح أهم جوانبها ، فتحدث حرب لبنان عام 1982 في عملية عسكرية كبيرة لجيش العدوان الإسرائيلي سميت "عملية السلام للجليل " وتحاصر بيروت وتخرج منظمة التحرير من لبنان الى تونس ، ولا أريد اسقاط خبرة الماضي على ما يجرى الان في لبنان ، فسياتي أوانها لاحقا ، لكن الامر بدا كما لوكان نهاية لحركة التحرير الفلسطينية في طورها الثاني بأساليبه واستراتيجيته الفعلية ، لكن الرياح لا تأتى بما تشتهيه السفن.

الانتفاضة الفلسطينية الاولى

فتحدث الانتفاضة الفلسطينية الأولى سنة 1987، انتفاضة الحجارة ، كان طابعها الأساسي سلميا ، انتفاضة أثرت تأثيرا كبيرا في الراي العام العالمي وطرحت افقا مختلفا لحل القضية الفلسطينية وساهم فيها الفلسطينيون داخل الخط الأخضر ، وبعد تغيير موقف المنظمة المعلن بتخليها عن الدولة الديمقراطية من النهر الى البحر ، بدأت المفاوضات في واشنطن بين وفد من زعماء الحركة الشعبية في الضفة والقطاع بقيادة الحكيم الكبير حيدر عبد الشافي ، لتستمر المفاوضات 22 شهرا منذ 1992 وتنهار لتمسك الوفد الفلسطيني بضرورة وقف الاستيطان.

لكن في نفس الوقت كانت تتم مفاوضات أخرى سرية في أوسلو بقيادة ممثلين عن منظمة التحرير من فتح لتنتهي باتفاق أوسلو بإنشاء الحكم الذاتي المفترض أن يكون انتقاليا ، أتفاق لم تكن إسرائيل مستعدة لتنفيذه ألا فيما يخص إنشاء ما يسمى بالسلطة الوطنية الفلسطينية واعتراف منظمة التحرير بإسرائيل في أتفاق رسمي ، لينتهي بذلك الطور الثاني من الحركة الوطنية الفلسطينية وتتعفن منظمة التحرير وتتحول السلطة الفلسطينية الى أحد أدوات القمع ، وبرغم أن كل المنظمات الفلسطينية الأخرى ترفض الاتفاقية إلا ان سلوكها الفعلي يختلف عن ذلك ، فجميعها تشارك في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني ، والمؤسف أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، القوى الثانية داخل الحركة الوطنية الفلسطينية في طورها الثاني، ترسل أمينها العام الى الضفة فتغتاله إسرائيل في مكتبة ، والمسؤول التالي مازال يقبع في سجون الاحتلال ، وتتهيأ الفرصة السياسية لنشوء وتمدد المنظمات السياسية الاسلاموية التي لا تقدم بديلا حقيقا للسياسات السائدة داخل الحركة الوطنية الفلسطينية بل تمثل خطوة الى الوراء ، ويعود من جديد حل " رمى اليهود في البحر" ، مغلفا بغلاف ديماغوجي ديني ، ويغتال عرفات في مسكنة المحاصر ، بحيث يبدو الامر كما لو كانت إسرائيل وسادتها لا تجعل حياة المعتدلين فقط صعبة بل مستحيلة ، ويتوسع الاستيطان توسعا كبيرا ليصل عدد المستوطنين في الضفة و القطاع الى 750 الفا ، ويتضح بجلاء وهم حل الدولتين.

ولابد من الإشارة الى تحقيق الانتفاضة الفلسطينية مكسبا سياسيا هاما، رغم الخسائر الكبيرة المترتبة على اتفاق أوسلو الذي ترتب علية انتهاء الطور الثاني للحركة الوطنية الفلسطينية، هذا المكسب هو تزايد إدراك الرأي العام العالمي للقضية الفلسطينية بسبب النضال الفلسطيني وطابعة اثناء الانتفاضة

وبسبب الوحشية الإسرائيلية في مواجهتها، لكن ذاكرة الرأي العام قصيرة، فالأمر يتكرر الان وسط ظروف دولية وإقليمية وسلوك مختلف من الأطراف، ولنا عودة.

بين الوعد الصادق والجزاء العادل

ولعلنا في حاجة للتوقف قليلا أمام الحرب اللبنانية الإسرائيلية عام 2006، حرب بين حزب الله وإسرائيل، حيث صمد حزب الله أمام الاجتياح الإسرائيلي في قتال بطولي استمر عدة أسابيع، حرب علقت عليها كونداليزا رايس بقولها " أن القتل في الشرق الأوسط هو مخاض الشرق الأوسط الجديد"، حرب ترتب عليها تحقيق الأهداف الإسرائيلية بإبعاد حزب الله الى ما خلف نهر الليطاني واحضار قوات طوارئ دولية للجنوب اللبناني.

حرب وصفها حزب الله بالوعد الصادق وإسرائيل بالجزاء العادل وتحدث عنها زعيم حزب الله بانة ولو كان مدركا لنتائج الحرب والتدمير الكبير في المدن والبلدات اللبنانية لما كان قد أقدم عليها ، ومنذ ذلك الزمان عم الهدوء النسبي للجبهة اللبنانية حتى الحرب الحالية ، ولعلنا في حاجة الان للتوقف امامها فهي في الحقيقية هدف هذا المقال ، وكان الاستعراض السابق للتعلم من دروس الماضي لعلنا نستطيع الوصول الى استراتيجية وتكتيك جديدين لمواجهة تعاظم الهجمة الاستعمارية واداتها المتوحشة في المنطقة ، إسرائيل ، محققين الهدف الاسمى بهزيمة الصهيونية ، وإقامة الدولة الديمقراطية على كامل التراب الفلسطيني من النهر الى البحر ، هدفا لا يمكن تحقيقه إلا بالتزاوج العميق مع انبعاث حركة تحرر وطني جديدة على الأقل في البلدان المحيطة بفلسطين ، حركة تحرر ذات برنامج اجتماعي وسيأسى يمكننا أن نطلق على برنامج الحد الأدنى له ببرنامج الديمقراطية الثورية.

طوفان الأقصى بين الوهم والحقيقة

لعلنا في البداية نحتاج الى توضيح أن من حق الشعوب أن تقاوم الاحتلال والاستيطان بكافة أشكال الكفاح المسلح وغير المسلح، لكن استخدام الأساليب المختلفة وتزاوجها من عدمه رهن بالهدف السياسي وبموازين القوى الفعلية في ميدان المواجهة ، بصرف النظر عن التوجهات الفكرية والعقائدية للمنظمات التي تقوم بها ، فلقد قدمنا انتقادا عنيفا لوقوع المنظمات اليسارية والغير يسارية في خطأ وخطيئة وضع هدف إزالة إسرائيل فيما قبل أتفاق أوسلو اللعين ، في السلوك الكفاحي العلني الذى تبنتة ، من خطف الطائرات وعدم التفرقة بين المدنيين والعسكريين وغيرها من الأخطاء وصولا الى انتحارها بقبول اتفاقية أوسلو ووئد الانتفاضة الفلسطينية الأولى، وقبولها لوهم حل الدولتين ، سواء رسميا أم في سلوكها الفعلي.

ولان طوفان الأقصى من السابع من أكتوبر سنة 2023 قد تحول الى حرب إقليمية محدودة تمتد من اليمن والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وإيران، وبحيث تروج الدعاية الغربية والإسرائيلية كما لو كان حربا بالوكالة بين إيران وإسرائيل، وهو وهم يجب تجنب الوقوع فيه مهما كان راينا في النظام الإيراني وطابعة ودورة ، والأكثر أهمية ليس التوقف عند الدور الإيراني بل عند حركات المقاومة العربية وتقديرات القوى السياسية المصرية والعربية المؤيدة لها ، وقبل وفوق كل هذا الشعور الشعبي المساند بحرارة.

وقبل التعرض للسابع من أكتوبر لابد من التوقف قليلا حول الانتفاضة الشعبية داخل الخط الأخضر التي انطلقت قبلها بشهور معدودة، انتفاضة لم تشكل حدثا معزولا ذو دوافع محلية، بل حدث يتكرر بأشكال واتساع مختلف عبر سنوات طوال، لكن ما نود التوقف حوله الان كيف استجابت لهذه الانتفاضة، لقد استجابت بإطلاق صواريخها المفتقدة للدقة فساهمت في انطفاء الانتفاضة.

ويأتي السابع من أكتوبر بهجوم حماس على المستوطنات القريبة بهدف الحصول على أسرى مشكلتا مفاجأة لإسرائيل ، وتعم الفوضى ويعبر الحدود الحابل والنابل ، وتتم عمليات تصفية بين المدنيين والعسكريين و الحصول على أسرى متنوعين من العسكريين والمدنيين وكبار السن والأطفال ، الامر الذى أثار احتجاجات من الرأي العام العالمي ، بصرف النظر عن احتجاجات الدول لاستعمارية الكبرى الدائمة لأى عمل فلسطيني مقاوم حتى ولوكان الصلاة في الأقصى ، ولا ينقذ حماس من سوء تصرفها وعدم إحكامها لقيادة العملية وفى أعقابها إلا التوحش الإسرائيلي اللاحق الذى اثار احتجاجات عالمية واسعة النطاق شملت بعض من اليهود في العالم ، ويخفف من الامر بعض الشيء حسن معاملة حماس للأسرى والافراج عن البعض من كبار السن والامهات واطفالهم .

لكن تبقى الحقائق واضحة على الأرض فمثل هذا الهجوم بالطريقة التي تمت به كان ثمنه غاليا جدا باستشهاد عشرات الالاف من المدنيين وتدمير قطاع غزة تدميرا تاما ، كما أوضح استمرار الحرب لعام كامل حتى الان وهم أن إسرائيل لا تتحمل التعبئة العامة لمدة طويلة ، فهل يحتاج الامر ان نقسم بان إسرائيل هي جزء من القوى الاستعمارية العالمية وفى خدمتها كي نبرر خط الامداد المالي والعسكري من الولايات المتحدة وأساطيلها المرابطة خارج الحدود المائية الإسرائيلية المستعدة لحمايتها من منظمات لا تمتلك القدرة الكافية ليس لتدمير إسرائيل بل لحماية نفسها.

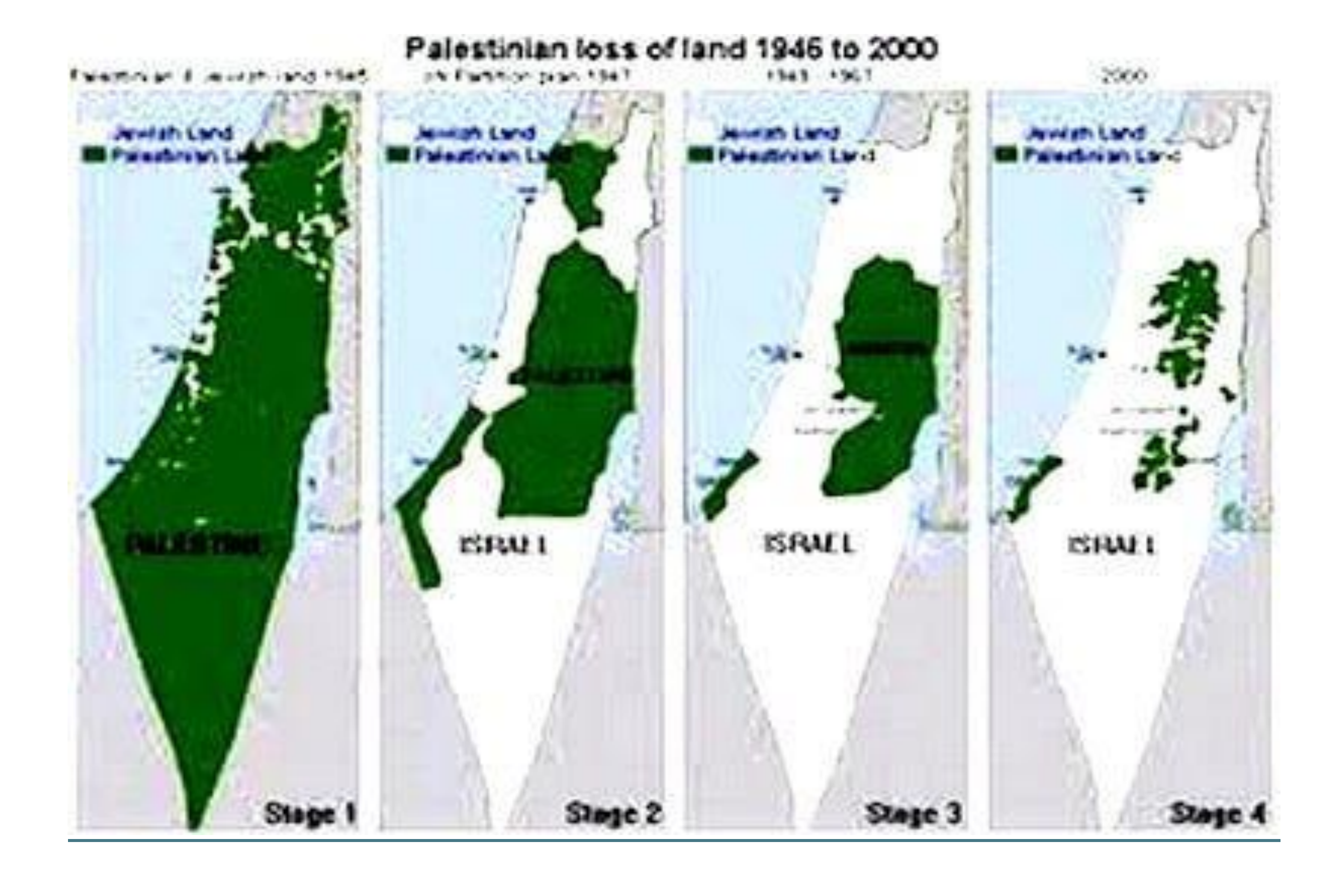
ولا يقتصر الامر على سوء التقدير السياسي لحماس، بل يمتد الى حزب الله اللبناني الذي تناسى خبرة حرب 2006 ودروسها، التي صرح بها الأمين العام الشهيد نفسه، فيعود الى نفس السلوك، فيتم تصفية قيادة حماس بما فيها الأمين العام نفسه ويتهجر مليون مواطن لبنان هجرة داخلية في مقابل 120 الف إسرائيلي تم تهجيرهم من الشمال، خسائر تمثل مقدمة ما هو أت الذى سيستمر لفترة قادمة.

ومما لا شك فيه أن الضحايا والدمار قد أدمى قلوب كل العرب وكل إنسان على وجه الخليقة، كما أنه لا شك في أن أي كفاح شعبي للتحرر من الاحتلال والاستعمار والنفوذ الأجنبي ستكون له ضحايا كبيرة، لكن مثل هذه الضحايا يمكن قبولها إذا كان مثل هذا الكفاح يؤدى الى خطوة في طريق التحرير، ولا يجب أبدا الوقوع في الأوهام بأن النصر قريب ونحن نرى أمام أعيننا كيف يحقق العدو مزيدا من الانتصارات رغم الكفاح البطولي القائم في وجهة ، فمن المكن أن تشكل الهزيمة المنتصبة أمام أعيننا مقدمة حقيقية لهزيمة العدو الصهيوني ، هزيمة ليست قريبة بل تحتاج الى الجهد والعرق والدموع والضحايا شرط تغيير الاستراتيجية والتكتيك بإتباع سياسات مختلفة ، هزيمة لا يمكن تحقيقها إلا بجبهة عربية ودولية مساندة متحررة هي أيضا من أوهام السياسات التي أدمت قلبونا منذ ما يتجاوز السبعون عاما.

يبقى أخيرا الإشارة أن هذه الاسرائيل ليست كلا جامدا موحدا لا يتأثر بما يجرى فيه وحولة، فمعدل الزيادة السكانية تناقص الى 1.4% سنويا ، وتزايد معدل الهجرة الى الخارج ليبلغ في التقديرات 750 الى مليون مهاجر غير معروف انتمائهم العرقي ، كما بدأت بعض التوجهات الفكرية المعادية للمشروع الصهيوني في التزايد بين اليهود داخل وخارج إسرائيل ، كما تناقصت أو انعدمت مصادر الهجرة من بلاد العالم وكانت اخرها هجرة اليهود من بلاد المعسكر السوفيتي ثم الفلاشا من اثيوبيا ، لكن في نفس الوقت ازداد نفوذ الاتجاهات التوسعية الاستيطانية الطامحة الى طرد العرب الى ......البحر!

ومن الواضح أن إسرائيل واسيادها يجعلون حياة كل المعتدلين صعبة جدا، وقد ننجح مع تبنى سياسات مختلفة في أن نجعل حياتهم صعبة.

فهل نستطيع؟



"اهوه ده اللي صار " والصرامة الفكرية

عندما تمتلك هذه الصرامة الفكرية الكريهة التي تجعلك تختلف اختلافا كبيرا عن الاخرين وتمتلك قناعة فكرية مختلفة خارجة عن السياق السائد ، صرامة فكرية مانعة للاستجابة العاطفية للتطورات المأساوية الجارية ، صرامة فكرية تجعلك قادرا عن توقع مسار الاحداث مقدما ، لا تتعاطف فكريا مع أصحابها ولا مع وسائلهم أو أهدافهم النهائية أو المرحلية وانت تدرك ضرر توجهاتهم في السياق التاريخي ، وبرغم ذلك تضعف وتنتابك غصة في القلب واحساس بالمهانة عندما يحقق زبانية جهنم نصرا حتى ولوكان مرحليا ومؤقتا ، غصة في القلب يزيدها تأثر أصحاب المستقبل بها وعدم تمتعهم بالصرامة الفكرية الكريهة . ، خصوصا عندما لا تمتلك الوسائل الملائمة للاتصال والتأثير، رغم توارد أفكارا جديدة قد تمكن من ذلك لكن لكل حادث حديث.

فتحية للصرامة الفكرية الكريهة وليذهب زبانية جهنم الى الجحيم وألف رحمة على الشيخ سيد.

البطل الشعبي وملاعيب العقل المثقف

هناك نوعان من الأبطال الشعبيين، بطل يتولد من الخيال الشعبي في أقاصيصه المروية التي تتغير بانتظام عاكسة التصورات الشعبية لمفاهيم العدل و الحق و الحرية و كيفية إقامتها، وبطل اخر حقيقي، يحيطه الشعور الشعبي بالود و الاحتضان الذى من الممكن أن يعيد صياغة قصته، مستندة في ذلك على الوقائع الحقيقية ، بحيث يضفي عليها مزيدا من التفسيرات و الدوافع ولا يمنع الأمر من اضافة المزيد من الخيالات ، التي تدعم التصورات الشعبية.

حدث هذا مع على الزيبق وعبد الله النديم وأدهم الشرقاوي وعبد الحكم الجراحي وأمير الجيوش فى العهد الفاطمي في زمن المجاعة وحتى، نسبيا، مع محمود أمين سليمان الشهير بالسفاح فى ستينات القرن الماضي.

ولكن كل هؤلاء الأبطال كان يكافح من أجل قضية يعتقد الشعور الشعبي أنها عادلة وتتطابق مع تصوراته فى العدل والحق، حتى وأن خالفت القانون السائد، ويضار من أجلها شخصيا، وتزداد قيمة هذا البطل وديمومته إذا كان يكافح من اجل اقامة العدل للآخرين.

ولكن العقل المثقف كثيرا ما يعلي من قيمة البعض متصورا أنه قد أصبح بطلا شعبيا فى عملية إسقاط ذاتية عاكسا فيها رغباته وآماله، مفترضا السذاجة والغفلة في الشعور والتقدير الشعبيين، ولكن مثل هذه التصورات لا تصمد كثيرا وتذهب في غياهب النسيان ويبقى الشعور الشعبي سليما معافيا، برغم أوهام و توهمات المثقفين.

هل نستمر في الغباء؟

لقد طرحت حركة المقاومة الفلسطينية في طورها الثاني ، طور منظمة التحرير الفلسطينية ، هدفا لخلق دولة ديمقراطية يعيش فيها الجميع، يهودا ومسلمين ومسيحيين ، دولة تمتد من النهر الى البحر على ارض فلسطين التاريخية، والحديث يطول حول مدى ملائمة اساليبها لهذا الهدف ، الامر الذى يحتاج الى توقف خاص ، لكن لابد لنا من التوقف طويلا وكثيرا حول كيف تحول الشعور الشعبي من العداء للصهيونية الى العداء لليهود ، عداء تطور تدريجيا بحيث اسفر الامر الى هجرة اليهود العرب ، سواء أكانوا من أصول عربية أم أجنبية (حصلوا على جنسيات عربية منذ عشرات السنين) ، هجرة تفرقت بين بلدان العالم ومنها إسرائيل.

لقد أسفر الامر ان سكان إسرائيل الحاليون، داخل حدود 1948، يتشكلون كالتالي، 25% منهم هم عرب (مسيحيين ومسلمين) وأكراد، و37% يهود عرب قدموا من بلدان عربية، والباقي هم يهود من أصول أوربية وبالذات من أوربا الشرقية، لكن يلاحظ بدايات هجرة معاكسة لليهود من إسرائيل الى بلدان اوروبا الغربية وامريكا الشمالية، في نفس الوقت الذي تزايدت فيه هجرة اليهود من دول أوروبا السوفيتية (رغم تناقصها حاليا) ليبلغ عدد المستوطنين في الضفة والقدس الشرقية عدد 750 الفا وهو تقريبا نفس العدد الذى هاجر الى الغرب.

الفيلم المرفق يقدم رؤية يجب التوقف أمامها لعل من إصابته افة العداء لليهود يستطيع التخلص منها، رغم انحيازها السياسي لبعض التوجهات، تخلص يدعمه تزايد الموقف السلبي من إسرائيل، بل والتأييد من كثير من المفكرين والكتاب والفنانين اليهود عبر العالم، بل ومن اليهود العاديين، الذين ادمت قلوبهم الوحشية اليومية لإسرائيل في غزة، لعلنا نستطيع التخلص من الغباء ونقدم التحية لشحاتة هارون.

شحاتة هارون يهودي مصري ومؤسس العصبة اليهودية لمقاومة الصهيونية سنة 1947 ورفض الهجرة وحتى للسفر لعلاج ابنه في الخارج، حين أشترط علية عدم العودة إذا منح تصريح سفر، ومات الابن.

الالتراس الظاهرة والتطور

يشغل بالى محاولة فهم الالتراس ، فهل الالتراس منظمة جماهيرية تلقائية أم منظمة أراديه ، ولا يقصد بالمنظمة الارادية انها منظمة سياسية بالضرورة بل منظمة حول اهداف معينة مثلها مثل النقابات .

كيف نشاء وكيف تطور وما هي علاقة تطور الحركة الجماهيرية وتغيير المزاج الجماهيري بتطور الالتراس .

ولا اعتقد أنه يمكن توصيف وفهم المنظمات الجماهيرية او الحزبية او النقابية توصيفا مكتبيا جامدا، توصيفا يضع قواعد كتبيه لأنواع المنظمات فالحياة أكثر تعقيدا من أى توصيفات كتبيه جامدة ، فلقد سبق أن قدمت رؤية لتطور حزب الوفد القديم وبينت انه منظمة جماهيرية وحزبية فى نفس الوقت ، وبينت تطور الطابع المزدوج للحزب فى علاقته بتطور الحركة الجماهيرية ، وكيف كان يطغى احد جوانب هذا الطابع على سلوك هذا الحزب / المنظمة فى علاقة وثيقة بتطور الحركة الشعبية وبحالة المزاج الجماهيري.

لقد كان ممكنا تقديم مثل هذه الرؤية نتيجة لتوفر المعلومات اللازمة حول نشاءة وتطور الوفد وعلاقه سلوكه بتطور الحركة الجماهيرية وبأوضاع الصراع الاجتماعي، لكن لا يمكن تقديم مثل هذه الرؤيا حول الالتراس لأنها تحتاج الى التعرف على الالتراس وتطوره من داخلة رغم توفر معلومات عن سلوكه من الذاكرة المتناثرة لبعض من افراد الالتراس او من تعامل معه.

لذلك فنحن نحتاج الى شهادات من مختلف الاطراف وبالذات من أفراد الالتراس ، ونحتاج الى شهادات من تعامل وتعاون مع الالتراس ، وقبل هذا وبعده نحتاج الى من ينظم ويقود هذا الجهد لكى يخرج علينا بدراسة حقيقية عن الالتراس.

ويبقى أخيرا أن أؤكد أن مثل هذا الجهد ليس ترفا فكريا من مهتم بالشأن العام فالالتراس أحد اهم المنظمات حاليا وتتجاوز أهميته الكثير من المنظمات الاخرى، تقدير مراقب من بعيد ستؤكده او تنفية مثل هذه الدراسة.

فمن لها؟

اللغة بين نابليون و "سي السيد" وجفروش

وهل هناك رابط بين نابليون بونابرت والسيد احمد عبد الجواد من الثلاثية لنجيب محفوظ وجفروش من البؤساء لهوجو؟ وهل يمكن ان تكون هناك علاقة بين شخصيات روائية وشخصية حقيقية؟ نعم هناك لكنها علاقة خاصة، فقد تحولوا الى ان أصبحوا جزءا من لغة بلادهم، ما عدا نابليون الذي أصبح جزءا من كل لغات العالم، ويبدو أن الامبراطور مازال إمبراطورا!

وإذا كان جفروش و "سي السيد" قد أصبحوا جزءا من اللغة لانتمائهم لأعمال أدبية عظيمة، أما نابليون فلم ينتمي الى أدب عظيم، لكن تاريخه السياسي هو من أدخله حين تحدث عنة ماركس في الثلاثية الشهيرة عن التاريخ الفرنسي من 1848 الى 1870، فوصف حكمه بالحكم البونابرتي، فأصبحت البونابرتية والبونابرت جزءا من الادب السياسي، يكفى أن تصف حكما أو حاكما بالبونابرتية أو البونابرت فيفهم القارئ المعنى والمغزى لما تقصده.

وكما كتب الدكتور محمد مندور في كتابة نماذج بشرية حول جفروش

"هذا هو جفروش كما يعرفه كل الفرنسيين وكل من يتحدث الفرنسية، حيث خلدت اللغة هذه الشخصية الأصيلة الجذابة، بأن أدخلتها بين مفرداتها كاسم ذات وكصفة وهم يدعون الرجل جفروش، كما يصفونه بتلك الروح التي صورنا، وليس بعد ذلك دليل على خلود هذا الأنموذج البشرى بين ما خلق الأدب من نماذج."

ولعلنا في حاجة لتذكر ما كتبه الدكتور محمد مندور حول اللغة في كتابه في الميزان الجديد في اربعينيات القرن الماضي

" ثم إن مسألة الصحة والخطأ في اللغات أصبحت مسألة تافهة لا يُحرص عليها في غير مجال التعليم المدرسي، وأما العلم فقد تقدم وأصبحت المناهج تاريخية فترى العلماء اليوم لا يقررون الخطأ والصواب في اللغات، وإنما يستقرئون الاستعمالات عند كبار الكُتَّاب ويفسرون ما يطرأ على اللغة من تطور."

"وأما عنصر الثبات في اللغة وهو ما يطالب به الأديب زكريا حتى لا يصير الأمر فوضى، فذلك ما لا أستطيع أنا أن أدخله في اللغة، بل ولا المجمع اللغوي نفسه، عنصر الثبات هو استعمال كبار الكُتَّاب لمفردات اللغة وتراكيبها، ثم قراءة مؤلفات كبار الكُتَّاب في المدارس والجامعات لتشيع تلك الاستعمالات، وكل محاولة غير هذه السبيل لن تجدي شيئًا.

اللغة كائن حي لا يقنن له، وأكبر دليل على صحة ما أقول هو أن المجمع اللغوي لم يستطع شيئًا في هذا الباب ولن يستطيع."

وقائع حارة ....الالتراس

بالقطع فهي ليست وقائع حارة الزعفراني ، بل وقائع أخرى شديدة الجاذبية وتمس شغاف القلب ، أنها وقائع الالتراس برغم انها غير متعلقة بكرة القدم ، فأفراد قلائل من هذا السحر المسمى التراس يتدخلون لمساعدة مواطنة مصرية في الغربة لا يعرفونها ، يتدخلون بناء على طلب للمساعدة ينطلق من بلدان أخرى ، فيتحركون ويقدموا المساعدة المطلوبة بمنتهى الحزم والعزم ، فتنال حقها المهدر وتعود راضية مرضية الى بلدها ولا تتحمل حتى ثمن تذكرة الطائرة ، أفراد قلائل لم يهتموا حتى بتقديم أسمائهم ، فياله من سحر يمس شغاف القلب يؤكد تقديري لهم بانهم يشكلون الضمير الشعبي المتحرك على قدمية.

لقد سمعت القصة ولم استطع الا أن اكتب عنها فلقد انفعلت بشدة بهذا السلوك الإنساني المليء بالجدعنة والمرؤة والشجاعة والانسانية، فتحية للالتراس.

كيف نرى الثورات

سؤال صعب الإجابة علية ليس لان فهم الثورات صعب ولكن لان هناك زوايا مختلفة لفهمها ، فمن الممكن أن تقدم تحليلا للثورة وتطور احداثها بالاعتماد على تحليل القوى والتيارات السياسية وتمثيلها لمصالح الطبقات الاجتماعية المختلفة ، ثم تطور مواقفها مع تطور الثورة ، ومن الممكن أن تقدم الثورة في انعكاسها على الجمهور الغير متحزب وتقدم رؤية لتطور مواقفة ، وكلا من الرؤيتين في منتهى الأهمية ، فالأول منهما يقدم رؤية شاملة لتطور الصراع السياسي والاجتماعي ، والثاني منهما يقدم الشحم واللحم ، هذا الشحم واللحم الذى كثيرا ما يغيب عن الدراسات الاكاديمية ، إلا فيما ندر ، وهو جانب في منتهى الأهمية لفهم الثورات ولفهم تطور المزاج الجماهيري في زمن الثورة ، هذا المزاج الجماهيري الذى كثيرا ما لا يلتفت الية أحد ، وخصوصا من القوى السياسية المشاركة فتصيبها العزلة واحيانا الهزيمة إذا كانت قد حازت على تقه الجمهور اثناء تطور احداث الثورة.

لقد قدم الصحفيون الامريكيون كتب عديدة حول الثورة الروسية أصبحت مراجع هامة لكل من يريد ان يفهم الثورة الروسية، كتب منها الكتاب الشهير " عشرة أيام هزت العالم " لجون ريد وهو يمثل النوع الأول، وكتاب أخر لوليامز يمثل النوع الاخر، وكلامهما يقدم منهجا لمن يريد أن يكتب عن الثورات، اثناء حدوثها .

وبالقطع فإن هناك نوع ثالث يتحدث عن التطور الاجتماعي والسياسي الممهد للثورة ثم يتتبع تطورها وهو النوع الأكثر شيوعا ولا يتطلب، بالضرورة، المعايشة الفعلية، مثل كتاب تروتسكى عن الثورة الروسية، ومثل معظم الكتب الاكاديمية عن الثورات المصرية التي كثيرا ما تعاني من ضعف أو عدم الاعتماد على تحليل الصراع الاجتماعي ما قبل واثناء الثورة، وبعض الكتب الغير أكاديمية، ولكنها تتخلص من العيوب الاكاديمية مثل كتاب صلاح عيسى عن الثورة العرابية.

ولكن هناك نوع أخر من الكتابات عن الثورات، نوع ليس تأريخا للثورة، ولكنة كتابات قادة التيارات السياسية المكتوبة اثناء الثورات، وهى كتابات فى منتهى الاهمية لفهم الثورات .، وتاريخ الثورات ملىء بمثل هذه الكتابات.

لقد قدم الصحفيون الأمريكيين خدمة تاريخية عظيمة بكتبهم وخصوصا لوصولهم لاتفاق ضمني لتوزيع المهام.

الدول المحورية وهبوط وصعود القوى العظمى

برغم ان التصور النظري للسياسات الامريكية حول الدول المحورية في البلدان النامية كان محصورا في تصور أن حدوث انهيار في هذه الدول سيترتب علية انتشار الفوضى في منطقة جغرافية كبيرة، انهيارا سيؤثر على التوازن العالمي ، وكانت احد أسباب هذا التصور انه تم الوصول الية في المرحلة المباشرة التالية لانهيار الاتحاد السوفيتي وانهيار وتغيير معسكرة الأوربي ، في نفس الوقت الذى كان النهوض

العاصف في الصين في بداياته الأولى بما لا يوحى بمصير هذا التغيير ، وبحيث بدى أن مثل هذا التصور يتفق بشكل غير معلن مع تصورات نهاية التاريخ ، أي ديمومة هذا الوضع المؤقت ، وكأن الصراع العالمي ، على مسار التاريخ ، كان فقط بين معسكرين مختلفين أيدولوجيا وبنهايته ستدوم سيطرة القوى المنتصرة.

لقد تغيير الوضع العالمي تغييرا كبيرا منذ انهيار الاتحاد السوفيتي ، فلقد تطورت الصين تطورا كبيرا وأصبحت قوى عظمى يعتد بها ، كما استعادت روسيا جانبا كبيرا من قوتها وتقاتل الان لضمان مصالحها ، وحدث تغييرات كبيرة في أمريكا اللاتينية وإن كانت غير مستدامة ، وتطورت قوى الهند وإن كان هذا التغيير مازال محدودا مقارنة بالتغيير العاصف في الصين ، ولذلك فإن تصورات انهيار الدول المحورية في البلدان النامية كشف عن قصوره ، فالخطر الأكبر أصبح إمكانية تمرد هذه الدول بالاستفادة من الوضع العالمي الجديد ، تمرد يمكن له التأثير الحاد على توازن القوى العالمي بامتداد هذا التمرد للمحيط الإقليمي لهذه الدول.

لذلك على هذه الدول المحورية وقواها السياسية الباحثة على التغيير أن تدرك أن مثل هذا التغيير سيصطدم مع مصالح القوى العظمى، اصطدام لن يكون دافعه الأول التغييرات الداخلية، بل في الدور الإقليمي المصاحب، ولعل خبرات التعامل بين الدول العظمى ومصر الناصرية المتمردة لتقدم لنا خبرات ثمينة.

لذلك فمن الأهمية بمكان التعرف الدقيق على التطور العالمي، على صعود وهبوط القوى العظمى، تاريخيا والان ، وأكرر والان ، لذلك أقدم هذا الكتاب الأمريكي من تأليف بول كينيدي الذى يقدم رؤية يجب التوقف عندها.

الدول المحورية والنظر الى المستقبل

تقع بلادنا في صرة العالم الامر الذى أثر تأثيرا كبيرا في مصيرها، خصوصا في العهد الحديث، عهد الرأسمالية والاستعمار، ولا يمكن ان تحقق بلادنا التقدم دون أن تدرك وتتعامل مع واقع عالمي يفرض نفسه، ولان الولايات المتحدة أحد اهم القوى العالمية المؤثرة أو حتى الأهم لفترة تاريخية قادمة ، فمن الهام أن نفهم كيف يفكرون ، لذلك أقدم لكم كتابا هاما نشر في الولايات المتحدة منذ ما يتجاوز 25 عاما ولكن المفاهيم التي قدمها ما زالت سائدة في الاوساط الاكاديمية والصحفية والسياسية الامريكية.

ومن الجدير بالذكر أن المؤلفون يقدمون مصر كدولة محورية، ولكنهم يقدمون ايضا تعريفا جديدا للدول الخاصة ويسمونها special client **وهي إسرائيل فى منطقتنا.**

كما ترجمت جزء من مقال لنفس المؤلفون نشر في المجلة الامريكية الشهيرة) Foreign Affairs **الترجمة عن طريق جوجل فلا تحتج!**

الدول المحورية

والاستراتيجية الأمريكية

روبرت س. تشيس ^ إميلي بي هيل، وبول كينيدي

الدومينو الجديدة

بعد مرور نصف عقد من الزمان على انهيار الاتحاد السوفييتي، لا يزال صناع القرار السياسي والمفكرون الأميركيون يبحثون عن مبادئ جديدة يمكن أن ترتكز عليها الاستراتيجية الوطنية. إن الجدل الدائر حالياً حول مستقبل النظام الدولي، بما في ذلك التنبؤات بـ "نهاية التاريخ"،

لقد فشل في التوصل إلى اتفاق بشأن الشكل الذي ينبغي أن تتخذه السياسة الأمريكية. ومع ذلك، فإن الإطار الشامل الوحيد قد يكون غير مناسب لفهم عالم اليوم غير المنظم واللامركزي. ولم يعد أمن أميركا يعتمد على نجاح أو فشل احتواء الشيوعية. والتحديات أكثر انتشارا وعددا. ويتعين على الولايات المتحدة، كأولوية، أن تدير علاقاتها الحساسة مع أوروبا، واليابان، وروسيا، والصين، وهي اللاعبين الرئيسيين الآخرين في الشؤون العالمية. إلا أن المصلحة الوطنية الأميركية تتطلب أيضاً الاستقرار في أجزاء مهمة من العالم النامي. وعلى الرغم من الضغوط التي يمارسها الكونجرس لخفض أو إلغاء المساعدات الخارجية، فمن الأهمية بمكان أن تركز أميركا جهودها على عدد صغير من البلدان التي مصيرها غير مؤكد والتي سوف يؤثر مستقبلها بشكل عميق على المناطق المحيطة بها. هذه هي الدول المحورية.

فكرة الدولة المحورية؟ بقعة ساخنة لن تحدد مصير منطقتها فحسب، بل ستؤثر أيضاً على الاستقرار الدولي؟ له نسب مميز يعود إلى الجغرافي البريطاني.

المثال الكلاسيكي للدولة المحورية طوال القرن التاسع عشر كان تركيا مركز ما يسمى بالمسألة الشرقية؛ وبسبب موقع تركيا الاستراتيجي، شكل تفكك الإمبراطورية العثمانية مشكلة دائمة لصانعي السياسات البريطانيين والروس.

لقد استخدم صناع السياسات الأميركيون في القرن العشرين نسختهم الخاصة من نظرية الدول المحورية. وكان رجال الدولة من أيزنهاور وأتشيسون إلى نيكسون وكيسنجر يشيرون باستمرار إلى الدولة المستسلمة للشيوعية باعتبارها "تفاحة فاسدة في برميل" أو "أحجار الدومينو المتساقطة."

على الرغم من أن نظرية الدومينو لم تكن تمييزية بما فيه الكفاية؟ هل أدى ذلك إلى تفاقم التوسع الاستراتيجي الأمريكي المفرط؟ كان جوهرها يدور حول دعم الدول المحورية لمنع سقوطها في أيدي الشيوعية وما يترتب على ذلك من سقوط الدول المجاورة.

ولأن هوس الولايات المتحدة بقطع الدومينو المتعثرة أدى إلى سياسات مشكوك فيها من فيتنام إلى السلفادور، فقد اكتسبت النظرية الآن سمعة سيئة. لكن الفكرة نفسها؟ أن تحديد محددة.

هل تعتبر هذه الدول أكثر أهمية من غيرها بالنسبة للاستقرار الإقليمي والمصالح الأمريكية؟ أمر معقول. يتعين على الولايات المتحدة أن تتبنى سياسة تمييزية تجاه العالم النامي، وتركز طاقاتها على الدول المحورية بدلاً من نشر اهتمامها والموارد في جميع أنحاء العالم.

في الواقع، ربما تناسب نظرية الدومينو الآن الاحتياجات الإستراتيجية للولايات المتحدة بشكل أفضل مما كانت عليه خلال الحرب الباردة. ولم تعد قطع الدومينو الجديدة، أو الدول المحورية، في حاجة إلى المساعدة ضد التهديد الخارجي المتمثل في نظام سياسي معاد؛ بل الخطر هو أن يقعوا فريسة للاضطراب الداخلي. قبل عقد من الزمن، عندما كان التهديد الرئيسي للمصالح الأميركية في العالم النامي هو احتمال تحالف الدول مع السوفييت، واجهت الولايات المتحدة عدواً واضحاً. لقد استولى هذا العدو على الخيال الأميركي على نحو لا تستطيع الفوضى الوشيكة أن تفعله. ومع ذلك فإن الفوضى وعدم الاستقرار قد يشكلان تهديداً أعظم وأكثر خطورة للمصالح الأميركية من الشيوعية في أي وقت مضى .

ومع تدفقات الهجرة إلى الخارج، والصراع المتزايد بسبب انهيار الهياكل السياسية، والاضطرابات في أنماط التجارة، فإن الفوضى تؤثر بلا شك على الدول المجاورة. إن الرد بتدابير التدخل فقط بعد أن تهدد أزمة في دولة ما منطقة مهمة هو ببساطة متأخر للغاية. علاوة على ذلك، من المرجح ألا يقبل الكونجرس والجمهور الأمريكي مثل هذه الإجراءات، على الرغم من أن العواقب قد تكون خطيرة على المصالح الأمريكية. إن المساعدة الوقائية للدول المحورية لتقليل فرص الانهيار من شأنها أن تخدم المصالح الأمريكية بشكل أفضل.

إن استراتيجية المساعدة التمييزية الصارمة للعالم النامي من شأنها أن تفيد السياسة الخارجية الأمريكية بعدة طرق. أولاً، باعتبارها أغنى دولة في العالم، وتتمتع بممتلكات هائلة في الخارج، وهي الدولة الأكثر خسارة بسبب عدم الاستقرار العالمي، تحتاج الولايات المتحدة إلى استراتيجية محافظة. وكما كانت الحال مع الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن مصالح الولايات المتحدة تكمن في الوضع الراهن. تضع مثل هذه الإستراتيجية أهمية قصوى على العلاقات مع القوى العظمى الأخرى: القرارات المتعلقة بالقوى السابقة والولايات المتحدة لديها الكثير لتخسره، وبالتالي فإن مصالحها تكمن في الوضع الراهن. إن تعزيز حلف شمال الأطلسي أو الحفاظ على العلاقات الودية مع روسيا والصين واليابان والقوى الأوروبية الكبرى يجب أن يظل في المقام الأول. ويجب على الولايات المتحدة أيضًا حماية العديد من الحلفاء الخاصين،

مثل المملكة العربية السعودية والكويت وكوريا الجنوبية وإسرائيل، لأسباب سياسية واستراتيجية ومحلية.

ثانياً، من شأن سياسة الدول المحورية أن تساعد صناع السياسات في الولايات المتحدة تعامل مع ما وصفه السير مايكل هوارد، في سياق آخر، بلطف بأنه "التنفس الثقيل والمشؤوم للناخبين البخل والمحيط الهادئ. "صناع السياسة الأمريكيون، أنفسهم أقل استعدادا للتفكير في الالتزامات الخارجية، يدركون تماما أن الجمهور حذر للغاية وحتى معاد تجاه التعاقدات الخارجية.

في حين أن الجمهور الأمريكي قد لا يرفض كل هذه الالتزامات، إلا أنه يقاوم التدخل في المناطق التي تبدو هامشية للمصالح الأمريكية. تعتقد الأغلبية أيضا، دون معرفة النسبة المئوية الصغيرة نسبيا للأعمار المعنية، أن المساعدات الخارجية تشكل استنزافا كبيرا للميزانية الفيدرالية وغالبا ما تهدر من خلال الاحتيال والازدواجية وتكاليف التشغيل المرتفعة.

قلة من السياسيين الأمريكيين على استعداد للمخاطرة بعدم الشعبية من خلال الطعن في مثل هذه الآراء، وقد لعب العديد من النقاد الجمهوريين هذا المزاج من خلال معالجة سياسات الحكومة التي تنطوي على التزامات في الخارج. قد يكون لدى الرجال المسؤولين عن تحديد السياسة الخارجية للولايات المتحدة فرصة أفضل لإقناع غالبية الكونجرس والجمهور الأمريكي

أن سياسة المشاركة الانتقائية ضرورية وقابلة للتنفيذ.

وأخيرا، قد تساعد استراتيجية الدول المحورية في سد الفجوة المفاهيمية والسياسية في النقاش الوطني بين القضايا الأمنية" القديمة "و" الجديدة". لا يزال التيار الرئيسي في دوائر السياسة يعتبر القضايا الأمنية الجديدة هامشية؛ على العكس من ذلك، أولئك الذين يركزون على الهجرة, الاكتظاظ السكاني ، أو التدهور البيئي يقاوم التركيز الواقعي على السلطة والأمن العسكري والسياسي.

في الحقيقة، لن يكفي النهج القديم ولا الجديد. الضغط الواقعي التقليدي على الأمن العسكري والسياسي هو ببساطة غير كاف؟ لا تولي اهتماما كافيا للتهديدات الجديدة للمصالح الوطنية الأمريكية. إن التهديدات التي تواجه الدول المحورية ليست

الشيوعية أو العدوان، بل الاكتظاظ السكاني والهجرة والتدهور البيئي والصراع العرقي وعدم الاستقرار الاقتصادي، كل الظواهر التي تجد قوات الأمن التقليدية صعوبة في معالجتها.

التصنيع "القذر" في العالم النامي، والنمو السكاني غير المنضبط وضغوط الهجرة المصاحبة، وصعود عصابات المخدرات القوية، وتدفق الأسلحة غير المشروعة، واندلاع الصراع العرقي ، وازدهار الجماعات الإرهابية ، وانتشار جديدة مميتة

الفيروسات، والاضطراب في الأسواق الناشئة قائمة الغسيل من المشاكل الجديدة؟ يجب أيضا أن تقلق الأمريكيين، فقط لأن تأثيراتهم غير المباشرة يمكن أن تضر بمصالح الولايات المتحدة.

ومع ذلك، فإن التفسير الجديد للأمن، بتركيزه على القضايا الشاملة والعالمية، غير كاف أيضا. أولئك الذين يشيرون إلى مثل هذه التهديدات الجديدة للاستقرار الدولي غالبا ما يضعون أهمية ثانوية (إذا كان ذلك) على مصالح الولايات المتحدة؛ في الواقع، عادة ما يعارضون التذرع بالمصلحة الوطنية لتعزيز قضيتهم. على سبيل المثال، أولئك الذين انتقدوا إدارة كلينتون في صيف عام 1994 لعدم انخراطها بشكل أكبر في الأزمة الرواندية لم يهتموا كثيرا بعدم الأهمية النسبية لاستقرار رواندا بالنسبة للمصالح الأمريكية. إن النهج العالمي المشترك بين العديد من المدافعين عن حماية البيئة العالمية أو حقوق الإنسان، الجدير بالثناء من حيث المبدأ، لا يميز بين انتهاكات حقوق الإنسان في هايتي، حيث جعل

القرب وعدم الاستقرار الداخلي التدخل ممكنا، بل وضروريا، والانتهاكات المماثلة في الصومال، حيث الدول لديها القليل من المصالح الملموسة.

علاوة على ذلك، لا يمكن للنهج الأمني الجديد أن يقدم حجة مقنعة للجمهور الأمريكي لسياسة خارجية أممية. لا يشعر الجمهور بالخطر في الضغوط البيئية والديموغرافية التي تؤدي إلى تآكل الاستقرار على مدى فترة طويلة، حتى لو كانت السياسات الحالية، أو عدم وجودها، تجعل هذا التآكل لا يرحم ولا رجعة فيه في مرحلة ما. وأخيرا، فإن الطبيعة العالمية للتهديدات الأمنية الجديدة تجعل من المغري التقليل من شأن الحكومات الوطنية كوسيلة للتوصل إلى حلول.

وعلى النقيض من ذلك، فإن استراتيجية الدول المحورية من شأنها أن تشجع على دمج القضايا الأمنية الجديدة في إطار تقليدي محوره الدولة وتضفي مزيدا من الوضوح على صنع السياسة الخارجية. قد يؤدي هذا التكامل إلى بعض العواقب طويلة المدى للتهديدات الأمنية الجديدة أكثر واقعية ويمكن التحكم فيها. وسيؤكد على أهمية العمل بشكل رئيسي من خلال حكومات الولايات لضمان الاستقرار مع معالجة القضايا الأمنية الجديدة التي تجعل هذه الدول محورية.

كيفية التعرف على المحور

وفقا للمعايير التي يجب اختيار الدول المحورية؟ عدد كبير من السكان وموقع جغرافي مهم هما متطلبان. كما أن الإمكانات الاقتصادية أمر بالغ الأهمية، كما اعترف به تحديد وزارة التجارة الأمريكية مؤخرا لـ" الأسواق الناشئة الكبيرة " التي تقدم أكبر قدر من الوعد للأعمال التجارية الأمريكية.

الحجم المادي شرط ضروري، ولكنه غير كاف: تضم زائير مساحة واسعة، لكن مصيرها ليس حيويا للولايات المتحدة.

إن ما يميز الدول المحورية حقا هو قدرتها على التأثير على الاستقرار الإقليمي والدولي. إن الدولة المحورية مهمة جدا على المستوى الإقليمي لدرجة أن انهيارها من شأنه أن يؤدي إلى فوضى عابرة للحدود: الهجرة، والعنف الطائفي، والتلوث، والمرض، وما إلى ذلك. من ناحية أخرى، فإن التقدم والاستقرار الاقتصادي المطرد لدولة محورية من شأنه أن يعزز الحيوية الاقتصادية والسلامة السياسية لمنطقتها ويفيد الأمريكيين التجارة والاستثمار.

في الوقت الحاضر، ينبغي اعتبار ما يلي دولا محورية:

المكسيك والبرازيل والجزائر ومصر وجنوب أفريقيا وتركيا، والهند، وباكستان، وإندونيسيا. تختلف آفاق هذه الدول على نطاق واسع.

على سبيل المثال، إن إمكانات الهند للنجاح أكبر بكثير من الجزائر؛ وإمكانيات مصر للفوضى أكبر من البرازيل. ولكن جميعها تواجه مستقبلا محفوفا بالمخاطر، وسوف يؤثر نجاحها أو فشلها بقوة على مستقبل المناطق المحيطة بها ويؤثر على المصالح الأمريكية. يجب ألا تصبح نظرية الحالات المحورية

هذه تعويذة، كما فعلت نظرية الدومينو، ويمكن أن تتغير قائمة الدول. لكن المفهوم نفسه يمكن أن يوفر إطارا ضروريا ومفيدا لوضع استراتيجية أمريكية تجاه العالم النامي.

عالم يتحول على المحاور

لفهم هذه الفكرة بعبارات ملموسة، فكر في الأزمة المكسيكية قبل عام. لقد خلق تحديث المكسيك توترات بين الحكومات المركزية والمحلية وصعوبات مع النقابات وأفقر المجموعات في الريف، وألحق الضرر بالبيئة. والمكسيك، شأنها شأن الدول المحورية الأخرى، متوازنة بدقة بين التقدم والاضطراب.

نظرا للدعاية والجدل السياسي المحيط بخطة إنقاذ إدارة كلينتون للمكسيك، ربما أدرك معظم الأمريكيين أن جارهم الجنوبي مميز، حتى لو كانوا منزعجين من الوسائل المستخدمة لإنقاذه. كان من شأن انهيار البيزو وما يترتب على ذلك من خراب للاقتصاد المكسيكي أن يضعف الدولار الأمريكي، ويضر بالصادرات، ويسبب تشنجات في جميع أنحاء السوق المشتركة للمخروط الجنوبي في أمريكا اللاتينية والأسواق الناشئة الأخرى. من خلال توضيح قوة التهديدات الأمنية الجديدة للولايات المتحدة بشكل كبير، كان الدمار الاقتصادي في المكسيك سيزيد من تدفق المهاجرين غير الشرعيين باتجاه الشمال ويزيد من إجهاد الخدمات التعليمية والاجتماعية في الولايات المتحدة. يمكن أن تمتد الفوضى الاجتماعية العنيفة في المكسيك إلى هذا البلد. كما لاحظ العديد من المصرفيين خلال أزمة البيزو ، أظهرت مشاكل المكسيك استحالة فصل "هناك" عن "هنا".

نظرا لقرب المكسيك وعلاقاتها المتزايدة مع الولايات المتحدة، كان من الواضح أن صانعي السياسة الأمريكيين بحاجة إلى منحها اهتماما خاصا. كما يتضح من اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية، لديهم. لكن الدول المختارة الأخرى تتطلب أيضا اهتماما أمريكيا وثيقا.

مصر

لقد جعل موقع مصر تاريخيا استقرارها ومواءمتها السياسية أمرا بالغ الأهمية لكل من التنمية الإقليمية والعلاقة بين القوى العظمى. وفي العقود الأخيرة، أدى قربها من المناطق المستوردة للنفط ومشاركتها في عملية السلام العربية-الإسرائيلية، وهو أمر مهم لازدهار العديد من البلدان الصناعية ، إلى تعزيز مساهمتها في الاستقرار في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. علاوة على ذلك، قدمت حكومة الرئيس محمد مبارك حصنا ضد التهديد طويل المدى الأكثر دلالة في المنطقة؟ الأصولية الإسلامية الراديكالية.

إن انهيار النظام المصري الحالي قد يضر بالمصالح الأمريكية أكثر من الثورة الإيرانية. إن عملية السلام العربية-داعش، اللوح الرئيسي للسياسة الخارجية الأمريكية في هذه المنطقة خلال السنوات الماضية 20 ، ستعاني خطيرة ، وربما لا يمكن إصلاحها ، تضر مصر غير المستقرة من شأنها أن تقوض الخطة الدبلوماسية الأمريكية عزل الدول "المارقة" الأصولية في المنطقة وتشجيع المعارضة المتطرفة للحكومات في كل مكان من الجزائر إلى تركيا. يمكن أن يؤدي سقوط حكومة مبارك إلى قيام المملكة العربية السعودية بإعادة تقييم موقفها المؤيد للغرب. في ظل هذه الظروف، فإن أي إعادة لعملية عاصفة

الصحراء أو تفاعل عسكري مماثل في الشرق الأوسط نيابة عن الدول الصديقة مثل جامعة الكويت أو الأردن سيكون صعبا للغاية، إن لم يكن مستحيلا. أخيرا، يمكن أن يكون التأثير على النفط والأسواق المالية في جميع أنحاء العالم هائلا. إن مستقبل مصر ليس حيويا فحسب، بل إنه غير مؤكد تماما. في حين أن ذلك تشير الدلائل إلى زيادة الرخاء والاستقرار؟ انخفضت معدلات المواليد، الولايات المتحدة غفرت مؤخرا 7.7 مليار من الديون وصلت احتياطيات مصر الدولية 1 16 مليار في 1995 ? ال ص التأمل في الأدلة يرسم صورة باهتة. تحرس الحكومة بغيرة قاعدة السلطة وتخشى من أن تؤدي الخصخصة الإضافية إلى إنتاج أعداد كبيرة من موظفي الدولة السابقين المستائين، وتخشى الحكومة من فقدان السيطرة على الاقتصاد. معدلات النمو تترنح بشكل متقطع وعلى الرغم من أن الإصلاح قد حسن معظم المؤشرات الاقتصادية الأساسية، فقد وسع أيضا الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

يعيش ما يقرب من ثلث السكان الآن في فقر، ارتفاعا من عام 2025 في المائة في عام 1990.

وقد أدت حملة القمع القاسية ضد الأصولية إلى الحد من أخطر تهديد على المدى القصير لنظام مبارك، ولكن قد يكون التوصل إلى حل طويل الأجل أكثر صعوبة. إن الهجوم الوحشي الذي تشنه الحكومة على الحركة الأصولية قد يغذي قضية الإسلام في نهاية المطاف من خلال تنفير الطبقة الوسطى المحترفة؛ وقد أدت هذه السياسة بالفعل إلى حد كبير عزز جماعة الإخوان المسلمين الأكثر اعتدالا وتطرف الطرف المتطرف.

المشاكل البيئية والسكانية آخذة في الازدياد. على الرغم من الانخفاض التدريجي في معدل المواليد، يتزايد عدد السكان بنحو مليون كل تسعة أشهر، مما يجهد الموارد الطبيعية للبلاد، ومن المتوقع أن يصل إلى حوالي 94 مليون بحلول عام 2025.

واعترافا بأهمية مصر وهشاشتها، وضعت الإدارات الأمريكية المتعاقبة أحكاما خاصة للحفاظ على استقرارها.

في عام 1995، تلقت مصر 2.4 مليار دولار من الحكومة الأمريكية، مما يجعلها ثاني أكبر متلق للمساعدات الأمريكية، بعد إسرائيل.

هذا التخصيص هو في المقام الأول نتيجة لاتفاقات كامب ديفيد ويؤكد أهمية مصر المستمرة في سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

يجب مقاومة المحاولات الحالية من قبل الانعزاليين الأمريكيين لخفض هذه الأموال بشدة. من ناحية أخرى، يجب على الحكومة الأمريكية والكونغرس التفكير بجدية في إعادة توجيه المساعدات الأمريكية. لا تستطيع مقاتلات إف-16 فعل الكثير لمساعدة مصر على التعامل مع الصعوبات الداخلية، لكن إن المساعدة في تحسين البنية التحتية والتعليم والنسيج الاجتماعي من شأنها أن تخفف من مشاكل البلاد.

اللغة والشعر بين الأستاذ والتلميذ

تلميذ نجيب يغذى تمرده أستاذه فيتمرد حتى على أستاذه الذى كان يأمل ، واهما ، الا يتجاوزه المتمرد ، فتدور معارك طاحنة تؤثر على حياة التلميذ وتصنعه ، فالتمرد الأصيل ينطلق الى مداه ليخلق لنا ناقدا عظيما ، ناقدا يضع الأسس للنقد العربي الحديث ، ناقدا رفيقا وحاضنا للشباب وللتيارات الجديدة وشديد الرفق بهم ، يقف على راس المتقاتلين في الميدان ، في الخط الأمامي ، حيث يتلقى الطعنات عنهم جميعا ، شديد الواطئة على الكبار الذين يستطيعون الصمود أمامه ، فيتخذه الصغار أبا بديلا وحاميا ويتكاتف حولة أبناء جيله ، في الميدان أم في هيئة الأركان التي تشكلت حول التوجهات الجديدة.

فيكتب المتمرد حول اللغة والشعر.

ففي بداية الاربعينيات يكتب حول اللغة، ويا له من اقتراب يجمع بين جدل اللغة مع الواقع والنظرة التاريخية لتطور اللغات، نظرة في منتهى الشجاعة لهذا المتمرد الكبير الذي خرج لمناطحة من يعتقدون أنهم قد ملكوا السماء والارض.

فيقول (نشر في كتاب في الميزان الجديد)

"ثم إن مسألة الصحة والخطأ في اللغات أصبحت مسألة تافهة لا يُحرص عليها في غير مجال التعليم المدرسي، وأما العلم فقد تقدم وأصبحت المناهج تاريخية فترى العلماء اليوم لا يقررون الخطأ والصواب في اللغات، وإنما يستقرئون الاستعمالات عند كبار الكُتَّاب ويفسرون ما يطرأ على اللغة من تطور .

ومن الغريب أن نظل نحن مترددين في طرق التفكير التي تخلص منها العالم المتحضر منذ أكثر من قرن !

فاللغة العامية ذاتها ليست مجموعة أخطاء، وإنما هي تطور عادي مألوف في كل اللغات، واللغة الفرنسية والإيطالية كذلك ليستا أخطاء في اللغة اللاتينية.

إذن فكلام الأب الكرملي وكلام زكريا إبراهيم حذلقة تافهة ومماحكات لا علاقة لها بمناهج البحث في اللغات التي لم تعد تقريرية Dogmatique في شيء.

وأما عنصر الثبات في اللغة وهو ما يطالب به الأديب زكريا حتى لا يصير الأمر فوضى، فذلك ما لا أستطيع أنا أن أدخله في اللغة، بل ولا المجمع اللغوي نفسه، عنصر الثبات هو استعمال كبار الكُتَّاب لمفردات اللغة وتراكيبها، ثم قراءة مؤلفات كبار الكُتَّاب في المدارس والجامعات لتشيع تلك الاستعمالات، وكل محاولة غير هذه السبيل لن تجدي شيئًا.

اللغة كائن حي لا يقنن له، وأكبر دليل على صحة ما أقول هو أن المجمع اللغوي لم يستطع شيئًا في هذا الباب ولن يستطيع".

وفى الخمسينات يكتب حول الشعر، في الجزء الثاني من كتاب الشعر المصري بعد شوقي (جماعة أبولو)، متحدثا عن شعر ناجى ، مدافعا عنة دفاعا مجيدا وحادا في مواجهة أستاذة طه حسين ،وبرغم ذلك فإن المتمرد يحتفظ دائما بالاحترام والاعتراف بالجميل وبالدور التاريخي لأستاذه.

"بالبدء بقصيدة لناجى

"هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحا ومساء

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء

دار أحلامي وحبي لقيتنا في جمود مثلما تلقى الجديد

أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

رفرف القلب بجنبي كالذبيح وأنا أهتف يا قلب أتئد

فيجيب الدمع والماضي الجريح لم عدنا ليت أنا لم نعد

لم عدنا؟ أو لم نطو الغرام؟ وفرغنا من حنين وألم

ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم

أيها الوكر إذا طار الأليف لا يرى الآخر معنى للسماء

ويرى الأيام صفرا كالخريف ناحت كرياح الصحراء

آه مما صنع الدهر بنا أو هذا الطلل العابث أنت

والخيال المطرق الرأس أنا شد ما بتنا على الضنك وبت

أين ناديك وأين السمر أين أهلوك بساطا وندامى

كلما أرسلت عيني تنظر وثب الدمع إلى عيني وغما

موطن الحسن ثوى فيه السأم وسرت أنفاسه في جوه

وأناخ الليل فيه وجثم وجرت أشباحه في بهوه

والبلى أبصرته رأي العيان ويداه تنسجان العنكبوت

صحت يا ويحك تبدو في مكان كل شيء فيه حي لا يموت

كل شيء من سرور وحزن والليالي من بهيج وشجى

وأنا أسمع أقدام الزمن وخطى الوحدة فوق الدرج

ركني الحاني ومغناي الشفيق وظلال الخلد للعاني الطليح

علم الله لقد طال الطريق وأنا جئتك كيما أستريح

وعلى بابك ألقى جعبتي كغريب آب من وادي المحن

فيك كف الله عني غربتي ورسا رحلي على أرض الوطن

وطني أنت، ولكني طريد أبدى النفي في عالم بؤسي

فذا عدت فللنجوى أعود ثم أمضي بعد ما أفرغ كأسي

فهذه القصيدة التي أحسبها من روائع النغم في الشعر العربي الحديث تقطع بأن الدعوة إلى التجديد كانت قد نضجت واستقام فهمها وذلك لأن القصيدة تندرج تحت فن عربي قديم رائع هو فن بكاء الديار ومع ذلك أي جدة في هذه القصيدة وأي أصالة وأي جمال في هذا التصوير البياني الرائع الذي جسم المعنويات أروع تجسيم وأقواها! فالبلى يبصره الشاعر رأي العيان ويداه تنسجان العنكبوت، وهو يسمع أقدام الزمن بل و خطى لوحده فوق الدرج وكل ذلك فضلا عن ذلك الجو الروحي الزاخر الذي تسبح فيه القصيدة كلها فتنفذ نسماتها إلى النفوس بأسى مشج يبلغ في قوته رغم رهافته - قوة العاصفة التي تثير الوجدان وتحرك أعماق النفس.

ولكن هذا التجديف المرهف في التصوير البياني لم يرق فيما يبدو لبعض كبار أدباءنا الذين لم يستطيعوا أن يتحرروا من معاجم اللغة ودلالاتها المتحجرة حتى لنرى طه حسين يأخذ في مقال له بالجزء الثالث من "حديث الأربعاء" عن ديوان "وراء الغمام" - يأخذ على الشاعر ناجي قوله في قصيدة "قلب راقصة" (وراء الغمام ص36).

أمسيت أشكو الضيق والأنيا مستغرقة في الفكر والسأم

فمضيت لا أدري إلى أينا ومشيت حيث تجرني قدمي

فيزعم أن الشاعر المجيد لا يستقيم له الاستغراق في الفكر والسأم معا "فالمفكر لا يسأم والسئم لا يفكر لأن التفكير يشغل صاحبه حتى عن الضيق والتعب والسأم، ولأن السأم لا يمكن صاحبه من التفكير ولا يخلي بينه وبينه. على كل حال فقد أمسى الشاعر ضيقا متعبا في السأم والتفكير فخرج لا يدري إلى أين ومضى حيث تجره قدمه، فانظر إلى هذه الصورة التي لا تلائم شعرا ولا تلائم لغة. فالقدم لا تجر صاحبها، وإنما تحمله متثاقلة مكدوده إن لم يتح لها النشاط، وإنما يجر صاحب القدم نفسه إذا خرج فاترا مكدودا لا يقوى على المشي، ولكن الشاعر أراد قافية تلائم السأم فجعل قدمه تجره على حين كان ينبغي أن يجرها هو."

فهذا النقد الجاري على منطق الفقهاء أبعد ما يكون عن الفهم لحقائق النفس البشرية، في زعمه أن السأم لا يجتمع مع التفكير، كما أنه أبعد ما يكون عن عبقرية اللغة والفن عندما أخذ على الشاعر قوله، إن

قدمه أخذت تجره بدل أن يجرها هو، فالسأم كما يكون نتيجة لفراغ النفس من كل فكر أو إحساس ويكون أيضا من إطالة التفكير واجتراره، بل قد يكون منصبا على السأم نفسه. كما أن التعبير بالقدم التي تجر صاحبها تعبير رائع دقيق لأنه يوحي بالحالة النفسية التي كانت مسيطرة على الشاعر أكبر الإيحاء، فهو لا يسير عن قصد وإرادة وهدف، ويتحرك في شبه آلية، وعندئذ تجره قدمه لا العكس كما يعتقد طه حسين بمنطق الفقيه.

وعلى أية حال فإن التذوق الفني الذي أخذ ينمو في الأجيال الناهضة لا أظنه يقر طه حسين على هذا النقد، كما لا أظنه يخطئ الإحساس بما في هذا الشعر الأصيل المبتكر من قوة وعدل وصدق.

والذي لا شك فيه أن موضوع الغرام أو الشوق إليه والاحتراق بلواعجه لم يكن ولن يكون وقفا على ناجي ولكن ميزة ناجي هي أنه استطاع أن يستخرج من هذه المشاعر العامة الدارجة فنا رفيعا وأن يوازيه في هذا الفن طبع أثيري خفيف بل ساذج أحيانا سذاجة حلوة تشرق من خلال تعابيره المصورة إشراقة نضرة كوجه الطفل، على ما نحس في هذه الأبيات التي نقتطفها من قصيدة "الوداع" (وراء الغمام ص55).

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا

ومشينا في طريق مقمر تثب فيه الفرحة قبلنا

وتطلعنا إلى أنجمه فتهاوين وأصبحن لنا

وضحكنا ضحك طفلين معا وعدونا فسبقنا ظلنا

وانتهينا بعدما زال الرحيق وأفقنا ليتنا لا نفيق

يقظة طاحت بأحلام الكرى وتولى الليل والليل صديق

وإذا النور نذير طالع وإذا الفجر مطل كالحريق

وإذا الدنيا كما نعرفها وإذا الأحباب كل في طريق

وبالرغم من مجال هذا الشعر الذي يجمع بين بساطة الإحساس وصفائه وقوة التعبير وأصالته عجبت إذ رأيت السيدة نعمات أحمد فؤاد في كتابها عن ناجي تعيب قوله:

"وإذا الفجر مطل كالحريق" زاعمه أن الفجر لا يمكن أن يشبه الحريق وهو بطبيعته ندي رطب. وهذا أيضا ضرب من نقد الفقهاء، الذين لا يستطيعون النفاذ إلى أسرار الشعر، فالشاعر هنا لا يتحدث عن الفجر الندي الرطب الذي تعرفه السيدة نعمات وإنما يتحدث عن الفجر الذي وضع حدا لليل الجميل الذي كان يضم الشاعر وحبيبته فرأى في ضوء هذا الفجر حريقا يوشك أن ليتهم لحظات السعادة التي كان ينعم بها في ظلال الليل. وهذا التعبير وحده يعدل ديوانا من الشعر التقريري الدارج.

ومشاعر الحب حتى ولو كانت المرأة هي هدفها الأول لا بد أن توسع من نطاق هذا الحب حتى يمتزج بالطبيعة، بل ويمتزج بالله أحيانا، لأن الله محبة كما ورد في التوراة. ومن هنا يستمد الشاعر كثيرا من

صوره وتشبيهاته من الحياة الدينية ومشاعرها الروحية الأليفة إلى النفوس في مثل قوله في قصيدة "الميعاد الضائع" (ص 31 من ليالي القاهرة):

تتعاقب الأقدار وهي مسيئة كم عقنا ليل وخان نهار

وكأنما هذا الفضاء خطيئة وكأن همس نسيمه استغفار"

فتحية للأستاذ والتلميذ، طه حسين ومحمد مندور

الرومانتيكية والثورة والمزاج الجماهيري

بين جيفارا وطلعت حرب

كم هي خلابة هذه الرومانتيكية حين تكشف عن عمق الإخلاص للمثل الإنسانية الكبرى ، عن عمق التوحد بين الايمان بها وبين السلوك الفردي ، وعن عمق تأثيرها الثقافي وفى الحركة الجماهيرية ، فهل ننسى التأثير الغلاب للمثال الرومانتيكي لتشى جيفارا حين رفعت صورة وانتشرت أقوالة داخل الحركات الجماهيرية الكبرى الاوربية أثناء الحركة الجماهيرية الكبيرة عام 1968 في اوروبا ، وهل ننسى كيف تغنى به الشعراء بعد هزيمة عام 1967 ، حين تكتب ملك عبد العزيز " تركت لكم حبال العقل يعثر خطوكم فيها " في قصيدتها عنة عام 1968 وهى تتغنى " سيتبعني الغاوون غدا ، سينبتهم تراب الأرض " ، وهل ننسى كيف راود البعض في بلداننا ان يتبعوا خطاه لتحرير بلادنا ، وهل يمكننا أن ننسى أنطون مارون الاشتراكي المصري ، الذى يموت سنة 1927 من إضرابا عن الطعام احتجاجا على حبسة ، ويبقى في الذاكرة الوطنية ،وفى المقابل فلقد حلم طلعت حرب بتأسيس بنك مصري ، حلم أمتد لعشرون عاما ، لكنة كان يعلم وهو يحلم كيف يحقق الحلم ، حلما برغم رومانتيكيته إلا أنه حلم يمكن تحقيقه ، حلم نجح في تحقيقه أثناء ثورة 1919 التي مثلت المناخ الملائم لتأسيس بنك مصر.

وهي نفس الرومانتيكية التي وقع فيها الثوار الباريسيين سنة 1870 حين لم يستمعوا الى النصائح بأن لا يقوموا بما قاموا به نتيجة ان الشروط الموضوعية وموازين القوى لم تكن تتيح لهم الانتصار، فخرجوا لمناطحة السماء كما وصفهم مفكر كبير في القرن التاسع عشر، لكنهم هزموا وتعرضوا للنفي والسجن والتشريد، ولم يبق منهم إلا الدروس المستفادة بعدم الاستجابة للرومانتيكية وعدم نسيان الحلم !.

وهي نفس الرومانتيكية التي ناضل ضدها الثوار البلاشفة ، نضال يتميز بالمرونة وحسن أدراك موازين القوى والاهمية الحاسمة لتطور المزاج الجماهيري على مصير الثورة وتقدمها ، فتتبنى تكتيكات تراعى تطور المزاج الجماهيري وتطور الخبرة الخاصة له ، فتغير لغة خطابها ، دون التخلي عن جوهر الأهداف ، الامر الذى ساهم في تغيير المزاج الجماهيري وتعاظم تأييدها للبلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين ، بعد شهور من انفجار الثورة ، الامر الذى ساهم في تدعيمه إدراك القيادة البلشفية لضرورة التخلي عن برنامجها الزراعي لصالح البرنامج الرأسمالي الصغير للاشتراكيين الثوريين اليساريين ، فيتدعم التحالف

وتنتصر الثورة وتصمد أمام التدخل الأجنبي المسلح التي قامت به كل الدول الرأسمالية الغربية بالتحالف مع الأحزاب اليمينية الروسية.

وكم هي بديعة هذه الرومانتيكية التي دفعت شبابا للتحرك يوم 2011/1/25 ليتسع الخرق على الخارق ، ويتحول الامر الى حركة جماهيرية عارمة لا يستطيع احد قيادتها ، فمن بدأ لم يكن مستعدا لقيادتها فأصبحت فريسة للأكثر تنظيما ، ولم يدرك الكثيرون أن الثورة ليست التظاهر بل الاستيلاء على السلطة بقيادة الحركة الجماهيرية الى ذلك ، حركة جماهيرية بادرت بالحس العفوي المباشر لمواجهة مراكز السلطة وتحطيمها في الكثير من المحافظات ، فعل تلقائي جماهيري لم يستطع احد قيادته وتوجيهه فانحسر وتضائل ، وسقطت ثمار الثورة ، من داخل غرف النقاش البعيدة عن الحركة الجماهيرية ، في أيدى الاسلاميين الأكثر تنظيما والليبراليين الذين لا يثقون في الحركة الجماهيرية ، ولا يدرك من بادر أن الثورة تعتمد اعتمادا كبيرا على تطور المزاج الجماهيري وأن اية قيادة يمكن هزيمتها والتنكيل بقيادتها إذا تغيير هذا المزاج ، وشكل هذا التطور المرحلة الأولى من الثورة ، ومما لا شك فيه أن دراسة هذه الثورة ومصيرها تحتاج الى التوقف طويلا ومطولا أمامها للتعلم من الدروس المستفادة .

فكم هي بديعة هذه الرومانتيكية لإلهام البشر، ولكنها لا تصنع تغييرا، " فصرخة جيفارا يا عبيد في اى موقع أو مكان يا تجهزوا جيش الخلاص يتقولوا على العالم خلاص " كما كتب احمد فؤاد نجم لم تتحقق، لسبب بسيط وهو أن للتغيير قوانين صارمة ، لذلك فالرومانتيكية غير كافية، بل قد تصبح أحيانا ضاره لتحقيق الحلم لأنها تصرف عن الخطوات العملية، عن ضرورة إدراك قوانين حركة المجتمع، عن إدراك اللحظة التاريخية لتطوره والقوى المؤثرة فيه، عن العلاقة بين الذاتي والموضوعي ، عن موازيين القوى العالمي ، عن تطور المزاج الجماهيري الذى تستطيع ان تؤثر فيه ولكن لا أحدا يصنعه ، ولا يجب الاستجابة لهذه الرومانتيكية لان مثل هذه الاستجابة لا يمكن إلا ان تكون استجابة ديماغوجية مدمرة.

فتحية لمن خرج لمناطحة السماء، وتحية للطربوش الذى أنتصر على البيرية، وتحية للصرامة الفكرية الكريهة التي تصنع النصر!

كيف تعمل الرأسمالية المصرية - الراقصة والطبال والتغييرات الطبقية

يبدو عنوانا غريبا ولكنه ذو دلالة، فالرقص الشرقي لا يمكن أن يتم إلا بوحدة أهم عنصرين في العرض، الراقصة والطبال ، وهكذا في الأنشطة الاقتصادية ، فلا يوجد نشاط اقتصادي إلا ويأتي مصحوبا بتغيرات طبقية حتى وان كانت هذه التغيرات امتدادا للأوضاع الطبقية السائدة أو تغييرا في الاوزان الطبقية ، سواء بين الطبقات الاجتماعية المختلفة او بين الفئات الاجتماعية داخل الطبقة الواحدة.

تغييرات تدريجية ويتراوح تأثيرها في سرعة تراكمها حيث قد يسفر الأمر عن تغييرات واسعة النطاق قد لا يدركها من يقوم بها الابعد ان تتراكم وتخلق واقع نوعي جديد ن قد يستمر الى فترات زمنية طويلة.

لقد حدثت مثل هذه التغييرات في تاريخ بلادنا الحديث منذ الحملة الفرنسية عدة مرات، وفى كل هذه التغييرات كان الدور القائد للدولة هو الأساس في مجتمعا متخلفا عن اللحاق بالتغييرات العاصفة عالميا، نشوء الرأسمالية وتوسعها الاستعماري ثم بتغيير هذا الطابع بصراعات المركز الرأسمالية العالمية لاقتسام وإعادة اقتسام العالم نتيجة لتغير أوزانها النسبية والذي مازال مستمرا إلى اليوم.

لقد بدأت التغييرات في تاريخ بلادنا الحديث بإجراءات فى ملكية الأراضي الزراعية في عهد محمد على، الامر الذى امتد الى عهدي سعيد واسماعيل وأسفر عن نشوء طبقة اجتماعية جديدة، هي طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية ذات أصول عرقية مختلفة، من أتراك الاسرة المالكة ومعاونيها من الأتراك والشراكسة والمصريين.

هذه الطبقة التي خرج من باطنها الرأسمالية المصرية الحديثة وتباينت داخلها عبر الزمن فئات اجتماعية جديدة وامتد نفوذها وتأثيرات مصالحها، بمختلف فئاتها الاجتماعية، التي ازداد تمايزها عبر الزمان إلى 1952، حيث تبدأ في التشكل، تدريجيا ، تغييرات كبرى جديدة.

فهل كان محمد على يدرك أن إجراءاته ستشكل بداية التغييرات الكبرى التي استمرت وتطورت الى 1952؟

وهل أدركت السلطة الجديدة، سلطة يوليو أن إجراءات الإصلاح الزراعي، المحدودة، كانت البداية الجديدة الخجولة لعصر جديد يتم فيه، باستخدام سلطة الدولة، القضاء على فئات طبقية قديمة وخلق فئات جديدة ؟ ولعلى احتاج الى جملة اعتراضية لازمة لكي اوضح ان لا احد أدرك تأثيرات هذه التغييرات الى ان حدث التغيير النوعي في بداية ستينات القرن الماضي، ولذلك سادت فترة من الاضطراب الفكري والاستخراعات النظرية، التي أطاح بها الزمان واختفت كما جاءت ، ماعدا اكتشافا نظريا بالغ الدلالة في نهاية ستينات القرن الماضي، وهو نشوء فئة اجتماعية جديدة هي الرأسمالية البيروقراطية التي سادت السلطة والسوق.

لقد استمر التأثير الغالب لدور الدولة حتى عصرنا الراهن، فبرغم أنه تم تمت محاولة كبرى عبر سنوات طوال منذ عام 1974 الى 2011 للانتقال من رأسمالية الدولة الى الدولة الرأسمالية ، إلا أن هذه المحاولة قد انتهت الى دولة المحاسيب ، لم ينتج عن عملية الانتقال تغير شكل الحكم والانتقال الى نظام للحكم أكثر تعبيرا عن التحالف الطبقي الذى كان يتشكل ، الامر الذى أدى في النهاية الى ثورة 2011 وتتحطم رأسمالية المحاسيب ، مؤقتا، ويعود من جديد التساؤل الأساسي لمواجهة الضرورات الملحة ، الاقتصادية والسياسية ، حيث تفرض هذه الضرورات الأهمية الحاسمة لدور الدولة القيادي والاستثماري ، الذى يعود من جديد وبقوة ولكن بأشكال تتجنب راديكالية ستينات القرن الماضي ، فيعانى من صعوبات خطيرة تتعلق بضعف السيطرة على تراكم وتصدير راس المال ومتجنبا الصدام مع المصالح التي ترسخت في فترة التغيير المباركية بما يفتح الطريق أمام تعاظم التأثير والضغوط الدولية.

لقد أدركت القوى الدولية وبعض القوى المحلية الضرورات الاقتصادية والسياسية التي فرضتا التغييرات الأخيرة منذ 2014 بعودة الدولة الى قيادة النشاط الاقتصادي والاستثمار المباشر والعودة بقوة الى شكل الحكم الذى كان قد تعرض للتأكل في نهاية عهد مبارك ، وقبلتها بشكل مؤقت ، لكنها الان تمارس ضغوطا

متزايدة لأحداث تغييرات داخلية تضمن ضمان وتطور مصالح الفئات الرأسمالية الاجتماعية الجديدة ولضمان ديمومة وتنفيذ التوجهات الاقتصادية والسياسية الجديدة المعلن عنها ، لكن مثل هذا التغيير مفتوح الاحتمالات ، فمازالت رأسمالية الدولة المدنية والعسكرية تطرح افقا مختلفا ، أفق المشاركة لبناء رأسمالية الدولة التشاركية بين راس المال المحلى الخاص الأكثر اندماجا مع الرأسمالية العالمية ومع الرأسمالية العالمية نفسها، بما يغير من توجهات الاختلاف والاتفاق ، فبرغم أن التغييرات الأخيرة تثير معارضات قطاعات هامة من الرأي العام إلا أنها ليست بعد اختيارات تعبر عن ديمومة دائمة تؤدى الى التأثير على شكل الحكم وممارسة السلطة السياسية ، فمازالت الضرورات الاقتصادية والسياسية والمصالح المختفية خلف تعبيراتها السياسية والاقتصادية قائمة ، لذلك فإن الاعتقاد بالاستمرار في الاحتياج للدور القيادي الاقتصادي والسياسي للدولة مازال قائما ، حتى ولو تغيرت أشكاله ، الامر الذى تعبر عنة سياسات الدولة المعلنة في وثيقة الدولة في ملكية وسائل الإنتاج ، لذلك سيستمر الخلاف والاختلاف حول دور الدولة الى أن تتغير بلادنا وتستقر طبقاتها الاجتماعية ، فالتغيرات الجارية تفتح الباب واسعا أمام تطور الصراع الاجتماعي ، الى أن يحين الحين لتغيير كبير جديد تنضجه التغييرات الاجتماعية المتراكمة ، أو التغييرات السياسية المفاجئة.

وبالطبع فإنني أدرك أن إعادة كتابة تاريخنا الاجتماعي تحتاج الى جهد كبير وعميق وأن ما أقدمه في هذا التعليق هو مجرد تنبيه وإعادة تأكيد لما تم اكتشافه في نهاية ستينات القرن الماضي لعميق اعتقادي ان بلادنا تحدث فيها تغييرات جديدة وسريعة وسيكون لها تأثيرات اجتماعية كبرى، بصرف النظر عن أدراك من يقوم بها أو عن إدراك المؤيدين والمعارضين الديماغوجي، فهل يذهب ما أدركناه وتعلمناه أدراج ريح الديماغوجية وننعم في النهاية بلعنة الاحفاد.

فلنراقب لنرى ونحاول أن نفهم ولعلنا نستطيع أن نؤثر، فلا توجد نهاية للتاريخ!

نهاية الاستعمار الاستيطاني في فلسطين

إيلان بابيه المؤرخ الإسرائيلي يكتب

وما كتبة يطرح تساؤلات فى منتهى الاهمية حول كيف نتعامل مع إسرائيل، تساؤلات لن تجد إجابتها فى " الايفوريا " الحالية العاجزة عن إدراك الطريق الى المستقبل، " إيفوريا " سلفية تستدعى أسوء ما فى الماضي وتتجاهل أفضل ما فيه لان هذا الافضل كان فقط دعاية وبربوجندا لم يتم أبدا تبنيه فى الاساليب والسياسات ، هذا الأسواء الذى قادنا الى ما نحن فيه ، وانا أدرك جيدا أن هذه المقدمة الصغيرة قد لا تعجب البعض ولكن استمعوا الى إيلان بابية المؤرخ الإسرائيلي المعادي للصهيونية لعلنا نكون جاهزين للقادم.

نهاية الاستعمار الاستيطاني في فلسطين

الصهيونية ظاهرة مشابهة لحركة الأوروبيين الذين خلقوا الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. ومن شأن هذه الفكرة أن تساعدنا على فهم طبيعة المشروع الصهيوني في فلسطين على نحو أفضل بكثير، منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم، وتعطينا فكرة عمّا يمكن توقّعه في المستقبل.

وصل هذا المشروع التاريخي إلى نهايته وهي نهاية عنيفة: عادة ما تنهار مشاريع كهذه بعنف، ما يجعل اللحظة خطرة للغاية بالنسبة إلى ضحايا هذا المشروع، والضحايا هم دائماً الفلسطينيون مع اليهود، لأن اليهود أيضاً هم ضحايا الصهيونية. وهكذا فإن عملية الانهيار ليست لحظة أمل فحسب، بل هي أيضاً الفجر الذي سينبثق بعد الظلام، وهي الضوء في آخر النفق.

في يوم الذكرى السنوية للإبادة الجماعية الذي تقيمه اللجنة الدولية لحقوق الإنسان في لندن، في 21 كانون الثاني/يناير 2024، تحدث البروفيسور إيلان بابيه عن حاجتنا لفهم أنّ إبادة الفلسطينيين الجماعية التي نشهدها الآن، على الرغم من وحشيّتها، هي أيضاً زوال ما يسمّى بالدولة اليهودية. وعلينا أن نكون على استعداد لتخيّل عالم جديد أبعد من ذلك.

ليست الفكرة التي مفادها أن الصهيونية هي استعمار استيطاني بالفكرة الجديدة. إذ أدرك الباحثون الفلسطينيون الذين كانوا يعملون في بيروت في مركز أبحاث منظّمة التحرير الفلسطينية في ستينيات القرن الماضي أن ما كانوا يواجهونه في فلسطين لم يكن مشروعاً استعمارياً كلاسيكياً. ولم يصوّروا إسرائيل على أنها مجرّد مستعمرة بريطانية أو أميركية، بل عدّوها ظاهرة وجِدت في أجزاء أخرى من العالم؛ وتُعرّف بالاستعمار الاستيطاني. ومن اللافت أنه على مدى 20 إلى 30 عاماً اختفت فكرة الصهيونية باعتبارها استعماراً استيطانياً من الخطاب السياسي والأكاديمي. ثمّ عادت لتظهر عندما اتفق باحثون في أجزاء أخرى من العالم، أبرزها جنوب أفريقيا وأستراليا وأميركا الشمالية، على أن الصهيونية ظاهرة مشابهة لحركة الأوروبيين الذين خلقوا الولايات المتّحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. ومن شأن هذه الفكرة أن تساعدنا على فهم طبيعة المشروع الصهيوني في فلسطين على نحو أفضل بكثير، منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم، وتعطينا فكرة عمّا يمكن توقّعه في المستقبل.

مقاومة السكّان الأصليين كانت صراعاً ضدّ الإبادة، وليس من أجل التحرير فحسب. وهذا مهم عندما يفكّر المرء في عمليّات حماس وغيرها من عمليات المقاومة الفلسطينية منذ العام 1948

ما أراه هو أن هذه الفكرة عينها، التي ربطت على نحو واضح أفعال المستوطنين الأوروبيين، خصوصاً في أماكن مثل أميركا الشمالية وأستراليا، بأفعال المستوطنين الذين جاؤوا إلى فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر، قد بيّنت بوضوح، في تسعينيات القرن العشرين، نوايا اليهود المستوطنين الذين استعمروا فلسطين وطبيعة المقاومة الفلسطينية المحلّية لذلك الاستعمار. لقد اتبع المستوطنون المنطق الأهم الذي تبنّته الحركات الاستعمارية الاستيطانية، ومفاده أنه لإنشاء مجتمع استعماري استيطاني ناجح خارج أوروبا، لا بدّ من القضاء على السكّان الأصليين في البلد الذي يتم استيطانه. وهذا يعني أن مقاومة

السكّان الأصليين لهذا المنطق كانت صراعاً ضدّ الإبادة، وليس من أجل التحرير فحسب. وهذا مهم عندما يفكّر المرء في عمليّات حماس وغيرها من عمليات المقاومة الفلسطينية منذ العام 1948.

كان المستوطنون أنفسهم، كما هو الحال بالنسبة إلى العديد من الأوروبيين الذين أتوا إلى أميركا الشمالية أو أميركا الوسطى أو أستراليا، لاجئين وضحايا اضطهاد. وكان بعضهم أوفر حظاً، يبحث عن حياة وفرص أفضل فحسب. لكن معظمهم كانوا منبوذين في أوروبا ويتطلّعون إلى إنشاء أوروبا في مكان آخر، أوروبا جديدة، بدلاً من أوروبا التي لم تُرِدْهم. وفي معظم الحالات، اختاروا مكاناً يعيش فيه غيرهم، أي السكّان الأصليون. وهذا ما جعل المجموعة الأساسية الأكثر أهمّية بينهم تلك التي ضمّت قادتهم وأيديولوجيتيهم الذين قدّموا مبرّرات دينية وثقافية لاستعمار أرض الآخرين. ويمكن أن نضيف إلى ذلك حاجة الاعتماد على إمبراطورية لبدء الاستعمار والحفاظ عليه، حتى لو تمرّد المستوطنون في بعض الأحيان على الإمبراطورية التي ساعدتهم وطالبوا بالاستقلال وحقّقوه، ذلك الاستقلال الذي حصلوا عليه في كثير من الأحيان ثم جدّدوا تحالفهم مع الإمبراطورية. والعلاقة الأنغلو-صهيونية التي تحوّلت إلى تحالف أنغلو-إسرائيلي هي خير مثال على ذلك.

قد تكون الفكرة التي مفادها أنّ بإمكانك القضاء على شعب الأرض التي تريدها بالقوة، مفهومة لا مبرّرة - على خلفية القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر - لأنها ترافقت مع تأييد كامل للإمبريالية والاستعمار. وقد تغذّت هذه الفكرة على النزع الشائع لإنسانية الشعوب الأخرى غير الغربية وغير الأوروبية. وحين تنزع إنسانية البشر، يسهل عليك القضاء عليهم. وما كان فريداً للغاية في الصهيونية بوصفها حركة استعمارية استيطانية هو أنها ظهرت على الساحة الدولية في وقت بدأت فيه الشعوب في جميع أنحاء العالم تعيد التفكير في شأن الحقّ في القضاء على السكّان الأصليين، وإبادة المحلّيين، ولذلك يمكن أن نفهم الجهد والطاقة اللذين وظّفهما الصهاينة ومن ثم دولة إسرائيل في محاولة التستّر على الهدف الحقيقي لحركة استعمارية استيطانية مثل الصهيونية، وهو القضاء على السكّان الأصليين.

لكنَّ الصهاينة اليوم يقضون على السكّان الأصليين في غزّة أمام أعيننا، فما الذي يدفعهم لأن يقتربوا كل هذا القرب من التخلّي عن 75 عاماً من محاولة إخفاء سياساتهم الإبادية؟ كي نفهم ذلك، علينا أن ندرك التحوّل الذي طرأ على طبيعة الصهيونية في فلسطين على مرّ السنين.

في المراحل الأولى من المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني، نفّذ قادته سياساتهم الإبادية في محاولة حقيقية لتربيع الدائرة بادعاء إمكان بناء ديمقراطية والقضاء على السكّان الأصليين في آن معاً. كانت هناك رغبة قوية في الانتماء إلى مجتمع الأمم المتحضّرة، إذ افترض القادة، خصوصاً بعد الهولوكوست، أنّ السياسات الإبادية لن تقصي إسرائيل عن هذه الرابطة.

بات من الواضح بالنسبة إلى معظم البشر أن المطلوب هو سياق وليس ذريعة. ويبدو من الجلي، تاريخياً وأيديولوجياً، أنّ السابع من تشرين الأول/أكتوبر يوظّف كذريعة لاستكمال ما عجزت الحركة الصهيونية عن إكماله في العام 1948

وكي تربّع القيادة هذه الدائرة، أصرّت على أن ممارساتها الإبادية ضد الفلسطينيين كانت «انتقاماً» من أفعال فلسطينية أو «رداً» عليها. لكن هذه القيادة، عندما أرادت الانتقال إلى أفعال تصفية أكثر جوهرية، سرعان ما تخلّت عن ذريعة «الانتقام» الزائفة وتوقّفت عن تبرير ما فعلته.

ثمّة ارتباط، في هذا الصدد، بين الطريقة التي تطوّر بها التطهير العرقي في العام 1948 والعمليات الإسرائيلية في غزة اليوم. في العام 1948، برّرت القيادة لنفسها كلّ مذبحة ارتُكبت، بما في ذلك مذبحة دير ياسين الشنيعة في 9 نيسان/أبريل، على أنّها ردّ فعل على عمل فلسطيني: لربما كان إلقاء الحجارة على حافلة أو مهاجمة مستوطنة يهودية، لكنها كان يجب أن تُقدّم محلياً وخارجياً كشيء لا يأتي من فراغ، بل كدفاع عن النفس. والحقّ أن هذا هو السبب في تسمية الجيش الإسرائيلي «قوات الدفاع الإسرائيلية». لكن كونه مشروعاً استعمارياً استيطانياً، منعه من الاعتماد طوال الوقت على «الانتقام».

بدأت القوات الصهيونية عمليات التطهير العرقي في خلال النكبة في شباط/فبراير 1948، ولمدة شهر قُدِّمت جميع هذه العمليات على أنها انتقام من المعارضة الفلسطينية لخطّة التقسيم التي أصدرتها الأمم المتحدة في تشرين الثاني/نوفمبر 1947. وفي 10 آذار/مارس 1948، توقّفت القيادة الصهيونية عن الكلام على الانتقام وتبنّت خطة كبرى للتطهير العرقي في فلسطين. ومنذ آذار/مارس 1948 وحتى نهاية العام 1948، كان التطهير العرقي في فلسطين، وما أدّى إليه من طرد نصف سكّان فلسطين وتدمير نصف قراها ونزع الطابع العربي عن معظم بلداتها، جزءاً من خطّة رئيسة منهجية ومتعمّدة للتطهير العرقي.

بالمثل، فقد تخلّت إسرائيل عن الحاجة إلى تبرير أفعالها بعد احتلال الضفّة الغربية وقطاع غزّة في حزيران/يونيو 1967، حين أرادت تغيير الواقع جذرياً أو الانخراط في عملية تطهير عرقي واسعة النطاق.

نشهد اليوم نموذجاً مماثلاً. فقد قُدّمت الممارسات الإسرائيلية في البداية على أنها ردّ انتقامي على عملية «طوفان الأقصى»، لكنها تحوّلت الآن إلى الحرب المسمّاة «السيوف الحديدية» والتي تهدف إلى إعادة غزة إلى السيطرة الإسرائيلية المباشرة، لكنها تلجأ إلى التطهير العرقي لشعبها من خلال حملة إبادة جماعية.

والسؤال الكبير هو: لماذا وقع السياسيون والصحافيون والأكاديميون في الغرب في الفخّ نفسه الذي وقعوا فيه في العام 1948؟ وكيف يمكنهم حتى اليوم أن يصدّقوا فكرة أن إسرائيل تدافع عن نفسها في قطاع غزّة؟ أي أن ما تفعله هو ردّ فعل على أفعال 7 تشرين الأول/أكتوبر؟

لعلهم لا يقعون في الفخّ. لعلهم على علم بأن ما تفعله إسرائيل في غزّة هو استخدام السابع من تشرين الأول/أكتوبر كذريعة.

في كلتا الحالتين، حتى الآن، ساعد ادّعاء الإسرائيليين ذريعة ما، في كلّ مرة يعتدون فيها على الفلسطينيين، في الحفاظ على درع الحصانة الذي سمح لإسرائيل بمواصلة سياساتها الإجرامية من دون خوف من أي ردّ فعل ذي معنى من المجتمع الدولي. وقد ساعدت هذه الذريعة في إبراز صورة إسرائيل كجزء من العالم

الديمقراطي والغربي، ما جعلها في منأى عن أي إدانة وعقوبات. وخطاب الدفاع والانتقام هذا برمّته مهم بالنسبة لدرع الحصانة الذي تحظى به إسرائيل من حكومات الشمال العالمي.

تجريد الفلسطينيين من إنسانيتهم هو رسالة صريحة تُنقَل إلى اليهود الإسرائيليين من خلال نظامهم التعليمي ونظام تنشئتهم الاجتماعية في الجيش ووسائل الإعلام والخطاب السياسي لإكمال الإبادة

لكن إسرائيل تتخلّى اليوم أيضاً، مع استمرار عمليتها، عن الذريعة، كما فعلت في العام 1948، وهذا ما يجعل حتى أعظم مؤيديها يجدون صعوبة في تأييد سياساتها.

بلغ حجم الدمار، وعمليات القتل الجماعي، والإبادة الجماعية في غزّة مستوى يجعل الإسرائيليين يجدون صعوبة متزايدة في إقناع حتّى أنفسهم بأن ما يفعلونه هو في الواقع دفاع عن النفس أو رد فعل. ولذلك، قد يجد المزيد والمزيد من البشر في المستقبل صعوبة في قبول هذا التفسير الإسرائيلي للإبادة الجماعية في غزة.

بات من الواضح بالنسبة إلى معظم البشر أن المطلوب هو سياق وليس ذريعة. ويبدو من الجلي، تاريخياً وأيديولوجياً، أنّ السابع من تشرين الأول/أكتوبر يوظّف كذريعة لاستكمال ما عجزت الحركة الصهيونية عن إكماله في العام 1948.

في العام 1948، استغلّت الحركة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية مجموعة معيّنة من الظروف التاريخية التي كتبتُ عنها بالتفصيل في كتابي «التطهير العرقي في فلسطين»»، وذلك بهدف طرد نصف سكّان فلسطين. وكما ذكرنا، فقد دمّروا في هذه العملية نصف القرى الفلسطينية، وهدموا معظم البلدات، ومع ذلك بقي نصف الفلسطينيين داخل فلسطين. وواصل الفلسطينيون الذين تحوّلوا إلى لاجئين خارج حدود فلسطين مقاومتهم الفلسطينية، ولذلك لم يتحقّق الهدف الاستعماري الاستيطاني المتمثل في القضاء على السكّان الأصليين، ومنذ العام 1948 إلى اليوم استخدمت إسرائيل على نحو تدريجي كل قوّتها لمواصلة القضاء على السكّان الأصليين.

لا ينطوي القضاء على السكّان الأصليين من البداية إلى النهاية على عملية عسكرية فحسب، يمكنك في خلالها احتلال مكان ما وذبح شعبه أو طردهم. بل يجب أن يكون الأمر مبرّراً أو يتوقّف، والسبيل للقيام بذلك هو نزع متواصل لإنسانية أولئك الذين تنوي القضاء عليهم. لا يمكنك أن تقتل البشر على نطاق واسع أو أن تبيدهم إن لم تنزع إنسانيتهم. ولذلك، فإن تجريد الفلسطينيين من إنسانيتهم هو رسالة صريحة وضمنية تُنقَل إلى اليهود الإسرائيليين من خلال نظامهم التعليمي ونظام تنشئتهم الاجتماعية في الجيش ووسائل الإعلام والخطاب السياسي. ولا بدّ من نقل هذه الرسالة والحفاظ عليها إذا ما أُريد إكمال الإبادة.

لهذا، نحن نشهد محاولة جديدة وحشية على نحو خاص لاستكمال الإبادة. ومع ذلك، فإن الأمر ليس ميؤوساً منه. في الواقع، من المفارقة أنّ هذا التدمير اللاإنساني لغزّة يكشف هو ذاته عن فشل المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني. قد يبدو هذا سخيفاً، لأنني أصف صراعاً بين حركة مقاومة صغيرة،

حركة التحرّر الفلسطينية، ودولة قوية ذات آلة عسكرية وبنية تحتية أيديولوجية لا ينصبّ تركيزها سوى على تدمير السكّان الأصليين أو الشعب الفلسطيني. وليس لحركة التحرّر هذه حلف قوي خلفها، في حين تحظى الدولة التي تواجهها بحلف قوي من الولايات المتحدة إلى الشركات المتعدّدة الجنسيات، وشركات أمن الصناعة العسكرية، ووسائل الإعلام والأوساط الأكاديمية الرئيسة. نحن نتحدث عن شيء يكاد يبدو ميؤوساً منه ومحبطاً لأننا أمام هذه الحصانة الدولية لسياسات الإبادة التي بدأت منذ المراحل الأولى للصهيونية وحتى اليوم. ربما يبدو هذا أسوأ فصل في المحاولة الإسرائيلية دفع سياسات الإبادة إلى مستوى جديد، وإلى جهد أكثر تركيزاً لقتل آلاف الأشخاص في فترة قصيرة من الزمن كما لم يجرؤ الإسرائيليون أن يفعلوا من قبل.

كيف يمكن لهذه اللحظة، إذاً، أن تكون لحظة أمل أيضاً؟ أولاً وقبل كل شيء، هذا النوع من الكيان السياسي، أو من الدولة التي يتعيّن عليها الاستمرار في تجريد الفلسطينيين من إنسانيتهم لتبرير إبادتهم، هو أساس هشّ للغاية إذا ما نظرنا إلى المستقبل.

كان هذا الضعف البنيوي واضحاً بالفعل قبل 7 تشرين الأول/أكتوبر، وجزء من هذا الضعف هو حقيقة أنه إذا ما ألغينا مشروع الإبادة، لن يبقى سوى أقلّ القليل مما يوحّد مجموعة البشر الذين يعرّفون أنفسهم على أنهم الأمة اليهودية في إسرائيل.

حتى النكبة الكارثية، لا تقارن بما نراه الآن وما سنراه في الأشهر القليلة المقبلة. نحن، كما أخمّن، في الأشهر الثلاثة الأولى من فترة ستمتدّ لسنتين وستشهد أسوأ أنواع الفظائع التي يمكن أن تلحقها إسرائيل بالفلسطينيين

إذا استثنينا ضرورة قتال الفلسطينيين وإبادتهم، يتبقّى أمامنا معسكران يهوديان متحاربان، سبق أن رأيناهما يتقاتلان فعلياً في شوارع تل أبيب والقدس حتى 6 تشرين الأول/أكتوبر 2023. إذ شهدنا مظاهرات ضخمة قام بها اليهود العلمانيين، أو من يصفون أنفسهم باليهود العلمانيين - ومعظمهم من أصل أوروبي - ويعتقدون أنه من الممكن إنشاء دولة ديمقراطية تعدّدية مع الإبقاء على الاحتلال والتمييز العنصري تجاه الفلسطينيين داخل إسرائيل، في مواجهة نوع جديد مسياني من الصهيونية تطوّر في المستوطنات اليهودية في الضفّة الغربية، وهو ما أطلقتُ عليه دولة يهودا التي ظهرت فجأة بين أوساطنا، معتقدين أنّ لديهم الآن طريقة لخلق نوع من الثيوقراطية الصهيونية من دون أي اعتبار للديمقراطية، ومؤمنين أنّ تلك هي الرؤية الوحيدة لدولة يهودية مستقبلية.

ليس ثمّة شيء مشترك بين هاتين الرؤيتين سوى أمرٌ واحد: وهو أنّ كلا المعسكرين لا يهتمّان بالفلسطينيين، ويرى أصحابهما أنّ بقاء إسرائيل مقرون باستمرار سياسات الإبادة تجاه الفلسطينيين. لا يبدو هذا منطقياً. ومن شأنه أن يتداعى وينفجر من الداخل لسبب أنّه لا يمكنك أن تحافظ على تماسك دولة ومجتمع في القرن الحادي والعشرين على أساس أن شعورهما المشترك بالانتماء هو جزء من مشروع إبادة جماعية. يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو بالتأكيد بالنسبة للبعض، لكنّه ليس كذلك بالنسبة للجميع.

لقد سبق أن رأينا قبل 7 تشرين الأول/أكتوبر كيف يفكّر الإسرائيليون، من أصحاب الفرص في أجزاء أخرى من العالم نظراً إلى جنسيتهم المزدوجة ومهنهم وقدراتهم المالية، في نقل أموالهم وأنفسهم خارج دولة إسرائيل. ما سيتبقى بعد ذلك هو مجتمع ضعيف اقتصادياً، يقوده هذا النوع من الالتحام بين صهيونية مسيانية وأخرى عنصرية ذات سياسات إبادية تجاه الفلسطينيين. نعم، سيكون ميزان القوى في البداية في جانب الإبادة، وليس في جانب ضحايا الإبادة، لكن ميزان القوى ليس محلياً فحسب، بل إقليمياً ودولياً أيضاً، وكلما كانت السياسات الإبادية أكثر قمعاً (ومن البشع أن نقول ذلك لكنه صحيح) كلما قلّت قدرة أصحابها على التستر عليها باعتبارها «رداً» أو «انتقاماً»، وكلّما زاد النظر إليها على أنها سياسة إبادة جماعية وحشية. ولذلك، من غير المرجّح أن تستمر الحصانة التي تحظى بها إسرائيل اليوم في المستقبل.

هكذا، أجد حقاً أنّ ما نشهده في هذه اللحظة حالكة الظلمة، وهي كذلك لأن تصفية الفلسطينيين انتقلت إلى مستوى جديد، هو أمر غير مسبوق. ومن حيث الخطاب الذي تستخدمه إسرائيل، وكثافة سياسات الإبادة وهدفها، لم يسبق أن كان هناك فترة كهذه في التاريخ، فهذه مرحلة جديدة من الوحشية ضد الفلسطينيين. حتى النكبة التي كانت كارثة عصيّة حتى على التصوّر، لا تقارن بما نراه الآن وما سنراه في الأشهر القليلة المقبلة. نحن، كما أخمن، في الأشهر الثلاثة الأولى من فترة ستمتدّ لسنتين وستشهد أسوأ أنواع الفظائع التي يمكن أن تلحقها إسرائيل بالفلسطينيين.

لكن حتى في هذه اللحظة المظلمة، علينا أن نفهم أن المشاريع الاستعمارية الاستيطانية التي تتداعى تستخدم دائماً أسوأ أنواع الوسائل في محاولتها إنقاذ مشروعها. حدث هذا في جنوب أفريقيا وجنوب فيتنام. لا أقول هذا من باب التمنّي، ولا أقول هذا بوصفي ناشطاً سياسياً: بل أقوله كباحث في شؤون إسرائيل وفلسطين بكل الثقة في مؤهلاتي العلمية. أقول، على أساس تفحّص مهني يرتكز على الوقائع، إننا نشهد نهاية المشروع الصهيوني، ولا شكّ في ذلك.

لقد وصل هذا المشروع التاريخي إلى نهايته وهي نهاية عنيفة: عادة ما تنهار مشاريع كهذه بعنف، ما يجعل اللحظة خطرة للغاية بالنسبة إلى ضحايا هذا المشروع، والضحايا هم دائماً الفلسطينيون مع اليهود، لأن اليهود أيضاً هم ضحايا الصهيونية. وهكذا فإن عملية الانهيار ليست لحظة أمل فحسب، بل هي أيضاً الفجر الذي سينبثق بعد الظلام، وهي الضوء في آخر النفق.

لكن الانهيار على هذا النحو ينتج عنه فراغ. يظهر الفراغ فجأة؛ مثل جدار يتآكل ببطء بسبب الصدوع فيه، ثم ينهار بغتةً. ولا بد لنا من أن نكون مستعدين لانهيارات كهذه، أو لاختفاء دولة، أو لتفكّك مشروع استعماري استيطاني. لقد رأينا ما حدث في العالم العربي، حيث لم يحل محل الفوضى التي أنتجها الفراغ أي مشروع بنّاء وبديل؛ وفي مثل هذه الحالة تستمر الفوضى.

هناك أمر واحد واضح، وهو أن من يفكّر في البديل للدولة الصهيونية عليه ألا يبحث في أوروبا أو الغرب عن نماذج تحل محل الدولة المنهارة. هناك نماذج محلّية أفضل بكثير وهي إرث من الماضي القريب والأبعد للمشرق (شرق البحر الأبيض المتوسط) والعالم العربي ككلّ. تتمتع الفترة العثمانية الطويلة بمثل هذه النماذج والموروثات التي يمكن أن تساعدنا في أخذ أفكار من الماضي للنظر إلى المستقبل.

يمكن لهذه النماذج أن تساعدنا في بناء مجتمع مختلف تماماً يحترم الهويات الجماعية فضلاً عن الحقوق الفردية، ويُبنى من الصفر كنوع لنموذج جديد يستفيد من التعلّم من أخطاء تفكيك الاستعمار في أجزاء كثيرة من العالم، بما في ذلك العالم العربي وأفريقيا. ونأمل أن يؤدي ذلك إلى خلق كيان سياسي من نوع مختلف يكون ذا تأثير كبير وإيجابي على العالم العربي ككل.

نشر هذا المقال على موقع «لجنة حقوق الإنسان الإسلامية» في الأول من شباط/فبراير 2024.

إيلان بابية

مؤرخ إسرائيلي مناهض للصهيونية وممارسات التطهير العرقي التي تمارسها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، مدير المركز الاوروبي للدراسات الفلسطينية في جامعة إكستر. لديه 20 كتاباً أشهرها «التطهير العرقي لفلسطين» الصادر في عام 2006.

حلا ميًّا

أستاذة جامعية، حاصلة على دبلوم في الترجمة والتعريب وماجستير في الترجمة التحريرية.

مرة ثانية الالتراس والعولمة بين اليمين واليسار

بالقطع فإن العولمة كان لها تأثير بالغ على نشؤ الالتراس فلقد نقلت خبرات الالتراس عالميا حيث نشأت أولا في ارض الابداع الكروي بالبرازيل سنة 1940، لتنشأ مجموعات الالتراس في مصر بداية من 2007 بالالتراس الاهلاوى والالتراس الزملكاوي، ثم تعم الظاهرة في العديد من الأندية الجماهيرية مثل الاتحاد والمصري والإسماعيلي والمحلاوي.

لقد ساهم الالتراس في أحداث الثورة منذ يوم 26 يناير 2011، وبالأخص التراس الاهلى مشكلين درع الحماية وقوة الصدام الأولى مع قوات الامن، معبرين عن الشعور الشعبي العام، وهو نفس الشعور الذى عبروا عنة فيما قبل 2011 في أحداث العدوان على غزة عام 2008 و2009، تعبيرا عرضيا لا يكشف عن احتمالات تطور مواقفهم.

ومن المؤكد أنه من الصعوبة بمكان ان تسيطر أحد القوى السياسية على حركات الالتراس ، لقد بذلت التيارات السياسية الدينية مثل هذه المحاولات مع الالتراس الأكبر ، الأهلي والزمالك ، وباءت هذه المحاولات بالفشل ، كما فشلت محاولاتها لأنشاء التراس خاص بهم ، الامر الذى يؤكد أن الالتراس ليس يمينيا أو يساريا ماعدا مكان جلوسهم في المدرجات ، الثالثة يسار والثالثة يمين ، يمين ويسار جغرافي وليس سياسيا ، ولن تستطيع أي قوى سياسية التأثير على الالتراس إلا بقدرتها على التعبير عن الاحلام الشعبية ، فالالتراس هو التعبير الاشمل عن المزاج الجماهيري حتى ولو كان تعبيرا حادا و" قليل الادب"

في عرف البعض ، فهل الغضب الجماهيري يجب أن يكون مؤدبا ! ، وهل يجب الاحتجاج على طريقة " السيس" دون وجود الجدعان الذين يحمون الاحتجاجات بأجسادهم ، هذه الأجساد التي قدمت شهداء الثورة.

فلا تستهينوا بالالتراس الجالسين على اليسار واليمين ولا تستهينوا بالمزاج الجماهيري

الالتراس

ظاهرة ليست جديدة وان كانت ليست تاريخية في التاريخ الحديث لبلادنا لكنها شديدة الارتباط مع الظروف السياسية وبالذات مع ضيق وتناقص الحريات الديمقراطية، ظاهرة تعبر عن الشوق الى التعبير وعن جدعنه ولاد البلد، فالتاريخ الحديث لبلادنا يكشف عن أدوارا هامة للاتراس عندما يحتدم الصراع الاجتماعي ويظهر في اعمال جماهيرية مباشرة، فيتدخل الالتراس عندما تقتضي الضرورة ذلك.

فالالتراس ليس مجرد شباب لتأييد لعبة رياضية أو نادى معين، بل هو التعبير عن المزاج الشعبي العام متجمعا حول فكرة تبدو ظاهريا كما لو كانت ضيقة، لكنة يكشف عن وجه الحقيقي والكامل عند الملمات والأزمات أو عندما يتحرك الشعور الوطني، فهل يمكننا أن ننسى كيف تدخل الالتراس لضبط الأمور في ميدان التحرير سنة 2011، أو كيف عبر بأوضح الأشكال عن الشعور الشعبي تأييدا لفلسطين في مباراة كرة القدم الأخيرة في نهائي كأس افريقيا في فعل جماعي جماهيري مبهر.

لقد نجح الالتراس في انتزاع حريات ديمقراطية هامة وضرب مثلا ومثالا لمختلف القوى السياسية، فتحية للضمير الوطني المتحرك على ارجلة " الالتراس "، الى أولاد البلد الجدعان في الثالثة شمال!

الحرب الأوكرانية الروسية البروبجندا والسياسة والتعاسة

للمرة الخامسة يعقد مؤتمر دولي حول الحرب الأوكرانية الروسية لكن هذه المرة في سويسرا، هذه المؤتمرات التي نظمتها بلدان متعددة بدوافع مختلفة إنسانية وسياسية ، وجميعها لم تستطع التوصل الى خطوات عملية لوقف الحرب والتوصل الى تسوية دائمة ، والملاحظ أن الطابع الدعائي لهذه المؤتمرات في تصاعد مستمر في اعقاب المؤتمر الثاني ، وبرغم أن العدد الإجمالي للدول والمنظمات

الإقليمية في تصاعد مستمر ، إلا أن مواقف الدول الأكثر تأثيرا في الأوضاع الدولية والإقليمية لم يتغير ، كما أن مواقف البلدين المتقاتلين لم تتغير كذلك .

فروسيا مازالت تطالب بانسحاب القوات الأوكرانية من باقي المناطق ذات الأغلبية السكانية الروسية في أوكرانيا وعدم انضمام أوكرانيا لحلف الأطلنطي وان تبقى أوكرانيا دولة غير نووية ورفع العقوبات الدولية الوقعة عليها.

وأوكرانيا تطالب بعشرة مطالب منها انسحاب القوات الروسية من المناطق الأوكرانية ذات الأغلبية الروسية ومحاكمة القادة الروس عن جرائم الحرب وضمانات دولية لوحدة أراضيها وبعض المطالب الاخرى وبعضها ذات طابع دعائي واضح، إلا أن أوكرانيا تطالب بانسحاب القوات الروسية قبل بداية التفاوض.

لقد دعيت للاشتراك في المؤتمر 160 دولة ومنظمة إقليمية، ولكن لم يحضر منها إلا 92 دولة وثمانية منظمات منها الأمم المتحدة كمراقب والباقي منظمات اوربية.

لقد كشف التصويت على البيان الختامي ان بعض من أهم الدول المحورية لم توافق علية برغم حصوله على موافقة 72 دولة، فالهند وجنوب أفريقيا والبرازيل والمكسيك والسعودية والامارات لم توافق علية ، كما لم تحضر الصين الشعبية ومصر المؤتمر ، الامر الذى يؤكد هشاشة العقوبات التي فرضت على روسيا بعد الصدمة الأولى للعقوبات الاوربية الامريكية ، فلقد تقلص الناتج المحلى الإجمالي في العام الأول للحرب سنة 2022 بمقدار 13% إلا أنه عاود الزيادة من جديد ليستعيد 20% من الناتج المفقود ، أما أوكرانيا فلقد فقدت 29% من دخلها القومي في العام الأول للحرب وما زال يتناقص ، والاهم في نتائج الحرب على أوكرانيا هو نقص السكان فلقد خرج من أوكرانيا 6.5 مليون لاجئ من اصل عدد سكان يبلغ 43 مليونا عام 2021 ، وتناقص متوسط دخل الفرد بحيث اصبح ترتيب أوكرانيا رقم 111 عالميا (طبقا لبيانات البنك الدولي بالقوة الشرائية) ، حيث يمكن اعتبار أوكرانيا بلدا من بلدان العالم الثالث المتخلفة ، وهو ثلث نصيب الفرد في روسيا ، الامر الذى يؤكد انهيار الاقتصاد الأوكراني واعتماده على المعونات الخارجية ، في نفس الوقت فإن العلاقات الروسية مع بلدان العالم ،على الأخص منها الدول الكبيرة الحجم ، تتدعم وتخلق فرص بديلة لتصدير المواد البترولية والغاز الطبيعي وللتجارة.

اما على صعيد الأوضاع القتالية فنستطيع ان نصل الى استنتاج أنها قد تقلصت الى مناوشات على حدود تماس القوات، ولم يحدث أي تغييرات جوهرية منذ شهور طوال، ما عدا تقدم طفيف للقوات الروسية طبقا للخرائط المرفقة، الامر الذي يخفف من الضغوط الاقتصادية ومن قلق الراي العام الروسي.

ومن الواضح أن هذه الحرب هي حرب يمكننا ان نسميها بالحرب التعيسة ، فبرغم المساعدات الاوربية والأمريكية الكبيرة لأوكرانيا فمن الواضح انها غير كافية لتغيير موازين القوى الامر الذى يؤكد أنها حرب ستكون طويلة ولن تختلف نتائجها عن الأوضاع الراهنة ، والتغيير رهن بحدوث تغييرات داخلية في احد البلدين ، تغييرات لن يكون لها تغيير في السياسات إذا اقتصرت على التغيير في الجانب الروسي ، فوصول روسيا الى المياه الدافئة يرتقى الى مستوى الحياة والموت ولن تتنازل روسيا عن ما سبق لها انتزاعه في

القرون الماضية مهما كانت طبيعة السلطة الروسية ، وتعاستها تنشأ من تحولها الى حرب حدودية ممتدة وتحول أوكرانيا الى وسيلة للغرب لاستنزاف واضعاف روسيا ، وقبول أوكرانيا للقيام بهذا الدور متجاهلة العواقب الاقتصادية والإنسانية الجسيمة على الشعب الأوكراني ومتجاهلة مصالح السكان من اصل روسي الذين تعرضوا للتمييز ، كما تتجاهل الخسائر البشرية الكبيرة.

ويبقى في النهاية أن الحرب تكسب في ميدان القتال وليس في المؤتمرات أو باستخدام البروبجندا.

فذلكة تاريخية استيراد الزمان

هل يمكن استيراد الزمان؟ أي هل يمكن استعادة الماضي؟ سؤال في منتهى الأهمية يجاوب علية البشر بأساليب مختلفة، إجابات تختلف طبقا للموقع الاجتماعي والشروط المجتمعية وأوضاع الصراع الاجتماعي، الامر الذي يفسر الى حد بعيد لماذا تظهر تيارات اجتماعية وثقافية وسياسية وكأنها قد بعثت من الماضي البعيد، والاكثر أهمية انها تنبعث في أوضاع اجتماعية مختلفة فتبدو كمسخ مشوه.

وبرغم ذلك فإن بعضها ينتشر انتشار النار في الهشيم، ليس لأنها تمثل نظرة الى مستقبل أكثر إشراقا، بل استدعاء للماضي الذى يعتقد البعض انه كان سعيدا، وفى الغالب فإن هذا الاستدعاء يتم في زمن هزيمة محاولات التقدم، كي يدغدغ أحلام البشر ويحظى بتأييدهم، استدعاء لا يشكل مؤامرة مقصودة من أشرار بل استجابة لأوضاع الهزيمة لذلك يبدو الامر وكأنه من فعل اشرار.

أن تاريخ بلادنا السياسي ملئ بمثل هذه الاستدعاءات التي لا يمكن مواجهتها إلا بتغيير الأوضاع الاجتماعية التي انتجتها وبمحاولات تغييرها، فليس صدفة أن تنظيمات الإسلام السياسي قد انبعثت في اعقاب عجز ثورة 1919 عن تحقيق الانتصار رغم النتائج الإيجابية التي حققتها ، وسط احتدام الصراع الفكري والاجتماعي الذى تعبر عن بعض ملامحة المعركة الفكرية والقانونية حول كتاب " الإسلام واصول الحكم " وكتاب " في الشعر الجاهلي " وقبول قيادة الثورة بدستور الاشقياء ، كما اسمى سعد زغلول اللجنة التي صاغته ، دستور 23 الشهير الذى حقق بعض من مطالب الثورة وانتقص منها ، أيضا.

وليس صدفة ان نشؤ التيارات الاسلاموجية المتطرفة وانبعاث الاخوان المسلمون من جديد كان في اعقاب هزيمة المشروع الناصري سنة 1967، التي ساهم في تدعيم انتشارها التغييرات الاجتماعية اللاحقة، وبدى الامر وكان " قندهار " قد بعثت في بلادنا، انبعاث كان يبدو وكانه الماضي البعيد بعد تشويهه وابتساره ، فالاحتفال بأكتوبر عام 2012 كان بالغ الدلالة حين احتفل قتلة السادات به في أستأد القاهرة فأصاب هذا الاحتفال الجميع بالفزع.

ولا يقتصر الامر على هذه التيارات الاسلاموجية، فالأمر أخطر من ذلك، فكثيرا ما تقع التيارات السياسية والاجتماعية والثقافية التي من المفترض أنها تنظر الى المستقبل في نفس التوجهات السلفية التي تحاول استدعاء الماضي، تيارات تمتد من الليبراليين الى الاشتراكيين نهاية بالناصريين وتشمل الامراء والخفراء، تقع في نفس " الخية"، غير مدركين أن استدعاء الماضي يجب أن يتم للتعلم من دروسه وليس بعثة من جديد في أوضاع اجتماعية وثقافية مختلفة وشروط دولية مغايرة.

لذلك فأن استيراد الزمان لن تكون نتيجته الا الفشل في اكتشاف المستقبل والتحرك في اتجاهه، فتعلموا من الماضي ولا تستدعوه وابحثوا عن زمانكم ومستقبلكم، وهي مهمة ثقيلة وصعبة وطويلة ومؤلمة لمن يدركها!

ميلودراما الأشجار

دراما كثيرة تدور حول تقطيع الأشجار من الشوارع العامة، دراما لا يجيب عليها مسؤولو الحكم المحلى الذين اعتقد انهم هم من يصدر هذه القرارات، كما لا توضح الامر وزارة الزراعة، وكلها توضيحات هامة للتعامل مع الرأي العام، في نفس الوقت الذي يجب على هؤلاء المسؤولين توضيح الخطط البديلة للتشجير.

وبرغم انى لست متخصصا في أمور الزراعة فلقد بحثت الامر فالمعلومات متوفرة بكثافة على مواقع النت، فالأشجار أنواع وكل نوع يلائم زراعته في أماكن معينة لاعتبارات متعددة، منها كمية الظلال التي قد تكون مناسبة في أماكن معينة وغير مناسبة في مواقع أخرى، ومستويات نمو الجذور التي يمكن ان تؤثر على الخدمات الأرضية المدفونة واستهلاكها للمياه وحاجتها للتقليم ومعدل تساقط الأوراق وغيرها من الاعتبارات الفنية.

وسأضرب امثلة عن بعض مضار الأشجار إذا تمت زراعتها بشكل خاطئ في أماكن خاطئة ودون ان تلقى العناية الكافية ، فلقد كنت أعمل في محطة لتوليد الكهرباء في دولة الكويت ، وتمت زراعة الكثير من الأشجار ، وللأسف الشديد زرعت بعض الأشجار فوق خطوط انابيب للغاز ذات قطر كبير وعلى عمق اربع امتار تحت الأرض ،ومع مرور الزمن ، بعد عشرة سنوات كاملة ، نمت جذور شجرة منهم وداومت بالاحتكاك بأنبوب الغاز الامر الذى ترتب علية كسر الخط وحدوث تسرب كبير في الغاز وانفجار كبير كاد ان يودى بأرواح بعض العاملين ، الذين أصيبوا بحروق كبيرة واستمروا في العلاج لشهور طوال وعمليات ترقيع وتشوهات ، الامر الذى دفع الإدارة الى تقطيع كل الأشجار الواقعة على مسار الخدمات الموجودة تحت الأرض.

والحادثة الأخرى متعلقة بشجرة الفكس الكثيرة الظلال والتي تنتشر انتشارا كبيرا في القاهرة ومنها حي الروضة حيث تسكن عائلتي، وكانت البلدية تقوم بشكل سنوي بتقليم هذه الأشجار ثم توقفت عن

ذلك، فنمت الأشجار نموا كبيرا وشاخت بعض فروعها الكبيرة، واحدها سقط على راس أمي وهي ذاهبة لزيارة أخي فقتلتها.

واليكم ما وجدته عن شجرة الفيكس

"ولكن للأسف أضرار شجرة الفيكس كثيرة، حيث بناء على تصريحات أحد المهندسين الزراعيين في هذا الأمر، فإن زراعة هذه الشجرة يُشكل خطر كبير على البيئة، حيث تحتاج إلى كمية كبيرة من الماء، فضلًا عن امتصاصها للأكسجين من الجو، وبالتالي يكون الأثر سيء جدًا على الإنسان بشكل خاص والكائنات الحية بشكل عام، لهذا رغب عدد كبير من المسؤولين بإزالة هذه الشجرة، أو على الأقل الحد من زراعتها الفترة القادمة.

وتكمن خطورة تلك الأشجار في كونها ذات جذور متشعبة وقوية وممتدة، فتتسبب بتلف أساسيات البناء إذا ما زرعت أمام المنازل، وتؤدي إلى تحطم شبكات الصرف وكابلات الكهرباء إذا ما وجدت جذورها طريقها إلى تلك الشبكات، علاوة على أن جذوعها لا تتعرى في فصل الخريف، فتتراكم الأوساخ والأتربة على أوراقها طوال الوقت، وتنثر ما تراكم عليها أثناء هبوب الرياح فتصيب الأشخاص القريبين منها بأمراض الجهاز التنفسي.

مضار كثيرة جدا يحملها شجر الفيكس لزارعيها ومن حولهم، ولعل أخف مضارها خطرا هو تسببها في تقليل منسوب المياه الجوفية بباطن الأرض، فهي شرهة جدا للمياه ولأن جذورها شاسعة الامتداد تحت الأرض، تحصل على المياه الجوفية بسهولة شديدة إذا ما أهمل ريها، وتستمر في النمو والتوغل.

أشجار الفيكس بريئة المظهر، بل محببة إلى النظر، حيث يهتم كثير من الأشخاص بتشذيبها وقص أوراقها في أشكال فنية فتسر الناظر إليها، لكن ما قد لا يعلمه الكثيرين أنها ليست بتلك البراءة، ومن المهم أن تقتلع من جذورها بالمناطق السكنية وبالقرب من الطرق.

والحقيقة أن شجرة الفيكس ليست خطيرة أبدا إذا ما تم زراعتها في أماكن فسيحة تبتعد عن المدن والمرافق، فالحدائق والمتنزهات العامة، والتي تقام على مساحات واسعة، تعتبر أماكن مناسبة لزراعة الفيكس للاستمتاع بمنظره المحبب".

لكل ذلك يجب على السلطات المسؤولة توضيح الامر كما طلبت في مقدمة هذا التعليق.

واليكم لينك من موقع اليوم السابع يتحدث فيه المختصون عن اشجار الزينة

فذلكة تاريخية - الدروس الفرعونية

هل يحق لنا التعلم من التاريخ؟ وهل يذهب بنا المدى الى التعلم من التاريخ الفرعوني؟ فما الذي حدث في فترة الاضطراب الأولى؟ وهى الفترة التي أعقبت الدولة القديمة، دولة بناءة الاهرامات والتي كانت بدايات نهايتها عندما نجح الكهنة في الاستيلاء على السلطة وتأسيس الاسرة السادسة، أسرة انتهت بنهايتها فترة طويلة من الاستقرار والنهوض الحضاري، واليكم ما كتبة الدكتور احمد فخرى في كتابة عن مصر الفرعونية مأخوذا من البرديات التي وصفت الثورة الشعبية:

"إذن لقد انتقم الشعب وثار الفلاح الصابر المطيع عندما وجد أن الظلم قد أزداد وان الأغنياء قد سلبوه كل شيء، ثار ثورته الجامحة فلم يبق على شيء ولم يفرق وهو في ثورته بين معبد لإله أو ديوان للحكومة أو قصر لغنى أو مخزن للدولة أو قبر دفنوا فيه حليا مع صاحبه، ولكن متل هذه الحالة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد فلابد للناس من أن يعودوا إلى الهدوء بعد الثورة وأن يحاولوا خلق مجتمع ونظام جديدين.، وإذا كانت الحقول قد تركت دون زراعة وتعكرت مياه النيل بلون الدم وملأت بجثث الموتى ، كان لابد للناس أن يهدؤوا وأن ينتجوا ليعيشوا، ولم يعد الشعب يجد من يصب عليه مزيدا من غضبه أو شيئا يمكنه أن يغتصبه ممن كان يملكه ، فخلد إلى الهدوء ، لأن الهدم سهل وميسور، ولكن البناء شيء آخر يحتاج إلى خبرة ، وتطلع إلى الذين احتلوا منه مكان الزعامة والمشورة ليخرجوه مما هو فيه ليبدأ حياة جديدة".

انها حكمة أيمحتب الحكيم تبعث من جديد، المفكر والمعماري الأول من عصر الأسرة الثالثة وبأنى الهرم الحجري الأول، هرم زوسر بسقارة.

فذلكة تاريخية - المبجلون

تعريف ليس جديدا، بل يرجع الى العهد الفرعوني، حيث اعتقد المصريون القدماء ان ملوك الشمال والجنوب قبل عهد الاسرات كانوا من نسل الالهة، ويبدو انه مع تقدم الحضارة الفرعونية ان المعتقدات الشعبية قد تطورت، فبدلا من أن الملوك هم من كانوا يلتحقوا بالسماء، بعد وفاتهم، فلقد عم هذا التصور بالبعث والحياة بعد الموت الى عامة الشعب.

ولكن يبدو ان الأصل التراثي لتبجيل الملوك والذي تطور الى تبجيل كبار المفكرين قد أصبح جزءا من التراث الشعبي المصري الى الان، وهو تطور واستمرار لا يخلو من جوانبه الإيجابية، لكنة يحوي مظاهر

شديدة الخطورة، خصوصا في فترات الانهيار الاجتماعي التي قد تسود فيها أفكارا ومعتقدات اجتماعية من ازمنة ماضية تتناقض مع محاولات وأفكار محاولات التقدم الى الامام.

لقد تفاقمت ظاهرة المبجلون بشكل كبير بحيث أصبح من الصعب انتقاد أفكار وتوجهات بعض الادباء والكتاب والشيوخ وكأنك قد أخطأت في البخاري، الذي أصبح يتمتع بنفس معاملة المبجلون، ظاهرة توجد تحت كل حجر وامتدت لتؤثر في أساليب البحث العلمي في الجامعات ومراكز البحث والباحثون الافراد.

وبرغم انى أبجل شخصيات كثيرة لدورهم العام ولتضحيات بعضهم الكبيرة او لإنتاجهم الأدبي والفكري، إلا أن هذا التبجيل لا يضعهم فوق النقد ولا يتحول الى إيمان اعمى بأفكارهم، بل يخضع لنظرة نقدية تاريخية، نظرة تاريخية تنظر لأفكارهم وانتاجهم وتاريخهم ومثالهم في ارتباط وثيق بعصرهم وأوضاع الصراع الاجتماعي الدائر في زمانهم وفى حدوده.

وتفاقم هذه الظاهرة تدل على ظاهرة اجتماعية منتشرة داخل جميع التوجهات الفكرية والسياسية والأدبية، حيث اصبح تبجيل " المبجلون " بديلا عن العمل الجاد لاستعادة ما قد فقد، واصبح التبجيل هدفا للبعض، الذى يعتقد انه منهم، فتهاوت الثقة بين الأجيال وتقطعت الروابط والانسياب الحر للأفكار والمعتقدات ونقل الخبرات، بل واصبح هؤلاء "المبجلون " مثارا للسخرية من الأجيال اللاحقة

فلا تبحثوا عن " مبجلين " لتقديرهم، بل ابحثوا عن من ينظر الى الامام واستفيدوا منة ولا تبجلوه، فهم رجال ونحن رجال، وابحثوا عن زملاء وليس عن زعماء "مبجلون" ......اليس كذلك!

فذلكة تاريخية - الدولة المحورية وافاق المستقبل

نقاش هام دار في الدوائر السياسية والتاريخية في الولايات المتحدة الامريكية حول كيفية التعامل مع العالم، بالذات مع الدول النامية، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الاشتراكي الاوربية، منطلقا من تقديرات سياسية ان الخطر القادم هو الفوضى الداخلية في هذه البلدان التي ستؤثر على المصالح الامريكية، ولكى لا نسترسل في شرح المفاهيم التي استقرت، بهذا الشكل أو ذاك، داخل الدوائر السياسية والتاريخية في الولايات المتحدة، فلماذا لا نجعلهم يتحدثون عن انفسهم.

من مقال نشر في جريدة Foreign Affairs من تأليف ثلاثة من أساتذة جامعة يل الامريكية وعلى راسهم المفكر السياسي والتاريخي " بول كنيدي " عام 1998.

" في الواقع، ربما تناسب نظرية الدومينو الآن الاحتياجات الإستراتيجية للولايات المتحدة بشكل أفضل مما كانت عليه خلال الحرب الباردة. ولم تعد قطع الدومينو الجديدة، أو الدول المحورية،

في حاجة إلى المساعدة ضد التهديد الخارجي المتمثل في نظام سياسي معاد؛ بل الخطر هو أن يقعوا فريسة للاضطراب الداخلي.
قبل عقد من الزمن، عندما كان التهديد الرئيسي للمصالح الأميركية في العالم النامي هو احتمال تحالف الدول مع السوفييت، واجهت الولايات المتحدة عدواً واضحاً، لقد استولى هذا العدو على الخيال الأميركي على نحو لا تستطيع الفوضى الوشيكة أن تفعله، ومع ذلك فإن الفوضى وعدم الاستقرار قد يشكلان تهديداً أعظم وأكثر خطورة للمصالح الأميركية من الشيوعية في أي وقت مضى. "
وبرغم قصور هذه النظرة في رؤية حقيقة الصراع العالمي الذى كان دائرا في العالم منذ انتصار الثورة البلشفية في روسيا وامتداداتها ، عبر الزمان ، الى دول أخرى ، اوربية واسيوية ، وكأن هذا الصراع كان خروجا عن المألوف عالميا ولم يكن حقيقية تاريخية منذ ما قبل وجود الدول الاشتراكية وسيستمر بين القوى العالمية الكبرى مهما كانت طبيعة نظمها السياسية ، وهو ما نراه أمام اعيننا كل يوم ، وهى رؤية تمثل جانب من جوانب الأفكار التي بزغت في اعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي مثل أفكار نهاية التاريخ وابدية النظم السياسية التي انتصرت ، مؤقتا ، في الحرب الباردة ، التي لم تكن أبدا باردة بل كانت مليئة بدماء البلدان الأقل تطورا والمستعمرة.
إلا ان هذه النظرة السياسية والتاريخية تتضمن مفهوما هاما يتحدث عنة الجميع، مفهوم الدولة المحورية، بصرف النظر عن طبيعة التسميات المختلفة لهذه الدول المحورية، فالدولة الإقليمية المحورية هي التي توثر التغييرات الداخلية فيها على مصير منطقة جغرافية كاملة وعلى التوازن العالمي، لذلك يتحدث المقال
" فما هي المعايير التي يجب وفقها اختيار الدول المحورية؟
عدد كبير من السكان وموقع جغرافي مهم هما متطلبان، كما أن الإمكانات الاقتصادية أمر بالغ الأهمية، كما اعترف به تحديد وزارة التجارة الأمريكية مؤخرا لـ" الأسواق الناشئة الكبيرة " التي تقدم أكبر قدر من الوعد للأعمال التجارية الأمريكية.
الحجم المادي شرط ضروري، ولكنه غير كاف، تضم زائير مساحة واسعة، لكن مصيرها ليس حيويا للولايات المتحدة.
إن ما يميز الدول المحورية حقا هو قدرتها على التأثير على الاستقرار الإقليمي والدولي، إن الدولة المحورية مهمة جدا على المستوى الإقليمي لدرجة أن انهيارها من شأنه أن يؤدي إلى فوضى عابرة للحدود، الهجرة، والعنف الطائفي، والتلوث، والمرض، وما إلى ذلك.
من ناحية أخرى، فإن التقدم والاستقرار الاقتصادي المطرد لدولة محورية من شأنه أن يعزز الحيوية الاقتصادية والسلامة السياسية لمنطقتها ويفيد الأمريكيين في التجارة والاستثمار."
وبرغم استمرار قصور هذه الرؤية لتصورها ان الصراع العالمي بين القوى العظمى قد انتهى بانهيار الكتلة السوفيتية، فإنها تقدم مفهوم الدول المحورية بشكل أكثر وضوحا برغم جوانب القصور، التي يقف على راسها ان الامر لا يقتصر على الفوضى العابرة للحدود، بل يمتد الى دفع التغييرات في بلدان المنطقة في اتجاه مصالح الدولة الإقليمية المحورية والى التأثير في التوازن العالمي.

وللأسف الشديد فإن الدولة المحورية في منطقتنا هي مصر، وهى الدولة التي يلخصها تعريف الدولة المحورية ، والاسف نابع من الحقيقة التاريخية المكتشفة منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى الان ، هذا الأسف الناشئ من حقيقة أن تقدم بلادنا كان وسيكون شديد الصعوبة لأنه سيصطدم مع مصالح القوى العظمى مهما كانت طبيعة أنظمتها السياسية ، وإن كانت توجد دائما إمكانية الاستفادة من الصراع العالمي ، خصوصا مع تعدد وتضارب مصالح هذه الدول ، استفادة ممكنة وضرورية لكنها تتطلب حسن تقدير موازين القوى العالمية وإدراك أن هناك حدودا وإمكانيات ، وان طريق الاحلام لا يجب أن يكون مفروشا بالنوايا الطيبة بل بحكم شعبي قادر على الصمود في مواجهة ضغوط كبيرة متنوعة رأيناها في الماضي البعيد منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى الماضي القريب والى الان.

فتجربة مصر في عهد ساكن الجنان محمد على كانت بالغة الدلالة في التأثير على مصالح القوى العظمى في ذلك الزمان، وكانت تشكل خطرا داهما على مصالحها ببزوغ دولة محورية كبيرة كانت على وشك وراثة الدولة العثمانية المتهالكة ، فلقد كان يمكن للجيوش المصرية الدخول الى العاصمة العثمانية ، هذا الدخول الذى تحالفت لمنعه الدول لكبرى في ذلك الزمان ، روسيا وإنجلترا والنمسا وتواطئ فرنسا ، برغم محاولات محمد على للاستفادة من تناقضات مصالح هذه الدول ، لكنة تجاوز حدود قوته وتعرض للإنهاك بما يتجاوز الإمكانيات المتاحة في بلد كان مازال متخلفا عن السياق العالمي ، فاجبر على التراجع والاكتفاء بحكم عائلته الوراثي وسط شروط قاسية فرضت علية.

ويتكرر الامر مرة ثانية في العهد الناصري، برغم أن الظروف التاريخية كانت مختلفة ، فلقد كان الصراع العالمي يتيح إمكانية أوسع للمناورة ، الامر الذى ترتب علية تأثير متعاظم لهذه الدولة المحورية التي تقع في صرة العالم ، وهو الامر الذى يفسر الى حد بعيد استمرار المساعدات الامريكية الاقتصادية للنظام الناصري ، مساعدات كانت شديدة الارتباط بالصراع العالمي وبسلوك هذه الدولة المحورية ، وكانت امتدادا للمساعدات التي قدمتها الولايات المتحدة منذ ان بزغت كقوى عظمى في اعقاب الحرب العالمية الثانية لمصر الملكية ، الامر الذى يوضحه الجدول المرفق من بيانات هيئة المعونة الامريكية ، مساعدات كان الهدف منها محاولة السيطرة والتأثير على سلوك هذا الدولة المحورية ، لكن هذه السياسات تفشل في تحقيق هدفها كي ينتهى الامر بضرورة " صيد الديك الرومي " ، فتقع حرب 1967 ، لكن الامر يستمر بعد ذلك في العهود المتوالية ، بشكل أكثر وضوحا بارتباط وثيق مع سلوك هذه الدولة المحورية السياسي الإقليمي والعالمي .

ولا يجب عقد المقارنات مع أوضاع دول أخرى حققت تقدما ملحوظا دون التوقف طويلا وكثيرا حول اوضاع الصراع العالمي ودور هذه الدول فيه ، وحول حدود هذا التقدم والمصالح الطبقية التى تعبر عنها.

أن التقديرات السياسية والاقتصادية للأوضاع العالمية توضح تزايد إمكانية الإفلات من " حنك السبع "، فقوى عظمى جديدة تبزغ على السطح وعلى راسها الصين، وقوى إقليمية محورية

تتقدم مثل البرازيل والهند، وقوى عظمى قديمة تخرج من انهيارها وتصارع بالسلاح على حدودها في أوكرانيا ، الامر الذى يتيح إمكانية الاستفادة من هذا الصراع العالمي ، شريطة إدراك حقائق موازين القوى وحدود قدراتك في تطورها .

جدول المساعدات الامريكية لمصر - بالدولار

EGY	Obligations	1946	9,600,000
EGY	Obligations	1948	1,400,000
EGY	Obligations	1951	100,000
EGY	Obligations	1952	1,200,000
EGY	Obligations	1953	12,900,000
EGY	Obligations	1954	4,000,000
EGY	Obligations	1955	66,300,000
EGY	Obligations	1956	33,300,000
EGY	Obligations	1957	1,000,000
EGY	Obligations	1958	601,000
EGY	Obligations	1959	44,800,000
EGY	Obligations	1960	65,900,000
EGY	Obligations	1961	73,500,000
EGY	Obligations	1962	200,500,000
EGY	Obligations	1963	146,700,000
EGY	Obligations	1964	95,500,000
EGY	Obligations	1965	97,600,000
EGY	Obligations	1966	27,600,000
EGY	Obligations	1967	12,600,000
EGY	Obligations	1972	1,500,000
EGY	Obligations	1973	800,000
EGY	Obligations	1974	21,300,000
EGY	Obligations	1975	370,100,000
EGY	Obligations	1976	464,300,000
EGY	Obligations	1976	552,501,000
EGY	Obligations	1977	907,752,000
EGY	Obligations	1978	943,212,000
EGY	Obligations	1979	2,588,474,000
EGY	Obligations	1980	1,167,271,000
EGY	Obligations	1981	1,681,169,000
EGY	Obligations	1982	1,967,251,000
EGY	Obligations	1983	2,331,842,000
EGY	Obligations	1984	2,470,595,000
EGY	Obligations	1985	2,468,406,000
EGY	Obligations	1986	2,539,034,000
EGY	Obligations	1987	2,316,875,000
EGY	Obligations	1988	2,174,923,000
EGY	Obligations	1989	2,269,671,000
EGY	Obligations	1990	2,389,277,000
EGY	Obligations	1991	2,299,809,000

البيانات المرفقة من موقع هيئة المعونة الامريكية الرسمي

معنى كلمة فذلكة

الفذلكة هي كلمة عربية فصيحة ولا تعبر عن المعنى الدارج ومعناها الاتى " الفَذْلَكَة هي كلمة تأتي بمعنى خلاصة أو مجمل ما قد ذكر بالتفصيل وهي مشتقة من الفعل العربي «فَذْلَكَ». وهي من قول الحاسب إذا أجمل حسابه، فَذَلِكَ كذا وكذا إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته. قال الشهاب الخفاجي: الفذلكة: جملة عدد قد فُصِّلَ. وبجانب هذا الاستعمال الرياضي فإن الكلمة تستعمل للإشارة إلى المختصرات لا سيما في كتب التاريخ. وقد استخدمت بهذا المعنى في دواوين الدولة العثمانية."

الحزب والطبقة - الليبرالية والبونابرتية

"البونابرتية ليست مسبة بل هى و صف للحالة و كل بونابرت و ظروفه وإدراكه".

تدعى الكثير من الاحزاب انها تمثل مصالح طبقات اجتماعية بعينها، كما تدعى غيرها انها تمثل مصالح المجتمع بكل طبقاته ، و هو امر يحتاج الى مزيد من التدقيق والتمحيص.

فأفكار الاحزاب عن تمثيلها لمصالح طبقات اجتماعية معينة لا يعنى صحة هذه الافكار كما ان التفاف طبقة او طبقات اجتماعية حول حزب لا يعنى بالضرورة ان هذا الحزب يعبر عن المصالح التاريخية لهذه الطبقات.

و لنضرب مثالا واضحا ، فالحزب الذى يمثل المصالح التاريخية للرأسمالية الالمانية فى الثلاثينيات كان الحزب المسيحي الديمقراطي الألماني و لكن هذا الحزب خسر انتخابات 1933 امام حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمعروف باسم الحزب النازي و هو حزب كان يتبنى برنامجا ، قبل الوصول الى السلطة ، ديما جوجيا برجوازيا صغيرا ، و لكنة حظى بتأييد الرأسمالية الالمانية الكبيرة لإدراكها انه قادر على حل مشاكلها من حيث أمالها فى اعادة اقتسام العالم ، الذى فشلت فى تحقيقه فى الحرب العالمية الاولى ، و فى التخلص من القيود الثقيلة المفروضة عليها كنتيجة للحرب ام فى توسيع السوق الذى تحتاجه بشدة سواء بتعديل الاتفاقات الثقيلة او بالتمدد خارج الحدود او بتوسيع السوق الداخلي بتبني سياسية تسليح كثيفة .

اذن الطبقات الاجتماعية تؤيد الحزب الذى يحقق مصالحا حتى و ان كان يسلبها التمثيل السياسي المباشر، اى شكل الحكم الليبرالي، المفضل لدى الرأسمالية الناضجة، كي يحكم الديكتاتور الجديد باسمها و لصالحها .

هذا الشكل من الحكم الذى اطلق علية فى الادبيات السياسية، الحكم البونابرتي، تيمنا بنابليون الاول الذى سلمت الية السلطة فى اعقاب الثورة الفرنسية الكبرى، كي يحطم البنية الاقطاعية الاوربية و يفتح المجال امام الرأسمالية الفرنسية الناهضة. ولكن هذا الشكل من الحكم يحكمه منطق داخلي اخر،

فالديكتاتور يصبح مطلق الصراح و قد تتحكم فيه رغباته الخاصة و يتوقف عن لعب الدور المنوط به عند الوصول الى السلطة، وقد يصبح التخلص منة شديد الصعوبة.

اما في البلدان الاقل نضجا، فان شكل الحكم الليبرالي لا يمكن الوصول الية الا عندما يصبح ضرورة حياة للرأسمالية المحلية الحاكمة، اى بعد ان تنضج وتنجح فى انجاز مهامها فى التحديث و التصنيع، اما قبل ذلك ، و نتيجة لنشاط الجماهير الشعبية و خطرها الدائم ، فأنها تفضل ان تدعم البونابرت الاكثر قدرة على الدفاع عن مصالحها و على مواجهة الطبقات الشعبية.

لقد حكمت بلادنا فى اعقاب حركة 1952حكما بونابرتيا، وكانت النتائج مختلفة باختلاف الظروف المحلية و الدولية بكل مرحلة، و لكن النتائج النهائية، حتى الان، هي العجز عن تحقيق مهام التحديث و التصنيع برغم الاداء البطولي لمصر الناصرية.

واود ان اتوقف قليلا مع مصر مبارك ، ففي تقديري ان بداية النهاية لهذا النظام بدأت فى بداية القرن الواحد و عشرون ، عندما بدأت فى التشكل مجموعة صغيرة من المنتفعين حول الوريث ، و توقف البونابرت ، تدريجيا ، عن القيام بدورة البونابرتي الى ان فتوقف تماما عن هذا الدور قبل الثورة مباشرة ، حيث لم يعد ممثلا لطبقة اجتماعية بل عن حفنة من المنتفعين ، و هو ما يفسر ان المشاركين فى الحراك الاجتماعي كان منهم كبار الممثلين للفئات و الطبقات الاجتماعية التي كان من المفترض ان يستمر فى تمثيلها ، ليس هذا فقط ، بل فقد ايضا ثقة و تأييد اجهزة السلطة المنوط بها حماية النظام

يبقى الاجابة على بعض الاسئلة

هل لدينا ليبرالية مصرية؟

-نعم لدينا من يمكن و صفهم بالليبراليين المصريين و منظمين في احزاب رسمية او افراد يعملون بالعمل العام و منهم حزب الوفد و حزب الاحرار و حزب الدستور و افراد مثل الببلاوي وزياد بهاء الدين و البرادعي ووصلوا الى السلطة فى لحظة انتقالية مؤقتة و لكن هؤلاء الليبراليين، مثلهم مثل الليبراليين ما قبل 1952، تتبخر ليبراليتهم بدرجات طبقا لعلاقتهم بالسلطة ، سواء بالمشاركة فيها ام بتوجهات هدة السلطة ، و لدلك تحدثث عن ان بعضهم ، الاكثر انسجاما و الاكثر شرفا على الصعيد الشخصي ، سيستمرون فى الصياح من القاهرة و النمسا و لن يسمع لهم احد حتى يستقر شكل الحكم و تنقضي الظروف الانتقالية ، ولدينا كدلك احزابا تسمى نفسها بأسماء اخرى و لكنها تقترب اكثر من ان تكون احزابا ليبرالية مطعمة بأفكار اخرى ، و لكنها قصة اخرى سأتحدث عنها بشكل منفصل لاحقا.

-هل هناك تلازم بين نظام الانتاج الرأسمالي و الليبرالية ؟

لابد من التفريق بين الرأسمالية كنمط انتاج و بين طبيعة السلطة السياسية، ففي تقديري و كما اوضحت، انه لا يوجد تلازم بين نظام حكم ليبرالي و نمط الانتاج الرأسمالي ، و ان الانتقال الى نظام حكم ليبرالي رهن بإنجاز الرأسمالية لمهامها فى التحديث و التصنيع و عندها و عندها فقط يصبح نظام الحكم ليبراليا ضرورة حياة لاستمرار نمط الانتاج الرأسمالي ، كان فى خاطري ما حدث فى كوريا الجنوبية.

-هل يمكن لأنظمة حكم شمولية ان تحقق انجازات اقتصادية ؟

بالقطع نجحت انظمة الحكم الشمولية فى تحقيق انجازات اقتصادية كبرى فى بلدان مختلفة و بقيادة توجهات مختفة ، لقد حققت كوريا الجنوبية ذلك بقيادة بونابرتية الى ان انتقلت الى نظام حكم شبهة ليبرالي ، و تحقق الصين الشعبية (!!) الان نموا رأسماليا غير مسبوق فى تاريخ البشرية بقيادة حزب شيوعي (!!) الى الحد انها اصبحت اكبر اقتصاد فى العالم (طبقا للقوة الشرائية) او ثانى اكبر اقتصاد (طبقا لسعر تبادل العملة) ، و تحقق روسيا نموا جيدا تحت قيادة تقترب من ان تكون بونابرتية ، و تحقق فيتنام نموا رأسماليا متسارعا تحت قيادة حزب شيوعي ، و كلها انظمة حكم شمولية تتضاءل فيها الحريات الليبرالية كما نعرفها .

-هل تسمح الرأسمالية العالمية و شركاتها المتعددة الجنسية لبلدان متخلفة تحكم بشكل بونابرتي بان نقوم بنهضة اقتصادية ؟

للإجابة على هذا التساؤل لابد و ان نلقى نظرة اكثر تمحيصا على الوضع الدولي ، لقد تغيير الوضع عن الفترة التي اعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي تغييرا كبيرا ، فالنهوض الرأسمالي الكبير فى العديد من الدول الكبرى ، و بالذات في روسيا و الصين ، و الصراع الكبير الدائر الان لإعادة اقتسام العالم و استعادة النفوذ المفقود ، يفتح بارقة امل في الاستفادة منة شرط حسن ادارة الامور و لذلك اجبت لسؤال احد الاصدقاء عن هل هناك فرصة لنظام حكم بونابرتي في ان يقود و ينجز مهام النمو الرأسمالي الغير منجزة و كان جوابي بالإيجاب شرط حسن ادارة الامور .

-هل انتهى شكل الحكم البونابرتي ؟

يبقى ايضاح امر اخير متعلق بشكل الحكم البونابرتي و هل انتهى بموت عبد الناصر ، و في تقديري ان شكل الحكم لا يتعلق بمواجهة النفوذ الأجنبي او بمحاولة تحقيق انجازات اقتصادية كبرى ، كما فعل و حاول عبد الناصر، ولكن متعلق فقط بشكل الحكم ،حين تتخلى الطبقة السائدة عن دورها للبونابرت كى يتولى الدفاع عن المصالح الكلية لها، و لذلك فان شكل الحكم البونابرتي لا يقاس بأحلامنا فى الديمقراطية او النهضة ، فكم من حكام بونابرتيين حققوا انجازات اقتصادية و اجتماعية كبرى و تمتعوا بشعبية غامرة حتى بعد موتهم ، مثل جمال عبد الناصر و نابليون الاول و حتى بوتين الان فى روسيا ، و كم من حكام بونابرتيين اصبحوا مضحكة للتاريخ مثل نابليون الثالث .. البونابرتية ليست مسبة، بل هي وصف للحالة و كل بونابرت و ظروفه وإدراكه

ارجو ان اكون قد اوضحت رأى فى هدا الحيز الضيق

راجع كتاب دراسات في الفاشية، المؤسسة الغربية للدراسات والنشر، للتعرف على رأى شارل بتلهايم فى صعود هتلر الى السلطة

الهنود الحمر واكتشاف أمريكا!! ومهزلة التبعية

سؤال يبدو بريئا وساذجا لأنه، ببساطة، يتناقض مع العرف والاتفاق السائدين، نعم هناك هنود حمر تمتلئ بهم الشاشات ونعم تم اكتشاف أمريكا.

ولكن هذه الحقائق ليست حقائق على الاطلاق الا في العقل الغربي الذي عم العالم وشاع ولقى قبولا من الشعوب الأخرى التي تم استعمارها أو، أذا بالغنا، تم اكتشافها لولا بقية من حياء!!

فأمريكا كانت دائمة موجودة وتسكنها شعوب على درجات مختلفة من التطور، من القبائل البدائية في شمال أمريكا الى الشعوب الأكثر تقدما في الجنوب والوسط، كالانكا والمايا والازيتك ، ولذلك فان أمريكا استعمرت من الاوربيين ولاقى أهلها العذاب بتحطيم حضارتهم وسبل حياتهم، بل وابادتهم أحيانا، ومازال بعضهم يعانون من سيطرة المستوطنين ويعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية في مستعمرات محدوده المساحة والموارد.

ولم يكن سكان الشمال هنودا حمرا الا في العقل الاستيطاني الأبيض، بل هي قبائل لها أسماء كالسو والشيان وغيرها ولها لغات متعددة وبنية ثقافية متفردة.

وليس القصد، هنا، التحدث عن تاريخ احتلال أمريكا والنتائج التي ترتبت على ذلك، ولكن الهدف من هذا التعليق هو مجرد لفت الانتباه الى أنه برغم تحرر بلادنا من الاحتلال العسكري المباشر، فان بلادنا ما زالت محتلة احتلالا أكثر خطورة وأعمق اثرا وأصعب في التخلص منة، أنه الاحتلال الفكري والثقافي.

وبرغم أن التقدم الفكري والثقافي الذي حققته البلدان الأكثر تقدما يحتوي على منجزات فكرية وثقافية عامة تتجاوز اطر مجتمعاتها وأصبحت جزءا من التراث الإنساني العام الذي يخص كل البشرية في البلدان المتقدمة او المتأخرة، مثلها مثل كل المنجزات البشرية التي حققتها البلدان التي كانت متقدمة في عصور سابقة مثل الحضارات القديمة لمصر والعراق والصين، فان الوقوع في شرك المحاكاة لا يمكن له ان يقود البلدان المتأخرة الى التقدم.

انها دعوة للتمرد على المحاكاة والى محاولة اكتشاف طريقنا الخاص للتقدم، دعوة لا تتجاهل المنجزات الإنسانية الكبرى التي حققتها الإنسانية منذ الحضارات القديمة الى الحضارة الحالية، سواء على طريق العلم أم الأفكار الاجتماعية، ولكنها لا تتجاهل، بل تنطلق من الواقع الفعلي لبلادنا.

دعوة لا يجب ان تترك حجرا على حجر الا بالتوقف أمامه، بدءا من التنظيم الاجتماعي وشكل الحكم الى الأفكار والمعتقدات الفكرية والسياسية والمدارس الفنية والثقافية ولا تتجاهل الميراث الفكري والثقافي لبلادنا.

أنه نفس الاقتراب الذى حاول اباؤنا واجدادنا القيام به منذ بدء محاولات النهضة في القرن التاسع عشر ، ولكن هذا الاقتراب عانى مما نعانى منة الان ، حيث اختلطت المحاولات المتمردة الاصيلة مع المحاكاة التي كانت ومازالت غريبة على مجتمعنا ولا يمكن أن يترتب عليها الا تبديد واضعاف محاولات النهضة

والتقدم ، برغم أن هذا الاقتراب كان أكثر انسجاما واصرارا مما نمر به الان ، وبرغم المقاومة المستميتة من دعاة الماضي ،وليته كان من دعاة الماضي المزدهر بل ماضي التخلف والجمود الفكري والعقائدي لعصور الانحطاط والتي تمثله بأوضح الصور التيارات الإسلاموية المعاصرة.

أن الطريق مازال شاقا وطويلا، ولكنة يحتاج، اول ما يحتاج، الى حسن تفهم الواقع والى إدراك ان محاولات التقدم تحتاج الى الشجاعة والوضوح وتقبل المخاطر في مواجهة قوى الظلام والاظلام التي استفحلت وامتد نفوذها الى ما تحت كل حجر، الى حياة الناس اليومية ومعتقداتهم المباشرة، ولا يقتصر الامر على ذلك بل يمتد الى القوى والاتجاهات المنوط بها محاولة اللحاق بالمستقبل التي أصابها الجمود الفكري والسلفية العقائدية، فانعزلت وتعثرت.

انها دعوة للتمرد ورفض المحاكاة مع الاستفادة من كل الإنجازات البشرية الكبرى على صعيد الأفكار الاجتماعية او العلمية.

هل لدينا يسار ويمين؟!

ما بين اليسار واليمين يا قلبي لا تحزن، فمن هو اليسار وما هو اليمين؟ هل اليسار هو من أصحاب التوجهات الاشتراكية واليمين هو من يؤيد الرأسمالية أم ماذا؟ وهل يمكن تعميم مثل هذه التقسيمات على كل المجتمعات وعبر التاريخ الاجتماعي؟

هل يمكننا استخدام مثل هذه التقسيمات التي بزغت بشكل تاريخي في البلدان الرأسمالية المتقدمة في العصر الرأسمالي الحديث؟ هل يمكننا استخدامها في مجتمعات ما زالت متخلفة استنادا على التوجهات الفكرية والسياسية التي تتبنى ما تم التوصل الية في هذه المجتمعات اثناء الصراع الاجتماعي الضاري الذي كان ومازال سائدا داخلها؟

لابد من تحديد ان تعبير اليسار واليمين هو تعبير مرتبط بالمجتمعات الرأسمالية ، وبرغم أن بدايته كانت أثناء الثورة الفرنسية الكبرى إلا انه ارتبط بشكل كبير مع تشكل الأحزاب الاشتراكية ، بمختلف توجهاتها ، في زمن لاحق ، لكنة لا يختصر الامر كلة ، فلابد من التوقف كثيرا وطويلا امام السلوك السياسي للتيارات السياسية والفكرية في اللحظة التاريخية محل النقاش ، اما استخدام مثل هذا التقسيم بشكل إسقاطي على الماضي البعيد او القريب نسبيا قبل بزوغ الرأسمالية الحديثة فهو تزيد يضفى على مثل هذه التيارات ما ليس فيها ، ألا إذا توسعنا في تسمية اليسار بالتوجهات التي تدفع عن الفقراء واليمين من يدافع عن توجهات أصحاب الثروات ، وهو اختيار ملتبس يفتح عمل الشيطان ، فهل من يدافع عن الفقراء لكنه في نفس الوقت يحاول أن يوقف حركة التاريخ الى الامام ، يعتبر من اليسار ؟ وهل التيارات السياسية الغير يسارية، بالمعنى الأوربي الحديث، التي تتبنى توجهات من اجل الاستقلال الاقتصادي والسياسي في مجتمعات ما زالت تجاهد من اجل الاستقلال الوطني والوصول الى رأسمالية ناضجة هي توجهات يمينية؟

والتاريخ الإنساني مليء بالكثير من الأمثلة التي لا يمكن فهمها الا إذا استبعدنا الاسقاط على الماضي لفهم الحاضر، فهل يصح ان نتحدث عن اليمين واليسار في الثورة الفرنسية الكبرى؟ وهل الصراع السياسي في نهاية عصر الخلفاء الراشدين هو صراع بين اليسار واليمين؟ بالقطع فإن مثل هذا التقسيم الحداثي لا ينطبق على هذه العصور، فلماذا لا نعتمد على التحليل الملموس للواقع التاريخي ولا نستخدم الاسقاط من زمن أخر؟

ويزداد الامر تعقيدا إذا كانت التيارات أو الأحزاب السياسية تنطلق من أفكارا فلسفية وفكرية واحدة، ولكنها تختلف اختلافات سياسية كثيرة، فمن هو اليسار واليمين في الثورة الروسية الكبرى سنة 1917؟ هل هم البلاشفة والمناشفة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، المتوحدين فكريا والمختلفين سياسيا، ام هم المختلفين فكريا وسياسيا مثل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، المنقسم على نفسه، والكاديت (الحزب الليبرالي الروسي)، وهل لفظ اليسار واليمين، في هذه الثورة، هي صفه أبدية مرتبطة بكيان تنظيمي معين بصرف النظر عن تطورات مواقفه السياسية في خضم الصراع الحاد جدا والذي استمر من فبراير الى أكتوبر من نفس العام؟

وفى تاريخنا الحديث في فترة الأربعينيات من القرن الماضي من كان اليسار واليمين؟ هل كان اليسار هو التنظيمات الشيوعية وتيار الديمقراطية الثورية واليمين هو حزب الكتلة والاحرار الدستوريين وبعض التوجهات السياسية داخل قيادة حزب الوفد؟ وهل كان تيار الديمقراطية الثورية أكثر يسارية من التنظيمات الشيوعية رغم انطلاقة من توجهات فكرية مختلفة، كما ذهب البعض؟

مما لا شك فيه اننا لا يمكن الانطلاق الى تسمية تيار معين انطلاقا من تبنية معتقدات فكرية معينة كمعيار وحيد، فالأكثر أهمية هو السلوك السياسي الفعلي في اللحظة التاريخية محل التحليل، فالأمر رهن بالمصالح الاجتماعية التي تعبر عنها بالسلوك السياسي الفعلي في الزمان الملموس، الامر الذي تؤكده الخبرة التاريخية، فمن كان اليسار في زمن الحرب العالمية الأولى وما قبلها قليلا؟ هل كانت الأحزاب الاشتراكية التي صوتت لمصلحة اعتمادات الحرب وتبنت الدفاع عن الوطن أم كانت الأحزاب الاشتراكية، أيضا، التي اعتبرت أن الحرب هي حرب استعمارية لإعادة تقسيم العالم وصوتت في البرلمانات ضد اعتمادات الحرب؟ رغم الانطلاق من معتقدات فكرية واحدة.

لذلك فإن استخدام لفظ يساري ويميني في بلادنا، في زماننا الحالي، هو استخدام يتضمن الكثير من التعمية عن الاختلافات السياسية بين القوى السياسية المختلفة، رغم أن الكثير منها يتبنى توجهات فكرية واحدة، فهل لدينا الان يسار ويمين؟

نعم لدينا تيارات سياسية يسارية ويمينية ولكنها تيارات بلادنا في هذا الزمان وليس زمان اخر ، وليس قياسا على نموذج جاهز يمثل مرجعية للتقييم ، وقد نصل الى نتيجة ان مثل هذه التيارات لا تعبر عن الآمال المعقودة بوجود يسار يمتلك القدرات الفكرية والتحليلية والسلوك السياسي الفعلي ليسار يمثل امتداد وتبنيا للتراث الفكري والسياسي لليسار القومي والعالمي ، ولدينا كذلك تيارات فكرية يمينية ولكنها محدودة التأثير والتنظيم بشكل مستقل عن التنظيمات التي تحظى بدعم ومساندة الدولة التي تمثل

اليمين الحقيقي في بلادنا ، لكنه يميننا في هذا الزمان وليس قياسا على أي يمين أخر في بلدان وزمان مختلفين ، لذلك فإن فهم هذه التيارات السياسية يجب ان يتم بالاستناد على تحليل عميق للحظة الراهنة من تطور بلادنا ، ولا يجب تفسير وجود هذه التيارات بأوضاعها الراهنة بضعف التبلور الطبقي ، فلقد انتصرت الرأسمالية في بلادنا منذ زمن بعيد ، حتى ولو كانت رأسمالية متخلفة ومشوهة وتابعة .

ولعلنا في حاجة الى دراسة أكثر عمقا للتيارات الفكرية والسياسية اليسارية واليمينية في زماننا الراهن تكشف عن طابعها الطبقي وتستكشف افاق تطورها.

التلميذ والاساتذة!

نعم أيها السيدات والسادة فانا تلميذ أتعلم من أساتذتي، لكنى لا أختارهم بناء على الانحياز الفكري المسبق، بل هم من يفرضون أنفسهم، وبالقطع فإن أنتباهى يتركز على من هم مثلى فكريا، ولكنى أتابع، بشغف، غيرهم واتعلم منهم، كما اتابع الصغار والكبار، واتابع دعاة الليبرالية والاصلاحية والاشتراكية ومختلف المذاهب الأدبية والفنية وغيرهم.

لكن ما يلفت نظري بشدة هم أصحاب المنهج، مهما كان توجههم الفكري والاجتماعي، فهؤلاء هم حقا الأساتذة لكنهم، ليس بالضرورة، أساتذتي لكنى اتعلم منهم.

فأنا اتابع واقراء لأساتذتي، ولكن بنظرة نقدية تأخذ في اعتبارها مكان وزمان صدور النص، أي الى الواقع الاجتماعي والفكري لذلك الزمان، لذلك لا ارتاح كلما رأيت كتابة تستشهد بمقولات الاخريين، التي صدرت في واقع مختلف، مهما كان هؤلاء الاخرون، من أساتذتي أم من غيرهم .

لذلك كثيرا ما أصاب بخيبة الامل، عندما أجد كتابا صغار السن ومثقفين ومن أصحاب نفس التوجه الفكري، يملكون القدرات الفكرية اللازمة لإنتاج كتابات منهجية، ولا يفعلون ذلك، أما لميول استعراضية أو لعدم المحاولة الجادة لفهم واقعهم، فرغم أهمية أن يقدموا ويلفتوا النظر الى كتابات وأراء الاخرين، لكن يبقى أن أصل دورهم هو التحليل الملموس للواقع وتقديم رؤية فكرية واجتماعية وثقافية حوله .

فهل نحن حقا قادرون على أن نتابع الأساتذة بمنهج فكرى نقدي ينتج كتابات فكرية واجتماعية مناسبة لعصرنا وزماننا، بديلا عن الدجما والتفكير السلفي والكتيبة البليدة، امل ذلك.

رأسمالية الدولة بين الدولة الوطنية والدولة التابعة

ظاهرة عالمية تنتشر من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ولم تترك مجتمعا الا وكانت ظاهرة وأحيانا قائدة فيه، انها رأسمالية الدولة.

تظهر بشكل أكثر وضوحا في البلدان التي تتطور بشكل سريع، فقيمة اسهم شركات الدولة في البورصة الصينية تبلغ 80% من حجمها وفى روسيا 62% والبرازيل 38%، أما في البلدان الرأسمالية المتقدمة فتتراوح ملكية الدولة من 25 الى 30 % من ملكية الشركات الصناعية.

ظاهرة تستحق التوقف عندها طويلا وكثيرا، ولكن الأكثر أهمية، الان، التوقف حول هذه الظاهرة في البلدان النامية، ومنها بلادنا، لأهميتها البالغة في النمو الاقتصادي والاستقلال الوطني وتحسين توزيع الدخل.

فاذا كانت رأسمالية الدولة قد انتشرت في البلدان النامية في اعقاب الاستقلال وسط ظروف احتدام الصراع العالمي بين المعسكرين ، الامر الذى هيئ مناخا مناسبا لطموح الطبقات الاجتماعية الجديدة التي شكلتها سلطة الدولة الوطنية الجديدة، لكى تكون اكثر طموحا لتحقيق درجة أعلى من الاستقلال الاقتصادي و السياسي عن القوى الاستعمارية القديمة ، هذا النهوض الذى يتطلب زيادة الانفاق على التعليم والصحة والبنية الأساسية والتعديل الجزيء لتوزيع الدخل القومي لتوسيع السوق الداخلي ، وكلها ضرورات اقتصادية واجتماعية بدونها لا يمكن تحقيق الطموحات الاقتصادية لهذه الطبقات ، الامر الذى اسفر عن تدعيم التايد الشعبي لهذه الأنظمة بدرجات متفاوتة ، لكنة في نفس الوقت مكن الطبقات الاجتماعية الجديدة من الانفراد بالسلطة وقمع الحركة السياسية المستقلة للطبقات الشعبية ، بحيث أصبحت هذه البلدان أقل قدرة على الصمود في مواجهة القوى الاستعمارية التي انتقلت اشكال استغلالها من الاحتلال العسكري المباشر الى تمتين الارتباط الاقتصادي والسياسي مع البلدان المتحررة حديثا ، وإن كان الامر قد يستدعى التدخل العسكري المباشر ،عندما تقتضى الضرورة ذلك ، حتى ولو كان ذلك لفترة محدودة المدة.

لقد انهارت هذه المحاولات تحت ضغط القوى الرأسمالية العالمية سواء بالتدخل العسكري المباشر وبالضغوط الاقتصادية أم بالانقلابات العسكرية الداخلية، لكن رأسمالية الدولة لم تنقرض في العديد من البلدان النامية بأشكال مختلفة ولم تعد مرتبطة بالسياسات القديمة بالضرورة، بطموح مختلف عن سياسات محاولات تدعيم الاستقلال ورفض سياسات التحالفات العسكرية والحياد بين المعسكرين ومواجهة النفوذ الاستعماري المباشر ام غير المباشر.

لقد أصبح لدينا بانوراما كاملة من رأسماليات الدولة في البلدان النامية، بعضها تم أدامجها كشريك صغير بالسوق العالمية والبعض الاخر تم اسقاط قياداتها المنتخبة التي كانت أكثر طموحا وتحاول تحقيق درجات اعلى من الاستقلال الاقتصادي والسياسي، الامر الشديد الوضوح في تجارب أمريكا اللاتينية، والبعض الاخر ما زال يحقق إنجازات اقتصادية وسياسية واضحة .

لقد تغيرت الظروف الدولية السياسية والاقتصادية وحتى الظروف الداخلية ولم تصبح رأسمالية الدولة قرينا لحزمة كاملة من السياسات، بل أصبحت قرينة للظروف الخاصة لكل بلد، وأصبح الامر أما الاندماج مع السوق العالمية أو مواجهة اشكال مختلفة من الضغوط، لان وجود ونمو رأسمالية الدولة المستقلة يشكل تناقضا موضوعيا مع مصالح الرأسمالية العالمية.

ولعل من الواجب الإشارة الى أن رأسمالية الدولة لا تعنى بالضرورة وجود الطبقة الاجتماعية الانتقالية التي أطلق عليها الرأسمالية البيروقراطية، فرأسمالية الدولة لا يحدد طبيعتها الاجتماعية شكل الملكية، بل طبيعة النظام السياسي، أي كيف تدار هذه الملكية ولمصلحة من، فرأسمالية الدولة احتياج موضوعي للبلدان المتخلفة في زماننا هذا، لاعتبارات متعددة سياسية واقتصادية ودولية، ومن الممكن أن تديرها سلطة شعبية حقيقة تحضيرا لزمن قادم!

ولعلة من الواجب التوقف قليلا على ما كتبته المجلة الاقتصادية البريطانية الشهيرة، الإيكونيميست سنة 2012، التي تمثل الموقف التقليدي للرأسمالية العالمية من الرأسماليات الناشئة في البلدان النامية:

"بالنسبة للبلدان الناشئة التي ترغب في ترك بصمتها على العالم ، فإن رأسمالية الدولة تتمتع بجاذبية واضحة. إنه يمنحهم النفوذ الذي ستستغرقه شركات القطاع الخاص سنوات لبناءة لكن مخاطرها تفوق مزاياها. من أجل مصلحتهم الخاصة، ولصالح التجارة العالمية، يحتاج ممارسو رأسمالية الدولة إلى البدء في تفكيك ممتلكاتهم الضخمة في الشركات المفضلة وتسليمها إلى المستثمرين من القطاع الخاص، إذا كانت هذه الشركات جيدة كما تفتخر، فهي لم تعد بحاجة إلى عكاز دعم الدولة."

وتبدو مثل هذه الدعوة بريئة تماما وتتبنى منطقا يدعو للرشادة وحسن الإدارة وإن كانت تتحجج بصالح التجارة العالمية، الامر الذي فضح الامر كله، فالقطاع الخاص في هذه البلدان قد تغيير كثيرا عن السابق، ولعل مثال تطور الرأسمالية الخاصة المصرية يقدم لنا مثالا واضحا، فرأسمالية طلعت حرب التي نشأت في مواجهة النفوذ الأجنبي هي ليست بالقطع الرأسمالية المصرية الخاصة الحالية التي اندمجت بعض من فئاتها مع الرأسمالية العالمية وأصبحت جزءا منها.

فدعوة الإيكونيميست لا تعنى الا امرا واحدا، التحق بنا تابعا ومندمجا لأنك الأصغر والاضعف والاقل تطورا ويكفيك ما فعلته!، وهى نفس الدعوات التي تتبناها المؤسسات الاقتصادية الدولية مثل البنك وصندوق النقد الدوليين.

ولعلنا نستطيع أن نلخص الامر بالتساؤل الأساسي

"رأسمالية الدولة الوطنية أم رأسمالية الدولة التابعة"

المعضلة التاريخية

بالقطع هي معضلة تاريخية، معضلة تحقيق النهضة في بلادنا، فلو تأملنا تاريخنا الحديث لو جدنا ارتباطا وثيقا بين محاولات النهضة والتطور الفكري والثقافي، فرفاعة الطهطاوي وتلامذته لم يأتوا من فراغ، بل انبثقوا خلال محاولة النهضة الأولى في عهد محمد على، رغم ما شاب هذه المحاولة من قصور في الرؤيا وفى الموقف الاجتماعي بل وفى الأهداف السياسية العثمانية الطابع ، وتبدو كلمة قصور في الرؤيا كما لو كانت حكما أخلاقيا على تجربة محمد على ، فما يسمى بالقصور في الرؤيا هو في حقيقته انعكاسا للأوضاع الطبقية والاجتماعية السائدة ، برغم التغييرات التي أدخلها محمد على والتي كانت اللبنات الأولى في خلق واقع اجتماعي جديد ، وبهزيمة هذه المحاولة ، بضغوط استعمارية سياسية وعسكرية ، ينفى رفاعه الطهطاوي الى السودان ولا يعود إلا بانتهاء عصر الهزيمة الكاملة والبدء الخجول للتغيير في عهد سعيد .

ولا يمكن اختصار بداية انبعاث الشعر المصري على أيدي محمود سامي البارودي في توفر الطباعة الحديثة التي مكنته من الاطلاع على الشعر العربي القديم، كما لا يمكن الحديث عن بداية الموسيقى المصرية الحديثة على أيدى محمد عثمان على عبقرياتهم الفردية ، رغم إقرارنا بها ، بل هما جزءا من محاولة جديدة للنهضة في عهد إسماعيل ، عهد بداية الوطنية المصرية الحديثة والاشتراك الشعبي المصري المباشر في الدفاع عن الوطن والبحث عن العدل الاجتماعي ، عهد بداية الديمقراطية الثورية المصرية على أيدى عبد الله النديم ، ممثل الشعب في ما سمى " هوجة عرابي" ، الهوجة التي تعبر عن واقع اجتماعي جديد تشكل عبر مرحلتي حكم سعيد وإسماعيل ، وبرغم الهزيمة ولان هذا الواقع الجديد لم يكتمل تطوره ، لذلك نجد اختلاطا في المفاهيم والرؤى السياسية تجد التعبير عنها في توجهات سياسية وثقافية مختلفة ، فمن جمعية الانتقام التي ساهم فيها سعد زغلول سنة 1883 وحبس من اجل ذلك ، الى بدايات تشكل تيار سيأسى جديد بجمع بين تيار الوطنية المصري والتوجهات العثمانية في ما تحول بعد ذلك الى الحزب الوطني الذى يتخلص من أوهامه العثمانية في نهاية عمر مصطفى كامل القصير ثم تولى محمد فريد مهمة القيادة ، وظهور حزب الامة مشكلا التعبير السياسي عن " أصحاب البيوتات "، أي عن مصالح كبار الملاك.

فترة شهدت ترسخ الوطنية المصرية وظهور الأفكار الاجتماعية والثقافية الحديثة، فيظهر قاسم أمين وحافظ وشوقي وعبد الرحمن شكري واحمد لطفي السيد ومحمد عبده، ويتدعم تيار سياسي كانت بداياته الخجولة في " الهوجة العرابية "، تيار الليبرالية المصرية، في نفس الوقت الذي تظهر فيه التوجهات السياسية والاجتماعية الاشتراكية للمرة الأولى.

وبانفجار ثورة 1919 يفتح الباب واسعا امام التعبيرات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي كانت تتشكل في بطون التغيير الاجتماعي البطيء ، فيظهر " الإسلام واصول الحكم " لعلى عبد الرازق و" في الشعر الجاهلي " لطه حسين ، ويتعاظم دور سلامه موسى ، وتترسخ الموسيقى المصرية الحديثة على أيدى سيد درويش ، ويتم وللمرة الأولى تأسيس بنك مصري ، بنك مصر ، على أيدى طلعت حرب الذى

كان يحلم به منذ بدايات القرن العشرون ، وتتشكل أحزابا سياسية جديدة تعبر عن المصالح الاجتماعية والطبقية التي ترسخت ، حزب الوفد وحزب الاحرار الدستوريين ويستمر الحزب الوطني بعد تخلصه من العثمانية ، ويظهر الحزب الاشتراكي الذى تحول الى حزب شيوعي ويتشكل للمرة الأولى اتحاد عام للنقابات العمالية.

وبهزيمة الثورة، هزيمة كانت تعبر عن الواقع الاجتماعي التي كانت تمثله، رغم المشاركة الشعبية الكبيرة، مثلها مثل هزيمة " هوجة عرابي "، يتشكل أول أحزاب التيار السياسي الإسلامي، الاخوان المسلمين ، معبرا عن التوجه الى الخلف ، مثلة مثل الأفكار العثمانية التي انتشرت عقب هزيمة الهوجة العرابية ، كما ليست صدفة تشكل تيار الديمقراطية الثورية الحديثة والمنظمات الشيوعية ونقابات العمال ، وظهور الشعر المصري والفن القصصي والمسرحي والنقد الحديثة ، بظهور توفيق الحكيم ومحمد مندور ونجيب محفوظ وجماعة ابولو والسينما المصرية في ثلاثينيات و اربعينات القرن الماضي.

ولو تتبعنا التطور الاجتماعي بعد ذلك سنجد هذا الترابط الواضح بين المصالح الطبقية وبين تعبيراتها السياسية مع تطور الأفكار الاجتماعية والثقافية والفنية الى زماننا الحالي، فليس صدفة ان تتلقى بعض التوجهات الفنية المعاصرة التأييد والتدعيم من فئات اجتماعية كانت تؤسس استديو مصر وتقوم الان بتدعيم حمو بيكا وامثاله.

قرنان من الزمان مرا وما زال الحلم يختمر وما زلنا نحاول، والمؤسف ان كثيرا ما تكون المحاولة الجديدة من مستوى أكثر انخفاضا واشد صعوبة لتراكم نتائج واقع اشد تخلفا على صعيد الأفكار والقيم الاجتماعية، أنظر حولك وبين أصدقائك لتكتشف الحقيقة المفجعة، لتكتشف كذلك ان تمرد جيلنا كان يفتقد لبعض من الحكمة والروية، والكارثة الحقيقية أن هذا التمرد الذي كان إيجابيا في الكثير من جوانبه، خصوصا في اقترابه من حقيقة فهم جدل التغيير، أي في منهجه، قد تأكل هو أيضا فغاب المنهج ولم يبق الا الصياح الغير منتج، والمهمة الثقيلة الان هي بالضبط انبعاث هذا المنهج من جديد بتطبيقه مهما افتقدت النتائج من دقة ، فالمنهج كفيل بتصحيح النتائج واختبارها ، فلا أحد يأتيه وحى من السماء.

فهل تدركون أيها الجدود المسؤولية الجسيمة التي تطوق أعناقكم؟ ليس فقط على صعيد تطور الثقافة، بل على صعيد مواجهة المعضلة التاريخية الكبيرة التي تؤثر على كافة جوانب حياتنا بما فيها الثقافة ومستقبلها، أنها معضلة النهضة منذ المحاولات الأولى منذ قرنين من الزمان والتي بقي منها جهود جدودنا وأباؤنا، وهل يدرك الشباب المهمة الثقيلة التي تنتظرهم، فقليل من التواضع وكثيرا من الجدية لعلنا نترك شيئا للقادم من بعدنا.

هل يعود محمد مندور من جبل الاولمب؟

جواد الشعر!

"إن موسيقى الشعر ليست هدهدة للقارئ فحسب، بل هي أحيانا كثيرة أداة للتعبير عما يعجز اللفظ أحيانا عن استخراجه من باطن النفس كما أن النغم الموسيقي قد يصبح تعبيرا في ذاته." - محمد مندور

بديعة هي الاساطير اليونانية، فالإلهة يسكنون في جبل الاولمب ولكن يسكنه أيضا البعض من البشر من أصحاب الإنجازات الكبرى، ويمكن للبشر الاستعانة بهم في صراعاتهم، لكن هذه العودة للبشر ترتبط بالاحتياج والاستدعاء، فهل حقا وفعلا نحتاج الى استدعاء سكان الاولمب؟

هل نحتاج الى عودة محمد عثمان وسيد درويش ومحمود سامي البارودي وشوقي وحافظ وسلامة موسى وطه حسين واحمد أمين ومحمد مندور والفريد فرج ونعمان عاشور، هل نحتاج الى عودة عبد الله النديم ومحمد عبيد وعبد المجيد مرسى وعبد الحكم الجراحي وعبد العاطي وحسن طوبار ومصطفى البشتيلى ، والعشرات غيرهم ، بالقطع نحتاج وبشدة ، فالأمر يتجاوز كثيرا حب الابن لأبيه فالأمر جد خطير ، فالوطن يتقدم وينهزم ويتكرر الامر كما لوكان عود على بدء ، فالمهام نفسها تتكرر والصراع الفكري والاجتماعي بل والسياسي مازال يدور حول نفس الأهداف ، فلماذا لا نستدعى مدفعيتنا الثقيلة من جبل الاولمب ؟ وبرغم أدراكي أن الكثير من سكان الأولمب لم يغيبوا عن السفح إلا أن استدعاءهم ليس كاملا، استدعاء يراعى متطلبات العصر واساليبه وزمانه، استدعاء يتجاوز السلفية الفكرية وينظر الى المستقبل مستندا الى أفضل خبرات الماضي وانجازاته، لقد فعلت ذلك وسأفعله الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا، وستكتمل عودة محمد مندور ممتطيا جواد النقد والادب وجواد الروح الوطنية للديمقراطية الثورية.

حول الشعر الحديث...

من كتاب " قضايا جديدة في ادبنا المعاصر"

قرر المجلس الأعلى الفنون والآداب إهداء ميداليات ذهبية وفضية لخير الأدباء والفنانين الذين ساهموا في تعبئة الروح المعنوية لمقاومة العدوان الغاشم على بورسعيد، وخصص بعض هذه الميداليات للشعراء وأحال الأمر على لجنة الشعر التي يرأسها الأستاذ عباس محمود العقاد لفحص القصائد التي قيلت واختيار خيرها لمنح أصحابها الميداليات المقررة.

واجتمعت اللجنة وقدم سكرتيرها الشاعر محمد فوزي العنتيل ما تجمع لديه من تلك القصائد فرأى طائفة كبيرة منها لم تكتب باعتبار البيت وحدة للقصيدة فثارت ثائرته وقال أن هذا ليس شعرا ولا يمكن أن يعتبر شعر من أوله إلى آخره، واقترح بناء على ذلك أن تحال كل هذه القصائد جملة وتفصيلا إلى لجنة النثر التي حارت في أمرها عندما علمت بهذا النبأ، لأنها قد ترى أن ما أحيل إليها ليس نثرا بل شعراء وعندئذ لا معدي لها عن أحد أمرين فأما أن تعطي نفسها اختصاص لجنة الشعر وتختار من بين ما أحيل إليها من شعر أحسنه وتقرر منحه الجوائز، وأما أن تعود بدورها فتحيل إلى لجنة الشعر من جديد ما أحالته

هذه اللجنة إليها، وفي هذا ما فيه من ضياع الوقت والتأخر في إجابة المجلس الأعلى إلى ما طلبه من سرعة تعيين القصائد التي تستحق الجوائز.

ولقد دهشت من هذا القرار الذي أرى فيه نكتة الموسم، ولا أدري كيف وافق أعضاء لجنة الشعر رئيسهم على هذا الرأي، ولا كيف سكت عليه سكرتير اللجنة الأستاذ العنتيل، الذي يعتبر شعره من هذا النوع الجديد الذي أصر الأستاذ العقاد وجارته اللجنة في اعتباره نثرا غير داخل في اختصاصها.

ولما كان قد سبق لي أن قدمت إلى القراء ديوان الأستاذ العنتيل سكرتير اللجنة باعتباره شعرا وهو ديوان "عبير الأرض" فقد رأيت أن أعود إلى تحقيق الأمر لعلي كنت واهما. وتناولت الديوان وفتحته كيفما اتفق وقرأت فقرة من قصيدة "عبير الأرض" "ص16" وهي:

فهذه الأرض.. أرضي، بأفقها المترامي

حقولها.. من أديمي

وفأسها.. من عظامي

ونيلها حين يجري، أشواقه من غمامي

فكل قطرة نور.. وشحتها بابتسامي

ورحت أنظر في هذه الأسطر التي لم تطبع على النحو التقليدي باعتبار البيت وحدة القصيدة، وكل بيت من مصراعين. وفي القصيدة قافية موحدة لا تبين هلا تزال هذه الأسطر شعرا بالرغم من طريقة التقطيع التي كتبت بها أم لا. وسرعان ما تبينت أن هذه القصيدة موزونة وزنا موسيقيا كاملا، وأنها من بحر عربي عريق هو البحر المجتث:

مستفعلن فاعلاتن -----------------مستفعلن فاعلاتن

ومن السهل بعد ذلك أن يتبين القارئ أن الأسطر السابقة تكون أربعة أبيات من بحر المجتث وأن الأسطر الأول والرابع والخامس يكون كل منها بيتا، بينما السطران الثالث والرابع كل منهما شطرة من بيت وأن الأبيات الأربعة متحدة في القافية والروي.

وهكذا يتضح أنني لم أكن واهما، ولا كان العنتيل واهما عندما قدمنا ديوان "عبير الأرض" - الذي اقتبست منه الأسطر السابقة - إلى الجمهور على أنه شعر.

وإنني وإن كنت لم أطلع على ما أحالته لجنة الشعر برياسة الأستاذ العقاد إلى لجنة النثر من قصائد أو ما يسميه الشبان قصائد ويشوقني أن أطلع عليها، إلا أنني مع ذلك قد علمت من شاعر موظف بالمجلس اطلع على هذه القصائد أنها قد أحيلت كلها على لجنة النثر لا لشيء إلا لأنها من الشعر الذي نسميه الآن جديدا، وهو شعر لا يسلم له الأستاذ العقاد بحقه في أن يعد شعرا، وأن اللجنة لم تكلف نفسها عناء النظر فيه وتبين ما إذا كانت فيه الموسيقى التي بدونها لا يجوز أن يسمى شعرا، ويحق أن يحال إلى لجنة

النثر، وأنا بعد لا أنكر أن بعض ما يكتبه الشبان في هذه الأيام بطريقة التقطيع الجديدة قد يكون مهشم الموسيقى أو فاقدها إطلاقا، وقد يكون غثا لا قيمة له كشعر أو نثر، كما لا أنكر أن بعض الغرور والاستهتار والتساهل في قداسة الفن وعسره ربما يكون قد تطرق إلى نفوس بعض الشبان الذين يجب أن يردوا إلى رشدهم وأن يحملوا على ضرورة احترام محراب الفن المقدس وعدم التهجم عليه، ولكنني مع ذلك لا أستطيع إلا أن أضحك من ذلك الرأي الذي يزعم أن جميع شعر شبابنا الجدد حتى الجادين والموهوبين منهم لا يعتبر شعرا بل يجب أن يحال كله إلى لجنة النثر، وأرى في هذا أنه حقا نكتة الموسم.

جماعة أبوللو وشعر الوجدان

كان الشعر العربي القديم في الجاهلية والعصر الأموي يستمد مادته من الحياة مباشرة ولذلك نعتقد أنه خير ما خلف العرب من شعر، ولكن التقليد لم يلبث أن طغى على الشعر في العصر العباسي وأصبح الشعراء لا يستقون مادتهم من الحياة كما كان يفعل القدماء، بل يستقونها من ذاكرتهم ومحفوظاتهم حتى تحجرت فنون الشعر ومعانيه، وأصبح لكل فن شعري معانيه التقليدية المتحجرة، وسجلت كتب الأدب تلك المعاني فنراها تذكر أن المدح يكون بكذا وكذا مثل الشجاعة والكرم وشرف النسب والغزل يكون بكذا وكذا مثل ضمور الخصر وعبالة الساقين وثقل الأرداف وما إليها، والشعراء إنما يتفاوتون في المهارة في التعبير عن كل من هذه المعاني ، فهذا الشاعر يبز الآخرين في التعبير عن الكرم لأنه قال إن الممدوح يتهلل عند لقاء السائل وكأنه سينال منه شيئا مع أنه سيعطيه، أو لأنه وصل من الكرم إلى الجود بالنفس إذا ضن البخيل بها. وأمثال ذلك كثير حتى رأينا أكبر ناقد عند العرب وهو الآمدي يكتب كتابا في الموازنة بين الطائيين أي بين البحتري وأبي تمام ويقيم هذه الموازنة على أساس المفاضلة بين تعبير الشاعرين عن المعاني الخاصة بكل فن من فنون الشعر كبكاء الديار والنسب والوصف والمدح وما إليها.

تلك كانت الحالة الغالبة على الشعر العربي منذ العصر العباسي، فنحن قلما نستطع أن نستخلص من شعر شاعر شخصيته ووجدانه الخاص، وذلك لأنهم يتناولون في شعرهم المعاني التقليدية التي وصفها النقاد القدماء أنفسهم بأنها كانت كالأعراض الملقاة في الطرقات، وأنها لا تتميز عند شاعر عن آخر إلا بالثوب الذي يسبغه عليها، فلا علاقة بين الشعر وقائله ولا أصداء لحياته في شعره، وكل ذلك باستثناء نفر قليل من أولئك الشعراء شذوا عما كان يسمى عمود الشعر وطغت شخصياتهم حتى برزت من خلال شعرهم، وهؤلاء هم الذين لفتوا بنوع خاص أنظار الجيل السابق من نقادنا المثقفين ثقافة غربية فرأيناهم يؤثرونهم بالدراسة والنقد ، ومن هؤلاء الشعراء ابن الرومي الذي تناوله الأستاذان العقاد والمازني بدراسات مفصلة على ضوء النقد الحديث ثم أبو العلاء المعري والمتنبي اللذين درسهما وكتب عنهما الكتب الدكتور طه حسين فضلا عن مقالات زملائه عنهما.

والواقع أن ابن الرومي والمتنبي وأبا العلاء من أبرز الشعراء القدماء الذين تظهر شخصياتهم في شعرهم ويبرز وجدانهم الخاص ولكل منهم فلسفة واضحة في الحياة أو على الأقل وجهة نظر متميزة إلى الحياة والأحياء، بل أننا لنلاحظ ما لاحظه بعض القدماء مثل الثعالبي في "يتيمة الدهر" من أن شخصية المتنبي العاتية وكبرياءه المترفع وتساميه بقدره قد طغى على فن شعري تقليدي كفن المدح فوجهه وجهة جديدة، فالمدح عند المتنبي لا يجري على وصف مناقب الممدوح، بل يستحيل إلى غزل أو ما يشبه

الغزل بالممدوح. ولعلنا نلاحظ هذه الظاهرة أوضح ما تكون في سيفياته بنوع خاص أي في القصائد التي قالها في سيف الدولة الأمير العربي الشهم الذي كان يحمي ثغور العرب من غارات الروم، بل ويحتفظ المتنبي بلغة الغزل حتى عندما يعاتب سيف الدولة على أثر الجفوة التي اضطرت المتنبي إلى أن يغادر حلب "موجع القلب باكيا" فيقول:

ما لي أكتم حبا قد برى جسدي -----وتدعي حب سيف الدولة الأمم

إن كان يجمعنا حب لغرته-------------فليت أنا بقدر الحب نقتسم

يا أعدل الناس إلا في معاملتي-------- فيك الخصام وفيك الخصم والحكم

يا من يعز علينا أن نفارقهم---------- وجداننا كل شيء بعدكم عدم

وعندما ظهرت الطباعة الحديثة ودخلت مصر والبلاد العربية في أعقاب الحملة الفرنسية وأخذنا نطبع كتب الأدب القديمة ودواوين الشعراء القدماء في مطبعة بولاق في القرن الماضي، استطاعت تلك الكتب والدواوين أن تغذي موهبة شعرية فذة كموهبة محمود سامي البارودي الذي ترك لنا مختارات من الشعر العربي القديم تدل على سعة اطلاعه وصدق شاعريته. وبفضل حركة النشر هذه استطاع محمود سامي البارودي أن يخلص الشعر العربي من التفاهة والزخارف اللفظية التي كان قد انحدر إليها وأن يرد إلى الشعر ديباجته القويمة القديمة، بل وكانت شخصية البارودي من القوة بحيث نضجت في شعره ونستطيع أن نلمح وجدانه الخاص من خلال هذا الشعر. ولكن شعراء البعث الذين تلوه وبخاصة كبيرهم أحمد شوقي لا نكاد نلمح حياته ووجدانه الخاص من خلال شعره رغم ما في هذا الشعر من طاقة خارقة وموسيقى مثلمة وجودة متينة في التعبير وبراعة في التصوير البياني. وربما كان هذا من بين الأسباب التي دعت أنصار التجديد في الشعر وخاصة الأستاذين العقاد والمازني أن يتخذوا من أحمد شوقي هدفا أساسيا في الحملة التي شناها في كتاب "الديوان" على الشعر التقليدي وأصحابه، ومناداتهما بالتجديد الذي لخص الشاعر الكبير عبد الرحمن شكري اتجاهه في بيت شعر سجله على غلاف أول ديوان أصدره من الشعر الجديد في سنة 1909 وهو قوله:

يا شاعر الفردوس---------------إن الشعر وجدان

وجاء شعراء المهجر فعززوا نفس الدعوة إلى شعر الوجدان وأيدها ميخائيل نعيمة تأييدا نظريا فلسفيا قويا في كتابه "الغربال" الذي حمل فيه حملة قوية على الشعر التقليدي ودعا الشعراء إلى أن يصدروا عن ذواتهم وأن يصور كل منهم ما في وجدانه الخاص من آمال وآلام وأشواق روح.

هكذا ظهرت عندنا الدعوة إلى شعر الوجدان، وأنه وإن يكن الدعاة لهذه الدعوة قد قالوا أنفسهم قصائد وجدانية جميلة، إلا أنه من المؤكد أن هذه الدعوة لم تتحقق على نطاق واسع إلا بفضل الجماعة التي تعرف في تاريخ أدبنا الحديث بجماعة أبوللو وهي الجماعة التي عمل على تأسيسها في سنة 1932. وأبوللو كما هو معروف اسم لإله الشعر والموسيقى في أساطير اليونان القدماء.

وبالرغم من أن رائد هذه الجماعة أحمد زكي أبو شادي قد نظم أوبرات أي مسرحيات غنائية كما نظم قصصا شعرية، بالرغم من أنه قد أفسح صدره وصدر مجلته لكافة أنواع الشعر والشعراء من تقليديين ومجددين ووسط بين الطرفين ، إلا أن الطابع الذي غلب على هذه الجماعة وبخاصة على روافدها من الشبان قد كان طابع الشعر الوجداني.

وإذا كنت قد قررت في كتابي الأخير عن جماعة أبوللو أن هذه الجماعة لم تتقيد بمذهب شعري معين، بل ولم ينقلب اتجاهها الوجداني الغالب إلى مدرسة شعرية، فإنما يرجع ذلك إلى حقيقة مسلم بها هي أن كل مذهب أدبي أو مدرسة فنية لا بد أن تقوم على أسس فكرية نظرية هي التي تعطي أي اتجاه صفة المذهب، فالرومانسية مثلا وإن تكن وجدانية الاتجاه ، إلا أنها أصبحت مذهبا عندما وضعت لها أسس فكرية محددة، وإذا كان الرومانسيون قد غلب عليهم الأنين والشكوى من الحياة والتبرم والهروب منها إلى رحاب الطبيعة وصدرها الرفيق بالشعراء ، فإن هذا الاتجاه قد أصبح مذهبا عندما اخذ أصحاب هذا المذهب يفلسفون الألم فيقول أحدهم مثلا :"إن المرء طفل يهذبه الألم" ويقول آخر :"لا شيء يسمو كما يسمو الألم" ويقول ثالث: "إن أروع الشعر ما كان أنات خالصة". ولسوء الحظ عندما يصبح مثل هذا الاتجاه مذهبا نظريا يأخذ التقليد والتصنيع في التسلل إليه حتى لنرى صغار الرومانسيين يتصنعون الألم ويدعونه في "طرطشة" عاطفية سخيفة أفسدت شعرهم، بل ونكبت الرومانسية كلها حتى اضمحلت وذهبت ريحها.

وأما جماعة أبوللو فإنها وإن يكن الاتجاه الوجداني قد غلب على خير شعرائها، إلا أنها لم تحاول يوما من الأيام أن تجعل من هذا الاتجاه مذهبا يقوم على أسس نظرية. بل أن فكرة التمذهب والخضوع لنظرية شعرية أو فكرة بذاتها قد كانت شبه مستحيلة في الفترة القاسية التي ظهرت فيها جماعة أبوللو فترة ما بين 1932 - 1935 حيث كان الاستعمار قد تآمر مع ملك طاغية هو أحمد فؤاد ليكبت حريات المواطنين ويسومهم الخسف وسوء العذاب حتى أصبحت الحرية هي أعز شيء لدى الناس وأصبحت فكرة التقيد حتى بمذهب أو نظرية فكرة نابية لا تخطر لأحد ببال، ولذلك نرى جميع أعضاء أبوللو يرددون أن الشاعر يجب أن يكون حرا طليقا كالعصفور لا يخضع لقيد حتى ولو كان القيد مذهبا أو نظرية، وكل ما طالبوا به هو أن يصدر كل شاعر عن وجدانه الخاص في حرية وإخلاص. ولما كانت وجدانات الناس تتفاوت بتفاوت طبائعهم وبيئاتهم ودرجات ثقافتهم وأنواعها فقد كان من الطبيعي أن تتفاوت نغمات هؤلاء الشعراء بتفاوت وجداناتهم. وهذا هو ما حدث حيث نجد من بين كبار هذه الجماعة الوجدان الحار المتفجر الأبدي الظمأ إلى الحب عند الدكتور إبراهيم ناجي في "وراء الغمام" و"ليالي القاهرة" والوجدان الثائر العنيف الذي يغالب الحياة، بل ويغالب الموت والداء العضال في "أغاني الحياة" لأبي القاسم الشابي. والوجدان الانبساطي الأبيقوري المتفتح لمنع الحياة والملذات الحسية عند الشاعر الطروب علي محمود طه صاحب "الملاح التائه" و"ليالي الملاح التائه" و"زهر وخمر" كما نجد المزاج الانطوائي المستغرق في الشجن والتأمل عند حسن كامل الصيرفي صاحب "الألحان الضائعة."

علي محمود طه والتحليق الشعري

اضطرتني ضرورة المهنة - مهنة التدريس - إلى أن أعود إلى دواوين الشاعر الكبير علي محمود طه، وهي "الملاح التائه" و"ليالي الملاح التائه" و"أرواح وأشباح" و"زهر وخمر" و"الرياح الأربع" و"الشوق العائد" و"شرق وغرب" ثم كتابه "أرواح شاردة" الذي يجمع بين النثر والشعر المترجم عن بعض شعراء الغرب.

كما عدت إلى بعض ما كتب حوله، فلاحظت أن أحد زملائنا الجامعيين، وهو الدكتور شوقي ضيف، قد ظلم هذا الشاعر عندما كتب عنه فصلا في كتاب "دراسات في الشعر العربي المعاصر" تحت عنوان "ضجيج الألفاظ الخلابة عند علي محمود طه"، وقد اتهمه في هذا الفصل بأن شعره لا يقوم إلا على ألفاظ نظمها الشاعر في نسق موسيقي دون أن تحمل تلك الألفاظ أي مضمون فكري أو عاطفي محدد.

وذكرني حكم الدكتور شوقي الظالم بمقال ترجمته مجلة "المجلة" في عددها الأول عن "ملحق التايميز الأدبي" تحت عنوان "الشعر والحقيقة" وفي هذا المقال يناقش الكاتب رأيا للشاعر الإنجليزي المعاصر السير جورج هاملتون، ويعارضه برأي أو نظرية أخرى عن الشعر. وعدت إلى هذا المقال فوجدت أن رأي هاملتون ينطبق انطباقا تاما أو شبه تام على شعر علي محمود طه، وهو رأي كفيل بأن ينصفه وأن يرتفع به عن المستوى الظالم الذي أراد زميلنا الدكتور شوقي أن ينزل إليه.

فهاملتون يقول: "إن الشعر قد لا ينقل إليك تجارب الشاعر الأصيلة، بل تجاربه على قدر ما يستطيع إبرازها مكتملة.. في إطار شعري، ولا يمكن التسوية بين ما هو شعر وما هو غير شعر. وليس من شأن الشاعر أن يلتمس تعبيرا متواضعا عليه لمشاعر الحياة اليومية، وإنما شأنه أن يسمو بهذه المشاعر ويغذيها ويبرزها في نسق عماده الخيال."

وقد أورد هاملتون كمثل لهذا الشعر المحلق على أجنحة الخيال فوق واقع الحياة المحددة القسمات، قول الشاعر الإنجليزي الكبير شيللي، فيوصف مغنية جميلة وانفعاله لغنائها وجمالها:

إن روحي زورق مسحور

يسبح كالبجعة الوسنى

على الأمواج الفضية لغنائك العذب

أما روحك فتتربع كالملك

بجوار الدفة تقود السفينة

على حين تتجاوب الرياح باللحن الشجي

ويرى هاملتون في هذه المقطوعة القصيرة تجربة فذة، وهو لا يعدها كشفا جديدا، كما أنها لا تصدق على شيء خارج ذاتها. وذلك لأنه لم يكن لمثل هذا النموذج وجود من قبل، وغاية ما نستطيع أن نقوله فيها هي أنها تبرز نموذجا في مقدور العقل والخيال البشري أن يأتي بمثله.

ولكن كاتب المقال يأخذ على هذا الرأي أنه يعارض أصلا عريقا أصله ماتيو أرنولد عند الإنجليز، وهو ذلك الأصل الذي يقول أن الشعر في جوهره نقد للحياة. والغربيون لا يعنون النقد الحياة لمجرد الحكم عليها أو لها، بل يقصدون تفسيرها وإيضاح خفاياها والغوص في أعماقها والتمييز بين عناصرها المختلفة التي تكون نسيجها العام، وهم على هذا الأساس يطالبون بتجارب محددة المعالم واضحة القسمات، وثيقة الصلة بواقع الحياة، ويرون التحليق الشعري وسط ضباب الخيال الذي قد يعمى الرؤية الشعرية ضربا من الإنشاء اللفظي الذي فات عصره.

وعلى هذا الأساس أخذ كاتب المقال يناقش مقطوعة شيللي مناقشة منطقية سخيفة، فيتساءل مثلا: ترى هل تسبح البجعة الوسنى؟ وهل فكرتنا عن الطريقة التي قد تسبح بها البجعة الوسنى تضيف حقا إلى أفكارنا عن الطريقة التي قد يسير بها الزورق المسحور؟ وهل يحتاج الزورق المسحور الذي نفترض أن السحر يسيره ويقوده إلى ملك يجلس إلى دفته؟ وهل يرتاح الملك الملك لذلك؟ ثم ترى كيف يكون الملك؟ أو له جسم وحيز؟ وكيف يكون الزورق، هل هو زورق أثيري؟ وإلى أي حد تتمشى فكرة المسيحية عن عالم ما وراء الطبيعة الذي ينتمي إليه الملائكة وعالم الخوارق الخرافية الذي ينتمي إليه الزورق المسحور؟

والمنطق الذي استخدمه كاتب المقال في وضع هذه الأسئلة لتسفيه مقطوعة شيللي تذكرني في قوة بمن يتناول سكين البصل لكي يشرح بها فراشة، لأن هذا الشعر لم يأخذه قائله من واقع الحياة اليومية. كما أنه لا يقدم إلينا فيه تجربة واقعية محددة، بقدر ما يخلق جوا أو على الأصح يحلق في الجو، ينقل إليه الحياة فينتشر على واقعها ضباب شعري يشجينا، وقد ينسينا الكثير من مشقات حياتنا على نحو ما أحسسته عندما عدت إلى شعر علي محمود طه فوجدت روحا وريحانا.

وشعر شيللي كشعر محمود طه يحلق بفضل عدة وسائل فنية أصيلة، منها اللغة الشعرية التي تتميز عن لغة النثر وتكون معجما خاصا، وإن كان الأمر يحتاج إلى مهارة ورهافة في الحس حتى لا تخرج تلك اللغة إلى الكذب والافتعال ووصف الألفاظ على نحو ما ظن زميلنا الدكتور شوقي، عندما أخذ يعدد ألفاظا ومصطلحات كثيرة الورود في شعر علي محمود طه، مثل "المجالي، وعروس البحر، وحلم الخيال، والعشاق، وسمار الليالي، ومهد الجمال، وموكب الغيد، وعيد الكرنفال، والجندول في عرض القنال، وكأس وكرم وخمر، والحبيب وثغره، والساقي والراح والأقداح، وزهر وشعر وعطر، وأحلام البحيرة وشطآنها، وشراع وموج. الخ .. والعنصر الثاني لخلق الجو أو التحليق الشعري عند علي محمود كه وإضرابه هو تلك الموسيقى الجميلة المثملة التي نبغ فيها علي محمود طه نبوغا فذا سحرنا به وشغلنا عن أنفسنا، وحلق بنا فوق واقع الحياة دون أن يغيب هذا الواقع عن أبصارنا.

وها هو مطلع "أغنية الجندول" الشهيرة، لا نمل سماعه والاسترواح له دون أن نجسر على تحقيق ما فيه من فكرة أو إحساس أو صورة، حتى لا يتبدد جوها ويضيع ما فيها من سحر، وإلا كنا كذلك الكاتب الإنجليزي السابق الذي أخذ يتساءل عن البجعة الوسنى وهل تسبح وهي وسنى أم لا:

أين من عيني هاتلك المجالي---------------يا عروس البحر يا حلم الخيال

أين عشاقك سمار الليالي-----------------أين من واديك يا مهد الجمال

موكب الغيد وعيد الكرنفال --------------- وسرى الجندول في عرض القنال

وعلي محمود فوق كل ذلك شاعر المرح وبهجة الروح، وهو بذلك يعتبر ظاهرة فريدة بين جماعة "أبوللو" التي غلب عليها الحزن، ونضج هذا الحزن في معظم دواوينها. وما نظن أحدا منهم قد اختار لديوان من دواوينه عنوانا مثل "زهر وخمر" كما فعل علي محمود طه.

وإذا كان علي محمود طه قد التمس لذات الحياة ومتعها، فإنه لم يتحدث في شعره إلا عن العزيز منها غير المبتذل، لأن حاسته بالجمال كانت تقية مثل هذا الابتذال. وإذا صح أن نسميه شاعرا إبيقوريا فإن من الواجب أن تفسر هذه النزعة عنده بالمعنى الفلسفي الأصيل الذي قصده الفيلسوف اليوناني القديم صاحب هذا المذهب، فاللذات التي يتغنى بها شاعرنا هي اللذات الجمالية الرفيعة السابحة في جو روحي متسام.

والواقع أن شعر علي محمود طه لا يدرك سر جماله بالتحليل المنطقي، وإنما يحس إذا استطعنا أن نسمو إلى الجو الذي يخلقه ويحلق فيه، وبفضل موسيقاه المرهفة يزيد تلك الألفاظ قوة إيحاء وتحليق. ولا نظن أنه قد انزلق إلى بعض ما انزلق إليه نفر من الرومانسيين الغربيين الذين انتهى بهم الأمر أحيانا إلى افتعال بعض الأحاسيس والتجارب ومحاولة تغطية هذا الافتعال بما سماه زميلنا الدكتور شوقي "ضجيج الألفاظ."

وعلي محمود طه ربما كان أقرب شعرائنا المعاصرين روحا من الشعر الغربي، وبخاصة في دواوينه التي نشرها بعد سنة 1938، وهي السنة التي ابتدأ بعدها في الإكثار من رحلاته في أوروبا واستفادته فائدة كبيرة من تلك الرحلات، وذلك بينما نلاحظ ديوانه الأول، وهو "الملاح التائه" الذي صدر في سنة 1934 والذي نظم معظم قصائده وهو لا يزال موظفا بهندسة مباني المنصورة، قد كان بروحه موضوعاته أقرب إلى الشعر العربي، بل أقرب إلى روح بيئته المنصورية المحدودة. وبالرغم من أن علي محمود طه قد وقف تعليمه النظامي عند دبلوم مدرسة الفنون التطبيقية التي تخرج منها سنة 1924 وكان قد دخلها على أثر تعثره في مرحلة دراسته الثانوية - نقول إنه بالرغم من كل ذلك قد كان أكثر شعرائنا المحدثين تأثرا بروح الشعر الغربي الذي ترجم لإعلامه بعض قصائده الشهيرة، كما كتب عن بعضهم عدة خواطر ومقالات جمعها في كتاب "أرواح شاردة". وهذه ظاهرة لم نلمحها عند غيره من شعرائنا الكبار الذين أتيحت لهم فرصة الدراسة في بعض بلاد أوروبا وتعلم لغاتها مثل أحمد شوقي الذي تعلم وأقام في فرنسا، أو علي الجارم الذي تعلم وأقام في إنجلترا. وربما كان ذلك لمرونة في طبع علي محمود طه، مكنته من أن

يتمثل روح الشعر الغربي، وأن يستجيب لها حتى ولو صح ما قيل من أنه كان يستعين على فهم اللغات الأوروبية بنفر من أصدقائه مثل الأستاذ أحمد الصاوي محمد وغيره ممن يجيدون تلك اللغات. ومن الواضح في شعر علي محمود طه أن تأثره الأكبر قد كان بالرومانسيين والرمزيين وشعراء "الفن للفن" في فرنسا وإنجلترا، بل وألمانيا أيضا، وبخاصة الشاعر الشاب هنريك هايني الذي ترجم له شعرا قصيدة "أغنية الحرب" في ديوان "زهر وخمر" التي مطلعها:

يا رفاقي هذه الساعة من حلم الزمان

إن هذا زمن الحب فضجوا بالأغاني

ارفعوا الأقداح ملآى واشربوا نخب الحسان

فالربيع السمح يدعوكم إلى أقرب حان

هذا ولربما يصح على شعر علي محمود طه ما يصح على شعر شاعر كبير كشيللي الإنجليزي الذي يرى بعض مواطنيه أن الزمن قد تخطاهم، وأن الاتجاه الإنساني الغالب في الشعر المعاصر يتجه نحو الحياة القريبة المنال، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نتنكر لأمجادنا.

الشعر الصافي

يثور اليوم جدل شديد حول الشعر الجديد: ومحور هذا الجدل هو بنوع خاص موسيقي هذا الشعر، وهل هذه الموسيقى متوفرة إلى الحد الذي يستحق معه هذا الشعر أن يحمل هذا الاسم أم هي منعدمة إلى الحد الذي يحق معه أن نرفض اعتباره شعرا ونضيفه إلى النثر؟

ولقد كنت أظن أن هذه المناقشة جديدة أو شبه جديدة على شعرنا العربي الحديث، ولكنني عثرت أثناء إعدادي لبعض المحاضرات التي ألقيها في الأدب المعاصر على آراء طريفة فيما يختص بالشعر والموسيقى لعدد من كبار شعرائنا المعاصرين وبخاصة الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي اتهم هو الآخر بضعف موسيقاه.

ففي مقدمة ديوانه "فوق العباب"، نراه يدافع في حرارة عما يسميه "الشعر الصافي" وهو عنده الشعر المكتفي بعناصر جماله الذاتية، ومن ثم فهو لا يحفل كثيرا بالموسيقى، لأن الموسيقى غير الشعر، والشعر الذي يعتمد عليها يفقد صفاءه واكتفاءه الذاتي، فيقول:

"ينادي المنادون من أصدقائنا المحافظين وأنصاف المجددين بأن الشعر "موسيقى" قبل كل اعتبار آخر، ونحن لا نفهم من "الشعر" إلا أنه "شعر" قبل كل اعتبار آخر، وليس معنى هذا أننا نكره اقتران الشعر كفن بفنون أخرى وفي مقدمتها الموسيقى، ولكننا نأبى تبيعة الشعر لأي فن سواء وإن رحبنا بمزاملته غيره من الفنون الملائمة له". ثم يضيف قوله: لنأخذ مثلا قول ابن الرومي وصفا لهاجرة في الصحراء:

وهاجرة بيضاء يعدي بياضها ------------ سوادا كأن الوجه منه محمم

أظل إذا كافحتها وكأنني---------------- بوهاجها دون اللثام ملثم

بديمومة لا ظل في صحصحاتها----------ولا ماء، لكن قورها الدهر عوم

فليس لهذه الأبيات في نظر أنصار التميع والرخاوة اي جمال موسيقي، وألفاظها ذات قسوة وجفوة في اعتبارهم، ولكننا نعدها جد ملائمة لموضوعها، ونحفل بقوتها ونعتبر موسيقاها طبيعية منسجمة وموضوعها ومستمدة من صميم معانيه. ويقول المتفلسفون منهم أن الموسيقى الساحرة ضرورية للشعر لأنها تخدر أعصاب القارئ أو المستمع أو عقلهما الباطن إلى درجة تجعل معانيه تتسلل إلى الذهن غير مستأذنة فتبلغ غايتها من النفس وتؤدي رسالتها.

وعندنا أن هذا لا ينطبق عادة إلا على أصحاب العقول البدائية من أشباه معانيه أو على أهل الثقافة المحدودة أو على ذوي الأمزجة العصبية الشديدة، وأما ذوو الثقافة الواسعة المتزنون فتكفي لاستهوائهم تلك القوة التصويرية الرائعة في أبيات ابن الرومي، فإذا بهم يتمثلون أمامهم أصدق التمثل حالة الهاجرة في الصحراء وكأنهم فيها، وحسب الشعر أن يكون له من ذاتية خياله هذا التأثير الغلاب على النفوس المثقفة دون أن يحتاج إلى الصناعة الموسيقية لإثبات شخصيته الفنية التي لا يحتاج إلى وصي عليها لا من الموسيقى ولا من غيرها."

ولقد أطلت النظر في هذه الآراء الفريدة المثيرة، فبدا لي أننا وإن كنا لا نرفض أن الشعر التصويري يستمد جماله من روعة هذا التصوير أكثر مما يستمده من موسيقاه، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر ضرورة الموسيقى لكل شعر، وإلا أصبح نثرا بالبداهة، كما أن هناك شعرا يستمد معظم جماله من موسيقاه، بل وتعتبر فيه الموسيقى أداة للتعبير تفوق في أهميتها اللفظ والصورة، لا في الشعر الرمزي فحسب، بل وفي الشعر الوجداني ، كما أننا قد نجده أيضا في الشعر الوصفي نفسه الذي نستطيع أن نضرب له مثلا شائعا قريبا بقصيدة شوقي:

حف كأسها الحبب ----------- فهي فضة ذهب

حيث يتراقص النغم في موسيقاها كما يتراقص الحبب على حافة الكأس.

بل نستطيع أن نجد معارضة قوية لرأي الدكتور أبو شادي في موسيقى الشعر عند شاعر موهوب من جماعة أبوللو ذاتها وهو أبو القاسم الشابي حيث يقول في مقال له:

"لقد قلت مرة عن الفن بمعناه الواسع أنه "حياة" موسيقية مصطفاة، سواء أكان قطعة تنشد أو لحنا يعزف أو صورة ترسم أو تمثالا ينحت فهو "حياة" لأن الفن في صميمه إنما هو صورة من تلك "الحياة" التي يحيا فيها الفنان في هذا الكون الزاخر الرحيب أو في دنيا خياله وأوهامه كيفما كانت تلك الصورة في الشكل واللون والعرض. وهو حياة "موسيقية" لأن الفن في جميع صوره وألوانه إنما هو مجموعة نسب مستقلة يوازن الفنان بينها موازنة حكيمة ملهمة يحس بها في قرارة نفسه ويأتيها، وربما لا يفهمها كل الفهم أو بعضه: فالشاعر العظيم هو الذي يوفق في فئة إلى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال

والأسلوب والوزن بحيث يحصل بينها التجاوب الموسيقي الذي ينسجم في القصيد انسجام النور والعطر والماء والهواء في الزهرة الجميلة اليانعة.

والرسام العظيم هو الذي يوفق في الصورة الموازنة الموسيقية بين الألوان والأضواء والظلال والروح الفنية الشائعة في كل ذلك شيوع الضياء في السماء. ولنقل مثل ذلك في بقية ضروب الفن وأصنافه. وهو حياة موسيقية "مصطفاة" لأن الفنان المخلص لفنه لا يعبر - أو هو مكره على ألا يعبر بفنه إلا عن أرفع صور الحياة وأسماها. وعلى هذا فإن الشعر الرفيع حياة موسيقية مختارة تعبر عن نفسها في فن من الكلام. والموسيقى حياة موسيقية مختارة ترفرف بألحان مجنحة في جو منغم موزون، وكذلك يقال في سائر أنواع الفن."

وهكذا يرد الشاعر الموهوب أبو القاسم الشابي إلى موسيقى الشعر ضرورتها في كل شعر يستحق أن يحمل هذا الاسم سواء أكان من الشعر الصافي أو من غيره من ضروب الشعر.

ونحن إذ نؤيد رأي الشابي نود أن ننصح جميع شبابنا الشعراء بأن يتدبروا هذا الرأي وأن يحرصوا عليه مهما يكن في ذلك من مشقة وليؤمنوا كما آمن جميع الشعراء، بل الأدباء الجادين بأن الشعر فضلا عن الأدب كله عسر لا يسر.

تحدثت في الفصل السابق عما سماه الدكتور أحمد زكي أبو شادي "الشعر الصافي" الذي يريد أن يستقل بنفسه عن الموسيقى، بفضل قوة تصويره البياني. وعارضت هذا الرأي بلساني وبلسان الشاعر الموهوب أبو القاسم الشابي الذي يرى بحق أن الشعر موسيقى.

وقلت إن موسيقى الشعر ليست هدهدة للقارئ فحسب، بل هي أحيانا كثيرة أداة للتعبير عما يعجز اللفظ أحيانا عن استخراجه من باطن النفس كما أن النغم الموسيقي قد يصبح تعبيرا في ذاته.

فكيلاني سند شاعر ذو طاقة شعرية كبيرة، وقدرة رائعة على التصوير البياني، وهو يذكرني في شدة انفعاله وعنف صوره بشعراء الفطرة، وكدت أقول بالشعراء الوحشيين من حيث التهاب العاطفة وعنف الصورة، وقوة الطاقة.

وكنت قد قرأت له من قبل بعض قصائد اتخذ فيها البيت وحدة موسيقية فاستقام له النغم، كما استقامت الشاعرية، وذلك لأن وحدة البيت تضبط الموسيقى، وتمكن الشاعر من أن يسهر على استقامتها. ولكنني رأيته في هذا الديوان يعدل عن منهجه الأول، ويتخذ التفعيلة وحدة لموسيقاه. وهذا اتجاه أكثر مشقة من الاتجاه الأول، وذلك لأنه يتطلب من الشاعر إذنا بالغة الإرهاف وقدرة فذة على إخضاع اللغة للموسيقى بحيث يكون كل سطر تفعيلة أو أكثر ويطرد الوزن من سطر إلى سطر.

وفي ديوان "قصائد في القنال" لاحظت أن الشاعر وإن يكن قد احتفظ بطاقته الشعرية الوحشية الرائعة - إلا أن الموسيقى لم تستقم له دائما على نحو ما كانت تستقيم له عندما كان يتخذ البيت وحدة لموسيقاه.

ولنأخذ مثلا قصيدة "الزحف" ص10 التي يهديها إلى الشعوب التي تناضل من أجل استقلالها:

كالشوكة في صدر الظلمة

كالغرسة في الهوة تحبو

تحبو صاعدة للقمة

رغم العليق يعرقلها

يلتف كحيات جهمه

رغم الأشواق تبعثرها

أيدي السفاح بلا رحمة

قد أغلق نافذتي حتى

لم تدخل منها نسمة

وانتهب الزاد فلم تترك

يده من زادي لقمه

وطريقي وعر وطويل

لا شمعة فيه لا نجفة

وهياكل آلاف قبلي

قد سقطوا من أجل الكلمة

ورياح تعول من حولي

وتهز الأشجار بقوة

وزلازل تنفض أقدامي

وتفتح من تحت هوة

وأزيز رصاص وقنابل

من خلفي تنفجر بقوة

ورجال شربوا من خمري

وتمطوا في ظل الكرمة

قد حسبوا إني رمة

لكني رغم الظلمة

سنشق طريقا تسلكه

للفجر شعوب جمة

شعبي وشعوب شتى

قد عاشت في سجن الظلمة

ستراها اليوم وقد زحفت

آلاف الأوجه مهتمة

قد زحفت تركز رايتها

تركزها فوق القمة

ففي هذه القصيدة طاقة شعرية قوية، وتصوير بياني رائع. وفيها تلك الوحشية التي أشرت إليها والتي تكسب هذا الشعر جدة وقوة نفاذ، وتخرج به عن ضروب الشعر المطروقة وعن التقرير الممل أو الحماسة المصطنعة أو النداءات الجوفاء - فيها وفي غيرها من قصائد الديوان كل هذه السمات الشعرية الصادقة، ولكننا كنا نود أن لو استقام لها مع كل هذا النسق الموسيقي الذي يكتمل به جمالها، ويطرد تأثيرها في النفس، وتحريكها للخيال. ولكننا لسوء الحظ نحس ثلما في نسقها الموسيقي كما نحس نفس الثلم في عدد آخر من قصائد الديوان، وذلك مع العلم بأن هذا النسق كان من الممكن أن يستقيم بإضافة مقطع صغير لا يأباه السياق اللغوي، بل قد يكمل به التعبير.

وأضرب مثلا لهذا الثلم الموسيقي بالسطرين:

قد أغلق نافذتي حتى ---------------- لم تدخل منها نسمة

وانتهب الزاد فلم نترك ------------- من زادي لقمة

فهذان السطران قد يكون وزنهما مستقيما في ذاته، وأحدهما مطابق للآخر، ولكنهما لا ينسجمان مع الموسيقى العامة للقصيدة. وكان من الممكن أن يتحقق هذا الانسجام بإضافة كلمة "لي" إلى كل منهما على النحو الآتي:

قد أغلق نافذتي حتى -----------لم تدخل لي منها نسمة

وانتهب الزاد فلم تترك ----------من زادي لي لقمه

ومن البين أن لفظة "لي" التي تقترح إضافتها لن تبدو دخيلة على السياق اللغوي، بل لعلها على العكس تزيد التعبير قوة بحكم ما تضفيه من تخصيص "لي" أي تخصيص "النسمة" و"اللقمة" للشاعر باعتبارها حقا طبيعيا له يريد أن يسلبه منه ذلك السفاح الذي لا يرحم.

وهكذا نخلص إلى أن الكمال الشعري سيظل قائما دائما على الجمع بين الطاقة الشعرية والقدرة على التصوير البياني ثم الموسيقي وضرورة اتساقها، وبخاصة في مثل هذا الشعر الحماسي الذي يسعى إلى أن يلاحق إحساس القارئ أو السامع حتى يلهبه ويستثيره.

وإذا كان "كيلاني سند" قد وهب ذلك الطبع الوحشي الذي يلائم الشعر، ويبشر بأمل كبير، فإن من الواجب أن ندعوه إلى الحرص على استقامة النسق الموسيقي. وربما كان من الأيسر أن يستطيع تحقيق هذا النسق الموسيقي. وربما كان من الأيسر أن يستطيع تحقيق هذا النسق إذا عاد إلى اتخاذ البيت وحدة لموسيقاه كما كان يفعل من قبل، دون مجاراة للتيار الجديد الذي ربما كان من الخير ألا يجاريه الشاعر الشاب إلا بعد أن يأخذ بناصية الموسيقى وتصبح لديه القدرة الكاملة على أن يكتفي بالتفعيلة كوحدة لموسيقاه دون أن يضطرب منه النسق أو يختلط الوزن.

كيف يتحدث الأب؟ ومذهب الاب النقدي

حمل ثقيل ان يتخذك البعض أبا بديلا، فهي مسؤولية جسيمة ، حدث هذا مع ابى حين أتخذه العديدون أبا بديلا ، منهم يوسف ادريس و ونجيب سرور وسيد حجاب وغيرهم كثيرون ، فكيف يجب أن يتحدث الأب ؟

اليكم كيف يتحدث الأب محمد مندور

"بل إنني لأحس مخلصا في الفترة الأخيرة من حياتي ميل واضح إلى الرفق والترفق بل والتشجيع المتزن لكافة البراعم التي أحس لديها بما يوحى بالأمل ولعل مزاولتي المستمرة للتدريس بالجامعة والمعاهد العليا واتصالي الدام بالشبان والأدباء الناشئين قد كان له أثر كبير في تقوية هذا الاتجاه في نفسى ذلك فضلا عن أنى قد اصحبت منذ زمن بعيد والدا لأبناء استأنسونى وفجروا في أعماقي ينابيع التسامح والرفق".

المقال الكامل للاب محمد مندور

مذهبي في النقد

لم يتكون مذهبي فى النقد نتيجة لدراساتي الأدبية فى مصر والخارج وحدها بل اشتركت تجاربى فى الحياة أيضا فى تكوين هذا المذهب ولذلك يصح القول بأنه قد تطور مع اتساع تجاربي فى الثقافة والحياة شيئا فشيئا على مر الأيام وعلى ضوء مزاولتي الفعلية للنقد خلال العشر ين عاما الأخيرة.

ففي أوائل حياتي العملية بالجامعة وعند عودتي من الخارج فى سنة1939 كنت مأخوذا بعلم الجمال اللغوي الذي عمقت قيمه في نفسى قراءتي المتصلة فى الآداب - اليونانية واللاتينية القديمة والفرنسية قديمها وحديثها خلال سنوات الدراسة التسع التي قضيتها في جامعة السوربون بباريس ولذلك لم أكد أعود من الخارج وأبدأ الكتابة في مجلتي الثقافة و الرسالة حتى رأيتني أحفل أولا وقبل كل شيء بالقيم الجمالية اللغوية فى الأدب عامة والشعر خاصة لأنه المجال الذى نلمس فيه بوضوح هذه القيم الجمالية.

والناقد الذى يبحث عن القيم الجمالية قبل كل شيء لابد أن يكون ناقدا تأثريا أي يعتمد فى نقده أساسا على الانطباعات الى تخلفها الاعمال الأدبية على صفحة روحه وعن هذا المذهب صدرت كتاباتي النقدية الأولى، فدرست تاريخ النقد عند العرب القدماء في كتابي « النقد المنهجي عند العرب » على ضوء هذا المذهب التأثري ، وفضلت من نقاد العرب القدماء من أوتى الذوق المثقف المستنير الذى يستطيع أن يحس بالقيم الجمالية فى الشعر وأن يهدينا اليها مثل الآمدى فى كتابه « عن الموازنة بين الطائيين » أي بين البحتري وابى تمام ومثل القاضي عبد العزيز الجرجاني فى كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه " بينما سفهت المقاييس والتعاريف والتقسمات الشكلية العقيمة الى ظن بعض نقاد العرب القدماء مثل "ابن قتيبة " و "قدامة بن جعفر" و "أبى هلال العسكري" أنهم قد وجدوا فيها عكاز الأعمى.

وعن نفس المذهب صدرت فى نقدى لعدد من الأدباء والشعراء المعاصرين وفضلت ما سميته بالشعر المهموس عند المهجرين من أمثال : نعيمه ونسيب عريضة وغيرهما على الشعر الخطابي التقليدي عند عدد من شعرائنا المعاصرين على نحو ما يستطيع السامع أن يلم فى كتابي" فى الميزان الحديد " الذى جمعت فيه ما كتبت من مقالات فى تلك المرحلة الأولى من حياتي ، وفيها تطبيقات عدة لهذا المذهب التأثري كما أن فيها دفاعا حارا عنه ضد من هاجموه عندئذ كأنصار المذهب النفسي في النقد وهو المذهب الذى يهتم بالأديب أو الشاعر أكثر من اهتمامه بإنتاجه الأدبي أو الشعرى كفن لغوى جميل.

وأنا بالبداهة لم أنكر فى تلك المرحلة حق الناقد بل واجبه فى تفسير الاعمال الأدبية على ضوء الحالة النفسية للأديب ومقومات تلك الحالة ولكنني أنكرت على النقاد ولا أزال أنكر أن يستعيروا فى النقد الأدبي منهجا يأخذونه عن أي علم أخر وذلك لأن للنقد - ويحب أن يكون - منهجه الخاص النابع من طبيعة الأدب ذاتها، كما أننى لم أنكر أيضا حق الناقد بل واجبه فى توسيع ثقافته حيث تشمل الدراسات النفسية والتاريخية والاجتماعية بل والعلمية أيضا .

ولكنني أنكرت عليه ولا أزال أنكر أي محاولة لإقحام نظريات تلك العلوم على الأدب والأدباء ومحاولة الباسها للأدباء قسرا على نحو ما حاول بعض نقادنا الباس النرجسية أو غيرها مثلا لهذا الشاعر أو ذاك بحجة أنه قد أبدى فى بعض شعره اعجابا بنفسه أو أحد المركبات الفرو يدية المعروفة لأن شاعرا كأبي نواس قد تغزل في الخمر بما يشبه الغزل في المرأة، وأمثال ذلك .

وقد أوضحت في ميزاني الجديد كيف أن مهمة الناقد الاساسية هي البحث عن الأصالة الفردية المتميزة لكل كاتب كبير مؤكدا أن الأفراد لا يمكن أن ينطووا تحت نمازج نظرية مجردة وأن لكل فرد ممتاز أصالته

المتميزة، وإذا كانت أوراق الشجرة الواحدة لا يمكن أن تتطابق تطابقا تاما فكيف يمكن أن يتطابق الممتازون من البشر ذلك التطابق التام الذى يزعمه علماء النفس أحيانا عندما ما يقسمون البشر إلى نمازج محصورة ويضعونهم فى خانات.

والنقد الأدبي فى أدق تعريفاته هو أولا وقبل كل شيء فن تمييز الأساليب باعتبار أن أسلوب الرجل هو الرجل نفسه ، وهناك مفارقات لا تنتهى بين كل نوع نظري من أنواع الأساليب ، فالأسلوب الساخر منة المر ومنة الحلو ومنه المتشاتم ومنه المتفائل ومنه المداعب اللطيف ومنة المتهكم القاسي ومنه المستخف بالحياة ومنة الحريص عليها الباكي منها خلف سخريته، وكذلك الأمر فى كافة الأساليب ، والناقد الناجح هو الذى يحس بهذه المفارقات ويبرزها ليميز كاتبا كبيرا عن آخر وبذلك يحدد أصالته ولونه النفسي المتميز عن ألوان النفوس الأخرى.

والنقد التأثري لازلت أعتقد أنه الأساس الذى يجب أن يقوم عليه كل نقد سليم وذلك لأننا لا يمكن أن ندرك القيم الجمالية فى الأدب بأي تحليل موضوعي ولا بتطبيق أيه أصول أو قواعد تطبيقا آليا والإعجاز أن يدعى مدع أنه قد أدرك طعم هذا الشراب أو ذاك بتحليله في المعمل إلى عناصره الأولية وانما تدرك الطعوم بالتذوق المباشر، ثم نستعين بعد ذلك بالتحليل والقواعد والاصول فى محاولة تفسير هذه الطعوم وتعليل حلاوتها أو مرارتها على نحو يعين الغير على تذوقها والخروج بنتيجة مائلة للنتيجة التي خرج بها الناقد بفضل ملكته التذويقية المدربة المرهفة السليمة التكوين.

تم حدث بعد ذلك أن تركت الحياة الأكاديمية فى الجامعة لأعمل فى الحياة العامة حيث خالطت الناس وتلقيت دروسا مباشرة من الحياة لا تقل أثرا وتأثيرا فى تكويني النهائي عما تلقيت من دروس فى الجامعات أو قرأت من كتب داخل الجدران ، وبتأثير هذه الدروس الجديدة أخذت أفاقي النقدية تتسع وتتطور شيئا فشيئا دون أن أتنكر للمرحلة السابقة من حياتي العملية ، فقد ظللت حتى اليوم أحرص على القيم الجمالية فى الأدب عامة والشعر خاصة ولكنى أخذت ازداد اهتماما بالحياة ، وأخذ إحساسي يزداد شيئا فشيئا بأنه لا ينبغي أن يظل الأدب والفن متاعا للخواص ولمتذوقي الجمال من الممتازين من الناس بل يجب أن يساهم الأدب والفن في خدمة الحياة وجعلها أفضل وأسعد وخيرا مما هي.

وصاحب هذه المرحلة الوسطى من حياتي اطلاعي على أنواع جديدة من الآداب تطورت فيها الأصول الأدبية والفنية الكلاسيكية واخذت تحل محلها أصول جديدة تماشى الفلسفة الجديدة للآداب والفن وهى الفلسفة المعروفة " بالفلسفة الواقعية " المتفائلة المتفانية فى خدمة الحياة والأحياء ، وكان لاشتغالي بتدريس بعض فنون الأدب الموضوعية مثل فن الأدب المسرحي ونقده خلال سنوات طويله أثر واضح فى التطور على نحو ما هو محسوس فى بعض كتبي اللاحقة مثل كتاب " فى الأدب والنقد " وكتاب" الأدب ومذاهبه " وأخيرا كتاب " قضايا جديدة فى أدبنا المعاصر" وإلى هذه الفترة ترجع مقالاتي التي أيدت فيها بعض أدباءنا الشبان فى خروجهم على بعض الأصول الكلاسيكية في التأليف المسرحي عندما اهتدوا بفطرتهم وبوحى من ضرورات الحياة المعاصرة فى بلادنا إلى إن صور جديدة من التأليف المسرحي مثل : الأوتشرك والمسرح الملحمي وهى صور لا تبنى على حدث محدد الأبعاد موحد الموضوع

بقدر ما تعرض نتيجة دراسة المؤلف لمشكلة معاصرة أو تعرض هذه المشكلة فى ذاتها لتستصدر من المشاهدين حكما عليها.

ثم أخذت أحس بأن نظرية الفن للحياة لا للفن قد أخذت تغرى بعض الشبان بإهمال القيم الجمالية والأصول الفنية في سبيل الهدف الخير الذى تقصدون إليه وبذلك لا يعود الأدب أدبا ولا فنا بل يصبح شيئا آخر قد يكون سياسة أو اجتماعا أو فلسفة ولكنه ليس أدبا ولا فنا كما قلت ، فدفعني إحساسي الحاد بالمسؤولية إلى أن أحاول إعادة التوازن فى نقدى بين المرحلة الجمالية الأولى والمرحلة الحيوية الوسطى وحاولت أن أبلور منهجي المتكامل فى النقد فى سلسلة من المقالات التي نشرتها فى جريدة الشعب عن النقد الأيديولوجي مؤكدا أن هذا النقد لا يمكن أن يهمل القيم الجمالية والأصول الفنية المرنة للأدب والفن ولكنه يضيف اليها النظر فى مصادر الأدب والفن واهدافهما ووسائل علاجهما.

فالأدب والفن يستقيان من تجارب التاريخ أو من الاساطير أو من تجارب الحياة الواقعة أومن التجارب الشخصية للأديب أو من الخيال الذى يستطيع أن يخلق ما يشاكل الحياة أو يظهر أسرارها الدفينة ويجمع أبعادها المترامية ولكن النظر فى مصادر الأديب لا يكفى للحكم على قيمة أدبه وجدواه على مواطنيه أو على الإنسانية عامة ، بل لابد من النظر أيضا فى أهدافه لنتبين ما الذى قصد إليه من كتابة قصة أو مسرحية تاريخية أو أسطورية ، وهل هدف إلى مجرد بعث الماضي أو سرد أسطورة قديمة ، أم هدف إلى اتخاذ الحادثة التاريخية أو الأسطورة وسيلة للتعبير عن نفسه أو عن مشكلة من مشا كل العصر الذى تشغله فى غير افساد لحقائق التاريخ الكبرى أو تزويرها .

ومن حق الناقد عندما ينظر في المصدر أن يتبين أي قطاع مثلا فاختاره الأديب من واقع حياتنا المعاصرة وهل هو القطاع الذى يستحق العناية والذى يعرفه الكاتب ويحسن تصويره، ودراسته أم لا ، ثم ما هو هدفه مما كتب ؛ وهل هذا الهدف خير أم شرير يريد أن يلعب بالغرائز وأن يستثير اليافعين باللعب على حاستهم الجنسية أو نزعاتهم الشريرة الإجرامية فحسب.

ثم إن النظر فى المصادر والأهداف وحده لا يكفي، بل لابد من النظر أيضا فى طريقة العلاج وأسلوبه والروح الى يصدر عنها الكاتب لنتبين هل هي روح سليمة أم مريضه وهل هي روح متفائلة أم متشائمة وهل هى روح حانية على البشر محبة لهم أم روح مريرة ساخطة.

وذلك لأننا قد نقع مثلا على قصة أو مسرحية تنتهى بهزيمة الشر وانتصار الخير ولكئنا مع ذلك نحس بأن أسلوبها قد كان أسلوبا داعرا مدمرا وقحا يسرف في المباذل ويغرى بها اغراء لا يمحوه ولا يشفع له أنه قد انتهى إلى إدانة هذا الابتذال ونكبته في أخر القصة أو المسرحية مما يجعل الخاتمة الخيرة تنمحي أو تكاد أمام سيل الدعارة الفاجرة الذى تخلل صفحات عمله الأدبي واشتد بريقه فيها.

وهذا النقد الأيديولوجي لا يمكن فى مذهبنا أن يغنى بأية حال عن النقد الفني الجمالي الذى يتميز به الأدب عن غيره من الكتابات، فالأدب هو كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته انفعالات عاطفيه واحساسات جمالية وهو بتعريف آخر صياغة فنية لتجربة بشرية مما يحتم ضرورة الاهتمام بالصورة الأدبية التي يصب فيها الأديب مضمونه الإنساني، وهذه الصورة ليست أمرا شكليا ولا نافلة بل هى

الوسيلة الفعالة التي تكسب الأدب مضاءه وقدرته على النفاذ إلى النفوس من أيسر السبل وأقواها نفاذا وأعمقها تأثيرا.

وخصائص الصياغة تلعب فيها الخصائص اللغوية وطرائق التعبير اللفظي دورا أساسيا لأن للألفاظ ألوانا وأرواحا، ولا يمكن أن يسمى الأديب أديبا ما لم يكن قادرا على ادراك ألوان الألفاظ وأرواحها فضلا عن الخصائص المرهفة التى تتولد من تركيب العبارات، بحكم أن كل مركب لابد أن نحد فيه خصائص لا تتوفر في العناصر الأولية التي يتكون منها ذلك المركب .

والأدب أولا وقبل كل شئ فن لغوى جميل ولعلم الجمال اللغوي أصوله التي يجب أن يفطن أليها الأديب بفطرته التى تصقلها وتنميها ثقافته الأدبية واللغوية ومطالعاته المستمرة لروائع الآداب.

ومن هذا الاستعراض السريع لتاريخ تكون مذهبي الأدبي فى النقد ، أستطيع أن أقرر أنه قد أصبح في صورته النهائية يقوم على أساسين : أساس أيديولوجي ينظر فى المصادر والأهداف وفى أسلوب العلاج ، وأساس فنى جمالي ينتظم فى مرحلتين احاول دائما أن أجمع بينهما فى كل نقد تطبيق أقوم به وهما المرحلة التأثرية التي أبدأها دائما بأن أقرأ الكتاب المنقود قراءة دقيقة متأنية لأحاول أن أتبين الانطباعات التى خلفها فى نفسى ، ثم مرحلة التعليل والتفسير وهى المرحلة التي أحاول فيها تفسير انطباعاتي وتبريرها بحجج جمالية وفنية يمكن أن يقبلها الغير وأن تهديه إلى الإحساس بمثل ما أحسست به عند قراءتي للكتاب المنقود ، إذ من البديهي أن ذوقنا الفردي لا يمكن أن نمليه على الغير ما لم نحاول تبريره بالحجج المنطقية السليمة التي نستمدها من ثقافتنا اللغوية والانسانية والفنية العامة بحيث يصبح الذوق وسيلة مشروعة للمعرفة التي تصح لدى الغير، ومن الواجب أن يقاوم الناقد النزيه كل هوى فى نفسه وكل نزعة شخصية يمكن أن تفسد ذوقه وتجعل منه وسيلة للتضليل لا للمعرفة الحق والادراك الصحيح للقيم الجالية والإنسانية التى يبنى عليها أحكامه.

ولقد يقال إن الناقد ليس من حقه أن يحاسب الأديب عل مصادره وأهدافه، وأنا بداهة لم أحاول قط أن أملى على أي أديب مصدرا دون آخر من مصادر الأدب أو هدفا دون آخر وأسلوبا دون أسلوب بل أترك له دائما حرية اختيار مصدره وهدفه ولكنني كناقد أطالب أيضا بحريتي في أن أفضل مصدرا على آخر وموضوعا على آخر وهدفا على أخر وأسلوب علاج على أخر وإلا خنت رسالتي وفقدت كل ما يمكن أن يكون لى من أثر فى توجيه القراء بل والأدباء أنفسهم نحو القيم السليمة والاتجاهات الخيرة التي تتطلبها حياتنا القومية أو الحياة الإنسانية عامة.

وأما الذى أرجو أن يقيني الله شره كناقد فهو التعصب الأعمى لاتجاه بذاته نتيجة لأفكار سلفية أريد أن أمليها على الأدب والأدباء وذلك لأن الحجر على الفكر البشرى لا يمكن إلا أن يقتله واتجاهات الفكر السليمة هي دائما تلك التي تخطط لها تضاريس الحياة ولا يمكن لأى ناقد مها كانت قوته أن يقاوم تلك التيارات النابعة عن الحياة الجارية ووقف تضاريسها وإلا كان كمن يحاول أن يحمل الانهار على أن تصعد الربوات.

وأقبح فى نظري من التعصبات الفكرية العمياء الأهواء الشخصية والنزوات الفردية المريضة التى تحابى وتعادى على غير أسس نزيهة من التذوق البريء والتعليل المنطقي السليم والدراسة الموضوعية الجدية لما يتناوله الناقد من اعمال أدبية ، بل إنني لأحس مخلصا فى الفترة الأخيرة من حياتي ميل واضح إلى الرفق والترفق بل والتشجيع المتزن لكافة البراعم التي أحس لديها بما يوحى بالأمل ولعل مزاولتي المستمرة للتدريس بالجامعة والمعاهد العليا واتصالي الدائم بالشبان والأدباء الناشئين قد كان له أثر كبير فى تقوية هذا الاتجاه فى نفسى ذلك فضلا عن أنى قدا صحبت منذ زمن بعيد والدا لأبناء استأنسونى وفجروا في أعماقي ينابيع التسامح والرفق.

الديمقراطية الثورية تتحدث

محمد مندور يكتب سنة 1953

"مأخوذ من كتاب الديمقراطية السياسية"

الحريات العامة

وإذا سلمنا بأنه من الواجب أن تصبح الأمة حقيقةً مصدر السلطات، فإنه يتحتم أن نمنحها الوسائل التي تستطيع بها تحقيق تلك السيادة؛ حتى لا تعود فتجد نفسها في حاجة إلى القوة المادية وإلى العنف لرد الاعتداء على سيادتها، أو استردادها إذا اغتُصبت منها.

والديمقراطية لا تعرف وسيلة لتحقيق سيادة الأمة غير إطلاق حرياتها، بحيث يستطيع كل مواطن أو كل جماعة من المواطنين أن يبدوا آراءهم، وأن يدلوا إليها في حرية عن طريق الاجتماع والخطابة والنشر، والتظاهر السلمي، والحق في الامتناع عن العمل؛ حتى لا يصبح الإكراه على الاستمرار فيه نوعًا من السخرة البغيضة، التي تخلَّص منها الجنس البشري كآخر أثر من نظام الرق القديم.

وهناك ظاهرة لا تغيب على أحد، وهي أن القوانين قد تطورت باستمرار نحو تقييد الحريات؛ حيث رأينا كافة العهود تضيف قيودًا جديدة إلى القيود السابقة، وقلما رأينا حكومة تلغي شيئًا من تلك القيود، حتى ولو كان فرضها قد استوجبته ملابسات عابرة انقضت، وكان يجب أن تنقضي معها تلك القيود. ولسوء الحظ، كانت الحكومات المختلفة تجد في الدستور نفسه سندًا واهيًا تستند إليه في سن تلك القوانين الرجعية، فإذا وجدت حكومة نصًّا في الدستور يكفل للمواطنين حرية الاجتماع مضافًا إليه عبارة «في حدود القانون»، لم تفسر هذا القيد بالروح الديمقراطية السمحة، بل اتخذت منه سندًا لتقييد حق الاجتماع بقيود تعتبر بمثابة إعدام لهذا الحق من أساسه. وكذلك الأمر في النص الدستوري الذي يحرم إنذار الصحف أو تعطيلها إداريًّا، فقد استغلت إحدى الحكومات السابقة القيد الوارد على هذا الحظر والقائل بإباحته في حالة لزوم ذلك لحماية النظام الاجتماعي لكي تنكل بالصحف عن الطريق الإداري، فلم تنذرها أو تعطلها فحسب، بل ألغتها إلغاءا تامًّا، ومحتها من الوجود تحت شعار حماية الدولة من

الشيوعية، مع أن الأمة كلها تعرف أن ذنب كل تلك الصحف كان عندئذٍ معارضتها القوية في إبرام معاهدة صدقي-بيفن.

وكذلك الأمر في كافة الحريات الأخرى، فإن دستور سنة ١٩٢٣ ترك باب العصف بها مفتوحًا عن طريق القيد الذي أخضعها له، وهو عبارة «في حدود القانون»، وهو قيد يجب أن نطهِّر منه الدستور الديمقراطي الذي تتطلع إليه البلاد؛ بحيث لا يكون هناك قيد على الحريات العامة إلا ما توجبه طبيعة تلك الحريات، وضرورة تمتع الجميع بها دون اعتداء من أحد على حرية الغير؛ فالشيء الوحيد الذي يجب أن يُحظر في مجال الحريات هو استخدام العنف لإملاء رأي، أو الاعتداء على حريات المواطنين الآخرين.

وإذا كان هناك رأي يقول بوجوب الحد من حريات الأفراد للتوفيق بينها وبين سيادة الدولة، فمن الواجب أن تُفهم تلك السيادة على أنها توكيل من الأمة للدولة لكي تعمل على تحقيق حريات المواطنين، وكفالة حقوقهم عن طريق القانون بدلًا من طريق القوة الذي كان يسود في عصور الهمجية قبل أن ينشأ نظام الدولة. وعلى هذا النحو يكون التوفيق بين الحريات العامة وبين سلطة الدولة محصورًا في عدم السماح باستخدام العنف في مجال الحريات. والمقصود بالعنف هو طبعًا أعمال الاعتداء الإيجابي؛ بحيث لا يمكن أن ينطوي تحت العنف حق الفرد في الامتناع عن العمل، مثلًا، إذا كان لا يتقاضى عنه الأجر الممكن العادل، أو كان يزاوله في ظروف تاباها كرامة البشر، فإن مثل هذه المقاومة السلبية يجب أن تُعتبر مشروعة، وإلا اعتبر الإكراه على العمل — كما قلنا — فرضًا لنوع من السخرة البغيضة.

لقد قلنا إن الحركة التي قام بها الجيش هي فرصة ذهبية قلما يتاح مثلها لتطهير بلادنا من هذه النظم الفاسدة، وكلما فعلنا في تطهير الأشخاص، يجب أن تنهض بتطهير تلك النُّظم؛ وذلك بغربلة الدستور، وغربلة كل تلك القوانين المقيدة للحريات، والتخلص منها نهائيًّا، بحيث لا يصبح هناك على الحريات العامة أي قيد، غير قيد حظر العنف خدمةً للحريات ذاتها، بحيث يستطيع جميع المواطنين التمتع بها دون اعتداء مواطن على آخر، أو من هيئة أو حزب على آخر. وليس من شك في أن إطلاق الحريات سينفي عن الأمة كل حاجة إلى استخدام العنف لرفع ما تشاء من ظلم، أو ما ترتع فيه من بؤس؛ وبذلك تستقر النظم، وتطمئن النفوس، وتنشط قوى الأمة ومواهبها للعمل في سبيل الإنتاج المثمر، والرقي المادي والأدبي والأخلاقي. والحرية هي خير مدرسة للأخلاق، بل وللنبوغ وللازدهار، وهيهات أن ينهض شعب بليد، شعب ذليل مستعبد…

وإذا كانت قوانين العقوبات العادية لم تعد تكفي في نظر المفكرين ورجال الإصلاح للقضاء على الجرائم مهما اشتدت العقوبات التي تفرضها تلك القوانين، بحيث أصبح هؤلاء المفكرون يدعون إلى محاربة الجريمة بالبحث عن أسبابها وبواعثها، ومعالجة تلك الأسباب، فكيف يمكن الظن بأن فرض عقوبات على حريات المواطنين المشروعة يمكن أن تحملهم على التخلي عن حقهم في التمتع بتلك الحريات، وجميع المفكرين يقررون بحق، مثلًا، أن الفكرة أشبه ما تكون بالمسمار الذي كلما ضربته فوق رأسه ازداد توغلًا في الخشب؛ ولذلك نرى الحركات التي تقاومها بعض الحكومات المستبدة برأيها لا تختفي، بل تغوص تحت الأرض لتعمل. والعمل في الظلام لا شك أنه أكثر خطرًا من العمل في وضح النهار. وليس

من شك في أن الأمة المصرية قد اختبرت هذه الحقيقة اختبارًا مرًّا؛ فقد جاء وقت لم يكن مواطن يستطيع أن يفكر مجرد تفكير في شيء من مفاسد النظام الملكي في مصر، ومفاسد الملك، فضلًا عن الجهر بها، ومع ذلك انتشر السخط على هذا النظام وعلى ذلك الملك انتشارًا نحمد الله على نتيجته الرائعة.

وليس من شك في أنه لو كان للمصريين حق انتقاد الملك وتصرفاته، على نحو ما نشاهد في إنجلترا مثلًا؛ حيث يقف الخطباء في هايد بارك، فضلًا عن الصحف والبرلمان، لكي يوجهوا ما يشاءون من لوم للملك وأسرته، وتصرفاته العامة والخاصة، ويطالبون بمؤاخذته على تلك التصرفات، ولو كانت شخصية بحتة. نعم لو أن المواطنين المصريين كان لهم شيء من هذا الحق؛ لثاب الملك السابق إلى رشده منذ حين، ولما استطاع أن يستمر في فساده وطغيانه وانحلاله إلى هذا النحو الفاضح.

إن هذه الحركة التي حررتنا من طغيان فاروق يجب أن تحررنا أيضًا من طغيان القوانين التي وضعت في ظل فاروق وأبيه، وفي ظل الإنجليز من خلفهم، وإلا ظل الوباء منتشرًا في البلاد، وكما فسد الأشخاص الذين طهَّرنا البلاد من شرورهم، سيفسد غيرهم في ظل نظم العبودية القائمة، وسنضطر عندئذ إلى مواصلة تطهير الأشخاص؛ أي إلى القضاء على الأمة كلها.

إن خير وسيلة لحمل المواطنين على احترام القانون والنظام هي منح المواطنين حقوقهم وحرياتهم، فالرجل الحر لا يتمرد، وإنما العبد هو الذي يتمرد، فعلينا أن نخلق من المواطنين رجالًا أحرارًا، وعندئذ سنرى في كل منهم جنديًّا من جنود النظام، ومدافعًا عن القوانين التي يتمتع في ظلمها بحقوقه وحرياته. أما أن نطالب المواطنين باحترام قوانين رجعية ظالمة، فهذا هو الوهم السخيف.

اينشتين وبكره الاتي أت

الاندماج النووي والطاقة الهائلة

هذا المبتكر الذى يقلد الطبيعة، فطار وغطس وحفر وراقب واكتشف ، وهو يحاول الان الوصول الى تقليده الاعظم ، الاندماج النووي ، الذى يولد طاقة هائلة تتجاوز كثيرا المفاعلات النووية الانشطارية الحالية ، شمس صغيرة لو نجح فى التحكم فيها لاختلفت حياة الجنس البشرى اختلافا كبيرا.

لقد فهم الطبيعة بواسطة علماء أفذاذ ومنهم أينشتين وها هو يحاول الان تطبيق ما توصلوا اليه ، واليكم ما كتبته الوكالة الدولية للطاقة النووية عن الموضوع.

"قبل خمسمائة عام، كان ثمة اعتقاد سائد في حضارة الأزتك، التي ازدهرت في الموقع الذي توجد فيه المكسيك اليوم، بأنَّ الوقود الذي يغذِّي الشمس وجميعَ القوى المنبعثة منها هو دماء القرابين البشرية. أما اليوم، فنحن نعلم أنَّ الشمس وسائر النجوم تستمدُّ طاقتها من تفاعلٍ يُعرف باسم الاندماج النووي. وفي حال أمكن استنساخ الاندماج النووي على كوكب الأرض، يمكن أن يؤدي ذلك إلى توفير طاقة لا

حدود لها تقريباً من الناحية العملية وتتَّسم بكونها نظيفة ومأمونة وميسورة التكلفة لتلبية الطلب على الطاقة على الصعيد العالمي.

إذاً، كيف يتم الاندماج النووي بالضبط؟ ببساطة، الاندماج النووي هو العمليةُ التي تندمج على إثرها نواتان ذريتان خفيفتان لتكوِّنا نواة ذرية واحدة أثقل وزناً، ويصاحب هذه العملية انبعاث كميات هائلة من الطاقة. وتحدث تفاعلات الاندماج عندما تكون المواد في حالة تُسمى بحالة البلازما — وهي حالة تتَّخذ المادة فيها شكل غاز ساخن مشحون مكوَّن من أيونات موجبة وإلكترونات طليقة، وتتَّسم بخصائص فريدة تميِّزها عن الحالات الصلبة والسائلة والغازية.

ولكي يقع الاندماج في قلب الشمس التي تشرق على كوكبنا، يتطلب الأمر تصادُم النويات بعضها ببعض في درجات حرارة عالية جداً تتجاوز عشرة ملايين درجة مئوية تمكِّنها من التغلُّب على التنافر الكهربائي فيما بينها. فإذا تغلَّبت النويات على هذا التنافر وصارت المسافات بينها قريبة للغاية، تبلغ قوة التجاذب النووي بينها مستوى يفوق التنافر الكهربائي بما يتيح لها أن تندمج معاً. ولكي يحصل ذلك، يجب احتواء النويات داخل حيِّز صغير لزيادة فرص التصادُم. وتتحقَّق الظروف اللازمة لعملية الاندماج في قلب الشمس بسبب مستوى الضغط البالغ الارتفاع الذي ينتج عن جاذبية الشمس الهائلة.

ويسفر الاندماج عن إنتاج كمية ضخمة من الطاقة — تبلغ أربعة أضعاف كمية الطاقة التي تنتج عن تفاعلات الانشطار النووي — ويمكن للتفاعلات الاندماجية أن تكون الأساس الذي تقوم عليه مفاعلات القوى الاندماجية في المستقبل. وبحسب الخطط القائمة، فسوف يستخدم الجيل الأول من مفاعلات الاندماج وقوداً مكوَّنًا من مزيج من الديوتيريوم والتريتيوم — وهما نوعان من الهيدروجين الثقيل. ومن الناحية النظرية فباستخدام بضع غرامات فقط من هذين المتفاعلَيْن يمكن إنتاج كمية من الطاقة تبلغ تيراجول واحد، وهي تقريباً كمية الطاقة التي تكفي لتلبية احتياجات شخص واحد من سكان البلدان المتقدِّمة النمو لفترة تزيد على ستين عاماً.

التطلّع إلى النجوم

في حين أن قوة جاذبية الشمس الهائلة تؤدي إلى حدوث الاندماج بشكل طبيعي، فمن دون هذه القوة يتطلب وقوع التفاعل درجة حرارة أعلى. وعلى كوكب الأرض، نحتاج إلى درجات حرارة تتجاوز 100 مليون درجة مئوية وضغطاً شديداً لجعل الديوتيريوم والتريتيوم يندمجان، كما نحتاج إلى توفير الاحتواء الكافي لاحتجاز البلازما والإبقاء على تفاعل الاندماج متواصلاً لفترة كافية لتحقيق كسب صاف في القوى، أي مكسب في النسبة بين قوى الاندماج المنتَجة إلى القوى المستخدمة لتسخين البلازما.

وفي حين أنَّ التجارب التي تُجرى الآن تشهد بصورة روتينية تحقيق ظروف قريبة للغاية من الظروف المطلوب توافرها في مفاعلات الاندماج، فهناك حاجة إلى تحسين احتواء البلازما واستقرارها. ويواصل العلماء والمهندسون في شتى أنحاء العالم اختبار مواد جديدة وتصميم تكنولوجيات جديدة من أجل تحقيق طاقة الاندماج على أرض الواقع.

وهناك بحوثٌ جارية بشأن الاندماج النووي وفيزياء البلازما في أكثر من 50 بلداً، وتحققت تفاعلات الاندماج بنجاح في العديد من التجارب، وإن جرى ذلك دون إثبات تحقيق كسب صاف في القوى. وستتوقف المدة التي سيستغرقها استنساخ هذه العملية التي تستأثر بها النجوم على حشد الموارد من خلال إقامة الشراكات والتعاون على الصعيد العالمي.

تاريخ حافل بالتعاون

منذ أن توصَّل العلم إلى فهم الاندماج النووي في ثلاثينات القرن الماضي، انخرط العلماء في مساع لاستنساخه وتسخير الطاقة الناتجة عنه. وفي بداية الأمر، جرت هذه المحاولات في كنف السرية. بيد أنه سرعان ما اتضح أنّ هذه البحوث المعقّدة والمُكلفة لا يمكن إجراؤها إلا من خلال التعاون. وخلال مؤتمر الأمم المتحدة الدولي الثاني المعني بالاستخدامات السلمية للطاقة الذرية الذي عُقِدَ في عام 1958 في جنيف بسويسرا، كشف العلماء أمام العالم عن البحوث الجارية في مجال الاندماج النووي.

وقد كانت الوكالة ولا تزال في موقع القلب من البحوث الدولية في مجال الاندماج. فقد أطلقت الوكالة مجلة الاندماج النووي في عام 1960 لتبادل المعلومات حول التقدّم المحرز في مجال الاندماج النووي، وتُعتبر هذه المجلة اليوم الدورية الرائدة في هذا المجال. وعُقِدَ مؤتمر الوكالة الدولي الأول المعني بطاقة الاندماج في عام 1961، ومنذ عام 1974، تعقد الوكالة كل سنتين مؤتمراً لتعزيز النقاش بشأن التطورات والانجازات في هذا المجال.

وبعد عقدين من المفاوضات بشأن تصميم ومكان أكبر مرفق دولي للاندماج على الصعيد العالمي، أُنشِئ مفاعل إيتير في عام 2007 في فرنسا، بهدف إثبات إمكانية إنتاج طاقة الاندماج من الناحية العلمية والتكنولوجية. والمدير العام للوكالة هو وديع اتفاق التنفيذ المشترك لمفاعل إيتير. وفيما بعد مفاعل إيتير، يجري التخطيط لإنشاء محطات لإثبات جدوى القوى الاندماجية، أو ما يُعرف بمحطات القوى الإيضاحية، بهدف إثبات إمكانية توليد مكسب صاف من القوى الكهربائية باستخدام الاندماج النووي الخاضع للتحكُّم. وتستضيف الوكالة حلقات عمل بشأن محطات القوى الإيضاحية لتيسير التعاون من أجل تحديد وتنسيق أنشطة البرامج العادية لهذه المحطات حول العالم.

ومن المتوقع أنَّ الاندماج يمكن أن يلبي احتياجات البشرية من الطاقة لملايين السنين. ووقود الاندماج متوفر بكثرة ومن السهل الحصول عليه: فالديوتيريوم يمكن استخراجه بتكلفة زهيدة من مياه البحر، أمَّا التريتيوم فيمكن إنتاجه من الليثيوم الموجود بوفرة في البيئة الطبيعية. ولن تَنْتُج عن مفاعلات الاندماج في المستقبل نفايات نووية قوية الإشعاع وطويلة العمر، أمَّا انصهار القلب فهو أمرٌ مستحيل عمليًّا في مفاعلات الاندماج.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الاندماج النووي لا تنجم عنه انبعاثات من ثاني أكسيد الكربون أو غيره من غازات الدفيئة إلى الغلاف الجوي، ومن ثمَّ يمكن للاندماج النووي أن يؤدي، إلى جانب الانشطار النووي، دوراً في التخفيف من حدَّة تغير المناخ في المستقبل باعتبارهما من مصادر الطاقة المنخفضة الكربون".

شرف الوطنية المصرية

"الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا"

سينوت حنا

أبن الأرض السمراء، اى القبطي المصري المسيحي الديانة، ينضم لمصطفى كامل ويمنع تأليف حزبا للأقباط المسيحيين سنة 1911، ويؤيد تولى سعد زغلول لرئاسة مجلس الشورى سنة 1914، في غياب رئيسة المعين، باعتباره الوكيل المنتخب ولا يؤيد تولى الوكيل الاخر، المعين، عدلي يكن سليل العائلة المالكة.

يذهب محتجا الى سعد زغلول في كيف تخلو قيادة الوفد المصري من المسيحيين، وينضم الى الوفد وينفى مع سعد الى سيشل مع من بقي من القيادة الأكثر راديكالية للوفد، سعد زغلول ومصطفى النحاس وسينوت حنا وعاطف بركات ومكرم عبيد، ويا لها من أسماء تعبر عن الوحدة الوطنية الحقيقية، ثلاثة من القبط المسلمين واثنين من القبط المسيحيين.

ولا يخسر سينوت حنا أي انتخابات حرة حين يجمع علية كل اقباط مصر، مسلمين ومسيحيين، في دائرته الانتخابية، الفشن في صعيد مصر، ويخوض معركة الشوارع ضد حكومة أسماعيل صدقي سنة 1930 ويتلقى طعنة السونكى الغادرة بديلا عن مصطفى النحاس، فيصاب بجرح في أعلى الذراع اليمنى عند المفصل بعمق 70 ملليمترا وباتساع 10 سنتيمترات وكسر في إحدى عظمتي الذراع، وانطبع الدم الذى سال من جرح سينوت حنا على ملابس النحاس، ويتوفى سينوت حنا متأثرا بجراحه بعد ثلاث سنوات وهو لم يبلغ الستون عاما.

سد النهضة ومشكلات التأويل

بالقطع فإن سد النهضة هو قضية قومية مصرية، قضية اصبحت مستدامة لن تنتهى بانتهاء بناء السد بل ستستمر طالما بقى السد ، مهما كانت طريقة تشغيله ، ولقد اطلعت على الكثير من الدراسات التي تتمتع بجدية البحث وتوفر الكثير من المعلومات الفنية ، لكن اختلافات الرؤى تتمثل بشكل رئيسي في التأويلات السياسية والاقتصادية والفنية ، لذلك اعيد نشر ما كتبته في السابق عن سد النهضة ، أراء يمكن ويجب أخضاعها لإعادة التقدير وفق الوقائع المتغيرة فلا احد يأتيه وحى من السماء ، وبرغم ذلك فإن قناعاتي السابقة لم تتغير.

والمرفق مقالين

الاول هو تعليق على كتاب رشدي سعيد عن نهر النيل - كشف الغمة عن أحوال الامة

والثاني هو مقال عن سد النهضة ذاته – سد النهضة والشعبوية

أما فيما يتعلق بسياسات الدول المختلفة حول سد النهضة فان المقال المرفق يوضح تقديراتي حول دوافعها ، وهو تقدير سيأسى أعتقد فى أهميته ليس فقط عن سد النهضة بل عن مجمل سياساتها فيما يتعلق ببلادنا

كشف الغمة عن أحوال الامة ....ورشدي سعيد

الستة عشر والامل المنشود وسد النهضة

في كتابة البديع عن نهر النيل يكشف رشدي سعيد عن التاريخ الجيولوجي لانهار النيل، نعم أنهار النيل، فالنيل الحالي هو نهر حديث نسبيا، وقد سبقته أنهار نيل أخرى انتهت حياتها لتحل محلها أنهار نيلية أخرى في دراما جيولوجية يقدمها في لغة علمية شعرية تخلب الالباب.

ولا يتوقف إبداعه عند الجيولوجيا، بل يقدم رؤية تاريخية في علاقة البشر بالأنهار التي سميت بالنيل، فهل حقا وفعلا أن مصر هي هبة النيل أم هي هبة البشر الذين هبطوا الى الوادي بعد أن أستقر النيل الحالي منذ 10 الى 12 ألف عام، لتنشأ هذه الحضارة الإنسانية العظيمة وتقدم للإنسانية فجر الضمير مكتوبا، وتقدم أيضا تصوراتها لفهم العالم والكون في رؤية شعرية تختلط فيها التصورات الدينية مع حياة البشر، فهل حقا وفعلا كان حورس باحثا عن العدل؟ وهل حقا يظهر في صورة الصقر الذي لا يأكل الجيفة؟ أم هو أسقاطا شعريا لحياة البشر الفعلية؟

ومن المؤكد أن " جالب السعادة "، أي معنى كلمة " حابي " الذى أطلقه المصريون القدماء على النيل، كان يحظى منهم بعناية فائقة في ضميرهم المتطور بالا تلوث النهر ، الامر الذى انعكس على معتقدات شعوب المتوسط ، حيث تستطيع أن تشاهده في متحف الفاتيكان مستلقيا وحولة الستة عشر وسوبك وايزيس ، الستة عشر الذين يشيعون السعادة عندما يفيض النهر ويرتفع ستة عشر ذراعا كي تتمكن إيزيس من نشر قطع جسم أوزيريس كي تعم الخضرة والنماء في حماية سوبك "الاله المرتبط بتماسيح النيل ، ويمثّل صورياً إما في شكل التمساح أو في شكل إنسان برأس التمساح، الاله المرتبط بالخصوبة والبراعة العسكرية والوقاية ضد الأخطار بصفات طاردة للشر، وبالذات التي يمثلها النيل بفيضانه .

فهل يأتي الستة عشر من الهضبة الاستوائية ومن المرتفعات الاثيوبية بعد بناء سد النهضة؟ وهل المخاوف التي يعبر عنها قطاع هام من الرأي العام تعبر حقا وفعلا عن حجم من الخطر يمثل حد المأساة أم لا؟

فما الذي يقدمه لنا رشدي سعيد في كتابة البديع، المنشور في نهاية القرن الماضي، كي نفهم؟

فنهر النيل عند الخرطوم يتشكل من التقاء النيلين الأزرق النابع من الهضبة الاثيوبية والابيض النابع من الهضبة الاستوائية والاثيوبية ثم يضاف إليهم نهر عطبرة شمال الخرطوم.

فأين سيقام سد النهضة؟ سيقام على الفرع الرئيسي للنيل الأزرق عند التقاء الحدود السودانية الاثيوبية، ولكن هذا النيل يلتقي مع رافدين أخرين داخل الأراضي السودانية والنابعين من الهضبة الاثيوبية كذلك،

هما الرهد والدندر، كي يصل كامل تصريفه عند الخرطوم الى 50 مليارا من المياه من التصريف الكلى للنهر عند أسوان والبالغ 84 مليارا من المياه (دون اعتبار الاستهلاك عبر المسار).

أي أن سد النهضة سيتحكم في مقدار من المياه يقل عن 50 مليارا بعد الاخذ في الاعتبار الرهد والدندر برغم انهما نهرين موسميين وكمية مياههما صغيرة قياسا على النيل لازرق، لكن هذه الكمية من المياه لابد من إمرارها عبر السد لتوليد الكهرباء والا فقد السد الهدف الرئيسي من بنائه.

فما هو التوصيف الدقيق لمخاطر سد النهضة؟ نعم هناك مخاطر، ولكنها ستوجد فقط في حالة تتابع سنوات من الايراد المنخفض للنهر، ولكن وجود السد العالي وبحيرته سيخففان كثيرا من الاثار السلبية.

ويبقى أن على الراي العام إدراك الضرورة الحتمية لترشيد وتطوير الاستفادة من نهر النيل، بترشيد استخدام المياه وتطوير أساليب الري وإعادة استخدام مياه الصرف الزراعي والمنزلي ثم تدعيم التعاون مع دول النهر لتنفيذ مشاريع أعالي النيل لتقليل الفاقد بحيث يستفيد منها الجميع.

أن ترشيد استخدام المياه ليس قضية فنية او اقتصادية، بل هي قضية اجتماعية كبرى لها جوانب متعددة وانعكاسات سياسية عميقة وهى الامل المنشود فى التوسع الزراعى ، ووسائل الترشيد معروفة ومكتوبة سواء في كتاب رشدي سعيد أم في غيرها من الكتابات، فهل نستطيع؟

فلا يفتى ومالك في المدينة، اليس كذلك؟

تحية الى ذكرى الأستاذ الكبير الدكتور رشدي سعيد.

سد النهضة والشعبوية

في نقاش سابق حول سد النهضة الأثيوبي تلقيت العديد من الملاحظات والاستفسارات حول الكثير من القضايا موضع النقاش داخل الرأي العام المصري تغذية تصريحات بعض صغار المسؤولين الأثيوبيين واصرار الحكومة الاثيوبية الاحمق على الانفراد بالقرارات فيما يتعلق بملىء سد النهضة وأدارته بعدها ، ولا يتوقف الامر عند هذا بل تتم تغذيته من اخوان الشياطين سواء بشكل مباشر عبر محطاتهم التليفزيونية بتركيا أم غير مباشر عبر مواقع التواصل الاجتماعي ، والمؤسف أن القلق المشروع قاد الكثيرون الى الوقوع فريسة لنظرية المؤامرة دون التريث وبحث الواقع على الارض من واقع البيانات وبالنظر الى الاوضاع الكلية في منطقتنا ومسار الصراع داخلها وحولها ، ولذلك سأتوقف عند بعضها.

هل احد اهداف بناء السد هو بيع المياه لمصر والسودان؟

للإجابة على السؤال لابد من التعرف السياسات الاثيوبية لتوليد الطاقة والمطبقة منذ سنوات طويلة.

فالسياسة الاثيوبية كانت تتبنى سياسة بناء السدود على انهارها المتعددة بأحجام تتفاوت وجميعها ليست كبيرة الحجم نسبيا، ولكنها في العقد الاخير بدأت في بناء سدود كبيرة وبالذات على نهر أومو الذي يصب في كينيا وهو ما سبب مشاكل لكينيا واختتمت السدود الكبيرة بسد النهضة وهو اكبرهم.

وإذا توقفنا عند سد النهضة الذى يبنى على النهاية الاثيوبية للنيل الازرق حيث تتجمع كل موارد المياه التي تصب فيه من الانهار المتعددة المغذية له.

فموارد النيل الازرق الاساسية لا تأتى من منبعه في بحيرة تانا المسؤولة فقط عن 7% منها، بل من هذه الانهار الاصغر حجما.

ونتيجة للطبيعة الجغرافية للهضبة الاثيوبية (انظر الخريطة) فان النيل الازرق يتهادى بين الجبال حيث يمكن ان يمر، فيتجه جنوبا ثم شرقا ثم جنوبا ثم غربا ثم شمالا مخترقا الحدود السودانية متغذي من موارد الانهار الاخرى.

ومعظم هذه الانهار المغذية بنى عليها محطات توليد للطاقة بما فيها مخرج النيل الازرق من بحيرة تانا ولكنها جميعا ذات قدرات غير كبيرة في تخزين المياه وفى توليد الطاقة واكبرهم سد بحيرة تانا الذي يولد 460 ميجا وات.

ومياه النيل الازرق والانهار المغذية له هي مياه موسمية في الموسم المطير فقط الذي يمتد 4 او 5 اشهر فقط خلال العام في شهور الصيف.

ولأيمكن تخزين هذه المياه لأسباب متعددة، منها ضرورة السماح لها بالسريان لتوليد الكهرباء ولتجنب حدوث الغرق للأراضي المجاورة للأنهار او لعدم توفر طبوغرافية ارضية تسمح بتكوين بحيرات اصطناعية، وهو ما ينطبق على سد النهضة بطاقة تخزينه الكبيرة، فبعد امتلاء بحيرته الصناعية ، لابديل عن السماح للزائد بالمرور حتى ولو تجاوزت قدرات التوليد.

فكيف بالله عليكم تستطيع اثيوبيا بيع المياه وهي مجبرة على السماح لها بالمرور؟ الا إذا كان ممكنا تعبئتها في زجاجات بعد سد النهضة !!

هل لسد النهضة تأثير على حصتي مصر والسودان؟

نعم له تأثير، ولعلنا نحتاج اولا لفهم كيف تعمل السدود.

فالسدود، أي سدود، تتحدد طاقتها بارتفاع المياه خلفها وليست بكميتها، فكلما زاد ارتفاع المياه زادت قدرتها، فيمكن توليد طاقة كبيرة من طاقة تخزين صغيرة اذا كان ارتفاع المياه كبيرا.، ولكن كمية المياه تحدد ديمومة هذه القدرة، ولكن كمية المياه، عند استهداف قدرة معينة ، تعتمد على الطبيعة الجغرافية لمنطقة التخزين.

ولذلك فكلما ارتفع جسم السد زادت قدرته وهو ما حدث مع سد النهضة، ونتيجة للطبيعة الجغرافية زادت كميات المياه المخزنة.

ولكن نتيجة للطبيعة الموسمية لموارد النيل الازرق فان تشغيله لا يمكن له الحفاظ على اعلى قدرة تصميمية لان مستوى المياه سينخفض فى الموسم الغير مطير ويصبح الامر رهن بالتوافق بين القدرة الانتاجية والديمومة على مدار العام ولذلك يمكن التأثير على ما يمر وبالذات خلال اعوام القليلة الايراد.

واذا كانت هذا هو الوضع المتوقع خلال التشغيل بعد امتلاء بحيرته فان عملية الملىء ستشكل مصاعب اضافية، فلكل سد ارتفاع ميت، أي مستوى تخزين المياه حتى مستوى ما قبل مدخل التوربينات وهى مياه لا يمكن استعادتها، وبرغم ذلك فان عملية التخزين الاولى كان تأثيرها معدوما لان الموارد الموسمية كانت كبيرة الى مستوى ان المياه الزائدة مرت الى مفيض توشكي للحفاظ على سلامة السد العالي وتم أجراء تنظيف لمجرى النيل بفتحة الى البحر الابيض في رشيد ودمياط.

ولكن استمرار عمليات الملىء بدون الاتفاق بين الدول الثلاث المتشاركة قد يؤثر على موارد مياه مصر والسودان في السنوات قليلة الايراد.

ويجب ملاحظة انه يمكن ان تتكرر عمليات الملىء خلال سنوات التشغيل العادية إذا تكرر نقصان موارد النيل لعدة سنوات وهو ما حدث كثيرا في السابق.

وسيكون تأثير نقص الحصة على السودان أكبر نتيجة لمحدودية قدرتها على التخزين اما مصر فيمكن تعويض جانب كبير عن طريق بحيرة السد ولسنوات تتحدد بمستوى موارد النيل وعمليات الملىء.

يبقى ان اشير الى ان المياه القادمة من اثيوبيا الى نهر النيل ليست فقط عبر النيل الازرق، فنهر عطبرة يصب في عطبرة شمال الخرطوم ويشكل إيراده حوالي 8% ويوجد علية سد في اثيوبيا يولد 300 ميجاوات، ونهر السوباط يصب في النيل الابيض وهو المسؤول عن تسمية النيل بالأبيض نتيجة لغرينه الابيض اللون.

هل لسد النهضة تأثيرات اخرى على مصر والسودان؟

نعم له تأثيرات بعضها إيجابي ومعظمها سلبي.

فالإيجابي منها هو تقليل تأثير الفيضانات العالية على السودان الذي لا تتوفر له طاقات تخزين كبيرة، اما مصر فلا تأثير إيجابي لان لديها طاقة تخزين كبيرة وامكانية فتح المخرجين الى البحر او استخدام مفيض توشكي.

أما الخطر الكامن بانهيار السد نتيجة لسوء التصميم ام لطبيعة الارض التي اقيم عليها وبرغم انه لا يمكن الجذم بمثل هذه الافتراضات فإنها ستكون كارثة كبرى على السودان، ولكن يمكن لمصر التغلب عليها بتوسيع مدخل مفيض توشكي وهي عملية محدودة التكاليف نسبيا.

اما عن توليد الكهرباء من السدود فمن المؤكد ان تتأثر كمية الكهرباء المولدة من المحطات الكهرومائية وسيكون التأثير محدودا في مصر نتيجة لصغر القدرة الكلية للسد العالي مقارنة بالقدرة الكلية العاملة،

اما في السودان فسيكون التأثير أكبر وهى ظاهرة ستكون مرتبطة بسنوات الايراد القليل للنهر وبخطة اعادة المليء واختيارات التشغيل.

من الذي يمول السد؟

كثير من الاقاويل حول من يمول السد، ولكن المعلومات الموثقة تتحدث عن تمويل ذاتي أثيوبي لجزء كبير من الكلفة عن طريق اصدار سندات محلية ودولية واجبار البنوك المحلية على التمويل، ولم أجد معلومات يمكن الوثوق بها ما عدا قرض قيمته 1.8 مليار دولار من الصين الشعبية لتمويل شراء التوربينات او لتمويل بناء شبكات التوزيع وقد تم الغاء القرض الأمريكي بقيمة 138 مليونا في عهد ترامب.

ولابد من ملاحظة انى اتحدث هنا عن تمويل السد ولا اتحدث عن الاستثمار في اثيوبيا، فالاستثمار في اثيوبيا تقوم به العديد من البلدان والكثير منة سابق على مشروع السد، وتقوم به رؤوس اموال اجنبية وعربية ومن ضمنها رؤوس اموال مصرية.

هل يمكن القيام بعمل عسكري؟

تتوفر الان القدرات العسكرية التي تمكن من القيام بعمل عسكري بعد التطوير الواسع النطاق الذى تم ويتم في القدرات القتالية للقوات المسلحة وخصوصا بتوفر الطائرات العسكرية المتقدمة وحاملات الطائرات والطائرات الهيلوكوبتر الجديدة ، ولكن العمل العسكري يجب ان يكون الخيار الاخير وبعد التأكد من حجم الاضرار الممكنة على السودان ومصر وبعد استنزاف كل وسائل الضغط الدولية ، فالعمل العسكري هو حل مؤقت وغير دائم ويجب أن يخضع للاعتبارات الهندسية والفنية والاهداف السياسية النهائية ، فالهدف النهائي هو الوصول لاتفاق يراعى مصالح كافة الاطراف بالحد الادنى من الاضرار وبما يفتح الطريق لتعاون اوسع.

الخلاصة

لم أستطع أن أجد مؤامرة كونية على مصر او السودان، بل الامر هو اختلاف الرؤى بين اثيوبيا وبلدي المصب، اختلاف مدعوم بالديماغوجية الشعبوية الاثيوبية وأن اختلافات الرؤى يمكن التغلب عليها بسهولة لو صدقت النوايا.

الاخوان المسلمين بين الدعوة والسياسة

لقد تابعت على مدار الأيام الماضية ستة عشرة حلقة مع أحد القيادات التاريخية للإخوان المسلمين، هو الأستاذ فريد عبد الخالق عضو الهيئة التأسيسية الأولى وعضو مكتب الارشاد سابقا، وهو في السابعة والثمانين من عمرة المديد الذي وصل الى ثمانية وتسعون حيث توفى عام 2013.

والأستاذ فريد لم يكن عضوا في الجهاز الخاص، بل كان عضوا في الجهاز العام، والغريب ان الأستاذ فريد عاجز تماما عن أدراك الدور السياسي الرجعى للإخوان المسلمون عبر تاريخها الطويل المعادي للمصالح التاريخية للشعب المصري.

وحديث الأستاذ فريد يخلو من النظرة النقدية لدور حسن البنا، الصانع الأساسي للإخوان المسلمين وسياستهم، وهي نظرة تعم داخل كل التيارات الإخوانية الحالية، حيث يوضع فوق النقد، الامر الذي يؤكد ان هذه التيارات لا تمتلك رؤية مختلفة مهما دارت الصراعات بينها، صراع لم يتوقف منذ انتقال البنا الى الرفيق الأعلى والذي بدأ، على خجل، فيما قبل نهاية حياة البنا نفسها بمحاولات الجهاز الخاص الإفلات من رقابة المرشد ، في نفس الوقت الذى كان فيه النظام العام يحتوى على افرادا أكثر اعتدالا، منهم على سبيل المثال ، الشيخ الباقوري والدكتور عبد العزيز كامل ، الوزراء في حكومات عبد الناصر لاحقا.

وبرغم كل ذلك فإن أحاديث الأستاذ فريد تقدم معلومات وتقديرات سياسية تخلو من محاولات تجميل الوجه، رغم أنها، إذا توقفت عندها بنظرة تاريخية منصفة، تشكل إدانة للسلوك السياسي للإخوان منذ التأسيس، الامر الذي تكرر في السلوك السياسي لكل فصائل الاخوان في زماننا الحديث، الاخوان والوسط ومصر القوية ، كما تقدم احاديثه دعوة للتيارات الإسلامية للحداثة وادراك طبيعة العصر ، لكن هل تبقى دعوته للحداثة لاستيعاب نتائج تطبيق العلم أم تمتد الى مراجعات فكرية وسياسية شاملة لا تتوقف على التوجهات المماثلة للجهاز الخاص التي لا يتفق معها ؟ وهل تكتفى التيارات الإسلامية بالدعوة وتبتعد عن السياسة؟ وهل حقا وفعلا هناك فارق بينهما؟ الكثير من الممكن أن يكتب حول مثل هذه التوجهات وحول مصائرها التاريخية وانعكاساتها السياسية، لكن ليس هنا موقعها في هذا التعليق الصغير .

يبقى أخيرا الإشارة الى اقتناعي بصدق شهادته والى تعاطفي الإنساني معه لما تعرض له من تعذيب وفترات اعتقال طويلة لا إنسانية، خصوصا إذا علمنا أنه لم يكن أبدا عضوا في الجهاز الخاص الذى أرتكب أعمال عنف وقتل يندى لها ضمير الإنسانية، العنف الذى استمر في سلوك كل الفصائل الاخوانية منذ سبعينات القرن الماضي، فلقد انتصر الجهاز الخاص بتبوء ابرز ممثليه لمنصب المرشد العام بعد حسن التلمساني وتجمعوا داخل مجلس الارشاد ، ولا زالت ذكريات سلوكهم داخل التجمعات الجماهيرية واعمال العنف التي قاموا بها منذ ذلك الزمان وانتهازيتهم السياسية ، وحتى سقوطهم الأخير عام 2014 ، ماثلة في الاذهان ، هذا السلوك الذى لم يعتذروا عنه برغم مطالبتهم بالديمقراطية ، كما يفهما الإخواني ، التي لا تستبعد قمع الاخريين بدعاوى دينية او فكرية او حتى سياسية.

كما يجب التفرقة بين قيادات الاخوان، بالذات ممن ورثوا أساليب وتوجهات الجهاز الخاص، وبين الأعضاء القاعديين وجمهورهم العاطف، فالدوافع والتوجهات مختلفة، وبرغم انه لا يجب أبدا التهاون مع توجهاتهم الفكرية والنظرية ولا مع سلوكهم السياسي، لكن لابد من جهد فكرى وسياسي لتحرير هذا الجمهور من تأثيرهم السلبي، جهد لا يجب أن يتوقف عند ذلك، بل يمتد الى محاولة إقامة مجتمع أكثر إنسانية وعدلا.

احا والPiezoelectricity

يا قليل الادب!! كيف تبدأ بهذه الكلمة الخارجة الم يعلمك اهلك الادب؟

ولكن وبمناسبة الولع الحالي بالتاريخ الفرعوني والمومياوات الملكية فتعبير "أحا" هو تعبير فرعوني للدلالة على الاحتجاج وعدم الموافقة، فاحا وألف احا، فانا لست قليل الادب، بل مجرد معترض ومتمرد وعاشق لتاريخنا.

وهذه الاحا وثيقة الارتباط بهؤلاء " المفكرين العظام "!! الذين يأتون بالتفسيرات العميقة!! لتاريخنا وبالأثار البديعة التي تركها لنا جدودنا الفراعنة، فالأهرامات ليست مقابر فرعونية، بل هي وسائل لتجميع الطاقة الناتجة عن حركة الصفائح التكتونية للقشرة الارضية في شكل طاقة هي " البيذو الكتيراكل "، وبالإنجليزية " يا مرسى Plate tectonics " وPiezoelectricity، فيا لها من فخامة علمية معملية فذة!!

ولأنني مجرد سباك ولست مهندسا، وبالإنجليزية Plumer يا مرسى، ولأنني جاهل جهل الإبل ولم اقراء سليم حسن او برستد ولا اعرف شيئا عن الصفائح التكتونية وحركاتها اللعينة او حتى عن البيذو الكتريك لأنني لا اراها يوميا في عملي، فالتفسيرات العلمية المعملية الفذة تخلب الالباب وتجعلك دون ان تدري تتحسس مسدسك كما كان يفعل اللعين جوبلز عندما يسمع كلمة الثقافة.

مصيبة كبرى انتابت العقل المصري ولا تقتصر على الاتجاهات الاسلاموية بل عمت الجميع من الشامي الى المغربي ولا اريد ان أسمي هذا الجميع حتى لا يتجرأ أحد ويجاوبني ب " أحا."

يبقى ان اشير الى ان Plate tectonics و Piezoelectricityهي ظواهر علمية حقيقية والثاني منها له تطبيقات علمية وعملية كثيرة وتم اكتشافها سنة 1880 ومشروحة بشكل كامل على الويكيبديا، ولكن جمعهما معا لتقديم تفسير غير علمي او تاريخي للأهرامات هو مجرد هراء كامل لا يمكن الاجابة عنة الا ب " أحا " المصرية الحالية وايضا ب "أحا" الفرعونية.

كيف يعمل .... الشعب المصري

عنوانا يبدو غريبا، فلقد سبق أن كتبت سلسلة من المقالات عن كيف تعمل الرأسمالية المصرية، وآن الأوان أن اتحدث عن هذا المجهول الذي تتغنى به الأناشيد، الشعب المصري.

فكيف يعمل الشعب المصري؟ هذا الصبور الضاحك الساخر الباكي، الذي يسخر حتى من نفسه، سخرية عميقه ذات دلالات أعمق، إن كنتم تفقهون!

ولكن هذا الضاحك الباكي يدفع بممثليه في الأوقات الصعبة وفى الملمات كي يعبروا عنة اعمق تعبير ، فحسن طوبار زعيم الصيادين في المنزلة لا يبخل بالغالي والرخيص قيادة ودعما لمقاومة الاحتلال الفرنسي وينفى خارج البلاد ، ومصطفى البشتيلى يقود ثورة القاهرة وتقتله الدهماء بتحريض من ساري

عسكر الفرنسيس ، ومحمد عبيد ينقذ الزعماء من سكنات قصر النيل ويرفض الانسحاب ويستشهد فى التل الكبير ، وعبد الله النديم ، الادباتى ، يقود الشعب في ثورة 1882 ولا تستطيع قوات الاحتلال القبض علية إلا بعد تسع سنوات كاملة وبوشاية غادرة ويعود من المنفى متكلما ومؤدبا للصغار فينفى من جديد ولا يسكت ، فيصدر المسامير في هجاء الصدر الأعظم ولا يقتله الا المرض ، ومازال ينتظر أن يعود الى أرض الوطن ولكنة لا يغيب عن الذاكرة الجمعية ، وعبد الحكم رفع العلم سنة 1935 ، الذى أسقطه عبد المجيد مرسى عندما تلقى الرصاصات الغادرة ، وسيعودون من جديد للنصب التذكاري لشهداء الطلبة أمام جامعة القاهرة، والفلاح محمد مندور لا ينسى أصلة وشعبه فيذهب ممثلا لهم لدى حزب الوفد ويدخل برلمان 1950 مدافعا عنهم وبهم ممثلا للديمقراطية الثورية ، وجواد على حسنى الشاب الصغير ووحيد ابويه يذهب مقاتلا زبانية جهنم سنة 1956، وعبد العاطي صائد الدبابات سنة 1973 ، يدمرها من حفرته البرميلية وسبعون طنا من الحديد المدرع تتقدم نحوه بمدفعها من عيار 105 مم ويصبر صبرا شجاعا وجميلا ، يفوق صبر أيوب ، ليدمرها بصاروخه القصير المدى ، عقد فريد لا يتوقف معبرا عن هذا الضاحك الباكي ومسلما الراية " لعيال 2011" الذين ضربوا المثل والمثال ، فكيف لك أن تنسى هذا الوجه المبتسم للصعيدية سالي زهران وحيدة ابويها، والحبل على الجرار.

نحن لا ننسى وبكرة الاتي أت، مادامت مصر ولادة وفيها الطلق والعادة!

رأسمالية الدولة

بين الدولة الوطنية والدولة التابعة

ظاهرة عالمية تنتشر من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ولم تترك مجتمعا الا وكانت ظاهرة وأحيانا قائدة فيه، انها رأسمالية الدولة.

تظهر بشكل أكثر وضوحا في البلدان التي تتطور بشكل سريع، فقيمة اسهم شركات الدولة في البورصة الصينية تبلغ 80% من حجمها وفى روسيا 62% والبرازيل 38%، أما في البلدان الرأسمالية المتقدمة فتتراوح ملكية الدولة من 25 الى 30 % من ملكية الشركات الصناعية.

ظاهرة تستحق التوقف عندها طويلا وكثيرا، ولكن الأكثر أهمية، الان، التوقف حول هذه الظاهرة في البلدان النامية، ومنها بلادنا، لأهميتها البالغة في النمو الاقتصادي والاستقلال الوطني وتحسين توزيع الدخل.

فاذا كانت رأسمالية الدولة قد انتشرت في البلدان النامية في اعقاب الاستقلال وسط ظروف احتدام الصراع العالمي بين المعسكرين ، الامر الذى هيئ مناخا مناسبا لطموح الطبقات الاجتماعية الجديدة التي شكلتها سلطة الدولة الوطنية الجديدة، لكى تكون اكثر طموحا لتحقيق درجة أعلى من الاستقلال الاقتصادي و السياسي عن القوى الاستعمارية القديمة ، هذا النهوض الذى يتطلب زيادة الانفاق على التعليم والصحة والبنية الأساسية والتعديل الجزيء لتوزيع الدخل القومي لتوسيع السوق الداخلي ،

وكلها ضرورات اقتصادية واجتماعية بدونها لا يمكن تحقيق الطموحات الاقتصادية لهذه الطبقات ، الامر الذى اسفر عن تدعيم التايد الشعبي لهذه الأنظمة بدرجات متفاوتة ، لكنة في نفس الوقت مكن الطبقات الاجتماعية الجديدة من الانفراد بالسلطة وقمع الحركة السياسية المستقلة للطبقات الشعبية ، بحيث أصبحت هذه البلدان أقل قدرة على الصمود في مواجهة القوى الاستعمارية التي انتقلت اشكال استغلالها من الاحتلال العسكري المباشر الى تمتين الارتباط الاقتصادي والسياسي مع البلدان المتحررة حديثا ، وإن كان الامر قد يستدعى التدخل العسكري المباشر ،عندما تقتضى الضرورة ذلك ، حتى ولو كان ذلك لفترة محدودة المدة.

لقد انهارت هذه المحاولات تحت ضغط القوى الرأسمالية العالمية سواء بالتدخل العسكري المباشر وبالضغوط الاقتصادية أم بالانقلابات العسكرية الداخلية، لكن رأسمالية الدولة لم تنقرض في العديد من البلدان النامية بأشكال مختلفة ولم تعد مرتبطة بالسياسات القديمة بالضرورة، بطموح مختلف عن سياسات محاولات تدعيم الاستقلال ورفض سياسات التحالفات العسكرية والحياد بين المعسكرين ومواجهة النفوذ الاستعماري المباشر ام غير المباشر.

لقد أصبح لدينا بانوراما كاملة من رأسماليات الدولة في البلدان النامية، بعضها تم أدامجها كشريك صغير بالسوق العالمية والبعض الاخر تم اسقاط قياداتها المنتخبة التي كانت أكثر طموحا وتحاول تحقيق درجات اعلى من الاستقلال الاقتصادي والسياسي، الامر الشديد الوضوح في تجارب أمريكا اللاتينية، والبعض الاخر ما زال يحقق إنجازات اقتصادية وسياسية واضحة .

لقد تغيرت الظروف الدولية السياسية والاقتصادية وحتى الظروف الداخلية ولم تصبح رأسمالية الدولة قرينا لحزمة كاملة من السياسات، بل أصبحت قرينة للظروف الخاصة لكل بلد، وأصبح الامر أما الاندماج مع السوق العالمية أو مواجهة اشكال مختلفة من الضغوط، لان وجود ونمو رأسمالية الدولة المستقلة يشكل تناقضا موضوعيا مع مصالح الرأسمالية العالمية.

ولعل من الواجب الإشارة الى أن رأسمالية الدولة لا تعنى بالضرورة وجود الطبقة الاجتماعية الانتقالية التي أطلق عليها الرأسمالية البيروقراطية، فرأسمالية الدولة لا يحدد طبيعتها الاجتماعية شكل الملكية، بل طبيعة النظام السياسي، أي كيف تدار هذه الملكية ولمصلحة من، فرأسمالية الدولة احتياج موضوعي للبلدان المتخلفة في زماننا هذا، لاعتبارات متعددة سياسية واقتصادية ودولية، ومن الممكن أن تديرها سلطة شعبية حقيقة تحضيرا لزمن قادم!

ولعلة من الواجب التوقف قليلا على ما كتبته المجلة الاقتصادية البريطانية الشهيرة، الإيكونيميست سنة 2012، التي تمثل الموقف التقليدي للرأسمالية العالمية من الرأسماليات الناشئة في البلدان النامية:

"بالنسبة للبلدان الناشئة التي ترغب في ترك بصمتها على العالم ، فإن رأسمالية الدولة تتمتع بجاذبية واضحة. إنه يمنحهم النفوذ الذي ستستغرقه شركات القطاع الخاص سنوات لبناءة لكن مخاطرها تفوق مزاياها. من أجل مصلحتهم الخاصة، ولصالح التجارة العالمية، يحتاج ممارسو رأسمالية الدولة إلى البدء

في تفكيك ممتلكاتهم الضخمة في الشركات المفضلة وتسليمها إلى المستثمرين من القطاع الخاص، إذا كانت هذه الشركات جيدة كما تفتخر، فهي لم تعد بحاجة إلى عكاز دعم الدولة."

وتبدو مثل هذه الدعوة بريئة تماما وتتبنى منطقا يدعو للرشادة وحسن الإدارة وإن كانت تتحجج بصالح التجارة العالمية، الامر الذي فضح الامر كله، فالقطاع الخاص في هذه البلدان قد تغيير كثيرا عن السابق، ولعل مثال تطور الرأسمالية الخاصة المصرية يقدم لنا مثالا واضحا، فرأسمالية طلعت حرب التي نشأت في مواجهة النفوذ الأجنبي هي ليست بالقطع الرأسمالية المصرية الخاصة الحالية التي اندمجت بعض من فئاتها مع الرأسمالية العالمية وأصبحت جزءا منها.

فدعوة الإيكونيميست لا تعنى الا امرا واحدا، التحق بنا تابعا ومندمجا لأنك الأصغر والاضعف والاقل تطورا ويكفيك ما فعلته!، وهى نفس الدعوات التي تتبناها المؤسسات الاقتصادية الدولية مثل البنك وصندوق النقد الدوليين.

ولعلنا نستطيع أن نلخص الامر بالتساؤل الأساسي

"رأسمالية الدولة الوطنية أم رأسمالية الدولة التابعة"

المعضلة التاريخية

بالقطع هي معضلة تاريخية، معضلة تحقيق النهضة في بلادنا، فلو تأملنا تاريخنا الحديث لو جدنا ارتباطا وثيقا بين محاولات النهضة والتطور الفكري والثقافي، فرفاعة الطهطاوي وتلامذته لم يأتوا من فراغ، بل انبثقوا خلال محاولة النهضة الأولى في عهد محمد على، رغم ما شاب هذه المحاولة من قصور في الرؤيا وفى الموقف الاجتماعي بل وفى الأهداف السياسية العثمانية الطابع ، وتبدو كلمة قصور في الرؤيا كما لو كانت حكما أخلاقيا على تجربة محمد على ، فما يسمى بالقصور في الرؤيا هو في حقيقته انعكاسا للأوضاع الطبقية والاجتماعية السائدة ، برغم التغييرات التي أدخلها محمد على والتي كانت اللبنات الأولى في خلق واقع اجتماعي جديد ، وبهزيمة هذه المحاولة ، بضغوط استعمارية سياسية وعسكرية ، ينفى رفاعه الطهطاوي الى السودان ولا يعود إلا بانتهاء عصر الهزيمة الكاملة والبدء الخجول للتغيير في عهد سعيد .

ولا يمكن اختصار بداية انبعاث الشعر المصري على أيدي محمود سامي البارودي في توفر الطباعة الحديثة التي مكنته من الاطلاع على الشعر العربي القديم، كما لا يمكن الحديث عن بداية الموسيقى المصرية الحديثة على أيدى محمد عثمان على عبقرياتهم الفردية ، رغم إقرارنا بها ، بل هما جزءا من محاولة جديدة للنهضة في عهد إسماعيل ، عهد بداية الوطنية المصرية الحديثة والاشتراك الشعبي المصري المباشر في الدفاع عن الوطن والبحث عن العدل الاجتماعي ، عهد بداية الديمقراطية الثورية المصرية على أيدى عبد الله النديم ، ممثل الشعب في ما سمى " هوجة عرابي" ، الهوجة التي تعبر عن واقع اجتماعي جديد تشكل عبر مرحلتي حكم سعيد وإسماعيل ، وبرغم الهزيمة ولان هذا الواقع الجديد

لم يكتمل تطوره ، لذلك نجد اختلاطا في المفاهيم والرؤى السياسية تجد التعبير عنها في توجهات سياسية وثقافية مختلفة ، فمن جمعية الانتقام التي ساهم فيها سعد زغلول سنة 1883 وحبس من اجل ذلك ، الى بدايات تشكل تيار سيأسى جديد يجمع بين تيار الوطنية المصري والتوجهات العثمانية في ما تحول بعد ذلك الى الحزب الوطني الذى يتخلص من أوهامه العثمانية في نهاية عمر مصطفى كامل القصير ثم تولى محمد فريد مهمة القيادة ، وظهور حزب الامة مشكلا التعبير السياسي عن " أصحاب البيوتات "، أي عن مصالح كبار الملاك.

فترة شهدت ترسخ الوطنية المصرية وظهور الأفكار الاجتماعية والثقافية الحديثة، فيظهر قاسم أمين وحافظ وشوقي وعبد الرحمن شكري واحمد لطفي السيد ومحمد عبده، ويتدعم تيار سياسي كانت بداياته الخجولة في " الهوجة العرابية "، تيار الليبرالية المصرية، في نفس الوقت الذي تظهر فيه التوجهات السياسية والاجتماعية الاشتراكية للمرة الأولى.

وبانفجار ثورة 1919 يفتح الباب واسعا امام التعبيرات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي كانت تتشكل في بطون التغيير الاجتماعي البطيء ، فيظهر " الإسلام واصول الحكم " لعلى عبد الرازق و" في الشعر الجاهلي " لطه حسين ، ويتعاظم دور سلامه موسى ، وتترسخ الموسيقى المصرية الحديثة على أيدى سيد درويش ، ويتم وللمرة الأولى تأسيس بنك مصري ، بنك مصر ، على أيدى طلعت حرب الذى كان يحلم به منذ بدايات القرن العشرون ، وتتشكل أحزابا سياسية جديدة تعبر عن المصالح الاجتماعية والطبقية التي ترسخت ، حزب الوفد وحزب الاحرار الدستوريين ويستمر الحزب الوطني بعد تخلصه من العثمانية ، ويظهر الحزب الاشتراكي الذى تحول الى حزب شيوعي ويتشكل للمرة الأولى اتحاد عام للنقابات العمالية.

وبهزيمة الثورة، هزيمة كانت تعبر عن الواقع الاجتماعي التي كانت تمثله، رغم المشاركة الشعبية الكبيرة، مثلها مثل هزيمة " هوجة عرابي "، يتشكل أول أحزاب التيار السياسي الإسلامي، الاخوان المسلمين ، معبرا عن التوجه الى الخلف ، مثلة مثل الأفكار العثمانية التي انتشرت عقب هزيمة الهوجة العرابية ، كما ليست صدفة تشكل تيار الديمقراطية الثورية الحديثة والمنظمات الشيوعية ونقابات العمال ، وظهور الشعر المصري والفن القصصي والمسرحي والنقد الحديثة ، بظهور توفيق الحكيم ومحمد مندور ونجيب محفوظ وجماعة ابولو والسينما المصرية في ثلاثينيات و اربعينات القرن الماضي.

ولو تتبعنا التطور الاجتماعي بعد ذلك سنجد هذا الترابط الواضح بين المصالح الطبقية وبين تعبيراتها السياسية مع تطور الأفكار الاجتماعية والثقافية والفنية الى زماننا الحالي، فليس صدفة ان تتلقى بعض التوجهات الفنية المعاصرة التأييد والتدعيم من فئات اجتماعية كانت تؤسس استديو مصر وتقوم الان بتدعيم حمو بيكا وامثاله.

قرنان من الزمان مرا وما زال الحلم يختمر وما زلنا نحاول، والمؤسف ان كثيرا ما تكون المحاولة الجديدة من مستوى أكثر انخفاضا واشد صعوبة لتراكم نتائج واقع اشد تخلفا على صعيد الأفكار والقيم الاجتماعية، أنظر حولك وبين أصدقائك لتكتشف الحقيقة المفجعة، لتكتشف كذلك ان تمرد جيلنا

كان يفتقد لبعض من الحكمة والروية، والكارثة الحقيقية أن هذا التمرد الذي كان إيجابيا في الكثير من جوانبه، خصوصا في اقترابه من حقيقة فهم جدل التغيير، أي في منهجه، قد تأكل هو أيضا فغاب المنهج ولم يبق الا الصياح الغير منتج، والمهمة الثقيلة الان هي بالضبط انبعاث هذا المنهج من جديد بتطبيقه مهما افتقدت النتائج من دقة ، فالمنهج كفيل بتصحيح النتائج واختبارها ، فلا أحد يأتيه وحى من السماء.

فهل تدركون أيها الجدود المسؤولية الجسيمة التي تطوق أعناقكم؟ ليس فقط على صعيد تطور الثقافة، بل على صعيد مواجهة المعضلة التاريخية الكبيرة التي تؤثر على كافة جوانب حياتنا بما فيها الثقافة ومستقبلها، أنها معضلة النهضة منذ المحاولات الأولى منذ قرنين من الزمان والتي بقي منها جهود جدودنا وأباؤنا، وهل يدرك الشباب المهمة الثقيلة التي تنتظرهم، فقليل من التواضع وكثيرا من الجدية لعلنا نترك شيئا للقادم من بعدنا.

هل يعود محمد مندور من جبل الاولمب؟

جواد الشعر!

"إن موسيقى الشعر ليست هدهدة للقارئ فحسب، بل هي أحيانا كثيرة أداة للتعبير عما يعجز اللفظ أحيانا عن استخراجه من باطن النفس كما أن النغم الموسيقي قد يصبح تعبيرا في ذاته." - محمد مندور

بديعة هي الاساطير اليونانية، فالإلهة يسكنون في جبل الاولمب ولكن يسكنه أيضا البعض من البشر من أصحاب الإنجازات الكبرى، ويمكن للبشر الاستعانة بهم في صراعاتهم، لكن هذه العودة للبشر ترتبط بالاحتياج والاستدعاء، فهل حقا وفعلا نحتاج الى استدعاء سكان الاولمب؟

هل نحتاج الى عودة محمد عثمان وسيد درويش ومحمود سامي البارودي وشوقي وحافظ وسلامة موسى وطه حسين واحمد أمين ومحمد مندور والفريد فرج ونعمان عاشور، هل نحتاج الى عودة عبد الله النديم ومحمد عبيد وعبد المجيد مرسى وعبد الحكم الجراحي وعبد العاطي وحسن طوبار ومصطفى البشتيلى ، والعشرات غيرهم ، بالقطع نحتاج وبشدة ، فالأمر يتجاوز كثيرا حب الابن لأبيه فالأمر جد خطير ، فالوطن يتقدم وينهزم ويتكرر الامر كما لوكان عود على بدء ، فالمهام نفسها تتكرر والصراع الفكري والاجتماعي بل والسياسي مازال يدور حول نفس الأهداف ، فلماذا لا نستدعى مدفعيتنا الثقيلة من جبل الاولمب ؟ وبرغم أدراكي أن الكثير من سكان الأولمب لم يغيبوا عن السفح إلا أن استدعاءهم ليس كاملا، استدعاء يراعى متطلبات العصر واساليبه وزمانه، استدعاء يتجاوز السلفية الفكرية وينظر الى المستقبل مستندا الى أفضل خبرات الماضي وانجازاته، لقد فعلت ذلك وسأفعله الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا، وستكتمل عودة محمد مندور ممتطيا جواد النقد والادب وجواد الروح الوطنية للديمقراطية الثورية.

حول الشعر الحديث...

من كتاب " قضايا جديدة في ادبنا المعاصر"

قرر المجلس الأعلى الفنون والآداب إهداء ميداليات ذهبية وفضية لخير الأدباء والفنانين الذين ساهموا في تعبئة الروح المعنوية لمقاومة العدوان الغاشم على بورسعيد، وخصص بعض هذه الميداليات للشعراء وأحال الأمر على لجنة الشعر التي يرأسها الأستاذ عباس محمود العقاد لفحص القصائد التي قيلت واختيار خيرها لمنح أصحابها الميداليات المقررة.

واجتمعت اللجنة وقدم سكرتيرها الشاعر محمد فوزي العنتيل ما تجمع لديه من تلك القصائد فرأى طائفة كبيرة منها لم تكتب باعتبار البيت وحدة للقصيدة فثارت ثائرته وقال أن هذا ليس شعرا ولا يمكن أن يعتبر شعر من أوله إلى آخره، واقترح بناء على ذلك أن تحال كل هذه القصائد جملة وتفصيلا إلى لجنة النثر التي حارت في أمرها عندما علمت بهذا النبأ، لأنها قد ترى أن ما أحيل إليها ليس نثرا بل شعراء، وعندئذ لا معدي لها عن أحد أمرين فأما أن تعطي نفسها اختصاص لجنة الشعر وتختار من بين ما أحيل إليها من شعر أحسنه وتقرر منحه الجوائز، وأما أن تعود بدورها فتحيل إلى لجنة الشعر من جديد ما أحالته هذه اللجنة إليها، وفي هذا ما فيه من ضياع الوقت والتأخر في إجابة المجلس الأعلى إلى ما طلبه من سرعة تعيين القصائد التي تستحق الجوائز.

ولقد دهشت من هذا القرار الذي أرى فيه نكتة الموسم، ولا أدري كيف وافق أعضاء لجنة الشعر رئيسهم على هذا الرأي، ولا كيف سكت عليه سكرتير اللجنة الأستاذ العنتيل، الذي يعتبر شعره من هذا النوع الجديد الذي أصر الأستاذ العقاد وجارته اللجنة في اعتباره نثرا غير داخل في اختصاصها.

ولما كان قد سبق لي أن قدمت إلى القراء ديوان الأستاذ العنتيل سكرتير اللجنة باعتباره شعرا وهو ديوان "عبير الأرض" فقد رأيت أن أعود إلى تحقيق الأمر لعلي كنت واهما. وتناولت الديوان وفتحته كيفما اتفق وقرأت فقرة من قصيدة "عبير الأرض" "ص16" وهي:

فهذه الأرض.. أرضي، بأفقها المترامي

حقولها.. من أديمي

وفأسها.. من عظامي

ونيلها حين يجري، أشواقه من غمامي

فكل قطرة نور.. وشحتها بابتسامي

ورحت أنظر في هذه الأسطر التي لم تطبع على النحو التقليدي باعتبار البيت وحدة القصيدة، وكل بيت من مصراعين. وفي القصيدة قافية موحدة لا تبين هلا تزال هذه الأسطر شعرا بالرغم من طريقة التقطيع التي كتبت بها أم لا. وسرعان ما تبينت أن هذه القصيدة موزونة وزنا موسيقيا كاملا، وأنها من بحر عربي عريق هو البحر المجتث:

مستفعلن فاعلاتن ----------------مستفعلن فاعلاتن

ومن السهل بعد ذلك أن يتبين القارئ أن الأسطر السابقة تكون أربعة أبيات من بحر المجتث وأن الأسطر الأول والرابع والخامس يكون كل منها بيتا، بينما السطران الثالث والرابع كل منهما شطرة من بيت وأن الأبيات الأربعة متحدة في القافية والروي.

وهكذا يتضح أنني لم أكن واهما، ولا كان العنتيل واهما عندما قدمنا ديوان "عبير الأرض" - الذي اقتبست منه الأسطر السابقة - إلى الجمهور على أنه شعر.

وإنني وإن كنت لم أطلع على ما أحالته لجنة الشعر برياسة الأستاذ العقاد إلى لجنة النثر من قصائد أو ما يسميه الشبان قصائد ويشوقني أن أطلع عليها، إلا أنني مع ذلك قد علمت من شاعر موظف بالمجلس اطلع على هذه القصائد أنها قد أحيلت كلها على لجنة النثر لا لشيء إلا لأنها من الشعر الذي نسميه الآن جديدا، وهو شعر لا يسلم له الأستاذ العقاد بحقه في أن يعد شعرا، وأن اللجنة لم تكلف نفسها عناء النظر فيه وتبين ما إذا كانت فيه الموسيقى التي بدونها لا يجوز أن يسمى شعرا، ويحق أن يحال إلى لجنة النثر، وأنا بعد لا أنكر أن بعض ما يكتبه الشبان في هذه الأيام بطريقة التقطيع الجديدة قد يكون مهشم الموسيقى أو فاقدها إطلاقا، وقد يكون غثا لا قيمة له كشعر أو نثر، كما لا أنكر أن بعض الغرور والاستهتار والتساهل في قداسة الفن وعسره ربما يكون قد تطرق إلى نفوس بعض الشبان الذين يجب أن يردوا إلى رشدهم وأن يحملوا على ضرورة احترام محراب الفن المقدس وعدم التهجم عليه، ولكنني مع ذلك لا أستطيع إلا أن أضحك من ذلك الرأي الذي يزعم أن جميع شعر شبابنا الجدد حتى الجادين والموهوبين منهم لا يعتبر شعرا بل يجب أن يحال كله إلى لجنة النثر، وأرى في هذا أنه حقا نكتة الموسم.

جماعة أبوللو وشعر الوجدان

كان الشعر العربي القديم في الجاهلية والعصر الأموي يستمد مادته من الحياة مباشرة ولذلك نعتقد أنه خير ما خلف العرب من شعر، ولكن التقليد لم يلبث أن طغى على الشعر في العصر العباسي وأصبح الشعراء لا يستقون مادتهم من الحياة كما كان يفعل القدماء، بل يستقونها من ذاكرتهم ومحفوظاتهم حتى تحجرت فنون الشعر ومعانيه، وأصبح لكل فن شعري معانيه التقليدية المتحجرة، وسجلت كتب الأدب تلك المعاني فنراها تذكر أن المدح يكون بكذا وكذا مثل الشجاعة والكرم وشرف النسب والغزل يكون بكذا وكذا مثل ضمور الخصر وعبالة الساقين وثقل الأرداف وما إليها، والشعراء إنما يتفاوتون في المهارة في التعبير عن كل من هذه المعاني ، فهذا الشاعر يبز الآخرين في التعبير عن الكرم لأنه قال إن الممدوح يتهلل عند لقاء السائل وكأنه سينال منه شيئا مع أنه سيعطيه، أو لأنه وصل من الكرم إلى الجود بالنفس إذا ضن البخيل بها. وأمثال ذلك كثير حتى رأينا أكبر ناقد عند العرب وهو الآمدي يكتب كتابا في الموازنة بين الطائيين أي بين البحتري وأبي تمام ويقيم هذه الموازنة على أساس المفاضلة بين تعبير الشاعرين عن المعاني الخاصة بكل فن من فنون الشعر كبكاء الديار والنسب والوصف والمدح وما إليها.

تلك كانت الحالة الغالبة على الشعر العربي منذ العصر العباسي، فنحن قلما نستطع أن نستخلص من شعر شاعر شخصيته ووجدانه الخاص، وذلك لأنهم يتناولون في شعرهم المعاني التقليدية التي وصفها

النقاد القدماء أنفسهم بأنها كانت كالأعراض الملقاة في الطرقات، وأنها لا تتميز عند شاعر عن آخر إلا بالثوب الذي يسبغه عليها، فلا علاقة بين الشعر وقائله ولا أصداء لحياته في شعره، وكل ذلك باستثناء نفر قليل من أولئك الشعراء شذوا عما كان يسمى عمود الشعر وطغت شخصياتهم حتى برزت من خلال شعرهم، وهؤلاء هم الذين لفتوا بنوع خاص أنظار الجيل السابق من نقادنا المثقفين ثقافة غربية فرأيناهم يؤثرونهم بالدراسة والنقد ، ومن هؤلاء الشعراء ابن الرومي الذي تناوله الأستاذان العقاد والمازني بدراسات مفصلة على ضوء النقد الحديث ثم أبو العلاء المعري والمتنبي اللذين درسهما وكتب عنهما الكتب الدكتور طه حسين فضلا عن مقالات زملائه عنهما.

والواقع أن ابن الرومي والمتنبي وأبا العلاء من أبرز الشعراء القدماء الذين تظهر شخصياتهم في شعرهم ويبرز وجدانهم الخاص ولكل منهم فلسفة واضحة في الحياة أو على الأقل وجهة نظر متميزة إلى الحياة والأحياء، بل أننا لنلاحظ ما لاحظه بعض القدماء مثل الثعالبي في "يتيمة الدهر" من أن شخصية المتنبي العاتية وكبرياءه المترفع وتساميه بقدره قد طغى على فن شعري تقليدي كفن المدح فوجهه وجهة جديدة، فالمدح عند المتنبي لا يجري على وصف مناقب الممدوح، بل يستحيل إلى غزل أو ما يشبه الغزل بالممدوح. ولعلنا نلاحظ هذه الظاهرة أوضح ما تكون في سيفياته بنوع خاص أي في القصائد التي قالها في سيف الدولة الأمير العربي الشهم الذي كان يحمي ثغور العرب من غارات الروم، بل ويحتفظ المتنبي بلغة الغزل حتى عندما يعاتب سيف الدولة على أثر الجفوة التي اضطرت المتنبي إلى أن يغادر حلب "موجع القلب باكيا" فيقول:

ما لي أكتم حبا قد برى جسدي -----وتدعي حب سيف الدولة الأمم

إن كان يجمعنا حب لغرته------------فليت أنا بقدر الحب نقتسم

يا أعدل الناس إلا في معاملتي------- فيك الخصام وفيك الخصم والحكم

يا من يعز علينا أن نفارقهم--------- وجداننا كل شيء بعدكم عدم

وعندما ظهرت الطباعة الحديثة ودخلت مصر والبلاد العربية في أعقاب الحملة الفرنسية وأخذنا نطبع كتب الأدب القديمة ودواوين الشعراء القدماء في مطبعة بولاق في القرن الماضي، استطاعت تلك الكتب والدواوين أن تغذي موهبة شعرية فذة كموهبة محمود سامي البارودي الذي ترك لنا مختارات من الشعر العربي القديم تدل على سعة اطلاعه وصدق شاعريته. وبفضل حركة النشر هذه استطاع محمود سامي البارودي أن يخلص الشعر العربي من التفاهة والزخارف اللفظية التي كان قد انحدر إليها وأن يرد إلى الشعر ديباجته القويمة القديمة، بل وكانت شخصية البارودي من القوة بحيث نضجت في شعره ونستطيع أن نلمح وجدانه الخاص من خلال هذا الشعر. ولكن شعراء البعث الذين تلوه وبخاصة كبيرهم أحمد شوقي لا نكاد نلمح حياته ووجدانه الخاص من خلال شعره رغم ما في هذا الشعر من طاقة خارقة وموسيقى مثلمة وجودة متينة في التعبير وبراعة في التصوير البياني. وربما كان هذا من بين الأسباب التي دعت أنصار التجديد في الشعر وخاصة الأستاذين العقاد والمازني أن يتخذوا من أحمد شوقي هدفا أساسيا في الحملة التي شناها في كتاب "الديوان" على الشعر التقليدي وأصحابه، ومناداتهما بالتجديد

الذي لخص الشاعر الكبير عبد الرحمن شكري اتجاهه في بيت شعر سجله على غلاف أول ديوان أصدره من الشعر الجديد في سنة 1909 وهو قوله:

يا شاعر الفردوس--------------إن الشعر وجدان

وجاء شعراء المهجر فعززوا نفس الدعوة إلى شعر الوجدان وأيدها ميخائيل نعيمة تأييدا نظريا فلسفيا قويا في كتابه "الغربال" الذي حمل فيه حملة قوية على الشعر التقليدي ودعا الشعراء إلى أن يصدروا عن ذواتهم وأن يصور كل منهم ما في وجدانه الخاص من آمال وآلام وأشواق روح.

هكذا ظهرت عندنا الدعوة إلى شعر الوجدان، وأنه وإن يكن الدعاة لهذه الدعوة قد قالوا أنفسهم قصائد وجدانية جميلة، إلا أنه من المؤكد أن هذه الدعوة لم تتحقق على نطاق واسع إلا بفضل الجماعة التي تعرف في تاريخ أدبنا الحديث بجماعة أبوللو وهي الجماعة التي عمل على تأسيسها في سنة 1932. وأبوللو كما هو معروف اسم لإله الشعر والموسيقى في أساطير اليونان القدماء.

وبالرغم من أن رائد هذه الجماعة أحمد زكي أبو شادي قد نظم أوبرات أي مسرحيات غنائية كما نظم قصصا شعرية، بالرغم من أنه قد أفسح صدره وصدر مجلته لكافة أنواع الشعر والشعراء من تقليديين ومجددين ووسط بين الطرفين ، إلا أن الطابع الذي غلب على هذه الجماعة وبخاصة على روافدها من الشبان قد كان طابع الشعر الوجداني.

وإذا كنت قد قررت في كتابي الأخير عن جماعة أبوللو أن هذه الجماعة لم تتقيد بمذهب شعري معين، بل ولم ينقلب اتجاهها الوجداني الغالب إلى مدرسة شعرية، فإنما يرجع ذلك إلى حقيقة مسلم بها هي أن كل مذهب أدبي أو مدرسة فنية لا بد أن تقوم على أسس فكرية نظرية هي التي تعطي أي اتجاه صفة المذهب، فالرومانسية مثلا وإن تكن وجدانية الاتجاه ، إلا أنها أصبحت مذهبا عندما وضعت لها أسس فكرية محددة، وإذا كان الرومانسيون قد غلب عليهم الأنين والشكوى من الحياة والتبرم والهروب منها إلى رحاب الطبيعة وصدرها الرفيق بالشعراء ، فإن هذا الاتجاه قد أصبح مذهبا عندما اخذ أصحاب هذا المذهب يفلسفون الألم فيقول أحدهم مثلا :"إن المرء طفل يهذبه الألم" ويقول آخر :"لا شيء يسمو كما يسمو الألم" ويقول ثالث: “إن أروع الشعر ما كان أنات خالصة". ولسوء الحظ عندما يصبح مثل هذا الاتجاه مذهبا نظريا يأخذ التقليد والتصنيع في التسلل إليه حتى لنرى صغار الرومانسيين يتصنعون الألم ويدعونه في "طرطشة" عاطفية سخيفة أفسدت شعرهم، بل ونكبت الرومانسية كلها حتى اضمحلت وذهبت ريحها.

وأما جماعة أبوللو فإنها وإن يكن الاتجاه الوجداني قد غلب على خير شعرائها، إلا أنها لم تحاول يوما من الأيام أن تجعل من هذا الاتجاه مذهبا يقوم على أسس نظرية. بل أن فكرة التمذهب والخضوع لنظرية شعرية أو فكرة بذاتها قد كانت شبه مستحيلة في الفترة القاسية التي ظهرت فيها جماعة أبوللو فترة ما بين 1932 - 1935 حيث كان الاستعمار قد تآمر مع ملك طاغية هو أحمد فؤاد ليكبت حريات المواطنين ويسومهم الخسف وسوء العذاب حتى أصبحت الحرية هي أعز شيء لدى الناس وأصبحت فكرة التقيد حتى بمذهب أو نظرية فكرة نابية لا تخطر لأحد ببال، ولذلك نرى جميع أعضاء أبوللو يرددون أن الشاعر

يجب أن يكون حرا طليقا كالعصفور لا يخضع لقيد حتى ولو كان القيد مذهبا أو نظرية، وكل ما طالبوا به هو أن يصدر كل شاعر عن وجدانه الخاص في حرية وإخلاص. ولما كانت وجدانات الناس تتفاوت بتفاوت طبائعهم وبيئاتهم ودرجات ثقافتهم وأنواعها فقد كان من الطبيعي أن تتفاوت نغمات هؤلاء الشعراء بتفاوت وجداناتهم. وهذا هو ما حدث حيث نجد من بين كبار هذه الجماعة الوجدان الحار المتفجر الأبدي الظمأ إلى الحب عند الدكتور إبراهيم ناجي في "وراء الغمام" و"ليالي القاهرة" والوجدان الثائر العنيف الذي يغالب الحياة، بل ويغالب الموت والداء العضال في "أغاني الحياة" لأبي القاسم الشابي. والوجدان الانبساطي الأبيقوري المتفتح لمنع الحياة والملذات الحسية عند الشاعر الطروب علي محمود طه صاحب "الملاح التائه" و"ليالي الملاح التائه" و"زهر وخمر" كما نجد المزاج الانطوائي المستغرق في الشجن والتأمل عند حسن كامل الصيرفي صاحب "الألحان الضائعة."

علي محمود طه والتحليق الشعري

اضطرتني ضرورة المهنة - مهنة التدريس - إلى أن أعود إلى دواوين الشاعر الكبير علي محمود طه، وهي "الملاح التائه" و"ليالي الملاح التائه" و"أرواح وأشباح" و"زهر وخمر" و"الرياح الأربع" و"الشوق العائد" و"شرق وغرب" ثم كتابه "أرواح شاردة" الذي يجمع بين النثر والشعر المترجم عن بعض شعراء الغرب.

كما عدت إلى بعض ما كتب حوله، فلاحظت أن أحد زملائنا الجامعيين، وهو الدكتور شوقي ضيف، قد ظلم هذا الشاعر عندما كتب عنه فصلا في كتاب "دراسات في الشعر العربي المعاصر" تحت عنوان "ضجيج الألفاظ الخلابة عند علي محمود طه"، وقد اتهمه في هذا الفصل بأن شعره لا يقوم إلا على ألفاظ نظمها الشاعر في نسق موسيقي دون أن تحمل تلك الألفاظ أي مضمون فكري أو عاطفي محدد.

وذكرني حكم الدكتور شوقي الظالم بمقال ترجمته مجلة "المجلة" في عددها الأول عن "ملحق التايميز الأدبي" تحت عنوان "الشعر والحقيقة" وفي هذا المقال يناقش الكاتب رأيا للشاعر الإنجليزي المعاصر السير جورج هاملتون، ويعارضه برأي أو نظرية أخرى عن الشعر. وعدت إلى هذا المقال فوجدت أن رأي هاملتون ينطبق انطباقا تاما أو شبه تام على شعر علي محمود طه، وهو رأي كفيل بأن ينصفه وأن يرتفع به عن المستوى الظالم الذي أراد زميلنا الدكتور شوقي أن ينزل إليه.

فهاملتون يقول: "إن الشعر قد لا ينقل إليك تجارب الشاعر الأصيلة، بل تجاربه على قدر ما يستطيع إبرازها مكتملة.. في إطار شعري، ولا يمكن التسوية بين ما هو شعر وما هو غير شعر. وليس من شأن الشاعر أن يلتمس تعبيرا متواضعا عليه لمشاعر الحياة اليومية، وإنما شأنه أن يسمو بهذه المشاعر ويغذيها ويبرزها في نسق عماده الخيال."

وقد أورد هاملتون كمثل لهذا الشعر المحلق على أجنحة الخيال فوق واقع الحياة المحددة القسمات، قول الشاعر الإنجليزي الكبير شيللي، فيوصف مغنية جميلة وانفعاله لغنائها وجمالها:

إن روحي زورق مسحور

يسبح كالبجعة الوسنى

على الأمواج الفضية لغنائك العذب

أما روحك فتتربع كالملك

بجوار الدفة تقود السفينة

على حين تتجاوب الرياح باللحن الشجي

ويرى هاملتون في هذه المقطوعة القصيرة تجربة فذة، وهو لا يعدها كشفا جديدا، كما أنها لا تصدق على شيء خارج ذاتها. وذلك لأنه لم يكن لمثل هذا النموذج وجود من قبل، وغاية ما نستطيع أن نقوله فيها هي أنها تبرز نموذجا في مقدور العقل والخيال البشري أن يأتي بمثله.

ولكن كاتب المقال يأخذ على هذا الرأي أنه يعارض أصلا عريقا أصله ماتيو أرنولد عند الإنجليز، وهو ذلك الأصل الذي يقول أن الشعر في جوهره نقد للحياة. والغربيون لا يعنون النقد الحياة لمجرد الحكم عليها أو لها، بل يقصدون تفسيرها وإيضاح خفاياها والغوص في أعماقها والتمييز بين عناصرها المختلفة التي تكون نسيجها العام، وهم على هذا الأساس يطالبون بتجارب محددة المعالم واضحة القسمات، وثيقة الصلة بواقع الحياة، ويرون التحليق الشعري وسط ضباب الخيال الذي قد يعمى الرؤية الشعرية ضربا من الإنشاء اللفظي الذي فات عصره.

وعلى هذا الأساس أخذ كاتب المقال يناقش مقطوعة شيللي مناقشة منطقية سخيفة، فيتساءل مثلا: ترى هل تسبح البجعة الوسنى؟ وهل فكرتنا عن الطريقة التي قد تسبح بها البجعة الوسنى تضيف حقا إلى أفكارنا عن الطريقة التي قد يسير بها الزورق المسحور؟ وهل يحتاج الزورق المسحور الذي نفترض أن السحر يسيره ويقوده إلى ملك يجلس إلى دفته؟ وهل يرتاح الملك لذلك؟ ثم ترى كيف يكون الملك؟ أو له جسم وحيز؟ وكيف يكون الزورق، هل هو زورق أثيري؟ وإلى أي حد تتمشى فكرة المسيحية عن عالم ما وراء الطبيعة الذي ينتمي إليه الملائكة وعالم الخوارق الخرافية الذي ينتمي إليه الزورق المسحور؟

والمنطق الذي استخدمه كاتب المقال في وضع هذه الأسئلة لتسفيه مقطوعة شيللي تذكرني في قوة بمن يتناول سكين البصل لكي يشرح بها فراشة، لأن هذا الشعر لم يأخذه قائله من واقع الحياة اليومية. كما أنه لا يقدم إلينا فيه تجربة واقعية محددة، بقدر ما يخلق جوا أو على الأصح يحلق في الجو، ينقل إليه الحياة فينتشر على واقعها ضباب شعري يشجينا، وقد ينسينا الكثير من مشقات حياتنا على نحو ما أحسسته عندما عدت إلى شعر علي محمود طه فوجدت روحا وريحانا.

وشعر شيللي كشعر محمود طه يحلق بفضل عدة وسائل فنية أصيلة، منها اللغة الشعرية التي تتميز عن لغة النثر وتكون معجما خاصا، وإن كان الأمر يحتاج إلى مهارة ورهافة في الحس حتى لا تخرج تلك اللغة إلى الكذب والافتعال ووصف الألفاظ على نحو ما ظن زميلنا الدكتور شوقي، عندما أخذ يعدد ألفاظا

ومصطلحات كثيرة الورود في شعر علي محمود طه، مثل "المجالي، وعروس البحر، وحلم الخيال، والعشاق، وسمار الليالي، ومهد الجمال، وموكب الغيد، وعيد الكرنفال، والجندول في عرض القنال، وكأس وكرم وخمر، والحبيب وثغره، والساقي والراح والأقداح، وزهر وشعر وعطر، وأحلام البحيرة وشطآنها، وشراع وموج. الخ .. والعنصر الثاني لخلق الجو أو التحليق الشعري عند علي محمود كه وإضرابه هو تلك الموسيقى الجميلة المثملة التي نبغ فيها علي محمود طه نبوغا فذا سحرنا به وشغلنا عن أنفسنا، وحلق بنا فوق واقع الحياة دون أن يغيب هذا الواقع عن أبصارنا.

وها هو مطلع "أغنية الجندول" الشهيرة، لا نمل سماعه والاسترواح له دون أن نجسر على تحقيق ما فيه من فكرة أو إحساس أو صورة، حتى لا يتبدد جوها ويضيع ما فيها من سحر، وإلا كنا كذلك الكاتب الإنجليزي السابق الذي أخذ يتساءل عن البجعة الوسنى وهل تسبح وهي وسنى أم لا:

أين من عيني هاتلك المجالي---------------يا عروس البحر يا حلم الخيال

أين عشاقك سمار الليالي-----------------أين من واديك يا مهد الجمال

موكب الغيد وعيد الكرنفال --------------- وسرى الجندول في عرض القنال

وعلي محمود فوق كل ذلك شاعر المرح وبهجة الروح، وهو بذلك يعتبر ظاهرة فريدة بين جماعة "أبوللو" التي غلب عليها الحزن، ونضج هذا الحزن في معظم دواوينها. وما نظن أحدا منهم قد اختار لديوان من دواوينه عنوانا مثل "زهر وخمر" كما فعل علي محمود طه.

وإذا كان علي محمود طه قد التمس لذات الحياة ومتعها، فإنه لم يتحدث في شعره إلا عن العزيز منها غير المبتذل، لأن حاسته بالجمال كانت تقية مثل هذا الابتذال. وإذا صح أن نسميه شاعرا إبيقوريا فإن من الواجب أن تفسر هذه النزعة عنده بالمعنى الفلسفي الأصيل الذي قصده الفيلسوف اليوناني القديم صاحب هذا المذهب، فاللذات التي يتغنى بها شاعرنا هي اللذات الجمالية الرفيعة السابحة في جو روحي متسام.

والواقع أن شعر علي محمود طه لا يدرك سر جماله بالتحليل المنطقي، وإنما يحس إذا استطعنا أن نسمو إلى الجو الذي يخلقه ويحلق فيه، وبفضل موسيقاه المرهفة يزيد تلك الألفاظ قوة إيحاء وتحليق. ولا نظن أنه قد انزلق إلى بعض ما انزلق إليه نفر من الرومانسيين الغربيين الذين انتهى بهم الأمر أحيانا إلى افتعال بعض الأحاسيس والتجارب ومحاولة تغطية هذا الافتعال بما سماه زميلنا الدكتور شوقي "ضجيج الألفاظ."

وعلي محمود طه ربما كان أقرب شعرائنا المعاصرين روحا من الشعر الغربي، وبخاصة في دواوينه التي نشرها بعد سنة 1938، وهي السنة التي ابتدأ بعدها في الإكثار من رحلاته في أوروبا واستفادته فائدة كبيرة من تلك الرحلات، وذلك بينما نلاحظ ديوانه الأول، وهو "الملاح التائه" الذي صدر في سنة 1934 والذي نظم معظم قصائده وهو لا يزال موظفا بهندسة مباني المنصورة، قد كان بروحه موضوعاته أقرب إلى الشعر العربي، بل أقرب إلى روح بيئته المنصورية المحدودة. وبالرغم من أن علي محمود طه قد

وقف تعليمه النظامي عند دبلوم مدرسة الفنون التطبيقية التي تخرج منها سنة 1924 وكان قد دخلها على أثر تعثره في مرحلة دراسته الثانوية - نقول إنه بالرغم من كل ذلك قد كان أكثر شعرائنا المحدثين تأثرا بروح الشعر الغربي الذي ترجم لإعلامه بعض قصائده الشهيرة، كما كتب عن بعضهم عدة خواطر ومقالات جمعها في كتاب "أرواح شاردة". وهذه ظاهرة لم نلمحها عند غيره من شعرائنا الكبار الذين أتيحت لهم فرصة الدراسة في بعض بلاد أوروبا وتعلم لغاتها مثل أحمد شوقي الذي تعلم وأقام في فرنسا، أو علي الجارم الذي تعلم وأقام في إنجلترا. وربما كان ذلك لمرونة في طبع علي محمود طه، مكنته من أن يتمثل روح الشعر الغربي، وأن يستجيب لها حتى ولو صح ما قيل من أنه كان يستعين على فهم اللغات الأوروبية بنفر من أصدقائه مثل الأستاذ أحمد الصاوي محمد وغيره ممن يجيدون تلك اللغات. ومن الواضح في شعر علي محمود طه أن تأثره الأكبر قد كان بالرومانسيين والرمزيين وشعراء "الفن للفن" في فرنسا وإنجلترا، بل وألمانيا أيضا، وبخاصة الشاعر الشاب هنريك هايني الذي ترجم له شعرا قصيدة "أغنية الحرب" في ديوان "زهر وخمر" التي مطلعها:

يا رفاقي هذه الساعة من حلم الزمان

إن هذا زمن الحب فضجوا بالأغاني

ارفعوا الأقداح ملآى واشربوا نخب الحسان

فالربيع السمح يدعوكم إلى أقرب حان

هذا ولربما يصح على شعر علي محمود طه ما يصح على شعر شاعر كبير كشيللي الإنجليزي الذي يرى بعض مواطنيه أن الزمن قد تخطاهم، وأن الاتجاه الإنساني الغالب في الشعر المعاصر يتجه نحو الحياة القريبة المنال، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نتنكر لأمجادنا.

الشعر الصافي

يثور اليوم جدل شديد حول الشعر الجديد: ومحور هذا الجدل هو بنوع خاص موسيقي هذا الشعر، وهل هذه الموسيقى متوفرة إلى الحد الذي يستحق معه هذا الشعر أن يحمل هذا الاسم أم هي منعدمة إلى الحد الذي يحق معه أن نرفض اعتباره شعرا ونضيفه إلى النثر؟

ولقد كنت أظن أن هذه المناقشة جديدة أو شبه جديدة على شعرنا العربي الحديث، ولكنني عثرت أثناء إعدادي لبعض المحاضرات التي ألقيها في الأدب المعاصر على آراء طريفة فيما يختص بالشعر والموسيقى لعدد من كبار شعرائنا المعاصرين وبخاصة الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي اتهم هو الآخر بضعف موسيقاه.

ففي مقدمة ديوانه "فوق العباب"، نراه يدافع في حرارة عما يسميه "الشعر الصافي" وهو عنده الشعر المكتفي بعناصر جماله الذاتية، ومن ثم فهو لا يحفل كثيرا بالموسيقى، لأن الموسيقى غير الشعر، والشعر الذي يعتمد عليها يفقد صفاءه واكتفاءه الذاتي، فيقول:

"ينادي المنادون من أصدقائنا المحافظين وأنصاف المجددين بأن الشعر "موسيقى" قبل كل اعتبار آخر، ونحن لا نفهم من "الشعر" إلا أنه "شعر" قبل كل اعتبار آخر، وليس معنى هذا أننا نكره اقتران الشعر كفن بفنون أخرى وفي مقدمتها الموسيقى، ولكننا نأبى تبعية الشعر لأي فن سواء وإن رحبنا بمزاملته غيره من الفنون الملائمة له". ثم يضيف قوله: لنأخذ مثلا قول ابن الرومي وصفا لهاجرة في الصحراء:

وهاجرة بيضاء يعدي بياضها ------------- سوادا كأن الوجه منه محمم

أظل إذا كافحتها وكأنني------------------ بوهاجها دون اللثام ملثم

بديمومة لا ظل في صحصحاتها-----------ولا ماء، لكن قورها الدهر عوم

فليس لهذه الأبيات في نظر أنصار التميع والرخاوة اي جمال موسيقي، وألفاظها ذات قسوة وجفوة في اعتبارهم، ولكننا نعدها جد ملائمة لموضوعها، ونحفل بقوتها ونعتبر موسيقاها طبيعية منسجمة وموضوعها ومستمدة من صميم معانيه. ويقول المتفلسفون منهم أن الموسيقى الساحرة ضرورية للشعر لأنها تخدر أعصاب القارئ أو المستمع أو عقلهما الباطن إلى درجة تجعل معانيه تتسلل إلى الذهن غير مستأذنة فتبلغ غايتها من النفس وتؤدي رسالتها.

وعندنا أن هذا لا ينطبق عادة إلا على أصحاب العقول البدائية من أشباه معانيه أو على أهل الثقافة المحدودة أو على ذوي الأمزجة العصبية الشديدة، وأما ذوو الثقافة الواسعة المتزنون فتكفي لاستهوائهم تلك القوة التصويرية الرائعة في أبيات ابن الرومي، فإذا بهم يتمثلون أمامهم أصدق التمثل حالة الهاجرة في الصحراء وكأنهم فيها، وحسب الشعر أن يكون له من ذاتية خياله هذا التأثير الغلاب على النفوس المثقفة دون أن يحتاج إلى الصناعة الموسيقية لإثبات شخصيته الفنية التي لا يحتاج إلى وصي عليها لا من الموسيقى ولا من غيرها."

ولقد أطلت النظر في هذه الآراء الفريدة المثيرة، فبدا لي أننا وإن كنا لا نرفض أن الشعر التصويري يستمد جماله من روعة هذا التصوير أكثر مما يستمده من موسيقاه، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر ضرورة الموسيقى لكل شعر، وإلا أصبح نثرا بالبداهة، كما أن هناك شعرا يستمد معظم جماله من موسيقاه، بل وتعتبر فيه الموسيقى أداة للتعبير تفوق في أهميتها اللفظ والصورة، لا في الشعر الرمزي فحسب، بل وفي الشعر الوجداني، كما أننا قد نجده أيضا في الشعر الوصفي نفسه الذي نستطيع أن نضرب له مثلا شائعا قريبا بقصيدة شوقي:

حف كأسها الحبب ------------ فهي فضة ذهب

حيث يتراقص النغم في موسيقاها كما يتراقص الحبب على حافة الكأس.

بل نستطيع أن نجد معارضة قوية لرأي الدكتور أبو شادي في موسيقى الشعر عند شاعر موهوب من جماعة أبوللو ذاتها وهو أبو القاسم الشابي حيث يقول في مقال له:

"لقد قلت مرة عن الفن بمعناه الواسع أنه "حياة" موسيقية مصطفاة، سواء أكان قطعة تنشد أو لحنا يعزف أو صورة ترسم أو تمثالا ينحت فهو "حياة" لأن الفن في صميمه إنما هو صورة من تلك "الحياة" التي يحيا فيها الفنان في هذا الكون الزاخر الرحيب أو في دنيا خياله وأوهامه كيفما كانت تلك الصورة في الشكل واللون والعرض. وهو حياة "موسيقية" لأن الفن في جميع صوره وألوانه إنما هو مجموعة نسب مستقلة يوازن الفنان بينها موازنة حكيمة ملهمة يحس بها في قرارة نفسه ويأتيها، وربما لا يفهمها كل الفهم أو بعضه: فالشاعر العظيم هو الذي يوفق في فئة إلى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال والأسلوب والوزن بحيث يحصل بينها التجاوب الموسيقي الذي ينسجم في القصيد انسجام النور والعطر والماء والهواء في الزهرة الجميلة اليانعة.

والرسام العظيم هو الذي يوفق في الصورة الموازنة الموسيقية بين الألوان والأضواء والظلال والروح الفنية الشائعة في كل ذلك شيوع الضياء في السماء. ولنقل مثل ذلك في بقية ضروب الفن وأصنافه. وهو حياة موسيقية "مصطفاة" لأن الفنان المخلص لفنه لا يعبر - أو هو مكره على ألا يعبر بفنه إلا عن أرفع صور الحياة وأسماها. وعلى هذا فإن الشعر الرفيع حياة موسيقية مختارة تعبر عن نفسها في فن من الكلام. والموسيقى حياة موسيقية مختارة ترفرف بألحان مجنحة في جو منغم موزون، وكذلك يقال في سائر أنواع الفن."

وهكذا يرد الشاعر الموهوب أبو القاسم الشابي إلى موسيقى الشعر ضرورتها في كل شعر يستحق أن يحمل هذا الاسم سواء أكان من الشعر الصافي أو من غيره من ضروب الشعر.

ونحن إذ نؤيد رأي الشابي نود أن ننصح جميع شبابنا الشعراء بأن يتدبروا هذا الرأي وأن يحرصوا عليه مهما يكن في ذلك من مشقة وليؤمنوا كما آمن جميع الشعراء، بل الأدباء الجادين بأن الشعر فضلا عن الأدب كله عسر لا يسر.

تحدثت في الفصل السابق عما سماه الدكتور أحمد زكي أبو شادي "الشعر الصافي" الذي يريد أن يستقل بنفسه عن الموسيقى، بفضل قوة تصويره البياني. وعارضت هذا الرأي بلساني وبلسان الشاعر الموهوب أبو القاسم الشابي الذي يرى بحق أن الشعر موسيقى.

وقلت إن موسيقى الشعر ليست هدهدة للقارئ فحسب، بل هي أحيانا كثيرة أداة للتعبير عما يعجز اللفظ أحيانا عن استخراجه من باطن النفس كما أن النغم الموسيقي قد يصبح تعبيرا في ذاته.

فكيلاني سند شاعر ذو طاقة شعرية كبيرة، وقدرة رائعة على التصوير البياني، وهو يذكرني في شدة انفعاله وعنف صوره بشعراء الفطرة، وكدت أقول بالشعراء الوحشيين من حيث التهاب العاطفة وعنف الصورة، وقوة الطاقة.

وكنت قد قرأت له من قبل بعض قصائد اتخذ فيها البيت وحدة موسيقية فاستقام له النغم، كما استقامت الشاعرية، وذلك لأن وحدة البيت تضبط الموسيقى، وتمكن الشاعر من أن يسهر على استقامتها. ولكنني رأيته في هذا الديوان يعدل عن منهجه الأول، ويتخذ التفعيلة وحدة لموسيقاه. وهذا

اتجاه أكثر مشقة من الاتجاه الأول، وذلك لأنه يتطلب من الشاعر إذنا بالغة الإرهاف وقدرة فذة على إخضاع اللغة للموسيقى بحيث يكون كل سطر تفعيلة أو أكثر ويطرد الوزن من سطر إلى سطر.

وفي ديوان "قصائد في القنال" لاحظت أن الشاعر وإن يكن قد احتفظ بطاقته الشعرية الوحشية الرائعة - إلا أن الموسيقى لم تستقم له دائما على نحو ما كانت تستقيم له عندما كان يتخذ البيت وحدة لموسيقاه.

ولنأخذ مثلا قصيدة "الزحف" ص10 التي يهديها إلى الشعوب التي تناضل من أجل استقلالها:

كالشوكة في صدر الظلمة

كالغرسة في الهوة تحبو

تحبو صاعدة للقمة

رغم العليق يعرقلها

يلتف كحيات جهمه

رغم الأشواق تبعثرها

أيدي السفاح بلا رحمة

قد أغلق نافذتي حتى

لم تدخل منها نسمة

وانتهب الزاد فلم تترك

يده من زادي لقمه

وطريقي وعر وطويل

لا شمعة فيه لا نجفة

وهياكل آلاف قبلي

قد سقطوا من أجل الكلمة

ورياح تعول من حولي

وتهز الأشجار بقوة

وزلازل تنفض أقدامي

وتفتح من تحت هوة

وأزيز رصاص وقنابل

من خلفي تنفجر بقوة

ورجال شربوا من خمري

وتمطوا في ظل الكرمة

قد حسبوا إني رمة

لكني رغم الظلمة

سنشق طريقا تسلكه

للفجر شعوب جمة

شعبي وشعوب شتى

قد عاشت في سجن الظلمة

ستراها اليوم وقد زحفت

آلاف الأوجه مهتمة

قد زحفت تركز رايتها

تركزها فوق القمة

ففي هذه القصيدة طاقة شعرية قوية، وتصوير بياني رائع. وفيها تلك الوحشية التي أشرت إليها والتي تكسب هذا الشعر جدة وقوة نفاذ، وتخرج به عن ضروب الشعر المطروقة وعن التقرير الممل أو الحماسة المصطنعة أو النداءات الجوفاء - فيها وفي غيرها من قصائد الديوان كل هذه السمات الشعرية الصادقة، ولكننا كنا نود أن لو استقام لها مع كل هذا النسق الموسيقي الذي يكتمل به جمالها، ويطرد تأثيرها في النفس، وتحريكها للخيال. ولكننا لسوء الحظ نحس ثلما في نسقها الموسيقي كما نحس نفس الثلم في عدد آخر من قصائد الديوان، وذلك مع العلم بأن هذا النسق كان من الممكن أن يستقيم بإضافة مقطع صغير لا يأباه السياق اللغوي، بل قد يكمل به التعبير.

وأضرب مثلا لهذا الثلم الموسيقي بالسطرين:

قد أغلق نافذتي حتى ---------------- لم تدخل منها نسمة

وانتهب الزاد فلم نترك ------------- من زادي لقمة

فهذان السطران قد يكون وزنهما مستقيما في ذاته، وأحدهما مطابق للآخر، ولكنهما لا ينسجمان مع الموسيقى العامة للقصيدة. وكان من الممكن أن يتحقق هذا الانسجام بإضافة كلمة "لي" إلى كل منهما على النحو الآتي:

قد أغلق نافذتي حتى -----------لم تدخل لي منها نسمة

وانتهب الزاد فلم تترك -----------من زادي لي لقمه

ومن البين أن لفظة "لي" التي تقترح إضافتها لن تبدو دخيلة على السياق اللغوي، بل لعلها على العكس تزيد التعبير قوة بحكم ما تضفيه من تخصيص "لي" أي تخصيص "النسمة" و"اللقمة" للشاعر باعتبارها حقا طبيعيا له يريد أن يسلبه منه ذلك السفاح الذي لا يرحم.

وهكذا نخلص إلى أن الكمال الشعري سيظل قائما دائما على الجمع بين الطاقة الشعرية والقدرة على التصوير البياني ثم الموسيقي وضرورة اتساقها، وبخاصة في مثل هذا الشعر الحماسي الذي يسعى إلى أن يلاحق إحساس القارئ أو السامع حتى يلهبه ويستثيره.

وإذا كان "كيلاني سند" قد وهب ذلك الطبع الوحشي الذي يلائم الشعر، ويبشر بأمل كبير، فإن من الواجب أن ندعوه إلى الحرص على استقامة النسق الموسيقي. وربما كان من الأيسر أن يستطيع تحقيق هذا النسق الموسيقي. وربما كان من الأيسر أن يستطيع تحقيق هذا النسق إذا عاد إلى اتخاذ البيت وحدة لموسيقاه كما كان يفعل من قبل، دون مجاراة للتيار الجديد الذي ربما كان من الخير ألا يجاريه الشاعر الشاب إلا بعد أن يأخذ بناصية الموسيقى وتصبح لديه القدرة الكاملة على أن يكتفي بالتفعيلة كوحدة لموسيقاه دون أن يضطرب منه النسق أو يختلط الوزن.

كيف يتحدث الأب؟

ومذهب الاب النقدي

حمل ثقيل ان يتخذك البعض أبا بديلا ، فهي مسؤولية جسيمة ، حدث هذا مع ابى حين أتخذه العديدون أبا بديلا ، منهم يوسف ادريس و ونجيب سرور وسيد حجاب وغيرهم كثيرون ، فكيف يجب أن يتحدث الأب ؟

اليكم كيف يتحدث الأب محمد مندور

"بل إنني لأحس مخلصا في الفترة الأخيرة من حياتي ميل واضح إلى الرفق والترفق بل والتشجيع المتزن لكافة البراعم التي أحس لديها بما يوحى بالأمل ولعل مزاولتي المستمرة للتدريس بالجامعة والمعاهد العليا واتصالي الدام بالشبان والأدباء الناشئين قد كان له أثر كبير في تقوية هذا الاتجاه في نفسى ذلك

فضلا عن أنى قد اصحبت منذ زمن بعيد والدا لأبناء استأنسونى وفجروا في أعماقي ينابيع التسامح والرفق".

المقال الكامل للاب محمد مندور

مذهبي في النقد

لم يتكون مذهبي فى النقد نتيجة لدراساتي الأدبية في مصر والخارج وحدها، بل اشتركت تجاربي فى الحياة أيضا فى تكوين هذا المذهب ولذلك يصح القول بأنه قد تطور مع اتساع تجاربي فى الثقافة والحياة شيئا فشيئا على مر الأيام وعلى ضوء مزاولتي الفعلية للنقد خلال العشر ين عاما الأخيرة.

ففي أوائل حياتي العملية بالجامعة وعند عودتي من الخارج فى سنة1939 كنت مأخوذا بعلم الجمال اللغوي الذي عمقت قيمه في نفسى قراءتي المتصلة فى الآداب - اليونانية واللاتينية القديمة والفرنسية قديمها وحديثها خلال سنوات الدراسة التسع التي قضيتها في جامعة السوربون بباريس ولذلك لم أكد أعود من الخارج وأبدأ الكتابة في مجلتي الثقافة و الرسالة حتى رأيتني أحفل أولا وقبل كل شيء بالقيم الجمالية اللغوية فى الأدب عامة والشعر خاصة لأنه المجال الذى نلمس فيه بوضوح هذه القيم الجمالية.

والناقد الذى يبحث عن القيم الجمالية قبل كل شيء لابد أن يكون ناقدا تأثريا أى يعتمد فى نقده أساسا على الانطباعات الى تخلفها الاعمال الأدبية على صفحة روحه وعن هذا المذهب صدرت كتاباتي النقدية الأولى، فدرست تاريخ النقد عند العرب القدماء في كتابي « النقد المنهجي عند العرب » على ضوء هذا المذهب التأثري ، وفضلت من نقاد العرب القدماء من أوتى الذوق المثقف المستنير الذى يستطيع أن يحس بالقيم الجمالية فى الشعر وأن يهدينا اليها مثل الآمدى في كتابه « عن الموازنة بين الطائيين » أي بين البحتري وابى تمام ومثل القاضي عبد العزيز الجرجاني فى كتابه "الوساطة بين المتبنى وخصومه " بينما سفهت المقاييس والتعاريف والتقسمات الشكلية العقيمة الى ظن بعض نقاد العرب القدماء مثل "ابن قتيبة " و "قدامة بن جعفر" و "أبى هلال العسكري" أنهم قد وجدوا فيها عكاز الأعمى.

وعن نفس المذهب صدرت فى نقدى لعدد من الأدباء والشعراء المعاصرين وفضلت ما سميته بالشعر المهموس عند المهجرين من أمثال : نعيمه ونسيب عريضة وغيرهما على الشعر الخطابي التقليدي عند عدد من شعرائنا المعاصرين على نحو ما يستطيع السامع أن يلم في كتابي" فى الميزان الحديد " الذى جمعت فيه ما كتبت من مقالات فى تلك المرحلة الأولى من حياتي ، وفيها تطبيقات عدة لهذا المذهب التأثري كما أن فيها دفاعا حارا عنه ضد من هاجموه عندئذ كأنصار المذهب النفسي في النقد وهو المذهب الذى يهتم بالأديب أو الشاعر أكثر من اهتمامه بإنتاجه الأدبي أو الشعرى كفن لغوى جميل.

وأنا بالبداهة لم أنكر فى تلك المرحلة حق الناقد، بل واجبه فى تفسير الاعمال الأدبية على ضوء الحالة النفسية للأديب ومقومات تلك الحالة ولكنني أنكرت على النقاد ولا أزال أنكر أن يستعيروا فى النقد الأدبي منهجا يأخذونه عن أى علم أخر وذلك لأن للنقد - ويحب أن يكون - منهجه الخاص النابع من طبيعة

الأدب ذاتها، كما أننى لم أنكر أيضا حق الناقد بل واجبه فى توسيع ثقافته حيث تشمل الدراسات النفسية والتاريخية والاجتماعية بل والعلمية أيضا .

ولكنني أنكرت عليه ولا أزال أنكر أى محاولة لإقحام نظريات تلك العلوم على الأدب والأدباء ومحاولة الباسها للأدباء قسرا على نحو ما حاول بعض نقادنا الباس النرجسية أو غيرها مثلا لهذا الشاعر أو ذاك بحجة أنه قد أبدى فى بعض شعره اعجابا بنفسه أو أحد المركبات الفرو يدية المعروفة لأن شاعرا كأبي نواس قد تغزل في الخمر بما يشبه الغزل فى المرأة، وأمثال ذلك .

وقد أوضحت فى ميزاني الجديد كيف أن مهمة الناقد الاساسية هي البحث عن الأصالة الفردية المتميزة لكل كاتب كبير مؤكدا أن الأفراد لا يمكن أن ينطووا تحت نمازج نظرية مجردة وأن لكل فرد ممتاز أصالته المتميزة، وإذا كانت أوراق الشجرة الواحدة لا يمكن أن تتطابق تطابقا تاما فكيف يمكن أن يتطابق الممتازون من البشر ذلك التطابق التام الذى يزعمه علماء النفس أحيانا عندما ما يقسمون البشر إلى نمازج محصورة ويضعونهم في خانات.

والنقد الأدبي فى أدق تعريفاته هو أولا وقبل كل شيء فن تمييز الأساليب باعتبار أن أسلوب الرجل هو الرجل نفسه ، وهناك مفارقات لا تنتهى بين كل نوع نظري من أنواع الأساليب ، فالأسلوب الساخر منة المر ومنة الحلو ومنه المتشاتم ومنه المتفائل ومنه المداعب اللطيف ومنة المتهكم القاسي ومنه المستخف بالحياة ومنة الحريص عليها الباكي منها خلف سخريته، وكذلك الأمر فى كافة الأساليب ، والناقد الناجح هو الذى يحس بهذه المفارقات ويبرزها ليميز كاتبا كبيرا عن آخر وبذلك يحدد أصالته ولونه النفسي المتميز عن ألوان النفوس الأخرى.

والنقد التأثري لازلت أعتقد أنه الأساس الذى يجب أن يقوم عليه كل نقد سليم وذلك لأننا لا يمكن أن ندرك القيم الجمالية فى الأدب بأي تحليل موضوعي ولا بتطبيق أيه أصول أو قواعد تطبيقا آليا والإعجاز أن يدعى مدع أنه قد أدرك طعم هذا الشراب أو ذاك بتحليله فى المعمل إلى عناصره الأولية وانما تدرك الطعوم بالتذوق المباشر، ثم نستعين بعد ذلك بالتحليل والقواعد والاصول فى محاولة تفسير هذه الطعوم وتعليل حلاوتها أو مرارتها على نحو يعين الغير على تذوقها والخروج بنتيجة مائلة للنتيجة التي خرج بها الناقد بفضل ملكته التذويقية المدربة المرهفة السليمة التكوين.

تم حدث بعد ذلك أن تركت الحياة الأكاديمية فى الجامعة لأعمل فى الحياة العامة حيث خالطت الناس وتلقيت دروسا مباشرة من الحياة لا تقل أثرا وتأثيرا في تكويني النهائي عما تلقيت من دروس فى الجامعات أو قرأت من كتب داخل الجدران ، وبتأثير هذه الدروس الجديدة أخذت أفاقي النقدية تتسع وتتطور شيئا فشيئا دون أن أتنكر للمرحلة السابقة من حياتي العملية ، فقد ظللت حتى اليوم أحرص على القيم الجمالية فى الأدب عامة والشعر خاصة ولكنى أخذت ازداد اهتماما بالحياة ، وأخذ إحساسي يزداد شيئا فشيئا بأنه لا ينبغي أن يظل الأدب والفن متاعا للخواص ولمتذوقي الجمال من الممتازين من الناس بل يجب أن يساهم الأدب والفن فى خدمة الحياة وجعلها أفضل وأسعد وخيرا مما هي.

وصاحب هذه المرحلة الوسطى من حياتي اطلاعي على أنواع جديدة من الآداب تطورت فيها الأصول الأدبية والفنية الكلاسيكية واخذت تحل محلها أصول جديدة تماشى الفلسفة الجديدة للآداب والفن وهى الفلسفة المعروفة " بالفلسفة الواقعية " المتفائلة المتفانية فى خدمة الحياة والأحياء ، وكان لاشتغالي بتدريس بعض فنون الأدب الموضوعية مثل فن الأدب المسرحي ونقده خلال سنوات طويله أثر واضح فى التطور على نحو ما هو محسوس فى بعض كتبي اللاحقة مثل كتاب " فى الأدب والنقد " وكتاب" الأدب ومذاهبه " وأخيرا كتاب " قضايا جديدة فى أدبنا المعاصر" وإلى هذه الفترة ترجع مقالاتي التي أيدت فيها بعض أدباءنا الشبان فى خروجهم على بعض الأصول الكلاسيكية في التأليف المسرحي عندما اهتدوا بفطرتهم وبوحى من ضرورات الحياة المعاصرة فى بلادنا إلى إن صور جديدة من التأليف المسرحي مثل : الأوتشرك والمسرح الملحمي وهى صور لا تبنى على حدث محدد الأبعاد موحد الموضوع بقدر ما تعرض نتيجة دراسة المؤلف لمشكلة معاصرة أو تعرض هذه المشكلة فى ذاتها لتستصدر من المشاهدين حكما عليها.

ثم أخذت أحس بأن نظرية الفن للحياة لا للفن قد أخذت تغرى بعض الشبان بإهمال القيم الجمالية والأصول الفنية فى سبيل الهدف الخير الذى يقصدون إليه وبذلك لا يعود الأدب أدبا ولا فنا بل يصبح شيئا آخر قد يكون سياسة أو اجتماعا أو فلسفة ولكنه ليس أدبا ولا فنا كما قلت ، فدفعني إحساسي الحاد بالمسؤولية إلى أن أحاول إعادة التوازن في نقدى بين المرحلة الجمالية الأولى والمرحلة الحيوية الوسطى وحاولت أن أبلور منهجي المتكامل في النقد فى سلسلة من المقالات التى نشرتها فى جريدة الشعب عن النقد الأيديولوجي مؤُكدا أن هذا النقد لا يمكن أن يهمل القيم الجمالية والأصول الفنية المرنة للأدب والفن ولكنه يضيف اليها النظر فى مصادر الأدب والفن واهدافهما ووسائل علاجهما.

فالأدب والفن يستقيان من تجارب التاريخ أو من الاساطير أو من تجارب الحياة الواقعة أومن التجارب الشخصية للأديب أو من الخيال الذى يستطيع أن يخلق ما يشاكل الحياة أو يظهر أسرارها الدفينة ويجمع أبعادها المترامية ولكن النظر في مصادر الأديب لا يكفى للحكم على قيمة أدبه وجدواه على مواطنيه أو على الإنسانية عامة ، بل لابد من النظر أيضا في أهدافه لنتبين ما الذى قصد إليه من كتابة قصة أو مسرحية تاريخية أو أسطورية ، وهل هدف إلى مجرد بعث الماضي أو سرد أسطورة قديمة ، أم هدف إلى اتخاذ الحادثة التاريخية أو الأسطورة وسيلة للتعبير عن نفسه أو عن مشكلة من مشا كل العصر الذى تشغله في غير افساد لحقائق التاريخ الكبرى أو تزويرها .

ومن حق الناقد عندما ينظر في المصدر أن يتبين أي قطاع مثلا قد اختاره الأديب من واقع حياتنا المعاصرة وهل هو القطاع الذى يستحق العناية والذى يعرفه الكاتب ويحسن تصويره، ودراسته أم لا ، ثم ما هو هدفه مما كتب ؛ وهل هذا الهدف خير أم شرير يريد أن يلعب بالغرائز وأن يستثير اليافعين باللعب على حاستهم الجنسية أو نزعاتهم الشريرة الإجرامية فحسب.

ثم إن النظر فى المصادر والأهداف وحده لا يكفي، بل لابد من النظر أيضا فى طريقة العلاج وأسلوبه والروح الى يصدر عنها الكاتب لنتبين هل هي روح سليمة أم مريضه وهل هي روح متفائلة أم متشائمة وهل هي روح حانية على البشر محبة لهم أم روح مريرة ساخطة.

وذلك لأننا قد نقع مثلا على قصة أو مسرحية تنتهي بهزيمة الشر وانتصار الخير ولكننا مع ذلك نحس بأن أسلوبها قد كان أسلوبا داعرا مدمرا وقحا يسرف في المباذل ويغرى بها اغراء لا يمحوه ولا يشفع له أنه قد انتهى إلى إدانة هذا الابتذال ونكبته في أخر القصة أو المسرحية مما يجعل الخاتمة الخيرة تنمحي أو تكاد أمام سيل الدعارة الفاجرة الذى تخلل صفحات عمله الأدبي واشتد بريقه فيها.

وهذا النقد الأيديولوجي لا يمكن فى مذهبنا أن يغنى بأية حال عن النقد الفني الجمالي الذى تميز به الأدب عن غيره من الكتابات، فالأدب هو كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته انفعالات عاطفيه واحساسات جمالية وهو بتعريف آخر صياغة فنية لتجربة بشرية مما يحتم ضرورة الاهتمام بالصورة الأدبية التى يصب فيها الأديب مضمونه الإنساني، وهذه الصورة ليست أمرا شكليا ولا نافلة بل هى الوسيلة الفعالة التي تكسب الأدب مضاءه وقدرته على النفاذ إلى النفوس من أيسر السبل وأقواها نفاذا وأعمقها تأثيرا.

وخصائص الصياغة تلعب فيها الخصائص اللغوية وطرائق التعبير اللفظي دورا أساسيا لأن للألفاظ ألوانا وأرواحا، ولا يمكن أن يسمى الأديب أديبا ما لم يكن قادرا على ادراك ألوان الألفاظ وأرواحها فضلا عن الخصائص المرهفة التي تتولد من تركيب العبارات، بحكم أن كل مركب لابد أن نحد فيه خصائص لا تتوفر في العناصر الأولية التي يتكون منها ذلك المركب .

والأدب أولا وقبل كل شيء فن لغوى جميل ولعلم الجمال اللغوي أصوله التي يجب أن يفطن أليها الأديب بفطرته التي تصقلها وتنميها ثقافته الأدبية واللغوية ومطالعاته المستمرة لروائع الآداب.

ومن هذا الاستعراض السريع لتاريخ تكون مذهبي الأدبي فى النقد ، أستطيع أن أ قرر أنه قد أصبح فى صورته النهائية يقوم على أساسين : أساس أيديولوجي ينظر في المصادر والأهداف وفى أسلوب العلاج ، وأساس فنى جمالي ينتظم فى مرحلتين احاول دائما أن أجمع بينهما فى كل نقد تطبيق أقوم به وهما المرحلة التأثرية التي أبدأها دائما بأن أقرأ الكتاب المنقود قراءة دقيقة متأنية لأحاول أن أتبين الانطباعات التي خلفها فى نفسى ، ثم مرحلة التعليل والتفسير وهى المرحلة التي أحاول فيها تفسير انطباعاتي وتبريرها بحجج جمالية وفنية يمكن أن يقبلها الغير وأن تهديه إلى الإحساس بمثل ما أحسست به عند قراءتي للكتاب المنقود ، إذ من البديهي أن ذوقنا الفردي لا يمكن أن نمليه على الغير ما لم نحاول تبريره بالحجج المنطقية السليمة التي نستمدها من ثقافتنا اللغوية والانسانية والفنية العامة بحيث يصبح الذوق وسيلة مشروعة للمعرفة التي تصح لدى الغير، ومن الواجب أن يقاوم الناقد النزيه كل هوى فى نفسه وكل نزعة شخصية يمكن أن تفسد ذوقه وتجعل منه وسيلة للتضليل لا للمعرفة الحق والادراك الصحيح للقيم الجالية والإنسانية التي يبنى عليها أحكامه.

ولقد يقال إن الناقد ليس من حقه أن يحاسب الأديب عل مصادره وأهدافه، وأنا بداهة لم أحاول قط أن أملى على أى أديب مصدرا دون آخر من مصادر الأدب أو هدفا دون آخرا وأسلوبا دون أسلوب بل أترك له دائما حرية اختيار مصدره وهدفه ولكنني كناقد أطالب أيضا بحريتي فى أن أفضل مصدرا على آخر وموضوعا على آخر وهدفا على أخر وأسلوب علاج على أخر وإلا خنت رسالتي وفقدت كل ما يمكن

أن يكون لى من أثر فى توجيه القراء بل والأدباء أنفسهم نحو القيم السليمة والاتجاهات الخيرة التي تتطلبها حياتنا القومية أو الحياة الإنسانية عامة.

وأما الذى أرجو أن يقيني الله شره كناقد فهو التعصب الأعمى لاتجاه بذاته نتيجة لأفكار سلفية أريد أن أمليها على الأدب والأدباء وذلك لأن الحجر على الفكر البشرى لا يمكن إلا أن يقتله واتجاهات الفكر السليمة هى دائما تلك التّى تخطط لها تضاريس الحياة ولا يمكن لأى ناقد مها كانت قوته أن يقاوم تلك التيارات النابعة عن الحياة الجارية ووقف تضاريسها وإلا كان كمن يحاول أن يحمل الانهار على أن تصعد الربوات.

وأقبح فى نظري من التعصبات الفكرية العمياء الأهواء الشخصية والنزوات الفردية المريضة التى تحابى وتعادى على غير أسس نزيهة من التذوق البريء والتعليل المنطقي السليم والدراسة الموضوعية الجدية لما يتناوله الناقد من اعمال أدبية ، بل إنني لأحس مخلصا في الفترة الأخيرة من حياتي ميل واضح إلى الرفق والترفق بل والتشجيع المتزن لكافة البراعم التى أحس لديها بما يوحى بالأمل ولعل مزاولتي المستمرة للتدريس بالجامعة والمعاهد العليا واتصالي الدائم بالشبان والأدباء الناشئين قد كان له أثر كبير فى تقوية هذا الاتجاه في نفسى ذلك فضلا عن أنى قد اصبحت منذ زمن بعيد والدا لأبناء استأنسونى وفجروا فى أعماقي ينابيع التسامح والرفق.

اينشتين وبكره الاتي أت

الاندماج النووي والطاقة الهائلة

هذا المبتكر الذى يقلد الطبيعة، فطار وغطس وحفر وراقب واكتشف، وهو يحاول الان الوصول الى تقليده الاعظم ، الاندماج النووي ، الذى يولد طاقة هائلة تتجاوز كثيرا المفاعلات النووية الانشطارية الحالية ، شمس صغيرة لو نجح فى التحكم فيها لاختلفت حياة الجنس البشرى اختلافا كبيرا.

لقد فهم الطبيعة بواسطة علماء أفذاذ ومنهم أينشتين وها هو يحاول الان تطبيق ما توصلوا اليه ، واليكم ما كتبته الوكالة الدولية للطاقة النووية عن الموضوع.

"قبل خمسمائة عام، كان ثمة اعتقاد سائد في حضارة الأزتك، التي ازدهرت في الموقع الذي توجد فيه المكسيك اليوم، بأنَّ الوقود الذي يغذِّي الشمس وجميعَ القوى المنبعثة منها هو دماء القرابين البشرية. أما اليوم، فنحن نعلم أنَّ الشمس وسائر النجوم تستمدُّ طاقتها من تفاعلٍ يُعرف باسم الاندماج النووي. وفي حال أمكن استنساخ الاندماج النووي على كوكب الأرض، يمكن أن يؤدي ذلك إلى توفير طاقة لا حدود لها تقريباً من الناحية العملية وتتَّسم بكونها نظيفة ومأمونة وميسورة التكلفة لتلبية الطلب على الطاقة على الصعيد العالمي.

إذاً، كيف يتم الاندماج النووي بالضبط؟ ببساطة، الاندماج النووي هو العمليةُ التي تندمج على إثرها نواتان ذريتان خفيفتان لتكوِّنا نواة ذرية واحدة أثقل وزناً، ويصاحب هذه العملية انبعاث كميات هائلة من الطاقة. وتحدث تفاعلات الاندماج عندما تكون المواد في حالة تُسمى بحالة البلازما — وهي حالة تتَّخذ المادة فيها شكل غاز ساخن مشحون مكوَّن من أيونات موجبة وإلكترونات طليقة، وتتَّسم بخصائص فريدة تميِّزها عن الحالات الصلبة والسائلة والغازية.

ولكي يقع الاندماج في قلب الشمس التي تشرق على كوكبنا، يتطلب الأمر تصادُم النويات بعضها ببعض في درجات حرارة عالية جداً تتجاوز عشرة ملايين درجة مئوية تمكِّنها من التغلُّب على التنافر الكهربائي فيما بينها. فإذا تغلَّبت النويات على هذا التنافر وصارت المسافات بينها قريبة للغاية، تبلغ قوة التجاذب النووي بينها مستوى يفوق التنافر الكهربائي بما يتيح لها أن تندمج معاً. ولكي يحصل ذلك، يجب احتواء النويات داخل حيِّز صغير لزيادة فرص التصادُم. وتتحقَّق الظروف اللازمة لعملية الاندماج في قلب الشمس بسبب مستوى الضغط البالغ الارتفاع الذي ينتج عن جاذبية الشمس الهائلة.

ويسفر الاندماج عن إنتاج كمية ضخمة من الطاقة — تبلغ أربعة أضعاف كمية الطاقة التي تنتج عن تفاعلات الانشطار النووي — ويمكن للتفاعلات الاندماجية أن تكون الأساس الذي تقوم عليه مفاعلات القوى الاندماجية في المستقبل. وبحسب الخطط القائمة، فسوف يستخدم الجيل الأول من مفاعلات الاندماج وقوداً مكوَّنًا من مزيج من الديوتيريوم والتريتيوم — وهما نوعان من الهيدروجين الثقيل. ومن الناحية النظرية فباستخدام بضعة غرامات فقط من هذين المتفاعلَيْن يمكن إنتاج كمية من الطاقة تبلغ تيراجول واحد، وهي تقريباً كمية الطاقة التي تكفي لتلبية احتياجات شخص واحد من سكان البلدان المتقدِّمة النمو لفترة تزيد على ستين عاماً.

التطلّع إلى النجوم

في حين أن قوة جاذبية الشمس الهائلة تؤدي إلى حدوث الاندماج بشكل طبيعي، فمن دون هذه القوة يتطلب وقوع التفاعل درجة حرارة أعلى. وعلى كوكب الأرض، نحتاج إلى درجات حرارة تتجاوز 100 مليون درجة مئوية وضغطاً شديداً لجعل الديوتيريوم والتريتيوم يندمجان، كما نحتاج إلى توفير الاحتواء الكافي لاحتجاز البلازما والإبقاء على تفاعل الاندماج متواصلاً لفترة كافية لتحقيق كسب صاف في القوى، أي مكسب في النسبة بين قوى الاندماج المنتَجة إلى القوى المستخدمة لتسخين البلازما.

وفي حين أنَّ التجارب التي تُجرى الآن تشهد بصورة روتينية تحقيق ظروف قريبة للغاية من الظروف المطلوب توافرها في مفاعلات الاندماج، فهناك حاجة إلى تحسين احتواء البلازما واستقرارها. ويواصل العلماء والمهندسون في شتى أنحاء العالم اختبار مواد جديدة وتصميم تكنولوجيات جديدة من أجل تحقيق طاقة الاندماج على أرض الواقع.

وهناك بحوثٌ جارية بشأن الاندماج النووي وفيزياء البلازما في أكثر من 50 بلداً، وتحققت تفاعلات الاندماج بنجاح في العديد من التجارب، وإن جرى ذلك دون إثبات تحقيق كسب صاف في القوى.

وستتوقف المدة التي سيستغرقها استنساخ هذه العملية التي تستأثر بها النجوم على حشد الموارد من خلال إقامة الشراكات والتعاون على الصعيد العالمي.

تاريخ حافل بالتعاون

منذ أن توصَّل العلم إلى فهم الاندماج النووي في ثلاثينات القرن الماضي، انخرط العلماء في مساع لاستنساخه وتسخير الطاقة الناتجة عنه. وفي بداية الأمر، جرت هذه المحاولات في كنف السرية. بيد أنه سرعان ما اتضح أنّ هذه البحوث المعقّدة والمُكلفة لا يمكن إجراؤها إلا من خلال التعاون. وخلال مؤتمر الأمم المتحدة الدولي الثاني المعني بالاستخدامات السلمية للطاقة الذرية الذي عُقِدَ في عام 1958 في جنيف بسويسرا، كشف العلماء أمام العالم عن البحوث الجارية في مجال الاندماج النووي.

وقد كانت الوكالة ولا تزال في موقع القلب من البحوث الدولية في مجال الاندماج. فقد أطلقت الوكالة مجلة الاندماج النووي في عام 1960 لتبادل المعلومات حول التقدّم المحرز في مجال الاندماج النووي، وتُعتبر هذه المجلة اليوم الدورية الرائدة في هذا المجال. وعُقِدَ مؤتمر الوكالة الدولي الأول المعني بطاقة الاندماج في عام 1961، ومنذ عام 1974، تعقد الوكالة كل سنتين مؤتمراً لتعزيز النقاش بشأن التطورات والانجازات في هذا المجال.

وبعد عقدين من المفاوضات بشأن تصميم ومكان أكبر مرفق دولي للاندماج على الصعيد العالمي، أُنشِئ مفاعل إيتير في عام 2007 في فرنسا، بهدف إثبات إمكانية إنتاج طاقة الاندماج من الناحية العلمية والتكنولوجية. والمدير العام للوكالة هو وديع اتفاق التنفيذ المشترك لمفاعل إيتير. وفيما بعد مفاعل إيتير، يجري التخطيط لإنشاء محطات لإثبات جدوى القوى الاندماجية، أو ما يُعرف بمحطات القوى الإيضاحية، بهدف إثبات إمكانية توليد مكسب صاف من القوى الكهربائية باستخدام الاندماج النووي الخاضع للتحكُّم. وتستضيف الوكالة حلقات عمل بشأن محطات القوى الإيضاحية لتيسير التعاون من أجل تحديد وتنسيق أنشطة البرامج العادية لهذه المحطات حول العالم.

ومن المتوقع أنَّ الاندماج يمكن أن يلبي احتياجات البشرية من الطاقة لملايين السنين. ووقود الاندماج متوفر بكثرة ومن السهل الحصول عليه: فالديوتيريوم يمكن استخراجه بتكلفة زهيدة من مياه البحر، أمَّا التريتيوم فيمكن إنتاجه من الليثيوم الموجود بوفرة في البيئة الطبيعية. ولن تَنْتُج عن مفاعلات الاندماج في المستقبل نفايات نووية قوية الإشعاع وطويلة العمر، أمَّا انصهار القلب فهو أمرٌ مستحيل عمليًّا في مفاعلات الاندماج.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الاندماج النووي لا تنجم عنه انبعاثات من ثاني أكسيد الكربون أو غيره من غازات الدفيئة إلى الغلاف الجوي، ومن ثمَّ يمكن للاندماج النووي أن يؤدي، إلى جانب الانشطار النووي، دوراً في التخفيف من حدَّة تغير المناخ في المستقبل باعتبارهما من مصادر الطاقة المنخفضة الكربون".

الاخوان المسلمين بين الدعوة والسياسة

لقد تابعت على مدار الأيام الماضية ستة عشرة حلقة مع أحد القيادات التاريخية للإخوان المسلمين، هو الأستاذ فريد عبد الخالق عضو الهيئة التأسيسية الأولى وعضو مكتب الارشاد سابقا، وهو في السابعة والثمانين من عمرة المديد الذي وصل الى ثمانية وتسعون حيث توفى عام 2013.

والأستاذ فريد لم يكن عضوا في الجهاز الخاص، بل كان عضوا في الجهاز العام، والغريب ان الأستاذ فريد عاجز تماما عن أدراك الدور السياسي الرجعى للإخوان المسلمون عبر تاريخها الطويل المعادي للمصالح التاريخية للشعب المصري.

وحديث الأستاذ فريد يخلو من النظرة النقدية لدور حسن البنا، الصانع الأساسي للإخوان المسلمين وسياستهم، وهي نظرة تعم داخل كل التيارات الإخوانية الحالية، حيث يوضع فوق النقد، الامر الذي يؤكد ان هذه التيارات لا تمتلك رؤية مختلفة مهما دارت الصراعات بينها، صراع لم يتوقف منذ انتقال البنا الى الرفيق الأعلى والذي بدأ، على خجل، فيما قبل نهاية حياة البنا نفسها بمحاولات الجهاز الخاص الإفلات من رقابة المرشد ، في نفس الوقت الذى كان فيه النظام العام يحتوى على افرادا أكثر اعتدالا، منهم على سبيل المثال ، الشيخ الباقوري والدكتور عبد العزيز كامل ، الوزراء في حكومات عبد الناصر لاحقا.

وبرغم كل ذلك فإن أحاديث الأستاذ فريد تقدم معلومات وتقديرات سياسية تخلو من محاولات تجميل الوجه، رغم أنها، إذا توقفت عندها بنظرة تاريخية منصفة، تشكل إدانة للسلوك السياسي للإخوان منذ التأسيس، الامر الذي تكرر في السلوك السياسي لكل فصائل الاخوان في زماننا الحديث، الاخوان والوسط ومصر القوية ، كما تقدم احاديثه دعوة للتيارات الإسلامية للحداثة وادراك طبيعة العصر ، لكن هل تبقى دعوته للحداثة لاستيعاب نتائج تطبيق العلم أم تمتد الى مراجعات فكرية وسياسية شاملة لا تتوقف على التوجهات المماثلة للجهاز الخاص التي لا يتفق معها ؟ وهل تكتفى التيارات الإسلامية بالدعوة وتبتعد عن السياسة؟ وهل حقا وفعلا هناك فارق بينهما؟ الكثير من الممكن أن يكتب حول مثل هذه التوجهات وحول مصائرها التاريخية وانعكاساتها السياسية، لكن ليس هنا موقعها في هذا التعليق الصغير .

يبقى أخيرا الإشارة الى اقتناعي بصدق شهادته والى تعاطفي الإنساني معه لما تعرض له من تعذيب وفترات اعتقال طويلة لا إنسانية، خصوصا إذا علمنا أنه لم يكن أبدا عضوا في الجهاز الخاص الذى أرتكب أعمال عنف وقتل يندى لها ضمير الإنسانية، العنف الذى استمر في سلوك كل الفصائل الاخوانية منذ سبعينات القرن الماضي، فلقد انتصر الجهاز الخاص بتبوء ابرز ممثليه لمنصب المرشد العام بعد حسن التلمساني وتجمعوا داخل مجلس الارشاد ، ولا زالت ذكريات سلوكهم داخل التجمعات الجماهيرية واعمال العنف التي قاموا بها منذ ذلك الزمان وانتهازيتهم السياسية ، وحتى سقوطهم الأخير عام 2014 ، ماثلة في الاذهان ، هذا السلوك الذى لم يعتذروا عنه برغم مطالبتهم بالديمقراطية ، كما يفهما الإخواني ، التي لا تستبعد قمع الاخريين بدعاوى دينية او فكرية او حتى سياسية.

كما يجب التفرقة بين قيادات الاخوان، بالذات ممن ورثوا أساليب وتوجهات الجهاز الخاص، وبين الأعضاء القاعديين وجمهورهم العاطف، فالدوافع والتوجهات مختلفة، وبرغم انه لا يجب أبدا التهاون مع توجهاتهم الفكرية والنظرية ولا مع سلوكهم السياسي، لكن لابد من جهد فكرى وسياسي لتحرير هذا الجمهور من تأثيرهم السلبي، جهد لا يجب أن يتوقف عند ذلك، بل يمتد الى محاولة إقامة مجتمع أكثر إنسانية وعدلا.

مصر في عام 2020

منذ ما يقرب من 25 عاما تشكلت مجموعة بحثية كبيرة في مصر تحت قيادة منتدى العالم الثالث التابع للأمم المتحدة بقيادة الاقتصاديين الدكتور اسماعيل صبري عبد الله والدكتور ابراهيم سعد الدين وبإدارة الدكتور ابراهيم العيسوي وذلك لدراسة مصر في سنة 2020.

لقد قدمت المجموعة دراسات في منتهى الاهمية في مختلف جوانب الحياة في بلادنا، دراسات عميقة وجادة، وبرغم مرور هذه الفترة الزمنية الطويلة نسبيا الا ان ما قدمته هذه الدراسات، والتي صدرت في العديد من الكتب، مازالت تحظى بجدتها واثرت تأثيرا كبيرا، في بعض جوانبها، في التفكير الحكومي الرسمي الحالي، ولذلك انصح كل مهتم بان يقرأها، حتى وان اكتفى بقراءة ما يهتم به .

وبرغم ذلك فإن اختلافي كبير مع منهج البحث المستخدم وما ترتب علية من سيناريوهات محتملة والتي تبدو كما لو كانت معلقة في الفراغ، فراغ ناشئ من عدم قصر الاستناد على رؤية واحدة لتطور الصراع الاجتماعي وأفاقه، فلقد كنت ومازلت اعتقد ان دراسة التطور لابد وان تنطلق من الواقع المعاصر ولا توجد احتمالات مفتوحة تخضع لاختيارات المفكرين ما عدا ما قد يقدروه من تطور مسار الصراع الاجتماعي.

واليكم جزء مما كتبة الدكتور إبراهيم العيسوي حول الدراسة

الدراسات المستقبلية ومشروع مصر 2020 | د. إبراهيم العيسوي | مشروع أُعدّ في سبتمبر 2000

السيناريوهات

خضع اختيار السيناريوهات للتطور أثناء العمل في المشروع، استجابة لتراكم المعارف والتفاعل المتزايد بين أعضاء الفريق المركزي. فعند صياغة وثيقة المشروع، تم تحديد أربعة سيناريوهات على النحو التالي:

– 1السيناريو المرجعي. وهو يمثل الامتداد المنطقي للتطورات الراهنة، وذلك فيما لو استمر النمط الحالي لردود فعل السلطة الحاكمة والفواعل الاجتماعية الأخرى تجاه التغيرات المحلية والإقليمية والعالمية.

– 2السيناريو الشعبي. وهو يمثل التصور المتولد عن استطلاع رؤى القوى الاجتماعية والتشكيلات السياسية القائمة للمستقبل المرغوب فيه من جانبهم، وذلك بغض النظر عن مدى تكامل أو تناسق هذا التصور.

– 3السيناريو الوسيط. ويمثل هذا السيناريو مسار المجتمع حتى عام 2020 فيما لو طرأت تعديلات إصلاحية غير جذرية على مجموعة السياسات المطبقة حالياً، وفيما لو حدثت بعض التعديلات غير الجوهرية في تركيبة القوى الفاعلة في المجتمع ويمكن أن يعتبر هذا السيناريو صورة منقحة من السيناريو الشعبي، حيث يتم إزالة أوجه عدم التناسق المرتبطة باختلاف رؤى الفئات الاجتماعية المختلفة والتفاوت في أفقها المستقبلي وغير ذلك من مصادر عدم التناسق.

– 4السيناريو الابتكاري. ويصور هذا السيناريو المسار الذى يمكن أن يسلكه المجتمع حتى عام 2020، وذلك فيما لو أطلقت طاقات الإبداع والابتكار الكامنة فى المجتمع من خلال تغيير جوهري في التركيبة الطبقية، وفى توزيع السلطة والثروة في المجتمع ، وفى نسق القيم السائدة حالياً ، وفى مستويات العلم والتكنولوجيا فى بلادنا ، ومن ثم تغيير جوهري فى السياسات التنموية والترتيبات المؤسسية ، ونمط العلاقات الإقليمية والدولية لمصر.

واليكم لينك بعض من هذه الدراسات (الكتب) من ضمن 24 كتابا

الزراعة و الغذاء في مصر : الواقع و سيناريوهات بديلة حتى عام 2020 - محمود منصور عبد الفتاح

https://www.google.ae/.../%D8%A7%D9%84%D8.../k08fAQAAIAAJ...

مصر و الدوائر المتوسطية : الواقع و المستقبل حتى عام 2020 - سمعان بطرس فرج الله

https://www.google.ae/.../%D9%85%D8%B5%D8.../3wQuAQAAIAAJ...

المياه والأراضي الزراعية في مصر : الماضي والحاضر والمستقبل - محمد نصر الدين علام

https://ktabpdf.com/.../%D8%AA%D8%AD%D9%85%D9%8A%D9%84...

قضايا البيئة والتنمية فى مصر الأوضاع الراهنة وسيناريوهات مستقبلية حتى عام 2020 - عصام الحناوى

https://www.alarabimag.com/download/21471-pdf

الاقتصاد المصري في ثلاثين عاما- ابراهم العيسوى

https://www.noor-book.com/book/review/364412

مصادر الطاقة في مصر وآفاق تنميتها - محمد منير مجاهد

https://www.noor-book.com/en/book/review/637649

الدراسات المستقبلية ومشروع مصر 2020 - إبراهيم العيسوى

https://ummah-futures.net/%d8%a7%d9%84%d8%af%d8%b1%d8%a7.../

الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر - عبد الباسط عبد المعطى

https://www.noor-book.com/book/review/440494

الديمقراطية الثورية تتحدث عام 1946

وتعليق من الابن

جزء من مقال للدكتور محمد مندور عن اللجنة الوطنية للطلبة والعمال

"حدث خطير اتصال المثقفين بالعمال

لقد بدت بمصر في هذه الأيام ظاهرة تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخنا الحديث، ويظهر هذا التحول من المقارنة بين الحركة الوطنية في سنة 1919 والحركة الوطنية الحالية؛ ففي سنة 1919 كانت الامة لا تتحرك الا إذا طلب اليها الزعماء الحركة. وخطبوا في جموع الشعب وساروا في المظاهرات، اما اليوم، فقد نضج التفكير السياسي حتى رأينا جموع الشباب من «طلبة وعمال» يقررون بأنفسهم خطوات الجهاد العملي وينفذونها وتستجيب الامة لنداءاتهم.

وفي سنة 1919 كانت الحركة سياسية بحتة فليس لها الا هدف واحد هو الغاء الحماية وتحقيق الاستقلال. واما اليوم فقد أصبح من الواضح ان الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التي يقف عندها الجهاد، وذلك لأن الفرد قد اصبح يدرك ادراكا واضحا انه لا خير في الغاء الرق الخارجي اذا دام الرق الداخلي جاثما علي صدره، وانه لا جدوي من أن يصبح الوطن عزيزا اذا ظل الفرد ذليلا بل ان التخلص من الاستعمار نفسه ليس الا وسيلة لرفع مستوي الحياة بين طبقات الشعب وذلك بمنع الاجنبي من ان يستغل مصادر الثروة في بلادنا.

وليس بكاف ان ندافع عن قوتنا وقوت ابنائنا ومواطنينا ضد الأجنبي، بل لابد من أن ندافع عنه ايضا ضد المستغلين من المصريين والأثرياء الجشعين حتى تتحقق العدالة بين الناس وتتاح الفرص لكافة المواهب؛ ويفسح المجال لكل نشاط انساني منتج".

فهل أصاب محمد مندور؟

نعم لقد أصاب وأخطأ ، أصاب حين حدد هدفا للحركة ل، أوضح اهداف الشعب في الاستقلال والعدل ، واصاب حين حدد موقفا اجتماعيا واضحا من القوى الاجتماعية ، وأصاب في رؤيته للطابع الاجتماعي للحركة الجماهرية سنة 1946 ، لكنة أخطأ فى تقديراته للطابع الاجتماعي لثورة 1919 وفى كيف قامت ، وقد يكون معذورا في توفر المعلومات التى نمتلكها الان لكن هذه الثورة انطلقت دون طلب من أحد واعلنت الجمهورية فى زفتا وهاجمت الجماهير املاك كبار ملاك الارض وشكلت الاتحاد العام الاول

للعمال ، حراك اجتماعي هائل لم تنجح فى السيطرة علية اللجان القيادية الا بعد أن تخلصت من ممثلي الطبقات الاجتماعية المتهادنة.

وها هو الامر يتكرر فى النهوض الشعبي فى عام 1946 ولكن يتوفر له تيار واسع من القادة الجدد للديمقراطية الثورية، تيار أبرزه الى المقدمة الفعل الشعبي ذاته، متجاوزا القادة التقليديين بما فيهم حزب الوفد ذاته الذى أستعاد، تحت التأثير الغلاب للحركة الجماهيرية جزءا كبيرا من طابعه المزدوج، طابع المنظمة الجماهيرية ، الذى كان قد تآكل عبر الزمان بتغلب الطابع الحزبي.

تبقى أخيرا ملاحظة صغيرة، هل الامر هو عود على ذي بدء؟!

عقيد أركان حرب مصطفى معوض

الوطنية عندما تتجسد

من المؤكد ان هناك علاقة خاصة بين الجيش والشعب المصريين ، قد نختلف حول دور الجيش في الحياة العامة كمؤسسة او حول دور ضباطه في الحياة المدنية أو حتى حول أدائه في العمليات العسكرية ، لكن يبقى هذا الشعور الخاص الذى قد يجد تفسيره في أن أفراد الجيش هم " عيالنا " ، كما قد يجد تفسيره في ترسخ شعور خاص منذ " هوجة عرابي" ، وقد يكون قد ساهم في هذا عدم استخدامه من قبل السلطات ، بشكل تاريخي الا فيما ندر ، في قمع الحركات الشعبية ، أدراكا لان مثل هذا الاستخدام في منتهى الخطورة ، منتهى الخطورة على تماسك القوات المسلحة نفسها وعلى ما يترتب على ذلك من نتائج سياسية واجتماعية.

لذلك ولأسباب اخرى لا استطيع أن انسى العقيد أركان حرب مصطفى محمد معوض، قائد وحدتي في القوات الجوية قبل حرب 1973، صاحب العسكرية الصارمة والاخلاص الشديد، التمثيل الواضح للوطنية والاخلاص.

فهذا العقيد كان يتابع ويراقب ويقود الاداء بدأب، ويشجع اصحاب الاداء الممتاز ويحيطهم بالحماية والتأييد، ويعلن هذا كي يضرب بهم مثلا.

وفى ظروف خاصة يستدعى العقيد المهيب الملازم أول احتياط الذى يمر بظروف شديدة الوطأة ، قد تصيب هذا العقيد نفسة بالأذى ، الى مكتبه ، فتنتاب الشكوك الملازم ويتوقع غلظة في التعامل ، فهو لا يعرف العقيد شخصيا ولم يسبق له الحديث معه ، ما عدا معرفته بعسكريته الصارمة ، فيدخل الى مكتب العقيد ويتفاجأ بسلوك العقيد ، الذى يخرج من خلف مكتبة مرحبا بالملازم الصغير ومسلما عليه بكلتي يدية متحدثا " ولا يهمك أنت راجل وطني " ، ولا يجلس خلف مكتبة بل أمامه في مواجهة الملازم ويطلب الشاي متحدثا اليه " أحضر الى اذا واجهت أي مصاعب في اكمال اجراءات انهاء خدمتك في القوات المسلحة " ، الامر الذى لا ينساه الملازم الصغير طوال عمره.

مشروع استقلال مصر والديمقراطية الثورية

كتاب هام يقدمه الدكتورين عماد أبوغازى ووليد غالى عن وثيقة عثر عليها ضمن اوراق محمد عبدة، تقدم رؤية محمد عبدة سنة 1883 بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال مصر، كتاب يمكن تقسيمة الى جزئين، الجزء الاول مصر ما قبل الثورة الى الاحتلال، والجزء الثاني الاحداث الى اثرت في حياة الامام و تحليل للوثيقة وصولا الى ما اسماه الكتاب بالسنوات الصعبة.

وبرغم أن موضوع الكتاب يتعلق بالوثيقة وبتطور فكر محمد عبدة فيما قبل الثورة ثم في الثورة وفيما بعد الهزيمة الى انتقال الامام الى الرفيق الاعلى ،الا انه يثير قضايا في منتهى الاهمية متعلقة بكيف هزمت الثورة وبطبيعة التيارات السياسية المصرية فيما قبلها واثناءها وفيما بعد الهزيمة ، وصولا الى التيارات الفكرية والسياسية في مطلع القرن العشرون ، الامر الذى أثار العديد من الافكار حول الطبيعة الطبقية للثورة العرابية ، وحول بدايات التمايز الفكري بين التيارات السياسية والاجتماعية وصولا الى حزبي الامة والحزب الوطني الجديد في بدايات القرن العشرون.

فهل حقا هزمت الثورة العرابية نتيجة لأخطاء قيادتها السياسية والعسكرية؟ أم ان أحد أهم الأسباب للهزيمة كانت في طابعها الطبقي وبالتالي عدم قدرتها على حشد جماهير الفلاحين من اجل التحرر من سيطرة كبار ملاك الأراضي في مجتمع شبة أقطاعي؟ وهل السلوك السياسي للفئات والطبقات الاجتماعية المشاركة في الثورة، التي كانت تتسع وتضيق مع احتدام الصراع، هي أحد أسباب الهزيمة ؟ وهل أثر الطابع الاجتماعي الطبقي للثورة على الاكتفاء بدعم ومساندة التيار الديمقراطي الثوري، في بداياته الاولى، بقيادة النديم ، الامر الذى حرم قوى الثورة من طاقة هائلة كان من الممكن أن تقدمها جماهير الفلاحين الغفيرة المؤيدة للثورة ؟

لقد قدم الجزء الثاني من الكتاب التطور الفكري والسياسي لمحمد عبدة فيما قبل الثورة وبعد انضمامه لها وفى اعقابها وفى ما طرحته الوثيقة المؤرخة عام 1883 ، وبرغم دفاع الكتاب عن فكر الاستنارة لمحمد عبدة وتوضيحها لمنهج الاعتدال والتدرج الذى تبناه ، الا انه تبنى مقولة أن تيار الوطنية المصرية الصاعد المتمثل في حزب الامة هو حزب الامام ، وان التيار الوطني الاخر ، أي الحزب الوطني ، صاحب فكرة الارتباط بتركيا ودعم الخديوي عباس حلمى الثاني نما بالتأثر بعبد الله النديم ، الامر الذى أختلف معه ، فكلا من التيارين قد تأثرا بالرجلين ، بتيار الاصلاح وبالتيار الديمقراطي الثوري ، لتخرج لنا تيارات جديدة مختلطة التوجهات.

تبقى ملاحظة صغيرة في تعليقي هذا حول كلا من موقف النديم بعد الثورة وحول المصير اللاحق لأفكار محمد عبدة، فالنص الصغير الذي قدمه الكتاب عن النديم لا يكفى للدلالة عن حقيقة تطور أفكاره خصوصا أن النديم قد بقى في مصر فترة صغيرة قبل نفية الثاني الى حصن الاستعباد المسمى تركيا الخلافة، كما لا يمكن محاسبة محمد عبدة على التطور اللاحق للتيارات الفكرية والحزبية الاسلامية.

وختاما لابد من الاشارة الى التوضيح الذي قدمه الكتاب حول أن المقاومة الوطنية المصرية لم تتوقف أبدا بعد هزيمة الثورة، تمهيدا لثورة 1919 الكبرى.

هكذا تحدث الشيخ عن كتابة العمدة

د. محمد مندور يتحدث

تقديم للنقد المنهجي

لقد كان موضوعُ هذا الكتاب عند بدءِ التفكير فيه «تيارات النقد العربي في القرن الرابع الهجري»، ولكننا لم نكَدْ نأخذ في جمعِ ما كُتب في ذلك القرن حتى أحسَسْنا بأنه قد كانت هناك لذلك القرن أصولٌ سابقة، كما أنه قد امتدَّت له فروع، ولا غرابةَ في ذلك عند قومٍ كالعرب ثبتَ امتدادُ التقاليد لديهم، وبخاصةٍ في الأدب، حتى ليمكن القولُ بأن كبار الأحداث التي زلزلَت حياتهم الفكريةَ والروحية؛ كالإسلام أولًا، ثم الاتصالِ بالثقافات الأجنبية وبخاصةٍ اليونانية ثانيًا؛ لم تقطع تلك التقاليد.

لاحظَنا إذن أن نقد القرن الرابع قد كانت له أصولٌ كما كانت له فروع، فوسَّعْنا من مجال البحث، ولكن مع حصره في المتخصصين من النقَّاد ومؤرخي الأدب، بحيث لم نقف وقفاتٍ خاصةً عند نقد الشعراء أو المحكمين في أسواق الأدب وما شاكَل ذلك، مما نجده في تضاعيف كتب الأدب والرواية القديمة؛ وذلك لكي نظل في حدود الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الكتاب؛ وهي معالجة النقد المنهجي عند العرب.

والذي نقصده بعبارة النقد المنهجي هو ذلك النقد الذي يقوم على منهجٍ تدعمه أسسٌ نظريةٌ أو تطبيقيةٌ عامة، ويتناول بالدَّرس مدارسَ أدبيةً أو شعراءَ أو خُصومات، يُفصِّل القولَ فيها، ويَبسط عناصرها، ويُبصِّر بمواضع الجمال والقُبح فيها.

ولقد اتخذنا مركزًا لهذا البحث الناقدَين الكبيرَين: أبا القاسم الحسنَ بن بِشرِ بن يحيى الآمِديَّ، صاحبَ كتاب «الموازَنة بين الطائيَّين»، والقاضيَ أبا الحسن عليَّ بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجُرجانيَّ، صاحبَ كتاب «الوَساطة بين المتنبِّي وخصومه»، ولكننا مع ذلك تتبَّعنا موضوعَ بحثنا منذ أول كتابٍ وصَل إلينا في النقد وتاريخ الأدب، وهو كتاب «طبقات الشعراء»، الذي كتَبه ابنُ سَلامٍ الجُمَحيُّ في القرن الثالث الهجري، كما تتبَّعناه إلى أن تحوَّل النقدُ إلى بلاغةٍ على أيدي أبي هلالٍ العسكري مؤلِّف «سِر الصناعتَين» في القرن الخامس، بل وانحدرنا به قرنَين آخَرين حتى لاقَينا ابن الأثير في «المثَل السائر.«

وفي خلال هذه الرحلة الطويلة عَرَض لنا الكثيرُ من أمَّهات المسائل التي لم يكن بدٌّ من إيضاحها؛ لكي نتبينَ معالم الطريق، ونُدرِك تسلسلَ علوم اللغة العربية المختلفة وتاريخَ نشأتها؛ كالبلاغة والبديع والمعاني والبيان، كما عرَضَت جملةٌ من النظريات العامة في الأدب، فضلًا عن عددٍ كبير من المناقشات الموضعية في النقد التطبيقي، فتناولنا كلَّ ذلك بالغربَلة والتمحيص.

وفي الحق، إنَّ في الكتب العربية القديمة كنوزًا نستطيع — إذ عُدنا إليها وتناوَلْناها بعقولنا المثقفة ثقافةً أوروبية حديثة — أن نستخرجَ منها الكثيرَ من الحقائق التي لا تزال قائمةً حتى اليوم، وإن كنَّا حريصين على ألا يُستفاد من دعوتنا إلى تناول التراث القديم بعقولنا الحديثة أي إسراف بإقحامِ ما لم يخطر بعقول أولئك المؤلِّفين القدماء من نظرياتٍ أو آراء، كما أننا حريصون على ألا نجهلَ أو نتجاهل الفروقَ الأساسية

الموجودةَ بين الأدب العربي وغيره من الآداب الأوروبية، بما يستتبعه ذلك من تفاوُتٍ كبير في مناهج النقد وموضوعاتِه ووسائله.

وعلى ضوء هذه الحقائق، وفي حدود تلك التحفُّظات؛ تناولنا موضوعَ بحثِنا، مُحاولين أن نستفيدَ من الثقافة الأوروبية في استخراج المكنون، وإيضاح الغامض المجمَل من موضوعاتِ بحثنا، وآمِلين أن نكون قد خرَجنا في النهاية ببعض نتائجَ يمكن الاطمئنانُ إليها.

ولما كنَّا في مجال الأدب ونقده، فإنه لم يكن مَفرٌّ من أن نُفصِّل في الكثير من الخصومات والمجادَلات والمناقشات برأينا الخاص، الذي يستندُ — فضلًا عن الفكر النظريِّ — إلى الطريقة الخاصة لكلِّ باحث في تذوُّق الأدب، ولَسوف يرى القارئُ إيضاحًا لتلك الحقيقة التي لا تُنكر؛ وهي أن الذَّوق لا بدَّ أن يكون من مَراجع الحكم النهائي في الأدب ونقدِه، ما دام يستند إلى أسبابٍ تجعله — في حدود الممكن — وسيلةً مشروعة من وسائل المعرفة التي تصحُّ لدى الغير.

هذا، ولقد كان الموضوعُ حقلًا بِكرًا، فسِرْنا فيه — وَفقًا لما استقرَّ في نفسنا من خطوط — بعد مراجعة المؤلفات المختلفة وإقامة التسلسُل بينها، وإنَّنا لَنرجو أن نكون قد سدَدْنا بتأليفِ هذا الكتاب ثغرةً في تاريخ التراث العربي، ووضَعنا حجرًا متواضعًا في ذلك الصَّرح الذي يجب أن تُقيمه الشعوبُ العربية لحضارتها التليدة، كما نرجو أن يجدَ الأدباءُ ودارسو الأدب ومحبُّوه في تضاعيف بحثنا نوعًا من التوجيه، الذي نعتقد أنه خليقٌ بأن يُبصِّر ببعض الحقائق عن الأدب ونقده، بل وإنشائه؛ وذلك حتى لا تظلَّ السبُل مختلطة، والقيمُ ملتبسة غامضة.

محمد مندور

منهج البحث «المنهج التقريري والمنهج التاريخي«

ليس مِن شكٍّ في أن تحديد مدلول الاصطلاحات العِلمية يكون جانبًا من بناء العلم ذاتِه.

والناظر إلى المعنى الذي يُقصَد إليه من النقد الأدبي؛ سواءٌ عندنا أو عند الأوروبيين، لا يكاد يتبيَّن حدودَه على وجهٍ دقيق.

وعلةُ ذلك — فيما يظهر — فسادُ المنهج الذي نُحدد به الأشياء، ولقد كان في سيطرة أرسطو على العقل البشري قرونًا طويلة ما ثبَّتَ في النفوس تلك النزعةَ التقريرية، التي تستندُ إلى أصول المنطق، فتتَّخذ من التقسيم أساسًا للمعرفة.

وهذا هو مصدرُ ما يُثار من مشاكل حول النقد.

فلقد تساءل قومٌ عن الفرق بين النقد وبين علوم اللغة المختلفة؛ مِن نحوٍ وبلاغةٍ وعَروض ... إلخ؛ وذلك لأنه عندما نشأتْ تلك العلومُ رأينا الناظرين في الأدب العربي، وبخاصةٍ في الشعر، يستخدمونها في فَهْم النصوص، وتعليل أحكامهم فيها.

ولقد تساءل آخَرون عن مَنْحى النقد عندما تَكوَّن ابتداءً من القرن الثالث: أهو عربيٌّ النزعة أم إغريقي؟١ ورأوا فيه تيَّارَين مختلفين: تيار قُدامة بن جعفر الذي حاول وضْعَ «علم للشعر» و«علم للنثر»، يقومان على الفُروق الشكلية التي مكَّن لها أرسطو بمنطقِه في كل ميادين المعرفة. وتيار أدباء العرب الذين صمَدوا لذلك المذهب،٢ فنحَّوْه عن الأدب ونقدِ الأدب، بحيث لم يكن له كَبيرُ أثرٍ لديهم، وإنما أثَرُ قدامة وأثرُ أرسطو «بِخَطابته» و«شعره» و«منطقه» بأكمله في نشأة علوم اللغة، وبخاصةٍ البلاغة، وهذه من أدوات النقد، ولكنها ليست إيَّاه.

فالنقد الأدبي نشأ عربيًّا، وظل عربيًّا صِرفًا؛ وذلك لأن أساس كلِّ نقد هو الذَّوق الشخصي، تَدْعمه ملَكةٌ تَحصُل في النفس بطول ممارسةِ الآثار الأدبية. والنقدُ ليس عِلمًا، ولا يمكن أن يكون علمًا، وإنْ وجَب أن نأخذ فيه برُوح العلم. بل لو فرَضْنا جدَلًا إمكانَ وضعِ علمٍ له؛ لوجب أن يقوم ذلك العلمُ بذاته. ومن المعروف أن العلوم المختلفة لا تنمو وتُثمر إلا بفضلِ استقلال مَناهجها ومبادئها التي تُستقَى من موضوع دراستها.

والذي حدَث عند العرب تاريخيًّا هو أن النقد قد تأثَّر في «منهجه» بالعقلية الجديدة التي كوَّنَتها فلسفةُ اليونان، والتي اتخذَها المعتزلة وعلماءُ الكلام أساسًا لمجادلاتهم في التوحيد والفقه. وهذا يُفسِّر تغيُّرَه من نقدٍ ذَوقي غيرِ مُسبَّب، يقفُ عند الجزئيات، ويقفز إلى تعميماتٍ خاطئة، تجعل من شاعرٍ أشعرَ الناس؛ لبيتٍ قاله، إلى نقدٍ ذوقي مُسبَّب، يُحاول أن يَقصُر أحكامه على الجزئية التي ينظر فيها، فإنْ سعى إلى تعميمٍ لجأ إلى الاستقصاء، واحتاط في الحكم، على نحوِ ما نرى عند الآمديِّ في «موازنته.«

وإذن، فمن الخطأ أن ننظر إلى النقد في جُملته، ونصرفَ النظرَ عن مراحله التاريخية، ونرى فيه عِلمًا كاملَ التكوين نُحاول أن نُميِّز بينه وبين علوم اللغة الأخرى، بعد أن تحجَّرَت تلك العلوم؛ لأن في ذلك ما يخلق مشاكلَ باطلة، كما أنه لن يؤدِّيَ إلى نتائجَ يُعتدُّ بها في فَهم حقائق الأشياء فهمًا تاريخيًّا، بل ولا فهمًا تقريريًّا، ومن الثابت أننا لا نستطيع فهم شيءٍ فهمًا صحيحًا بالنظر فيه عند آخرِ مراحله.

ومعنى هذا هو أننا نُفضل الأخذ بالمنهج التاريخي حتى عندما نُحاول أن نضعَ للنقد حَدَّه. وهذا هو المنهج الذي استقرَّ الباحثون على جَدْواه منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى اليوم، وبفضله جدَّدَت الإنسانية من معرفتها بتُراثنا الروحي وزادَته خِصبًا .

التاريخ بين الدين والمصادر والبحث العلمي

مشكلة كبرى تعترض الباحثين في التاريخ المصري القديم، تاريخ يمتد لألاف السنين قبل الميلاد ، وتتوفر لدراسته مصادر متعددة ، ما كتب على المعابد وعلى أوراق البردى وما نقش على الأحجار القديمة و ما كتبة المؤرخون القدماء في العصور التاريخية المختلفة ، وكل هذه المصادر يجب أن تخضع للمقارنة ، فنحن نتحدث عن الاف السنين والكثير مما في هذه المصادر ليس معاصرا للأحداث ، فقدماء المصريون هم قدماء بالنسبة لمانيتون السمنودي الذى كان كاهنا في عهد بطليموس الثاني سنة 280 قبل الميلاد ، أو لباقي المؤرخين من العصرين اليوناني والروماني ، أو حتى لتدوينات الفراعنة على جدران معابدهم حيث

قد لا تكون كتاباتهم عن " قدماء المصريين " ، القدماء جدا بالنسبة لهم فنحن نتحدث عن الاف السنين التي قد تكون سابقة على لحظة التدوين ، دقيقة.

ويزيد من صعوبة الامر أن تاريخنا الفرعوني القديم يمكن تشبيهه بلوحة فسيفساء كبيرة وانفجرت متناثرة، أجزاء من الفسيفساء يتم الوصول اليها بشكل تدريجي، ولكنها لا تشكل رؤية متكاملة ودقيقة برغم التقدم الكبير الحادث بشكل تدريجي مع تحقق المزيد من الاكتشافات.

ولكن أساليب البحث العلمي قد تعرضت لمخاطر جسيمة مع سيادة المناهج السلفية والتيارات السياسية الاسلاموجية، ولا يتوقف الامر عند ذلك، بل يمتد أيضا الى بعض الكتاب الغير منتمين لهذا التيارات، هذا الخطر الجسيم الذي يمتد الى المعتقدات الدينية نفسها، فلقد تسرب الى أساليب البحث العلمي اعتبار الكتب السماوية كأحد مصادر التأريخ، فمن هو فرعون يوسف ومن هو فرعون موسى؟ أسئلة تخلط بين الدين والتاريخ، ولا تقدم لنا قطع الفسيفساء المتناثرة إجابات قاطعة، ماعدا ارهاصات ودعاوى رجال الدين والدعاة الغير متعلمين والمتطرفين بإجابات ودعاوى بأن هؤلاء الملوك الفراعنة هم هذا الفرعون أو ذاك، فيتعرض كلا من التاريخ والدين لمخاطر جسيمة تفتح عمل لشيطان.

وفى كتاب للأستاذ الدكتور عماد الدين عبد العظيم أبو طالب عن تاريخ مصر القديمة، الأستاذ بجامعة الفيوم، هذا الاقتراب الخطير لاعتبار الكتب السماوية مصدرا هاما لكتابة تاريخنا، فلقد امتد التأثير السلبي للتيارات السلفية الى الملاذ الأخير للبحث العلمي، الى الجامعة نفسها!

الجنرالات المفكرون واساليب الحرب الحديثة

ما بين الحربين العالمتين الاولى والثانية حدث تطور تكنولوجي سريع ، هذا التغيير الذى طرح من جديد الاهمية الحاسمة للعودة لتبنى حرب الحركة ، حرب الحركة التي كانت قد انقرض تبنيها مع اختراع الاسلحة الفردية السريعة الطلقات والمدفعية المجرورة ، لكن مع تطور الدبابات والمدفعية الذاتية الحركة ومركبات القتال ثم الطائرات ، دار جدال كبير حول أساليب الحرب الحديثة ، جدال بين التفكير السلفي المتمسك بحرب الخنادق والمواقع الثابتة والتفكير الجديد الذى يتبنى أساليب حرب الحركة التي تدمج كل الامكانيات القتالية للمدرعات والمدفعية والمشاة الميكانيكية وسلاح الجو ، حرب تحقق تبنى أساليب الاقتراب الغير مباشر وتجنب صدامات المواجهة المباشرة والتحقق الكامل لاستراتيجيات هزيمة العدو بإفقاده الرغبة والقدرة على الاستمرار في القتال ، دون أن يتضمن ذلك ، بالضرورة ، تحطيم كامل قواته المسلحة.

لقد مثلت المواجهة الالمانية الفرنسية التعبير الامثل لنتائج المواجهة بين الاسلوبين ، استراتيجية الخنادق واستراتيجية حرب الحركة ، حيث تبنت فرنسا المفاهيم القديمة ببنائها خط دفاعي على طول الحدود المشتركة هو خط ماجينو ، وقامت بتوزيع المدرعات على طولة مع المدفعية الذاتية الحركة ، وبرغم أن الاسلحة الفرنسية كانت أكثر تقدما من الالمانية وبرغم أن المفكرين العسكريين الفرنسيين وبعض كبار القادة العسكريون كانوا يطالبون بتبني حرب الحركة ، الامر الذى لم تستجب له القيادة العسكرية الفرنسية ، الا أن الهجوم الألماني بالاستخدام الكلاسيكي لمبادئ حرب الحركة ، متجنبا الهجوم على الخط الدفاعي الفرنسي بانتهاك الحياد البلجيكي والدخول الى فرنسا من خلفة ، سبب انهيار الدفاعات الفرنسية دون قتال واستسلمت فرنسا خلال اسابيع ، واضطرت القوات البريطانية للانسحاب " بالشحم واللحم فقط " وبدون معدات عسكرية من دانكرك.

لقد تبنت إسرائيل أساليب الحرب الحديثة من اللحظة الاولى لإنشائها قوات مسلحة، قبل وبعد إنشاء إسرائيل ، كما تبنت تنظيما للقوات المسلحة يسمح لها بنقل الحرب الى أرض العدو وبسرعة الحركة وبتبني أساليب الاقتراب الغير مباشر وبتشكيل مجموعات قتال متنوعة طبقا للأهداف الاستراتيجية والتكتيكية ، أما على الصعيد العربي فإن هذا التبني لأساليب الحرب الحديثة كان قاصرا ومراوحا ما بين حرب الحركة وحرب الخنادق ، الامر الذى كان مساهما في نتائج الحروب المتعددة مع إسرائيل.

لقد انتصرت، في النهاية، أساليب الحرب الحديثة وأصبح تبنيها عاما في كافة البلدان، خصوصا اثناء الحرب العالمية الثانية وفى اعقابها، وما زالت أفكارها هي السائدة برغم التقدم الكبير فى الاسلحة بما تتضمنه من أسلحة مسيرة ذاتيا والصواريخ وأجهزة الاستطلاع الفضائية وغيرها.

لقد كتب هؤلاء المفكرين العسكريين العديد من الكتب ومنهم هانز جودريان وفون مانشتين الالمانيان وزوكوف الروسي وليدل هارت الإنجليزي وغيرهم.

وأقدم لكم أحد اهم الكتب في الحرب الحديثة والذي قام بكتابته المارشال الألماني فون مانشتين، هذا الكتاب الذى أصدرته، للمرة الاولى القوات المسلحة المصرية، في ستينات القرن الماضي.

الديمقراطية الثورية بين الماضي والحاضر

بين الاحمر والابيض

تيار اصيل في الوطنية المصرية الحديثة، مثلت بداياته الاولى مشاركته المتميزة في ثورة عرابي، او أن صح القول ثورة 1882، وكان ابرز ممثلية بروزا الآدباتى وشاعر الزجل والصحفي الاديب، عبد الله النديم الذى ذاب بين الشعب بعد الهزيمة لتسع سنوات كاملة ولم يقع في أيدى سلطات الاحتلال الا بوشاية غادرة، رفض الاستسلام للهزيمة في سنوات النفي الاولى أو الثانية، ومثل، مع التيار الذى يمثله، الارهاصات الاولى لهذا التيار العريض الذى لعب ادوارا هامة في تاريخ بلادنا.

وبرغم ذلك فان التحقق الفعلي لهذا التيار لم يجد تجسده الفعلي الا في العشرة سنوات الاخيرة من النصف الاول من القرن العشرون، اى في اربعينات القرن الماضي.

ولعل اعلى تجسد له كان في الطليعة الوفدية وفي اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي قادت الاضراب الشهير ضد معاهدة صدقي - بيفن.

لقد تبنى هذا التيار مطالب ديمقراطية تتجاوز بكثير حدود الديمقراطية الليبرالية كما تجسدت في مطالب وسلوك الاحزاب الليبرالية المصرية ، التي كانت تتخلى عن ليبراليتها ، بدرجات متفاوتة ، عند وصولها الى السلطة ، سواء أكان هذا الوصول بانتخابات حرة أم بالتواطئ الفج والمباشر مع سلطة السراي متخلية بذلك عن ضجيجها الليبرالي ، ولعل من المفيد التذكر أن الاتحاد الاول للعمال والحزب الذى أسسه قد تم تحطيمهما على يد حكومة الشعب الاولى بقيادة حزب الليبرالية الاول ، الوفد المصري وزعيمة سعد زغلول ، برغم انها كانت تحظى بتأييدهما!

وإذا كان الادب السياسي يطلق، احيانا، على التيارات الليبرالية، أسم البيض، فمن المؤكد أن هذا التيار الديمقراطي الثوري كان أكثر بياضا ونصاعة واستقامة سياسية من كل البيض في مصر.

وإذا كان هذا البياض ناصعا فما هو علاقة هذا التيار باللون الاحمر؟ هذا الاحمر الذي تعارف على اطلاقة على التيارات اليسارية، وهنا يبدو الامر ملتبسا، ولكن أذا طبقنا معيارا حازما على اساس من المطالب والاهداف والسلوك السياسي الفعلي، بعيدا عن الرطانة اليسارية، فمن المؤكد أن هذا التيار كان أكثر يسارية من الكثير من فصائل اليسار، أن لم يكن منها جميعا، ولعل موقفة الحازم الغير مساوم والغير متأثر بالدجما والجمود العقائدي والانتهازية السياسية من القضية الفلسطينية في السنوات الاولى السابقة واللاحقة لسنة 1948 ليقدم لنا دليلا ناصعا عن الاحمرار الحقيقي.

واذا اضفنا الى كل ذلك موقفة الحازم من الاخوان المسلمون ومن التيارات الجامدة والسلفية في الادب والفن، لأدركنا اصالة هذا التيار الشعبية ونصاعة بياضة وعمق احمراره.

لقد نشأت الطليعة الوفدية في خضم احتدام الصراع الاجتماعي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وبعد زيادة نفوز كبار ملاك الأرض السابق على وجودها ، ولم يكن هناك هيكلا تنظيميا لها بل مجرد تيارا سياسيا يعكس الطبيعة المزدوجة لحزب الوفد ، فهو حزب وفى نفس الوقت منظمة جماهيرية تلقائية ، الامر الذى تكلمت عنة في مقال منفصل ، فالطليعة الوفدية هي الممثل الحقيقي للمنظمة الجماهيرية وليس الحزب ، وحين يتحدث الوفدين منكرين وجود الطليعة الوفدية فهم على حق من وجه التنظيم الحزبي ولكنهم ليسوا على حق من وجه المنظمة الجماهيرية ، فهو تيار سيأسى حقيقي غير منظم في هيكل تنظيمي ولكنة يمارس تأثيرا متزايدا داخل المنظمة الحزبية مع تصاعد نهوض الحركة الجماهيرية ، الامر الذى أجبر القيادة على السماح لأبرز ممثلية

بالترشح في انتخابات سنة 1950 تحت أسم الحزب ، وما تحدث عنة إبراهيم فتحي في أن محمد مندور كان ممثلا للشعب لدى حزب الوفد يجب أن يمتد الى التيار السياسي للطليعة التي كان مفكرها الأول محمد مندور.

ويبقى توضيح ان تصاعد نفوذ الطليعة داخل الحزب كان يعكس تصاعد الحركة الجماهيرية وطرحها افاقا سياسية تتجاوز موقف الحزب بقيادته واجبرها على الانصياع لرغباته داخل وخارج مجلس النواب، بمساهمة أساسية من التيار السياسي المتصاعد التأثير، المسمى بالطليعة الوفدية.

وكما سبق أن أوضحت في المقال السابق عن حزب الوفد فلقد تشكل للمرة الأولى إمكانية أن يستولى هذا التيار، الممثل الحقيقي للحركة الجماهيرية وليس الحزب، على قيادة الحزب مع تطور الحركة الجماهيرية، ولكن حركة يوليو قطعت الطريق على هذه الاحتمالية، ولا يمكن تقدير تطورات هذا التيار بعيدا عن الواقع الفعلي فلم تكن تطورات الصراع داخل الحزب قد احتدمت بعد بما يقود الى انشقاق الحزب – المنظمة الجماهيرية.

وإذا كان هذا هو التيار الديمقراطي الثوري ما قبل 1952، فانه يتحرر من الكثير من القيود في السنوات الاولى بعد 1952، سنوات الصراع على السلطة بعد الاطاحة بالملكية، ولم يفقد بوصلته بتاتا، فلم يتعاون مع الاخوان أو تنتابه الاوهام الليبرالية أو الاوهام عن طبيعة السلطة الجديدة، واحتفظ بتوجهاته الاصلية وأصبح أكثر حرية في التعبير عنها الى أن احاطت به قيود النظام البونابرتي المعادي للاستعمار والتي احاطت بالجميع.

ولعل العودة الى كتب محمد مندور، أبرز ممثلي تيار الديمقراطية الثورية، المعنون " كتابات لم تنشر" و " محاكمة الضمير الوطني" و "الخطاب السياسي ووعى الثورة "، ستكون بالغه الدلالة لإيضاح ما اريد أن أقوله هنا، فيما يتعلق بمواقف هذا التيار الديمقراطية والاقتصادية والاجتماعية في اربعينات وبداية خمسينات القرن الماضي.

الا أن هذا التيار لم ينقرض، بل فرض علية السكون والتراجع مؤقتا متأثرا بإنجازات النظام الناصري وقبضته الأمنية الشديدة، لتعاود إرهاصاته في العودة من جديد بدءا من ما سمى بأحداث احكام الطيران عام 1968، ولعله من الواجب التوقف على مسار تطور هذا التيار منذ ذلك الزمان الى زماننا الحالي، ولكن من المؤكد أن هذا التيار قد فقد الكثير من التحديد البرامجي، وفقد القيادة الرشيدة ولم يتحول الى تيارا جماهيريا يناظر ما أستطاع الوصول الية في اربعينات القرن الماضي.

أنى على قناعة راسخة أن مستقبل بلادنا رهن بانبعاث هذا التيار من جديد، تيارا يتبنى الاحلام الشعبية في التقدم والاستقلال والتنمية والعدل الاجتماعي وإقامة ديمقراطية شعبية حقيقية متجاوزة أوهام الليبرالية السياسية، تيارا يستطيع أن يتبنى برنامجا جديدا يستجيب للمهام الوطنية الحالية مشكلا برنامجا للحد الأدنى، برنامجا يفتح الطريق للمستقبل.

كشف الغمة عن أحوال الامة ....ورشدي سعيد

الستة عشر والامل المنشود وسد النهضة

في كتابة البديع عن نهر النيل يكشف رشدي سعيد عن التاريخ الجيولوجي لانهار النيل، نعم أنهار النيل، فالنيل الحالي هو نهر حديث نسبيا، وقد سبقته أنهار نيل أخرى انتهت حياتها لتحل محلها أنهار نيلية أخرى في دراما جيولوجية يقدمها في لغة علمية شعرية تخلب الالباب.

ولا يتوقف إبداعه عند الجيولوجيا، بل يقدم رؤية تاريخية في علاقة البشر بالأنهار التي سميت بالنيل، فهل حقا وفعلا أن مصر هي هبة النيل أم هي هبة البشر الذين هبطوا الى الوادي بعد أن أستقر النيل الحالي منذ 10 الى 12 ألف عام، لتنشأ هذه الحضارة الإنسانية العظيمة وتقدم للإنسانية فجر الضمير مكتوبا، وتقدم أيضا تصوراتها لفهم العالم والكون في رؤية شعرية تختلط فيها التصورات الدينية مع حياة البشر، فهل حقا وفعلا كان حورس باحثا عن العدل؟ وهل حقا يظهر في صورة الصقر الذي لا يأكل الجيفة؟ أم هو أسقاطا شعريا لحياة البشر الفعلية؟

ومن المؤكد أن " جالب السعادة "، أي معنى كلمة " حابى " الذى أطلقه المصريون القدماء على النيل ،كان يحظى منهم بعناية فائقة في ضميرهم المتطور بالا تلوث النهر ، الامر الذى انعكس على معتقدات شعوب المتوسط ، حيث تستطيع أن تشاهده في متحف الفاتيكان مستلقيا وحولة الستة عشر وسوبك وايزيس ، الستة عشر الذين يشيعون السعادة عندما يفيض النهر ويرتفع ستة عشر ذراعا كي تتمكن إيزيس من نشر قطع جسم أوزيريس كي تعم الخضرة والنماء في حماية سوبك "الاله المرتبط بتماسيح النيل ، ويمثل صوريا إما في شكل التمساح أو في شكل إنسان برأس التمساح، الاله المرتبط بالخصوبة والبراعة العسكرية والوقاية ضد الأخطار بصفات طاردة للشر، وبالذات التي يمثلها النيل بفيضانه .

فهل يأتي الستة عشر من الهضبة الاستوائية ومن المرتفعات الاثيوبية بعد بناء سد النهضة؟ وهل المخاوف التي يعبر عنها قطاع هام من الرأي العام تعبر حقا وفعلا عن حجم من الخطر يمثل حد المأساة أم لا؟

فما الذي يقدمه لنا رشدي سعيد في كتابة البديع، المنشور في نهاية القرن الماضي، كي نفهم؟

فنهر النيل عند الخرطوم يتشكل من التقاء النيلين الأزرق النابع من الهضبة الاثيوبية والابيض النابع من الهضبة الاستوائية والاثيوبية ثم يضاف إليهم نهر عطبرة شمال الخرطوم.

فأين سيقام سد النهضة؟ سيقام على الفرع الرئيسي للنيل الأزرق عند التقاء الحدود السودانية الاثيوبية، ولكن هذا النيل يلتقي مع رافدين أخرين داخل الأراضي السودانية والنابعين من الهضبة الاثيوبية كذلك، هما الرهد والدندر، كي يصل كامل تصريفه عند الخرطوم الى 50 مليارا من المياه من التصريف الكلى للنهر عند أسوان والبالغ 84 مليارا من المياه (دون اعتبار الاستهلاك عبر المسار).

أي أن سد النهضة سيتحكم في مقدار من المياه يقل عن 50 مليارا بعد الاخذ في الاعتبار الرهد والدندر برغم انهما نهرين موسميين وكمية مياههما صغيرة قياسا على النيل لازرق، لكن هذه الكمية من المياه لابد من إمرارها عبر السد لتوليد الكهرباء والا فقد السد الهدف الرئيسي من بنائه.

فما هو التوصيف الدقيق لمخاطر سد النهضة؟ نعم هناك مخاطر، ولكنها ستوجد فقط في حالة تتابع سنوات من الايراد المنخفض للنهر، ولكن وجود السد العالي وبحيرته سيخففان كثيرا من الاثار السلبية.

ويبقى أن على الراي العام إدراك الضرورة الحتمية لترشيد وتطوير الاستفادة من نهر النيل، بترشيد استخدام المياه وتطوير أساليب الري وإعادة استخدام مياه الصرف الزراعي والمنزلي ثم تدعيم التعاون مع دول النهر لتنفيذ مشاريع أعالي النيل لتقليل الفاقد بحيث يستفيد منها الجميع.

أن ترشيد استخدام المياه ليس قضية فنية او اقتصادية، بل هي قضية اجتماعية كبرى لها جوانب متعددة وانعكاسات سياسية عميقة وهي الامل المنشود فى التوسع الزراعي، ووسائل الترشيد معروفة ومكتوبة سواء في كتاب رشدي سعيد أم في غيرها من الكتابات، فهل نستطيع؟

فلا يفتى ومالك في المدينة، اليس كذلك؟

تحية الى ذكرى الأستاذ الكبير الدكتور رشدي سعيد.

فجر الضمير والفخر القومي

في كتابه البديع، فجر الضمير، اوضح عالم المصريات الأمريكي الشهير، جيمس هنري برستد، في الثلاثينيات، حين أصدر كتابه الشهير، أن الضمير الإنساني هو اختراع مصري فرعوني اصيل، وأن القيم الإنسانية المكتشفة و المتبناة، اجتماعيا، أصبحت ليس فقط الضمير الإنساني المصري العام، بل أثرت، لاحقا ، في المعتقدات الإنسانية العامة بأشكال مختلفة.

وبرغم أن اكتشاف برستد فكرة خلابة وتدعو الى الفخر القومي، وخصوصا ان المصريين، كل المصريين، يرضعوا هذا الفخر بالتاريخ، مع الرضعة الأولى لهم على وجهة الدنيا، الا انى اعتقد انها غير دقيقة.

فالضمير الإنساني هو، باختصار، مجموعة من القيم والقواعد والنواهي تضمن، باتباعها، استمرار المجتمع، وهي لذلك، بالضرورة، شيء متغير بتغير طبيعة المجتمعات وتطورها، لكنها تصعد من مستوى الى مستوى اخر محتفظة بالكثير من محتواها الاول بعد تطوير محتواه بما يتناسب مع طبيعة المجتمع الجديد.

الضمير الإنساني، بالضرورة، نشأ عندما تجمع الإنسان في مجموعات لمواجهة الطبيعة ونشأت قواعد اخلاقية تضمن استمرار المجتمع الذي لم يكن يحقق فائضا اجتماعيا يسمح بنشوء الملكية الخاصة.

ولذلك من حق المصريين ان يشعروا بالفخر، ليس لأنهم من " اخترع الضمير "، بل لأنهم من أوائل الشعوب التي كتبته وقدمته الى الانسانية، تعبيرا عن مجتمع سابق في التطور، مجتمع زراعي متطور تحمى تطوره عوامل جغرافية لمئات إن لم يكن آلاف السنين، ضمير يعكس مستوى تطورهم الاقتصادي والاجتماعي.

ويقدم لنا التاريخ الإنساني دروسا بليغة ، دروسا ليست عائدة الى الدراسات الاجتماعية عن تطور المجتمعات تاريخيا ، بل عن مجتمعات معاصرة كانت مازالت في مرحلة البداوة الأولى ، في شمال القارة الامريكية ،التي قدمتها السينما الامريكية في افلام هامة توضح الضمير الإنساني لهذه القبائل في مواجهة التوسع الرأسمالي العاتي، ومنها فيلم "العسكري الازرق" وفيلم " رقص مع الذئاب"، وهما يوضحان الفرق بين الضمير الإنساني لقبائل مازالت في مرحلة البداءة، مرحلة ما قبل الملكية الخاصة، والضمير الإنساني لمجتمع رأسمالي في فترة النهوض.

ولذلك يحلم الحالمون بمجتمع ذو ضمير متطور يعكس ما بلغته الإنسانية من تطور إنتاجي وعلمي عظيمين، ضمير لا يمكن تحقيقه الا بتغير اجتماعي عميق يعود بنا من جديد الى عصر البراءة الأولى.

جولة ....معسلة

لقد وقعت داخل زلعة العسل الاسود، الذي لا احبة، كما سبق أن أوضحت، لكن دراسة زراعة المحاصيل المنتجة له لابد وان تتم على مستويين، المستوى الاول مستوى فني من الاختصاصين الزراعيين، ومنهم مراكز الابحاث التابعة لوزارة الزراعة واساتذة الجامعات المختصين سواء في الاقتصاد الزراعي أم في انتاج المحاصيل نفسها وفى الري، ثم الاختصاصيين في مصانع السكر واقتصاديات هذه الصناعة، وبعدها يأتي دور الاقتصاديين والسياسيون المهتمون بالشأن العام.

لقد لاحظت تباينات فنية حول محصولي إنتاج السكر، أي قصب السكر وبنجر السكر، تباينات في الآراء الفنية، وهي أمور لا أستطيع أن احدد فيها موقفا، كما لاحظت أيضا توفر بعض البيانات عن صناعة السكر وتطورها وتنوع اشكال الملكية وتزاوجها بين راس مال الدولة وراس المال الخاص والأجنبي، كما لاحظت وجود بيانات متعلقة بأسعار الشراء من المزارعين وأنواع الاتفاقات التعاقدية، كما تتوفر بيانات عن تطور
حجم الإنتاج من كلا من المحصولين، كما لاحظت غياب بيانات المنتجات الإضافية في زراعة وصناعة السكر لتحديد الجدوى الاقتصادية لكل من المحصولين.

كما تتوفر بعض البيانات حول البذور والتقاوي للبنجر والدول التي تنتجها وانواعها، وبعض المعلومات الفنية حول محاولات إنتاجها في مصر ، كما تتوفر بعض بيانات تكاليف زراعة البنجر و القصب وانواع الأراضي الملائمة لكل منها.

كما لم أستطع الحصول على بيانات كافية حول مصانع انتاج السكر ذاتها وبالذات الكفاءة الإنتاجية، فالعديد من مصانع السكر التي تستخدم قصب السكر هي مصانع قديمة جدا مقارنة بمصانع الإنتاج من البنجر ولا تتوفر بيانات عن تحديثها، برغم علمي بوجود مركز لتصميم مصانع السكر بشركة السكر والتقطير المصرية تم أنشاؤه في زمن رئيس مجلس الإدارة الأسبق، عبد العال خليف، الذي دمره طموحة السياسي، ولا اعرف مصير هذا المركز الان، المركز الذي صمم مصانع للسكر في إيران.

لقد لفت انتباهي كذلك محاولات زيادة الإنتاجية من قصب السكر بتغيير طرق الزراعة، والفارق الكبير في الإنتاجية بين بنجر السكر الذي يزرع في الأراضي القديمة باستخدام الحدود الدنيا من الميكنة مع إنتاجية الاراضي الجديدة التي تستخدم الميكنة الحديثة، إلا انى لم أستطع الوصول بعد الى أرقام موثقة.

فعلى من يريد ان يسقط في زلعة العسل الأسود أن يحترس!

ويقال إن للعسل الاسود أضرارا على الكلى فهو غني بمادة البوتاسيوم. وفي حالة المرضى بقصور في وظائف الكلى تكون نسبة البوتاسيوم مرتفعة جدا في الدم لذلك فتناول كميات من العسل الأسود يؤدي لتفاقم هذه الحالة وزيادة نسبة البوتاسيوم في الدم لمعدلات قد تشكل خطورة على حياة المريض. فيفضل تجنب تناول العسل الأسود عند التشخيص بالإصابة بأي مرض من أمراض الكلى.

كيف تقرأ تقريرا فنيا عن كهرباء مصر؟

تقدم الشركة القابضة لكهرباء مصر تقريرا سنويا عن توليد وتوزيع الكهرباء وتنشره على موقع وزارة الكهرباء، تقريرا ممتازا فنيا وغنى بالمعلومات الفنية التي يستطيع الاختصاصيون فهمها، ولكن من الممكن أيضا أن يفهمه غير المتخصصين شريطه أن يتلقوا مساعدة صغيرة من الفنيين، واليكم بعض الملاحظات التي تمكن من ذلك.

-القدرة الاسمية لوحدات التوليد: هي قدرتها عند الخروج من المصنع إذا تم تشغيلها فى ظروف عمل قياسية لا تتحقق في الواقع الا لفترة محدودة

-القدرة الفعلية: هي قدرة وحدات التوليد التي تستطيع الوصول اليها في نفس الظروف القياسية وتختلف عن القدرة الاسمية نتيجة لتقادم المحطات أو احتياجها للصيانة، وهى كذلك لا يمكن الوصول اليها الا فى ظروف تشغيل قياسية لا تتحقق الا لفترة محدودة

-نسبة الاستهلاك الذاتي: هي ما تستهلكه الوحدات من إنتاجها لتستمر في الانتاج

-معامل الاتاحية: أي نسبة الوقت خلال العام الذي تستطيع فيه الوحدات الانتاج وهو يقل عن 100% نتيجة للاحتياج للصيانة أو للأعطال الطارئة

-معدل استهلاك الوقود: اى مقدار الوقود المكافئ الازم لإنتاج وحدة انتاج كهربائية، الامر الذي يعنى أنه كلما قل زادت الكفاءة

-الجودة الحرارية: أي كم من الطاقة الحرارية في الوقود تتحول الى كهرباء، وكلما زادت فالأمر يعنى ارتفاع الكفاءة وتقليل التكاليف

-تقوم الشركة المصرية لنقل الكهرباء عبر شبكات الجهد من 33 كيلو فولت الى 500 كيلو فولت وتبيعها الى شركات التوزيع التي تستخدم شبكات جهد أصغر

-الفارق بين مقدار الطاقة الكهربائية التي تشتريها شركة نقل الكهرباء وبين ما تبيعة هو مقدار الفاقد الطبيعي نتيجة النقل عبر الشبكات ويمكن تقليله بزيادة النقل عبر أقصى جهد ممكن، أي 500 كيلو فولت

-الفارق بين مقدار الطاقة الكهربائية التي تشتريها شركات التوزيع وبين ما تبيعة هو مقدار الفاقد الطبيعي نتيجة النقل عبر الشبكات، مع ملاحظة أن امكانيات تقليل الفاقد محدودة ومرتبطة بالتحسينات الفنية في وحدات التوزيع

-يجب ملاحظة ان قدرات التوليد الاسمية في محطات الطاقة المتجددة تختلف كثيرا عن قدراتها الفعلية نتيجة لاختلاف مستوى المياه او زمن سطوع الشمس او تغيير سرعة الرياح ولذلك فان معامل الاتاحية يقل كثيرا عن المحطات الحرارية ويتراوح كثيرا بين نوع التوليد (حرارى / شمسي / مائي) الامر الذى يؤثر على مقدار القدرة الكلية للتوليد

-الان نصل الى القدرة المستهلكة فهي = (الاستهلاك الذاتي) + (الفاقد في شبكات شركة نقل الكهرباء) + (الفاقد في شبكات شركات التوزيع) + (ما يستهلكه العملاء)

-أما القدرة المتاحة فهي = (القدرة الفعلية في اقصى ظروف تشغيل مع الاخذ في الاعتبار معامل الاتاحية) – (10 الى 15% احتياطي)

-وهكذا تصبح القدرة الفائضة = (القدرة المتاحة) – (القدرة المستهلكة)

الحلم والتاريخ والشوق

نعم أنه الشوق الحارق الذي قد يدفعك الى البكاء، إذا كنت متأثرا بالأحلام الكبرى التي يعبر عنها كبار الحالمون، فلماذا يهز وجدانك سيد درويش وهو يغنى " قوم يا مصري" أو "سالمة يا سلامه " عندما يصبح الصباح يا فتاح يا عليم والجيب ما فهوش ولا مليم، أو عندما يطل عليك الصعيدي القح القادم من أقصى الصعيد وهو يبكي بين يدي زرقاء اليمامة مناشدا

لا تصالح ولو منحوك الذهبْ

لا تصالح على الدم.. حتى بدم!

لا تصالح! ولو قيل رأس برأسٍ

أكلُّ الرؤوس سواءٌ؟

وإذا كان التاريخ الإنساني هو تاريخ الصراع الاجتماعي، فمن المؤكد أنه كذلك تاريخ تطور الاحلام الكبرى والمعبرين عنها، فلأيمكن تحقيق الاحلام الكبرى دون أصحابها والمعبرين عنها الذين يقودون هذا النشاط الإنساني نحو تحقيق الحلم، أحلاما تظهر وتتجسد في أفكارا ومعتقدات تتلاءم مع ثقافة عصرها وقيمة الاجتماعية ، قد تكون في شكل أفكارا ومعتقدات دينية أو اجتماعية ، ولا يتطلب الامر الكثير من الحكمة كي تدرك أنه الحلم نفسة في تجسده المختلف عبر التاريخ ، كما لا يتطلب الامر ، كذلك ، إلا قليلا منها كي تدرك أن هذه التجسد يجب النظر الية بمقياس زمانة وعصرة وأوضاعه الاجتماعية ، والا يقع الذى يبحث عن فهم تطور الاحلام في محاكمتها بمقياس عصرة ، أو أن يصبح تحت تأثير سارقوا الاحلام.!

نعم أيها السادة فالأحلام الإنسانية الكبرى تسرق، مهما كانت الاشكال والمعتقدات والبنية الفكرية التي تعبر عنها، حين يتبناها البعض متجاهلين زمانها ومكانها، حين يتمسكون بالأشكال والمعتقدات لأحلام الزمن السابق، ويتشوه الحلم ويصبح هذا البعض عائقا كبيرا أمام اكتشاف كيف يجب أن يكون حلم زمانهم، محتفظا بالجوهر الأصيل، جوهر البحث عن العدل والحرية.

وكثيرا ما يتفاقم الامر بحيث يقع الباحثون عن الاحلام الكبرى فريسة للصوص الاحلام القديمة، فيعجزوا، تحت التأثير الغلاب لانتشار الأحلام المسروقة التي شوهت، عن رؤية الاحلام في زمانها، فيعجزون عن أدراك دورها ومغزاها، فتصيبهم العزلة ويعجزون عن أدراك كيف يجب أن تكون أحلام عصرهم، فيبكون بين يدي زرقاء اليمامة ولا يستمع لهم أحد ويلقى اللوم على الاخرين، لذلك لا يمكن أدراك حلم عصرك دون التخلص من التفكير السلفي والجمود العقائدي ودون أدراك حقيقة عصرك الاجتماعية.

الا هل بلغت، اللهم فاشهد، أم اذهب كي أبكى بين يدي زرقاء اليمامة!

18و19 يناير 1977 والمزاج الجماهيري

تحل ذكرى يناير 1977 كي تعيد من جديد ذكريات تاريخنا القريب والبعيد وتطرح كيف نرى حركة الجماهير وعلى راسها قضية المزاج الجماهيري، مزاج يؤثر كثيرا في حركته وكثيرا ما يفاجئ القوى السياسية المنظمة، بل يفاجئ أيضا قيادات الحركة ذاتها وتطرح، من جديد، العلاقة بين القوى المنظمة بأهدافها وحركة الجماهير التي بالضرورة هي حركة مستقلة.

دروس كثيرة يقدمها ليس فقط تاريخ بلادنا، على الأقل منذ ثورة عرابي 1882، بل يقدمها التاريخ العالمي ولذلك رأيت ان اعيد نشر ما كتبته في التعليق على ذكرى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال.

المزاج الجماهيري

في ذكرى الكفاح البطولي للطلبة بقيادة اللجنة الوطنية للطلاب في عام 1946 ضد مشروع معاهدة صدقي بيفن و الذي حفز تشكيل اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي قادت الإضراب العام في مصر ضد مشروع المعاهدة و ضد حكومة صدقي مغتصبة السلطة وحظيت بدعم من الصحافة الحرة و من بعض المنظمات والتيارات الحزبية العلنية وغير العلنية والتي نجحت في النهاية في إسقاط مشروع المعاهدة والحكومة التي تبنتها ، رغم تأييد اخوان الشياطين لهذه الحكومة ، اسم جدتي الكودي للإخوان المسلمين، الا ان هذه اللجنة لم تستطيع الاستمرار برغم التأييد الشعبي الغامر و النجاح الكبير الذى حققته .

ولكنها تبقى في الذاكرة الوطنية كي تعود من جديد، في زمن جديد، بعد 26 عاما، بقيادات جديدة ليس لها أي علاقة جسدية بالقيادات القديمة، و تقود كفاحا جماهيريا جديدا ضد التخاذل عن مواجهة الاحتلال الصهيوني لأرضنا وارض اشقائنا، و تحظى بدعم جماهيري هائل ومن كبار الأدباء والفنانين و من الكثير من النقابات المهنية.

وفي العام التالي مباشرة، وبعد اختفاء الوجبة الأولى من زعماء الطلبة في الحفظ الأمين، تتفجر الأحداث من جديد وتعجز القيادات المتبقية، رغم ادراكها هي وقيادتها للأهمية البالغة لتنظيم الجماهير، وبرغم قوة الحركة وازدياد تماسكها، فإنها تعجز عن إعادة خلق اللجنة من جديد، برغم وجود الكثير من القيادات خارج الحفظ الأمين، لان المزاج الجماهيري كان يتبنى الاعمال الجماهيرية المباشرة.

ويدور الزمان وتنفجر الثورة بعد أكثر من أربعين عاما وتعجز عن خلق اشكالها الجماهيرية المنظمة التي من المفترض أن تقود، وتقود الأحداث تدريجيا الأحزاب وهيئات الدولة المتبقية و التي حافظت على قدر معقول من التماسك، و يصبح الجمهور الغير منظم أداة هيولي تستخدم برغم الأداء البطولي لبعض المنظمات الحزبية الصغيرة.

وهو ما يطرح من جديد التساؤل القديم الجديد، كيف تتشكل وتموت المنظمات الجماهيرية، هل الأمر رهن بوعى و رغبة العناصر أو المنظمات الأكثر وعيا وادراكا، ام ان هناك عوامل أخرى حاكمة و مؤثرة و ما هي هذه العوامل؟ وهل يمكن تعميمها؟ ام ان التحليل الملموس للواقع الملموس في كل حالة كفيل بتبيان الدروس والعوامل كل في زمانه وظروفه بدون خبرة تعليمية؟!!

اعتقد ان الأساس الموضوعي هو مزاج الجمهور واستعداده ومستوى تطور وعيه العفوي، فلقد تعرضت ثورات كثيرة لهزائم كبيرة برغم توفر التنظيمات الحزبية المتماسكة والقادة الكبار أصحاب الكاريزما و لكن في زمن الثورات كل المنظمات الحزبية، مهما كان تاريخها أو زعمائها، تصبح صغيرة في مواجهة حركة جماهيرية عارمة.

وإذا راجعنا خبرة ثورة 1919 في مصر لظهر بجلاء أن الجمهور كان سباقا بمراحل لمن أصبحوا قادتها فيما بعد بمسارعته الى تشكيل لجان الوفد وبالأعمال النضالية ومنها استقلال جمهورية زفتي.

أما 1977 فلم يكن ممكنا لها أن تتطور إلا باستمرار الغباء السياسي للنظام لأن الجمهور الذي خرج محتجا، خرج من اجل اهداف صغيرة في نفس الوقت الذي أدرك فيه قادة الدولة الإمكانيات الكامنة لتطور الحركة فقطعوا الطريق عليها بالتراجع عن القرارات.

والمفارقة هنا أن أجزاء من هذا الجمهور كانت قد تلقت تدريبات سياسية ونقابية كبرى قبل الانتفاضة ولعدة سنوات منذ 1968، في حين أن من خرج سنة 2011 كان تدريبة السياسي اقل، ولكنه خرج من اجل اهداف كبرى ولم يخرجه أحد وبرغم ذلك لم تنجح الجماهير في خلق منظماتها الجماهيرية المستقلة التي تتولى القيادة.

وفي ثورة شعبية أخرى، في بلد أخرى، لازلت أتذكر ان الحزب الذي قاد الثورة وانتصر كان حزب أقلية في بدايتها رغم كل قادته الأفذاذ وتاريخهم النضالي، ولكنه أحسن إدارة مواقفه وتوقيتاتها وكافح لكي يحوز الأغلبية في هيئات الثورة المتشكلة تلقائيا، فقادها بعد أن حاز على ثقة الجمهور وانتصر في النهاية بعد شهور طويلة و في ظرف دولي موات.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

هل حقا اتحدث عن المقريزي، أم أتحدث عن سيدي الجيوشى واهب الخلفة للنساء المتدحرجات على سفح سيدي الجيوشى بالمقطم؟

مدد يا سيدي يا رافع الظلم ومحيى البلاد بعد خراب الشدة المستنصرية التي اكل فيها المصريون لحوم الموتى، وهل يكفيك التكريم الشعبي بتحويلك الى ولى من أولياء الله الصالحين الذين يتوسطون لقضاء الحاجات، وهل هي جديدة على المصريين؟

فعلها المصري القديم في الزمن الفرعوني مع بعض شخصيات ممن قدموا خدمات جليلة، ملوكا وعلماء، الامر الذي كان مفهوما ومقبولا في ذلك الزمان البعيد، أما أن تبقى هذه الظاهرة وتنتشر وتعم بقاع الأرض، شمالها وجنوبها، فلو انتظرنا لوقت كافي لتدحرجت النساء أمام ضريح عبد الناصر أو مقبرة ماركس في لندن بحثا عن الخلفة، أنها كارثة ثقافية واجتماعية كبيرة.

فوالذي نفس محمد بيده لو بعث ماركس حيا لانزعج، فماركس الذي لم يكن ماركسيا، كان سياسيا ومفكرا شاملا لم يدع، أبدا، أنه يتلقى الوحى أو ان ما كتبة لا يأتيه البطلان، فكيف بالله عليكم يتحول الى ولى وتكتب عن أفكاره الالاف من الكتب المملة والسخيفة بديلا عن استخدام منهجه واكتشافاته النظرية والتعلم من طريقة تفكيره.

أما عبد الناصر رجل الدولة والسياسي فيلصق بأسمة تيارات سياسية معاصرة تواجه واقعا جديدا، فعبد الناصر توفى منذ خمسون عاما وانتهى زمنه وزمانه، فكيف بالله عليكم تتسمى تيارات سياسية بأسمة، فلولا قليلا من العقل لوجدنا حزب بدر الجمالي أو حزب محمد على ساكن الجنان أو حتى حزب رمسيس الثاني، الذى ملأ البلاد بتماثيله، والذى سمى على أسمة الكثير من ملوك الاسر اللاحقة.

مدد يا سيدي، أما أن الأوان أن ننظر الى الامام ونتحرر من الدوجما ونكتفي بالتعلم من خبرات الماضي، فالماضي لن يعود سواء أكان رمسيسيا أم ناصريا أو حتى ماركسيا، أم أن علينا أن نتدحرج على سفوح المقطم ويا دار ما دخلك شر!

ما بين دوستويفسكي وجين اوستين

وهل حقا هناك وجه للمقارنة بين دوستويفسكي وجين اوستين؟، فالمقارنة يجب أن تتم ما بين دوستويفسكي وشكسبير وكلاهما من أعظم من كتب القصة، إن لم يكونا الأعظم على الاطلاق، لكن هل تستطيع قراءة دوستويفسكي في أي وقت؟ لا أعتقد، وهي إجابة قاطعة من واقع خبرتي الخاصة.

فبداية تعرفي به كانت عن طريق قصة الجريمة والعقاب، قصة عجزت عن إكمال قراءتها، فلقد كان الحمل النفسي أثناء قراءتها لا يحتمل، فتركتها وقررت التوقف عن قراءة قصصه، واستمرت مقاطعتي له عشرة سنوات كامله الى أن أصبحت أكثر نضجا وأكثر قدرة على تحمل الأعباء النفسية لقراءته، فبدأت في قراءته من جديد.

لكن جين أوستن من فصيل مختلف، فصيل يدفعك الى قراءته كلما ضاقت بك الدنيا، فصيل مارك توين وجاك لندن وتشارلز ديكنز، فأنا الان أعيد قراءة " أما" لجين أوستن، ولا أعرف على وجه الدقة عدد المرات السابقة لقراءتها.

فجين اوستن كاتبة انجليزية شهيرة، ذاعت شهرتها بعد سنين من وفاتها المبكرة، كتبت عددا محدودا من الروايات، ولكن رواياتها تخلب اللب بالعمق الإنساني، وتكعبلت في رواياتها في سن مبكرة عندما كنت اطوف بمكتبة ابى، مقري الدائم منذ أن امسك بتلابيبي كامل الكيلاني فوقعت في حب القراءة.

وما بين هذين النوعيين من الكتاب من أصحاب التأثيرات النفسية المختلفة، يوجد كوكبة من كبار الكتاب يقف على راسهم تولستوي وتشيخوف، اللذين تستطيع قراءتهم مهما كانت حالتك النفسية.

أبناء رفاعة وتاريخ الفكر المصري المعاصر

وتلخيص الابريز في ....مناهج الالباب

بين لويس عوض وبهاء طاهر

الحيرة بين التاريخ والسياسة والتطور الفكري تؤدى الى ضياع المنهج وفقد القدرة على تقديم رؤية شاملة للتطور الفكري وتحول تطور التاريخ الفكري الى الدور الفردي للأفراد بمعزل عن الصراع الاجتماعي أو متجاورة معه.

فبرغم اتفاق الكاتبين على أن بداية التطور الفكري المصري الحديث تبدء من رفاعة رافع الطهطاوي ، ويثمن كلاهما الدور الرائد له ، بل يقدمان بعض أفضل ما كتب عنة ، وبالذات ما كتبة لويس عوض في الجزء الأول من كتابة ، وبرغم أن كتاب أبناء رفاعة لبهاء طاهر لا يدعى تقديم تطور تاريخ الفكر المصري المعاصر ، فإن غياب ارتباط الإنتاج الفكري والثقافي لمن قدمهم بالصراع الاجتماعي قد أثر بالسلب على عمق الرؤية وغياب النظرة

التاريخية ، على العكس من كتاب لويس عوض " تاريخ الفكر المصري المعاصر " الذى أنزلق الى تقديم الصراع الاجتماعي وبحيث بدى كما لوكان كتابا في التاريخ وليس كتابا في تاريخ الفكر المصري المعاصر ، برغم تقديمة فصولا عن الجبرتي ورفاعة والأفغاني ومحمد عبدة وفارس الشدياق وعبد الله النديم ويعقوب صنوع ، أي أقترب من تقديم تاريخ تطور الأفكار السياسية وهى جزء من تاريخ التطور الفكري وليست كلا ، وان كان كثيرا ما ينزلق الى التاريخ ويضيع الرابط بين التطور الفكري والصراع الاجتماعي التاريخي ، فتاريخ التطور الفكري لابد من أن يتوقف أمام التطور في الادب والشعر والفنون الموسيقية والمسرح والأفكار الاجتماعية، الامر الذى خلا منة كتاب لويس عوض تحت التأثير الغلاب للتاريخ وتطور الأفكار السياسية.

فكيف لنا أن نتحدث عن تاريخ التطور الفكري، قبل ثورة 1919، دون أن نتوقف أمام البارودي الشاعر ومحمد عثمان وشوقي وحافظ وسيد درويش وقاسم أمين، أي أن نتحدث عن نشوء تيارات فكرية وثقافية وسياسية تعبر عن مصالح طبقية وسط صراع حاد دار داخل بلادنا وعليها.

وبرغم هذه الملاحظات فان كتاب لويس عوض في أجزائه الثلاثة يستحق القراءة باهتمام برؤية نقدية لما يقدمه أحد أبناء رفاعة الكبار.

ابناء رفاعة والغيظ المكتوم

من المؤكد ان كتاب بهاء طاهر " ابناء رفاعة" هو كتاب ممتاز بصرف النظر عن الاختلاف معه، هنا وهناك، حول بعض التقديرات والمواقف، ولكن الاتفاق تام مع التوجه العام للكتاب وبرغم ذلك فإن الغيظ يتملكني.

فالمثقف الكبير بهاء طاهر يمتلك قدرا هائلا من المعرفة عن التطور الفكري منذ أن ظهر رفاعة وأبناءه ،ولو كنت أمتلك مثل هذه المعرفة لكتبت هذا الكتاب الجميل وفق منهج مختلف ، منهج يربط بين التطور والصراع الاجتماعيين وبين التطور الفكري ، ولقدمت تفسيرا للانعكاسات الفكرية والثقافية لهذا الصراع وتأثير هذه الانعكاسات على مجرى الصراع نفسة ، ولبينت كيف ظهر رفاعة نفسة وتلاميذه من بعدة ، في سلسال طويل يبدأ من النديم ومحمد عبدة ولا ينتهى بطه حسين وتلاميذه ، برغم أن هذا الفهم لا يغيب عن ما كتبة بهاء طاهر داخل النصوص ولكنة ليس محورها بل فهم متناثر هنا وهناك، لذلك فالغيظ يتملكني.

تحية الى بهاء طاهر.

سحر الهندسة وسرها

تبدو الهندسة كما لو كانت لغزا لغير المهندسين كما تبدو، أحيانا، للمهندسين أنفسهم، لغزا صعبا ملئ بالمعادلات، بحيث يغرق طالب الهندسة فيها وينسى أصل الهندسة، أي الفيزياء.Physics

وبرغم أن الفيزياء ذاتها مليئة بالمعادلات الرياضية إلا أنها أقرب منال للفهم، لسبب بسيط، أننا نراها كل يوم في حياتنا العادية ونتعامل معها ونتعلم منها.

وسأقص عليكم ما يثبت ذلك، ففي أثناء زيارة لقريتنا استدعاني فلاح، غير متعلم، لرؤية مضخة الري التي تقوم برفع المياه من الترعة لري الحقل، وأثناء توجهنا سويا للمضخة بدأت في التفكير كيف يمكنني أن أوضح له كيف تعمل المضخات بأوضح طريقة بحيث يفهم كيف يتعامل معها.

ولأنى صبور وأريد حقا مساعدته، فلم أتكلم وانتظرت كي يوضح لي مشكلته مع المضخة، وبدأ في الشرح، فاكتشفت انه يفهم عمل المضخة أفضل من بعض الفنيين، ثم يسأل سؤالا وحيدا، من أين يستطيع شراء الكوع الذي يستخدمه في طرد المضخة عندما ينخفض مستوى المياه في الترعة، كوع يأخذ شكل نصف الدائرة لتقليل الاحتكاك ويطيل عمر الكوع بديلا عن الكوع الذي يستخدمه الغير دائري والذي يتأكل سريعا، سؤالا وحيدا لا أعرف إجابته على وجه الدقة لأني أعمل خارج البلاد.

فهم عميق بدون معادلات، فلقد فهم انه عندما ينخفض سطح المياه فإن المضخة تعجز عن السحب، والحل بسيط، تقليل معدل سريان المياه بتركيب الكوع الصغير الحجم على خط الطرد لتقليل حجم المياه المسحوبة، والتفسير الهندسي بسيط، فتقليل معدل سريان المياه يقلل من الاحتكاك الناشئ عن زيادة طول خط السحب لانخفاض المياه، فتستطيع المضخة السحب، وعدنا من زيارة المضخة وانا اضحك و " قفاى يقمر عيش."

درس بليغ لمهندس كبير ومتفوق دراسيا، لم يتلق هذه الطريقة في فهم الفيزياء وهو يتعلم في كلية الهندسة، التي تغرق طلابها في المعادلات الرياضية فينسى الطلاب أساس الهندسة، أي الفيزياء.

وهو نفس الدرس الذي تلقاه من حماة، الأستاذ الكبير الدكتور في هندسة الري وصاحب الضمير الحى، فلقد كان يقوم بنفسة بتصحيح أوراق أسئلة الامتحانات ، بنفسة ودون الاستعانة بمساعديه من الأساتذة المساعدين أو المدرسين والمعيدين ، ثم يعيد مراجعة أوراق الطلاب الراسبون على حده ، فسمعته يحدث نفسه وهو يراجع ورقه طالب ساقط ويقول " هنجحة " ، فسألته هل أجاب الطالب على الأسئلة بما يضمن نجاحة فنفى ذلك ، لكنه أضاف بأن هذا الطالب يفكر كما يجب أن يفكر المهندسين ، أي في الفيزياء، وعندما سيتخرج ويواجه المشكلات سيضطر الى العودة للكتب وسيفهمها ويقوم بحل المشكلة.

ولك أن تتخيل مشكلة مهندس الطيران الذى يضطر للعمل في محطات الكهرباء وفى حقول البترول ومصانع الحديد والصلب بديلا عن العمل في شركات الطيران أو مصانع الطائرات ، وبرغم أن مسؤولياته في هذه المجالات هي صيانة المعدات الدوارة وعلى رأسها التوربينات الغازية ، التي يعرفها جيدا ، لأنها هي نفسها محركات الطائرات ، هي نفس مشكلة المهندسين في التخصصات الأخرى، مثل تخصصات الكهرباء والتحكم الألى ، فهم لا يعرفون العمليات الإنتاجية في هذه الحقول الانتاجية والتي يعرفها مهندسي الانتاج، وهو فهم في منتهى الأهمية لفهم تأثير حالة الماكينات على العمليات الإنتاجية ، ، فماذا يفعل كي يفهم؟.

الحل بسيط، العودة للفيزياء، هذه العودة للفيزياء بدون المعادلات الرياضية والحسابات المعقدة، وهو ما أدركته البلاد الأكثر تقدما، فوفرت العديد من الكتب التي تتحدث عن كافة المجالات الهندسية والانتاجية بدون معادلات أو حسابات، كتب يستطيع القارئ الغير مهندس أو حتى تعلم تعليما أوليا أن يفهمها، ومع تطور وسائل الاتصال الحديثة فإن القارئ المهتم يستطيع أن يجد، مجانا على النت ، العديد من الكتب والمقالات والفيديو التي تشرح كل ذلك بدون معادلات ، وهو ما فعلته عندما كنت التحق بأي مجال إنتاجي جديد.

عاشت الفيزياء!!!

يا هندسة!...

تعبير جميل وشائع الاستخدام ولا يختلف استخدامه بين وصف عمل الميكانيكي الشاطر وبين عمل المهندس المؤهل أكاديميا خصوصا في اعمال الصيانة، لكن مثل هذا الوصف هو وصف خادع، فالهندسة في حقيقتها ليست هندسة، بل هي شيء أخر، إنها تطبيق الفيزياء Physic في الحياة وفى عمليات الإنتاج، ولا يغنى كثيرا معرفة المهندس المؤهل أكاديميا لأدوات العلم، أي للرياضيات وعلم الميكانيكا، التي تؤهله لفهم تطبيق الطبيعة، دون فهم عميق للطبيعة ذاتها.

والفقرة السابقة هي فقرة مثيرة للجدل ومن الصعب فهمها لغير المهندسين لذلك فهي تحتاج الى توضيح من واقع الحياة العملية، ولذلك سأضرب بعض الأمثلة من واقع الخبرة العملية.

المثال الاول

ماكينة كبيرة تبلغ قدرة محركها حوالي 75 ألف حصان وتدور بسرعة تبلغ 10 الاف دورة في الدقيقة، للمساعدة في انتاج حوالي 50 ألف برميل نفط يوميا، ويجب عزل محور دورانها عن الهواء الجوي باستخدام مانع للتسربmechanical seal Dry gas ، وهو يتكون من جزئين، قرص دوار وقرص ثابت ،ولذلك يلزم ألا يتلامس القرصين المصنوعين من سبيكة كربونية، والا تعرضا للتدمير نتيجة الحرارة والاجهادات الناتجة من احتكاك القرص الثابت مع القرص الدوار الذي يدور بنفس سرعة الماكينة، فماذا نفعل؟

فلنعود للطبيعة، فأي جسم يتحرك في مائع، أي في الهواء أو اى غاز اخر، يتعرض لقوة رفع شريطة أي يكون شكله ملائم لتوليد مثل هذا الرفع وبالمقدار المطلوب، لذلك يتم تعديل القرص الدوار بإدخال تعديل بسيط على سطحه بحيث يولد قوة الرفع المطلوبة، لذلك فعندما تدور الماكينة يتباعد القرصين، الثابت والمتحرك، لكن ما هو مقدار التباعد بين القرصين عند الدوران؟

وتنشأ مشكاة جديدة، فالبعد بين القرصين يجب أن يكون أقل ما يمكن، لتقليل استهلاك المائع)هواء أو نوع أخر من الغاز (المستخدم في مانع التسرب ، لذلك تبلغ المسافة بين القرصين عند الدوران 5 ميكرون ، أي واحد على الف من المليميتر ، ولكن أي مائع يتم دفعة داخل فتحة ضيقة ينخفض ضغطة وحرارته ، وقد تنخفض درجة حرارته الى درجة حرارة تحوله من الحالة الغازية الى الحالة السائلة ، فكل الغازات تتحول الى سائل إذا انخفضت درجة حرارتها ، ولمنع حدوث ذلك يلزم أن نرفع درجة حرارته ' قبل مروره بين القرصين ، بحيث لا تصل درجة حرارته الى درجة التحول الى سائل ثناء مروره بين القرصين حتى لا نفقد قوة رفع القرص الدوار ، والا تعرضا للتدمير ، حيث نضطر الى إيقاف الماكينة وخسارة الإنتاج اليومي المستهدف بالإضافة لتكاليف إصلاح مانع التسرب التي تتكلف عشرات الالاف من الدولارات .

أن المثال السابق يوضح بشكل جلى أنه لا يمكن لأي مهندس فهم وإصلاح مثل هذه الماكينة دون فهم سلوك جسم يتحرك في وسط غازي ودون فهم طبيعة سلوك الغازات عند درجات الضغط والحرارة المختلفة، أنها الطبيعة أولا وأخيرا.! ......

المثال الثاني

توربين غازي يستخدم لإدارة ماكينات كبيرة أو لإدارة مولدات الكهرباء، ولأنها ماكينة معقدة فهي تزود بجهاز تحكم ألي أكثر تعقيدا من التوربين نفسه، جهاز يقوم بوظيفتين، الوظيفة الأولى هي التدخل لإيقاف التوربين إذا كانت ظروف تشغيله تعرضه للخطر، والوظيفة الثانية هي التحكم في التشغيل بحيث يؤدى الأداء المطلوب.

ولان هذا التوربين لا يستطيع بدء الدوران إلا باستخدام بادئ للحركة، أي ما يمكن لنا أن نسميه مارش مثله مثل السيارة، حتى يستطيع القاري غير المتخصص ان يتابع، ويقوم جهاز التحكم بمراقبة والتحكم في بدء واكمال دوران التوربين عن طريق اخذ قياسات مختلفة اثنائها وحتى بلوغ سرعته المقدار المطلوب، ولا يسمح بإكمال عملية اكمال الوصول الى السرعة المطلوبة دون التأكد من سلامة قراءات التوربينة المتتابعة عند كل مرحلة اثناء بدء الدوران، طبقا للقراءات المستهدفة، كما يتابع عمل التوربينة بعد ذلك.

والمشكلة التي نتعرض لها هنا هي أن توربينا غازيا كان لا يمكن إدارته، لان محرك بدء الحركة، أي المارش، كان ينفصل عن التوربين مبكرا عن السرعة التي يستطيع فيها التوربين حمل نفسه واكمال مرحلة بدء الدوران للوصول الى السرعة المستهدفة، فماذا نفعل؟

هل ننتظر توفر قطع الغيار المطلوبة التي قد لا تصل الا بعد شهور طويلة ونفقد كمية هائلة من الإنتاج أم ماذا؟

أن الحل يكمن مرة أخرى في الطبيعة، أي كيف تعمل التوربينات الغازية، وماهي قراءات التوربينة اثناء بدء الدوران وإكماله الى السرعة المطلوبة؟ وهل نستطيع تغيير القراءات المتوقعة المخزنة داخل جهاز التحكم بحيث يقارن بين القراءات الفعلية والمتوقعة ويسمح بإكمال الدوران وصولا الى السرعة المستهدفة؟

نعم نستطيع، شريطة المعرفة الكاملة بطبيعة التوربينات الغازية، حيث يمكننا تغير القراءات المتوقعة المخزنة داخل جهاز التحكم، بحيث تكون القراءات الفعلية أكبر منها، الامر الذي تم فعليا بنجاح بعد توقف دام أسبوعين مسببا خسائر جسيمة.

وختاما

هل اتضح الان ان الهندسة هي تطبيق الفيزياء.

نناديكم ايها الجدود

زاد الوجد اليكم ايها الجدود، نحن نحتاجكم، فارجعوا الينا من حيث انتم، من مملكة اوزريس ام من قمة جبل الاولمب، ولا تاتوا فرادى، تجمعوا وادعمونا، فلقد تجرا شواذ الافاق على بلاد الشمس، ولا وقت لدينا ، فلقد تبخرت اوهام البعض عن الكمون الاستراتيجي والقتال دائر بجوار حدودنا ، والاضطراب يعم في الشمال الشرقي و الجنوب و الغرب واخوان الشياطين في الداخل ولوسيفر هذا الزمان ينشط ونحن ايادينا مغلولة ، اناديكم وسأشد على اياديكم حين تحضرون ، الان الان وليس غدا.

مشايخ و ....مشايخ

يبدو الأمر وكأنه لغزا برغم تكراره في مجالات مختلفة وفى عصور مختلفة، الأمر الذي يستدعى التانئ والروية والصبر لمحاولة الفهم وعدم القفز إلى الاستنتاجات والمقولات الجاهزة.

فالعلاقة بين البنية الفوقية، أي المعتقدات الاجتماعية والثقافية وحتى الدينية وتعبيراتها مع البنية التحتية، أي علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، أكثر تعقيدا من كونها انعكاسا ميكانيكيا برغم وجود علاقات يمكننا أن نسميها بالعلاقات الديالكتيكية.

فكثيرا ما نقع فريسة لمقولات الاختزال المريحة والضارة جدا، حين يتم الربط بين تيارات سياسية أو دينية وبين طبقات اجتماعية بعينها في لحظة معينة من تاريخ تطورها، وكأننا نتبنى مقولات نهاية التاريخ التي تخلى عنها أصحابها سريعا، وان كان المنطق الذي قاد اليها مازال سائدا لدى الكثير من المفكرين والتيارات السياسية والثقافية.

ويبدو أن " التحليل الملموس للواقع الملموس " قد اختفى وسط هيولي المقولات، الأمر الذي أضر ضررا بليغا بالإنتاج الفكري والثقافي، وغابت النظرة النقدية التحليلية، وأصبح أصحابها فريسة للانتقاد ليس انتقالا من نظرة تحليلية نقدية تصل إلى استنتاجات مختلفة، بل انطلاقا من "المقولات " التي أعيت الجميع بما فيهم أصحابها انفسهم، فلم يعد يسمع لهم احد.

لقد اثأر هذا التعليق مقال لاحد الكتاب السياسيين نشر في جريدة الأهرام منذ خمسة سنوات وأعاد أحد الأصدقاء نشرة من جديد على موقعة، وبرغم انى لا ارغب في مناقشة المقال، ولكنى ارغب في لفت الانتباه فقط لضرورة بحث أسباب نشوء وانتشار تيارات الإسلام السياسي وعنفها بعيدا عن المقولات ونظريات المؤامرة والعمالة وغيرها من المقولات المريحة والتي بتبنيها نعجز عن تبنى الأساليب الملائمة لمواجهة هذا السرطان الذي ينهش جسدنا.

فلماذا نشأ تيارا تجديديا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر؟ لماذا ظهر تيار الأفغاني ومحمد عبدة وعبد الله النديم؟ وكيف تطور هذا التيار إلى كتابات الشيخ على عبد الرازق والقاضي الشرعي احمد أمين وكيف تجلى السلوك العملي الجديد في الشيخ صفوان أبو الفتح، وكيف ولماذا نشأ الإخوان المسلمون ولماذا استطاعت التوسع والتمدد؟ هل لان هيئة قناة السويس قد تبرعت لهم بخمسمائة جنية؟!

وبالقطع فان هذه الأسئلة تمتد إلى التغيرات اللاحقة إلى يومنا هذا، الأمر الذي يتطلب بحث الظاهرة من خارجها وداخلها، أي في علاقتها بالتغييرات الاجتماعية والسياسية والدولية بعيدا عن المقولات الجاهزة التي أعيت الجميع.

نعم أيها السادة نحن لدينا مشايخ ومشايخ فلنتروى قليلا ونبحث بجدية لعلنا نجد لنا مخرجا من هذا الكابوس المسمى بالإسلام السياسي أو الإرهابي، سمة ما شئت!!

تعويذة سحرية مندورية الى حورس

هل ستعود؟

زاد الشوق اليك ايها القوى يا صاحب العدل والخير فمتى ستعود؟ أنا أعرف جيدا أنك لم تختفي أبدا وأنك تعود مرارا وتكرارا بشكل غير مرئ ، ملهما الأخرين بالقتال من أجل العدل والخير ، ولكنك كثيرا ما يطول غيابك والعمر ليس طويلا بما يكفي لانتظار عودتك فهل تعود رفقا بأحد الحالمون بالعدل والخير ؟

لقد رأيت ظلك عدة مرات ولكنك تختفى سريعا وتترك الحالمون يقاتلون طيور الظلام، فمتى ستعود؟ وهل ستعود ؟ أم أن علينا أن نعيدك؟ لقد حاولت كثيرا ورأيت ظلك مرارا وتكرارا ولكن متى ستبقى ؟ وهل لن تأتي إلا عندما نستحق حضورك وبقائك؟ ولكن الحمل ثقيل والعقول غائبة والحرث في الماء لا يترك أثرا ، ويبدو الأمر كما لوكنت أكرر كلام أبى ، وهو يتوجع في أخر أيامه ، بأنه كان يحرث في الماء لمدة 25 عاما ولكن حرثه لم يذهب هباء لو دققت النظر ، فحتى الماء يمكن حرثه ، سيجده الغاوون غدا ، وعندها ستعود وقد لا أراك إلا من قمة جبل الأولمب ، أو عندما يستدعينا الغاوون مع كبارنا الذين ينتظرون على أحر من الجمر .

نعم ستعود أنت ومن الهمتهم بالقتال من أجل الحق والخير وسيستدعيكم الغاوون غدا، وعندما ستعود سيعلمون على أن تبقى وتتبوأ عرش أبيك، عرش العدل والخير.

جدل الحركة الجماهيرية وحزب الوفد القديم

التصورات النظرية لأشكال حركة الجماهير لها مفاهيم محددة تقدم تعريفات لأشكال حركة الجماهير، لكن هذه التعريفات تبقى تعريفات نظرية رمادية، مثلها مثل كل النظريات، فالحياة أكثر تعقيدا وحيوية من كل النظريات، ولابد من التنبه لواقع الحياة لاختبار وتصحيح كل النظريات.

فأشكال حركة الجماهير تمتد من الاحزاب السياسية والمنظمات النقابية والجمعيات بمختلف أنواعها، الى المنظمات السياسية التي تتشكل اثناء حركة الجماهير لتقود هذه الحركة وقد ينتهي دورها بخمود الحركة الجماهيرية، مثل اللجنة الوطنية للطلبة والعمال سنة 1946 واللجنة الوطنية للطلاب سنة 1972.

ولابد من التفرقة هنا بين منظمات جماهيرية تتشكل برغبة مجموعة من الناس في توحيد جهودهم نتيجة لتبنيهم أهدافا سياسية أو اجتماعية مشتركة واتفاقهم على قواعد العمل المشترك ، وهى غير مرتبطة ، كي تبدأ ، بحركة الجمهور او رغبته ، وإن كان يتأثر بالطبع بها بأشكال مختلفة، واستمرار هذه المنظمات رهن برغبة أعضائها، وبين منظمات تنشئها الجماهير بشكل عفوي أثناء حركتها ، وقد تستفيد او تستدعي خبرات جماهيرية سابقة ، وفى الغالب تضم خليط من تيارات و توجهات سياسية مختلفة مشاركة في الحركة ، ولكنها متوحدة حول أهداف مشتركة ، وتنتهى حياة مثل هذه المنظمات بانتهاء الغرض من انشائها او بتقلص حركة الجماهير.

ولقد لفت نظري الطابع المزدوج لحزب الوفد القديم ، فهو ويا للعجب لم يشكله أحد ، بل شكلته حركة الجماهير اثناء حملة جمع التوقيعات لأثبات ان من ذهب لمقابلة المندوب السامي البريطاني ، مفوضون من الأمة للذهاب لمؤتمر الصلح لعرض مطالب الشعب المصري في الاستقلال ، وتتحول لجان جمع التوقيعات ، بشكل تدريجي ، الى حزب سياسي ، وبرغم انتهاء الظروف الاستثنائية ، بانتهاء الثورة ، وتشكيل حكومة الشعب الاولى ، فان الحزب يستمر في الوجود ، و يحتفظ بطبيعته المزدوجة ، فهو حزب سياسي و منظمة جماهيرية تلقائية في نفس الوقت ، مثله مثل الضوء يتصرف مثل الاشعة احيانا او باعتباره حركة جسيمات في احيانا اخرى ، وهو ما يفسر أن كل من انشق عن حركة التيار الرئيسي "للمنظمة الجماهيرية – الحزب " كان مصيره التمتع

بكونه من الاقلية ، مهما كان دوره وتاريخه، لكن مع التطورات الاجتماعية والسياسية في السنوات اللاحقة ، فان الطابع المزدوج يبدأ في التقلص لمصلحة الحزب السياسي.

أن تتبع تطور هذا الحزب يوضح بجلاء هذا الطابع المزدوج ، خصوصا حين نتوقف أمام الانشقاقات ، وجميعها انشقاقات تتبنى توجهات مختلفة عن أهداف المنظمة الجماهيرية الاولى ، ففي الانشقاق الاول ، عدلي يكن وزملائه ، هتفت في وجوههم الجماهير " سعد زعيم الأمة ما تقولوا يحيى سعد " ، وتكرر الأمر في الانشقاق الثاني سنة 1930 بخروج معظم القيادة ، والذين سخر منهم الشعب بتسميتهم " السبعة و نصف " ، سخرية من على الشمسي باشا الذى كان قصير القامة ، أما الانشقاق الثالث والذى كان متوقعا أن يكون شديد الوطأة ، ليس فقط لأنه كان بقيادة ابناء سعد الروحيين من قادة الجهار الخاص لثورة 19 وبدعم مباشر من ام المصريين ، صفية زغلول ، ولكن أيضا لان الحزب كان قد تغلبت داخلة الحزبية على المنظمة الجماهيرية ، وبرغم كل ذلك " فالحزب - المنظمة الجماهيرية " ارسلتهم الى الاقلية برغم الاسم اللامع ، السعديين، وتكرر الأمر مرة ثانية مع انشقاق الرجل الثاني في الحزب سنة 43 بقيادة مكرم عبيد الذى شكل حزب الكتلة .

الا أن انطلاق الحركة الجماهيرية في اعقاب الحرب العالمية الثانية تعيد من جديد الطابع الجماهيري للمنظمة و يزداد تأثرها ، مثلها مثل كل المنظمات الجماهيرية ، بمزاج الجماهير وبتغير أهدافه ، وهو ما سينعكس عليها ، بالضرورة ، بتغييرات داخلية ، إن كانت ستظل محتفظة بطابعها المزدوج ، حيث تتشكل داخلة الطليعة الوفدية ، تشكل ذو طابع تلقائي مثلها مثل كل المنظمات الجماهيرية التلقائية ، ويدور صراع كبير داخل الحزب – المنظمة ، بين الطليعة الوفدية التي وصف المفكر ابراهيم فتحي ، منذ خمسة وعشرون عاما ، أحد قادتها الكبار ، الدكتور محمد مندور ، بأنه كان ممثلا للشعب لدى حزب الوفد، وهو وإن كان وصفا صائبا إلا أنه كان يجب أن يمتد ليشمل الطليعة الوفدية كتيار ، صراع مع الاتجاهات اليمينية الأكثر ارتباطا مع كبار ملاك الأراضي ، وتتشكل للمرة الأولى داخل هذه المنظمة الجماهيرية - الحزب إمكانية تشكيل قيادة جديدة ، أكثر تعبيرا عن الأهداف الجماهيرية الجديدة ، التي ساهمت الطليعة ، مع غيرها من التنظيمات الحزبية الاخرى ، وبالذات اليسارية ، في تبلورها.

ولكن تأتي حركة ضباط 23 يوليو كي تقطع الطريق على هذه الامكانية، أي على احتمالات خلق نظام شعبي معادى للاستعمار، ليبدأ طريق جديد ينهار فيه حزب الوفد وتختفي الطليعة الوفدية.

يبقى ان اوضح ان حزب الوفد الجديد وبرغم مساهمة بعض قادة الحزب القديم في تأسيسه، إلا أنه حزب تقليدي مثله مثل كل الأحزاب الاخرى.

محمد مندور واللغة

في كتابة "في الادب والنقد " والمنشور عام 1949 يقدم مندور رؤية مذهلة في النقد اللغوي، رؤية اوضحت لي الكثير من الحقائق، ولعل أهم ما استنتجته من هذا الجزء من كتابة هي أن أكتب بالسليقة، أي ان اعتمد على إحساسي اللغوي و أن اكتب بدقة بحيث يكون النص معبرا عن الفكرة والاحساس ، كتابة السليقة التي تعبر عن المستوى الثقافي للكاتب وعن تكوينه النفسي وخبراته الحياتية بل عن موقفة الاجتماعي ايضا .

واليكم ما كتبة مندور

النقد اللغوي

اللغة هي المادة الأولية للأدب، وهي بمثابة الألوان للتصوير أو الرخام للنحت، بل لا شك أنها ألصق بموضوع الأدب من هذه المواد الأولية لموضوع فنونها؛ وذلك لأن الفكرة أو الإحساس لا يُعْتَبَرَان موجودين حتى يسكنا إلى اللفظ، وكثيرًا ما تكون المشقة في إخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ، وأما قبل ذلك فلا وجود لهما على الإطلاق، وكثيرًا ما يكون الخَلْق الفني مستقرًّا في العبارة ذاتها، بحيث إنك لو أعدت التعبير عن الفكرة أو الإحساس لانتهيت إلى شيء مغاير للخلق الفني الأول. فمثلًا الشاعر العربي الذي يقول للتعبير عن وقت الظهير: «قد انتعلت المطيُّ ظلالَها» لا يقصد التعبير عن أن وقت الظهيرة قد حان، بل يقصد خلق صورة فنية؛ وهكذا يتضح أن اللغة لم تَعُد وسيلة للتعبير، بل هي خَلْق فني في ذاته، وإلى مثل هذه الأفكار أشار أحد كبار الكُتَّاب عندما سُئِل: أيهما أهم، اللفظ أو المعنى؟ فأجاب بسؤال آخر: أيُّ شفرتَي المقص أقطع؟ وإذا كانت اللغة على هذا الجانب العظيم من الأهمية، فإن الإلمامَ بها إلمامُ إحساس ومعرفة — ولا معرفة عقلية فحسب — هو سر الكتابة وهو هبة الأسلوب؛ وذلك لأن للألفاظ أرواحًا يجب أن تُدْرَكَ. وهكذا يتضح أن معرفة علوم اللغة من نحو وصرف وغيرها ليست كل المعرفة، وإن تكن أساسًا صُلبًا لا يمكن التسامح فيه، وإنما يجب أن نتعدَّى هذه المعرفة إلى المعرفة العاطفية التي أشرت إليها، وهي — وإن يكن مرد معظمها إلى هبات النفس — إلا أنه يمكن اكتساب الكثير منها بطول القراءة والإمعان فيما نقرأ. وتظهر عادةً مقدرةُ الكاتب على الإحساس باللغة في استعماله للصفات إن قسطًا وإن إسرافًا، ومواضع هذه الصفات أيضًا أمر بالغ الأهمية، والمُلاحَظ عند كبار الكُتَّاب أنهم يؤثِّرون ويهزُّون المشاعر بالوقائع المادية وجمعها جمعًا متلاحقًا في تصاعدٍ قويٍّ بحيث لا يُصْدِرُون حكمهم إلا في النهاية وعلى نحو خاطف.

فلو أنك مثلًا — كما يقول المؤرخ «تيير» — أردتَ أن تصف بطولة جيش نابليون في عبور الألب، فأخذتَ تُسْرِفُ في اللفظ، وتنثر هنا وهناك الصخور والثلوج، لما وصلت إلى شيء غير إملال القارئ، وخير من ذلك كله أن تحدِّد الأشياء بدقة، فتذكر عدد الفراسخ التي سارها هذا الجيش، وتصوِّر الأمكنة التي عندها لم تستطع الدوابُّ أن ترتفع، ولم يعد يستطيع الصعودَ إلا الإنسان، ثم تُعطي القارئ أرقامًا وأوزانًا عن العُدَدِ الحربية والذخائر والمؤن التي حُملت إلى تلك المرتفعات الشاهقة، وعندئذٍ — كما يقول «تيير» — إذا افترَّتْ شفتا الكاتب الدقيق عن كلمة إعجاب، فإن هذه الكلمة ستذهب رأسًا إلى قلب القارئ؛ لأن الإعجاب سيكون قد تولَّد بالفعل، ولن تكون العبارة عنه إلا مجرد استجابة لهذا الإعجاب.

والنقد اللغوي يتطلب معرفة صحيحة بتاريخ وتطور دلالات الألفاظ، وبخاصة الصفات والألفاظ العاطفية والمعنوية؛ وذلك لأنه إذا كانت أسماء المادِّيات ثابتةً فإن المعانيَ المعنويةَ والعاطفيةَ دائمةُ التحوُّل، وكثير من الكُتَّاب في كافة اللغات يُجدِّدون من وسائل الأداء برجوعهم إلى المعاني الاشتقاقية للألفاظ، ومن واجب الناقد أن يفطن دائمًا إلى التمييز بين المعنى الاصطلاحي والاشتقاقي؛ حتى لا يُخطئ فهمَ الكاتب أو يحمله ما لا يريد. ولنضرب لذلك مثلًا بلفظة «الزكاة» فمعناها الاشتقاقي هو التطهير، وأما معناها الاصطلاحي فمعروف في الدين الإسلامي، والفرق بين المعنيَيْنِ كبير.

وهناك في النقد اللغوي مسألة جسيمة هي مبلغ الحرية التي يستطيع الكاتب أن يتحرك في حدودها، وفي القرآن نفسه خروجٌ في غير موضع على قواعد النحو الشكلية، ولقد التمس علماء البلاغة لأمثال هذا الخروج مبرراتٍ بلاغية، ولعله يكون من الخير التزمُّت النحوي عند نقدنا للكتَّاب الناشئين؛ حتى لا يُخفون جهلهم خلف بلاغة

مدعاة، وإنما يباح الخروج على القواعد لكبار الكُتَّاب الذين لا يعدلون عنها إلا عن قصد وبينة؛ وذلك لأن أمثال هؤلاء يحتجُّ بهم على اللغة، ولا يحتجُّ باللغة عليهم ما دامت اللغة كائنًا حيًّا تتطور وعقليةً من يتكلمونها. ولقد تميز في الغرب كُتَّاب بما في أسلوبهم من نتوءٍ لا يعدو أن يكون خروجًا على الدارج من الاستعمالات والتراكيب، وهذا النفر يُطلق على الطريقة التي يبنون بها عباراتهم «كسرُ البناء». ومن النقاد وبخاصة في الغرب مَنْ يرون أن اطراد الصحة اللغوية بمعناها الدارج لا يصدر عنه إلا أسلوب مسطح لا جدة فيه ولا رونق له، وهم يؤيدون رأيهم بالحقيقة الإنسانية المعروفة من أن الكمال المطلق مملٌّ في ذاته، وأنه من الخير أن تأخذ الكُتَّابَ من حين إلى حين نزوةٌ من شيطان الأدب تخرج بهم عن التعبير المتوقع المألوف، كما تصيبهم نفس النزوة أحيانًا في مجال الفكر، فلا يأتون بالفكرة التي يوجبها السياق، بل يصدمون القارئ بما لم يتوقع فتصحو أعصابه.

وفي أسلوب القرآن ذاته أمثلةٌ رائعةٌ يمكن أن تُسَاقَ للاستشهاد على هذه الحقائق، وذلك مثل استعماله الإفراد بدلًا من التثنية في قوله تعالى فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، أو بالإفراد عن الجمع كقوله: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، وكذلك تقديم الضمير على ما يفسره في الآية: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى إلخ.

وإذا كان هناك أسلوب يستحق أن يُحَاربَ من كل ناقد يخدم فنه فإنما هو أسلوب الذاكرة، فالكاتب الذي يكثر من استخدام التعابير المحفوظة التي طال استعمالها؛ حتى هزلت وامَّحَتْ معالمها كالنقود التي يأكلها التَّحَاتُّ من كثرة التداول — لا يوصَف إلا أنه كاتب مصابٌ بالكسل العقلي، ومن واجب الناقد أن يضطرَّه دائمًا إلى أن يبحث — ككاتب — عن تعبيره هو عن فكرته بدلًا من أن يلجأ إلى استعارة ذلك التعبير من كتابة الماضي. ثم إن كثرة استخدام المحفوظ لا بد أن ينحرف بالتفكير عن اتجاهه أو تلوينه العاطفي على الأقل؛ وذلك لأن الأفكار ذاتها — فضلًا عن الإحساسات — لا يجوز أن تخلو من العنصر الشخصي الذي يعطيها جدتها، وكثيرًا ما نلاحظ عند كُتَّاب الذاكرة أنهم يتمحلون الوسائل عند سياق أفكارهم ليمهِّدوا لما يحفظونه. ووجوب تعبير الكاتب عن فكرته أو إحساسه بعبارته الخاصة هو السبيل لإثراء اللغة وتجديدها، وعلى هذا يجب أن يتوفَّر مجهود الناقد، وإنه لمن الحمق أن يُقَالَ: إن ثروة أو غنى لغة ما يتوقَّف على عدد ألفاظها، وإنما ثروة اللغة تُقَاس بالثروة الفكرية والعاطفية، التي استطاعت تلك اللغة أن تعبِّر عنها؛ فالعبرة إذًا بكمية التعابير وتنوُّعها ودقتها لا بكمية المفردات. وآفة اللغة العربية وكُتَّابها بوجه خاص هي عدم الدقة، وكثيرٌ من المؤلِّفين لا يُدركون أن الكتابةَ الجيدةَ هي تلك التي لا تستطيع أن تُحل فيها لفظًا مكان آخر، وليس في اللغات مترادفات، وهذا ما يجب أن يدركه كل كاتب، وتلك قاعدة تصح ويجب أن تصح حتى بالنسبة للصفات التي أصبحت أسماء فلاحت مترادفة كأسماء السيف والأسد وما إلى ذلك، ولنضرب لذلك مثلًا بالمهنَّد والصارم. وعدم الدقة كثيرًا ما يظهر بنوعٍ خاص في استخدام الصفات؛ وذلك بسبب حقيقة لغوية ثابتة هي أن كثيرًا من الصفات لم تَعُدْ صفات تمييز بل صفات درجاتٍ في التعبير، فإنك لو قلت: «جميلًا جمالًا مخيفًا» مثلًا، لكان من الواضح أنك لا تستخدم لفظ «مخيف» لتمييز هذا الجمال، بل للدلالة على درجته؛ حتى لنلاحظ في كافة اللغات أنه قد يُجْمَع بين الأضداد من الصفات نزولًا على هذه الملاحظة، ولكنه بالرغم من هذه الحقيقة يجب محاسبة الكُتَّاب حسابًا عسيرًا على استخدام الصفات بوجه عام؛ لأن نوع الصفات المستخدمة كثيرًا ما يدل على نضوجٍ أو فجاجةٍ في التفكير؛ فالكاتب الفجُّ محمول على المبالغة، والنضوج اتزان في غير ضعف، وقوة في غير إسراف لفظي، مثل هذا النقد لا يمكن أن يكون إلا في مصلحة الكاتب، وكل كاتب لا رأس مال له غير ثقة القارئ، ولا شيء يذهب بهذه الثقة مثل الإسراف.

وأسلوب الكاتب يمزج عادة بين مادة الفكر ومادة الإحساس، ولا يصحُّ للناقد كما لا يصح للكاتب أن يجعلَ من المادَّتَيْن مبدأين مختلفين، ومن الواجب أن نلفت الكُتَّاب دائمًا إلى سر كبير من أسرار الأسلوب وهو أن الكتابة الجيدة هي ما يمر فيها الفكر بالإحساس والإحساس بالفكر؛ حتى ليصح أن يقال: إن الكاتب الجيد يفكر بقلبه ويحس بعقله، وإذا كان هناك خطر على الكاتب من جفاف الفكر، فإن هناك خطرًا لا يقل عن الأول من «طرطشة» العاطفة. والتلوين العاطفي للفكرة قد لا يحتاج إلى تعبير خاص، بل يأتي من طريقة بناء الجملة إن استفهامًا وإن تعجبًا وإن حضًّا وإن تقريرًّا، أو باستخدام أدوات اللغة الثانوية كحروف العطف والاستفهام وما شاكل ذلك، مما تجدونه مفصَّلًا في كتابَيْ عبد القاهر الجرجاني «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».

وأما انتشار الفكرة وسط الإحساس لإضاءته فأمر أشق من الأول، ولكنه مستطاع باستخدام شيء من منهج المنطق، وتأتي الصعوبة من أن للشعور منطقًا يخالف منطق العقل، ولكنها صعوبة تذلَّل بوضوح الرؤية الشعرية أمام الكاتب؛ فالكاتب المهيمن لا يعدم أن يراه بما يشبه الرؤية البصرية، وتمييزه لذلك الإحساس عما يختلط به من أحاسيس ثانوية، ثم تحديده له على وجه دقيق — كافٍ لإعطائه الصفة العقلية التي نتحدث عنها.

والكاتب الجيد قلَّما يستريح إلى أنه استنفد فكره أو إحساسه، وليس من شكٍّ في أن الكتابة صنعةٌ كغيرها من الصناعات، وليس بصحيحٍ أن الشاعر يُغرِّد بالفطرة كالعصفور، فلا بد إلى جانب الموهبة النفسية من إتقان أصول الكتابة، وفي كل مُنشئٍ ناقد كامن. ومن طريف ما يُرْوَى كلمةٌ للكاتب الفرنسي «ديهامل» قالها عن «بلزاك» و«رودان» فقال عن الأول: إنه قد سَوَّدَ مئاتِ الصفحاتِ قبل أن يعثرَ على «بلزاك». أي إنه استمر في الكتابة حتى عثر على نفسه ككاتب ذي شخصية وأسلوب. وقال عن الثاني: «إنه قد اصطفت قدماه سنين طويلة بالغرفة المجاورة لمعمل فنه» أي إنه قد أنفق وقتًا كبيرًا في المِرَان قبل أن يدخل معمله الذي عمل به تماثيله الخالدة.

ومقياس الجودة في صناعة الكتابة مقياسٌ واحد لا نعرف غيره، وهو أن تكون الصنعةُ مُحْكَمَةً إلى حدِّ الخفاء حتى لتلوح طبيعية، وهذا معنى السهل الممتنع، وأوضح ما يكون ذلك في الموسيقى اللفظية، فهناك موسيقى واضحةٌ كاللون الفاقع تسهل محاكاتها، وهذه ليست بأعمق الموسيقى العميقة؛ فهي موسيقى النفس لا موسيقى اللفظ، وكثيرًا ما تخفى على القارئ العادي، ولكنها دائمًا أصيلة، تعز محاكاتها وتفعل في النفس فعلًا لا يعيه غير القليل من القراء.

وليس من شكٍّ في أن للنثر وزنًا وإيقاعًا كما هو الحال في الشعر، وإن كان أخفى وأقل اطرادًا، ولقد درست أوزان النثر في أوربا، كما درست أوزان الشعر تمامًا، والمقصود بالأوزان هو وجود أمرين:

(١) الكم والإيقاع Quantite et Rythme.

(٢) الانسجامات الصوتية Harmonie Vocalique.

الكم والإيقاع:

الكم : هو الزمن الذي تستغرقه الجملة في نطقها، ومن الواجب أن تكون هناك نسب بين الجمل المختلفة؛ من حيث كمُّها عن طريق التساوي والتقابل.

والإيقاع: عبارة عن تردُّد ظاهرة صوتية، بما في ذلك الصمت على مسافات زمنية متساوية أو متقابلة.

والإيقاع موجود في النثر والشعر مع فارق جوهري واحد هو: أنه في النثر تتطابق الوحدات الإيقاعية مع الوحدات اللغوية، وأمَّا في الشعر فضرورة المساواة بين الوحدات الإيقاعية كثيرًا ما تقضي بأن تنتهي في وسط اللفظ دون أن تكمل الجملة.

وكل نثر لا بد له من إيقاع ما دام الكلام بطبيعته لا بد أن ينقسم إلى وحدات.

وتتميز أنواع النثر بجمال إيقاعها أو قبحه، وليس الجمال دائمًا في الاطراد، فالاطراد كثيرًا ما يُضني إلى حد الملل، وهذا واضح من الأساليب المصنوعة وبخاصة المسجوعة.

ويميز النقاد بوجه عام بين نوعينِ من الأساليب النثرية؛ هما:

(١) الأسلوب المموَّج Style Perlodique.

(٢) الأسلوب المهشَّم Style Haché.

والأسلوب المموَّج يمتاز بطول جمله.

وأما المهشَّم فتقصر فيه الجمل فتتلاحق.

ولعل في أسلوب القرآن ما يوضِّح النوعين: فالمكي مهشَّم، والمدني مموَّج.

ومن الراجح أن يكون تمييز هذه الأساليب صادرًا عن الموسيقى النفسية لكل كاتب، ويجب أن نحسب أيضًا لموضوع الكتابة حسابًا؛ فمن المسلَّمِ به أن الخطابة غير التقرير.

الانسجامات الصوتية:

نلاحظ أن العرب قد درسوا مخارج الحروف، وطرق النطق بها في علوم التجويد والقراءات. وبالرغم من أنهم درسوا مخارج الحروف، وفطنوا إلى وجود أفعال وأسماء أصوات ترتبط فيها المعاني بوقع تلك الأصوات، وتساهم في نقل المعنى أو الإحساس، وبالرغم من أنهم درسوا انسجام الأصوات في علم الفصاحة؛ من حيث الخصائص السلبية لها من نحو انتقاء التنافر والتعقيد، وبالرغم من أن بعض علماء اللغة قد فطن إلى وجود علاقة إيجابية بين بعض الأصوات ومعانيها على نحو ما لاحظ «الزمخشري» في «الكشاف» من أن الأفعال التي تبدأ بنون وفاء تفيد معنى المضي والنفاذ: كنفد ونفذ ونفق — على الرغم من هذا كله لم يدرس العرب خصائص الأصوات من الناحية الإيجابية، ولم يُبيِّنوا ما توحي به كل مجموعة من الأصوات، وما تعيَّن على نقله إلى الغير من معنى أو إحساس على نحو ما نجد مثلًا في شطر البيت:

عودي لنا يا أغاني أمسنا عودي وجددي ذكر محروم وموعود

ففي الشطر الأول نجد أن المقاطع الطويلة تتكون من مدات، وكان يمكن أن تُسْتَبْدَلَ المدات بحروف ساكنة ويستقيم الوزن، ولكن إحساس الشاعر أبى أن يسكن إلا إلى هذه المدات التي تماشيه في استنفاد إحساسه.

وعلى عكس العرب درس الأوربيون خصائص الأصوات من الناحية الإيجابية، وعلاقة كل مجموعة منها بالمعاني والأحاسيس.

المراحيضى والمعقود

بين محمد مندور وسلامة موسى والعقاد

في نقاش قديم على صفحات الجرائد ، كتب الجد سلامة موسى ، ان احد معاير التقدم ان يكون في منزل كل فلاح مرحاض ، ولان عباس العقاد كان على طرف نقيض من التوجهات الفكرية و السياسية وحتى الصفات الشخصية لسلامة موسى ، و في احيانا كثيرة كانت ردوده عنيفة ، خصوصا مع من لا يتفق معه في الآراء ، حيث كان شديد الفردية وغير متواضع ، فلقد علق على ما كتبة سلامة موسى بإطلاق لفظ المراحيضى علية ، وبرغم مرور ما يزيد على ستون عاما على هذا النقاش ، فما زالت نسبة كبيرة من منازل المصريين غير متصلة بشبكة المجاري العمومية و ما زالت مياه المجاري لهذه المنازل تصرف ، اهليا ، في قنوات الصرف الزراعي او في النيل ، وما زالت نسبة كبيرة من ناتج شبكة مياه المجاري تصرف بنفس الطريقة من محطات المجاري غير مكتملة المعالجة ، برغم الجهد الذى ازداد لتعميق معالجتها ولتوصيل الشبكات الى القرى المحرومة، خصوصا في الاعوام الاخيرة.

وبعد هذا النقاش بما يقرب من عشرون عاما ، يشتبك العقاد من جديد مع محمد مندور على صفحات الجرائد ، حيث كان العقاد قد اكمل تحوله الى قوة معيقة للتقدم ، خصوصا عندما ترأس لجنة الشعر بالمجلس الاعلى للفنون و الآداب ، حيث كان يحول ما يصل اليها من الشعر الجديد ، اى شعر التفعيلة ، الى لجنة النثر للاختصاص !! ، اى ان شعر صلاح عبد الصبور و حجازي و ملك عبد العزيز و نازك الملائكة و السياب و غيرهم ، هو مجرد نثر ، و حيث ان محمد مندور كان من نفس الفصيل المتناقض مع توجهات العقاد ، الفكرية و السياسية و الاجتماعية وحتى في صفاته الشخصية ، وكان في نفس الوقت حاملا لشهادات علمية عالية و كان تلميذا لطه حسين و صديقا لسلامة موسى ، ومدافعا كبيرا عن الشعر الفصيح و العامي الجديدين ، فان كل هذا كان كافيا لان يتلقى ردودا حادة وشخصية من العقاد تتجاوز حدود النقاش الأدبي ، ولكنة يتلقى ردا مؤدبا لا يخلوا من حدة فيصفه مندور، بين السطور ، بالمعقود!!

وبرغم ذلك فلقد تلقيت درسا بليغا من ابى، فخلال هذه المعركة مات العقاد، وكنت متابعا لها ، ولكن بموت انتهت الخصومة الجارية ، وكتب ابى عنة تقيما شاملا متوازنا و أعطاه حقة كاملا وخصوصا عندما كان دافعا للتقدم مع مدرسة ابولو او في دفاعة الحار عن دستور 23 و عن البرلمان المنتخب سنة 30 والذى حبس من اجلها عاما كاملا ، فالعقاد لا يجب اختصاره فيما انتهى الية بل يجب تبنى نظرة شاملة لدورة.

يبقى اخيرا انى مراحيضي الهوى!!

اقتسام وإعادة اقتسام العالم والدور المحوري لمصر

لا يمكن الحديث عن تطوير وتحديث وعصرنة بلادنا إلا بعلاقتها بالدور المحوري لبلادنا في منطقتنا، ومجالها الحيوي القريب والبعيد، الذي سيؤثر، بلا جدال، على مصالح الدول العظمى العالمية وصراعاتها لإعادة اقتسام العالم، هذه العملية الدائمة الديمومة نتيجة لديمومة تغيير الأوزان النسبية لهذه القوى.

ان تاريخ بلادنا الحديث منذ عهد محمد على وحتى الآن يتمحور، بشكل أساسي، حول الدور المحوري المطلوب من هذه الدولة المحورية في مجالها الحيوي القريب والبعيد، من قبل الدول العظمى المتصارعة، و بالرغم من أهمية السيطرة على السوق المصرية، إلا أنه لم يكن ابدا العامل الحاسم فى سياسات الدول العظمى حول بلادنا.

حدث ذلك في عهد محمد على ومشروعه النهضوي التوسعي وتكرر في عهد الخديوي إسماعيل ثم تكرر بعد ذلك في عهد جمال عبد الناصر وما اعقبه.

ولو توقفنا قليلا عند الزمن الناصري وتتبعنا تطورات العلاقة مع الدول العظمى الرئيسية، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لاكتشفنا ذلك بجلاء واضح عبر تطور هذه العلاقات في علاقتها بقدرة النظام الناصري على التملص من محاولات السيطرة في التحكم في دورة مع تعاظم إمكانياته الذاتية.

هل يمكن التخيل ان المساعدات الامريكية لم تنقطع عن مصر الا في عام 1963؟

لقد كنت أتابع التطورات في سياسات مصر الخارجية منذ 30 يونيو 2013 لتقدير هل نحن نتعامل مع توجهات جديدة أم هي استمرار للسياسات القديمة التي استقرت في الزمن المباركي؟

لقد تراكمت عبر السنوات القلية الماضية، وحتى الان، تغييرات في السياسة المصرية، تدفعنا للتوقف عندها، لمحاولة الوصول لفهم أعمق لمغزاها وحدودها وآفاقها.

لقد حدثت تغييرات واضحة في سياسة التسليح ، فبدلا من الاعتماد الكامل على مصدر وحيد للتسليح الحديث ، الولايات المتحدة ، مع بقاء العلاقة مع روسيا في حدود صيانة وتحديث المعدات السوفيتية المتقادمة ، و الذى كان يعرضنا لضغوطات كبيرة ومباشرة شديدة الفجاجة والوقاحة ، تغيرت هذه السياسات ، فعقدت صفقات تسليح كبيرة مع فرنسا و اخرى اكثر اهمية ، عسكريا وسياسيا ، مع روسيا ، بعضها أعلن بشكل رسمي ، مثل صفقة الطائرات المروحية و السفينة القاذفة للصواريخ ، او بشكل غير رسمي ، كما صرح رئيس تحرير الأهرام ، عن صفقة تطوير شبكة الدفاع الجوي و ال 50 طائرة ميج 35 و الدبابات ال 500طراز تي 90 ، و هي تغيرات كبيرة جدا في سياسات التسليح لن تحظى برضاء الطرف الآخر برغم عدم تصريحه بذلك ، حتى الآن.

كما لوحظ تغييرات فى السياسات السياسية والاقتصادية مع العالم الخارجي بمحاولات تدعيم العلاقات الاقتصادية مع الصين وروسيا وتطور حجم التجارة الخارجية معهما وقدر كبير من الصفقات الاقتصادية الهامة، ومحاولات الانضمام للمنظمات الاقتصادية العالمية التي تقودها كلا منهما، واتخاذ مواقف سياسية فيما يتعلق بسوريا وليبيا تقترب من الموقف الروسي.

وبرغم ان مدى وحدود هذه التغييرات وتطورها شديد الارتباط مع صراعات القوى العظمى وتطور هذه الصراعات، إلا أنها، في النهاية، لابد وان تكون انعكاسا لاحتياج داخلي، اى انها ستبقى رهينة للتطورات الداخلية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

ولا يمكن تطوير أو حتى استمرار تغيرات أكثر استقلالا، دون الاستناد الى القوى الشعبية الداخلية وهو ما يتطلب تغييرات داخلية واسعة النطاق، سياسية واقتصادية واجتماعية، فالأمر لا يمكن اختصاره في الإرادة السياسية للدولة.

حرب اكتوبر ولي لى!

معركة المنصورة الجوية

كان مالي ما كنت في حالي متهنى بقلبي اللي مش خالي، ولكن "أكان لا بد يا لي لي أن تضيئي النور، "وفى قول اخر اكان لابد يا دكتور صلاح ابونار ان تضيء النور فيمسك برقبتي الوسواس الخناس وانام وانا افكر في حرب اكتوبر.!

معركة جوية كبرى دارت فى سماء شرق الدلتا حين هاجمت العشرات من الطائرات الاسرائيلية الفانتوم والسكاى هوك مطارات شرق الدلتا يوم 14 أكتوبر قادمة من البحر في موجات متتالية.

وخرجت الطائرات المصرية لملاقاتها وعلى راسها طائرة " يادينا يا غرامي " اى الميج 21 المعدلة، ودارت معركة ضارية لحوالي الساعة.

أجمع كافة المراقبين الغربيون والمصريون ان النصر كان للقوات الجوية المصرية، واتفق الجميع ان نتيجة اى معركة تقاس بالنجاح فى تنفيذ المهمة، مهمة لم تنجح فى انجازها الطائرات الاسرائيلية فى تدمير القواعد الجوية المصرية ووحدات الدفاع الجوي في شرق الدلتا وعلى راسها مطار المنصورة الاكبر حيث لم تتعرض المطارات لأى اضرار.

ولكن الاختلاف كان في اعداد الطائرات التي سقطت، فالبيانات المصرية تتحدث عن اسقاط 17 طائرة اسرائيلية في مقابل اعداد قليلة جدا من الطائرات المصرية بعضها سقط لنفاذ الوقود، في مقابل ادعاءات اسرائيلية تتحدث عن العكس.

من المؤكد أن البيانات المصرية هي الاكثر دقة ومصداقية لان البيانات المصرية كانت خلال تلك الفترة في منتهى الدقة.

أي ان النتيجة النهائية هي نصر مصري كامل على صعيد افشال مهمة العدو وتكبدة خسائر فادحة.

ولكن الوسواس الخناس امسك بتلابيبي فالحرب، أي حرب، لا يمكن النظر الى معاركها كلا على حدة، فهل حقا كان الهدف الوحيد من الهجوم على مطارات شرق الدلتا هو تدميرها هي ووحدات الدفاع الجوي لإخراجها من المعركة أم كانت هناك أهدافا أخرى؟

لا يمكن تقييم وجود اهدافا اخرى، التي لا يمكن اكتشافها الا بتتبع اوضاع القتال على طول المواجهة، فما الذي كان يجرى يوم 14 أكتوبر؟

أنه يوم تطوير الهجوم الذي اتى متأخرا كثيرا ويحتاج الى التوقف الخاص حوله لأنه شكل انعطافا حادا في سير العمليات العسكرية وفى نتيجة الحرب ذاتها.

اعتقد اعتقادا جازما أن أحد الأهداف الكبرى لهذا الهجوم هو تقييد يد القوات الجوية المصرية فى تقديم الدعم لقوات تطوير الهجوم وتركها هدفا للقوات الجوية للعدو وهو ما تحقق وتعرضت قوات تطوير الهجوم لخسائر مادية فادحة لأنها كانت تعمل خارج شبكة الدفاع الصاروخي.

افتراض يحتاج الى المزيد من التدقيق، ولكن الدرس الاكثر اهمية هو كيف ننظر الى الحرب، اليس كذلك يا لي لى.!!

"أكان لا بد يا لي لي أن تضيئي النور "- قصة قصيرة بديعة ليوسف ادريس

"يا دنيا يا غرامي " - فيلم بديع لرضوان الكاشف

في أصول المسألة المصرية

حرب أكتوبر

في حالتنا القلب يأتي اولا ودائما فيما يتعلق بهذه الحرب. لقد صبر الشعب المصري وضحى كثيرا وانتظرها بفارغ الصبر، فاجبر زعيما مهزوما على البقاء وقيادة اعادة البناء للتحرير، وايد ودعم حرب الثلاث سنوات وقبل خسائرها، وعندما حانت اللحظة المنتظرة انطلق الابناء والاباء والاخوة و معهم قلوب كل من كان في الخلف، حتى اللصوص توقفوا عن السرقة، من اجل الثأر واسترداد الكرامة المفقودة. سطر الابطال أداءا مذهلا وقدموا تضحيات تفوق الخيال، ووقعنا جميعا في غرامهم من اول الفريق اول عبد المنعم رياض إلى عبد العاطي صائد الدبابات وباقي بمدافعة المائية التي أذابت الغرور الإسرائيلي والطيار سليمان ضيف الله بصرخته " وديني ما هسيبه " وهو يشتعل نارا .

حتى كبار القادة في اختلافاتهم، هل نطور الهجوم؟ ومتى وكيف؟ والثغرة واللواء 25 المدرع واحمد بدوي وفؤاد عزيز غالى، وقعنا جميعا في غرامهم.

الوطن يحارب بكل خلجة في بدنه وكرامته المصابين، وغاب العقل البارد الكالح الكئيب وسط هذا الجموح العاطفي الغلاب. فما هي هذه الحرب؟

هل هي رد على احتلال الأرض من عدو توسعي عنصري مدعوما من قوى عظمى تسيطر على العالم بقوتها الاقتصادية والعسكرية؟ ام ماذا؟

وبرغم مرور كل هذه الأعوام الطويلة مازلنا ندور وسط الحلقة العاطفية الغلابه ونسينا ان الحرب هي امتداد للسياسة بوسائل أخرى، وأن صيد الديك الرومي سنة 67، بالتعبير الأمريكي، كان جزءا من صراع ممتد منذ حرب 56 حول الدور الإقليمي و الدولي لهذه الدولة المحورية الشديدة الأهمية لتوازنات و صراعات القوى العظمى، لاقتسام وإعادة اقتسام العالم.

ان النظر الى حرب 73 بمعزل عن رؤية المسار الكلى للصراع مع وحول بلادنا، يديم النقاشات والاختلافات حول مسارها ووقائعها، ويخفي الحقائق المادية الكالحة ويطمس طبيعة الأهداف المستقبلية الهائلة التي تنتظرنا، إذا كنا حقا نريد لبلادنا أن تتقدم وأن تلتحق بالمستقبل.

بحرب 73 انتهت محاولة كبرى للنهضة وبدأت مرحلة جديدة شديدة الوطأة، انتظارا لمحاولة اخرى جديدة، سندفع فيها اثمانا غالية.

في اصول المسالة المصرية - آفاق المستقبل

بين فتحي الخميسي وصبحي وحيدة

في المقال البديع المرفق للدكتور فتحي الخميسي عن كتابة السيمفونية إجابات كثيرة للكثير من الأسئلة التي تشغل ذهني منذ فترة، والتي وصلت الى اجابات لها بشكل منفصل، و لكنها ليست عن الموسيقى، بل عن كيف يمكن ان تنهض بلادنا، وترافق مع هذا أنني أعيد قراءة كتاب صبحي وحيدة الرائع " في اصول المسالة المصرية " ، الصادر سنة 1950 ! ، و اكتشف أن كلا منهما يفكر بنفس الطريقة ، لا يوجد طريق للتقدم إلا بالاستناد و الانطلاق من الواقع المحلي ومن مستوى تطوره.

وبرغم انني ادرك ان الاكتشافات الإنسانية الكبرى الحديثة، بالمعنى التاريخي، في الموسيقى و العلوم و السياسة و الاقتصاد و العلوم الاجتماعية، أصبحت ملكا للبشرية كلها، برغم أن إنتاجها تم بالعقل الغربي، لأنه سابق في التقدم، فلابد من استخدامها إذا كنا نستهدف تقدم بلادنا.

وإذا كنا على صعيد العلوم لا نستطيع الوصول إلى أي نتائج إيجابية، دون الالتزام الصارم بالقوانين العامة المكتشفة، ولكن أيضا بظروف وشروط التطبيق، فلماذا لا نفعل ذلك أيضا على الصعيد الاجتماعي؟

وسأضرب مثالا على ما اقصد، قد يكون صادما للبعض، فكل التيارات السياسية المصرية، الليبرالية والماركسية و الاشتراكية و" البين بين "، تبنت هدفا لها شكل الحكم النيابي على النمط الغربي، بعد أن اكتمل نضجه، سواء كهدف نهائي أو مرحلي، متغافلين أن هذا الشكل من الحكم تطور عبر مراحل تاريخية كاملة من الصراعات و التطورات الداخلية و الخارجية، و رغم ذلك فلم تنجح في إقامته ، ليس لعيب فيه، ولكن ، وببساطة ، لأنه لا يتلاءم مع الأساس الموضوعي ، أي مستوى تطور البنية الاجتماعية الاقتصادية

.

ودروس التاريخ، في بلادنا و في غيرها من البلاد، شديدة الدلالة في توضيح ذلك، ففي أعقاب ثورة 1919 في مصر و تحت تأثيرها، تصل الى السلطة، في البرلمان و الحكومة، حكومة تمثل التيار الليبرالي الأصلي الذى قاد الثورة ، و لكنه يتخلى عن جانب كبير من ليبراليته فور وصوله إلى السلطة ، و تحل نقابات العمال و المنظمة الاشتراكية التي تقوده وتضع قادتها في السجون ، رغم تأييدها لحكومة الشعب الأولى ! ، ولو فكرنا قليلا في تجارب دي سيلفيا بالبرازيل و تشافيز فنزويلا لوصلنا لنتائج متشابهة. .

لقد كتبت سابقا عن مأساة الليبراليين المصريين الشرفاء في مصر ، وأوضحت ان زمانهم لم يأت بعد ، لان الرأسمالية المصرية لم تنجز مهامها حتى الان ، ولذلك فالزمن ليس زمانهم ، وهو ما ينطبق أيضا على غيرها من التيارات و المفكرين السياسيين الذين يطمحون لمجتمع على النمط الاشتراكي الديمقراطي الشمال أوروبي مثل السويد والنرويج ، نحن نحتاج إلى الإبداع ، المستند على تحليل ملموس للواقع و للخبرة التاريخية ، و لا يجب الاستناد ، هنا ، بالمطالبة بالديمقراطية من أسفل ، فهي في نهايتها ، وهم لا يمكن تحقيقه ، إذا لم تستند على بنية كاملة جديدة تتلاءم مع أوضاع التطور الاجتماعي.

لقد صدق القول في أن من وضع الدستور المصري الحالي كان حسن النية، ولذلك يتم الالتفاف عليه، لأنه دستور يطمح لليبرالية في غير زمانها، وسيتم تعديله بما يتلاءم مع شكل الحكم الفعلي الحالي.

هل ذهبت، في تعليقي هذا، أبعد مما يجب؟ يجوز، ولكنه جزء من التمرد الفكري الموروث، ولذلك اطلب ممن يريد أن يعلق ان يتمرد مثلى، حتى وإن كان سينتهي الى نفس موقفة الحالي، و لا يؤيد ما كتبته.

كتبت سيمفونية لم يعيرها أحد اهتماما!

الأصدقاء:

كنت طالبا بقسم التأليف بكونسرفتوار موسكو وكان علي أن أضع مؤلفا للأوركسترا السيمفوني ليقدمه أوركسترا الكونسرفاتوار ذاته وأن يحصل هذا المؤلف على رضاء لجنة المؤلفين الروس الممتحنة وإلا سأرسب وأظل دون التخرج. وكانت متاعب ذلك جمة، ولكن عناد ركبني كحجر صوان على القلب وآنهيت كتابة سيمفونية أولى هي "غضب النيل". وحين قدمها الأوركسترا الروسي رحت أجري في الشارع المؤدي لمكان الأوركسترا "شارع مالايا جروزنسكايا" بقلب موسكو وجوار الكرملين. كنت مزهوا لا تسعني الفرحة حتي شعرت أني رجل لا يتكرر.. بل وأني أسعد رجل في العالم إذ حققت بالفعل ما يصعب تحقيقه!

وبعد عودتي لمصر عرفت الحقيقة كاملة

لم أكن حينها اتصور أبدا أن ذلك لا يلزم أحدا! من المصري الذي يبحث حقا عن سيمفونية مصرية! عن

كونشرتو مصري!

في الواقع لا أحد! هل تتصورون أن هناك مصري يبحث بالفعل عن أوبرا مصرية؟ المصريون يريدون سماع عبد المطلب وعبد الحليم وأم كلثوم وأسمهان وشادية وليلي مراد.

حين قدم اوركسترا القاهرة بدار الأوبرا المصرية سيمفونيتي "غضب النيل" ولم يحضر سوي خمسة أفراد دفعت أنا معظمهم دفعا للحضور أدركت الحقيقة كاملة

ليس هذا الطريق الصحيح.. أن كنت تريد السيمفونية لمصر فعليك أن تجري "السمفنة" أو "تركيب الألحان ذلك" على أغنية عبد المطلب أو أسمهان أو شادية.. وأن تجري ما تحب على ما يحب المصري وعلى ما يتناول شعبك من نغم

.. لا أن تأتي بما يتناول الألماني أو الروسي!

يا لله.. هذه السيمفونية آرقت من عمري 8 سنوات كاملة..8 سنوات أريقت لأني لم أفهم أن لكل شعب خيار فني خاص.

أمري لله.. على الفنان ان يعرف ما هو الضروري.. ما هي حاجة الناس.. ناسه هو أولا!

فتحي الخميسي

البونابرتية والأوليغاركية

جدل الشكل والمضمون

جدال كبير ودائم يدور بين مفكري السياسة حول شكل الحكم الذي يؤثر تأثيرا كبيرا على التطور الاجتماعي والذي كثيرا ما يبدو كما لوكان مفصولا عنه، عن البنية الفكرية والاجتماعية ومستوى تطور الطبقات الاجتماعية والصراع الدائر بينها، وكثيرا ما ينظر البعض الى شكل حكم معين كما لو كان قدرا مكتوبا.

لقد تباينت اشكال الحكم في العصر الحديث، عهد نهوض الرأسمالية ، تباينا كبيرا في البلدان التي كانت سباقة في الوصول الى مجتمع رأسمالي أكثر نضجا ، تباين مرتبط بالتاريخ الخاص لكل بلد الذى نتج عنة أشكال الحكم المختلفة ، فالملكية البريطانية هي في حقيقتها جمهورية برلمانية في أوضح صورها ، والحكم في فرنسا هو خليط من الجمهورية البرلمانية والجمهورية الرئاسية ، والولايات المتحدة هي جمهورية رئاسية ، لكن منذ استقرار الطبقات الاجتماعية ونضوجها فان أشكال الحكم قد استقرت وأصبحت التغييرات محدودة ، ولعل فرنسا كانت الأخيرة في البلدان المتقدمة التي وصلت الى شكل حكم اكثر استقرارا بعد الازمة الكبيرة التي تعرضت لها بفشل العدوان على مصر وتصاعد الكفاح المسلح الجزائري ثم مقاومة المستوطنين الفرنسين في الجزائر للمخرج الذى أقترحه الجنرال العائد من قريته لإنقاذ فرنسا من أزمتها ، الجنرال شارل ديجول ، لينتهي الامر بإدخال تعديلات جوهرية على شكل الحكم في فرنسا.

أن استقرار أشكال الحكم في البلدان المتقدمة يجد له تفسيرا في استقرار العلاقات بين الطبقات ورسوخ واستقرار الرأسمالية، برغم أن هذا الاستقرار تم الوصول اليه بتضحيات جسيمة وخسائر فادحة، فالثورة الفرنسية كانت مليئة بأنهار من الدماء، والامر كذلك في بريطانيا التي أعدم فيها الملوك تحولت الى جمهورية ثم عادت الى الملكية، والولايات المتحدة خاضت حربا ضد الانجليز للاستقلال ثم حربا أهلية، ولقد ساعد استعمار البلاد الأخرى في سرعة استقرار اشكال الحكم وتخفيف التناقضات الداخلية.

ولعلنا أولا نحتاج الى التوقف قليلا عن نشأة تسمية الشكل البونابرتي، فلقد صعد نابليون بونابرت الى السلطة، نابليون بونابرت ابن الثورة الفرنسية الكبرى الذي أشاع الآمال لدى الرأي العام الأوربي بمثقفيه، ولكنه انفرد بالسلطة وعين نفسه امبراطورا، والبس نفسه التاج، ولم يسمح لأحد أن يقوم بذلك في احتفال التتويج، وأصاب أمال المثقفين بالإحباط فتغيرت مواقفهم.

أمال جعلت هيجل، الفيلسوف الأكبر، يصفه بانه روح أوربا يمتطى جوادا، وبيتهوفن يهدى سيمفونيته الثالثة اليه ثم يسحب الإهداء ويسميها البطولة بعد أن تحول نابليون الى البونابرتية بالمعنى السياسي ،وبحيث يبدو الامر كما لوكان الامر يمكن اختصاره في رغبة نابليون في الانفراد بالسلطة ووضع نفسة فوق الطبقات والمصادرة الفعلية لتمثيلها السياسي المستقل، اختصارا مخلا لا يستطيع أن يفرق بين النوازع الشخصية والاساس الاجتماعي الذى قد يمكن أو يقاوم النوازع الشخصية للقادة ، لكن حقيقة الامر تجد لها تفسيرا في عدم نضج الرأسمالية وفى حركة شعبية عارمة تأكل قادتها في خضم الصراع ، الامر الذى جعل الامبراطور يبدو كما لوكان يحكم خارج الوضع الطبقي.

ويدور الزمان وتقوم ثورة 1848، وينجح ابن اخية لويس بونابرت، في الاستيلاء على السلطة ويعين نفسه امبراطورا حيث يلقى سخرية الرأي العام الأوروبي ويسخر منة الجميع ويكتب ماركس في تحليله "أن التاريخ يعيد نفسه الأولى كمأساة، والمرة الثانية كمهزلة"، ولا يبدأ شكل الحكم في فرنسا بالاستقرار الا بعد 1870 في أعقاب هزيمة كميونه باريس.

ويتكرر الامر في المانيا ، فلقد تأخر النمو الرأسمالي فيها ، وعندما حققت الرأسمالية الألمانية تقدما ملحوظا حاولت إعادة تقسيم العالم ، الذى كانت الدول الرأسمالية السابقة على التطور قد اقتسمته ، فتقوم الحرب العالمية الأولى وتهزم المانيا وتفرض عليها تعديلات حدودية كبيرة وقيودا اقتصادية تعيق النمو الرأسمالي ،

وتنفجر الازمة الاقتصادية العالمية سنة 1929 ويتزايد نفوذ الحركات الاشتراكية ويصبح مصير الرأسمالية الألمانية في مهب الريح بين حصار اقتصادي وحركة جماهيرية اشتراكية تهدد بالإطاحة بالنظام الرأسمالي ، فتقرر التخلي عن شكل حكمها البرلماني وتسلم السلطة لهتلر الذى أنشاء نظاما من الحكم به الكثير من ملامح البونابرتية ، لكن جوهر سياساته كانت التوسع في التسليح لخلق طلب فعال ينعش الرأسمالية الألمانية ويخفف من الضغوط الداخلية ، الامر الذى أدركته بشكل واضح القوى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى فتجاهلت خرقة للمعاهدات.

يبقى اخيرا الإشارة الى أن ما كتبه ماركس حول الدراما التاريخية النابليونية هو قول صحيح في الحالة البونابرتية بين نابليون ولويس بونابرت، ولكنه لا ينطبق على غيره من أحداث التاريخ، فالتغييرات الاجتماعية أكثر تعقيدا بحيث لا يمكن إخضاعها لقواعد ثابتة، فليس بالضرورة أن يتكرر الأمر بشكل كاريكاتيري.

لكن الامر لم يكن نفسه في البلدان المستعمرة او في البلدان الأقل تطورا، فلقد تسبب الاستعمار، في شكله التقليدي، في تدمير النمو الاجتماعي الطبيعي لانتقال هذه البلدان من المجتمعات السابقة على الرأسمالية الى مجتمع الرأسمالية، وتحالفت القوى الاستعمارية مع طبقات اجتماعية محلية اعيد تشكيلها بالارتباط مع المصالح الاستعمارية لتنتج لنا واقع اجتماعي مشوه وتابع وتضع قيودا إضافية على النمو الرأسمالي المستقل.

وعندما يأتي أوان الاستقلال وتحول شكل العلاقة بين البلدان الاستعمارية السابقة الى علاقات اقتصادية وسياسية هي في حقيقتها علاقات تبعية، لكن أشكال حكم هذه البلدان أثر فيها الى حد بعيد مستوى النضج الرأسمالي والطموح الشعبي الغلاب لمجتمعات أكثر عدلا واوسع حرية وأكثر تقدما وتدخلات القوى الاستعمارية القديمة للتحكم في النمو الرأسمالي لهذه البلدان والتحكم في سياستها الخارجية، الامر الذي قاد الى أشكال حكم كما لو كانت تستعيد اشكال الحكم الانتقالية التي مرت بها البلدان الأكثر تقدما.

هذا التطور الذي مكن من نشوء اشكالا من الحكم تبدو كما لو كانت مفصولة عن الواقع الاجتماعي الذي تمثله، ولعل من أبرزها شكل الحكم البونابرتي وشكل الحكم الاوليغاركى أو اشكالا من الحكم البرلماني المشوه التي لا تستطيع الصمود أمام الضغوط الاجتماعية الداخلية والتدخلات الأجنبية، فتنهار هذه الاشكال مخلفة اضطرابا اجتماعيا كبيرا، وتعاود في الظهور من جديد اشكالا متكررة تواجه نفس الظروف السابقة على الاضطراب ، ويبدو الامر كما لوكان التاريخ يعيد نفسة ولكن ليس بالضرورة بشكل كاريكاتيري ، وتبقى مشكلة هذه البلدان قائمة ، العجز عن اللحاق بزمن الرأسمالية المتقدمة بأشكال حكمها الأكثر استقرارا، خصوصا طبقا لموازين العصر العالمي الحالي باختفاء الاتحاد السوفيتي والتي تضع قيودا كبيرة على العودة الى الماضي ، وسط شعور شعبي غلاب للعدل والتقدم والديمقراطية.

هل مات جمال عبد الناصر؟

وهل مات طلعت حرب؟

سؤال يبدو عبثيا فالكل يعرف متى ماتوا، ولكن متى حقا وفعلا يموت مثل هؤلاء الزعماء؟ هل بموتهم الجسدي؟ ام عندما تختفي الفكرة والتمثيل الطبقي الاجتماعي الذي كانوا يمثلونه؟

لقد مات العديد من الزعماء والرواد والزعماء الاقتصاديين جسديا، لكنهم في حقيقة الامر لم يموتوا الا في زمن أخر، زمن اختفاء ما كانوا يمثلونه، فهل مات طلعت حرب سنة 1941 كما تحددها التواريخ الرسمية أم بعدها، فلا يمكن التحدث عن موت الفكرة والتمثيل الطبقي الاجتماعي إلا بظهور البديل، فالتاريخ لا يعرف الفجوات، بل صيرورة تاريخية تعرف الانتقال التدريجي من واقع قديم الا واقع جديد حيث يتزاوجان مع تغيير الأوزان النسبية إلى أن يستتب الجديد ويترسخ، وعندها يعلن موت القديم.

لقد كان طلعت حرب حيا يقود بنك مصر لتأسيس شركات جديدة حيث أسس 17 شركة من 1922 الى1939، حتى تعرض للحصار سنة 1939، تحت ضغط النفوذ الأجنبي وحلفائه، وأجبر على الاستقالة من رئاسة بنك مصر، ولكنة لم يمت، فاستمر الحلم في التحقق بتأسيس مصر للحرير الصناعي سنة 1946واستمرت باقي الاستثمارات في الوجود واستمر الإنتاج المادي والفكري والثقافي داخل مؤسسات بنك مصر.

ولكن مع التغيير الكبير سنة 1952 التي تبنت تشجيع الرأسمالية المصرية الخاصة، في سنواتها الأولى، عاد طلعت حرب من جديد، فأسس بنك مصر "مصر للفنادق سنة 1955 " ومصر للألبان والأغذية سنة 1956 ومصر لصناعة الكيماويات سنة 1959 ومصر شبين الكوم للغزل والنسيج سنة 1959.

ولكنها عودة خجولة فلقد شهدت السنوات الأولى صراعا سياسيا داخليا للسيطرة على السلطة وعلى الحركة الجماهيرية المستقلة، وأسفر الأمر، بعد صدامات جماهيرية كبرى وتصادم شبة دموي مع تيار الإسلام السياسي، عن استتباب الأمور للسلطة الجديدة، التي تمكنت من عقد اتفاقية الجلاء مع قوات الاحتلال بشروط كانت ترفضها الحركة الوطنية الجماهيرية قبل 1952.

ولكن السلطة الجديدة كانت مازالت داخل نطاق نفس الفكرة والتمثيل الطبقي الاجتماعي ولم يكن الإصلاح الزراعي إلا خطوة اقتصادية واجتماعية لفتح طريق النمو الرأسمالي، برغم محدوديتها، ولكن الرأسمالية الصاعدة تخلت عن الأفكار الليبرالية التي كانت ضرورية في الزمن السابق، حين كانت مازالت تحاول الاستقلال بالسلطة والسوق والتحرر من الاحتلال الأجنبي.

ولكن وبعد معركة تأميم القناة وتأميم المصالح الأجنبية بدأت تتشكل ملامح فئة اجتماعية جديدة، ذات أهداف أوسع وطموحات أكبر، حول السلطة الجديدة، لينتهي الأمر بالتأميمات الكبرى أعوام 1960 إلى 1963، التي تضمنت تأميم بنك مصر نفسه، ليموت طلعت حرب مع اكتمال ميلاد وترسخ رأسمالية الدولة وفئتها الاجتماعية الجديدة، الرأسمالية البيروقراطية، متوجه بزعيم وطني جديد، لقد اكتمل ميلاد جمال عبد الناصر الذي ولد مقاتلا.

وتشهد البلاد تطورا رأسماليا متسارعا وينتقل الصراع مع النفوذ الأجنبي ليمتد على الصعيدين المحلى والعالمي ، وسط احتدام الحرب الباردة، وتنشأ المئات من المصانع الجديدة ، وينتشر التعليم وينخفض مستواه ، وتتحسن الرعاية الصحية ولكن دون النجاح في خلق نظام متطور قابل للاستمرار ، ويتطور الإنتاج الفكري والثقافي الذى نضجت بذوره في عهد نهوض طلعت حرب ، وتعم الازدواجية تحت كل حجر ، فالعداء للاستعمار والنفوذ الأجنبي لا يستبعد القبول بالمعونات الأمريكية واختلاط التعاون مع الاختلاف والخلاف مع القطب الآخر ، ومتطلبات شكل الحكم الجديد والعداء للحركة الجماهيرية المستقلة لا تستبعد الزج بحلفاء النظام الطبيعيين خلف أسوار السجون ، والنهضة الثقافية والفكرية تشهد نفس الازدواج ، ففي الصحافة نجد زبانية جهنم الذين

كانوا يعادون المصالح الشعبية قبل 1952 ينتشرون ويتمتعوا بالأوصاف الكبرى ، والتيارات الجديدة تقاتل لتجد لها موضع قدم ، ويتطور المسرح والإذاعة والتليفزيون ولكننا نجد نفس الازدواجية ، ولعل ما كان يقدمه كلا من مسرح التليفزيون ومؤسسة المسرح لشديد الدلالة في هذا الازدواج ، ويفصل طه حسين ومحمد مندور من الصحف بدعوى عدم الجمع بين وظيفتين ، وتوضع اللبنات الأولى لما يسمى تطوير الأزهر لتبدأ في التشكل ملامح دور أوسع نطاقا للمؤسسة التي دعمت ، دائما ، السلطة السياسية مهما كان توجهها.

وعندما يقرر الغرب ان محاولات الاحتواء قد طالت وأصبح ناتجها محدودا، يقرر اللجوء الى الأعمال العسكرية المباشرة، فتقع حرب 1967، ويهزم الوريث، وريث طلعت حرب، ليس لخطأ أو خطيئة هذا المسؤول أو ذاك، لكنها هزيمة النمط الفكري والتمثيل الطبقي الاجتماعي، لكن الزعيم المقاتل يسترد أنفاسه بدعم شعبي هائل يرفض الهزيمة ومصمم على القتال.

ويقاتل الزعيم وهو مسخن الجراح، من معاركة القديمة والجديدة، لكنه لا يستدعي القوى الشعبية التي دعمته ودفعته دفعا للقتال من جديد، فيزداد الحمل وينهار الجسد ويرحل، لكنه لا يموت، ويخرج الشعب عن بكرة أبيه في وداع الزعيم في استفتاء شعبي ليس له مثيل، استفتاء يضع قيودا هائلة أمام الاتي، انها قيود الحلم نفسه، الحلم القديم، حلم طلعت حرب.

لكن هذا النمط الفكري والتمثيل الاجتماعي، الذي فقد القدرة على الاستمرار وعلى المقاومة، يفتح أمامه باب الاستجابة للضغوط بعد حرب 1973، وتبدأ عملية طويلة من التغييرات الاجتماعية ومن التغييرات الفعلية لممارسة السلطة ، بصرف النظر عن البنية القانونية والدستورية ، تغييرات اجتماعية يأتي على راسها استمرار الدولة في ما يمكن أن نسميه باستثمارات الضرورة في نفس الوقت الذى تتسارع فيه عمليات الخصخصة ومن نمو يتسارع للقطاع الخاص ، ليسفر الامر ، في النهاية ، عن تغيير دولة رأسمالية الدولة الى دولة الرأسمالية وتتغير ممارسة السلطة بتقلص الدور القيادي الفعلي لمؤسسة الرئاسة ، تغيرات تقود في النهاية الى موت جمال عبد الناصر باختفاء النمط الفكري والتمثيل الطبقي الاجتماعي الذي كان يمثله.

لقد حدثت تغييرات كبرى من زمن طلعت حرب وزمن جمال عبد الناصر ، أصبح لنا واقع جديد وقديم في نفس الوقت، فالرأسمالية المصرية الطامحة للاستقلال قد اختلفت كثيرا عن السابق، غيرت من توجهاتها وأصبحت أقل طموحا، واندمجت بعض فئاتها الأعلى مع الرأسمالية العالمية ولم تصبح مجرد ممثل للرأسمال العالمي، بل شريك صغير في السوق العالمي، ومازال الصراع دائرا بين مختلف فئاتها الاجتماعية ومنها قطاع رأسمالي جديد لم يكن موجودا في زمن طلعت حرب، قطاع رأسمالية الدولة، نفس الصراع القديم ،ولكن بين فئات اجتماعية رأسمالية ذات ملامح مختلفة.

ولا يمكننا ترداد المحفوظات الفكرية لتبني سياسات اقتصادية معينة مثل ان الرأسمال الخاص أقدر على حسن الإدارة أو ان الدولة تزاحم الرأسمالية الخاصة أو حول ضرورة الخصخصة، ولا يمكن كذلك الاكتفاء بالنظر الى الماضي واعتباره مثلا اعلى وترديد الأوهام الفكرية حوله، كل ذلك دون التوقف طويلا وكثيرا حول السلوك الفعلي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للفئات الرأسمالية وارتباطاتها مع الرأسمال العالمي.

وبرغم التطور الحالي في رأسمالية الدولة، التي تسارعت كثيرا في السنوات الأخيرة، وبرغم استعادة مؤسسة الرئاسة لدورها الذي كان قد فقد في نهاية العهد المباركي، وبرغم استمرار نمو الرأسمال الخاص، إلا ان كلا منهما ليسا نفس رأسمالية طلعت حرب أو رأسمالية الدولة الناصرية، فلقد تغيرت البنية الاجتماعية واختلفت العلاقات فيما بينهما وفى علاقتها مع الرأسمال العالمي، بل لقد اختلفت أيضا السياسات والعلاقات لخارجية ليس فقط لاختلاف الظروف، بل أيضا لاختلاف التوجهات الاستراتيجية.

ولعل أهم الدروس التي يمكن استخلاصها من أحداث التاريخ الكبرى هي نزوع البشر الى التمسك بالأحلام الكبيرة و بالانحياز الفكري الدائر اثنائها ، دون أدراك أن الأحلام الكبيرة تتطلب نمطا فكريا وانحيازا جديدا يتلاءم مع الظروف الاجتماعية الجديدة ، فلا يمكن العودة الى الوراء ، بل فقط يمكن التقدم الى الأمام ، افة سلفية عمت العديد من التيارات الفكرية والسياسية ، يسارية وليبرالية وإسلامية وناصرية ، فالمرشد العام السابق للإخوان المسلمون لم يكن يسب مصر عندما صرح " طظ في مصر " بل كان يعبر عن تمسكه بزمان مضى وانقضى من عشرات السنين ، بزمن الخلافة ، والتروتسكيون ما زالوا يرددون الأقاويل القديمة ويجلسون تحت صورة تروتسكى ، والكثير من الناصريين ما زالوا يحلمون بالعودة الى الماضي ، وبعض من اليسار مازال ممسكا في عباءة الليبرالية التي يتخلى عنها أصحابها في سلوكهم العملي ، والليبراليون ينظرون الى المسخ الليبرالي قبل عام 1952 **ويضعونه مثلا اعلى ولا يتمسكون به في سلوكهم الفعلي ، والجميع يحاكمون الحاضر قياسا على الماضي ، فينتابك العجب.**

نعم أيها السادة لقد مات جمال عبد الناصر كما مات طلعت حرب كما سنموت جميعا، فهل نستطيع النظر الى الماضي للتعلم من دروسه وليس تقليده، وأن نبحث عن مستقبلنا بتبني توجهات تستجيب لاحتياجات الحاضر!

الطائرة الاسطورية والغرام الدفين

الميج 21 **، طائرة الاعتراض الجوي الرئيسية ويمكن استخدامها في القصف الأرضي ، بالقوات المسلحة المصرية سنة** 1973**، رخيصة الثمن مقارنة بأسلحة الصف الأول الإسرائيلية ، الفانتوم و سكاي هوك ، ذات امكانيات اقل ، على الورق ، ولكنها ، بقيادة الطيارين المصريين ، قدمت أداءا باهرا في القتال ، وظهر ذلك في المعركة الكبرى فوق مطار المنصورة اثناء حرب اكتوبر ،** 165 **من الطائرات الاسرائيلية تهاجم مطار المنصورة لتعطيله حتى لا يقدم الدعم اللازم للقوات المصرية أثناء تطوير الهجوم ، وتتصدى لها** 65 **طائرة مصرية ، الأمر الذى يسفر عن خسائر فادحة للقوات الاسرائيلية تتجاوز** 17 **طائرة ولا يسقط من الميج الا** 6 **طائرات ثلاثة منها لنفاذ الوقود ، وذلك طبقا للبيانات المصرية.**

وبرغم ادعاءات إسرائيل في أن خسائرها أقل من خسائر المصريين، إلا أن تقيم المصادر الغربية، التي تتبنى الادعاءات الاسرائيلية، ان المعركة انتهت بنصر مصري، لان اسرائيل لم تستطع تحقيق هدفها بتعطيل المطار.

اعتقد الان انه قد آن أوان اعتزالها، برغم التحديث المستمر، فمصر حصلت على الميج 29**، الشقيقة الحديثة، ذات الامكانيات التي تتجاوز الـ** 16F**الأمريكية.**

لقد ارتبطت عاطفيا بهذه الطائرة الجميلة الرشيقة عندما خدمت كضابط احتياط بالقوات الجوية قبل حرب73**، وهو نفس ارتباط كل من خدم في القوات الجوية المصرية، وما زلت مرتبطا بها ، ولكنه حال الدنيا ، للأسف!**

فكيف تم تدعيم هذا الارتباط؟

شاب صغير السن يشتعل حماسا ويكلف بتدريب الفنيين على احد اجهزتها ، ويبذل مجهودا خارقا لاستيعاب الأجهزة ويترجم كتاب الصيانة و التعليمات ، وكان مطلوبا منه أن يعد الدروس فى نماذج خاصة ، ولا يفعل ذلك

، لأنه عنيد عند البغال ، برغم تحذير زملائه في ان التفتيش المفاجئ يهتم اولا بنماذج التحضير ، إلا أنه لم يفعل ، ثم يأتي التفتيش ، وينزعج زملائه و رؤسائه ويحاولون انجاز نماذج التحضير بأسرع ما يمكن ، والنتيجة بالطبع مؤسفة ، ويحضر المفتش من ادارة التدريب بالقوات المسلحة ، وبعد نهاية التدريب يطلب الاطلاع على النماذج و يبدي ملاحظة بضرورة الاهتمام بها ، ويصبح الشاب الصغير على يقين أنه سيحصل على تقييم ضعيف من الحد الأعلى و هو 5 درجات.

و يبدأ في جمع أدوات التدريب لتسليمها الى المخزن، كالمعتاد، وفور ان ينتقل الى مكتبة، يجد أن القيامة قد قامت، فالمفتش يخرج من التدريب مباشرة الى قائد الوحدة، العقيد المهيب ذو العسكرية الصارمة و الحس الوطني العميق ، كي يخبره أن لديه ضابطا موهوبا ، ويحصل الشاب على 5 من 5 برغم زبالة أوراق التحضير وينال اول جواب شكر ، مازال يحتفظ به حتى الآن ، ومكافأة مالية ، وتنشأ علاقة نفسية خاصة ، بدون كلام ، مع العقيد المهيب سيكون لها تأثيرا لا يعوض في مقبل الايام ، ولكنها قصة اخرى!

هكذا ارتبطت بهذه الجميلة!

سلامة موسى

"اللي خلف ما ممتش"

هوجم سلامة موسى سنة 1954 بتعبيرات مسفهة من توفيق الحكيم والعقاد وكامل الشناوي، فيصفه العقاد بأنه ليس أديبا ولا عالما وفاشل ولا يعبر الا عن الحقد ووصفة الحكيم بانة لا يجب اعطاء حكمة وزنا لأنه توقف عن القراءة منذ زمن بعيد، أما كامل الشناوي فيصفه بأنه حاقد موهوب يعبر عن آراء غيره ولا يعرف عن الأدب الا عناوين الكتب.

وللأسف لا اعرف اين نشر هذا، ولكنى اعرف ان هذه التعليقات الصحفية جاءت في ظرف دقيق كان الصراع يدور حولها حول شكل الحكم، حيث من الواضح ان موقف سلامة موسى كان واضحا، اتساقا مع تاريخه كله قبل وبعد 54، اى مع شكلا ديمقراطيا للحكم.

ان كل منهم يبحث عما يتوقع أن يجده في سلامة موسى وهو ما يعني وبكل وقاحة أنهم لم يفهموه وفي الغالب لم يقرؤوه، فهو ليس أديبا او عالما او حتى حاقدا ولا يهم كثيرا أن كان يقرأ أم لا، بل هو أكثر من هذا بكثير، سلامة موسى أحد رواد العقل والتنوير ولعب دورا يتجاوز كل هؤلاء حتى يتجاوز دور توفيق الحكيم نفسه، ولم يبخل بماله او جهده في الدعوة لما يعتقده.

فهو لم يبشر بالديكتاتور العادل في عودة الروح سنة 1938، كما فعل الحكيم، الذي عاد إليه وعيه بعد خراب مالطة، وبعد ان اصبحت عودة الوعي أمنة سنة 1974، وإن كان يبقى للحكيم انه احد رواد نشأة المسرح المصري المعاصر و إنتاجه الأدبي والفني الممتازين.

والعقاد المعقود الذي كان قد تخلى عن دفاعه عن التقدم والدستور منذ منتصف الاربعينيات أصبح عائقا للتقدم، وظل يحظى بالتكريم الى ان توفاه الله، ولكن يبقى منه ايضا دوره التاريخي قبل ذلك برغم المزالق الكثيرة التي وقع فيها.

أما كامل الشناوي الغلبان الذي وجد نفسه بين شقي الرحى وهو لا طاقة له بها فقد كذب برغم نصائحه بالا تكذبي إيثارا للسلامة في زمن اغبر طال غيرة بالأذى مثل لويس عوض ومحمود أمين العالم.

سلامة موسى الذي دافع عنه محمد مندور دفاعا مجيدا في مقال بمجلة الثورة بعنوان "سلامة موسى المفتري عليه " و"الرائد سلامة موسى...مقدمة كتاب.. انتصارات إنسان .1960."

يبقى أن أقدم شهادتي الشخصية عن سلامة موسى، فمن يتهمه بالحقد اما انه مجنون لا يعي او يفعل ذلك لأسباب سياسية، فلقد كان وديعا مهذبا شديد التواضع جاذبا للأطفال.

يبقى اخيرا ان نكون أكثر حرصا في استدعاء الماضي باستدعائه كاملا بظروفه وشروطه وتقديمه بموقف نقدي واضح حتى لا يساء فهم هذا الاستدعاء لأننا في ظروف دقيقة، مجتمع تخلف وعيه تحت تأثير متراكم من قوى الظلام التي تلجأ بعض فصائلها للسلاح فتقتلنا وتهدد مستقبل اولادنا وبلادنا.

فيا جدنا العظيم سلامة موسى " اللي خلف ما متش "، ويدافع عنك الابناء والاحفاد لأنهم يدافعون عن نفس حلمك، العقل والتنوير والحرية، وسيستدعونك من قمة جبل الأولمب للمشاركة معهم من اجل مستقبل أفضل..

السياسة والانتقام واساليب الكفاح من اجل الحرية

هل يحتاج الامر فعلا الى تعليق ام ان هذه الصور لهؤلاء الرجال العظام تكفي لمن يريد ان يفكر معي.

لقد خاضت فيتنام حربا تحريرية ضد الاستعمار الفرنسي ثم الاستعمار الأمريكي وركزت كل طاقاتها العسكرية لمهاجمة المحتلين العسكريين داخل فيتنام و ليس خارجها و لم تخطف طائرة او تضع متفجرات داخل المصالح الامريكية خارج فيتنام او تعتقل رهائن مدنيين، برغم ان مدن الشمال كانت تقصف بالطائرات الثقيلة، فحظيت بالتأييد العالمي الشامل و حتى بالمطالب العارمة للشعب الأمريكي بالخروج من فيتنام، و انتصرت.

وكافحت الهند بقيادة حزب المؤتمر بقيادة غاندي ضد الاحتلال البريطاني باتباع اساليب الكفاح السلمية " قلعوا بلبوص تقريبا" وقاطعوا البضائع البريطانية و غزلوا القطن و صنعوا الملح و انتصروا بدون طلقة واحدة.

وبدأت جنوب افريقيا بالكفاح المسلح ثم أعقبته بالعصيان المدني العام، ولم يكن ممكنا تحقيق النصر النهائي لولا الموقف الحكيم لمنديلا بعدم الانتقام شريطة عدم اخفاء الحقائق.

كل هذه الخبرات الباهرة تؤكد ان السياسة التحررية الناجحة لا يوجد بها انتقام، وان الانتقام هو شعور بدائي يضر اصحاب الحق ولا يحقق النتائج المرجوة، ففكروا معي!!

التعليم والعلم العجيب وديناميكا الهواء والهندسة

نعم أيها السادة فديناميكا الهواء هي من العلم العجيب، ظواهر طبيعية تراها كل يوم وتدرك مظاهرها، ولكنك لا تجد تفسيرا لها، ظواهر لفتت انظار الانسان منذ قديم الازل وتعلم كيف يتعامل معها وكيف يستفيد منها لكن دون أن يستطيع أن يفهم أساسها النظري.

فلماذا كانت قوارب قدماء المصريين بهذا الشكل؟ هل هي مجرد تقليد للكائنات السابحة أم أن الخبرة العملية قادتهم لاكتشاف الاشكال الملائمة؟ وهل كان تقليد الطبيعة هو مفتاح البداية كي يفهم أن التقليد وحدة لا يكفي؟

والغريب أن تعليمنا الجامعي كان هو أيضا غريبا، فهل فهم العلم الغريب هو التعامل مع المعادلات الرياضية التي تعبر عن ظواهر هذا العلم؟ دون فهم وأدراك طبيعة الظواهر الطبيعية؟ ومن أن يأتي هذا الفهم؟

أستطيع أن أدعى، وأنا طالب متفوق، أن العلم الذي تلقيته في الجامعة ليس في حقيقته علما، بل مجموعة من المعادلات الرياضية التي لا تمكن طالب الهندسة من فهم الطبيعة والتعامل معها، ناهيك بالطبع لعدم منهجية التعلم لعدم وجود خطة كاملة تبدأ من المفاهيم الأساسية الى التعامل معها رياضيا.

وأستطيع أن أدعى أن ما تعلمته من الكتب التي تتحدث عن موضوع علمي معين، دون التعبير الرياضي عنها، هو أكثر بكثير مما تعلمته من المحاضرات الجامعية النظامية، رغم انى كنت من أوائل دفعتي.

وسأحكى لكم عن وقائع تمثل هذا الواقع

ففي السنة الدراسية الثالثة في كليه الهندسة كانت بدايات دراسة هذا العلم العجيب، علم ديناميكا الهواء، فتبدأ الدراسة بأسوأ طريقة ممكنة، أي بدراسة سلوك الهواء الملامس لسطح الجسم المتحرك في طبقة الهواء الرفيعة جدا الملامسة له (Boundary layer) دون البدء بالفهم الكلى لتأثير الهواء على الجسم المتحرك، لاكتشف أن الطبيعة قد اختفت خلف المعادلات الرياضة المعقدة التي لا يمكن حلها إلا بأساليب تجريبية لأنها من نوع المعادلات المسماة.Empirical

لقد أصاب الطلاب هم عظيم من إمكانية فهم هذه المادة التي حولها الأستاذ الدكتور من فهم للطبيعة الى معادلات رياضية معقدة جدا، لذلك كانت نتيجة الامتحان مؤسفة فمن بين 50 طالبا من المتفوقين لم يحصل إلا أثنين على تقدير جيد جدا، كنت أحدهما، رغم أنى لم أبذل جهدا كبيرا في الدراسة لإدراكي ان المعادلات الرياضية من هذا النوع لا يمكن حلها بوسائل رياضية وان السبيل الوحيد لفهم هذه المادة، التي حولها الأستاذ الدكتور الى مادة بغيضة، هو فهم طبيعتها، أي فهم الطبيعة وليس التعبير الرياضي عنها. ويتكرر الامر في السنة النهائية اثناء مشروع التخرج، فالأستاذ الدكتور المسؤول عن تدريس مواد المشروع النظرية لا يمتلك الخبرة العلمية او العملية عن مشروع التخرج، ويزداد الطين بلة أنه لا يبذل جهدا في التعرف على طبيعته المتوفرة في كتب كثيرة متوفرة للعامة، أي على المعلومات العامة ، فيقترح حلولا هندسية لا يمكن تنفيذها ولا حتى في البلدان المتقدمة ، ولسوء حظة انى كنت امتلك هذه المعلومات في كتب عامة ومنها سلسلة الكتب الشهيرة Guinness، ومنها الكتاب الذى يتحدث عن موضوع الدراسة ، وكنت مضطرا الى استخدامه لتعديل فتاويه برغم إحساسي بالخجل من إضراري للقيام بذلك وبرغم انه لم يشعر بأي خجل من قصوره وجهلة.

و لقصور فهمه لطبيعة الموضوع من وجهة نظر الطبيعة (Physical behavior) فلقد تحول النقاش النهائي للمشروع الى نقاش ثنائي بيني وبينة دون الطلاب الاخرين ، وانتابتني الشكوك حول موقفي، ولكن بعد ما يزيد عن 15 عاما قابلت عالما جليلا صاحب خبرة عملية وعلمية حول نفس الموضوع ، فسالته حول نقاط الخلاف ، فأكد لي سلامة موقفي وصحته ، أنا المفعوص الذى كانت له فرصة التعرف على العلم بدون المعادلات الرياضية ، كل هذا بصرف النظر عن أن هذا الأستاذ الدكتور كان أحد البصاصين.!

ويتكرر الامر مرة ثانية حين كلفت بتدريس جهاز التصويب للطائرة الميج 21 اثناء خدمتي الاجبارية في القوات المسلحة، وهو جهاز معقد يقوم بعمليات حسابية كثيرة كي تخرج في النهاية في شكل حلقة أمام الطيار وما علية إلا أن يضبط وضع طائرته بحيث يصبح الهدف في منتصف الحلقة ويطلق النيران، ولذلك كانت المعضلة كيف أقوم بتدريس هذا الجهاز لطلاب في مستوى الثانوية العامة؟

لقد كان الحل بسيطا وهو العودة للطبيعة، أي لما يراه الطلاب كل يوم في حياتهم اليومية، فلكى يفهم الطالب كيف يرفع الهواء جسم متحرك علية أن ينظر الى لنش يتحرك في الماء، فكلما زادت سرعته ارتفعت مقدمته نتيجة لزيادة رفع الماء مع زيادة السرعة وهى نفس الظاهرة التي تحدث في الهواء، ولقد نلت مكافئة كبيرة نتيجة للتفتيش المفاجئ من أدارة التدريب في القوات المسلحة حين حضر المفتش واستطاع فهم موضوع الدرس، فنلت خطاب شكر ومكافئة مالية.

لذلك فإن التعليم الهندسي يعاني في بلادنا من مشاكل خطيرة حين لا يدرك القائمون علية أن الهندسة هي في حقيقتها دراسة الطبيعة (Physics) باستخدام أدوات رياضية(Mathematics) ، وهو الفارق الأساسي بين مهندس رفيع المستوى يفهم الطبيعة وبين مهندس يتحول الى فني إذا كان جادا.

نماذج بشرية والأوغاد

وانتقام النص

عندما اعاد المجلس الاعلى للثقافة نشر كتاب محمد مندور البديع، نماذج بشرية، تم الغاء المقدمة الاصلية، مقدمة ملك عبد العزيز، ونشر مقدمة جديدة لكاتب آخر، أي سبوبة بصريح العبارة الوقحة ولكن النص سينتقم.

وهل ينتقم النص؟ نعم أيها السادة، فعندما ينبثق النص من رأس صاحبه يولد كاملا مكتملا كما خرجت أثينا من رأس زيوس، كاملة العدة والقدرات صارخة بأعلى صوتها، لقد ولدت الحكمة وجلست على قمة هضبة الأكروبوليس وما زالت قابعة هناك توزع الحكمة والخيال، ولذلك فإن النص ينتقم إذا تم الاعتداء علية، انتقاما لابد منه، انتقاما وان تأخر كثيرا الا إن له صاحب لا ينسى دينا، صاحب السماحة والتسامح و الغضب الجامح أذا تم الاعتداء على نصوص الاحباب الراحلون.

وفي البدء كانت الكلمة، واليكم ما كتبه الصديق محمود الغضبان

"قرأت كتاب نماذج بشرية ومقدمة ملك عبد العزيز، الحق اقول اني وجدت في الكتاب إضاءات مثيرة لا ادري ان كان يعنيها الكاتب الاصلي ام لا، وكذلك وجدت في المقدمة التي كتبتها ملك عبد العزيز أبعادا جديدة فصرت كأني أمام ثلاثة كتب وثلاث رؤى لهذه النماذج البشرية، ما يصل إليه القارئ العادي عند قراءة الرواية الأصلية ، ما يصل إليه القارئ بعد قراءة المقدمة ، ما يصل إليه القارئ بعد قراءة المقدمة والنقد. لا قيمة للنقد إذا لم يفتح نوافذ مضيئة على النص وألا تحول الى تقريظ أو ذم لا قيمة له"

أن ما كتبه الصديق يعبر تعبيرا صادقا أن أثينا خرجت مكتملة، بجسدها وعدتها، أي بنماذج محمد مندور ومقدمة ملك عبد العزيز، ولكن إهمال المجلس الأعلى للثقافة وانتهازية الكاتب الذي كلف بكتابة مقدمة جديدة ، جعلته يلغي مقدمة ملك عبد العزيز ويكتفي بنشر مقدمته هو في اعتداء صارخ على النص ، تصرف لا يوجد له تفسيرا إلا البحث عن "السبوبة" والذاتية المريضة وهو ما كان استاذة محمد مندور قد أنتقده في مقال منشور.

أن أي مقدمة لأي كتاب لا يجب الغائها لأنها اصبحت جزءا منه، ولكن يمكن اضافة مقدمات جديدة لكل طبعة جديدة وهو السلوك المتعارف عليه عند اعادة النشر في أي مكان في العالم.

حرب البرق والحروب الحديثة

Blitzkriegبيلتزكريغ

تعبير عسكري انتشر في أوساط المفكرين العسكريين في شرق وغرب أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى للتعبير عن اختلاف استخدام القوات العسكرية في زمن الحرب، فالحرب العالمية الأولى كانت تعتمد على قوات المشاة الراجلة المدعومة بمدرعات وطائرات بدائية الصنع الامر الذي حول حرب الحركة السابقة، حرب حركة زمن نابليون بونابرت الى حرب خنادق.

لكن مع تطور وسائل النقل والمدرعات والطائرات دار صراع فكرى كبير بين المفكرين والقادة العسكريين ، فريق يرى استخدام التقنيات الحديثة لتدعيم مفاهيم حرب الخنادق والخطوط الدفاعية المحصنة ، وفريق أخر يرى أن التقنيات الحديثة لا يمكن لها ان تؤثر في نتائج العمليات العسكرية إلا إذا استخدمت بطريقة تسمح بالاستفادة من إمكانياتها لأقصى درجة ، لذلك ظهر تيار فكرى جديد يتبنى العودة لحرب الحركة ، حرب حركة تتوحد فيها القوات المكلفة بالعمليات تحت قيادة عملياتية واحدة على أن تتشكل القوات من كافة تخصصات القوات الحديثة ، أي التشكيلات المدرعة والمشاة الميكانيكية والمدفعية المتحركة او المنقولة والوحدات المساعدة المختلفة ثم من الطيران الحربى المقاتل ، أي جيش كامل صغير الحجم يخصص لإنجاز مهام محددة تحت قيادة واحدة .

لقد أسفر الصراع الفكري عن انحياز بعض الدول الى تبنى مفاهيم حرب الحركة وكانت أهم دولة في تبنى هذا المفهوم هي المانيا حيث يتطابق مع أهدافها السياسية، في حين رفضت دول أخرى وعلى راسها فرنسا هذا الفهم للحرب الحديثة وتمسكت بالمفاهيم القديمة واحتمت خلف " خط ماجينيو" رغم أن أسلحتها الحديثة كانت أكثر تطورا من الأسلحة الألمانية.

لقد اثبتت الحرب العالمية الثانية ان تبنى مفاهيم حرب الحركة هي التي تمكن القوات من استخدام اقصى طاقات الأسلحة الحديثة وتزيد من فعاليتها المشتركة، ففرنسا المحتمية خلف خط ماجينو بقواته الدفاعية المدعومة بالمدرعات التي حولت الى منصات مدفعية ثابتة قد انهارت واستسلمت أمام الهجوم الألماني في أسبوعين فقط من القتال لسبب قوى وبسيط، فلقد تجنبت القوات الألمانية مهاجمة خط ماجينو والتفت حوله بعد انتهاكها لحياد بلجيكا، وانهار خط ماجينو بلا قتال!

لكن حرب الحركة لا تعنى تبنى نفس المفاهيم القديمة للحرب العالمية الأولى، أي المواجهة وجها لوجه ولكنها تتيح استخدام طرق الاقتراب غير المباشر والالتفاف والتطويق، كما سبق الإشارة الى معركة فرنسا في الحرب العالمية الثانية، كما تتيح أيضا تركيز الهجوم وقوى النيران على نقاط محددة في استحكامات العدو لاختراقها ومهاجمة مراكز القيادة وطرق الامداد والتموين فتنهار قوى العدو ودفاعة.

وإذا كان الالمان قد نجحوا نجاحا باهرا في بدايات الحرب العالمية الثانية برغم تفوق أسلحة الحلفاء، الا أن الإمكانيات المتوفرة لسرعة الحركة ووسائل الاقتراب الغير مباشر قد تدفع الى المغامرة، مغامرة استخدام المدرعات التي تتحرك بسرعة دون الاعتماد والتعاون مع التشكيلات الأخرى، أي مع المشاة والمدفعية والطيران وغيرها من التشكيلات المشابهة وعندها من الممكن أن تكون النتائج كارثية، شريطة أدراك العدو واستعداده.

نعم كارثة حقيقية وقعت للألمان أثناء الحرب في الاتحاد السوفيتي الذى أدرك أصول الحرب الحديثة وتبناها بشكل أكثر اتزانا وبلا مغامرة، فبرغم التفوق الألماني وسوء التقدير السياسي لوقت الهجوم الألماني إلا ان السوفييت نجحوا في تأخير التقدم الألماني ليس فقط نتيجة للإصرار الشعبي على المقاومة وعدم الاستسلام بل

أيضا لاتباع أساليب قتالية تمنع انهيار القوات بعد الاختراق الألماني ، الذى لم يكن ممكنا منعة ، فالفرقة 316 مشاة المدافعة عن موسكو تخوض 36 معركة مع القوات الألمانية ولا تنهار برغم خرق الالمان المتكرر لخطوطها بأساليب شرحتها القصة الشهيرة " طريق فولوكولامسك" والتي نشرتها القوات المسلحة تحت اسم " كتيبة ومعركة" ونشرت تحت اسم قصة الرعب والجرأة بالعربي عن طريق دور النشر.

لقد أدركت مصر، في اعقاب حرب 1967، ضرورة تحديث وتطوير القوات المسلحة وفق الاسس الحديثة، لذلك فبدلا من وجود فرقة واحدة مدرعة هى الفرقة الرابعة تم إضافة فرقة اخرى مدرعة هي الفرقة 21 واضيف اليها ثلاثة فرق مشاة ميكانيكية وثلاثة الوية مدرعة مستقلة تستخدم أحدث الدبابات الروسية، تي 62، في نفس الوقت الذى استمرت فيه فرق المشاة التقليدية الغير ميكانيكية برغم دعمها بدبابات الصف الثاني، وهى نفسها الفرق التي اقتحمت خط بارليف بدعم من المدفعية وكتائب الصواريخ المضادة للدروع.

لكن طبيعة الوضع الجغرافي والتوسعي لإسرائيل فرض عليها منذ أن تطور الجيش الإسرائيلي أن تتبنى أساليب الحرب الحديثة بحيث أصبح يعتمد على الالوية المدرعة والمشاة الميكانيكية فقط.

وإذا توقفنا أمام معارك حرب أكتوبر 1973 وبالذات معارك الثغرة ، فإن القوات الإسرائيلية قد استخدمت الأساليب الحديثة بشكل تقليدي، أي تجميع القوى والهجوم على نقطة تفصل بين القوات ، بالطبع بعد ان قامت طائرات الاستطلاع الامريكية باستطلاع خلف الخط الدفاعي المصري شرق القناة لتكتشف عبور معظم القوات المدرعة الى الشرق ، لكن القوات الإسرائيلية كانت تعانى من نفس افة المغامرة الألمانية، فالقوات الإسرائيلية داخل الاختراق وصل حجمها الى 7 الوية مدرعة ولواء واحد مشاة ميكانيكية ولواء مظلات شكلت ثلاثة مجموعات قتال غير متوازنة.

لقد أسفر تبنى مفاهيم حرب الحركة على التأثير على بنية القوات المسلحة في البلدان المختلفة طبقا لحجم مسرح العمليات المتوقع وعلى طاقاتها التعبوية وطبيعة العدو وطبيعة التسليح المتوفر ، لذلك تبنت الكتلة السوفيتية تنظيما يعتمد على وحدات عسكرية كبيرة الحجم ، أي الفرق العسكرية المشكلة من ألوية مدعومة بوحدات أصغر حجما من تخصصات مختلفة مثل كتائب المدفعية وكتائب الأسلحة المضادة للدروع وغيرها ، وكان الدافع الأساسي لهذا التنظيم هو أتساع مسرح العمليات المنتظر ، أما الكتلة الغربية فلقد تبنت تنظيما يعتمد على وحدات اصغر حجما وأعلى قابيله للانتشار السريع ، أي على الالوية العسكرية المتحركة بما يسمح بالتدخلات السريعة في أماكن مختلفة في العالم ولا يتوقف الامر فقط على حجم الوحدات الأساسية بل يمتد أيضا لطبيعة تسليحها ووسائل تحركها.

لذلك فإن التنظيم الحديث لأي قوات مسلحة لابد من أن يأخذ في اعتباره مسرح العمليات المنتظر وطبيعة العدو المتوقع وتعدد مسارح العمليات في نفس الوقت إذا اقتضت الضرورة ذلك، كما يجب أن يراعى الخبرات العملية السابقة.

فار السبتية والحسبة غلط يا أرماني!!

هل هو حقا هو فار السبتية الذي يسبب انقطاع الكهرباء؟ الاجابة هي لا فلقد أنقضت السبتية وزمانها ، فقدرات التوليد تكفى لمواجهة الحمل الاقصى الذى بلغ 35 الف ميجا وات مع وجود احتياطي كافي ، ولان انقطاع التيار

ليس رهن بمنطقة جغرافية دون غيرها فلابد وان السبب ليس متعلقا بقدرة شبكات التوزيع الكهربائية على التحمل خصوصا بعد تجديدها وتوسيعها توسعا كبيرا ، لذلك فإن تصريح رئيس الوزراء بأن سبب الانقطاع هو انخفاض ضغط الغاز في شبكات انابيب التوزيع والذى من المتوقع أن يستمر لمدة أسبوع هو تصريح دقيق يوصف الوضع ولا يشرحه، لكن لماذا حدث هذا برغم أن الطاقة الانتاجية الكلية للغاز تتجاوز الاستهلاك المحلى ويتم تصدير الفائض.!

فلنتوقف قليلا عن أنواع الوقود المطلوب لوحدات التوليد

فوحدات التوليد البخارية تستخدم الغاز الطبيعي والمازوت وتبلغ لقدرة الانتاجية الاسمية 17 ألف ميجاوات ووحدات التوليد الغازية تستخدم الغاز الطبيعي والسولار وتبلغ القدرة الانتاجية 3.3 ألف ميجا وات

ووحدات التوليد المركبة تستخدم الغاز الطبيعي والسولار وتبلغ القدرة الانتاجية ا الاسمية 5.32 ألف ميجا وات

وتبلغ القدرة الانتاجية الاسمية للمصادر المتجددة) المياه والشمس والرياح (58. ألف ميجا وات وهي لا تستهلك وقودا.

تطور استهلاك انواع الوقود

حدث تطور كبير في نوعيات الوقود المستخدمة لسببين

الاول هو زيادة القدرة الانتاجية لوحدات التوليد المركبة

ثانيا التركيز على استخدام الغاز الطبيعي بديلا عن الوقود السائل لتوفره محليا وعدم الاحتياج لاستيراده.

لذلك فلقد بلغ حجم الاستهلاك لتوليد الكهرباء من الغاز الطبيعي 31821 الف طن مكافئ، ومن السولار 8.4 الف طن مكافئ، ومن المازوت 582 الف طن مكافئ، حيث تناقص استخدام الوقود السائل، خصوصا المازوت، تناقصا كبيرا جدا، وكما هو واضح فإن الاعتماد على الغاز الطبيعي اصبح اساسيا بشكل واضح.

التصدير والعملة الأجنبية

ومنذ أن ارتفعت اسعار الغاز عالميا فلقد قررت الدولة تقليل استخدام الغاز الطبيعي لزيادة الصادرات مع زيادة استخدام الوقود السائل، أي المازوت والسولار، خصوصا مع تناقص الفجوة بين الاحتياج والاستهلاك مع انتهاء تطوير بعض المصافي الانتاجية، بالذات في مسطرد وميدور.

حسبة أرماني

من الواضح أن انخفاض ضغط الغاز في الشبكات راجع لعدم ضخ كميات كافية من الغاز، لذلك فإن الغاز الواصل لمحطات القوى اصبح غير كافيا، في نفس الوقت الذى لم يتم فيه توفير البديل السائل بالكميات الكافية لتعويض نقص الغاز، أي أن السيد أرماني الذى قام بالحسابات لكميات الوقود اللازمة لم يأخذ في اعتباره تطور الحمل الاقصى، كما قد يكون أحد الأسباب هو عدم القدرة على توصيل الوقود السائل بالكميات الكافية لتعويض الغاز ، لان تصميم وتنفيذ شبكات الوقود السائل كانت تقدره كاحتياطي للغاز وليس كمصدر أصلى بديل.

المهم أن المشكلة عارضة ويمكن حلها في زمن قصير، ولكن على أرماني أن يراجع حساباته وأن يراجع كميات الغاز التي يجب توفيرها على حساب التصدير مع دراسة الامكانيات المتاحة لتوفير الوقود السائل وهل يتطلب الامر تطويرها حتى لا يعود فار السبتية من جديد.

جميع البيانات من التقرير السنوي للشركة القابضة للكهرباء عن عام 2021/20 وهو الاحدث المتوفر على موقع وزارة الكهرباء.

الباز الاشهب بين الفرعونية والصوفية

أحد أنواع الصقور يحلق عاليا وينقض بسرعة خاطفة ولا يأكل الجيفة، من فصيلة الهبت الخيال الشعبي منذ زمان بعيد، وما زالت تحظى بالإعجاب.

حورس الفرعوني، الإله الذى أقام العدل وانتقم لوالدة وحمى فراعنة مصر، كان يظهر فى هيئة الصقر، و يحظى بمكانة خاصة في الشعور الشعبي و في الدين الرسمي.

كان من الطبيعي أن يندمج مع الصوفية وبالذات الصوفية الشعبية الأكثر اندماجا مع الجماهير الشعبية، فكم من بشر تبنتهم الصوفية الشعبية لأسباب ليست دينية وحولتهم إلى أولياء يتوسطون لقضاء الحاجات، مدد يا أم العواجز ويا قنديل أم هاشم ويا ابونا يحي حقي الذي كان يكتب الشعر نثرا.

ويأتي طارق مندور بالآتي من النت

"معنى الباز الأشهب: العلامة شهاب الدين الألوسي يقول: «معنى الباز الأشهب عند الصوفية: المتمكن في الأحوال ، فلا تزحزحه الطوارق عن درجات الرجال ، مع الخلق بظاهره ومع الحق بسرائره ، رؤيته سنية ، وهمته علي ة وهو عون للخائفين وحظ للعارفين"

هو هو نفسه حورس صاحبنا القديم

ويكتب عبد الرؤف هيكل عن باز أشهب قريته

"الباز الأشهب واحد من آل رسول الله صل الله عليه وسلم وقد جاء إلى منطقة تسمى جزيرة اللبن التي هي الآن كفر الباز واستوطنها و كان دليلا للحجاج و حاميهم من اللصوص و قطاع الطرق وهذه القرية هي التي ولدت و أعيش بها و أيضا أنور نصير وقد اشتهر الباز الأشهب بين الناس أن له كرامات و كان له ضريح فخم يزوره الناس من كل الدنيا و كان يقام له مولد مثل الحسين والسيدة و لكن اوقف المولد و هدم الضريح و بقي اسمه"

انه نفسه الحلم القديم، حلم العدل والحرية والحماية والشهامة ومساندة المظلوم والخلق الرفيع.

تحية من القلب لكل باز أشهب.

الوهم والتكنولوجيا الرقمية والحمار

قضية شائكة يكثر عليها اللغط والاحلام والاوهام الى مستوى ان الكثيرون يتحدثون عنها باعتبارها طريق التقدم، بالقطع فإن التكنولوجيا الرقمية تتغلغل فى كافة جوانب الحياة في المجتمعات الأكثر تقدما وتؤثر تأثيرا كبيرا في نمط الحياة وفى العمليات الإنتاجية ولذلك فهي في منتهى الأهمية ولا يمكن التحدث عن التقدم ومقاومة الفساد دونها.

ولكن المبالغة الشديدة في دورها الى مستوى النظر إليها باعتبارها منتج مستقل للقيمة هي مبالغة غير صحيحة، ولو تخيلنا، أن عالما مجنونا قد قرر تطوير أداء الحمار وقام بزرع كمبيوتر صغير في رأس المحروس فماذا سيحدث للحمار؟ هل يتحول إلى حمار طائر؟ او يتطور الى انسان؟! سيبقى الحمار حمارا، ولكن اداءه يتطور، ولكن في حدود امكانياته الاصلية ولن يستطيع أن يتجاوزها.

وسأضرب لكم مثلا من خبرتي العملية، فلقد عملت لسنوات طويلة في التوربينات الغازية، وهى ماكينة معقدة تركب في الطائرات، محرك الطائرة، وفى توليد الكهرباء و فى تطبيقات صناعية وعسكرية كثيرة، وعندما تعرفت على أحد طرازاتها كان جهاز التحكم فيها من الجيل الثاني ، وبعد سنوات طويلة اصبحت مسؤولا عن نفس نوع الماكينات و لكن جهاز التحكم كان من الجيل الخامس ، فعلى ماذا حصلنا ؟ لا شيء على صعيد القدرة الانتاجية، لان الحمار، اسف، الماكينة هي هي لم تتغير، وكل ما حصلنا عليه هو امكانيات اعلى في التحكم.

هذا أيها السادة ما يحدث فى عمليات الإنتاج، ولكن ومع إمكانيات التحكم الرقمي نستطيع ان ننتج آلات ونظم انتاجية جديدة اوسع قدرة وأعلى إنتاجية متعددة المهام لأننا أصبحنا نستطيع التحكم فيها بمستوى الدقة المطلوبة.

إذن التقدم يتم في العمليات الإنتاجية الفعلية مدعوما بإمكانيات التكنولوجيا الرقمية، وبدون ذلك فإن أقصى ما يمكن أن تحققه التكنولوجيا الرقمية هو تحسين كفاءة إدارة الخدمات او العمليات البنكية او ادارة الاقتصاد القومي.

ولذلك علينا تطوير الحمار تطويرا شاملا وليس اكل المسكين!!

عبادة الأصنام!!

هل انتهت عبادة الأصنام؟ يجوز انها قد انتهت على صعيد المعتقدات الدينية ولكنها لم تنتهى على صعيد الأفكار الاجتماعية ، فتطور الأفكار الاجتماعية شديدة الارتباط بالصراع الطبقي وبالتطور المادي في علاقة جدلية ، فتطور الأفكار الاجتماعية يصطدم دائما بالسائد والمنتشر منها والذى تحول الى أصناما فكرية يعتقد بها العامة ، هذا التطور الذى قد يكون المقدمات الضرورية وإشهارا للتغييرات الاجتماعية القادمة التي قد تفتح الباب واسعا للمزيد من تطور الأفكار لخلق وسيادة أفكارا اجتماعية جديدة ، أفكار اجتماعية قد تتحول هي نفسها الى أصناما جديدة مع سيادة نمط الإنتاج الجديد.

أن تاريخ تطور الأفكار الاجتماعية يعكس هذه الحقائق بشكل قاطع ولا يقتصر فقط على الفهم الضيق للأفكار الاجتماعية، بل يتضمن أيضا العلوم والفنون التي تشكل جزءا هاما منها.

وليس المحل هنا استعراض مثل هذا التطور، ولكن تكفي الإشارة الى بعض الوقائع التي تدعم هذه الحقيقية. فجاليليو يحاكم بتهمة الزندقة لأنه اكتشف أن الأرض ليست مركز الكون وان مركز المجموعة الشمسية هو

الشمس، وباستير، أول من أكتشف أن الكائنات الدقيقة تضر وتنفع، في صحة الأنسان وفى الصناعة، فيتهم بالخرف، ومن اكتشف حقائق كيفية التغيير الاجتماعي يرقد في مقبرة منسية في غير بلدة، والطامح الى التغيير، ممثل الشعب في ثورة مصرية كبرى في القرن التاسع عشر، مازال جسده يرقد في بلد غريب وهو يشتاق الى أن يعود من منفاه الثاني.

والمصيبة الكبرى أن التيارات السياسية والاجتماعية المنوط بها البحث عن المستقبل قد استسلمت، هي أيضا، لعبادة الأصنام، فتجد استسلاما غريبا لأفكار شائعة، فكرية ونظرية واجتماعية، دون التوقف عندها كثيرا وطويلا وإخضاعها للبحث بطرح الأسئلة الجوهرية الأساسية، كأن طه حسين لم يكتب " في الشعر الجاهلي "، فتحول الكتاب وصاحبة الى أحد الأصنام، فلا أحد ينظر نقديا الى منهجه ونتائج خروجه، المحمود، عن عبادة الأصنام!!

والان تعم عبادة الأصنام وتصل الى المنوط بهم مقاومتها، فتجد، ليس فقط استسلاما لأفكار اجتماعية، بل ترويجا لها والتمترس خلفها دون نظرة نقدية حقيقية وكأنهم يصرخون " واللات والعزى هذا ما وجدنا علية آباؤنا."

قائمة كبيرة وطويلة من الأصنام الفكرية والاجتماعية تجسم على عقول البشر تجعل اى خارج عنها يعامل باعتباره قد " صبأ "، فلا نامت أعين الجبناء!

احذروا من خضراء الدمن - الاخوان المسلمون بدون دبلوماسية

مقدمة لابد منها

مندور وصدقي والإخوان

طفل صغير يطلب من أمة أن يشاهد المسدس الصغير غير المرخص الذي يحتفظ به أبوه في حجرة نومة فتسمح له أن يراه على ألا يلمسه الأمر الذي يعرفه جيدا " ممنوع اللمس " ويتساءل " لماذا يحتفظ والدة المثقف الوطني الكبير بمسدس في غرفته وتأتي الإجابة واضحة جلية " دفاعا عن النفس. "

ففي خضم المعركة السياسية الكبرى التي خاضها الشعب المصري لإفشال الاتفاق على معاهدة صدقي - بيفين ، معركة يقف على رأس رمحها الطليعة الوفدية واللجنة الوطنية للطلبة و العمال ممثلة لكل قوى المجتمع الحية من الليبراليين و الديمقراطيين الوطنيين الثوريين واليسار في مواجهة حكومة أقليات معدومة الشرعية بقيادة إسماعيل صدقي باشا ، الملقب بعدو الشعب ، مدعوما بالإخوان المسلمون مستشهدين بقوله تعالى) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُو الا نبَّياً (كما صرح مصطفى مؤمن زعيم طلبة الاخوان ، يدرك محمد مندور صحة قرارة في الحصول على المسدس بعد أن لاحظ أن هناك مراقبة له من عناصر غير بوليسية ، هذا الإدراك الذى تدعم بعد أن رفض الرشوة المعروضة من إسماعيل صدقي بواسطة وزير ماليته عبد الرحمن البيلي باشا بتولي منصب سفير مصر في سويسرا وانتابه غضب هائل عرض حياة البيلي للخطر ، الذى تدحرك هاربا على سلم البناية خوفا من غضبه مندور ، كل ذلك قبل أن يفصح الاخوان المسلمون بشكل عملي عن لجوئهم الى العنف المسلح الأمر الذى تحقق في سلوكهم بعد سنوات قليلة في السنوات 1947 الى 1949.

حقيقة دامغة يوضحها سلوكهم السياسي منذ أن أسست الجماعة سنة 1928 وتلقت دعما ماليا من ولى النعم الاول، الاحتلال البريطاني بواسطة هيئة قناة السويس.

وينتاب الطفل، الذي أصبح رجلا كبيرا ذو خبرة، نفس الغضب الذي أنتاب والده قبل أن يولد، حين يجد قوى سياسية ليبرالية ووطنية وناصريه ويسارية تتعاون مع الإخوان في مواجهة الدولة المباركية أثناء ثورة 2011، الأمر الذي أفقد هذه القوى الكثير من الاعتبار عندما تغيير المزاج الجماهيري وأطيح بسلطة الإخوان سنة 2013

أولياء النعم

أن أحد أكثر العناصر أهمية في السلوك السياسي للجماعة هو البحث عن ولى للنعم طالما كانت الجماعة في حاجة الية، حدث هذا مع الولي الاول، الاحتلال البريطاني، ثم مع الولي الثاني، حكومات الأقليات المدعومة بسلطة السرايا الملكية في مواجهة الحركة الشعبية، الى أن حدث الصدام الدامي الأول مع حكومة السعديين في عام 1948 حين أخطاء الإخوان في تقدير قوتهم الحقيقية، وهو خطأ يستمر في التكرار إلى يومنا هذا.

ويحدث الصدام الثاني مع ولى النعم الجديد، مجلس قيادة الثورة، خلال فترة الصراع على السلطة التي امتدت من 1952 الى 1954، حين هيأ لهم أنهم القوي المنظمة الوحيدة التي يجب أن تسلم لها السلطة بعد أن تعاونوا مع المجلس في تصفية الحريات الديمقراطية الموروثة، فوجهت لهم ضربات قاصمة، ضربات لم يكن لها بديلا حتى ولو لم تحدث محاولة اغتيال جمال عبد الناصر التي قامت بها عناصر الجهاز الخاص.

ويبدو الامر مثيرا للسخرية عندما تصر القيادات الحالية والسابقة على أن الاوامر لم تصدر للجهاز الخاص لاغتيال عبد الناصر، مثل السخرية التي أثارها البيان الشهير لحسن البنا في أعقاب اغتيالهم لمحمود النقراشي رئيس الوزراء سنة 1948 والذي صدر بعنوان " ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين " ويا له من وصف يلخص الاخوان المسلمون بلسان قائدهم الملهم!

ويتكرر الخطأ الإخواني عندما يخرجهم عبد الناصر في 1964 و**1965**، ولكن فترة ما أسموه بالمحنة الأولى قادت الى مزيدا من التطرف داخل الجماعة وبروز تيار تكفيري واضح أصبح الأب الشرعي لكل التيارات المتطرفة التكفيرية التي نعانى منها الآن، فتلجأ عناصر هذا الاتجاه الى محاولة الانقلاب المسلح، فيقع ما أسموه بالمحنة الثانية.

وتخدمهم ظروف التغيرات السياسية والصراع الدائر حول مواجهة الاحتلال الصهيوني والاحتياج الحاد للدولة لظهير سياسي يدعم موقفها في مواجهة غليان شعبي يقف على رأسه اليسار والقوى الديمقراطية في أوساط الطلبة والعمال والذى أمتد الى الفئات الاجتماعية الوسطى ، فيجدوا في الدولة ولى نعم جديد ، حيث يفتح الباب أمامهم لإعادة التنظيم وبناء بنية تحتية اجتماعية واسعة النطاق وإصدار صحف باسمهم ويصبح الباب مفتوحا أمامهم لاستيعاب طاقات شابة جديدة وللتغلغل داخل هيئات الدولة الرسمية المختلفة، رغم التناقضات مع الولي الجديد ، الأمر الذى استمر الى 2011 ، وهى فترة كانت أكثر من كافية لتدعيم وجودهم التنظيمي والاجتماعي وتعديل موقف الجماهير منهم.

وعندما تنفجر الثورة يقتربوا منها بحذر بالغ وبالرقص على جميع الحبال بين القوى المتصارعة، الأمر الذي لا تدركه بعض قوى المعارضة من الناصريين والليبراليين واليساريين فيساهموا في تدعيم نفوذهم السياسي، ولكن الإخوان يقعوا في سوء تقدير بالغ لحقيقة موقف المجلس العسكري، الذي عند مراجعة مسار تطور الصراع ندرك أنه كان الأكثر إدراكا لتطورات الصراع الدائر على السلطة.

للمرة الأولى منذ نشأتهم وبوصولهم للسلطة، يتخيل الإخوان انهم ليسوا في حاجة لولى نعم جديد ويبدأ فقدان كبير لأولياء النعم الإقليميين وتبدأ الخسائر المعنوية في الانهيال على رؤوسهم حين يتغير المزاج الشعبي ويفقدوا

التأييد المؤقت الذي استطاعوا الحصول علية، هذا الفقد الناتج عن السوء والعجز الفاضحين عن أداره الدولة واضطراب سياستهم الخارجية.

وبرغم الضربات القاصمة للظهر التي واجهتهم بعد 2013، ضربات طالت بنيتهم التنظيمية والاجتماعية، الا انهم ينجحوا في الحصول على ولى نعم جديد حيث تخدمهم التطورات السياسية بالمنطقة بظهور الاردوغانية في تركيا، ولى نعم جديد تساهم سياساته في مزيدا من اضمحلال نفوذهم السياسي وتعميق عزلتهم وتزايد انفضاض الجماهير من حولهم.

التطور التنظيمي

هل رأيتم فيلم كل رجال الرئيس الأمريكي عن فضيحة وترجيت؟ ستتفاجأ بمستوى بدائية وعدم احتراف المتهمين الى مستوى أنك عندما تقارنه بطريقة عمل الاخوان ستفاجأ كم كانت الأساليب الإخوانية أكثر تقدما وتسمح بالتنصل من أفظع الجرائم إذا اقتضت الضرورة ذلك، فكيف يعمل الإخوان؟ نستطيع أن نتحدث عن مراحل من السلوك السياسي والهياكل التنظيمية ووسائل ممارسة العنف.

ففي الفترة الاولى، اى منذ التأسيس الى اغتيال حسن البنا، كان الإخوان يعملون على مستويين متجاورين، مستوى الاناس المتدينين الذين يرغبون في القيام بخدمات إنسانية ونشر الدعوة والانخراط في العمل السياسي لبعض قطاعاته مثل في الجامعات والنقابات والمؤسسات الاهلية وتنظيم أخر موازي وغير معلن وسرى ويتحكم به المرشد شخصيا ويسمى بالجهاز الخاص، وفى الغالب يكون الجهاز العام أقل تعصبا وأكثر انفتاحا نتيجة لانخراطه في الحياة العامة.

هكذا كان شكل التنظيم في زمن حسن البنا ، وكان الجهاز الخاص هو المسؤول عن عمليات الاغتيالات في أربعينيات القرن الماضي ، اغتيال القاضي الخزندار الذي كان ينظر قضية سيارة الأسلحة واغتيال رئيس الوزراء ، محمود فهمى النقراشي و اغتيال سليم زكى حكمدار القاهرة ، ولذلك كان من السهل على حسن البنا اللجوء الى الأسلوب المتوقع بمحاولة التنصل من الاغتيالات وعلى رأسها اغتيال النقراشي ، لان من قام بالاغتيال هو الجهاز السرى فأصدر بيانه الشهير ، بعد مفاوضات مع خليفة النقراشي ، إبراهيم عبد الهادي ، بالبيان الذى اتهم قتلة النقراشي بأنهم ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين فانهار الشباب وأكملوا اعترافاتهم ، و بصدور البيان انتهى ما هو مطلوب من البنا ، فدبرت الحكومة اغتياله ، ولذلك أطلقوا علںا براهيم عبد الهادي "كلب الوادي ."

لكن باغتيال البنا بدأت المرحلة الثانية حيث أصبح الجهاز أكثر استقلالا عن القيادة وكان يطمح للوصول الى منصب المرشد، الأمر الذي انتهى بعد مساومات الى اختيار المستشار حسن الهضيبي الذي لم تكن عضويته معلنة ولا ينتمي للبنية التنظيمية، كحل وسط، وكان مستشارا بوزارة العدل، حيث لم يكن ينتمي لأي من التيارات المتصارعة.

وكشف هذا الاختيار عن وجود جزء ثالث من التنظيم ، يختلف عن الهيئة المدنية بقيادة مكتب الإرشاد العلني و الجهاز الخاص السرى ، وهو وجود أعضاء في مواقع حساسة لا ينتمون الى اى من الهيكلين التنظيمين لكن يتم الاحتفاظ بالعلاقات معهم بشكل فردى واحيانا عن طريق المرشد العام فقط ، وهذا الأسلوب مازال سائدا حتى الآن ، لأعضاء غير منتمين لمكان في البنية التنظيمية ، لاستخدامهم عند اللزوم، كما ظهر هذا واضحا بشدة أثناء الثورة ، حيث أعلن هؤلاء الأعضاء عن انتمائهم سواء بالسلوك العملي أم بالإعلان عن الانتماء التنظيمي ، وبعضهم كان يشغل مناصب في الدولة في منتهى الأهمية.

ولكن احتدام الصراع الداخلي بين قيادة المرشد الجديد وبين الجهاز الذي استطاع الوصول إلى درجة أكبر من سلطة اتخاذ القرار منفردا، في أحداث 1954، وهو ما كانت الدولة تدركه، وتبين ذلك في طبيعة الأحكام التي صدرت من المحكمة العسكرية بإعدام بعض قادة الجهاز وأعضائه وبأحكام أقل على القيادة الرسمية للإخوان.

لقد أسفر الأمر في النهاية عن تشكل تياران، تيار الهضيبي بكتابة الشهير " دعاة لا قضاة " والتيار الأكثر ميلا لاستخدام العنف الذي تجمع حول كتاب سيد قطب " معالم على الطريق " برغم أن سيد قطب لم يكن عضوا في الجهاز الخاص وانضم متأخرا كثيرا للإخوان.

ولكن بعد إخراج السادات لهم في بداية السبعينات بدأت تحدث ظاهرة جديدة باندماج أعضاء الجهاز الخاص في البنية التنظيمية العادية وازداد استخدامهم للعنف اليومي في مواجهة الجماهير والتيارات الأخرى، سواء منهم او من الجماعات الاسلامية، التي نجحوا في النهاية في السيطرة عليها بدعم مباشر من الدولة.

لقد كان المرشد الأول، بعد العودة، التلمساني، من القطاع المدني وكان أكثر فهما واستيعابا لطبيعة دورهم المطلوب في تلك المرحلة، ولكن بوفاة التلمساني أصبح منصب المرشد من نصيب قادة الجهاز الخاص القديم حتى اليوم، وحدث تزاوج بين استخدام العنف في الحياة المدنية للتماهي مع الميول العنيفة لأعضاء الجماعات الإسلامية الذين انضموا بشكل تدريجي، وأصبح استخدام الأساليب العنيفة الطابع العام للإخوان وليس مجرد الدور المنوط بالجهاز الخاص الذي لم يصبح موجودا.

أن هذا الطابع الشامل أفصح عنه بشكل دراماتيكي ودعائي في استعراض فرق الفنون القتالية بالملابس السوداء في جامعة الأزهر في زمن الثورة، وفى السلوك الجماهيري للإخوان في ميدان التحرير وفى أحداث الاتحادية أو في أحداث مركز الإرشاد.

ولكن لماذا أقوم بهذا الاستعراض لتطورهم ومدى ارتباطهم بالأساليب العنيفة سواء في الحياة المدنية السياسية أم في الأعمال العسكرية المباشرة؟ لسبب اصيل وهو انه بعد كل هذا التاريخ الذي يعلمه القاصي والداني وبعد تراكم المعلومات سواء من قادة الإخوان أنفسهم في مذكراتهم أم في سلوكهم العملي المتراكم، فإنه لا يوجد عذرا لأحد من قادة الإخوان سواء على مستوى مكتب الارشاد او المستويات الأدنى من القيادات للتنصل من أساليبهم العنيفة.

وإذا راجعنا سلوكهم السياسي والذي سبق لي أن كتبت عنه باختصار في تتبع لتاريخهم وبحثهم الدائم عن ولى النعم تحقيقا لمصالحهم وخدمة لمصالح وأهداف أولياء النعم التي كانت دائما معادية لمصالح الشعب المصري، اكتملت الصورة بشكل كامل.

ولذلك نحن في مواجهة تنظيم تطور واندمجت اجهزته مع بعضها وأصبحت قيادة مركز الارشاد أكثر قدرة وتحكم في التنظيم وأصبح ما كان يسمى بالجهاز الخاص مندمجا في البنية الأساسية ولا يشكل تنظيما موازيا.

من أجل كل هذا نحن لسنا في مواجهة التنظيم الإخواني القديم الذي انشق بعض كبار قادته ومفكريه وانضم الى عبد الناصر مثل الباقوري وعبد العزيز كامل وحتى أحمد كمال ابو المجد، بل تنظيم ذو طبيعة مختلفة ولا يمكن تبرئة أي من قادته على مستوى مركز الارشاد أم من القيادات الوسطى عن سياساتهم الحالية، مهما كانت نعومة أو لطف تعاملات البعض الشخصية.

الانشقاقات الإخوانية

دفعني الفضول لاستطلاع موقع حزب الوسط، وهو فضول شيطاني الدافع وليس بريئا، لكي أرى بنفسي هل استطاعوا التخلص من جذورهم الإخوانية أم لا.

وبدأت في قراءة برنامجهم ولم أجد جديدا ما عدا البلاهة الليبرالية الاقتصادية والسياسية والكلام الغليظ الجلد عن العدالة الاجتماعية بلا سياسات محددة.

أبو العلا ماضي يتحدث عن شخصيات عرفها ومنهم مصطفى مشهور مرشد الإخوان السابق ومحمد فريد عبد الخالق من قيادات الإخوان وعثمان احمد عثمان وعمر التلمساني المرشد الأول بعد عودة الاخوان و محمد الغزالي وعادل حسين وعبد المنعم أبو الفتوح ، وخلال حديثه ، في حلقات ، تكتشف دور الدولة في عودة الاخوان و علاقتهم بالجماعات الاسلامية بالجامعات ، وتطور هذه الجماعات وتوجهاتها السلفية ثم انشقاقها لاحقا الى تيارات جهادية او انضمامها الى الإخوان ، والصراع الدائر داخل الاخوان بين المنتمين للجهاز الخاص والتيار المدني والدور الخاص للتلمساني ممثل التيار المدني ومصطفى مشهور ممثل الجهاز الخاص وأكثرهم تأثيرا وسيطرة المنتمي للجهاز الخاص ومجموعة 65 وعلاقتهم مع حزب العمل ، ثم بداية الانهيار التدريجي للتحالف مع الدولة و بداية التشققات الصغيرة وخروج مجموعة لتشكل حزب الوسط.

التنظيمات الإخوانية الجديدة

أنا لا اكذب، ولكن اتجمل قصة لإحسان عبد القدوس تحولت إلى فيلم بطولة احمد زكى.. هذا ما خرجت به بعد أن أكملت قراءة مذكرات عبد المنعم أبو الفتوح وما نشرة أبو العلا ماضي على موقع حزب الوسط أن الزعماء الاسلاموجيين يقفزون برشاقة على كل ما يمكن أن يدين تاريخهم، وانا لا اقصد تاريخ الإخوان المسلمين فقط، بل ايضا تاريخ الجماعات الاسلامية بالجامعات المصرية منذ نشأتها حتى انضمام معظمها الى الإخوان المسلمين ثم استمرار قفزهم برشاقة عن افعالهم الاجرامية في الجامعات وخارجها بعد الانضمام لجماعة الإخوان، وأن كانت القراءة المدققة ستجد الكثير مما لا يمكن النجاح في اخفائه وأحيانا يتسرب من بين أيديهم رغم انفهم.

أن استنتاجي الرئيسي بعد هذا الجهد بالاطلاع على ما كتبه أبرز المختلفين منهم ومعهم هو كيف يستقيم الظل والعود أعوج!

فهؤلاء يتبنون نفس البنية الفكرية للإخوان المسلمين، وينظروا الى تاريخ الجماعة بنفس المنطق القديم، إنه خلاف في التكتيك وليس الاستراتيجية، ولكنه أصبح مفيدا لنا للتعرف عليهم بشكل أكثر دقة.

أن هذه المذكرات تفضح كثيرا من الحقائق، برغم محاولات القفز على الكثير من الوقائع ، فدور الدولة في تشجيعهم وتيسير توسعهم لمواجهة الحركة الديمقراطية سواء باستدعاء كبار الدعاة من الاخوان لمحاضرتهم داخل الجامعة كثيرة ومتكررة، وعقد المخيمات الصيفية الممولة من ميزانية الدولة متكررة وتصل أعداد الحاضرين، احيانا، الى الالاف، وتسهيل اتصال زعماء الإخوان بهم واضحة حتى يتم استيعابهم داخلها بديلا عن توجههم الى الاساليب العنيفة ، والتنسيق مع أجهزة الأمن وبالذات بعد انضمام اغلب الجماعات للإخوان واضحة الى حد عقد الاجتماعات الدورية ، والتنسيق والتعاون والتواطؤ مع كبار الممثلين السياسيين للدولة واضحة ومتكررة ، والتعاون مع الأحزاب الليبرالية طريقا لدخول المؤسسات التمثيلية، مثل مجلس نواب 1984 مع حزب الوفد، أو التعاون اللاحق مع حزب العمل ومحاولة تأجيره مفروشا للإخوان.

إلا أن الأكثر أهمية في هذه المذكرات أنها تبين الصراع الدائر داخل الإخوان أنفسهم الذي أنتهى الى سيطرة تيار الجهاز الخاص، الأمر الذي استقر حتى الآن، وهو التيار الأكثر انغلاقا سياسيا ودينيا والأكثر ميلا الى استخدام العنف، عندما تقتضي الضرورة ذلك في تقديرهم، انتصارا على التيار الممثل للنظام العام للإخوان والذي انتهى بخروج الكثير من الممثلين للنظام الإخواني العام من الإخوان.

أن تصديق تحولهم الى أحزاب مدنية غير دينية وبعدهم عن العنف الذي قام به الإخوان عن طريق الجهاز الخاص أو ما يقومون به الآن، هو خلاف تكتيكي مادامت بنيتهم الفكرية ونظرتهم الى تاريخ الحركات الإسلامية مازالت كما هي، فلا تجد موقفا نقديا لأساليبهم العنيفة في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي أو قبلها منذ تشكل التنظيم في نهاية عشرينات القرن الماضي ولا عن نقد توجهاتهم الفكرية والسياسية والدينية المتطرفة، ولا عن انتهاكاتهم للحريات الديمقراطية وعدائهم للفن والثقافة بأساليب غير ديمقراطية ، والأخطر من كل ذلك هو استمرار تمسكهم بنفس النظرة التقليدية لتاريخ الاخوان في تعظيم القتلة ودعاة العنف وتكفير المسلمين.

وكشفت هذه المذكرات أيضا عن تأثير الجمعيات السلفية، التي تعمل حتى الآن بحرية كاملة، والتي تمثل في تقديري خطرا داهما في إعادة انبعاث تيارات جديدة من مجموعات العنف المسلح، رغم عدم انخراط هذه الجمعيات في هذا العنف.

إن حزبي مصر القوية والوسط ليسا مختلفين عن الحزب الام، الاخوان المسلمون، بل مجرد تنويعات على اللحن الأساسي.

الاخوان والمستقبل

أن تقدير الوضع الحالي لتنظيم الإخوان المسلمين لا يمكن بدقة بعد اختفاء دورهم العلني الداخلي وتحطيم بنيتهم التنظيمية والاقتصادية ووقوع العديد من التشرزمات في وجودهم التنظيمي خارج البلاد، لذلك فان المعركة الدائرة الآن، هي معركة على الخطوط الخلفية ولن يكتب لهم ولحلفائهم الانتصار فيها، برغم استمرار تواجدهم المقنع والمختفي داخل العديد من هيئات الدولة والهيئات الدينية الرسمية وفى الفضاء الإلكتروني من داخل وخارج البلاد.

أن الصراع مع قوى الإسلام السياسي وعلى رأسه الإخوان المسلمون هو صراع طويل وممتد ويمكن وأمكن تحقيق انتصارات فيه، ولكن ديمومة هذه الانتصارات رهن بتغيير البنية الاجتماعية التي تتيح انبعاثهم من جديد، ويتطلب مواجهة فكرية شاملة على كافة الأصعدة

بين وبين

أي بين اثنين من أساتذتي، محمد مندور وابراهيم فتحي

"ولن أستطيع عرض نضرات مندور وتطبيقاته، فهي حية اليوم كما كانت عند كتابتها أول مرة، يرددها الكثيرون دون أن يعوا انتسابها إلى المعلم العظيم ".- أبراهيم فتحي

واليكم جزء من مقال أبراهيم فتحي فى ردة على الدكتور برادة

الفكر النقدي للديمقراطية الثورية

يجب أن نفرق في كتابة مندور بين الاتجاه الفكري ومضمونه الاجتماعي من ناحية، وبين طريقة العرض سواء في الصحيفة أو الكتاب أو المحاضرة الجامعية من ناحية أخرى. لقد كان سيف الرقابة وقانون المطبوعات والسجن والمحاكمة مرفوعا على رقبته ليل نهار. ولم تكن مناقشة نظام الحكم الملكي في مصر مما يسمح به دستور 23، ولم يكن ذلك من حق البرلمان، كما أن مجرد الدفاع عن الماركسية أو تحبيذها أو عرضها عرضا موضوعيا، كان يعني في المذكرة التفسيرية لأحد القوانين الجنائية الشهيرة «دعوة إلى قلب نظام الحكم بالقوة المسلحة.»

لذلك من التجني أن ينسب أحدٌ إلى مندور قبوله للنظام الملكي، وهو الذي حارب كل دعائمه الاجتماعية والفكرية، أو أن يدرجه أحدٌ في إشكالية مع الذين كتبوا القصائد في المليك المفدَّى.

كما أن العدالة الاجتماعية التي كان يقاتل من أجلها ضد «الباشوات الرأسماليين» الذين كانوا يتحكمون في الشركات الكبرى ويتملكون نسبة عالية من الأرض الزراعية، لم تكن منقولة عن نموذجية الغرب والاشتراكية الديمقراطية لليون بلوم، فلم يعرف عن أحد من هؤلاء الاشتراكيين حدة العداء للاحتكارات الرأسمالية والتشهير بها، وكانوا على رأس حكومات تستعمر البلاد العربية لصالح الرأسمال العالمي. كما كان دور مندور في الهجوم على معاهدة "صدقي بيفن"، و"بيفن" من قادة حزب العمال، دو ارا مشهو ادا في كشف أن استمرار العلاقة مع «الإنجليز» وراء ما يسمى بالدفاع المشترك.

أما استشهاد مندور بمراجع غربية لتبرير دعوته إلى تشريع نظام للضرائب التصاعدية، أو لتحديد دور الرأي العام لتفادي الاتهام بقلب نظام الحكم بالقوة فلا يمكن أن يتخذ دليلا على تبعيته الثقافية للغرب. ولقد شعرت بالحيرة في تلك الأجزاء من كتاب برادة التي يعتمد فيها على دراسات أنور عبد الملك عن المثاقفة والوقوف عند تجاور الثقافتين العربية(الإسلامية)،والغربية (لبورجوازية) دونما ترتيب .

فهل يعتقد أن الديمقراطية والمجالس التشريعية وسياسة الضرائب التي تأخذ في اعتبارها مصالح الجماهير والحد من الاستغلال كلها خضوع للغرب وتكريس لنموذجيته؟ حقا لا بد أن تأخذ هذه المضامين الديمقراطية العالمية العامة أشكالها القومية التي تتلاءم مع درجات التطور الاقتصادي، وطبيعة الهياكل الاقتصادية، والصراع الطبقي والفكري.

أما ترديد القول بالخصوصية الاستثنائية للعرب والمسلمين، فهو تكريس للتخلف والعزلة. وربما كان من الأصوب القول إن الثقافة الرأسمالية في الغرب القائمة على استغلال العاملين والمستعمرات، ليست نموذجا أبدياً للتقدم بدالا من اجترار عبارات مثل "الشرق شرق" و"الغرب غرب" ولن يلتقيا. وما أظن، برادة ينتمي إلى ذلك التيار.

إن مندور تابع متابعة متعمقة إنجازات الأدب العربي والأدب العالمي، ولم يقف عند المتابعة، فهو كما قال برادة بحق أول ناقد للأدب العربي، وبقي أن يضيف أنه قد انتقد التركة الفكرية والفنية «للغرب» أيضا مطورا ما وجده من كنوزٍ ثمينة.

وهو يشبه الديمقراطي الثوري الروسي بيلنسكي، على سبيل المثال، في بعض النواحي الرئيسية، السياسية والجمالية. لقد ناضل كما ناضل سلفه الذي ربما لم يهتم مندور بدراسته معبرا على حد تعبير لينين عن مصالح طبقات الشعب من أجل الحقوق الأولية التي كانت تنتهكها في غلظة «مؤسسات النظام»، وكانت أفكار «مليكي وبلادي» عن كتلةٍ قومية لا صراعَ فيها هي الفكر الذي يناوئه مندور، كما كان الفكر السلفي الذي يستجدي حتى عند أبرز الكتاب تصفيقَ المتخلفين، بإصدار كتبٍ دينية لا تضيف جديدا، وتبرر الأوضاع الظالمة في العصر الملكي، هدفا لهجومه الشجاع.

و يوضِح برادة في هذا الصدد أن المثاقفة لم تظل متجمدة عند مستوى التقبل والاندماج (ص 40). كما يبرز بحق أن مندور لا يكتفي بنقل التفكير الأوروبي، فالتفكير الخصب بألفاظ مندور «هو الذي نستمده من الحياة، ونبنيه على الواقع، وعلى هذا لا يكون لنا بد إذا أردنا أن نجدد حياتنا الروحية عن أن نغير من مقومات تلك الحياة واتجاهاتها وقيمها (الميزان الجديد ص 68) ولكن برادة يعود ليؤكد استنادا على أنور عبد الملك غياب «التركيب»، كما أسلفنا.

لقد أكد مندور دائما الربط بين الفكر والفن، وبين الواقع والحياة، والابتعاد عن الخرافات، ونقد العلاقات الاجتماعية، وتحليل الاتجاهات الفكرية، وطوال الفترة السابقة لحركة 1952 لم يتهادن مندور مع السلطة ولا مع أساسها الاجتماعي، وكان ينتمي إلى يسار الحركة الوطنية، بل إلى أقصى يسارها. وبعد 1952 أكد على ضرورة الديمقراطية السياسية، وحاول أن يخوض عام 1957 معركة الانتخابات لمجلس الأمة عن دائرة المنيل في القاهرة أمام مصطفى كامل مراد على أساسٍ من برنامج متسق الوطنية والديمقراطية، وكان أكثر يسارية من بعض الاتجاهات الماركسية التي أيدت في البداية مصطفى كامل مراد على أنه من «ضباط الثورة» كما أيدت أحمد سعيد مذيع صوت العرب الشهير في دائرة مصر القديمة المجاورة أمام
«سيزا نبراوي» حتى رفض المرشحان الحكوميان تأييد هؤلاء الماركسيين لأنهم في الزعم الكاذب عملاء للاتحاد السوفيتي أما محمد مندور فقد رحب بالتعاون مع اليسار الشيوعي في حملته الانتخابية، ودافع عن برنامج الجبهة الوطنية الديمقراطية، ولم يكن عجيبا أن اعترض عليه «الاتحاد القومي» ومنعه من الترشيح بحجة مدعاة وهي علاقته «بالوفد»، ويعلم الجميع أن مندور كان ممثلا للشعب داخل الوفد، وكان يسجن متهما بالشيوعية وتوضع العقبات أمام قيامه بالعمل الأكاديمي والصحفي من جانب وزراء الوفد وبعض قادة الوفد، كما لم يشترك مندور في البيان الذي كتبه عدد من اليساريين المعترض عليهم، يعلنون تأييدهم للرئيس على الرغم من اعتراضه عليهم.

وبمناسبة هذا الاعتراض، فلم يكن المطروح للمناقشة تأييد الرئيس فهو معلن في البرامج والمواقف السابقة، بل الاحتجاج على هذا الموقف المعادي للديمقراطية من جانب الاتحاد القومي الذي فرض وصايته على حق الشعب في الانتخاب، ومن المعروف أن المجلس الذي تمخض عن هذا الانتخاب ضم ما يزيد على العشرين عضوا من الأعضاء السابقين للحزب السعدي حليف السراي والاستعمار دونما اعتراض.

ولم يتوقف مندور، بل جدد فكره ملتمسا السبيل إلى الاشتراكية، مناديا بشكلٍ خاص من الواقعية الاشتراكية، وعلى الرغم من انتقاداته الخاطئة لبعض المفهومات الماركسية التي يتوهم أنها حتمية اقتصادية أو دوجماطيقية تقريرية في ترجمة مندور، فقد عمد إلى محاولة تطعيم منهجه الديموقراطي الثوري بعناصر منها.

نموذج المثقف العضوي:

ويقحم برادة مفهوم جرامشي للمثقف العضوي في غير سياق، وكأنه حكم قيمة يمتدح المثقف العضوي مقابل التقليدي.

وبادئ ذي بدء يقرر برادة أن مندور مثقف عضوي لأنه ينتمي إلى الطبقة الريفية المتوسطة المتشبثة بالتقاليد وبتعاليم الدين الاسلامي والتي أسهمت عن طريق الفلاحين في البادية أو بواسطة أبنائهم في المدن في الكفاح من أجل الاستقلال (ص 67 وهامش 26 ص 83)، وقد بحثت في مرجع برادة وهو «الأرض والفلاح» لإبراهيم عامر ص 115 وما بعدها عن «البادية» فلم أجدها بطبيعة الحال ولعله يقصد الريف.

ويواصل القول «ولا شك في أن حزب الوفد الذي كان يقوده في البداية زعيم «فلاح» قد جعل منها (الطبقة الفلاحية) أداة سياسية قادرة على إحراز الاستقلال وامتلاك السلطة.

ومن المعروف أن الفلاحين بالتحديد أو كتلتهم الأساسية، على الرغم من قيامهم بوظيفة جوهرية في عالم الإنتاج، لا يقدمون أو ينتجون مثقفيهم العضويين، ولا يتمثلون أي شريحة من المثقفين التقليديين، على الرغم من أن الطبقات الأخرى تأخذ من الفلاحين مثقفيها (أبناء الفلاحين) كما أن نسبة عالية من المثقفين التقليديين

من أصل فلاحي» (كلمات جرامشي من مختارات من دفاتر السجن- طبعة لورنس آند ديشارت الإنجليزية ص 6).

فالفلاحون المتوسطون لا ينظمون أنفسهم بأنفسهم، وليست لهم أيديولوجيتهم المستقلة، ومن النادر أن يكون لهم تنظيمهم السياسي الذي يقودونه كقوةٍ مستقلة.

وكلمة مثقف تقليدي لا تعني ازدراء أو نقصا في المكانة عند جرامشي بل تعني المثقفين الذين يمثلون استمرارا تاريخيا في المجال الثقافي لا تقطعه التغيرات الجذرية في الأشكال السياسية والاجتماعية. وهم يرون أنفسهم المستقلين عن الطبقة السائدة (ص ٧) - وتضم فئة التقليديين كل الفنانين الإبداعيين والمتعلمين عموما. أما المثقف العضوي فهو على علاقة أكثر مباشرة بالبنية الاقتصادية لمجتمعه، مثل المنظم الرأسمالي (لا أعلم إن كان يقصد بها كلمة المنتمي مثلا أم لا)، مثلا، وهو يحيا حياة طبقته ملتصقا بها منظما لها ناشرا وعيها.

ولا تعني التقليدية هنا أنها في تضاد مع التجديد والعصرية، بل تصف المثقف المستمر عبر التاريخ داخل التراث الثقافي.

ولا أظن أن إدخال صفة العضوية على مندور بمعنى عضويته في الحركة الوطنية، ثم سحبها منه بعد ذلك، مما يفيد كثيرا. ومن الملاحظ أن الحدود الطبقية عند برادة مطاطة إلى أقصى مدى فهو يعتبر سعد باشا زغلول الوزير قبل الثورة(1919) والمحامي المثقف وصهر أحد كبار الملاك «فلاحا.»

عودة إلى النقد

والجديد الباقي عند مندور، أنه يركز نظره في الأدب باعتباره فنا لغويا، وموضع دراسته أو طابعة العلمي لا يأتيه من علم الاجتماع أو النفس أو نظرية التطور، بل من علوم اللغة ومناهج اللغة (في الميزان الجديد ص 181). واللغة عنده ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات (ص 185)، وهو يقارن بين عبد القاهر الجرجاني، وبين «رأس علم اللسان الحديث» فردیناند دى سوسير (رأس البنيوية) (ص 186) وهو لا يرفض روح العلم، وإن يكن يرفض العلموية المزيفة التي تطبق قوانين العلم الطبيعي والنفسي على الأدب (ص 192). ويقترب مندور من إحاطة شاملة بالشعر فهو طبع ودوافع وإرادة، وجهد وصناعة، ولكنه يعود بالأدب إلى الدراسة اللفظية التي أفسدته وسلبته روحه. فاللغة مستودع تراثنا الروحي، ومن الثابت أننا لا نملك من أفكارنا وأحاسيسنا إلا ما نستطيع إيداعه لفظا الذي يوضح الفكرة ويميز الإحساس(ص194) .

والفكرة والإحساس في الأدب عنده يولدان مجسمين في العبارة، فلا تدري أفطن الكاتب إلى الصورة أولا أم إلى موضوعها (يذكرنا مندور بقول ماركس اللغة وعى عملى، واقع أول للفكرة).

والنقد عند مندور وضع مستمر للمشاكل، ولكل جملة أو بيت مشكلة داخل القصص، ولابد لنا من فلسفة كبيرة لنلاحظ ما يقع عليه بصرنا (الوقائع الجزئية) ، ونحن لأنقف عند الألفاظ أو الجمل وإنما تنظر في المعني عند تمامه والفراغ من تأليف عناصره النهائية. هكذا تكلم مندور بلسان الغد.

وهنا تجدر الاشارة إلى أن مندور يفرق بين الدراسات الأدبية وبين النقد الأدبي، وهو لا يقحم الذوق المدرب في الدراسة الأدبية لتاريخ الأدب أو عرض مناهجه ومدارسه، ولكنه يؤكد على دور الذوق في نقد النصوص الأدبية فالنقد ليس تحليلا وفق قواعد جاهزة لعينة معطاة. إنه يقوم على إدراك عالم لا متناه متعدد الأوجه هو العمل الأدبي، ودون التذوق مرشدا لا سبيل إلى دخول هذا العالم.

ولن أستطيع عرض نظريات مندور وتطبيقاته، فهي حية اليوم كما كانت عند كتابتها أول مرة، يرددها الكثيرون دون أن يعوا انتسابها إلى المعلم العظيم.

والسؤال الذي يبقى: هل تستطيع البنيوية التكوينية أن تدرس فكرا في مرحلة انتقال من المضمون الديمقراطي إلى المضمون الاشتراكي، ومن تراكم العناصر العلمية والجدلية إلى تكاملها تعبيرا عن مواقع طبقية متناقضة لشرائح تتجه إلى وضع الطبقة العاملة في عملية طويلة الأمد حافلة بالتناقضات والمعوقات؟

وفي النهاية، لقد كان موضوعي نقد النقد، لذلك لم أقف طويلا عند ما في أطروحة الدكتور محمد برادة من نظرات نافذة وأحكام صائبة. وهي كثيرة تقدم زادا للتفكير والاختلاف وطرح الأسئلة.

ومرحبا بالربط بين البنية والتاريخ.. ولكن أيمكن للمتضادات التي تفسر التزامن أن تصلح لتفسير التعاقب في الزمان؟

سر الأهلي ومصيره

هل سر الأهلي هو الإدارة الناجحة على مر العصور؟ أم أن سرة في اللاعبين الافذاذ؟ أم هم المدربون الذين ليس لهم مثيل؟ لا أعتقد أن هذه هي أسرار الأهلي لأنها ببساطة النتيجة الناتجة عن أسباب أخرى وإن كانت بالطبع تؤثر على الأسباب الأخرى وتتأثر بها.

ولا يمكن الحديث عن سر الأهلي إلا في علاقته بالتطور الاجتماعي والسياسي وبالطبع بالتغييرات التي ترتبت عليها في المجال الرياضي، فالأهلي السابق على سيادة الاحتراف الرياضي ليس هو الأهلي بعد سيادة الاحتراف، والأمر لا يتوقف على السر المحلى، ولكنه يمتد أيضا الى سر الأهلي الأفريقي.

فتأسيس النادي الأهلي لم يكن مجرد تأسيس نادى لممارسة الرياضة، بل كان جزءا من حركة وطنية عامة تنبعث من جديد بعد هزيمة ثورة 1882، حركة وطنية عامة تنظم نفسها في منظمات جماهيرية متعددة، لذلك تمتع النادي الأهلي بشعبية غامرة منذ تأسيسه وأصبح هدفا لكل الصغار الطامحين لممارسة الرياضة الأمر الذي ترتبت عليه الحصول على المزيد من البطولات، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل حظي بإقبال من أبرز اللاعبين من الأندية الشعبية الأخرى التي كانت تتمتع بتأييد جماهيري، ولكن في حدود مدينتها فقط.

لقد ساهم التأييد الجماهيري العارم في حماية الأهلي من أن تقوده قيادة غير كفء، فمثل هذه القيادة لم يكن ممكنا لها الاستمرار في مواجهة الغضب الجماهيري العارم، لذلك ترسخت في الأهلي القواعد السليمة في إدارة النشاط الرياضي.

لقد أسفر التحول الى الاحتراف في الرياضة عن ظواهر جديدة، فلقد تدعم نفوذ الأندية التي تحظى بشعبية تتجاوز حدود مدينتها، وتعرضت الأندية الشعبية الإقليمية، مثل المصري والاتحاد والإسماعيلي لظروف ضاغطة لنقص التمويل، وبرغم أن مثل هذا التمويل كان يتم توفيره، أحيانا، عن طريق كبار رجال الاعمال الا انه تمويل لا يضمن الاستمرارية وتصبح الإدارة رهن لصاحب راس المال ورغباته وميوله.

أن الاحتراف الرياضي تلقى دعما كبيرا من تطور ونمو الرأسمالية المصرية، إلا أنه دعم موجه وباحث عن الربح ، لذلك فقد تركز في الأندية الأكثر جماهيرية على الصعيد القومي ،مثل الأهلي والزمالك ، برغم الفارق الكبير في حجم ما يحصل علية كلا منهما ، كما أن الأندية التابعة للمؤسسات تعرضت لضغوط مالية كبيرة فتعرضت أنشطتها الرياضية للتدهور ، مثل الترسانة والسكة الحديد والمحلة ، وبرزت أندية مؤسسات جديدة مثل أنبى

وطلائع الجيش ، لكن هذه الأندية تبقى دائما عرضة لموقف مؤسساتها من النشاط الرياضي الاحترافي واستعدادها لاستمرار الإنفاق الذي لا يدر عائدا.

لقد أسفر النمو الرأسمالي كذلك عن تأسيس أندية جديدة تقودها الرأسمالية الجديدة سواء أكانت مصرية أو أجنبية، فنجد أندية بيراميدز وفيوتشر وزد ووادي دجلة، وتتغير المنافسات داخل الأنشطة الرياضية، بالذات في كرة القدم، وتصبح بعض من هذه الأندية على رأس قائمة المنافسة وتدفع بالأندية الشعبية إلى الخلف.

لقد قاد التطور الاجتماعي قطاع الرياضة إلى أوضاع غير صحية، فهل يعقل أن نادى واحد يكسب بطولة الدوري أكثر من كل الأندية مجتمعة ، وهل يعقل أنه نفسه يكسب بطولة الكأس بفارق كبير عن أقرب منافسيه ، لكن مثل هذا المكاسب ليست نتاج انحياز الدولة او اتحاد الكرة أو حتى الحكام ، بل هي نتائج للتفوق الساحق في الإدارة والتمويل والشعبية الناتجة عن التطور الاجتماعي والاقتصادي ، لذلك سيظل الأهلي المنافس الرئيسي وسيحصل على المزيد من الألقاب المحلية ، ما دامت الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي أفرزت هذه الظاهرة الفريدة مازالت مستمرة.

إذا كان هذا سر الأهلي ومصيره على الصعيد المحلي، فماذا عن ظاهرة الأهلي الأفريقية؟

أن تحليل النتائج في كلا من البطولتين الأفريقيين، بطولة أبطال الدوري وبطولة الكونفدرالية توضحان حقائق جديدة، فبطولة أبطال الدوري التي لعبت لمدة 58 بطولة تفوز بها البلدان الأكثر تقدما على الصعيد القاري، أي بلدان الشمال الأفريقي وجنوب أفريقيا 40 مرة، وتحظى بالمركز الثاني 23 مرة، أما بطولة الكونفدرالية التي لعبت 20 مرة فإن فوز الأندية العائدة لنفس البلدان الأكثر تقدما يبلغ 17 مرة والمركز الثاني 17 مرة.

لذلك فإن نفس الظاهرة المحلية تتكرر على الصعيد الأفريقي، فالأندية الأكثر قدرة على الحصول على التمويل والأكثر شعبية تحظى بنصيب الأسد في البطولات، ولكن يضاف على الصعيد الأفريقي ظاهرة جديدة، هي نزح المواهب للبلدان الأوربية المتقدمة أو لبلدان الشمال الأكثر تقدما، ظاهرة تتناسب عكسيا مع مستوى التطور الاجتماعي الاقتصادي للبلدان الافريقية، شمالها وجنوبها، بل تمتد أيضا فيما بين البلدان الافريقية الأكثر تقدما بعضها البعض.

لذلك فان ظاهرة الأهلي الافريقية ستستمر، وسيظل يحصل على المزيد من البطولات، الأمر الذي سيدعم الظاهرة، لارتباط ذلك بالمزيد من التمويل والشعبية، إلى أن يتغير الواقع الاجتماعي الاقتصادي الذي أفرزها.

جدل الحرب والعبقرية

كثير من الحقائق قد تكون معلومة لدى العديد من المراقبين والمهتمين والممارسين ولكن قد لا تتحقق لهم القدرة على الرؤية الكلية لتضافر هذه الحقائق وترابطها والتأثيرات الجدلية بين عناصرها، والأكثر خطورة هو عمق إدراك هذه الرؤية الكلية والقدرة على الاستفادة منها وسط الظروف المتغيرة، لذلك فان الملكات الإنسانية المتفوقة يأتي دورها، أي العبقرية.

فمن المؤكد أن تحتمس الثالث وألكسندر الاكبر والجنرال جياب ونابليون بونابرت وهانز جودريان كانوا قادة عسكريين أفذاذا، لكن صياغة الرؤية الكلية للحرب كانت تحتاج إلى عباقرة المفكرين العسكريين، إلى سون تزو فيما قبل الميلاد والى كلاوزيفيتز في القرن التاسع عشر.

لقد أصاب كلاوزيفيتز حين قال "الحرب هي امتدا ادا للسياسة لكن بوسائل أخرى، و الهدف منها هو جعل العدو ينفذ إرادتك " ، مقولة معروفة للعامة والقادة التي يرددها الكثيرون ترديدا لفظيا دون إدراك عمق معناها ، ودون أدراك أن الحرب لا يمكن اختصارها في موازين القوى العسكرية بين المتحاربين ، بل أيضا فى حجم وتسليح وتدريب وحداثة وتنظيم القوات في ميدان القتال وليس خارجة ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يمتد الى القدرة الكلية للمتقاتلين ، هذه القدرة الكلية التي تشمل تنظيم المجتمع وطاقاته الاقتصادية ومرونة الهيكل الإنتاجي وتنوعه ومستوى التعليم ومستوى القدرة العلمية والتكنولوجية ومستوى تطور البنية التحتية ومرونتها ، ويأتي أخيرا تحالفات المتصارعين مع قوى دولية أخرى وقدراتها وحدود استعدادها لتقديم الدعم ومستوى هذا الدعم.

لكن ذلك فإن الحرب عمل خطير جدا يتطلب اعتبار كل هذه العوامل في التقدير ليس فقط لبدء القتال بل أيضا لضمان الوصول الى النتيجة المرجوة ، فلا يكفى حجم ونوعية قواتك التي تستطيع أن تضعها فى ميدان القتال ، بحيث تصبح مواقف بعض القادة ، بعد اندلاع القتال ، بأنه لا يستطيع محاربة العدو وحلفائه ، مثيرة للسخرية لأى متابع يتمتع بالحد الأدنى من المعرفة السياسية ، ويصبح اتخاذ القرار ببدء القتال واستراتيجيته عملا متهورا يفتقد للحكمة ، وقد يقود إلى كارثة ، إذا لم يتم تقدير موضوعي لموازين القوى الكلية ومدى تطابقها مع الهدف السياسي للحرب.

لقد كشفت الحرب الروسية الأوكرانية عن القصور الكبير لدى الطرفين المتقاتلين في إدراك طبيعة الحرب، كما كشفت أيضا عن نفس القصور لدى الدول الأخرى الداعمة لأي من الطرفين.

والمصيبة أن الدول الأقل تطورا كثيرا ما تستجيب لحالة " الايفوريا " عند اتخاذ قرار الحرب، أي الخضوع "لحالة ذهنية وعاطفية يشعر فيها الشخص بإحساس شديد بالسعادة والفرح والإثارة والانتشاء والشعور بالذات " كما وصفتها الويكيبديا.

لقد كانت الحرب وخبراتها أحد اهتماماتي منذ زمن بعيد، وما زالت، وكلما توقفت أمام كتابات وأحاديث بعض القادة العسكريين والسياسيين عن حروبنا السابقة أشعر بالأسف الشديد، ليس فقط لمستوى وعيهم، بل أيضا لمستوى أمانتهم التي تتداخل مع هذا الوعي بحيث تقودهم هذه التوليفة الى الديماغوجيا.

هل أكمل الخليل بن أحمد تحليل الشعر العربي؟

هل توقفت الدراسات اللغوية للشعر عند حدود اكتشافات الخليل؟

فلننظر لنرى ماذا أنتجت الدراسات الحديثة لمحمد مندور؟

"دراسات تطبيقية باستخدام الأدوات الحديثة فى جامعة السوربون وتوجد أصولها بتسجيلاتها فى جامعة الاسكندرية (إن كانت ما زالت محفوظة !!!)"

أوزان الشعر

(١) الشعر الأوروبي

يخيَّل إليَّ أننا قد وصلنا الآن إلى مرحلة من نمو ثقافتنا يجب عندها أن نأخذ أنفسنا بالصرامة فيما نكتب، فلا نتحدث إلا عن بينة تامة وتحقيق لما نقول، بعد أن نكون قد عمقنا الفهم، وإلا فسنظل نوهم ونتوهم أنا نعرف شيئًا نافعًا، ونحن في الواقع نضرب شرقًا بغرب.

وهنا مسائل لا يكفي للحديث عنها أن نقرأها في كتاب إنجليزي أو فرنسي، ثم ننقلها إلى قرائنا حسبما نظن أننا قد فهمناها، هذا لا ينبغي. ونأخذ اليوم لتلك المسائل مثلًا من «أوزان الشعر»، كما تحدث عنها الأستاذ دريني خشبة فيما يحشد في «الرسالة» من أحاديث.

يريد الأستاذ أن يميز بين العروض الإنجليزي وغيره من الأعاريض الأوروبية، وبين العروض العربي، فيقول: «وبحسبنا هنا أن نذكر أن العروض الإنجليزي، بل كل أنواع العروض في اللغات الأوروبية، إنما أساسها التفعيلة The foot، وليس أساسها الأبحر كما في العروض العربي.» وهذا قول لا معنى له إطلاقًا؛ لأن جميع أنواع الشعر، الشرقي والغربي على السواء، تتكون من تفاعيل يجتمع بعضها إلى بعض فتكون الأبحر. والشعر العربي في هذا كغيره من الأشعار، وإنما الْتبس الأمر على الأستاذ؛ لأنه رأى الأبحر في الإنجليزية تسمى باسم التفعيلة المكونة لها فيقولون ... Iambic meter: إلخ، وأما في العربية فقد وضعوا لها أسماء أخرى كالطويل والبسيط وغيرها. وإذا كانت في الشعر العربي أبحر متجاوبة التفاعيل كالطويل أو البسيط مثلًا؛ حيث نجد التفعيل الأول يساوي الرابع، فإن هناك أيضًا أبحرًا متساوية التفاعيل كالمتدارك والرجز والهزج والكامل وغيرها، وهذه كان من الممكن أن تسمى بأسماء تفاعيلها، فالمسألة مسألة مواضعة. وإذا كانت في الشعر العربي زحافات وعلل فإن الشعر الأوروبي أيضًا فيه ما يسمونه بالإحلال Substitution فتراهم يضعون مقطعًا اسبونديًّا محل مقطع داكتيلي أو مقطع إيامبي، وفي الشعر الأوروبي والعربي معًا لا يغير هذا الإحلال من اسم التفعيل الأصلي. وإذن، فكل الأشعار من هذه الناحية لا تختلف في شيء.

وإنما تتميز الأشعار ببينية التفاعيل. وهنا نلاحظ أن الأستاذ خشبة لم يدرك بأذنه حقيقة الشعر الإنجليزي، وكان السبب في ذلك اعتماده فيما أرجِّح على قواميس اللغة الإنجليزية، فقد قرأ في أحد كتب العروض الإنجليزي أن هناك شعرًا تتكون تفاعيله من الإيامب، وشعرًا تتكون تفاعيله من الداكتيل ... إلخ، مما يجده القارئ في هامش مقاله، وبحث في القاموس فوجد أن الإيامب عبارة عن وحدة من مقطعين، أولهما قصير والثاني طويل وهكذا. وفاته أن هذه التعاريف لا تنطبق على الشعر الإنجليزي بسهولة، وإنما هي خاصة بالأشعار اليونانية واللاتينية، ففي هاتين اللغتين تتميز المقاطع بعضها عن بعض بالطول والقصر، وأما اللغة الإنجليزية واللغة الألمانية فتتميز مقاطعهما قبل كل شيء بالارتكاز الصوتيstress ، فهناك مقاطع تنطق بضغط وأخرى بغير ضغط، وعلى هذا يكون الإيامب وحدة من مقطع لا يحمل ارتكازًا وآخر يحمله، ومن ثم لا يكون الشعر الإنجليزي شعرًا كميًّا بل شعر ارتكازstressed ، وهذا هو الرأي المعتمد.

وفي موضع آخر يقول الأستاذ: «ويفضل بعض الشعراء البحر الإسكندري نسبة إلى الإسكندر الأكبر والقصائد التي نظمت فيه من هذا البحر. ويؤثر شعراء المأساة الفرنسيون النظم من هذا البحر إطلاقًا، وهو يتكون من اثني عشر مقطعًا «ست تفعيلات إيامبية كل تفعيل من مقطعين».» وهذا القول أيضًا يدل على أنواع من عدم الدقة، بل ومن الخطأ البين، فعدم الدقة نجدها في شرح سبب تسمية هذا البحر، فهو ليس نسبة إلى الإسكندر الأكبر، بل نسبة إلى رواية بالذات كتبت في القرن الثاني عشر بفرنسا عن الإسكندر الأكبر lé Roman d'Alexandreاستعمل فيها لأول مرة هذا البحر بدلًا من الأبحر الأقصر منه التي كانت مستعملة في القرون الوسطى. أما الخطأ ففي ظن الأستاذ أن البحر الإسكندري في الشعر الفرنسي يتكون من ست تفعيلات إيامبية كل تفعيل من مقطعين، فهذا لا وجود له في الشعر الفرنسي، ومن المعلوم أن اللغة الفرنسية قد فَقدت منذ

قرون الكمِّ، فلم تعد هناك مقاطع طويلة ومقاطع قصيرة إلا في حالات نادرة في أواخر الكلمات مثلâge ، ومن المسلَّم به عند الفرنسيين وعند جميع من كتبوا عن الشعر الفرنسي أن هذا الشعر لا علاقة له بكم المقاطع. (٢) الارتكاز فألفاظ اللغة الفرنسية لم تعد تحمل ارتكازًاstress ، وإنما يوجد ارتكاز في أواخر الجمل، فكل جملة فرنسية أو شبه جملة تنتهي بارتكاز نحس أنه ارتكاز شدة وارتفاع معًا إلا في حالة الوقف فإنه يعتبر ارتكاز شدة فحسب، فمثلًا جملة Cette maison est trés belle **لا نجد فيها غير ارتكازين اثنين؛ أولهما على** on **والآخر على** bel. **والارتكاز الأول ارتكاز شدة وارتفاع في الصوت، أما الثاني فشدة فقط؛ لأن الارتفاع يسقط للوقف. وإذن فالشعر الفرنسي ليس شعرًا كميًّا ولا شعرًا ارتكازيًّا، لسبب واضح هو أن مقاطع تلك اللغة لا تتميز بِكَمٍّ ولا ارتكاز، الشعر الفرنسي يسمونه بكل بساطة «شعرًا مقطعيًّا.«**syllabique

من هذه الملاحظات يتبين لنا أن هناك ثلاثة أنواع من الشعر كنا نحب من الأستاذ خشبة — ما دام قد أراد أن يبصرنا بحقائق الأوزان — أن يميز بينها لنحاول بعد ذلك أن نرى أين يقع منها الشعر العربي، وبذلك قد نستطيع أن نساعد على ظهور أنواع جديدة من الشعر العربي تمكن شعراءنا الكبار الذين يعجب بهم الأستاذ من إجادة فنهم حقًّا، وعندئذٍ سنرى المسرحيات تكتب شعرًا كما كانت تكتب منذ ثلاثة قرون، ونكون بعملنا هذا قد أثبتنا للعالم المتحضر أنهم مخطئون في عدم استمرارهم على استخدام الشعر في المسرحيات.١

هذه الأنواع الثلاثة هي: (١) الشعر الكمي. (٢) الشعر الارتكازي. (٣) الشعر المقطعي. أما النوع الأول فهو الشعر اليوناني واللاتيني القديم، أما النوع الثاني فهو الشعر الإنجليزي والألماني، وأما الثالث فهو الشعر الفرنسي.

الشعر الكمي

لنأخذ لذلك مثلًا بيت فرجيلوس في «الإنيادة»:٢

Infandum regina jubes renovaré dólorem

نجده مكونًا من ستة تفاعيل، وكل تفعيل مكون من مقطعين طويلين «اسبونديه»، أو مقطع طويل أو مقطعين قصيرين «داكتل»، ما عدا التفعيل الأخير فمقطعه الأخير قد يكون قصيرًا ويكتفي به لأن الوقف يعوض النقص. وإليك التقطيع مع رمزنا للمقطع الطويل بالعلامة 😊 (وللمقطع القصير بالعلامة:(-)

Inf an-d um r e-g in a ju = bes r en o-v aré dó-l or em.

وأما الأساس الذي يعتبر به المقطع طويلًا أو قصيرًا فيرجع إلى الحرف الصائت voyelle **فإذا كان طويلًا بطبيعته كما هو الحال في بعض الحروف اليونانية، أو كان حرفًا مزدوجًاdiphtongue ، أو كان ناتجًا عن إدغام حرفين صائتين، أو كان متلوًّا في نفس المقطع بحرف صامتconsonne ، اعتبر المقطع طويلًا، وإلا فهو قصير، وفي القواميس الجيدة نجد دائمًا كم الحروف الملتبسة.**

ونحن لا نريد أن نطيل في تحليل موسيقى هذا النوع من الشعر، فهي لا شك لا تقف عند التفاعيل والمقاطع، بل لا بد لها من إيقاع rythme **ينتج عن وجود ارتكاز شعري يسمىIctus ، وهو يقع على مقطع طويل في كل تفعيل، كما أن هناك وقفًا مهمًّا في كل بيت يشبه الوقف على الشطر في البيت العربي، وهو في البيت السابق يقع بعد المقطع السابع كما وضحنا بالعلامة 😊 .(والواقع أن أوزان الأشعار اليونانية واللاتينية معقدة صعبة حتى بالنسبة لمن يتقنون تلك اللغات؛ وذلك لأن نطقها غير معروف على وجه دقيق، ومن باب أولى عناصرها الموسيقية؛ ولهذا نكتفي بما ذكرنا.**

الشعر الارتكازي

نأخذ لهذا النوع بيتًا من الشعر الإنجليزي، وليكن مطلع «مرثية في مقبرة بالريف» لتوماس جراي:٣

The curfew tolls the knell of parting day

نجده مكونًا من ستة تفاعيل إيامبية، وكل تفعيل مكون من مقطع غير مرتكز عليه ومقطع آخر مرتكز عليه، وإليك وزنه مع رمزنا للارتكاز بالعلامة (-) وترك غير المرتكز عليه بدون علامة.

The cur-few tolls-the kn ell-of p ar-ting day.

وما على القارئ الذي يريد أن يحس بوزن البيت إلا أن يقرأ مع المرور بخفة على المقطع غير المرتكز عليه والضغط على المقطع الذي يحمل الارتكاز.

ومن البين أن ما يميز هذه المقاطع بعضها عن بعض ليس كمها كما قال الأستاذ خشبة، بل الضغط الواقع على بعضها، وأما أن هذا الضغط يزيد من كم المقاطع التي يقع عليها فهذه مسألة تابعة لا يمكن أن تغير من طبيعة هذا الشعر، الذي يعتبر إيقاعيًّا قبل كل شيء. ومن الملاحظ أن اللغة الإنجليزية٤ بوجه عام لغة إيقاع إذا قيست بلغة سيالة كاللغة الفرنسية.

الشعر المقطعي

هذا النوع من الشعر خاص باللغة الفرنسية، وسبب وجوده هو ما أشرنا إليه من قبل، فاللغة الفرنسية كما هو معلوم تطور للغة اللاتينية على نحو ما تطورت لغتنا العامية عن اللغة الفصحى مع المحافظة على النسب، ولقد كانت اللغة اللاتينية كما رأينا لغة كمية تتميز مقاطعها بعضها عن بعض بالطول والقصر، ولكن اللغة الفرنسية فقدت هذه الخاصية كما فقدت الارتكاز أيضًا، فكل لفظة لاتينية كانت في العادة تحمل ارتكازًا على المقطع السابق الأخير، وذلك ما لم يكن هذا المقطع قصيرًا فإن الارتكاز يسمو في هذه الحالة إلى المقطع الثالث من الآخر. ولكن هذا الارتكاز سقط من الفرنسية بسقوط الكثير من أواخر الكلمات اللاتينية الأصل.

فقدت اللغة الفرنسية إذن الكم والارتكاز، فعلى أي أساس يقوم إذن الشعر فيها؟ الواقع أن موسيقى الشعر الفرنسي ليست في جوهرها موسيقى إيقاع، ولكنها موسيقى سيالة دقيقة، ومع ذلك فالأمر فيها ليس أمر مقاطع متشابهة: كل عشرة أو اثني عشر أو غيرها تكون بيتًا من الشعر، بل لا بد أن يكون هناك تقسيم لهذه المقاطع في وحدات موسيقية إيقاعية إلى حدٍّ ما، فالوزن الإسكندري مثلًا ينقسم عند معظم الشعراء الكلاسيكيين إلى أربع وحدات كبيت راسين:٥

Oui je viens dans son temple adorer l’Eternel

فيه نرى تفعيلة مكونة من ثلاثة مقاطع) حرف e في آخر كلمة temple يحذف في القراءة .(ولكن هذه المقاطع لا يتميز بعضها عن بعض بكمٍّ ولا ارتكاز، وإنما يأتي الإيقاع من وجود ارتكاز شعري على آخر مقطع من كل تفعيلة وقد رمزنا له بالعلامة (//) وهذا الارتكاز كما قلنا ارتكاز ضغط وارتفاع معًا في التفاعيل الثلاثة الأولى وارتكاز ضغط فقط في التفعيل الأخير لسقوط الصوت عند الوقف.

هذا هو التقسيم الشائع عند الكلاسيكيين،٦ وأما الرومانتيكيون فقد اعتزوا بالتقسيم الثلاثي، ففكتور نفسه قد افتخر بتمزيق أوصال الوزن الكلاسيكي لهذا البحر في بيت ثلاثي شهير هو:

J’ai disloqué ce grand niais d’alexandrin

وهو مقسم كما ترى إلى ثلاثة تفاعيل، كل تفعيل أربعة مقاطع، وأما عن الإيقاع فيأتي من الارتكاز على أواخر الجمل كما ذكرنا بالنسبة للبيت السابق.

هذا، والتفاعيل الفرنسية ليست دائمًا متساوية في عدد مقاطعها، ولقد كتب الأستاذ الكبير جرامو Grammont كتابًا مهمًّا جدًّا بعنوان: Le vers francais, ses moyens d'expression, son harmonie.

وفيه يظهر أن التفاعيل الفرنسية وإن لم تكن متساوية في الكتابة إلا أنه من الواجب أن نقرأها كأنها متساوية، فعدم التساوي هذا قد ساقت إليه غريزة الشعر عند الموهوبين من الشعراء عندما أحسوا أنه لا بد من أن تسرع القراءة أو تبطئ لتترجم ترجمة صحيحة عن مشاعرهم المتباينة، وإذن فمن واجب القارئ أن يسوي بين التفاعيل في كمها الزمني ثم يبحث بعد ذلك عن العلة فيما اضطر إليه من إسراع أو تباطؤ.

هذه هي أنواع الشعر الأوروبي الثلاثة: كمي، وارتكازي، ومقطعي، ومن الممكن أن نستخلص منها عنصرين عامين يقوم عليهما كل شعر؛ وهما: (١) الكم. (٢) الإيقاع.

أما الكم فقصد به هنا: كم التفاعيل التي يستغرق نطقها زمنًا ما، وكل أنواع الشعر لا بد أن يكون البيت فيها مقسمًا إلى تلك الوحدات، وهي بعد قد تكون متساوية كالرجز عندنا مثلًا، وقد تكون متجاوبة كالطويل؛ حيث يساوي التفعيل الأول التفعيل الثالث والتفعيل الثاني التفعيل الرابع وهكذا.

ولكن هذا الكم الذي يسمى في الموسيقى mesure **لا يكفي لكي نحس بمفاصل الشعر، فلا بد من أن يضاف إليه الإيقاع المسمى.**rythme

ولكي نضمن تحديد الفهم نعرف الإيقاع، فهو عبارة عن رجوع ظاهرة صوتية ما على مسافات زمنية متساوية أو متجاوبة، فأنت إذا نقرت ثلاث نقرات ثم نقرت رابعة أقوى من الثلاث السابقة وكررت عملك هذا تولد الإيقاع من رجوع النقرة القوية بعد كل ثلاث نقرات، وقد يتولد الإيقاع من مجرد الصمت بعد كل ثلاث نقرات.

لا بد إذن أن تكون هناك ظاهرة صوتية متميزة تحدث في أثناء نطق كل تفعيل، وتعود إلى الحدوث في التفعيل الذي يليه. والأمر في الشعر الارتكازي واضح، فالارتكاز نفسه كما يميز بين المقاطع يولد كذلك الإيقاع .

وأما الشعر الكمي فقد أحس القدماء بأن مجرد عودة مقطع طويل بعد مقطعين قصيرين مثلًا لا يكفي لإيضاح الإيقاع، فدلونا على أن هناك ارتكازًا شعريًّا يقع على مقطع طويل في كل تفعيل ويعود في نفس الموضع تقريبًا من التفاعيل الأخرى. كذلك الأمر في الشعر الفرنسي فهم لم يكتفوا بتقسيم البحر الإسكندري مثلًا إلى تفاعيل متساوية في الكتابة والقراءة معًا أو القراءة فحسب، بل أضافوا إليه وجود ارتكاز ضغط وشدة، أو ضغط فقط في آخر كل تفعيل، وعودة هذا الارتكاز على مسافات زمنية محددة هو الذي يولد الإيقاع، ولكنه لما كان إيقاعًا، قليل العدد خفيف الوقع، فإن الشعر الفرنسي لا يعتبر بالنسبة للشعر الإنجليزي مثلًا شعرًا إيقاعيًّا، بل شعرًا سيَّالًا كما قلنا.

والآن أين يقع الشعر العربي من كل هذا؟ للجواب عن هذا السؤال يجب أولًا أن نناقش مذهب الخليل.

(٢) الشعر العربي

ليس من شك في أن الخليل بن أحمد كان رجلًا عبقريًّا نفخر به مع من نفخر بهم من أجداد، ولكن العلم لا يعرف الوقوف، ولقد تقدمت الدراسات اللغوية تقدمًا يحملنا على أن نطمح إلى معرفة أدق من معرفة الخليل بالعناصر الموسيقية في شعرنا العربي، والذي لا شك فيه أن الخليل قد وضح حقيقة أساسية في الشعر العربي لا نستطيع أن نغفلها، وهي انقسام كل بيت إلى تفاعيل متساوية، كما هو الحال في الرجز والهزج وغيرهما، أو متجاوبة (التفعيل الأول يساوي الثالث والثاني يساوي الرابع)، كما هو الحال في الطويل والبسيط وغيرهما، وهذا التقسيم من أسس الموسيقى والشعر عند الأوروبيين اليوم، فهنالك وحدات موسيقية متساوية isometriques **وأخرى متجاوبة** symetriques **كما وضح الخليل.**

ولكننا لا نكاد نترك وجود التفاعيل إلى بنية تلك التفاعيل حتى نختلف مع الخليل؛ وذلك لأنه لم يدلنا على وحدة الكلام وهي المقطع، وأكبر ظني أن الخليل لم يعرف العروض اليوناني، وإلا لفطن إلى المقطع، وإن يكن قد علم — فيما نرجح — بالموسيقى اليونانية بفرعيها: علم الإيقاع rythmique وعلم الانسجام Les harmoniques والعروض اليوناني كما هو معلوم يقوم على المقطع. والسبب الذي منع الخليل من الوقوع على المقطع مزدوج فيما أظن:

(١)عدم كتابة الحروف الصائتة القصيرة voyelle bréves التي نسميها حركات «الفتح والضم والكسر» في صلب الكتابة العربية التي لا تزال إلى اليوم مقطعية إلى حد بعيد؛ بمعنى أننا نكتفي برسم الحروف الصامتة، وأما الصائتة فلا نكتب إلا الطويل منها «الألف والواو والياء»، فكتابتنا وسط بين الكتابة الفينيقية والكتابة الإغريقية، ومن الثابت تاريخيًّا أن الإغريق عند أخذهم بالكتابة الفينيقية قد أضافوا إليها رسومًا خاصة للحروف الصائتة كلها طويلة وقصيرة، وانبنى على ذلك أن الخليل لم يفطن إلى أن الحروف الصائتة القصيرة تكون مع الحرف الصامت Consonneالذي توضع فوقه كحركة، مقطعًا تامًّا مستقلًّا؛ ولهذا اكتفى في تقطيع التفعيل بالحروف التي تكتب مميزًا بينها بالحركة والسكون.

(٢)السبب الثاني هو أن اللغة العربية كغيرها من اللغات السامية تغلب فيها الحروف الصامتة فيما يرجح، وتلك الحروف يقع معها عادة الوقف أي السكون؛ ولهذا لاح للخليل أن التتابع إنما يقع في الحركات والسكنات. بينما نجد في اللغة اليونانية أن الحروف الصائتة هي الغالبة، ولهذا لا نحس فيها بالسكنات الموجودة في اللغة العربية، بل نحس فوق كل شيء باختلاف كم الحروف الصائتة في تتابعها.

هذان السببان لا يجوز أن يحجبا عنا الحقيقة اللغوية التي تصدق على كل لغة، وهي أن المقطع هو وحدة الكلام. وفي اللغة العربية أربعة أنواع من المقاطع، هي: (١) المقطع القصير المفتوح، وهو المكون من حرف صامت وحرف صائت طويل «ألف أو واو أو ياء، حروف اللين» مثل: «كا» في كانت. (٢) المقطع الطويل المزدوج وهو المكون من حرف صامت وحرفين صائتين مثل: بي bia في بيت مع احتفاظنا بالمناقشة العلمية التي تدور حول طبيعة الياء في هذا المقطع أهي صائتة أم صامتة. (٣) المقطع المغلق وهو المكون من حرف صامت، ثم حركة فحرف صامت آخر نحو «تن» في بيتن، والحرف الصائت في هذا المقطع قصير دائمًا. فهذا قانون مهم من قوانين اللغة العربية وليس له استثناء إلا في حالات محصورة أهمها حالات الوقف على الاسم المنون مثل «نار»، فهي تتكون في هذه الحالة من مقطع واحد مغلق حرفه الصائت طويل. وكذلك الوقف في حالتي التثنية والجمع مثل «محمدان ومحمدون» فالمقطع «دان» والمقطع «دون» كل منهما حرفه الصائت طويل. وإذن فالقانون العام هو قصر الحرف الصائت في المقطع المغلق، فهل نعتبره مقطعًا طويلًا أم قصيرًا؟ الواقع أنه مقطع طويل ويأتيه الطول من الزمن الذي يستغرقه الحرفان الصامتان، فهذا الزمن لا بد من حسابه وإن لم يحسبه علماء العروض الإغريقي واللاتيني. ولقد أثبت البحث الحديث أنه من الواجب أن يحسب كم الحروف الصامتة في جميع اللغات ومن باب أولى في اللغات السامية؛ حيث تغلب تلك الحروف، ثم إنه إذا كانت في جميع اللغات حروف آنية momentanées كحروف الانفجار «باء ودال مثلًا»، فإن هناك حروفًا متمادة continues كالسين واللام مثلًا، فهذه من الممكن أن نمد في نطقها كما نشاء، وإذن فالمقطع المغلق نعتبره طويلًا.

ونخلص من هذا إلى وجود مقاطع في اللغة العربية، وهذه المقاطع تختلف في كَمِّها، فهل نستنتج من ذلك أن الشعر العربي كَمِّيٌّ؛ بمعنى أن كل تفعيل فيه يتكون من مقاطع مختلفة الكم بنسب محدودة؟

ذلك ما رآه المستشرق إولد Ewald فقد وضع للشعر العربي عروضًا على غرار العروض اليوناني، وهو عروض مستقيم سهل الفهم مبسط عن عروضنا تبسيطًا كبيرًا، ولقد درسناه للطلبة بالجامعة فأجادوا فهمه، ويستطيع

القارئ أن يجده في الجزء الثاني من «قواعد اللغة العربية Arabic Grammar «للمستشرق المشهور ريت Right.ولكننا مع ذلك لا نقر إولد ومن نحا نحوه من عامة المستشرقين في اكتفائهم برد العروض العربي إلى المقاطع الكمية كما هو الحال في العروض اليوناني واللاتيني؛ وذلك لأنهم لم يبصرونا بالإيقاعRythme ، فالكم كما قلنا لا يكفي لإدراك موسيقى الشعر، بل لا بد من الارتكاز الشعري الذي يقع على كل تفعيل ويعود في نفس الموضع على التفعيل التالي وهكذا، ولقد كان على نسب محدودة يوضح ذلك الإيقاع، وكذلك تتابع المقاطع المختلفة الكم.

والواقع أن الارتكاز في اللغة العربية موضوع شاق لا يزال في حاجة إلى البحث. نحن لا نظن أن المستشرقين يستطيعون بحثه؛ لأن معرفتهم باللغة مهما اتسعت لا يمكن أن تصل إلى الإحساس بمسائل موسيقية لغوية دقيقة كهذه، فهل مستطيعون نحن ذلك؟

ليسمح لي القارئ بأن أقول: إنني قد حاولت حل هذه الأشكال في بحث طويل كتبته باللغة الفرنسية بعد دراسة وتحليل لثلاثة أبحر من الشعر العربي بمعمل الأصوات بباريس، هي الطويل والبسيط والوافر.

ولنأخذ مثلًا من هذه الدراسة بيت امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فهو يوزن على مذهب إولد كما يأتي «مع رمزنا للمقطع القصير بالعلامة ب والطويل بالعلامة:«—

ولكن هذا الوزن لا يبصرنا بالحقيقتين الكبيرتين اللتين يقوم عليهما الشعر في جميع اللغات، وهما: الكم والإيقاع.

الكمMesure

نقصد بالكم لا كم كل مقطع منفردًا، فذلك ما سبق أن أوضحناه، بل كم التفاعيل، فنحن هنا أمام تفاعيل متجاوبة (التفعيل الأول يساوي الثالث والثاني يساوي الرابع)، ولكننا مع ذلك نسلم بجواز دخول زحافات وعلل. فكيف يستقيم الكم برغم هذه الزحافات والعلل التي تنقص من التفعيل في الغالب؟

هذه المشكلة قد حيَّرت المستشرقين، ولقد حاول العالم الفرنسي جويار Guyard أن يحلها في كتاب له بعنوان Nouvelle theorie de ja metrique arabe**، وفيه يطبق مواضعات الموسيقى وأصولها على الشعر العربي، ولكنه لا يدخل في حسابه غير الحروف الصائتة كما يفعلون في الموسيقى، فيغطي تلك الحروف المختلفة بقيم متفاوتة من نقطة بيضاء إلى نقطة سوداء إلى كروش مزدوج ... إلخ. ومن البين أنه قد أخطأ لسوء الحظ بإهماله كم الحروف الصامتة العظيمة الأهمية في اللغة العربية واللغات السامية عامة كما أشرنا.**

والذي اهتدينا إليه بحساب الآلات الدقيقة هو ما يأتي (مقدرين كم كل تفعيل بأجزاء من مائة من الثانية):

٧٤ | | | ١٢٣ | ٧٧ | | | ١٣٣.

وهذه نتائج غريبة نلاحظ عليها:

(١) أن التفاعيل المزحفة كالتفعيل الخامس والسابع قد ساوى كمها في النطق مع كم التفاعيل الصحيحة بل زاد.

(٢) أن هناك فروقًا بين التفاعيل المتساوية كالتفعيل الثاني والرابع والسادس والثامن.

وتفسير ذلك هو:

أولًا: أن الفروق التي ظهرت في حساب الآلات لا تدركها الأذن؛ لأنه من الثابت أن الفرق الذي لا يزيد على من الثانية لا تكاد تدركه الأذن، وإذن فهذه نستطيع إسقاطها.

ثانيًا: وأما عن مساواة التفاعيل المزحفة للتفاعيل الصحيحة فهذا يفسر بحقيقة مهمة تحدث عند إنشاد الشعر، وهي عبارة عن عمليات تعويض نقوم بها آليًّا، وهذا التعويض يحدث بطريقة مختلفة؛ منها: تطويل حرف صائت بشرط ألا ينتج عن ذلك لبس يأتي من قلب الحرف القصير بطبيعته اللغوية إلى حرف طويل، ومنها: مد النطق في حرف صامت متماد كالسين أو اللام أو غيرهما، ومنها: الصمت بعد لفظ أو عند حرف آني كحروف الانفجار، مثل: الباء والفاء والدال ... وغيرها.

إذن، فالزحافات والعلل لا تغير شيئًا في كم التفاعيل عند النطق، وهي لذلك لا تكسر الوزن.

الارتكاز الشعري

الارتكاز عنصر أساسي في الشعر العربي، بل عنصر غالب، ومن تردده يتولد الإيقاع؛ ولهذا بحثنا عنه في عناية، والذي يبدو لنا هو أن هناك ارتكازًا على المقطع الثاني من التفعيل القصير «فعولن». وأما التفعيل الكبير فيقع عليه ارتكازان؛ أحدهما: أساسي على المقطع الثاني، والآخر: ثانوي على المقطع الأخير في «مفاعيلن». وقد رمزنا للارتكاز الأساسي بالعلامة (-) وللارتكاز الثانوي بالعلامة (//). ومن المعلوم أن الارتكاز لا يقع إلا على مقطع طويل، ومن ثم نلاحظ أن هذا الوزن لا بد أن يسلم منه دائمًا مقطع طويل بعد المقطع الأول القصير، فإذا لم يحدث ذلك انكسر البيت، فالمجموعة (ب//) الموجود في أول كل تفعيل من البحر الطويل هي النواة الموسيقية للبيت، وهي عبارة عن وتد مجموعة في لغة الخليل.

ومن عودة الارتكاز على هذا المقطع من كل تفعيل يتكون الإيقاع؛ لأنه كما قلنا عبارة عن عودة ظاهرة صوتية ما على مسافات زمنية محددة.

وإذن، فاستقامة الوزن أو عدم استقامته لا تعود إلى الكم الذي تؤثر فيه الزحافات والعلل تأثيرًا ظاهريًّا فقط، إلا إذا نتج عن هذه الزحافات والعلل فقدان للنواة الموسيقية التي تحمل الارتكاز.

ولكن، هل ينتج عن ذلك أن الشعر العربي شعر ارتكازي؛ بمعنى أن مقاطعه تتميز بأنها تحمل ارتكاز ضغط أو لا تحمله؟ الجواب أيضًا بالنفي، فالمقاطع العربية كما تحمل الارتكاز تتميز بالكم كذلك، وإذن فالشعر العربي يجمع بين الكم والارتكاز وربما كان هذا سبب تعقد أوزانه.

ونلخص طبيعة الأوزان العربية بأنها تتكون من وحدات زمنية متساوية أو متجاوبة هي التفاعيل، وأن هذه التفاعيل تتساوى أو تتجاوب في الواقع عند النطق بها بفضل عمليات التعويض، سواء أكانت مزحفه معلولة أو لم تكن، وأن الإيقاع يتولد في الشعر العربي من تردد ارتكاز يقع على مقطع طويل في كل تفعيل ويعود على مسافات زمنية محددة النسب، وعلى سلامة هذا الإيقاع تقوم سلامة الوزن.

وهكذا ننتهي في هذا الحديث إلى ما انتهينا إليه في الحديث السابق من قيام جميع الأشعار على عنصري الكم والإيقاع، وأما موضع الاختلاف بين الأشعار المختلفة فهو في كيفية تحقيق هذين العنصرين

الحزب والطبقة - الليبرالية والبونابرتية

"البونابرتية ليست مسبة، بل هي وصف للحالة وكل بونابرت وظروفه وإدراكه ".

تدعى الكثير من الأحزاب إنها تمثل مصالح طبقات اجتماعية بعينها، كما تدعى غيرها أنها تمثل مصالح المجتمع بكل طبقاته، وهو امر يحتاج الى مزيد من التدقيق والتمحيص.

فأفكار الأحزاب عن تمثيلها لمصالح طبقات اجتماعية معينة لا يعنى صحة هذه الأفكار كما أن التفاف طبقة او طبقات اجتماعية حول حزب لا يعنى بالضرورة أن هذا الحزب يعبر عن المصالح التاريخية لهذه الطبقات.

ولنضرب مثالا واضحا ، فالحزب الذي يمثل المصالح التاريخية للرأسمالية الألمانية في الثلاثينيات كان الحزب المسيحي الديمقراطي الألماني و لكن هذا الحزب خسر انتخابات 1933 أمام حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمعروف باسم الحزب النازي و هو حزب كان يتبنى برنامجا ، قبل الوصول إلى السلطة ، ديماغوجيا برجوازيا صغيرا ، و لكنه حظى بتأييد الرأسمالية الألمانية الكبيرة لإدراكها أنه قادر على حل مشاكلها من حيث أملها في إعادة اقتسام العالم ، الذى فشلت في تحقيقه في الحرب العالمية الاولى ، و في التخلص من القيود الثقيلة المفروضة عليها كنتيجة للحرب، أم في توسيع السوق الذى تحتاجه بشدة سواء بتعديل الاتفاقات الثقيلة أو بالتمدد خارج الحدود أو بتوسيع السوق الداخلي بتبني سياسة تسليح كثيفة.

اذن الطبقات الاجتماعية تؤيد الحزب الذي يحقق مصالحها حتى وإن كان يسلبها التمثيل السياسي المباشر، اى شكل الحكم الليبرالي، المفضل لدى الرأسمالية الناضجة، كي يحكم الديكتاتور الجديد باسمها ولصالحها.

هذا الشكل من الحكم الذي أطلق عليه في الأدبيات السياسية، الحكم البونابرتي، تيمنا بنابليون الأول الذي سلمت إليه السلطة فى أعقاب الثورة الفرنسية الكبرى، كي يحطم البنية الاقطاعية الاوربية ويفتح المجال أمام الرأسمالية الفرنسية الناهضة، لكن هذا الشكل من الحكم يحكمه منطق داخلي أخر، فالدكتاتور يصبح مطلق السراح وقد تتحكم فيه رغباته الخاصة ويتوقف عن لعب الدور المنوط به عند الوصول إلى السلطة، وقد يصبح التخلص منه شديد الصعوبة.

أما في البلدان الأقل نضجا، فان شكل الحكم الليبرالي لا يمكن الوصول اليه الا عندما يصبح ضرورة حياة للرأسمالية المحلية الحاكمة، اى بعد ان تنضج وتنجح في إنجاز مهامها في التحديث والتصنيع، أما قبل ذلك، ونتيجة لنشاط الجماهير الشعبية وخطرها الدائم، فإنها تفضل أن تدعم البونابرت الأكثر قدرة على الدفاع عن مصالحها وعلى مواجهة الطبقات الشعبية.

لقد حكمت بلادنا في أعقاب حركة 1952 حكما بونابرتيا، وكانت النتائج مختلفة باختلاف الظروف المحلية والدولية بكل مرحلة، ولكن النتائج النهائية، حتى الآن، هي العجز عن تحقيق مهام التحديث والتصنيع برغم الأداء البطولي لمصر الناصرية.

وأود أن أتوقف قليلا مع مصر مبارك ، ففي تقديري أن بداية النهاية لهذا النظام بدأت في بداية القرن الواحد و عشرون ، عندما بدأت في التشكل مجموعة صغيرة من المنتفعين حول الوريث ، وتوقف البونابرت ، تدريجيا ، عن القيام بدورة البونابرتي إلى أن توقف تماما عن هذا الدور قبل الثورة مباشرة ، حيث لم يعد ممثلا لطبقة اجتماعية بل عن حفنة من المنتفعين ، و هو ما يفسر ان المشاركين في الحراك الاجتماعي كان منهم كبار الممثلين للفئات والطبقات الاجتماعية التي كان من المفترض أن يستمر في تمثيلها ، ليس هذا فقط ، بل فقد أيضا ثقة وتأييد أجهزة السلطة المنوط بها حماية النظام.

يبقى الإجابة على بعض الاسئلة

هل لدينا ليبرالية مصرية؟

نعم لدينا من يمكن وصفهم بالليبراليين المصريين و منظمين فى أحزاب رسمية أو أفراد يعملون بالعمل العام و منهم حزب الوفد و حزب الاحرار و حزب الدستور و افراد مثل الببلاوي وزياد بهاء الدين و البرادعي ووصلوا الى السلطة فى لحظة انتقالية مؤقتة و لكن هؤلاء الليبراليين، مثلهم مثل ليبراليين ما قبل 1952، تتبخر ليبراليتهم بدرجات طبقا لعلاقتهم بالسلطة ، سواء بالمشاركة فيها ام بتوجهات هذه السلطة ، ولذلك تحدثت عن أن بعضهم ، الاكثر انسجاما و الأكثر شرفا على الصعيد الشخصي ، يستمروا في الصياح من القاهرة و النمسا و لن يسمع لهم أحد حتى يستقر شكل الحكم و تنقضي الظروف الانتقالية ، ولدينا كذلك أحزابا تسمى نفسها بأسماء أخرى و لكنها تقترب أكثر من أن تكون أحزابا ليبرالية مطعمة بأفكار اخرى ، و لكنها قصة أخرى سأتحدث عنها بشكل منفصل لاحقا .

هل هناك تلازم بين نظام الإنتاج الرأسمالي والليبرالية؟

لابد من التفريق بين الرأسمالية كنمط إنتاج وبين طبيعة السلطة السياسية، ففي تقديري وكما اوضحت، انه لا يوجد تلازم بين نظام حكم ليبرالي و نمط الانتاج الرأسمالي، و ان الانتقال إلى نظام حكم ليبرالي رهن بإنجاز الرأسمالية لمهامها في التحديث والتصنيع و عندها و عندها فقط يصبح نظام الحكم الليبرالي ضرورة حياة لاستمرار نمط الإنتاج الرأسمالي، كان في خاطري ما حدث في كوريا الجنوبية.

هل يمكن لأنظمة حكم شمولية أن تحقق إنجازات اقتصادية؟

بالقطع نجحت أنظمة الحكم الشمولية في تحقيق إنجازات اقتصادية كبرى في بلدان مختلفة و بقيادة توجهات مختلفة ، لقد حققت كوريا الجنوبية ذلك بقيادة بونابرتية الى ان انتقلت الى نظام حكم شبهة ليبرالي ، و تحقق الصين الشعبية)!!(الآن نموا رأسماليا غير مسبوق في تاريخ البشرية بقيادة حزب شيوعي)!!(إلى الحد انها اصبحت اكبر اقتصاد في العالم) طبقا للقوة الشرائية(أو ثاني اكبر اقتصاد) طبقا لسعر تبادل العملة) ، و تحقق روسيا نموا جيدا تحت قيادة تقترب من أن تكون بونابرتية ، و تحقق فيتنام نموا رأسماليا متسارعا تحت قيادة حزب شيوعي ، وكلها انظمة حكم شمولية تتضاءل فيها الحريات الليبرالية كما نعرفها

.

هل تسمح الرأسمالية العالمية وشركاتها المتعددة الجنسية لبلدان متخلفة

تحكم بشكل بونابرتي بأن تقوم بنهضة اقتصادية؟

للإجابة على هذا المتسائل لابد و ان نلقى نظرة أكثر تمحيصا على الوضع الدولي ، لقد تغير الوضع عن الفترة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي تغييرا كبيرا ، فالنهوض الرأسمالي الكبير في العديد من الدول الكبرى ، و بالذات في روسيا و الصين والبرازيل ، والصراع الكبير الدائر الآن لإعادة اقتسام العالم واستعادة النفوذ المفقود ، يفتح بارقة امل في الاستفادة منه شرط حسن ادارة الامور ، لذلك أجبت لسؤال احد الاصدقاء عن هل هناك فرصة لنظام حكم بونابرتي في أن يقود و ينجز مهام النمو الرأسمالي الغير منجزة، كان جوابي بالإيجاب شرط حسن إدارة الأمور .

هل انتهى شكل الحكم البونابرتي؟

يبقى ايضاح امر اخير متعلق بشكل الحكم البونابرتي و هل انتهى بموت عبد الناصر ، و في تقديري أن شكل الحكم لا يتعلق بمواجهة النفوذ الأجنبي او بمحاولة تحقيق إنجازات اقتصادية كبرى ، كما فعل و حاول عبد الناصر، ولكن متعلق فقط بشكل الحكم ،حين تتخلى الطبقة السائدة عن دورها للبونابرت كي يتولى الدفاع عن المصالح الكلية لها، و لذلك فإن شكل الحكم البونابرتي لا يقاس بأحلامنا في الديمقراطية والنهضة ، فكم من حكاما بونابرتيين حققوا إنجازات اقتصادية واجتماعية كبرى و تمتعوا بشعبية غامرة حتى بعد موتهم ، مثل جمال عبد الناصر و نابليون الأول وحتى بوتين الان فى روسيا ، و كم من حكام بونابرتيين أصبحوا مضحكة للتاريخ مثل نابليون الثالث ..

البونابرتية ليست مسبة، بل هي وصف للحالة وكل بونابرت وظروفه وإدراكه

ارجو ان اكون قد اوضحت رأى في هذا الحيز الضيق.

راجع كتاب دراسات في الفاشية، المؤسسة الغربية للدراسات والنشر، للتعرف على رأى شارل بتلهايم في صعود هتلر الى السلطة.

اللون الأزرق وبافلوف

والشهيد عميد أركان حرب ماجد مندور

هكذا صاح أخي الشهيد العميد أركان حرب ماجد مندور محتجا، عندما كان في قيادة القوات المسلحة المصرية في المنطقة الغربية في نهاية سبعينات القرن الماضي " أحنا بنلون ليبيا بالأزرق "، فاللون الازرق في الخرائط العسكرية المصرية لا يعنى الا القوات الإسرائيلية، لذلك فلقد نشأ رد فعل منعكس شرطي بين اللون وطبيعة العدو.

أنه رد الفعل المنعكس الشرطي، أي عندما يرتبط رد فعل الكائنات بحدث يتكرر ويعقبه رد فعل لا إرادي.

وهكذا شرحت ويكيبديا اكتشاف بافلوف

"الاستجابة الشرطية أو التعلم الشرطي هي نظرية في التعلم الترابطي وضعها الطبيب الروسي إيفان بافلوف، وتعنى رد الفعل التكيفي للكائن تجاه منبه خاص ويكتسب هذا التكيف من وضع الكائن مكررا في الموقف نفسه فعلى سبيل المثال: لا يسمح الإنسان البالغ لجسده بلمس النار بشكل مقصود ابدا على الرغم من جمالها الأخاذ!!

بينما يقبض الصغار بتلهف على الأشياء المشتعلة بأيديهم الصغيرة لأنهم لم يمتلكوا بعد حماية المنعكس الشرطي ويكتسبون قدرة الابتعاد عن النار بعد أن يجربوا فقط قليلا من الاحتراقات الشديدة وتسمى هذه القدرة: المنعكس الشرطي. هل يتعلم الصغير أي شيء في العملية؟ نعم يتعلم الكثير، ويكتسب آلية حماية تتكون من الخوف من الاحتراق فيتعلم كيف يبتعد عن النار. مع هذا يستطيع الكائن الحي تطوير منعكسات شرطية في حالات غير طبيعية ان جاز التعبير: أي يمكن إحداثها على مدى واسع بالوسائل الصناعية كما فعل إيفان بافلوف في تجربته الشهيرة والتي نجح بها في تطوير منعكسات شرطية اصطناعية عند الحيوانات."

أدام الله علينا سيادة اللون الاحمر في كل خرائطنا.

في أصول المسألة ....المصرية السودانية

أثارت الأحداث التي تواكبت مع مواجهات الناديين الأهلي المصري والهلال السوداني في تصفيات البطولة الافريقية في الخرطوم والقاهرة انتباهي ، أحداث تم تناولها والتعامل معها بأساليب ديماغوجية فاضحة بحيث خرج الأمر عن حدود الرياضة التنافسية العادية ، وشكلت هذه الديماغوجيا امتدادا للديماغوجيا السائدة في المجال الرياضي المصري وأصبحت جزءا منها ، ولأنى اعتقد أن الديماغوجيا لا تسقط من السماء وليست مجرد اختراعا سحريا شريرا من القائمين على ترويجها وتبنيها ، بل لابد وأن تستند على وقائع الأحداث المعاصرة والتاريخية برؤية مختلفة ، تستدعى من الوقائع من يفيد تدعيم رؤيتها وتتجاهل ما يتناقض معها ، وتستند أيضا على توجهات المزاج الشعبي وتستخدمها وتحورها ، والا أصبحت مجرد تخاريف موتورين تثير السخرية ، لذلك فإن الديماغوجيا هي نوع من الإغماء العقلي يترتب عليه نتائج سلبية خطيرة على العقل الجمعي وعلى مصير التيارات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتبناها ، بل أيضا على مصير الدول نفسها.

ولأن هذه الديماغوجيا أصبحت جزءا من الديماغوجيا السائدة في المجال الرياضي المصري، فلابد من التوقف قليلا عند الأصول التاريخية للمسألة المصرية السودانية، فالديماغوجيا الرياضية المصرية المقلوبة التي تجعل من النادي الأهلي ناديا للمبادئ كإنجاز لرؤساء النادي الأفذاذ هي نفسها ديماغوجية حين تتجاهل الأصول التاريخية لنشأة المؤسسات الرياضية المصرية الحديثة الوثيقة الارتباط بالحركة الوطنية المصرية ، فتأسيس النادي الأهلي كان جزءا من تطور الحركة الوطنية المصرية التي نجحت في تأسيس بنك مصر
، بعد عقدين من الزمان، عندما تهيأت الظروف الموضوعية الاقتصادية والسياسية لذلك كجزء من ثورة 1919 ، لذلك فقد أحاط الشعور الشعبي بالنادي الأهلي واصبح النادي الأكبر في مصر وحلما لكل الأطفال والشباب باللعب لنادى الحركة الوطنية ، وهو نفسة الشعور الشعبي الذى كان قيدا ثقيلا على إدارات النادي المختلفة التي تعاقبت عليه للتعبير عنه والا ترتبت نتائج خطيرة على مصير هذه الإدارات.

وإذا نظرنا الى السلوك الديماغوجي الحالي لقيادة نادي الهلال السوداني وتحالفها المخجل مع رواد الديماغوجيا الرياضية المصرية، الأمر الذى أثار استياء الشعور الشعبي المصري، هذا الشعور الشعبي المصري الذى ينظر الى السودان بشكل خاص يتجاوز الشعور الشعبي حيال باقي الشعوب العربية، لكنه يتجاهل أصول المسألة ..... المصرية السودانية، فهذا السلوك الهلالي ليس مجرد خطأ أخلاقي لإدارة غير واعية، بل لابد وان يكون مستندا على بعض الأسس التي يتبناها الشعور الشعبي السوداني.

فتاريخ العلاقات المصرية السودانية منذ بدايات التاريخ المكتوب ليست مجرد محاولات تاريخية متكررة لوحدة بلد واحد، مثلها مثل الضرورة التي فرضت توحد مصر وثبات هذه الوحدة من عهد نارمر)مينا(، بل يمكن تلخيصها في ما سمي في التاريخ المدرسي المصري بفتح السودان!

لذلك فإن على الحركة الوطنية المصرية، بل والدولة المصرية ذاتها، ادراك خصوصية وطابع وحساسية الشعور الشعبي السوداني فيما يتعلق بمصر ودورها في السودان، الأمر الذى يستدعى أهمية دراسة أصول المسألة المصرية السودانية فيما يتعلق بمصر ودورها، بعيدا عن الديماغوجيا المقلوبة التي تنظر الى السودان باعتباره جزءا من مصر انفصل كخطأ تاريخي من عبد الناصر الذى وافق على الانفصال ، أصول مسألة لا تكتفي بالأصول التاريخية القديمة بل تمتد الى التاريخ الحديث المليء بالأحداث المؤسفة.

فهل ندرس أصول المسألة ....المصرية السودانية بحيادية تسمح بتصفية الرواسب القديمة المتراكمة وتنقى الشعور الشعبي للشعبين وتضع قواعد تراعى مصالح الشعبين وتطور علاقتهم الأخوية!

فلاحون وباشوات!

عزيز فهمي ومحمد مندور

كلاهما من زعماء الطليعة الوفدية في اربعينات القرن الماضي، هذه الطليعة التي كانت تمثل تيار الديمقراطية الثورية والتي قادت الكفاح الوطني من أجل الاستقلال والعدل الاجتماعي.

عزيز فهمي أبن الباشوات الذي انضم للشعب ومحمد مندور أبن الفلاحين الذي مثل الشعب، درس الاول الحقوق وانتسب للآداب ودرس الثاني الآداب وانتسب للحقوق.

الأول ذهب لفرنسا لدراسة الدكتوراه في الحقوق والثاني أرسلته الدولة للحصول على الدكتوراه في الآداب، درس كلاهما الأدب والقانون في فرنسا واستوعب ثقافة عصره.

عاد كلا منهما قبل الحرب وانخرط في الحياة العامة وتعرض للاضطهاد، الدكتور عزيز والدكتور مندور.

كتب عزيز الشعر وأصبح مندور أهم ناقد أدبي ومارس كلا منهما المحاماة، دخلا سويا عضوية البرلمان سنة 1950، عزيز ذو المزاج الشعرى ومندور ذو العقلية الفكرية الصارمة، بحيث تنتابك الشكوك، هل هما شخصين أم شخص واحد انقسم فأبدع هذا الابداع في الدفاع عن الوطن والعدل والشعر والنقد.

تعرض مندور لمرض خطير كاد أن يقضى على حياته لولا عملية جراحية خطيرة في المخ سنة 1952 ومات عزيز في حادثة سيارة في نفس العام.

يبقى أخيرا أن طفلا مندوريا صغيرا يعرف عزيز فهمي جيدا منذ طفولته ويعرف التقدير الذي كان يحظى به من نصفة الاخر.

هنا القاهرة من دمشق

والأمن القومي المصري

صيحة مذيع إذاعة دمشق عام 1956 عندما قذفت القوات المعتدية محطة إرسال الإذاعة المصرية، صيحة تلخص الأمر كلة، صيحة لا يمكن تلخيصها في الشعور القومي العربي الذى تصاعد بشدة في خمسينات القرن الماضي، بل في حقيقة أكثر عمقا بكثير تتجاوز الشعور القومي وقد تشكل جانب هام، غير محسوس، من هذا الشعور نفسة.

وبرغم ان مفهوم الأمن القومي المصري هو قضية تاريخية، يختلف محتواه ومداه باختلاف الزمان، الا ان عناصر هامة منة قد تشكلت وترسخت عبر مراحل تاريخية متتالية عاكسة الأوضاع الدولية المختلفة، فلقد اكتشفت مصر الفرعونية أن الخطر يأتي من اتصال الوادي بالبلاد الأجنبية عبر الشمال الشرقي، أي عبر سيناء، حيث احتلت أجزاء كبيرة من شمال ووسط البلاد وفرضت الوصاية على الجنوب وذلك لأول مرة في تاريخ بلادنا.

أن الاحتلال الأجنبي أصبح ممكنا نتيجة لانهيار الأوضاع الاجتماعية الداخلية بما فيها السلطة المركزية فيما يسمى في التاريخ الفرعوني بمرحلة الاضطراب الثانية أو فترة الانتقال الثانية، بعد انتهاء الدولة الفرعونية الوسطى التي شكلتها الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشر، وأصبح كذلك ممكنا نتيجة للتقدم التكنولوجي الذى حققته القوى الأجنبية باختراع العجلة الحربية.

لقد خرجت مصر تدافع عن نفسها بقيادة اخر ملوك الاسرة الإقليمية الجنوبية، الأسرة السابعة عشر، من طيبة، بعد أن استوعبت منجزات العصر، لتتخلص من الاحتلال وتخرج خلفه الى بلاد الشام الكبيرة وجنوب تركيا وشمال العراق لتؤسس الإمبراطورية المصرية الأولى والوحيدة بقيادة فراعنة مقاتلين أدركوا حقيقة زمانهم.

ومنذ ذلك الزمان البعيد ارتبط الأمن القومي المصري، في جانب هام منة، ببلاد الشام الكبير، برغم أنه مع التغييرات العالمية فإن الشمال أصبح مصدر خطر داهم منذ الإمبراطورية الرومانية وحتى الآن.

أن مفهوم ومعنى الأمن القومي المصري هو سابق على الاقتراب والتوحد الفكري والثقافي الذي عم منطقتنا من الخليج الى المحيط، وسابق على الشعور القومي العربي الذي لم يسفر عن قومية واحدة، بل فقط عن اقتراب القوميات المختلفة في عملية تاريخية قد تؤدى الى قومية واحدة.

وبرغم موقع بلادنا المحوري والدور الهام الذي لعبته وستلعبه في المنطقة، مهما كان هذا الدور، سواء بالفعل الإيجابي أو بالامتناع عنة، فانة سيؤثر على مصير منطقتنا، الأمر الذي أكد علية كبار المفكرين السياسيين العالميين حين وصفوا بلادنا بالدولة المحورية في منطقتنا.

لذلك ستبقى " هنا القاهرة من دمشق."

من المحيط الى الخليج وكرة القدم!

هل هو وهم من الخمسينات؟ أم هو انحيازا سياسيا من الاتجاهات القومية؟ هل ننتمي إلى ثقافة المتوسط؟ هل نحن فراعنة فقط؟ وهل يكفي الانحياز النفسي للدلالة عن من نحن؟ أسئلة هامة كانت الشغل الشاغل للحركة الفكرية والثقافية المصرية في العصر الحديث، عصر التحرر من الاحتلال التركي العثماني ثم البريطاني، عصر زمن انبعاث الحركة الوطنية المصرية الحديثة.

سؤال تلقى إجابات مختلفة مع تطور الحركة الوطنية والثقافية المصرية، إجابات لم تخلو من التطرفات ، تطرفات تنظر إلى الخلف مستندة على الدين لتبرير الارتباط مع العثمانية أو على مشروعات سياسية وفكرية تحاول التنصل من الارتباط مع التخلف الفكري والثقافي والسياسي الذي عم المنطقة لقرون.

ويأتي كأس العالم لكرة القدم ثم كأس العالم لأندية كرة القدم كي تعيد طرح الأسئلة من جديد ، أسئلة ستظل محلا للأهمية البالغة الى أن نستطيع اللحاق بثقافة وتقدم عصرنا ، فشعوبنا تنحاز إلى فرقنا وهى تلعب الكرة ، فهل ننسى كيف تفاعل الشعب المصري حماسا و تأييدا للفريق المغربي في كأس العالم للكرة ، ونحن الآن نشاهد بأعيننا كيف يلعب فريق النادي الأهلي المصري في بطولة العالم للأندية في المغرب ويلقي تأييدا حماسيا لا يقل عن ما كان ممكنا يتلقاه اذا كان يلعب في القاهرة ، والمذيع السعودي يكاد يخرج من الشاشة تحمسا.

فهل نحن فراعنة؟ هل نحن عرب؟ هل ننتمي الى ثقافة المتوسط؟ أم أننا خلطة عجيبة من تركيبة البلى بلى باة كما يصفها الشاعر الشعبي المبدع أحمد فؤاد نجم؟

أنها أفة الموقع المحوري والتطور الحضاري والإنساني المبكر، أفة التاريخ المتراكم والصراعات الكبرى والصغرى التي كانت ومازالت قائمة منذ خرج المصريون من واديهم الضيق دفاعا عنه و استيعابا لحضارة وثقافة عصرهم.

نعم ايها السادة نحن فراعنة وعربا وننتمى لثقافة المتوسط وثقافة اهلنا من الخليج الى المحيط، قدرا وتاريخا ومستقبلا ومصيرا، وعلى كل من لا يدرك هذه الخلطة العجيبة من توليفة البلى بلى باة أن يستمع من جديد لأحمد فؤاد نجم ويشاهد بطولة العالم لأندية كرة القدم!

هل تنتصر الثورات؟

سؤال يبدو بسيطا وان إجابته سهلة مباشرة، وقد يتصور البعض، خصوصا عندما تكون الدماء ما زالت حارة، دماء الثورة، أن الإجابة ممكنة حيث يتحكم في التقدير الانحياز العاطفي سواء مع الثورة وشعاراتها واحلامها أم ضدها.

ولان الثورة هي فعل جماهيري مركب تشارك فيه طبقات وفئات اجتماعية مختلفة سعيا وراء أحداث تغييرات اجتماعية وسياسية متباينة، حتى لو التفت حول الشعارات العامة للثورة، ولكن هذا الالتفاف لا تتضح حقيقته إلا في السلوك العملي الفعلي للقوى الاجتماعية وممثليها السياسيين في الصراع الاجتماعي الدائر ، حيث تتضح حقيقة اختلاف فهم القوى الاجتماعية لشعارات الثورة ، لذلك فإن الوصول الى تقدير انتصار الثورة أو هزيمتها رهن برؤية وموقف من يبحث الأمر.

ولا يمكن الاكتفاء بالركون الى المعيار الذاتي في التقدير، بل يجب التوقف أمام التطور الاجتماعي السابق على الثورة واللاحق لها، فالثورة، أي الحركة الجماهيرية الواسعة والدائمة، قد تؤدي الى تغيير شكل الحكم والى تزايد أو تناقص تأثير مصالح القوى الاجتماعية المختلفة على سياسات الدولة الجديدة بما يفتح الطريق أمام التغييرات الاجتماعية سواء أكانت تستجيب للسياق العام للتطور أم تعاكسه.

ولعل من الواجب التوقف عند بعض من الخبرات التاريخية لفهم طبيعة الثورات.

فالثورة الفرنسية الكبرى في القرن الثامن عشر كانت ترفع شعارات " الحرية الإخاء المساواة "، لكن فهم القوى السياسية المختلفة لهذه الشعارات اتضحت بشكل قاطع في الصراع السياسي بينها، بين الملكيين والملكيين الدستوريين و الجيروند واليعاقبة، وبرغم أنهار الدماء التي سالت، فإن الثورة انتهت باستيلاء بونابرت على السلطة وتعيين نفسه إمبراطورا، فهل انتصرت الثورة الفرنسية؟ أم لعلنا يجب أن نتساءل هل فتحت الثورة الباب أمام التطور الاجتماعي الذي كانت الأوضاع الاجتماعية السابقة على الثورة تعيق تطوره؟

ولأن الإجابة أكثر تعقيدا من أن تكون بسيطة فلعلنا في حاجة الى التوقف قليلا أمام الثورة الروسية عام 1905 ، هذه الثورة التي استطاعت أن تخلق شكلا جديدا من الحكم يعبر عن مصالح القوى الاجتماعية الأكثر مساهمة وانخراطا في الثورة ، أي لجان العمال والفلاحين ، هذا الشكل الجديد الذى لم يستطع الانتقال من حالة ازدواج السلطة الى الانفراد بها وانتهى الأمر بهزيمته وعودة الحكم المطلق من جديد ، لكن هذا الحكم المطلق هو نفسة الذى قاد التغييرات الاجتماعية في اتجاه ما كانت تطمح الية الثورة ، لكن من أعلى وعلى طريقته ، فهل انتصرت ثورة 1905 في روسيا أم هزمت ؟

وإذا عدنا من جديد الى الثورة الفرنسية الكبرى فمن المؤكد أنها قد حطمت البنية الاقطاعية الفرنسية القديمة التي كانت تعيق التقدم الرأسمالي ، ليس فقط على الصعيد الفرنسي بل أيضا الى تحطيم البنية الإقطاعية على

الصعيد الأوربي ، وحولت فرنسا ، بشكل تدريجي ، الى القوى العظمى الثانية على الصعيد العالمي ، برغم الحكم الإمبراطوري النابليونى ثم عودة ملكية أل بوربون ثم ثورة 1830 و1848 وعودة الإمبراطورية من جديد على أيدى الكاريكاتير النابليونى ، لويس بونابرت ، وانتهى الأمر بهزيمة كميونه باريس سنة 1870 وتأسيس الجمهورية ، وبرغم ذلك فان فهم شعارات الثورة المختلف لدى أكثر التيارات السياسية راديكالية ، أي اليعاقبة ، لم يتحقق حتى الان.!!

أن فهم طبيعة الثورات لا يحتاج فقط الى الفهم الدرامي لشكسبير، بل أيضا الى فهم كافكا للدراما ناهيك عن فهم كبار المفكرين الاجتماعيين لتطور المجتمعات الإنسانية، للصراع الطبقي، والى التحليل الاجتماعي العميق للتناقضات الاجتماعية التي قادت الى الثورة والى النتائج الفعلية اللاحقة لها.

الالتراس

لاحظ وشاهد وراقب هذا التسجيل لجمهور الأهلي اثناء المباراة الاخيرة مع الزمالك، لكن لا تتوقف كثيرا على ما يرددونه حول الخصم، فهي مقولات تشكل جزءا من المناخ الديماغوجي السائد والذي تساهم فيه كافة المحطات التلفزيونية العائدة للأندية ومعظم المواقع على النت وأن كان المساهم الأكبر هو إدارة نادى الزمالك نفسها.

وما يستحق التنبه له، حقا، هو هذا الفعل الجماعي المنظم المتناغم الذي لا يمكن له أن يتحقق دون وجود قيادة حقيقية، قيادة تنظم وتحدد وتقود، حتى وإن لم يكن لها شكل تنظيمي دائم.

أن التوصيف الحقيقي للاتراس هو أنها حركة جماهيرية مستقلة، ولأنها كذلك فهي، في التحليل الأخير، حركة سياسية، حتى وإن كانت لا ترفع شعارات سياسية، ولعل تاريخها القريب أثناء مساهمتها في أحداث عام 2011 تقدم لنا دليلا على ذلك، لذلك فالأمر يستدعى دراستها من علماء الاجتماع والسياسة.

الثالثة شمال بتهز جبال!

معضلة الشيخ سيد

بالقطع هناك معضلة اسمها معضلة الشيخ سيد درويش، فالكل يرفع مقامه عاليا باعتباره مؤسس الموسيقى المصرية الحديثة، لكن هذا المقام الرفيع يكتفى بالإشارة إليه بدون الحانة الأمر الذى يبدو ، من الوهلة الاولى محيرا ، فلا يستمع الى الحانة إلا في الحفلات الموسيقية لفرقة الموسيقى العربية ، أو عن طريق بعض المغنيين أحيانا ، وبرغم ذلك فلا أعتقد أن هناك اتفاقا غير مكتوب لحجب الحانة ، فالأمر يتجاوز كثيرا المجال الموسيقى الى الاساس المادي الذى يحكم تطور الفن والأدب والأفكار الاجتماعية.

فسيد درويش توفى في الزمن المناسب لتطور فنه وإلا كان سيلاقي الأمرين، فسيد درويش ابن اصيل لثورة 19، تأثر بها ومهد لها وأثر فيها ، وبانتهائها انتهى زمانه الجسدي وان لم ينتهى دوره ، فالشيخ سيد يعود مرارا وتكرارا كلما عادت الحركة الشعبية المستقلة ، وليس من قبيل الصدفة إطلاق اسم فنان الشعب علية.

هذا ما وجدنا عليه آباؤنا

هذا التمرد اللعين الذى لا اجد منه مهربا، تمرد يتزايد مع تقدمي بالعمر، كأن قطار العمر يتقدم بالعكس وأن عمرى يتناقص، والمصيبة أنه يتعمق ويتجاوز كل ما تعارف الناس على أنها حدودا ، ولكن هذا التمرد ، برغم انه تمرد ، إلا أنه يخضع لقواعد صارمة من احترام النتائج العلمية التي توصلت إليها البشرية على الصعيدين ، العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، ولكنها تخضع أي استنتاجات أو أراء أو حتى استنتاجات نظرية جديدة يتم التوصل إليها ، باستخدام الاكتشافات التي ثبتت صحتها ، لنظره نقدية للوصول الى موقف منها .

والغريب أن النتائج التي توصلت إليها العلوم الطبيعية ، منذ بدايات التطور الإنساني الحديث ، أي بعد ظهور واستتباب الرأسمالية الحديثة ، كان يتم استخدامها وتحديثها وبيان حدودها ولم تتكرر صيحة جاليليو مرة أخرى " ولكنها تدور، " برغم استمرار الممانعة للأفكار الجديدة لكنها ممانعة لا تقف على أقدام راسخة من سيادة منهج فكرى سائد بل مضاد للمناهج التجريبية التي أصبحت سائدة ، في نفس الوقت الذي خضعت كل الأفكار الاجتماعية القديمة للفحص والتقييم لكن ، ويا لها من "لكن" ، فان تحرر التفكير الإنساني في مجال العلوم الطبيعية ، الذي فرضته مصالح القوى الاجتماعية الصاعدة ، لم يمتد الى العلوم الانسانية الا في الحدود الضيقة المتناسبة مع استتباب المصالح الجديدة ، مع استمرار تغيير الأفكار الاجتماعية بما يضمن استدامة وديمومة المصالح الاجتماعية السائدة ، كأن التطور الاجتماعي قد وصل إلى نهاية التاريخ

!.

والغريب أن الأفكار الاجتماعية الداعية للتغيير قد اصابها، هي أيضا، أمراضا يمكن تسميتها بأمراض الهزيمة، أمراض التكلس والدجما واستبدال التفكير الجدلي بالتمسك بالنتائج التي توصل إليها الآخرون، في زمانهم، واصبح الخروج على هذه النتائج قرينا بالكفر وبالخروج على أهل الملة والجماعة.!

والأكثر غرابة أن هذا الغريب المتمرد لا يستطيع أن يلقم نفسه حجرا ويعيش على الذكريات ويسكت!

حدث خطير سنة 1946

أتصال المثقفين بالعمال

اللجنة الوطنية للطلبة والعمال

الدكتور محمد مندور يكتب مقالة في جريدة البعث عام 1946 تعليقا على إنشاء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي أسقطت مشروع معاهدة صدقي بيفن وقادت الإضراب العام على الصعيد الوطني.

حدث خطير
اتصال المثقفين بالعمال*

لقد يحدث بمصر في هذه الأيام ظاهرة تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخنا الحديث، ويظهر هذا التحول من المقارنة بين الحركة الوطنية في سنة ١٩١٩ والحركة الوطنية الحالية، ففي سنة ١٩١٩، كانت الامة لا تتحرك الا اذا طلب اليها الزعماء الحركة، وخطبوا في جموع الشعب وساروا في المظاهرات، اما اليوم، فقد نضج التفكير السياسي حتي رأينا جموع الشباب من «طلبة وعمال» يقررون بأنفسهم خطوات الجهاد العملي وينفذونها، وتستجيب الامة لندا ءاتهم.

وفي سنة ١٩١٩، كانت الحركة سياسية بحتة فليس لها الا هدف واحد، هو الغاء الحماية وتحقيق الاستقلال، واما اليوم، فقد اصبح من الواضح ان الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التي يقف عندها الجهاد، وذلك لأن الفرد قد اصبح يدرك ادراكا واضحا انه لا خير في الغاء الرق الخارجي اذا دام الرق الداخلي جاثما علي صدره، وانه لا جدوي من أن يصبح الوطن عزيزا، اذا ظل الفرد ذليلا، بل ان التخلص من الاستعمار نفسه ليس الا وسيلة لرفع مستوي الحياة بين طبقات الشعب، وذلك بمنع الاجنبي من أن يستغل مصادر الثروة في بلادنا.

وليس بكاف ان ندافع عن قوتنا وقوت ابنائنا ومواطنينا ضد الأجنبي بل لابد من ان ندافع عنه ايضا ضد المستغلين من المصريين والأثرياء الجشعين حتي تتحقق العدالة بين الناس، وتتاح الفرص لكافة المواهب، ويفسح المجال لكل نشاط انساني منتج.

وهذا التفكير هو أقصي ما كنا نطمع فيه، والبلاد كانت بلا ريب سائرة نحوه، ولكنه قد ظهر أخيرا بصورة واضحة وما نظنه سيقف بعد اليوم قبل ان يبلغ أهدافه التي تتلخص في الديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية الي جوار استقلال وادي النيل.

والشيء الذي يستحق التسجيل هو ان هذا التفكير قد خرج من حيز الفكر والاحساس الي حيز العمل والتنظيم، وقد أتت الخطوة الأولي اليه من شباب الجامعة المثقفين القلقين علي مستقبلهم قلقهم علي مستقبل بلادهم، فهم الذين سعوا الي العمال بدافع ذاتي يريد المغرضون الكاذبون أن يشوهوا جماله فيتحدثون عن أيد خفية فيه، وهم لا يكذبون عندئذ فحسب بل ويأثمون.

والذي لا شك فيه هو ان الأمر لم يعد يحتمل تسويفا، فجموع الامة عاقدة العزم علي تغيير الاوضاع الاجتماعية القائمة واعادة النظر في الهوة السحيقة التي تفصل بين الغني والبؤس في مصر، وان الشعب لم يعد يقنع بالوعود الخاوية والاصلاحات الهزيلة التي تقرب من الاحسان، وانه يتطلب اليوم سياسة جريئة لا لمحاربة الفقر والمرض والجهل فحسب، فتلك واجبات الحكومة البديهية، وانما لخلق ظروف للعمل تتفق وكرامة البشر، ولا تحرمهم من ثمرة مجهودهم الكاملة، كما تفتح أمام المواهب الطريق واسعا لا تقوم فيه حواجز مصطنعة ولا عوائق ظالمة باغية ...

ولسنا نحن اللذين نردد هذه الافكار، وانما نلتقطها من ألسنة الشبان جميعا في الجامعة، بل ومن ألسنة أساتذتهم، كما نلتقطها من أفواه جميع موظفي الدولة الذين يزيد عددهم على المليون ونصف، وذلك فضلا عن عمال الحكومة وصغار موظفيها الخارجين عن الهيئة، واما عمال الشركات والمصانع الاهلية فقد اصبحت هذه الآراء نشيدهم المستمر.

واذا كانت هناك طبقة كبيرة من الامة وهي طبقة الفلاحين لم تدرك بعد مدي ما هي فيه من بؤس ولا تحركت للخلاص منه، فان ذلك آت عما قريب، وذلك لان هذا التفكير لم يعد مقصورا علي العواصم بل قد امتد الي المراكز، وأخذ يتسرب الي القري التي لم تعد تخلو اليوم احداها من الطلبة والمثقفين اللذين يترددون عليها من حين الي حين اثناء الاجازات ويخالطون الفلاحين ويخالفون ابا حم في الرأي وينشرون التفكير الجديد في كل مكان

والذى نستطيع أن نؤكده هو أن الوفد كما اشتدت حماسته الوطنية، ستشتد أيضا حماسته الاجتماعية، وأن الأمة ستجد فيه دائما مايرضى ظمأها إلى الحرية كما يرضى نزعتها إلى العدل.

(*) مجلة البعث ١٩٤٦/٣/١

الحفيد والحواريين

منذ ما يزيد عن مائة عام أحيا حفيد صغير ذكرى أجداده بالكشف عن بهاء حضارتهم وهو راقدا على ظهره لما يزيد عن ثلاثة آلاف عام، وقبلها بمائة عام صاح حواري فرنسي من حوارى الفراعنة " "المسألة الآن في حوزتي، وضعت يدي على الموضوع "فأنطق الحجر وتعالت الأصوات من كل معبد عميق لتملأ الدنيا ضجيجا و تجتذب مزيدا من الحواريين من كل بلد بعيد.

ويجاهد الأحفاد المصريون للحاق بركب الحواريين والانضمام اليهم في بلد محتل يجاهد للحاق بركب الحضارة والتحرر، وينجحون ، فينضم سليم حسن وزملائه الى الحواريين عبر العالم و تتأسس المدرسة المصرية المتخصصة فى الحضارة المصرية القديمة .

ويكتب الحفيد الجد سليم حسن في موسوعة مصر القديمة (الجزء الرابع)عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطورية ، ولا تدرى أهو يتحدث عن الأسرة الثامنة عشر ، التي ينتمى اليها الحفيد الراقد ، أم يتحدث عن زمانه هو ، فالشوق يتملكه لتحرير الوطن.

(1)أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة

لقد كان «مانيتون» المؤرخ المصري القديم محقاً عندما جعل «أحمس» الأول فاتحة ملوك الأسرة الثامنة عشرة، على الرغم من أنه من أسرة كانت تسيطر على جزء كبير من البلاد في عهد الأسرة السابعة عشرة؛ إذ الواقع أنه في حكم هذا الفرعون قد طُويت صحيفة من تاريخ البلاد سُ طِر عليها عهدُ استعباد الشعب المصري مدةَ قرنٍ ونصف من الزمان، ثم بدأ صحيفة جديدة كان أول ما خُطَّ فيها آيات بينات تح دِثنا عن استقلال البلاد وطرد الغزاة الغاصبين من أرض الكنانة، ثم الإصلاحات التي قامت في طول البلاد وعرضها ،بعد استتباب الأمن في الداخل والخارج على أسُ سٍ متينة هيأَتْ لمَن جاء بعده من الفراعنة الشجعان أن يؤسِسوا دولة مترامية الأطراف، تمتد من الشلال الرابع جنوبا إلى أعالي نهر دجلة والفرات شمالا، وتدين لها كل الأمم المجاورة مادياً وأدبياً، حتى أصبحَتْ في عهد «تحتمس» الثالث — الذي يلقِبه مؤرخو الغرب «بنابليون» الشرق — الإمبراطوريةَ الأولى في عالم التاريخ القديم؛ وقد كانت المثل الذي احتذَتهْ الإمبراطوريات الغربية العظيمة قدميها وحديثها في تأسيسِ ملكها ومدِ سلطانها.

هل ستخصص قناة السويس؟

أن مناقشة إمكانية تخصيص قناة السويس لابد من التعرض لها على عدة محاور، المحاور السياسية والاقتصادية والقانونية.

ولنتوقف أولا عند الانعكاسات السياسية، فمثل هذه الخصخصة ترقى الى مستوى اهمية تأميم القناة نفسها أو خصخصة الأهرامات او السد العالي، لذلك فلا يستطيع أي نظام حاكم أن يقدم على ذلك مهما كان مستوى شعبيته أو مدى أحكام السيطرة على الحكم وعلى حركة الجماهير، فهي عمل خطير جدا سيترتب علية نتائج سياسية في غاية الخطورة، حتى ولو تأخرت هذه النتائج، لكنها ستأتي، ولن تبقى على أحد، لذلك فان افتراض عدم رشادة الدولة الى هذا الحد الخطير، هو فرض، في حد ذاته، يمثل فقدانا للرشادة.

أما على الصعيد القانوني فإن مشروع القانون يتحدث عن إنشاء صندوق منفصل عن هيئة قناة السويس وذو شخصية اعتبارية، وان كانت هيئة القناة تسيطر عليه عن طريق رئاسة وعضوية مجلس الإدارة وعن طريق التحكم في التمويل الذي سيحصل عليه، ويراقب عن طريق جمعية عمومية يعينها رئيس مجلس الوزراء، ولا يتضمن مشروع القانون نقل ملكية أي من أصول هيئة القناة أو شركاتها، أي أن الصندوق هو صندوق تمويلي واستثماري لهيئة قناة السويس.

أما عن الدوافع الاقتصادية فان الاقتصاد المصري يمر بمرحلة انتقالية تتضمن الكثير من التغييرات ، واحد هذه التغييرات التي تتم بشكل تدريجي هي معالجة المشكلات التي ترتبت على العلاقة التي كانت قائمة ، ومازالت مستمرة ، بين المؤسسات والشركات التي تعود ملكيتها للدولة وبين الموازنة العامة ، فأرباح هذه المؤسسات كانت تورد لوزارة المالية ثم تعيد وزارة المالية تخصيص الموارد بما يتلاءم مع أوضاع المالية العامة وتوجهات الدولة السياسية والاقتصادية الامر الذى ترتب علية ، في أحيان كثيرة ، العجز عن الحفاظ على الأصول أو تطويرها فتدهورت وأصبحت عاجزة عن الاستمرار في الإنتاج بكفاءة ، هذه السياسات التي ازداد وضوحها مع استمرار تدهور المؤسسات الإنتاجية واصبح قطاع الدولة الإنتاجي أمام خيارات مرة ، التصفية ام إعادة التأسيس من جديد بما يتضمنه من مباني ومعدات وإعادة تأهيل العمالة ، لذلك فلقد سمحت الدولة باحتفاظ بعض هيئاتها ومؤسساتها بجزء من أرباحها لتحقيق التمويل الذاتي ، واعتقد أن مشروع قانون هذا الصندوق هو جزء من التوجه العام للدولة ، وان كان هذا التوجه لم يرقى بعد الى المستوى القانوني والمؤسسي في الفصل بين الموازنة العامة وبين الأنشطة الاقتصادية للدولة ، بحيث تكتفى الدولة بالضرائب والرسوم و بالحصول على جزء من الأرباح باعتبارها صاحب راس مال رشيد ، لكن لابد من تمكين الشركات من الاحتفاظ بجزء من الأرباح لتعويض التهالك الطبيعي للمعدات والمنشآت ، ولابد من الإشارة الى ضرورة تغيير القواعد القانونية والاقتصادية لإدارة الدولة لاستثماراتها الإنتاجية ، في القطاع العام وقطاع الاعمال العام وفى الشركات المشتركة ، الامر الذى لم تحققه التعديلات الأخيرة لقطاع الاعمال العام ، فما زالت البنية البيروقراطية تتحكم به ، ولابد من فصل الملكية عن الإدارة حتى يمكن تطبيق نظم الإدارة الحديثة التي لم ينجح في تبنيها قطاع الدولة أم حتى القطاع الأهلي فالكل في الهم شرق.

لذلك فإن ما يسمى بوحدة الموازنة تعريف وتوجه يكتسب دلالات مختلفة طبقا لتطور النظام الاقتصادي، ولابد من تبنى منطق جديد لمفهوم وحدة الموازنة، فلا يمكن الاستمرار في تبنى مفهوم انتهى زمنة وزمانة وإلا ستكون النتائج وخيمة على الأنشطة الإنتاجية التي تمتلكها الدولة، ولابد من تبنى فهم جديد لوحدة الموازنة كضرورة اقتصادية ومالية ومقاومة لاحتمالات انتشار الفساد، هذا الفهم الذى لابد وان يتضمن ضم ما يسمى بالصناديق الخاصة وعدم الاكتفاء بالحصول على نسبة من دخلها وعدم أنشاء صناديق جديدة مهما كانت الدوافع.

ولعل أحد دوافع إنشاء هذا الصندوق هو تمكين الهيئة من المشاركة مع راس المال المحلى والأجنبي في المناطق الاقتصادية حول قناة السويس، هذا الاستثمار الذي يتزايد وإن كان بمعدل متواضع.

وبرغم انى لا اتفق مع تصورات المعارضين حول أن إنشاء هذا الصندوق هو مقدمة لخصخصة قناة السويس أو حتى شركاتها ، فهو صندوق مالي لا يمتلك أصولا و يمكنه الاستثمار وتملكه الهيئة وتتحكم به الدولة ، وبرغم ذلك فانا اختلف مع إنشاء مثل هذا الصندوق ، فإذا كان الهدف توفير جزء من الموارد للهيئة فالأمر بسيط ويمكن تحقيقية بتعديل بسيط في القانون يتيح لها الاحتفاظ بجزء من مواردها لاستخدامه في اعمال التطوير أو غيرها من الاستخدامات ، فالقانون الحالي يتيح للهيئة تأسيس وإدارة الشركات ، وبرغم أن احتفاظ بعض هيئات الدولة

بجزء من مواردها أصبح أكثر انتشارا نتيجة للتناقضات بين احتياجات وزارة المالية ، أي المالية العامة ، واحتياجات الهيئات المختلفة للحفاظ على الأصول ، فلماذا لا يطبق ذلك على هيئة قناة السويس ؟

أن الاستنتاج النهائي هو أنه لا يوجد احتمال لخصخصة قناة السويس وان كانت المشاركة في بعض شركات الهيئة احتمالا واردا كجزء من السياسات العامة للدولة، والصندوق قد يمكن الهيئة من القيام بذلك بتقديم حصتها في تكاليف التطوير.

مرفقات

الوضع القانوني الحالي لهيئة قناة السويس وطبيعة أنشطتهما مع الملامح الأساسية لمشروع قانون صندوق هيئة القناة..

- **معاهدة القسطنطينية**
- **قرار التأميم**
- **القانون رقم** 124**لسنة** 1963
- **القانون رقم** 161 **لسنة** 1963
- **قرار جمهوري رقم** 30/1975
- **قانون رقم** 4 **لسنة** 1998
- **القانون رقم** 34 **لسنة 2014**
- **القانون رقم** 90 **لسنة 2015**

أن الوضع القانوني الحالي لهيئة قناة السويس يتمثل في التالي

-هيئة قناة السويس هي هيئة عامة مستقلة ذات شخصية اعتبارية

-يقوم رئيس الجمهورية بتعيين مجلس ادارتها

-تخضع الهيئة لرقابة الجهاز المركزي للمحاسبات

-تخضع قرارات الهيئة لضرورة تصديق رئيس مجلس الوزراء وتتبع هيئة قناة السويس رئيس مجلس الوزراء
-يجوز لهيئة قناة السويس تأسيس شركات مساهمة (قانون 124 **لسنة** 1957**)**

-لا تخضع الهيئة لقواعد عمل أجهزة الدولة او شركاتها، بل للقوانين الخاصة بها فقط (القانون 30 **لسنة** 1975**)**

-تعتبر أموال الهيئة أموال خاصة (القانون 30 **لسنة** 1975**)**

-تدير الهيئة ميناء بورسعيد

شركات هيئة قناة السويس

-شركة التمساح لبناء السفن – تأسست عام 1961

-شركة القناة للموانئ والمشروعات الكبرى – تأسست عام 1965

-شركة القناة لرباط وأنوار السفن وتعمل في موانئ بورسعيد وشرم الشيخ ونويبع والسويس

-شركة القناة للإنشاءات البحرية – نشأت بعد دمج شركة القناة لبناء السفن وبورسعيد الهندسية

-شركة القناة للحبال ومنتجات الألياف...- تأسست عام 1963

-شركة ترسانة السويس البحرية – تأسست في عهد الخديوي سعيد وضمت للهيئة عام 1963

-شركة الأعمال الهندسية البوسعيدية

-شركة القناة للترسانة النيلية – تأسست عام 2003

الترسانات

-ترسانة بورسعيد البحرية

-ترسانة بور توفيق البحرية

-ترسانة الأدبية

الموارد المالية

تقوم الهيئة بتوريد دخلها لوزارة المالية ولا تحتفظ بأي جزء من مواردها.

ملامح مشروع تعديل القانون رقم 30 **لسنة** 1957 **لإنشاء صندوق هيئة قناة السويس**

الملامح الأساسية

ويعتمد على الاحتفاظ بجزء من مواردها بعد موافقة وزير المالية للصندوق الجديد التابع للهيئة وتكون له شخصية اعتبارية.
يتشكل مجلس الإدارة من رئيس الهيئة و4 **من مديري الهيئة وثلاثة من ذوي الخبرة يعينهم رئيس مجلس الوزراء.**
الجمعية العمومية تتكون من 17 **عضوا يعينهم رئيس مجلس الوزراء**

يخضع الصندوق لمراقبة الجهاز المركزي للمحاسبات

وحدة الموازنة

إن الاقتصاد المصري يمر بمرحلة انتقالية تتضمن الكثير من التغييرات ، واحد هذه التغييرات التي تتم بشكل تدريجي هي معالجة المشكلات التي ترتبت على العلاقة التي كانت قائمة ، ومازالت مستمرة ، بين المؤسسات والشركات التي تعود ملكيتها للدولة وبين الموازنة العامة ، فأرباح هذه المؤسسات كانت تورد لوزارة المالية ثم تعيد وزارة المالية تخصيص الموارد بما يتلاءم مع أوضاع المالية العامة وتوجهات الدولة السياسية والاقتصادية الأمر الذي ترتب علية ، في أحيان كثيرة ، العجز عن الحفاظ على الأصول أو تطويرها ، فتدهورت وأصبحت عاجزة عن الاستمرار في الإنتاج بكفاءة ، هذه السياسات التي ازداد وضوحها مع استمرار تدهور المؤسسات الإنتاجية وأصبح قطاع الدولة الإنتاجي أمام خيارات مرة ، التصفية ام إعادة التأسيس من جديد بما يتضمنه من مباني ومعدات وإعادة تأهيل العمالة ، لذلك فلقد سمحت الدولة باحتفاظ بعض هيئاتها ومؤسساتها بجزء من أرباحها لتحقيق التمويل الذاتي ، وان كان هذا التوجه لم يرق بعد الى المستوى القانوني والمؤسسي في الفصل بين الموازنة العامة وبين الأنشطة الاقتصادية للدولة ، بحيث تكتفي الدولة بالضرائب والرسوم و بالحصول على جزء من الأرباح باعتبارها صاحب رأس مال رشيد ، لكن لابد من تمكين الشركات من الاحتفاظ بجزء من الأرباح لتعويض التهالك الطبيعي للمعدات والمنشآت.

ولابد من الإشارة الى ضرورة تغيير القواعد القانونية والاقتصادية لإدارة الدولة لاستثماراتها الإنتاجية، في القطاع العام وقطاع الأعمال العام وفى الشركات المشتركة، الامر الذى لم تحققه التعديلات الأخيرة لقطاع الأعمال العام ، فما زالت البنية البيروقراطية تتحكم به ، ولابد من فصل الملكية عن الإدارة حتى يمكن تطبيق نظم الإدارة الحديثة التي لم ينجح في تبنيها قطاع الدولة أم حتى القطاع الأهلي فالكل في الهم شرق.

لذلك فإن ما يسمى بوحدة الموازنة تعريف وتوجه يكتسب دلالات مختلفة طبقا لتطور النظام الاقتصادي، ولابد من تبنى منطق جديد لمفهوم وحدة الموازنة، فلا يمكن الاستمرار في تبنى مفهوم انتهى زمنه وزمانه وإلا ستكون النتائج وخيمة على الأنشطة الإنتاجية التي تمتلكها الدولة ، ولابد من تبنى فهم جديد لوحدة الموازنة كضرورة اقتصادية ومالية ومقاومة لاحتمال انتشار الفساد، هذا الفهم الذى لابد وأن يتضمن ضم ما يسمى بالصناديق الخاصة وعدم الاكتفاء بالحصول على نسبة من دخلها وعدم أنشاء صناديق جديدة مهما كانت الدوافع.

الصراع حول المتوسط

مازال الصراع دائرا حول حدود المناطق الاقتصادية لبلدان شرق المتوسط وتم الاتفاق بين بعض البلدان حول حدود مناطقها البحرية، فلقد تم الاتفاق بين قبرص وإسرائيل واسرائيل ولبنان ومصر وقبرص واليونان ، لكن الاتفاقات الداخلة فيها قبرص أو اليونان تلقى معارضة تركية ، كما قامت تركيا بتوقيع اتفاقية مع حكومة طرابلس تتناقض مع الاتفاق المصري اليوناني والاتفاق المصري القبرصي.

إن التقديرات التركية لمياهها الاقتصادية تختلف كثيرا مع التقديرات اليونانية ، وتجد هذه الخلافات أساسا موضوعيا جالبا لمثل هذا الاختلاف ، فالجزر اليونانية الكثيرة والمتناثرة في المتوسط وبحر إيجة والتي يقترب الكثير منها من الساحل التركي تقدم أساسا يمكن الاستناد عليه فى تحديد المنطقة الاقتصادية اليونانية كما توضحه الخريطة العلوية ، ولكنها تقلص كثيرا من المنطقة الاقتصادية التركية التي توضح الخريطة السفلية تقديرات تركيا لمنطقتها الاقتصادية ، باللونين البنى والازرق، تصوران يطرحان اختلافات كبرى حول المناطق الاقتصادية برغم أن الأهمية الاقتصادية لاحتمال وجود النفط والغاز مازالت تصورات عامة لم تؤكدها نتائج فعلية.

وبرغم أن الخلافات التركية القبرصية اليونانية ذات تأثير محدود على المصالح الاقتصادية المصرية ما عدا الخط الغربي المحدد لنهاية المنطقة الاقتصادية المصرية مع ليبيا، الأمر الذي جعل الدولة المصرية تعلن حدود هذا الخط تحسبا للتداخلات مع التوجهات التركية وحكومة طرابلس حيث لم يتم حتى الآن توقيع اتفاق مع ليبيا حول المناطق الاقتصادية نتيجة لتقسيم ليبيا وعدم وجود حكومة موحدة.

وبرغم أن التصور اليوناني والقبرصي يحظيان بالاعتراف الدولي ، رغم معارضة تركيا التي لم تنضم للاتفاق الدولي حول تحديد حدود المناطق الاقتصادية ، فإن استمرار عدم النجاح في الوصول الى اتفاق بين الأطراف الثلاثة جالب للتوتر واحتمالات الصدام وقد يؤدى الى التصادم مع مصالح أطراف أخرى وعلى رأسها مصر.

ويجب الإشارة إلى عدم وجود اتفاق بين مصر واسرائيل على المنطقة الاقتصادية البحرية، وهو موقف تبنتة كل الحكومات المصرية منذ أن تم توقيع اتفاقية إنهاء الحرب مع اسرائيل ، وهو موقف محمود حيث أن حدود المنطقة الاقتصادية المصرية الشرقي هو مع فلسطين ، أي مع قطاع غزة ، وليس مع إسرائيل ، وأعتقد أن تحديد إسرائيل للحد الجنوبي لمنطقتها الاقتصادية غير عادل من وجهة المصالح الفلسطينية .

ولعله من الواجب الاشارة الى ان قيام الدولة المصرية بتطوير قواتها البحرية تطويرا كبيرا كان أمرا مطلوبا ومحمودا بحيث تستطيع حماية المصالح الاقتصادية البحرية المصرية، هذا التطوير الذي يمنع من تفاقم النزاعات الى مستويات خطيرة ويجعل من التفاوض السلمي الطريق الوحيد لحل الخلافات

الخيال الشعري وغضب الحليم

بعيدا عن التاريخ واقترابا من الشعر، هكذا كان يجذبني التاريخ المصري القديم، بالذات محاولاتهم لتفسير الكون الذي يتضح فى تصوراتهم الدينية وما ارتبط بها من اقاصيص شكلت البنية الفكرية والمعتقدات والقيم الاجتماعية. فحورس الذى يقاتل من اجل اقامة العدل، بدعم من الأم الكبرى ايزيس، يصبح رمزا للملوك والحكم العادل، والاحترام العميق للأم والمرأة يجعل الكثير من الالهة امرأة من حتحور وايزيس الى سخمت وباستت، سخمت وباستت اللتان جذبت التصورات حولهما خيالي، فسخمت الآلهة الأنثى التي تظهر في صورة اللبوة التي تحوم حول الديار لحمايتها من الاعداء، لبوة وليست أسد ، وباستت ربة المرح وحماية الدار التي تظهر فى صورة قطة.

وعندما يتم توحيد كلا من باستت وسخمت فى آلهة واحد فإن الخيال الشعرى للفراعنة حور من التصورات حولهما، ففى زمن الهدوء والسلام فإن هذه الإلهة الموحدة تظهر في هيئه القطة التي تحمى الدار وتشيع البهجة، أما فى زمن الخطر وعندما ينفذ صبرها فإنها تتحول الى سخمت الشديدة البطش كي تحمى الديار من الاعداء.

فاحذروا غضب الحليم!!

الركود التضخمي!

لبانه يتم ترديدها من أصحاب التوجهات الغربية بمنتهى الحكمة والموثوقية لتوصيف الأوضاع الاقتصادية المحلية، رغم أن الجميع يعلم ويدرك أن " الركود التضخمي " هو ظاهرة اقتصادية متعلقة باقتصاديات البلدان الرأسمالية المتقدمة، بعد أن تطورت الرأسمالية ووصلت الى مرحلة الاحتكار، لذلك تغيرت طبيعة الأزمة الاقتصادية الدورية وأصبح الركود قرينا بالتضخم.

أما في البلدان الأقل تطورا والمرتبطة بألف رابط اقتصادي وسيأسى مع بلدان المركز فإن ظواهر الأزمة الاقتصادية، تبدو سطحيا، كما لو كانت ركودا تضخميا مستوردا، بالقطع فان هناك انعكاسات مباشرة وغير مباشرة على اقتصاديات البلدان النامية، ولكنها لا تكفي لحسن التشخيص ولا لاكتشاف العلاج.

أن الأزمة الاقتصادية في البلدان النامية هي في حقيقتها ازمة تبعية، اقتصاديات تابعة تعاني خللا هيكليا وتزايد في نزح الفائض الاقتصادي الى بلدان المركز، ومقيدة بقيود سياسية واقتصادية، بل وأحيانا عسكرية بما يفقدها القدرة على اتباع سياسات تؤدى الى مزيد من الاستقلال الاقتصادي والسياسي النسبي والتقليل من الأثار السلبية لانعكاس التغييرات والأزمات في بلدان المركز.

الأمر الذى يطرح أهمية تبنى سياسات اقتصادية هى بالضرورة شديدة الارتباط بالسياسة المحلية والدولية، لتحقيق قدر أكبر من الاستقلال الاقتصادي، سياسات تدرك الأوضاع الاقتصادية والسياسية الدولية وان نماذج المحاولات السابقة، في زمن سابق، عندما كان العالم مختلفا فى خمسينات وستينات القرن الماضي، لا تصلح لزماننا هذا.

فعن أي سياسات اتحدث؟

هل الطريق هي مزيدا من الاندماج وتبنى سياسات تقود الى أن يصبح الاقتصاد المحلي جزء من سلاسل الإمداد العالمي؟ أم هل هى سياسات تعديل الهيكل الاقتصادي المحلى بما يسمح بإحلال الإنتاج المحلى محل الواردات؟ مع الأخذ فى الاعتبار ان تبنى أي من هذه السياسات الاقتصادية تؤثر تأثيرا كبيرا على أوضاع الطبقات الاجتماعية وعلى توزيع الفائض الاجتماعي وفي النهاية على الأوضاع السياسية الداخلية وعلى شكل الحكم.

ولا توجد سياسات يمكن لها النجاح دون الانطلاق من حسن تحليل الأوضاع الاقتصادية والسياسية وسلوك الطبقات الاجتماعية المحلية، فلا يمكن نقل نماذج يعتقد البعض بنجاحها في بلدان أخرى ما عدا الاستفادة من الخبرات العامة.

فإذا طرح البعض نموذج الانخراط في سلاسل التوريد العالمية أو في تبنى سياسات إحلال المنتج المستورد أو فى تبنى سياسات الاعتماد على رأس المال الخاص وتقليل دور الدولة الاستثماري والإنتاجي، أو حتى في تبنى شكلا معينا للحكم يعتقد البعض ملائمته لنمط التنمية والسياسات الاقتصادية المقترحة، فإن التساؤل الأولي هو لماذا؟ وأين هو التحليل الملموس لأوضاعنا الاقتصادية والسياسية ولسلوك الطبقات الاجتماعية الفعلي والمتحقق، وبدون ذلك فان اى من هذه التوجهات تبقى انحيازا فكريا لا يقف على اقدام راسخة من التحليل الاقتصادي الاجتماعي.

الاخوة كرامازوف والحرب الأوكرانية

لعل خيال المخرج المصري لم يستطع ان يصل الى الفهم الصحيح لدوستويفسكي فحول القصة إلى فيلم اكشن منخفض المستوى، والغريب أن المخرج الروسي للحرب الروسية الاوكرانية واخوة الأوكراني لم يستطيعا فهم ابن جلدتهم دوستويفسكي في صراعهم الحالي من أجل تعديلات حدودية كبيرة، فحولوا الحرب إلى فيلم منخفض المستوى.

فحقيقة هذه الحرب ليست خلافات حدودية أو دفاعا عن أقليات روسية او حتى منع أوكرانيا من الانضمام إلى حلف الأطلنطي، فدول البلطيق الثلاث الصغيرة، استونيا ولاتفيا و ليتوانيا انضمت الى حلف الأطلنطي دون فعل عملي اعتراضي من روسيا، ودول اوروبا الشرقية انضمت إليه برغم التعهدات اللفظية للغرب، ولا أعتقد أن السبب هو حماقة الاخ الأوكراني في معاملة إخوته الروس الأوكرانيين.

أن السبب الحقيقي لهذه الحرب هي صراع دولي من اجل الوصول الى المياه الدافئة ، فالغرب يريد تطويع الاخ الروسي للاستجابة لضغوطه والاكتفاء بدوره المحدود داخل البلدان المحيطة به دون التناقض مع المصالح الغربية ، والاندماج في الكتلة الغربية طبقا لشروطها ، فيملأ الدنيا صياحا حول الاستقلال الوطني ومصالح الشعوب، والاخ الأوكراني المتطرف يثير النوازع القومية للبقاء في السلطة و يستجيب للأهداف الغربية كي يتلقى الدعم اللازم منها ، والاخ الروسي يدرك أهدافه ولكنه يتصايح ايضا حول النزعة النازية والحقوق القومية للأقليات الروسية وبرغم ذلك فان سلوكه الفعلي في ميدان القتال هو بالضبط القتال من أجل الاستمرار في الوصول الى المياه الدافئة ، الأمر الذي أسفر عن الحط من قيمة وقامة دوستويفسكي بتحويل قصته ، قصة الصراع بين الاخوة ، الى فيلم سلافي هابط المستوى.

لقد تحولت هذه الحرب الى حرب حدودية بليدة، مثلها مثل كل الحروب الحدودية التي لا تنتهي بغالب ومغلوب، غالب يستطيع أن يملى أرادته ويصل بالحرب الى اللا حرب بتوقيع اتفاقات تنهيها وتعكس موازين القوى الفعلية، وقد كشفت كذلك حقيقة الأوضاع السياسية والاقتصادية للأطراف المتصارعة سواء كانت تساهم بشكل مباشر أم غير مباشر.

فروسيا التي خرجت من أزمة اجتماعيه عميقة مع انهيار الاتحاد السوفيتي، وبرغم استعادة جزء كبير من طاقتها الاقتصادية والسياسية، فإنها لم تستطع بعد الوصول الى القدرة الاقتصادية لإنتاج الأسلحة المتقدمة ،التي نجحت فعليا في إنتاج نماذجها الأولية، مثل طائرات القتال الأكثر تقدما والخفية من الجيل الخامس ،السوخوى 57 والميج 41، أو دبابات القتال الرئيسية 14T ، أو حتى طائرات القتال المتعددة المهام من الجيل الرابع والنصف السوخوى 35 والدبابات T90 الأقل تطورا من الT14 ، كما لم تتطور طاقتها الاقتصادية الى الحد الذى يسمح لها بخوض معارك ممتدة الزمان أمام خصوم يتملكون طاقات اقتصادية اعلى كثيرا ، وقدرات أعلى في إنتاج الأسلحة الأكثر تقدما.

كما كشفت عن هشاشة النظام الاجتماعي الأوكراني وعدم قدرته على الوصول الى المستويات الاجتماعية الاوروبية وتخلف بنيته الإنتاجية وسيطرة الاتجاهات المتطرفة على الحكم، في معظم الفترات التي أعقبت

الاستقلال عن الإمبراطورية السوفيتية، وما صاحب ذلك من تخلف إمكانياته الدفاعية، الأمر الذي جعله رهينة للقوى الغربية.

لقد كشفت هذه الحرب كذلك إن الكتلة الاقتصادية الأوروبية، التي تقترب في حجمها وطاقتها من الكتلتين الأخيرتين، الصين والولايات المتحدة، تقف على أقدام سياسية ضعيفة مفتقدة للتوحد وتعاني من خلل هيكلي في مجال الطاقة يجعلها رهينة لتوجهات مصادر الإمداد، برغم التطور الملحوظ في استخدام مصادر الطاقة المتجددة، الأمر الذى ترتب علية المزيد من الانعكاسات الاقتصادية السلبية وتصاعد النشاط الجماهيري المعترض.

ولقد كشفت كذلك عن حقيقة موازين القوى العالمية ومستوى تطور قوى الإنتاج على الصعيد العالمي، فما زالت الولايات المتحدة الامريكية القوى العالمية الأساسية ، ولم تنجح اى من القوى الأخرى العالمية في الاقتراب منها ، سواء أكانت الصين الشعبية أم روسيا الاتحادية ، ومازال الفارق يتسع مع القارة العجوز الأوروبية ، ومازالت البرازيل والهند ابعد عن التأثير في الموازين العالمية ، ومازال هناك الاحتياج الى مزيدا من الزمان الذي قد يمكن فيه تحقيق بعض التوازن ، أو حتى يمكن فيه تحقيق خلق تكتلات اقتصادية وسياسية جديدة مثل البركسيت.

ولعل الأمل الوحيد للشعوب والدول، الغير منخرطة في هذا الصراع الدامي ، للنجاة من الضغوط المتزايدة ومن التأثيرات الاقتصادية السلبية ، برغم نجاحها الى الان في ذلك ، رغم تزايد هذه التأثيرات الاقتصادية ، هو إدراك مختلف الأطراف سواء بين الاخوة الروس والاوكرانيين أم في من يتوارى خلفهم ويدعم استمرار الحرب ، أن هذه الحرب قد تمتد لمئة عام بصرف النظر عن نتائج الجولة الجارية ، فروسيا ستقاتل لضمان الوصول للمياه الدافئة وهو ما فعلته لقرنين من الزمان في صراعها مع الدولة العثمانية ، والاخ الأوكراني عليه إدراك أن الحل الوحيد أمامه هو ضمان وصول أخية الروسي الى المياه الدافئة وأنه لا يمكنه الاستمرار في السلطة إلا بإدراك حقائق الصراع الدائر والتخلي عن لعب دور التابع ، وعلى الغرب أدراك الدور الخطير الذي يقوم به وحدود هذا الدور مع تصاعد الاحتجاجات الشعبية الداخلية وتراكم التأثيرات الاقتصادية الداخلية السلبية داخل بلدانها.

ولعل الموقف الوحيد الحكيم هو الذي اتخذته البلدان المنتجة للنفط والكثير من الدول النامية بالدفاع عن مصالحها وعدم الانجرار والاستجابة للضغوط الدولية لدعم أحد الأطراف، فهل تستطيع الصمود والاستمرار، نأمل ذلك.

احذروا من خضراء الدمن

الاخوان المسلمون بدون دبلوماسية

مقدمة لابد منها

مندور وصدقي والإخوان

طفل صغير يطلب من أمة أن يشاهد المسدس الصغير غير المرخص الذي يحتفظ به أبوه في حجرة نومة فتسمح له أن يراه على ألا يلمسه الأمر الذي يعرفه جيدا " ممنوع اللمس " ويتساءل " لماذا يحتفظ والدة المثقف الوطني الكبير بمسدس في غرفته وتأتي الإجابة واضحة جلية " دفاعا عن النفس. "

ففي خضم المعركة السياسية الكبرى التي خاضها الشعب المصري لإفشال الاتفاق على معاهدة صدقي - بيفين ، معركة يقف على رأس رمحها الطليعة الوفدية واللجنة الوطنية للطلبة و العمال ممثلة لكل قوى المجتمع الحية من الليبراليين و الديمقراطيين الوطنيين الثوريين واليسار في مواجهة حكومة أقليات معدومة الشرعية بقيادة إسماعيل صدقي باشا ، الملقب بعدو الشعب ، مدعوما بالإخوان المسلمون مستشهدين بقوله تعالى) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُو الا نبَّياً (كما صرح مصطفى مؤمن زعيم طلبة الاخوان ، يدرك محمد مندور صحة قرارة في الحصول على المسدس بعد أن لاحظ أن هناك مراقبة له من عناصر غير بوليسية ، هذا الإدراك الذى تدعم بعد أن رفض الرشوة المعروضة من إسماعيل صدقي بواسطة وزير ماليته عبد الرحمن البيلي باشا بتولي منصب سفير مصر في سويسرا وانتابه غضب هائل عرض حياة البيلي للخطر ، الذى تدحرك هاربا على سلم البناية خوفا من غضبه مندور ، كل ذلك قبل أن يفصح الاخوان المسلمون بشكل عملي عن لجوئهم الى العنف المسلح الأمر الذى تحقق في سلوكهم بعد سنوات قليلة في السنوات 1947 الى 1949.

حقيقة دامغة يوضحها سلوكهم السياسي منذ أن أسست الجماعة سنة 1928 وتلقت دعما ماليا من ولى النعم الاول، الاحتلال البريطاني بواسطة هيئة قناة السويس.

وينتاب الطفل، الذي أصبح رجلا كبيرا ذو خبرة، نفس الغضب الذي أنتاب والده قبل أن يولد، حين يجد قوى سياسية ليبرالية ووطنية وناصريه ويسارية تتعاون مع الإخوان في مواجهة الدولة المباركية أثناء ثورة2011، الأمر الذي أفقد هذه القوى الكثير من الاعتبار عندما تغيير المزاج الجماهيري وأطيح بسلطة الإخوان سنة 2013

أولياء النعم

أن أحد أكثر العناصر أهمية في السلوك السياسي للجماعة هو البحث عن ولى للنعم طالما كانت الجماعة في حاجة الية، حدث هذا مع الولي الاول، الاحتلال البريطاني، ثم مع الولي الثاني، حكومات الأقليات المدعومة بسلطة السرايا الملكية في مواجهة الحركة الشعبية، الى أن حدث الصدام الدامي الأول مع حكومة السعديين في عام 1948 حين أخطاء الإخوان في تقدير قوتهم الحقيقية، وهو خطأ يستمر في التكرار إلى يومنا هذا.

ويحدث الصدام الثاني مع ولى النعم الجديد، مجلس قيادة الثورة، خلال فترة الصراع على السلطة التي امتدت من 1952 الى 1954، حين هيأ لهم أنهم القوي المنظمة الوحيدة التي يجب أن تسلم لها السلطة بعد أن تعاونوا

مع المجلس في تصفية الحريات الديمقراطية الموروثة، فوجهت لهم ضربات قاصمة، ضربات لم يكن لها بديلا حتى ولو لم تحدث محاولة اغتيال جمال عبد الناصر التي قامت بها عناصر الجهاز الخاص.

ويبدو الامر مثيرا للسخرية عندما تصر القيادات الحالية والسابقة على أن الاوامر لم تصدر للجهاز الخاص لاغتيال عبد الناصر، مثل السخرية التي أثارها البيان الشهير لحسن البنا في أعقاب اغتيالهم لمحمود النقراشي رئيس الوزراء سنة 1948 والذي صدر بعنوان " ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين " ويا له من وصف يلخص الاخوان المسلمون بلسان قائدهم الملهم!

ويتكرر الخطأ الإخواني عندما يخرجهم عبد الناصر في 1964 و1965، ولكن فترة ما أسموه بالمحنة الأولى قادت الى مزيدا من التطرف داخل الجماعة وبروز تيار تكفيري واضح أصبح الأب الشرعي لكل التيارات المتطرفة التكفيرية التي نعانى منها الآن، فتلجأ عناصر هذا الاتجاه الى محاولة الانقلاب المسلح، فيقع ما أسموه بالمحنة الثانية.

وتخدمهم ظروف التغيرات السياسية والصراع الدائر حول مواجهة الاحتلال الصهيوني والاحتياج الحاد للدولة لظهير سياسي يدعم موقفها في مواجهة غليان شعبي يقف على رأسه اليسار والقوى الديمقراطية في أوساط الطلبة والعمال والذى أمتد الى الفئات الاجتماعية الوسطى ، فيجدوا في الدولة ولى نعم جديد ، حيث يفتح الباب أمامهم لإعادة التنظيم وبناء بنية تحتية اجتماعية واسعة النطاق وإصدار صحف باسمهم ويصبح الباب مفتوحا أمامهم لاستيعاب طاقات شابة جديدة وللتغلغل داخل هيئات الدولة الرسمية المختلفة ، رغم التناقضات مع الولي الجديد ، الأمر الذى استمر الى 2011 ، وهى فترة كانت أكثر من كافية لتدعيم وجودهم التنظيمي والاجتماعي وتعديل موقف الجماهير منهم.

وعندما تنفجر الثورة يقتربوا منها بحذر بالغ وبالرقص على جميع الحبال بين القوى المتصارعة، الأمر الذي لا تدركه بعض قوى المعارضة من الناصريين والليبراليين واليساريين فيساهموا في تدعيم نفوذهم السياسي، ولكن الإخوان يقعوا في سوء تقدير بالغ لحقيقة موقف المجلس العسكري، الذي عند مراجعة مسار تطور الصراع ندرك أنه كان الأكثر إدراكا لتطورات الصراع الدائر على السلطة.

للمرة الأولى منذ نشأتهم وبوصولهم للسلطة، يتخيل الإخوان انهم ليسوا في حاجة لولى نعم جديد ويبدأ فقدان كبير لأولياء النعم الإقليميين وتبدأ الخسائر المعنوية في الانهيال على رؤوسهم حين يتغير المزاج الشعبي ويفقدوا التأييد المؤقت الذي استطاعوا الحصول علية، هذا الفقد الناتج عن السوء والعجز الفاضحين عن أداره الدولة واضطراب سياستهم الخارجية.

وبرغم الضربات القاصمة للظهر التي واجهتهم بعد 2013، ضربات طالت بنيتهم التنظيمية والاجتماعية، الا انهم ينجحوا في الحصول على ولى نعم جديد حيث تخدمهم التطورات السياسية بالمنطقة بظهور الاردوغانية في تركيا، ولى نعم جديد تساهم سياساته في مزيدا من اضمحلال نفوذهم السياسي وتعميق عزلتهم وتزايد انفضاض الجماهير من حولهم.

التطور التنظيمي

هل رأيتم فيلم كل رجال الرئيس الأمريكي عن فضيحة ووترجيت؟ ستتفاجأ بمستوى بدائية وعدم احتراف المتهمين الى مستوى أنك عندما تقارنه بطريقة عمل الاخوان ستفاجأ كم كانت الأساليب الإخوانية أكثر تقدما

وتسمح بالتنصل من أفظع الجرائم إذا اقتضت الضرورة ذلك، فكيف يعمل الإخوان؟ نستطيع أن نتحدث عن مراحل من السلوك السياسي والهياكل التنظيمية ووسائل ممارسة العنف.

ففي الفترة الاولى، اى منذ التأسيس الى اغتيال حسن البنا، كان الإخوان يعملون على مستويين متجاورين ،مستوى الاناس المتدينين الذين يرغبون في القيام بخدمات إنسانية ونشر الدعوة والانخراط في العمل السياسي لبعض قطاعاته مثل في الجامعات والنقابات والمؤسسات الاهلية وتنظيم أخر موازي وغير معلن وسرى ويتحكم به المرشد شخصيا ويسمى بالجهاز الخاص، وفى الغالب يكون الجهاز العام أقل تعصبا وأكثر انفتاحا نتيجة لانخراطه في الحياة العامة .

هكذا كان شكل التنظيم في زمن حسن البنا ، وكان الجهاز الخاص هو المسؤول عن عمليات الاغتيالات في أربعينيات القرن الماضي ، اغتيال القاضي الخزندار الذي كان ينظر قضية سيارة الأسلحة واغتيال رئيس الوزراء ، محمود فهمى النقراشي و اغتيال سليم زكى حكمدار القاهرة ، ولذلك كان من السهل على حسن البنا اللجوء الى الأسلوب المتوقع بمحاولة التنصل من الاغتيالات وعلى رأسها اغتيال النقراشي ، لان من قام بالاغتيال هو الجهاز السرى فأصدر بيانه الشهير ، بعد مفاوضات مع خليفة النقراشي ، إبراهيم عبد الهادي ، بالبيان الذى اتهم قتلة النقراشي بأنهم ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين فانهار الشباب وأكملوا اعترافاتهم ، و بصدور البيان انتهى ما هو مطلوب من البنا ، فدبرت الحكومة اغتياله ، ولذلك أطلقوا على ابراهيم عبد الهادي "كلب الوادي

."ولكن باغتيال البنا بدأت المرحلة الثانية حيث أصبح الجهاز أكثر استقلالا عن القيادة وكان يطمح للوصول الى منصب المرشد، الأمر الذي انتهى بعد مساومات الى اختيار المستشار حسن الهضيبي الذي لم تكن عضويته معلنة ولا ينتمي للبنية التنظيمية، كحل وسط، وكان مستشارا بوزارة العدل، حيث لم يكن ينتمي لأي من التيارات المتصارعة.

وكشف هذا الاختيار عن وجود جزء ثالث من التنظيم ، يختلف عن الهيئة المدنية بقيادة مكتب الإرشاد العلني و الجهاز الخاص السرى ، وهو وجود أعضاء في مواقع حساسة لا ينتمون الى اى من الهيكلين التنظيمين لكن يتم الاحتفاظ بالعلاقات معهم بشكل فردى واحيانا عن طريق المرشد العام فقط ، وهذا الأسلوب مازال سائدا حتى الآن ، لأعضاء غير منتمين لمكان في البنية التنظيمية ، لاستخدامهم عند اللزوم، كما ظهر هذا واضحا بشدة أثناء الثورة ، حيث أعلن هؤلاء الأعضاء عن انتمائهم سواء بالسلوك العملي أم بالإعلان عن الانتماء التنظيمي ، وبعضهم كان يشغل مناصب في الدولة في منتهى الأهمية.

ولكن احتدام الصراع الداخلي بين قيادة المرشد الجديد وبين الجهاز الذي استطاع الوصول إلى درجة أكبر من سلطة اتخاذ القرار منفردا، في أحداث 1954، وهو ما كانت الدولة تدركه، وتبين ذلك في طبيعة الأحكام التي صدرت من المحكمة العسكرية بإعدام بعض قادة الجهاز وأعضائه وبأحكام أقل على القيادة الرسمية للإخوان.

لقد أسفر الأمر في النهاية عن تشكل تياران، تيار الهضيبي بكتابة الشهير " دعاة لا قضاة " والتيار الأكثر ميلا لاستخدام العنف الذي تجمع حول كتاب سيد قطب " معالم على الطريق " برغم أن سيد قطب لم يكن عضوا في الجهاز الخاص وانضم متأخرا كثيرا للإخوان.

ولكن بعد إخراج السادات لهم في بداية السبعينات بدأت تحدث ظاهرة جديدة باندماج أعضاء الجهاز الخاص في البنية التنظيمية العادية وازداد استخدامهم للعنف اليومي في مواجهة الجماهير والتيارات الأخرى، سواء منهم او من الجماعات الاسلامية، التي نجحوا في النهاية في السيطرة عليها بدعم مباشر من الدولة.

لقد كان المرشد الأول، بعد العودة، التلمساني، من القطاع المدني وكان أكثر فهما واستيعابا لطبيعة دورهم المطلوب في تلك المرحلة، ولكن بوفاة التلمساني أصبح منصب المرشد من نصيب قادة الجهاز الخاص القديم

حتى اليوم، وحدث تزاوج بين استخدام العنف في الحياة المدنية للتماهي مع الميول العنيفة لأعضاء الجماعات الإسلامية الذين انضموا بشكل تدريجي، وأصبح استخدام الأساليب العنيفة الطابع العام للإخوان وليس مجرد الدور المنوط بالجهاز الخاص الذي لم يصبح موجودا.

أن هذا الطابع الشامل أفصح عنه بشكل دراماتيكي ودعائي في استعراض فرق الفنون القتالية بالملابس السوداء في جامعة الأزهر في زمن الثورة، وفى السلوك الجماهيري للإخوان في ميدان التحرير وفى أحداث الاتحادية أو في أحداث مركز الإرشاد.

ولكن لماذا أقوم بهذا الاستعراض لتطورهم ومدى ارتباطهم بالأساليب العنيفة سواء في الحياة المدنية السياسية أم في الأعمال العسكرية المباشرة؟ لسبب اصيل وهو انه بعد كل هذا التاريخ الذي يعلمه القاصي والداني وبعد تراكم المعلومات سواء من قادة الإخوان أنفسهم في مذكراتهم أم في سلوكهم العملي المتراكم، فإنه لا يوجد عذرا لأحد من قادة الإخوان سواء على مستوى مكتب الارشاد او المستويات الأدنى من القيادات للتنصل من أساليبهم العنيفة.

وإذا راجعنا سلوكهم السياسي والذي سبق لي أن كتبت عنه باختصار في تتبع لتاريخهم وبحثهم الدائم عنولى النعم تحقيقا لمصالحهم وخدمة لمصالح وأهداف أولياء النعم التي كانت دائما معادية لمصالح الشعب المصري، اكتملت الصورة بشكل كامل.

ولذلك نحن في مواجهة تنظيم تطور واندمجت اجهزته مع بعضها وأصبحت قيادة مركز الارشاد أكثر قدرة وتحكم في التنظيم وأصبح ما كان يسمى بالجهاز الخاص مندمجا في البنية الأساسية ولا يشكل تنظيما موازيا.

من أجل كل هذا نحن لسنا في مواجهة التنظيم الإخواني القديم الذي انشق بعض كبار قادته ومفكريه وانضم الى عبد الناصر مثل الباقوري وعبد العزيز كامل وحتى أحمد كمال ابو المجد، بل تنظيم ذو طبيعة مختلفة ولا يمكن تبرئة أي من قادته على مستوى مركز الارشاد أم من القيادات الوسطى عن سياساتهم الحالية، مهما كانت نعومة أو لطف تعاملات البعض الشخصية.

الانشقاقات الإخوانية

دفعني الفضول لاستطلاع موقع حزب الوسط، وهو فضول شيطاني الدافع وليس بريئا، لكي أرى بنفسي هل استطاعوا التخلص من جذورهم الإخوانية أم لا.

وبدأت في قراءة برنامجهم ولم أجد جديدا ما عدا البلاهة الليبرالية الاقتصادية والسياسية والكلام الغليظ الجلد عن العدالة الاجتماعية بلا سياسات محددة.

أبو العلا ماضي يتحدث عن شخصيات عرفها ومنهم مصطفى مشهور مرشد الإخوان السابق ومحمد فريد عبد الخالق من قيادات الإخوان وعثمان احمد عثمان وعمر التلمساني المرشد الأول بعد عودة الاخوان و محمد الغزالي وعادل حسين وعبد المنعم أبو الفتوح ، وخلال حديثه ، في حلقات ، تكتشف دور الدولة في عودة الاخوان و علاقتهم بالجماعات الاسلامية بالجامعات ، وتطور هذه الجماعات وتوجهاتها السلفية ثم انشقاقها لاحقا الى تيارات جهادية او انضمامها الى الإخوان ، والصراع الدائر داخل الاخوان بين المنتمين للجهاز الخاص والتيار المدني والدور الخاص للتلمساني ممثل التيار المدني ومصطفى مشهور ممثل الجهاز الخاص وأكثرهم تأثيرا وسيطرة المنتمي للجهاز الخاص ومجموعة 65 وعلاقتهم مع حزب العمل ، ثم بداية الانهيار التدريجي للتحالف مع الدولة و بداية التشققات الصغيرة وخروج مجموعة لتشكل حزب الوسط.

التنظيمات الإخوانية الجديدة

أنا لا اكذب، ولكن اتجمل قصة لإحسان عبد القدوس تحولت إلى فيلم بطولة احمد زكى.. هذا ما خرجت به بعد أن أكملت قراءة مذكرات عبد المنعم أبو الفتوح وما نشرة أبو العلا ماضي على موقع حزب الوسط أن الزعماء الاسلاموجيين يقفزون برشاقة على كل ما يمكن أن يدين تاريخهم، وانا لا اقصد تاريخ الإخوان المسلمين فقط، بل ايضا تاريخ الجماعات الاسلامية بالجامعات المصرية منذ نشأتها حتى انضمام معظمها الى الإخوان المسلمين ثم استمرار قفزهم برشاقة عن افعالهم الاجرامية في الجامعات وخارجها بعد الانضمام لجماعة الإخوان، وأن كانت القراءة المدققة ستجد الكثير مما لا يمكن النجاح في اخفائه وأحيانا يتسرب من بين أيديهم رغم انفهم.

أن استنتاجي الرئيسي بعد هذا الجهد بالاطلاع على ما كتبه أبرز المختلفين منهم ومعهم هو كيف يستقيم الظل والعود أعوج.!

فهؤلاء يتبنون نفس البنية الفكرية للإخوان المسلمين، وينظروا الى تاريخ الجماعة بنفس المنطق القديم، أنه خلاف في التكتيك وليس الاستراتيجية، ولكنه أصبح مفيدا لنا للتعرف عليهم بشكل أكثر دقة.

أن هذه المذكرات تفضح كثيرا من الحقائق، برغم محاولات القفز على الكثير من الوقائع ، فدور الدولة في تشجيعهم وتيسير توسعهم لمواجهة الحركة الديمقراطية سواء باستدعاء كبار الدعاة من الاخوان لمحاضرتهم داخل الجامعة كثيرة ومتكررة، وعقد المخيمات الصيفية الممولة من ميزانية الدولة متكررة وتصل أعداد الحاضرين، احيانا، الى الالاف، وتسهيل اتصال زعماء الإخوان بهم واضحة حتى يتم استيعابهم داخلها بديلا عن توجههم الى الاساليب العنيفة ، والتنسيق مع أجهزة الأمن وبالذات بعد انضمام اغلب الجماعات للإخوان واضحة الى حد عقد الاجتماعات الدورية ، والتنسيق والتعاون والتواطؤ مع كبار الممثلين السياسيين للدولة واضحة ومتكررة ، والتعاون مع الأحزاب الليبرالية طريقا لدخول المؤسسات التمثيلية، مثل مجلس نواب 1984 مع حزب الوفد، أو التعاون اللاحق مع حزب العمل ومحاولة تأجيره مفروشا للإخوان.

إلا أن الأكثر أهمية في هذه المذكرات أنها تبين الصراع الدائر داخل الإخوان أنفسهم الذي أنتهى الى سيطرة تيار الجهاز الخاص، الأمر الذي استقر حتى الآن، وهو التيار الأكثر انغلاقا سياسيا ودينيا والأكثر ميلا الى استخدام العنف، عندما تقتضي الضرورة ذلك في تقديرهم، انتصارا على التيار الممثل للنظام العام للإخوان والذي انتهى بخروج الكثير من الممثلين للنظام الإخواني العام من الإخوان.

أن تصديق تحولهم الى أحزاب مدنية غير دينية وبعدهم عن العنف الذي قام به الإخوان عن طريق الجهاز الخاص أو ما يقومون به الآن، هو خلاف تكتيكي مادامت بنيتهم الفكرية ونظرتهم الى تاريخ الحركات الإسلامية مازالت كما هي، فلا تجد موقفا نقديا لأساليبهم العنيفة في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي أو قبلها منذ تشكل التنظيم في نهاية عشرينات القرن الماضي ولا عن نقد توجهاتهم الفكرية والسياسية والدينية المتطرفة، ولا عن انتهاكاتهم للحريات الديمقراطية وعدائهم للفن والثقافة بأساليب غير ديمقراطية ، والأخطر من كل ذلك هو استمرار تمسكهم بنفس النظرة التقليدية لتاريخ الاخوان في تعظيم القتلة ودعاة العنف وتكفير المسلمين.

وكشفت هذه المذكرات أيضا عن تأثير الجمعيات السلفية، التي تعمل حتى الآن بحرية كاملة، والتي تمثل في تقديري خطرا داهما في إعادة انبعاث تيارات جديدة من مجموعات العنف المسلح، رغم عدم انخراط هذه الجمعيات في هذا العنف.

إن حزبي مصر القوية والوسط ليسا مختلفين عن الحزب الام، الاخوان المسلمون، بل مجرد تنويعات على اللحن الأساسي.

الاخوان والمستقبل

أن تقدير الوضع الحالي لتنظيم الإخوان المسلمين لا يمكن بدقة بعد اختفاء دورهم العلني الداخلي وتحطيم بنيتهم التنظيمية والاقتصادية ووقوع العديد من التشرزمات في وجودهم التنظيمي خارج البلاد، لذلك فان المعركة الدائرة الآن، هي معركة على الخطوط الخلفية ولن يكتب لهم ولحلفائهم الانتصار فيها، برغم استمرار تواجدهم المقنع والمختفي داخل العديد من هيئات الدولة والهيئات الدينية الرسمية وفى الفضاء الإلكتروني من داخل وخارج البلاد.

أن الصراع مع قوى الإسلام السياسي وعلى رأسه الإخوان المسلمون هو صراع طويل وممتد ويمكن وأمكن تحقيق انتصارات فيه، ولكن ديمومة هذه الانتصارات رهن بتغيير البنية الاجتماعية التي تتيح انبعاثهم من جديد، ويتطلب مواجهة فكرية شاملة على كافة الأصعدة.

التطور الاجتماعي وذكرى ...."ذكرٍي"

هل هناك خطأ في العنوان؟ وهل يقع هذا الدقيق "النمكى " في مثل هذا الخطأ؟ بالقطع لا يوجد خطأ، فالاسم الشائع لمحمد مندور في قريته هو "ذكرِي" مثله مثل أخوته الذين كانت تطلق عليهم أسماء أخرى لمنع الحسد، فمحمود الذي لم يكن أعورا سمى بالأعور ومصطفى " أبو شفة" وهكذا.

ولكن " ذكرٍي" الابن البكر المتمرد لطه حسين لم يكن أسعد حظا من أستاذة، فلاقى الأمرين وهو يشتبك مع الحياة العامة، وإذا كان طه حسين قد تعرض للمتاعب نتيجة لجهوده الفكرية والأدبية نتيجة لضعف التطور الاجتماعي واختلاط القيم ما بين الحركة الشعبية التي كانت تخرج من القديم والقيم الاجتماعية والثقافية الأكثر حداثة التي كان يتبناها تيار فكرى من أبناء كبار ملاك الأرض، لكن صاحبنا كان على رأس تيار فكرى وثقافي وسياسي جديد.

هذا الشاعر، الذي لم يكن يكتب شعرا ،يشتبك اشتباكه الأول مع الأوضاع البالية بالجامعة حين عاد من بعثته الأوروبية دون الحصول على شهادة الدكتوراه فكلف بتدريس الترجمة من اللغة الإنجليزية بتدخل مباشر من الأستاذ الكبير أحمد أمين الذي كان عميدا لكلية آداب جامعة فؤاد الأول) القاهرة(بحثا له عن وظيفة ، ثم ينجح العميد في تكليفه بتدريس الترجمة من اللغة الفرنسية ، برغم أنه كان أعلى كفاءة ومقدرة من العديد من الأساتذة الأجانب الذين لم يكونوا حاصلين على شهادة الدكتوراه ، التي لم يكن يحملها العميد نفسه برغم قيمته وقامته.

وعندما يقترح عليه البعض التقدم بدراسته العلمية لبحور الشعر العربي التي حصل على الدبلوم العالي من جامعة السوربون عنها، للحصول على الدكتوراة، يرفض ذلك لاعتقاده أن هذه الدراسة تتجاوز الإمكانيات العلمية في الجامعة وبديلا عن ذلك يقرر التقدم للحصول على الدكتوراة بدراسته التي أعدها تحت أشراف أستاذة أحمد أمين بعنوان " النقد المنهجي عند العرب."

وبرغم رفض طه حسين حضور مناقشة الدكتوراة مع أحمد أمين وأمين الخولى فانة ينالها بامتياز وتصبح هذه الرسالة من أهم الكتب النقدية المرجعية الى زماننا هذا، في نفس الوقت الذي كان يكتب فيها في مجلتي الثقافة والرسالة ويتبنى منهجا جديدا الذي يتضح في كتابه " في الميزان الجديد" الذي يشكل تجميعا لهذه المقالات.

ولكن هذه التوجهات الجديدة في الأدب لا تلقى نفس العداء الحاد التي لاقاها طه حسين حين أصدر كتابة " الشعر الجاهلي" أو على عبد الرازق حين أصدر كتابه " الإسلام وأصول الحكم " لأسباب متعلقة بطبيعة هذه التوجهات الأدبية وبانتقاء الأسباب السياسية المباشرة، مثل ما حدث مع كتاب على عبد الرازق، ولكن قبل هذا

لأن التطور الاجتماعي والثقافي كان قد قطع أشواطا إضافية وأصبحت الحركة الشعبية السياسية والاجتماعية أكثر نضجا واقترابا من القيم الفكرية والاجتماعية للمجتمعات الحديثة.

ولكن هذا الحالم الكبير يقرر الاستقالة من الجامعة ويخرج بعدته الثقافية والفكرية الكاملة الى الصحافة الحزبية ويتلقى الترحيب الشعبي ويصبح المفكر الأول للتيار الشعبي الجديد، تيار الديمقراطية الثورية، الذي تشكل متجاوزا الأحزاب التقليدية رغم عدم وجود شكل تنظيمي له وبرغم انتماء أفراده للعديد من الأحزاب القديمة أم للتنظيمات اليسارية السرية.

وبرغم أن الصحافة الحزبية التي كان يعمل بها كانت تنتمي لحزب الوفد، فإن بعض توجهات قيادة الحزب لم تكن ترحب بهذا التيار وتوجهاته نتيجة لزيادة نفوذ كبار ملاك الأرض، إلا أن قائد الحزب، الواسع النفوذ، مصطفى النحاس، كان يدرك الأهمية الحاسمة لدور الديمقراطية الثورية والتيار الجديد، الذي تشكل داخل الحزب تحت مسمى الطليعة الوفدية، في استعادة الحزب لنفوذه الجماهيري الذي فقد بعضه بعد توقيع اتفاقية 1936 ثم قبوله الحكم في أعقاب تدخل قوات الاحتلال عام 1942، فيقدم دعمة للطليعة وكتابها.

ويصبح الطابع العام لنشاط "ذكرِى" هو الكتابات السياسية والاقتصادية برغم استمرار نشاطه الأدبي وسط تأييد شعبي حار وصدامات كبيرة مع حكومات الأقليات في أوضاع استمرار الاحتلال وتحالف بعض قطاعات الرأسمالية المصرية معه.

وإذا كان التيار الفكري والثقافي التنويري والأكثر حداثة قد أذاد اقترابه من الحركة الوطنية مع تطورها ونضجها، فإن وليدها الجديد، تيار الديمقراطية الثورية، كان يتطور نفوذه الجماهيري بشكل سريع بحيث كانت تتشكل ملامح حركة وطنية أكثر ثورية اجتماعيا وثقافيا، فالأمر تجاوز التلاقي السابق والتدريجي الى الاندماج والتأثير المتعاظم في قيادة الحركة الوطنية.

لقد كانت انتخابات مجلس النواب عام 1950 برهانا واضحا على تعاظم تأثير تيار الديمقراطية الثورية فيدخل كبار ممثلية، للمرة الأولى، لعضوية مجلس النواب ويصبح أبرزهم " زكرِي " رئيسا (أو وكيلا) للجنة التعليم، في نفس الوقت الذي كان طه حسين وزيرا للتعليم بالمجانية الجديدة.

لقد كانت السنوات الأخيرة قبل 1952 تعبيرا واضحا عن أزمة النمو الرأسمالي والاحتلال الأجنبي ، فحركه شعبية ناهضه يتزايد داخلها نفوذ التيارات الراديكالية وعلى راسها تيار الديمقراطية الثورية ، تطرح أفقا صداميا يتجاوز الاحلام المقيدة للرأسمالية المصرية ويتجاوزها اجتماعيا ، فينطلق الكفاح المسلح ضد الاحتلال ويتعاظم النشاط العمالي النقابي ويصبح على وشك تشكيل اتحاد عام للعمال بديلا عن الاتحاد الأول للعمال الذي حطمته حكومة الشعب الأولى عام 1924 ، ويتزايد نفوذ التيارات اليسارية وتستعيد جانبا كبيرا من قدراتها التنظيمية في نفس الوقت الذى يتزايد فيه نفوذ وعنف التيارات الدينية السلفية وعلى رأسها الإخوان المسلمون ، أنها لحظة أزمة اجتماعية عامة تطرح آفاقا مفتوحة للتغيير القادم ويلعب فيها شكل الحكم الملكي أدوارا سلبية.

ووسط هذه الازمة المحتدمة والنشاط الجماهيري العارم والكفاح المسلح في خط القناة والمظاهرات الشعبية الكبيرة التي تنادى بالتحالف مع الاتحاد السوفيتي، يحرق قلب القاهرة التجاري وتقال حكومة الوفد بعد أن أعلنت حالة الطوارئ، أزمة تعكس تحلل وانهيار النظام القديم والاحتمالات المفتوحة لنظام جديد يصيب الطبقات والقوى الممثلة للنظام القديم بالفزع، نفس الفزع الذي يصيب قوى الاحتلال والقوى العظمى الجديدة التي انبثقت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة الأمريكية.

يأتي الانقلاب العسكري، وهي تسمية دقيقة للحظة الانقلاب، رغم أن تطورات الصراع الاجتماعي والدولي قادته إلى تجاوز هذه التسمية ليتحول الى تغيير اجتماعي كبير يعيد تشكيل وتكوين الطبقات الاجتماعية وإعادة صياغة

العلاقات الإقليمية والدولية، ولا تتأخر السلطة الجديدة في إقرار قانون الإصلاح الزراعي، وهو قانون خجول من زاوية علاقته بالنمو الرأسمالي ، فالنمور الرأسمالي الراديكالي يتطلب إلغاء ملكية الأرض وهو ما طبقته القيادة الصينية بقيادة صن يات صن في الثورة الصينية في العشرة سنوات الثانية من القرن العشرين.

ويصدر الديمقراطي الثوري كتابة السياسي الأول، في سبتمبر 1952، بعنوان الديمقراطية السياسة مقدما برنامجا سياسيا للحركة الوطنية ومعلنا في نهاية الفصل الثاني

"وليست العبرة في نجاح الحكومات بتوفير الكفايات لأعضائها؛ وذلك لأن أي كفاية مهما كانت فذة لا تستطيع أن تنتج شيئا في بيئة معارضة ساخطة، وكفاءة أقل امتيا ازا قد تأتي بالمعجزات إذا أحاطتها بيئة محبة مطمئنة واثقة متعاونة. ومجموع الأمة هو الذي ينتج العبقريات الفردية؛ لأن الأمة هي التي تعمل وتنفذ، وليست للخطط والمشاريع أية قيمة عملية إذا لم تلق استجابة حماسية من جماهير الشعب، والشعب لن يمنح هذا التأييد وتلك الاستجابة إلا إذا أحس بأنه مساهم في تلك المشروعات، عن طريق اشتراكه في توجيه سياسة الدولة العامة، بمزاولته لحقوقه السياسية. وأيه حركة إصلاحية منعزلة عن الشعب لا يمكن أن تؤتي ثمارها كاملة، ولا أن يضُمن لها البقاء".

وليس هنا مجال تتبع المسار السياسي والاجتماعي الذي قاد، عبر فترات زمنية ، إلى تبلور هوية النظام الجديد ، ولكن هذا النظام يحتفظ ، دائما ، بشكل الحكم الذى تبلور واصبح لا يتسع للحركات الشعبية والنقابية المستقلة ولا لأبرز ممثليها ، فيعلن تنازل محمد مندور عن الترشح في انتخابات مجلس نواب 1957 برغم رفضه التنازل وفوز مرشح النظام بالعضوية بالتزكية ، ويجبر الديمقراطي الثوري على الاكتفاء بدورة الأدبي التنويري حيث يقف مدافعا عن الشعر الجديد وداعما للكتاب الجدد في المسرح والأدب القصصي محتضنا لهم ويخوض معارك فكرية كبرى في مواجهة بعض من أبرز الممثلين للتوجهات التي عجزت عن التطور وعن مسايرة العصر أو التي تتبنى توجهات تتجاوب مع بعض توجهات الدولة الغير متجانسة ، الأمر الذي جعل لويس عوض يتغنى بدورة حين يصف وقوفه في الخط الأمامي بصدرة العريض يتلقى الطعنات نيابة عنهم جميعا.

وبرغم أنه كان يؤيد التوجهات الجديدة في التصنيع والتعليم والسياسات الدولية، إلا أنه ينجوا من حملة اعتقالات 1959 بتدخل مباشر من أحد تلاميذه من ضباط الصف الثاني من الضباط الأحرار، الأمر الذي لا يجده لويس عوض أو أحمد رشدي صالح الذين يذهبوا الى المعتقل ليكسروا الحجارة، رغم عدم انتمائهم التنظيمي أو الفكري للمنظمات اليسارية.

ويستمر في جهده الأدبي الرائد، ولكنه يستمر يحلم بدور أوسع في الحياة العامة ويقدم طلبا للسماح له بالترشح في انتخابات 1963 لمجلس النواب يرفض طلبة بدعوى الاحتفاظ به لمهام أخرى!

ويبدو أن هذه المهام الأخرى هي فصلة من جريدة الجمهورية نهاية عام 1964 بدعوى عدم الجمع بين وظيفتين وهو نفس ما ينال أبرز ممثلي النهضة الأدبية الحديثة، أستاذه طه حسين، الذي يفصل هو الأخر.

ويشكل له الفصل عبئا نفسيا كبيرا ويعود من جديد للكتابة بالقطعة في مجلة روز اليوسف، وكأنه ما زال كاتبا صغيرا، وينشر مقالة الأخير بعد وفاته بأزمة قلبية عام 1965 وتتحقق نبوءته.

"أيه حركة إصلاحية منعزلة عن الشعب لا يمكن أن تؤتي ثمارها كاملة، ولا أن يضُمن لها البقاء".

ما بين النثر والشعر والدهشة

نعم ايها السادة انها الدهشة التي يبدو أنها قد أصبحت قرينة للانطباع الذى أخرج به كلما قرأت بعض من كتبه التى نشرت بعضا من اجزائها على هذا الموقع، ليست فقط الدهشة بل ايضا الاحساس بان نوافذ جديدة قد فتحت وإنك قد أصبحت أكثر قدرة على فهم تساؤلاتك التي كنت تحسها وتحاول الإجابة عليها وانت غير المتخصص.

ففى أحد مشاريعه النقدية الكبيرة لدراسة الشعر المصري الحديث يتوقف محمد مندور امام مسرحيات شوقي ليقدم لنا تصوراته حول النثر والشعر فيجيب على تساؤلاتك ويتأكد الانطباع الأول، الدهشة.

فلندع محمد مندور يتحدث

"شوقي والفن المسرحي

ليس من شك في أنَّ عنصر الدراما؛ أي الحركة، يُعتبَر العمود الفقري في الفن المسرحي، وكلمة «دراما» اليونانية الأصل، معناها الاشتقاقي هو الحركة، ومنذ القِدَم استعرض أرسطو في كتاب الشعر عند حديثه عن التراجيديا، الوسائل التي يولِّد بها المؤلِّفون المسرحيون هذه الحركة، فتحدَّث عن المفاجآت المسرحية المختلفة، وطرق قيادة الأحداث المسرحية إلى نتائجها النفسية والأخلاقية، ومن المعروف أنَّ المسرح الذي نشأ نشأة دينية عند اليونان القدماء، كان يعتمد أساسيًّا على الصراع بين البشر «والأنانكية»؛ أي الضرورة الكونية، التي كانتْ تختلط عندهم أحيانًا بالقضاء والقدر، بالرغم من أنهم كانوا يُخضِعون الآلهةَ ذاتها لتلك الضرورة، كما كانوا يُجرون ذلك الصراعَ أيضًا بين الآلهة والبشر، ولكنَّه لَمَّا كانتْ آلهتهم تتَّصِف بجميع صفات الإنسان بما فيها من مواضع ضعف وقوة، وكانتْ تستشعر جميع المشاعر البشرية بما فيها من قبح وجمال، فإنَّ هذا الصراع كان يتَّخِذ طابعًا إنسانيًّا بحتًّا، فالآلهة ترضى وتغضب، وتحب وتكره، وترتكب الآثام، وتخطف النساء، وتغار من البشر، وتفكِّر كما يفكِّرون، حتى ليمكن القول بأنَّ عنصر الدراما عندهم كان يقوم على أنواع الصراع البشري المختلفة أي الداخلية والخارجية؛ ولذلك عندما نشأ الأدب الكلاسيكي بعد عصر النهضة اعتمد هو الآخَر على عنصر الصراع في توليد الدراما، والظاهر أنَّ شوقي قد تأثَّر بهذا المذهب الكلاسيكي، فاعتمد في الكثير من مسرحياته على الصراع الذي يجري داخل النفس البشرية أو خارجها، على نحو ما نلاحظ في «مصرع كليوباترة» أو «مجنون ليلى» أو «عنترة»، ولكنَّه للأسف لم يستطع أن يتعمَّق ذلك الصراع على نحو يُثير الانفعالات القوية، أو التفكير العميق في نفس القارئ أو المشاهد، وكان ذلك لسببين:

أولهما: أنَّ شوقي قد أجرى الصراع بين العوامل النفسية والعوامل الأخلاقية، وقد لا يكون هذا الاختيار في مبدئه سببًا لضعف تأثير مسرحياته؛ فقد اعتمد كورني من قبْلِه على نفس الصراع بين المشاعر والأخلاق، وعلى الأخص بين الحب والواجب، ومع ذلك بلغ من التأثير والقوة مبلغًا رائعًا في «السيد» و«هوراس» و«سينا» وغيرها من مآسيه، ولكنَّ كورني لم يسلك مسلك شوقي، في تخيُّر المبادئ الأخلاقية التي يُدْخِلها في صراع مع العواطف البشرية؛ فالأخلاق التي يستند إليها كورني ترجع في جوهرها إلى ما يُسمِّيه علماء الأخلاق «أدب الرياضة والاستصلاح»؛ أي أدب رياضة النفس على الخير والحق والجمال، واستصلاحها على أساس قيادة الضمير

والاستماع لصوته الإلهي، وأمَّا شوقي فإنَّ مبادئ الأخلاق عنده تستَنِد إلى ما يُسمَّى بـ «أدب المواضَعة والاصطلاح»؛ أي ما تواضَع عليه المجتمع من عادات وتقاليد، لا تغوص جذورها في الضمير الفردي، ولا تَلقَى جزاءَها من وخزات ذلك الضمير، بل تستند إلى رأْيِ الجماعة في الفرد وحكمهم عليه، وجزاؤها يصدر عن رأيِ الجماعة أو القبيلة ومدى سيطرته على الفرد، وبذلك لم تصبح مبادئ الأخلاق عنده شيئًا مستقرًّا في أعماق النفس البشرية، حيث تستقر أيضًا المشاعر والعواطف والشهوات، بحيث يمكن أن يجري الصراع العنيف الذي يمزِّق النفس البشرية، ويُثير تفكير ومشاعر القارئ أو المشاهد حتى تلهث أنفاسُه ويرتفِعَ انفعالُه، وهذا واضح في مأساة المجنون مثلًا، حيث لا يجري الصراع في نفس ليلى بين الحب والواجب، بل بين الحب وتقاليد العرب، فهي لا ترفض الزواج من قيس؛ لأنَّ ضميرها يأبَى هذا الزواج؛ بل لأنَّ العرب تستنكر زواج الفتاة بمَن شبَّب بها وفضَح حبَّه لها، وفي «عنترة» نرى ألوانًا من نفس النوع الذي يستند غالبًا إلى تقاليد وأوضاع المجتمع لا إلى الضمير الفردي ومبادئ الأخلاق الشخصية.

والسبب الثاني: هو أنَّ شوقي لم يعمِّق حتى ذلك الصراع الذي أجْراه بين المشاعر الإنسانية والأخلاق الاجتماعية؛ ولذلك لا نَجِد في مسرحياته صِراعًا حقًّا عنيفًا، بل انتصارات سهلة يسيرة لمبادئ تلك الأخلاق على المشاعر الإنسانية، فنحن لا نلمح في مجنون ليلى آثارًا قوية لذلك الصراع، ولا تمزُّقًا داخليًّا عنيفًا يهزُّ مشاعرنا، وعلى العكس من ذلك يمرُّ هذا الصراع مرورًا هيِّنًا، فوالِدُ ليلى يفوِّض لها الأمر ويترك لها الخيار، فتفضِّل في يُسْر وسهولة وردًا الثقفي على قيس دون أن نُحِسَّ بأن هذا التفضيل قد كلَّفها عسيرًا، أو أثار في نفسها شجونًا، وإذا كان شوقي لم يَشَأْ أن يُنْطق ليلى أمامَ أبيها أو أهل قبيلتها، بما يُفْصِح عن هذا الصراع، فقد كانتْ لديه وسائل مسرحية معروفة يستطيع أن يصوِّر لنا هذا الصراع المؤثِّر بواسطة ما يسمُّونه بـ «الائتمان»، أو بواسطة «المناجاة»، والائتمان هو أن يَحْمِلَها على الإفضاء بمكنون سرها إلى صديقةٍ أو أمةٍ أو تابعةٍ تَثِق فيها، والمناجاة تكون بواسطة المنولوج الفردي الذي تخلو فيه إلى نفسها، تنفض مكنونها وتُظهِرنا على جراحها الخفية وآلامها أو آمالها الدفينة، ولكنه لم يفعل، بل إننا لنلاحظ أنه يُضْعِف أحيانًا جلال وروعة ذلك الانتصار الأخلاقي السهل، بإشارات عابرة لا ندري لماذا أقْحَمها، مع أنه لم يستغلَّها في سياق المأساة، ولا في تصوير الشخصيات تصويرًا كاملًا، أو في تزكية الأثر الذي تُحدِثه مسرحيته، وذلك على نحو ما نلاحظ في شخصية رئيسية كشخصية نتيتاس في مأساة قمبيز، فهذه الفتاة النبيلة يتضح من مجموع المأساة أنها ضحَّتْ بنفسها فداءً لوَطَنِها، عندما قبِلَتِ الزواج من قمبيز، حتى تمنعه من غزو مصر بعد أن علَّق هذا الغزو على قبول أو رفض فرعون تزويجه من ابنته، ومع ذلك يأبى شوقي إلَّا أن يُشير في مطلع مأساته إلى حبٍّ عاثرٍ كان بين نتيتاس وتاسو حارس فرعون، إذْ تخلَّى الأخير عنها وهجرَ حبَّها لينقله إلى نفريت بنت فرعون الحالي، الذي قَتَلَ والد نتيتاس، وبذلك ألقى في نفس القارئ شكًّا في نبل نتيتاس، وعظمة تضحيتها، وأصبحنا نتساءل هل كانتْ تضحية نتيتاس عن يأسٍ من حبها العاثر، أم فداء لوطنها؟ وفضلًا عن ذلك فإن ظروف نتيتاس، كانت تسمح بأن يصوِّر الشاعر في نفسها أنواعًا عاتية من الصراع؛ وذلك لأن نفسها لم تكن جريحةً بسبب غدر تاسو لحبِّها فحسب، بل كانتْ جريحة أيضًا بسبب قتْل فرعون لأبيها واغتصابه الملك منه، وليس بمعقول أن لا يكون لهذه الجراح أثرٌ عميق في نفسها، ولو أنَّ الشاعر عمَّق هذه الجراح، واستغلَّ المشاعر التي كان من الطبيعي أن تولِّدها في نفس نتيتاس، ثم غلَّب في النهاية داعيَ النُّبْل والوطنية الفدائية في نفسها لازدادتْ شخصيتها قوةً وجاذبيةً ونبلًا وإثارةً لمشاعر القُرَّاء والمشاهدين.

وهكذا يتَّضح لماذا لم ينجح شوقي النجاح الكامل في استغلال عنصر الصراع، الذي استغلَّتْه التراجيديا الكلاسيكية عند الفرنسيين، فوصلتْ إلى قمة الدراما والتأثير المسرحي.

ودراسة عنصر الدراما عند شوقي، يتطلَّب النظر أيضًا في طريقة استخدامه للحِيَل المسرحية الثانوية، مثل «التعرُّف» الذي استخدمه في تعرُّف آمال على أخيها مراد بك، في مأساة «علي بك الكبير»، وتعرُّف «حسون» على «بثينة» في مأساة أميرة الأندلس، وكذلك حيلة «المفاجأة» التي استخدمها في مفاجأة بشر لقيس في مأساة «المجنون»، وأيضًا وسيلتَي «الائتمان» «والمناجاة» في الكشف عن دخائل النفوس، وكل هذه حِيَلٌ معروفة مطروقة في الأدب المسرحي منذ أقدم أزمنته، وليس من الممكن المفاضَلة على نحو مطلق بين هذه الحيل؛ ففي بعض المواقف قد تَفضُل المناجاةُ الائتمانَ، وفي مواقف أخرى قد يصحُّ العكس، وموضع المؤاخذة ربما كان في إسرافه في المناجاة، حيث نُطالِع أو نسمع منولوجات غنائية طويلة، في مواقفَ حَرِيَّةٍ بأن تَعْقِد اللسانَ أو لا تُنطِقه إلَّا بالنَّزْر اليَسير، ولكنَّه شوقي الشاعر الغنائي الذي ينطلق على سجيته ليُطْربنا بقصائده الشجية التي تكاد تكون قِطَعًا غنائية قائمةً بذاتها لا أجزاء من مسرحية، على نحو ما نلاحظ في منولوجات كليوباترا وأنطونيو، أو وادي العدم، أو أغنية التوباد، وإن يكن من الملاحظ أنَّ مسرح شوقي قد تطوَّر، فقلَّتْ قصائد المناجاة، أو أَوْجزتْ في المسرحيات التي تلَتْ «مصرع كليوباترة» و«مجنون ليلى»، وازدادتْ أهمية الحوار وطبيعته.

ولو أننا نظرنا بإمعان في مسرح شوقي لوجدنا أنَّه يقوم على عناصر أخرى دخيلة على عنصر الدراما:

(١)ففي بعض الأحيان نَلقَى مشاهدَ قصصيةً ووصفيةً لا نتبيَّن علاقتها بعناصر الدراما، وهي أكثر صلاحية إمَّا للقصص أو للملاحم، ونحن نفهم أن يأتي القصص والوصف عرضًا في بعض الحالات داخل الحوار، إذا كان هذا الوصف أو ذلك القصص، يؤثِّر في عنصر الدراما أو يكشف عن جوانب نفسية من الشخصيات، ويفسِّر سلوكها، ولكننا لا نتبيَّن أحيانًا أيه علاقة بين ذلك الوصف أو القصص، وسَيْر الدراما أو شخصياتها، ونضرب لذلك مثلًا بالمشهد الذي يَصِف فيه الشاعر مرورَ موكب الحسين بن علي في صحراء الحجاز وتهليل العرب وتكبيرهم لذلك الموكب، ولقد يصوِّر هذا المشهد حقيقة تاريخية ثابتة في مطلع حكم الأمويين وهزيمة العلويين وظهور مذهب الشيعة في الحجاز، ولكننا لم نتبيَّن في المسرحية تأثير هذه الظاهرة في سَيْرها أو في أشخاصها، وكذلك مشاهد الجن وندوات غناء الغريض في نفس المسرحية، وذلك مع العلم بأنَّه حتى في مجال القصص الذي يتَّسع لتصوير البيئة يحرص القُصَّاص على أن يربطوا بين تلك البيئة وأحداث قصتهم وشخصياتهم، وفي مسرحية «أميرة الأندلس» نشاهد عدة لوحات استعراضية، تُصيب عنصر الدراما فيها بشيء غير قليل من البُطْء والتفكُّك، والظاهر أنَّ شوقي كان يطمع في أن يصوِّر البيئات التاريخية التي استمدَّ منها مواضيع مسرحياته، وهذا مطمع لا غبار عليه، ولكنَّ الفن المسرحي كان يقضي بأن يأتي هذا التصوير في تضاعيف عنصر الدراما، وأن يُربط به رباطًا وثيقًا، وإنَّه لَمِن الغريب أن نلاحظ أنه عندما يكون لوصفِ تلك البيئة تأثيرٌ مباشر على سَيْر الدراما نجد شوقي يلزم الصمت، أو الاقتضاب المخِلَّ في تصويرها، ولعلَّ هذا أوضح ما يكون في رواية «قمبيز»، حيث يوضِّح كيف أنَّ جنود اليونان المرتزقة، قد كانوا العنصر الغالب المسيطر في جيش فرعون، ثم يفاجئنا بأنَّ «فانيس» رئيس أولئك الجند، قد غدر بفرعون، والتَجَأ إلى «قمبيز»، حيث أَخْبره بالخديعة التي خدَعَه بها فرعون عندما زوَّجه بـ «نتيتاس» مُوهِمًا إياه بأنها ابنته، وذلك دون أن يُخبِرنا بسبب هذا الغدر ولا بواعثه.

(٢)والعنصر الثاني الذي يراه النُّقَّاد المحدَثون دخيلًا على الدراما هو العنصر الغنائي، وذلك باعتبار أنَّ شوقي قد وضع مسرحياته؛ لكي تُمثَّل، لا لكي تُغَنَّى فهي مآسٍ وملهاة، لا أوبرا ولا أوبريت، وهم يفسِّرون ذلك بأنَّ شوقي كان

شاعرًا غنائيًّا أقحم نفسَه على الفن المسرحي دون أن يستطيع التخلُّص من طابعة الغنائي، وهذا النقد صحيح، ولكنَّه لا يذهب بقيمة هذا الإنتاج الأدبي الجميل، ونحن نُصِرُّ على أنَّ مآسي شوقي الشعرية لو أُتِيح لها الموسيقيون والمغنون الذين يستطيعون تحويلها إلى أوبرا لأصابتْ نجاحًا كبيرًا، ومَن منا لا يطرب لـ «أنا أنطونيو وأنطونيو أنا»، أو «جبل التَّوْباد حيَّاك الحيا»، أو «تلفتت ظبية الوادي»؟! أو غيرها من المقطوعات التي لحَّنَها وغنَّاها المطرب محمد عبد الوهاب، فما بالُنا لو لُحِّنتْ كلُّ تلك المآسي من مطلعها إلى نهايتها ومُثِّلتْ بالغناء، وكلُّها مآسٍ تصلح بموضوعاتها ولوحاتها وأشعارها؛ لأن تكون أوبرات رائعة مستوفية لكافة العناصر، وبذلك يستمر المسرح المصري الغنائي في تطوُّره الغنائي، ويكمل ما ابتدأه «سلامة حجازي» و«سيد درويش.«

ويسوقنا هذا النظر إلى دراسة مسألة الشعر وصلاحيته للأدب المسرحي.

وبالرغم من أنَّ الأدب المسرحي قد نشأ شعرًا عند اليونان القدماء، واستمرَّ شعرًا عند جميع الكلاسيكيين، ثم عند عدد كبير من الرومانتيكيين، وظلَّ شعرًا عند بعض المحدَثين والمعاصِرين، مثل إدمون روستان، إلَّا أنَّ الجدل لا يزال قائمًا حول صلاحية الشعر للأدب المسرحي، بعد أن طغى عليه النثر، حتى كاد يُغرِقَه، وبخاصة بعد احتلال القصص النثرية مكان الصدارة في جميع الآداب، وتقهقُر الشعر حتى الغنائي منه، ونحن لا نريد استقصاء جميع النظريات التي تدور حول الشعر والنثر والمقارنة بينهما، وإنما نكتفي بعرض سريع لبعض تلك النظريات، التي تكشف عن اتجاهات ذلك الجدل، وهي نظريات قديمة متجدِّدة قِدَم الأدب وتجدُّده.

ففي سلسلة من المحاضرات التي ألقاها بول فاليري في الكوليج دي فرانس بباريس، عرض هذا الشاعر العظيم، نظريةً تُشْبِه النثر بالمشي، والشعر بالرقص، وهذه النظرية، وإن تكن وثيقة الصلة بالمذهب الرمزي الذي يَدِين به هذا الشاعر، الذي يعلِّق على موسيقى الشعر ونغماته الإيحائية الأهمية الأولى، إلَّا أنَّها مع ذلك تصدق إلى حدٍّ بعيد على مُعظم أنواع الشعر وأنواع النثر؛ فالنثر بوجهٍ عام سَيْرٌ نحوَ هدف هو: التعبير عن مكنون الفِكْر أو إحساس القلب؛ وهو لذلك وسيلة لا غاية، وأمَّا الشعر ففنٌّ جميل في ذاته يَقصِد إلى خلق الصُّوَر الجمالية أولًا، ويأتي التعبير فيه في المرتبة الثانية، ونستطيع أن نقرِّب للفهم هذه النظرية بمَثَل بسيط نسُوقه دون تخيُّر خاص؛ لأنه يكفي في إيضاح الفكرة، وليكن قولنا: «جاء وقت الظهيرة» فهذا التعبير النثري البسيط يُفصِح عن المعنى الذي نُرِيده، وهو يُشبِه السَّيْرَ نحو هذا الهدف التعبيري، وأمَّا الشعر فحرصه الأول ينصرف إلى خلق صورة جميلة تداعب الخيال، وهذه الصورة هي الهدف الأول للشعر، بينما يأتي التعبير في المرتبة الثانية؛ ولذلك يعبِّر الأعشى عن هذا المعنى بقوله: «وقد انتعلَتِ المَطِيُّ ظِلالَها.» فهذه الصورة، وإن تكن تُفِيد حلولَ وقتِ الظهيرة، إلَّا أنَّ المعنى يتضاءل أمام الصورة الشعرية في ذاتها، وكأنَّ هذه الصورة الجمالية رقْصٌ لغوي، وإذا صحَّتْ هذه النظرية يكون الشعر فنًّا جميلًا في ذاته، لا يُطالَب بتحليل خلجات النفس الخفية وخواطرها الهروب، بقدر ما يُطالب بخلق الصور الجمالية والإيحاء والتصوير بواسطة النَّغَم والإيقاع، وعلى هذا النحو يكون الشعر أصلحَ للوصْف والتصوير منه للتعبير والإفصاح اللذين يتطلَّبهما الأدب المسرحي، ويكون مجاله الغناء لا المسرح.

على أنَّ هذه النظرية قد عارَضَها الأدباء والمفكِّرون، منذ القِدَم وباستطاعتنا أن نعثُر عند العرب أنفسِهم على معارضة قوية لها، في قول صاحب «العِقد الفريد»: «زعمتِ الفلاسفة أنَّ النغم فضلٌ في المنطق لم يقْدِر اللسان على استخراجِه، فاستخرجتْه الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلمَّا ظهَرَ عشِقَتْه النفس، وحنَّ إليه الرُّوح؛ ولذلك قال أفلاطون: «لا ينبغي أن تمنع النفس من مُعاشَقة بعضِها بعضًا».» ومعنى هذا النص

الجميل أنَّ الشعر يَفضُل النثر؛ إذْ يجمع بين التعبير والنغم، وبفضْل هذا النغم يستخرج من النفس ما يعجز المنطق؛ أي التعبير، على استخراجه، ويظهر ذلك عندما نُرجِّع الشعر أي نترنَّم به دون الاكتفاء بتقطيعه إلى تفاعيل، أو قراءته في صمت، وكأنَّ النغم يستنزف عندئذٍ جزءًا من مكنون النفس البشرية، بقي متخلِّفًا بها بعد أن حملتِ الألفاظ إلى الخارج ما تستطيع حمله من ذلك المكنون؛ ولهذا تعشق النفس النغم؛ لأنه يحمل جزءًا منها، وكأنها بذلك تعشق بعضها بعضًا، وهذا المعنى أحسَّه الكثيرون من نُقَّاد الشعر في الشرق والغرب، ولقد كتب سليمان البستاني في مقدمة ترجمته للإلياذة، صفحات دقيقة نافذة عن أوزان الشعر العربي، وصلاحية بعضها لبعض الموضوعات دون الأخرى، وباستطاعتنا أن نضرب هنا مثلًا أو مثلين لإيضاح هذه النظرية الرائعة، ولنأخذ إحداهما من قول الشاعر أحمد زكي أبو شادي في حنينه إلى الماضي:

عودي لنا يا ليالي أمسنا عودي ....وجدِّدي حظَّ محروم وموعودِ

وموضع الاستشهاد هو أننا نلاحِظ تلك المدَّات المتلاحِقة، التي نُحسُّ منها الحنين إلى الماضي على نحوٍ أقوى مما تحمله دلالة الألفاظ، وكأنَّ النغم هنا وسيلة للتعبير العاطفي تُضاف إلى التعبير العقلي الذي تُفِيده الألفاظ، وبذلك لا يكون الشعر وسيلةً للتعبير فحسب، بل وسيلة مزدوجة تجمع بين العقل والعاطفة، أو تلوِّن العقل بالعاطفة.

وليكن المثل الثاني قول أحمد شوقي في وصْف كأس الخمر:

حفَّ كأسَها الحَبَبْ ....فهْي فضة ذهبْ

فالمعنى في ذاته قريب المنال، وهو أنَّ الحَبَب؛ أي فقاقيع الخمر الصفراء، تتصاعد بيضاء إلى حافة الكأس، ولكنَّ روعة البيت تأتي من تصوير الحركة التي يوحي بها إيقاعُه، الذي نكاد نرى معه تلك الفقاقيع، وهي تتصاعد تباعًا إلى حافة الكأس، وبذلك يصبح الشعر هنا وسيلة يجمع بين المعنى العقلي للألفاظ والإيحاء الحركي للنغمات.

ومن هذين المثالين يتضح أنَّ الشعر لا يعجز عن التعبير الذي يستطيعه النثر، بل على العكس يفوق النثر؛ لأنه يستطيع بواسطة النغم أن يستخرج اللون العاطفي للفكرة، أو يوحي بالحركة التي لا توحي بها دلالة الألفاظ في ذاتها.

وهكذا نخلص إلى أنَّ الشعر أداة صالِحة لكلِّ ضروب الأدب، بما فيها الأدب التمثيلي، ولكنْ «على الترجيع لا على التقطيع» كما قال بحقٍّ ابنُ عبدِ ربِّه نقلًا عن الفلاسفة؛ أي على أنْ يُترنَّم بهذا الشعر لا على أن يُقرَأ في صمتٍ أو أن يُلقَى في حوار، وفي رأْينا أنَّ هذا الترنيم يبلغ مداه وتتحقَّق وظائف النغم وقدرته التعبيرية والتصويرية، إذا تغنَّى بهذا الشعر، وبخاصة إذا كان شعرًا غنائيًّا بخصائصه الجمالية المعروفة، على نحو ما جاء شعر شوقي في أدبه المسرحي، وبذلك ننتهي إلى النتيجة التي سبق أن سُقْناها، وهي أنَّ مسرح شوقي، وبخاصة مآسِيه الشعرية ترتفع إلى القِمَّة إذا لُحِّنتْ وعُرضتْ في دُور التمثيل كأوبرا.

المزاج الجماهيري وديماغوجية السياسة

طفح الكيل وأصابني السأم من هذه الديماغوجية التي تنز علينا من الخارج والداخل ومن الباب للشباك، وليتها كانت ديماغوجية عميقة تعيد تفسير الواقع والوقائع انطلاقا منها كي تقدم رؤية ديماغوجية تحاول إعادة تشكيل الرأي العام، بل مجرد استجابة بليدة لبعض توجهات المزاج الجماهيري وخضوعا لها دون فهم منابع هذه التوجهات بما يجعلك تشك أن أحدا لم يتعلم سواء من التاريخ أم من الخبرة المباشرة التي عاشها العديدون منذ سبعينات القرن الماضي إلى الآن.

أن أي تيارات سياسية أو ثقافية او فكرية تخضع للمزاج الجماهيري أو لبعض توجهاته وتستجيب له وتتزايد علية لن يكون مصيرها إلا العزلة، عندما يتغير المزاج الجماهيري، والمؤسف أنها لا تدرك أنها، في استجابتها لهذا المزاج، تصبح في ذيله حتى ولو كانت تبدو وكأنها تقوده.

ولكن عدم الخضوع للمزاج الجماهيري لا يعنى عدم إدراكه وكيفية التعامل معه، فأي قوى سياسية او فكرية او ثقافية تختلف مع توجهات المزاج الجماهيري، عليها أن تغير من لغة خطابها وليس عن أهدافه، إذا كانت تمتلك رؤية مختلفة ، وإلا كان مصيرها مثل مصير التعساء الذين حضروا اجتماع فيرمونت البائس ولبقت الصور الفوتوغرافية دليلا على الخطأ الفادح الذى وقع فيه بعض من الشرفاء عندما توهموا أن التحالف مع الشيطان قد يكون سبيلا للخلاص.

لماذا نحبهم ولا نختلف حولهم؟

لماذا لا نختلف حول قدرات الممثلون العظام؟ ولا اقصد بذلك تقدير النقاد لهم، بل اتحدث عن الرأي العام الذى ما زال يحتفظ بتقديره لهم رغم انتقالهم الى الرفيق الاعلى.

هل نستطيع أن ننسى سناء جميل ومحمود المليجي وزكي رستم وصلاح منصور وهدى سلطان وفاتن حمامة، ولماذا لا نستطيع؟

فلماذا لا نبحث عن السر الغير خفي في فن التمثيل؟ فلنسأل الدكتور محمد مندور! فهكذا كتب في كتابه " في الأدب والنقد"

الشروط الأساسية في التمثيل هي إجادة الفهم والحركة والإلقاء:

الفهم:

وليس الفهم مجرد قابلية، بل هو أي اضا عمل إيجابي؛ فالممثل الذي يجيد الفهم يضيف إلى الشخصية التي يمُثلها ويساهم في خلقها؛ لأنه في الواقع هو الذي ينفث فيها الحياة التي لا تحدُّها عبارات المؤلف، وإنما تشير إليها مجرد إشارة، وطريقة فهم الممثل للدور الذي سيلعبه من مواضع النقد المهمة؛ وذلك لنعرف إلى أي حد قد جارى المؤلف وإلى أي حد خالفه، وهل أصاب في هذه المخالفة أو أخطأ، وهل هي من حقه أم لا، وموقف الممثل شبيه بمواقف النقاد. وإذا كان النقاد قد أضافوا إلى ما أراده المؤلفون أنواعا من الفهم لا حد لها؛ حتى جرت على ألسنة كبار المفكرين ومؤرخي الأدب جمل، مثل قولهم: «ليس هاملت ما خلقه شكسبير، ولكن هاملت هو الإناء الذي سكب فيه النقاد أفكارهم» — إذا كان هذا ما فعله النقاد، فإن القياس بينهم وبين الممثلين يعطي التوجيه نحو مدى حرية الممثل، وحقه فيه عندما يحاول فهمَ دور من الأدوار.
وليست هناك قاعدة عامة بالضبط، فالأمر كله راجع إلى حسن تقدير الناقد، والمقارنة بين النصوص وبين طبيعة الفهم التي اختارها الممثل؛ لإيضاح إمكان هذا النوع من الفهم أو عدم إمكانه، وفطنة الممثل أو غباوته.

الحركة:

والصفة الأساسية التي يجب أن تتوفر للممثل هي قوة الخيال حتى يجعل المتصور حقيقة، وبذلك يحيا دوره، والخيال هو الذي يحرك الانفعال، ويخلق بواعثه ويجسمها، والملاحظ عادة أن المقدرتين: قوة الخيال ،والمقدرة على الانفعال — متلازمتان؛ وذلك لما هو بديهي من أن الإنسان لا يستطيع أن ينفعل إذا كان عاجزا عن تصور بواعث هذا الانفعال وتجسيمها بقوة الخيال، كما أنه من الشاق أي اضا أن نتصور خيالا قادرا على تجسيم الواقع، ثم لا يتحرك صاحبه إلا في الحالات الشاذة، والأمر كله متوقف على الجهاز العصبي للممثل.

ويتصل بالقدرة على الانفعال ضرورة توفر خصائص عضوية، وبخاصة في الوجه والملامح ومرونة العضلات، وإن تكن هذه الصفة ألزم في السينما منها في المسرح؛ إذ إن السينما هي التي تستطيع أن تمكن المشاهدين من مراقبة الحركة العضلية للوجه، وهذا هو السبب في نجاح بعض كبار الممثلين في السينما نجا احا فاق نجاحهم في المسرح، ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك الممثل الفرنسي «هاري بور.»

وأما حركات الجسم بوجه عام، فللمخرج فيها دور يفوق دور الممثل، وهو عادة المسئول عن اتجاهاتها، وإن كان الممثل هو المأخوذ بنسبها، وللنسب أهمية بالغة؛ لأنه كثي ارا ما يتوقف عليها تسديد الإحساس أو إفساده، والوقوف عند الطبيعة أو تجاوزها إلى التصنعُّ، والأمر فيها مرده إلى حسن تقدير الممثل وجودة فهمه للدور الذي يلعبه. ولثقافة الممثل ونوع حياته ووسطه الاجتماعي دخل قوي في تكوين هذا التقدير وغرس الفطنة في نفسه لفهم قيمة النسب.

وتأتي الصعوبة من أن حركات وسكنات الممثل لا يقوم بها لذاتها، وإنما للتأثير بها في المشاهدين، وطريقة التأدية إنما تكونت الفكرة عنها خارج المسرح وفي حياته الخاصة؛ وهو يكيف حركاته وسكناته تبعا لهذه الفكرة.

الإلقاء:

وطريقة الإلقاء مرتبطة ارتباطا وثيقا بفهم الممثل لدوره، وبقوة خياله ومقدرته على الانفعال، وإحساسه بالنسب، وضرورة التجسيم، ومدى اندماجه في الدور الذي يمثله، يضاف إلى كل ذلك بالطبع معرفته باللغة أو على الأصح إحساسه باللغة؛ وذلك بمعرفة تتابع الجمل وأنواعها المختلفة: تقريرية، أو إنشائية من ح ضٍ إلى تم نٍ إلى استفهام إلى تعجب إلى أمر إلى نهي، ثم الوصل والقطع وأنصافهما، ولهذا علم قائم بذاته يسَ ُمَّى عند الغرب بعلم الأساليب، وهو يقابل علم المعاني عند العرب، وإن اختلف عنه في تعليقه أهمية كبيرة على الجانب العاطفي في اللغة.

ومسألة الإحساس باللغة — مفردات كانت أم جم الا — مسألة جوهرية، فلكل لفظة لون عاطفي، وحتى الألفاظ التي تعبر عن معانٍ عقلية لا بد من أن نعطيهَا شيئا من حرارة العقل.

صمت الممثل من ناحية الإلقاء:

وليس التمثيل كله إلقاء وكلاما، بل هو أيضا صمت وإدراك لقيمة هذا الصمت ومواضعه وطوله أو قصره، ولما كان المؤلفون قلما يشيرون إلى هذه المواضع؛ فإن هذا الإغفالَ يترك للمخرج والممثل عملا إيجابياً في تحديد مواضع الصمت وزمنه. وهناك أمارات يستطيع المخرج والممثل أن يقع عليها في ثنايا الحوار لتحديد مواضع الصمت وزمنه، كأن تكون هناك مفاجأة، أو انفعال شديد، أو حركة مسرحية، أو استجمام، أو ضعف في الذاكرة أو تقطع في الحوار.

وأشق موضوع في الإلقاء هو المنولوج، وهي تحتاج في إلقائها لفن دقيق حتى لا يغمرها الإملال، ولعل هذا هو السبب في أن المسرح الحديث يحاول دائما تجنبها، والممثل يحتال بالحركات على تمثيل المنولوجات غير مكتفٍ بالإلقاء فحسب. والمنولوج إما أن يتناول حياة الممثل الماضية، وهنا يتغير الإلقاء بحسب فترات تلك الحياة وما سادها من رخاء أو شدة، ومن فرح أو ألم — وإما أن يتناول نجوى النفس وما فيها من أسرار، لا تريد الشخصية الروائية أن تبوح بها أمام الغير؛ فالحديث هنا يكون موجها من النفس وإليها، ويجب أن يسود الإلقاء حينئذٍ معنى الألفة والإخلاص؛ فالكلام عندئذٍ أشبه بالصور العقلية التي تتوارد على الخاطر منه بالألفاظ المنظومة التي تلُ ْقَ كخطبة.

وهذان النوعان أقل مشقة من نوع ثالث، هو الذي يقص جانبا من أحداث الرواية، وبخاصة وأن هذا النوع لم يلجأ إليه إلا كبار الكُتَّاب الذين يؤمنون بأنهم يملكون من قوة القصص ما يغْني عن المشاهدة، بل يفوقها تأثيرا.

ولقد ضرب الكاتب الفرنسي «جورج دي هامل» لهذا النوع من المنولوجات مثلا بمأساة «هيبوليت»؛ إذ آثر «راسين» أن يرويها مصاحب له نجا من الموت، وعاد ليخبرنا بما لاقى المسكين من موت وتمزيق أوصال؛ فالمؤلف قد فضل القصص على المشاهدة، وهنا يلُ ْقَ على الممثل عبء جسيم؛ إذ المطلوب عندئذ ليس فقط تجسيم الحادثة، بل الجمع بين هذا التجسيم وبين الأثر الذي يحدثه، وإظهار كل ذلك في التمثيل والإخراج.

تمثيل المناظر الشاذة:

وتعرض للممثل حالات كثيرة يمثل فيها شخصيات شاذة، والمقياس هنا أي اضا هو الطبيعية في الشذوذ ذاته، ولكي يتقن الممثل تمثيل دور شاذ لا بد من تكراره عدة مرات؛ حتى يألفه وينجح في المطابقة بين الأقوال والحركات وتعبيرات الجسم المختلفة، ولا شك أن إلمام الممثل بشيء من علم النفس وعلم الأمراض العقلية مما يساعد على حسن القيام بمثل هذه الأدوار وفهمها الفهم الصحيح

وكيف كان هذا؟

وكيف عثر بلزاك على بلزاك

يدعون انى استطيع أن اعبر عن نفسى حين أكتب، وهو أمر كان مفاجأة لي ، فلم أكن أعتقد أني أمتلك هذه المقدرة ، فقد كان اعتقادي أني قارئ محترف ، ومنبع هذا الاحتراف هو النهم الى المعرفة وإلى الخيال الذي تطلقه القراءة بحيث أصبحت سريعا جدا ، نهم نشأ منذ الطفولة عندما أخذني أبي إلى كامل الكيلاني ، فأهداني انا واخى كل كتبه ، فلم أخرج من غرفة النوم لمدة شهر كامل التهمت فيها كل الكتب.

فهل أهتدي خالد الى خالد مثلما فعل بلزاك عندما كان يحاول الكتابة، كما كتب محمد مندور في المقال المرفق.

أن الكتابة عمل خطير يجب أن يؤخذ بالجدية اللازمة، ولكنها، في النهاية، تعبير عن كينونتك الشاملة، عن ملكاتك النفسية والثقافية واحساسك الشعري بالكلمات والصياغات.

ولا أريد أن استطرد فلا يفتى ومالك بالمدينة، ومالكنا هو محمد مندور في كتابه في الأدب والنقد الذي أصدره عام 1949، هذا الكتاب الذى أعيد قراءته كي افهم .

النقد اللغوي

اللغة هي المادة الأولية للأدب، وهي بمثابة الألوان للتصوير أو الرخام للنحت، بل لا شك أنها ألصق بموضوع الأدب من هذه المواد الأولية لموضوع فنونها؛ وذلك لأن الفكرة أو الإحساس لا يُعْتَبَرَان موجودين حتى يسكنا إلى اللفظ، وكثيرًا ما تكون المشقة في إخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ، وأما قبل ذلك فلا وجود لهما على الإطلاق، وكثيرًا ما يكون الخَلْق الفني مستقرًّا في العبارة ذاتها، بحيث إنك لو أعدت التعبير عن الفكرة أو الإحساس لانتهيت إلى شيء مغاير للخلق الفني الأول. فمثلًا الشاعر العربي الذي يقول للتعبير عن وقت الظهير: «قد انتعلت المطيُّ ظلالَها» لا يقصد التعبير عن أن وقت الظهيرة قد حان، بل يقصد خلق صورة فنية؛ وهكذا يتضح أن اللغة لم تَعُد وسيلة للتعبير، بل هي خَلْق فني في ذاته، وإلى مثل هذه الأفكار أشار أحد كبار الكُتَّاب عندما سُئِل: أيهما أهم، اللفظ أو المعنى؟ فأجاب بسؤال آخر: أيُّ شفرتَي المقص أقطع؟ وإذا كانت اللغة على هذا الجانب العظيم من الأهمية، فإن الإلمامَ بها إلمامُ إحساس ومعرفة — ولا معرفة عقلية فحسب — هو سر الكتابة وهو هبة الأسلوب؛ وذلك لأن للألفاظ أرواحًا يجب أن تُدْرَكَ. وهكذا يتضح أن معرفة علوم اللغة من نحو وصرف وغيرها ليست كل المعرفة، وإن تكن أساسًا صُلبًا لا يمكن التسامح فيه، وإنما يجب أن نتعدَّى هذه المعرفة إلى المعرفة العاطفية التي أشرت إليها، وهي — وإن يكن مرد معظمها إلى هبات النفس — إلا أنه يمكن اكتساب الكثير منها بطول القراءة والإمعان فيما نقرأ. وتظهر عادةً مقدرةُ الكاتب على الإحساس باللغة في استعماله للصفات إن قسطًا وإن إسرافًا، ومواضع هذه الصفات أيضًا أمر بالغ الأهمية، والمُلاحَظ عند كبار الكُتَّاب أنهم يؤثِّرون ويهزُّون المشاعر بالوقائع المادية وجمعها جمعًا متلاحقًا في تصاعدٍ قويٍّ بحيث لا يُصْدِرُون حكمهم إلا في النهاية وعلى نحو خاطف.

فلو أنك مثلًا — كما يقول المؤرخ «تيير» — أردتَ أن تصف بطولة جيش نابليون في عبور الألب، فأخذتَ تُسْرِفُ في اللفظ، وتنثر هنا وهناك الصخور والثلوج، لما وصلت إلى شيء غير إملال القارئ، وخير من ذلك كله أن تحدِّد الأشياء بدقة، فتذكر عدد الفراسخ التي سارها هذا الجيش، وتصوِّر الأمكنة التي عندها لم تستطع الدوابُّ أن ترتفع، ولم يعد يستطيع الصعودَ إلا الإنسان، ثم تُعطي القارئ أرقامًا وأوزانًا عن العُدَدِ الحربية والذخائر والمؤن التي حُملت إلى تلك المرتفعات الشاهقة، وعندئذٍ — كما يقول «تيير» — إذا افترَّتْ شفتا الكاتب الدقيق عن كلمة إعجاب، فإن هذه الكلمة ستذهب رأسًا إلى قلب القارئ؛ لأن الإعجاب سيكون قد تولَّد بالفعل، ولن تكون العبارة عنه إلا مجرد استجابة لهذا الإعجاب.

والنقد اللغوي يتطلب معرفة صحيحة بتاريخ وتطور دلالات الألفاظ، وبخاصة الصفات والألفاظ العاطفية والمعنوية؛ وذلك لأنه إذا كانت أسماء المادِّيات ثابتةً فإن المعانيَ المعنويةَ والعاطفيةَ دائمةُ التحوُّل، وكثير من الكُتَّاب في كافة اللغات يُجدِّدون من وسائل الأداء برجوعهم إلى المعاني الاشتقاقية للألفاظ، ومن واجب الناقد أن يفطن دائمًا إلى التمييز بين المعنى الاصطلاحي والاشتقاقي؛ حتى لا يُخطئ فهمَ الكاتب أو يحمله ما لا يريد. ولنضرب لذلك مثلًا بلفظة «الزكاة» فمعناها الاشتقاقي هو التطهير، وأما معناها الاصطلاحي فمعروف في الدين الإسلامي، والفرق بين المعنيَيْنِ كبير.

وهناك في النقد اللغوي مسألة جسيمة هي مبلغ الحرية التي يستطيع الكاتب أن يتحرك في حدودها، وفي القرآن نفسه خروجٌ في غير موضع على قواعد النحو الشكلية، ولقد التمس علماء البلاغة لأمثال هذا الخروج مبرراتٍ بلاغية، ولعله يكون من الخير التزمُّت النحوي عند نقدنا للكُتَّاب الناشئين؛ حتى لا يُخفون جهلهم خلف بلاغة

مدعاة، وإنما يباح الخروج على القواعد لكبار الكُتَّاب الذين لا يعدلون عنها إلا عن قصد وبينة؛ وذلك لأن أمثال هؤلاء يحتجُّ بهم على اللغة، ولا يحتجُّ باللغة عليهم ما دامت اللغة كائنًا حيًّا تتطور وعقليةَ من يتكلمونها. ولقد تميز في الغرب كُتَّاب بما في أسلوبهم من نتوءٍ لا يعدو أن يكون خروجًا على الدارج من الاستعمالات والتراكيب، وهذا النفر يُطلق على الطريقة التي يبنون بها عباراتهم «كسرُ البناء». ومن النقاد وبخاصة في الغرب مَنْ يرون أن اطراد الصحة اللغوية بمعناها الدارج لا يصدر عنه إلا أسلوب مسطح لا جدة فيه ولا رونق له، وهم يؤيدون رأيهم بالحقيقة الإنسانية المعروفة من أن الكمال المطلق مملٌّ في ذاته، وأنه من الخير أن تأخذ الكُتَّابَ من حين إلى حين نزوةٌ من شيطان الأدب تخرج بهم عن التعبير المتوقع المألوف، كما تصيبهم نفس النزوة أحيانًا في مجال الفكر، فلا يأتون بالفكرة التي يوجبها السياق، بل يصدمون القارئ بما لم يتوقع فتصحو أعصابه.

وفي أسلوب القرآن ذاته أمثلةٌ رائعةٌ يمكن أن تُسَاقَ للاستشهاد على هذه الحقائق، وذلك مثل استعماله الإفراد بدلًا من التثنية في قوله تعالى فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، أو بالإفراد عن الجمع كقوله: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، وكذلك تقديم الضمير على ما يفسره في الآية: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى إلخ.

وإذا كان هناك أسلوب يستحق أن يُحَاربَ من كل ناقد يخدم فنه فإنما هو أسلوب الذاكرة، فالكاتب الذي يكثر من استخدام التعابير المحفوظة التي طال استعمالها؛ حتى هزلت وامَّحَتْ معالمها كالنقود التي يأكلها التَّحَاتُّ من كثرة التداول — لا يوصَف إلا أنه كاتب مصابٌ بالكسل العقلي، ومن واجب الناقد أن يضطرَّه دائمًا إلى أن يبحث — ككاتب — عن تعبيره هو عن فكرته بدلًا من أن يلجأ إلى استعارة ذلك التعبير من كتابة الماضي. ثم إن كثرة استخدام المحفوظ لا بد أن ينحرف بالتفكير عن اتجاهه أو تلوينه العاطفي على الأقل؛ وذلك لأن الأفكار ذاتها — فضلًا عن الإحساسات — لا يجوز أن تخلو من العنصر الشخصي الذي يعطيها جدتها، وكثيرًا ما نلاحظ عند كُتَّاب الذاكرة أنهم يتمحلون الوسائل عند سياق أفكارهم ليمهِّدوا لما يحفظونه. ووجوب تعبير الكاتب عن فكرته أو إحساسه بعبارته الخاصة هو السبيل لإثراء اللغة وتجديدها، وعلى هذا يجب أن يتوفَّر مجهود الناقد، وإنه لمن الحمق أن يُقَالَ: إن ثروة أو غنى لغة ما يتوقَّف على عدد ألفاظها، وإنما ثروة اللغة تُقَاس بالثروة الفكرية والعاطفية، التي استطاعت تلك اللغة أن تعبِّر عنها؛ فالعبرة إذًا بكمية التعابير وتنوُّعها ودقتها لا بكمية المفردات. وآفة اللغة العربية وكُتَّابها بوجه خاص هي عدم الدقة، وكثيرٌ من المؤلِّفين لا يُدركون أن الكتابةَ الجيدةَ هي تلك التي لا تستطيع أن تُحل فيها لفظًا مكان آخر، وليس في اللغات مترادفات، وهذا ما يجب أن يدركه كل كاتب، وتلك قاعدة تصح ويجب أن تصح حتى بالنسبة للصفات التي أصبحت أسماء فلاحت مترادفة كأسماء السيف والأسد وما إلى ذلك، ولنضرب لذلك مثلًا بالمهنَّد والصارم. وعدم الدقة كثيرًا ما يظهر بنوعٍ خاص في استخدام الصفات؛ وذلك بسبب حقيقة لغوية ثابتة هي أن كثيرًا من الصفات لم تَعُدْ صفات تمييز بل صفات درجاتٍ في التعبير، فإنك لو قلت: «جميلًا جمالًا مخيفًا» مثلًا، لكان من الواضح أنك لا تستخدم لفظ «مخيف» لتمييز هذا الجمال، بل للدلالة على درجته؛ حتى لنلاحظ في كافة اللغات أنه قد يُجْمَع بين الأضداد من الصفات نزولًا على هذه الملاحظة، ولكنه بالرغم من هذه الحقيقة يجب محاسبة الكُتَّاب حسابًا عسيرًا على استخدام الصفات بوجه عام؛ لأن نوع الصفات المستخدمة كثيرًا ما يدل على نضوجٍ أو فجاجةٍ في التفكير؛ فالكاتب الفجُّ محمول على المبالغة، والنضوج اتزان في غير ضعف، وقوة في غير إسراف لفظي، مثل هذا النقد لا يمكن أن يكون إلا في مصلحة الكاتب، وكل كاتب لا رأس مال له غير ثقة القارئ، ولا شيء يذهب بهذه الثقة مثل الإسراف.

وأسلوب الكاتب يمزج عادة بين مادة الفكر ومادة الإحساس، ولا يصحُّ للناقد كما لا يصح للكاتب أن يجعلَ من المادَّتَيْن مبدأين مختلفين، ومن الواجب أن نلفت الكُتَّاب دائمًا إلى سر كبير من أسرار الأسلوب وهو أن الكتابة الجيدة هي ما يمر فيها الفكر بالإحساس والإحساس بالفكر؛ حتى ليصح أن يقال: إن الكاتب الجيد يفكر بقلبه ويحس بعقله، وإذا كان هناك خطر على الكاتب من جفاف الفكر، فإن هناك خطرًا لا يقل عن الأول من «طرطشة» العاطفة. والتلوين العاطفي للفكرة قد لا يحتاج إلى تعبير خاص، بل يأتي من طريقة بناء الجملة إن استفهامًا وإن تعجبًا وإن حضًّا وإن تقريرًا، أو باستخدام أدوات اللغة الثانوية كحروف العطف والاستفهام وما شاكل ذلك، مما تجدونه مفصَّلًا في كتابَيْ عبد القاهر الجرجاني «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز.«

وأما انتشار الفكرة وسط الإحساس لإضاءته فأمر أشق من الأول، ولكنه مستطاع باستخدام شيء من منهج المنطق، وتأتي الصعوبة من أن للشعور منطقًا يخالف منطق العقل، ولكنها صعوبة تذلَّل بوضوح الرؤية الشعرية أمام الكاتب؛ فالكاتب المهيمن لا يعدم أن يراه بما يشبه الرؤية البصرية، وتمييزه لذلك الإحساس عما يختلط به من أحاسيس ثانوية، ثم تحديده له على وجه دقيق — كافٍ لإعطائه الصفة العقلية التي نتحدث عنها.

والكاتب الجيد قلَّما يستريح إلى أنه استنفد فكره أو إحساسه، وليس من شكٍّ في أن الكتابة صنعةٌ كغيرها من الصناعات، وليس بصحيحٍ أن الشاعر يُغرِّد بالفطرة كالعصفور، فلا بد إلى جانب الموهبة النفسية من إتقان أصول الكتابة، وفي كل مُنشئٍ ناقد كامن. ومن طريف ما يُرْوَى كلمةٌ للكاتب الفرنسي «ديهامل» قالها عن «بلزاك» و«رودان» فقال عن الأول: إنه قد سَوَّدَ مئاتِ الصفحاتِ قبل أن يعثرَ على «بلزاك». أي إنه استمر في الكتابة حتى عثر على نفسه ككاتب ذي شخصية وأسلوب. وقال عن الثاني: «إنه قد اصطفت قدماه سنين طويلة بالغرفة المجاورة لمعمل فنه» أي إنه قد أنفق وقتًا كبيرًا في المِرَان قبل أن يدخل معمله الذي عمل به تماثيله الخالدة.

ومقياس الجودة في صناعة الكتابة مقياسٌ واحد لا نعرف غيره، وهو أن تكون الصنعةُ مُحْكَمَةً إلى حدِّ الخفاء حتى لتلوح طبيعية، وهذا معنى السهل الممتنع، وأوضح ما يكون ذلك في الموسيقى اللفظية، فهناك موسيقى واضحةٌ كاللون الفاقع تسهل محاكاتها، وهذه ليست بأعمق الموسيقى العميقة؛ فهي موسيقى النفس لا موسيقى اللفظ، وكثيرًا ما تخفى على القارئ العادي، ولكنها دائمًا أصيلة، تعز محاكاتها وتفعل في النفس فعلًا لا يعيه غير القليل من القراء.

وليس من شكٍّ في أن للنثر وزنًا وإيقاعًا كما هو الحال في الشعر، وإن كان أخفى وأقل اطرادًا، ولقد درست أوزان النثر في أوربا، كما درست أوزان الشعر تمامًا، والمقصود بالأوزان هو وجود أمرين:

(١) الكم والإيقاع. Quantite et Rythme

(٢) الانسجامات الصوتية. Harmonie Vocalique

الكم والإيقاع:

الكم: : هو الزمن الذي تستغرقه الجملة في نطقها، ومن الواجب أن تكون هناك نسب بين الجمل المختلفة؛ من حيث كمُّها عن طريق التساوي والتقابل.

والإيقاع: عبارة عن تردُّد ظاهرة صوتية، بما في ذلك الصمت على مسافات زمنية متساوية أو متقابلة.

والإيقاع موجود في النثر والشعر مع فارق جوهري واحد هو: أنه في النثر تتطابق الوحدات الإيقاعية مع الوحدات اللغوية، وأمَّا في الشعر فضرورة المساواة بين الوحدات الإيقاعية كثيرًا ما تقضي بأن تنتهي في وسط اللفظ دون أن تكمل الجملة.

وكل نثر لا بد له من إيقاع ما دام الكلام بطبيعته لا بد أن ينقسم إلى وحدات.

وتتميز أنواع النثر بجمال إيقاعها أو قبحه، وليس الجمال دائمًا في الاطراد، فالاطراد كثيرًا ما يُفضي إلى حد الملل، وهذا واضح من الأساليب المصنوعة وبخاصة المسجوعة.

ويميز النقاد بوجه عام بين نوعينِ من الأساليب النثرية؛ هما:

(١) الأسلوب المموَّج. Style Perlodique

(٢) الأسلوب المهشَّم. Style Haché

والأسلوب المموَّج يمتاز بطول جمله.

وأما المهشَّم فتتقصر فيه الجمل فتتلاحق.

ولعل في أسلوب القرآن ما يوضِّح النوعين: فالمكي مهشَّم، والمدني مموَّج.

ومن الراجح أن يكون تمييز هذه الأساليب صادرًا عن الموسيقى النفسية لكل كاتب، ويجب أن نحسب أيضًا لموضوع الكتابة حسابًا؛ فمن المسلَّمِ به أن الخطابة غير التقرير.

الانسجامات الصوتية:

نلاحظ أن العرب قد درسوا مخارج الحروف، وطرق النطق بها في علوم التجويد والقراءات. وبالرغم من أنهم درسوا مخارج الحروف، وفطنوا إلى وجود أفعال وأسماء أصوات ترتبط فيها المعاني بوقع تلك الأصوات، وتساهم في نقل المعنى أو الإحساس، وبالرغم من أنهم درسوا انسجام الأصوات في علم الفصاحة؛ من حيث الخصائص السلبية لها من نحو انتقاء التنافر والتعقيد، وبالرغم من أن بعض علماء اللغة قد فطن إلى وجود علاقة إيجابية بين بعض الأصوات ومعانيها على نحو ما لاحظ «الزمخشري» في «الكشاف» من أن الأفعال التي تبدأ بنون وفاء تفيد معنى المضي والنفاذ: كنفد ونفذ ونفق — على الرغم من هذا كله لم يدرس العرب خصائص الأصوات من الناحية الإيجابية، ولم يُبيِّنوا ما توحي به كل مجموعة من الأصوات، وما تعيَّن على نقله إلى الغير من معنى أو إحساس على نحو ما نجد مثلًا في شطر البيت:

عودي لنا يا أغاني أمسنا عودي وجددي ذكر محروم وموعود

ففي الشطر الأول نجد أن المقاطع الطويلة تتكون من مدات، وكان يمكن أن تُسْتَبْدَلَ المدات بحروف ساكنة ويستقيم الوزن، ولكن إحساس الشاعر أبى أن يسكن إلا إلى هذه المدات التي تماشيه في استنفاد إحساسه.

وعلى عكس العرب درس الأوربيون خصائص الأصوات من الناحية الإيجابية، وعلاقة كل مجموعة منها بالمعاني والأحاسيس.

التطور الاجتماعي وذكرى أبي ....مؤنس

بالقطع فهي ليست تجديد ذكرى ابي العلاء، بل تجديد ذكرى طه حسين، الذي لا تحتاج ذكراه الى التجديد، فما زال حاضرا بقوة في الحياة الفكرية والثقافية، ولكن هذا التجديد لذكري مختلفة له، ذكري علاقة تطور طه حسين مع التطور الاجتماعي والثقافي المصري.

فحياة طه حسين الفكرية والاجتماعية، بل والسياسية، تقدم لنا مزيدا من الوضوح عن تطور مصر الاجتماعي والثقافي، كما تقدمها حياة القطبين الكبيرين الأخريين، سلامة موسى والعقاد.

فطه حسين يلتحق بالجامعة المصرية عند تأسيسها سنة 1908 ، في نفس الوقت الذي يستمر على المداومة على دروسه الأزهرية متململا من تخلف دراستها ، وهى نفسها اللحظة التاريخية التي كانت فيه الحركة الوطنية المصرية تتطور محاولة الخروج من أسر الارتباط الفكري بالدولة العثمانية بعد أن انتكست بهزيمة ثورة 1882 ، لحظة شهدت البدايات الأولى لتأسيس الرأسمالية المصرية الحديثة ، لحظة بدايات تأسيس التيارات الثقافية المصرية الحديثة على يد حزب كبار الملاك ، حزب الأمة ، وليس على أيدى الحزب الوطني المتمرد على الاحتلال الأجنبي والاعلى نفوذا بين الجماهير الشعبية ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد.

ويكون الصدام الأول بين الجامعة والأزهر، بين التيارات الفكرية الحديثة والتيار التقليدي الرتيب، فالجامعة تمنحه شهادة الدكتوراه عن ذكرى أبي العلاء والأزهر يتهمه بالكفر والزندقة ويرفض منحه شهادة العالمية ولا يلقى التأييد إلا من جريدة السياسة التي يقف على رأسها أحمد لطفي السيد الملقب بأستاذ الأجيال.

وتكشف لحظة الصدام الثانية حول كتاب " في الشعر الجاهلي " في منتصف العشرينات مستوى نضج وتطور النهوض الرأسمالي وتبني القيم الاجتماعية والثقافية الحديثة، فالحزب الشعبي الأول، حزب الوفد، يقود الثورة ويصل الى السلطة بتأسيس ما اصطلح على تسميته بحكومة الشعب الأولى، يتخذ موقفا سلبيا من طه حسين وكتابه وهو نفس موقفها من كتاب " الإسلام وأصول الحكم " لعلي عبد الرازق.

ولا يبقى العميد إلا أياما معدودة عميدا لكلية الآداب عام 1928 ويضطر الى الاستقالة تحت ضغط الوفدين الذين لم يستطيعوا التفرقة بين الدور الأدبي والفكري الرائد للعميد وارتباطاته السياسية مع حزب الأحرار الدستوريين، خليفة حزب الأمة القديم، في نفس الوقت الذي كان العقاد الكاتب الأول لحزب الوفد.

ومنذ تلك اللحظة الفارقة تبدأ في التشكل ملامح مفارقة طه حسين للارتباط الفكري مع حزب الأحرار الدستوريين، ليس لأن طه حسين كان يتجنب الصدام مع التيارات الأكثر شعبية، فحياة طه حسين هي سلسلة متتابعة من الصدامات الفكرية، ولكن لأسباب أخرى متعلقة بتطور الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية التي جعلت هذه التيارات يزداد اقترابها منه وليس العكس، الأمر الذي ساهم في اقترابه منها.

وعندما عين عميدا لكلية الآداب عام 1930 أثناء حكومة الأحرار الدستوريين، حكومة القبضة الحديدية لمحمد محمود، يضطر الى الاستقالة ويحال الى التقاعد عام 1932 أثناء حكومة إسماعيل صدقي الاستبدادية احتجاجا للاستخدام السياسي للجامعة بمنح الجامعة للدكتوراه الفخرية للبعض ومن ضمنهم عبد العزيز فهمي أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين.

ونزداد مفارقته للأحرار الدستوريين وصداماته معهم أثناء توليهم رئاسة الوزراء ويتزايد اقتراب الحركة الوطنية منة ويصدر كتابه مستقبل الثقافة في مصر مشكلا جانبا هاما من برنامج الحركة الوطنية المصرية ويعين عام 1942 عميدا لجامعة الإسكندرية وسط ترحيب عام من الحركة الوطنية، ويخرج كبار تلاميذه الى الحياة العامة دفاعا عن العدل والحرية والديمقراطية والعقل والحداثة والاستقلال الوطني.

ويتم التلاحم بينة وبين الحزب الشعبي الأول عندما تطلبه وزيرا للمعارف في حكومة الوفد سنة 1950 وسط اعتراض القصر بدعوى انه شيوعي ، ويا لها من تهمة مثيرة للسخرية برغم ديمومة استخدامها الى الآن على أيدى بصاصين أنظمة الحكم الرشيدة التي تداولت على بلادنا ، ولكنه يصر على ضرورة توسيع مجانية التعليم وسط معارضة بعض تيارات الوفد الأكثر يمينية وارتباطا بكبار ملاك الأرض ، وتنتهى المساومة بتوسيع مجانية التعليم إلى المستوى الثانوي مع وعد بإكماله إلى المستوى الجامعي ، ويضطر القصر على الموافقة ويمنحه رتبة الباشوية التي كان قد نالها شعبيا منذ زمان بعيد .

لقد رحب طه حسين بحركة يوليو 1952، وكان هو أول من اسماها ثورة في إدراك صحيح بأنها تشكل البداية الثانية الكبيرة للتطور الاجتماعي المصري، وبرغم ترحيبه بها وحسن العلاقة مع النظام الجديد ورئاسته لمجمع اللغة العربية، إلا أنه يتعرض للفصل من جديد من جريدة الجمهورية عام 1964 بدعوى الجمع بين وظيفتين، فصلا لم يكن قصرا علية، بل امتد ليشمل أبرز تلاميذه، محمد مندور، وأخرون، وهي علامة فارقة لنظام الحكم الوطني الدكتاتوري المعادي للديمقراطية.

لعلني قد نجحت في تبيان كيف نضجت وتطورت التغييرات الاجتماعية المصرية التي قادتها إلى الاقتراب والاندماج مع هذا الرائد الكبير وابتعادها عنه كذلك بأقبح الأشكال.

ولعلنا في حاجة الى التوقف أمام المزيد من أبناء رفاعة كما اسمتهم غى سورمان في كتابها ، وكما أسماهم بهاء طاهر في كتابه الشهير ، لكن وفق منطق يرى ظهور وتطور أبناء رفاعة في علاقته بالتطور الاجتماعي والثقافي العام، بالتطور الطبقي والصراعات السياسية، فالناس أبناء زمانهم حتى ولو كانوا ينظرون ويطمحون الى المستقبل.

كشف الغمة عن أحوال الأمة

أن الحرب هي كاشفة لأحوال الأمم

وتستطيع أن تردد أن الحرب هي امتداد للسياسة بوسائل أخرى وتستطيع أيضا أن تتغنى بعبقرية كلاوزوفيتز أو سان تسو المفكر الاستراتيجي الصيني القديم ولكن عليك أيضا أن ترى كيف يتحقق ذلك في سياسة الحرب ، لتكتشف ليس فقط اهداف الأطراف المتصارعة وحقيقة مواقفهم واهدافهم بل أيضا ، بأوضح الأشكال ، عن كينونتهم ، من هم وكيف يمارسون سلطة قيادة الحرب وطبيعة نظامهم السياسي وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية و الطبقية والمصالح الحقيقية المختفية خلف الدعايات السياسية وإثارة الشعور القومي سواء أدرك القائمين عليها ذلك أم لا.

أن تاريخنا المعاصر يقدم لنا أمثلة شديدة الوضوح كما يقدمها الصراع المسلح الجاري الآن داخل وحول أوكرانيا، فلنتوقف قليلا أمامهما، توقفا محدودا حول بعض ملامح هذه الحروب الكاشفة.

ولعل أحد أهم مصادر الكاشفة، في الحالة المصرية، هي ما كتبة الفريق أول محمد فوزي عن إعادة بناء القوات المسلحة بعد حرب 1967.

فلقد وصل فوزي الى قناعة أن الحرب الحديثة تتطلب تغيير طبيعة المقاتل المصري من الاعتماد على غير المتعلمين الى الأهمية الحاسمة للاعتماد على المتعلمين، وبرغم أن هذه القناعة تبدو بديهية، حتى في ذلك الزمان، زمان بداية التطور العلمي والتكنولوجي الواسع النطاق، إلا أنه لاقى معارضة من بعض دوائر الحكم ، لكن الضرورة فرضت نفسها بتأييد من رئيس الجمهورية ، ويبقى التساؤل حول لماذا كان الاعتماد على الجندي غير المتعلم قبل الحرب وما هي علاقتها بطبيعة النظام السياسي .

ويحدث تطور هائل في نوعية المجندين في التشكيلات المقاتلة في مختلف أنواع المهام، ولعل أحد الأمثلة الواضحة هو صائدي الدبابات الذين يستخدمون الصواريخ الصغيرة الموجهة الذين نعرفهم جميعا، فجميعهم من المتعلمين الذين استطاعوا استيعاب الأسلحة الحديثة واستخدامها بدلا من سابقيهم الذين كانت صواريخهم تصطدم بالأرض.

تطور لم يتوقف فقط على نوعية المجندين، بل امتد أيضا الى القوات العاملة الدائمة بإنشاء العديد من المعاهد العسكرية في مختلف أنواع التخصصات بحيث أصبح القوام الرئيسي للقوات المسلحة من المتعلمين وهو تغيير كبير جدا ندين للفريق فوزي بريادته.

ولقد كنت أتعجب كيف لم نستطع أن نصل بأعداد الطيارين الى المستويات الدولية المتعارف عليها ، أي 3 طيارين لكل طائرتين ولكن الفريق فوزى أوضح الحقيقة حين بين أن نسبة صغيرة من المتقدمين للالتحاق بالكلية الجوية كانت لائقة صحيا ، الأمر الذى شكل مشكلة حقيقية ، وكان الحل هو إنشاء المدارس الثانوية العسكرية التي تتولى فيها القوات المسلحة تغذية التلاميذ ، ويا لها من حقيقة فاضحة توضح الوضع الاجتماعي الحقيقي ، ولكنها تكشف أيضا الطريق الطويل والصعب الذي قطعته القوات المسلحة لكى تصبح قوات عصرية وحديثة وسط واقع سياسي واجتماعي معيق.

ولا أريد أن استرسل في اختلافات وجهات النظر حول استراتيجية حرب 73 او الاختلافات حول تطوير الهجوم أو استراتيجية مواجهة الثغرة أو حول التحضير للحرب وجميعها وثيقة الارتباط بالسياسة بالهدف السياسي من الحرب، كما توضح بشكل واضح طبيعة النظام السياسي، وبرغم أن الأمر تجده في مذكرات كبار القادة، حتى ولو كانوا لم يتطرقوا له بشكل واضح، وحتى أذا لم يتضح لهم هذه العلاقة، حين اكتفوا بالإشارة الى حجم القوات ومستوى التسليح ونوعيته والعلاقات مع الحلفاء الدوليين ، ولكن الامر يحتاج الى توقف خاص يتناول وجهات النظر المختلفة في علاقتها بتطور الأعمال العسكرية.

ولعل الصراع الجاري الحالي حول أوكرانيا يقدم لنا مثالا باهرا على ذلك، فهذه الحرب كانت عناصرها تتجمع منذ أن انهار الاتحاد السوفيتي وانفجر الصراع الداخلي داخل الجمهوريات السوفيتية السابقة واشتركت فيها القوى العالمية الدولية لدفع النتائج الى الاتجاه الذي يتلاءم مع مصالحها.

لقد كان انفجار الصراع حول جزيرة القرم هو الإعلان الحقيقي لحرب لسياسة التي ستتحول فيما بعد الى سياسة الحرب حين وصلت الاتجاهات القومية المتطرفة الى سدة السلطة في أوكرانيا وحاولت اخراج روسيا منها بعدم تجديد عقد التأجير وبقطع مياه نهر الدنيبر عنها ، غير مدركة أن وضع الجزيرة لا يمكن اختصاره في صراع حدودي يمكن التفاوض حوله ، بل هي قضية حياة أو موت لروسيا التي حاربت من أجلها عشرات السنين الى أن نجحت في ضمها سنة 1783 في مواجهة الدولة العثمانية أثناء محاولتها الخروج الى العالم عبر الشمال في بحر البلطيق والشرق في صراعها مع اليابان ، انها المياه الدافئة ، الحلم الروسي الدائم منذ روسيا الإمبراطورية حتى الآن.

ويبدو ان الاتجاهات الأوكرانية القومية المتطرفة لم تدرك بعد الابعاد الحقيقية للصراع الدائر وتحاول ان تجيش القوى الدولية خلفها ومازالت تتصرف برعونة بالغة في الصراع الدائر فتقصف المحطات النووية وأخيرا جسر القرم وتدمر خطوط الغاز، فأساس هذه الحرب ليس الضم والالحاق، بل هي ضمان استمرار الوصول الى المياه الدافئة الذي ستصارع من آجلة روسيا لمئات السنين مهما كانت نتائج الصراع الدائر الآن.

وإذ كانت هذه الحرب قد كشفت عن الطبيعة السياسة القومية المتطرفة لنظام الحكم الأوكراني فإنها قد كشفت أيضا عن طبيعة الحكم الروسي الذي تتحكم به الإرادة المنفردة للرئيس، كما كشفت أيضا ضعف القيادة والسيطرة وعدم تبنى هدف سياسي ثابت من الحرب، كما كشفت أيضا عدم القدرة على إنتاج الأسلحة الحديثة بالكم اللازم برغم توفر وصلاحية النماذج الأولية التي خاضت التجارب بنجاح وهي حقيقية اجتماعية واقتصادية توضح الوضع الحقيقي لروسيا الاتحادية.

الزرع بصل والأزمة العسكرية الروسية

تعبير "الزرع بصل" يلائم الاستراتيجية العسكرية القديمة التي انتهت بنهاية الحرب العالمية الأولى مع تطور الأسلحة المتنقلة بالتطور الكبير في الدبابات وعربات القتال والمدفعية المتحركة ، ثم باستتباب القوات الجوية كقوات قتال رئيسية يمكن لها أن تلعب أدوارا حاسمة في سير العمليات العسكرية ، وبرغم هذا التطور الكبير في نوعيات التسليح فإن الانتصار النهائي لاستراتيجية حرب الحركة على حرب الخنادق لميكن سهلا أو ممهدا بل كان الثمن فادحا على بعض البلدان والجيوش سواء في الحرب العالمية الثانية ام في أعقابها ، ولعل أحد أبرز أمثلة على استمرار الاستراتيجية القديمة هو حروب تعديلات الحدود التي لم تنقطع على الصعيد العالمي وبالذات بعد انهيار الكتلة السوفيتية.

خط ماجينو

لعل أحد أهم امثلة استمرار الاستراتيجية القديمة بعد انقضاء زمانها هو خط ماجينو الذى أقامته فرنسا على طول حدودها مع ألمانيا كي يوقف الهجوم الألماني المفاجئ لفترة من الزمن تسمح لفرنسا بتعبئة قواتها للتصدي للهجوم، هذا التخطيط الأصلي للخط الذى بدء إنشائه عام 1930، الا هذا الخط تم تدعيمه بالدبابات الفرنسية الأكثر تطورا، في بداية الحرب الثانية، عن الدبابات الألمانية، ففقدت الدبابات ميزاتها الرئيسية، أي القدرة على الحركة.

إلا أن الألمان كانوا قد توصلوا الى التبني الكامل لاستراتيجية حرب الحركة بتشكيل الوحدات القتالية المتحركة، وحدات تتمتع بالاكتفاء الذاتي التي يجعلها قادرة على القيام بالأعمال القتالية بشكل مستقل، بتشكلها من القوات المدرعة، والمشاة الميكانيكية، والوحدات المعاونة، والطيران.

لقد ثبت عدم ملائمة هذه الاستراتيجية القديمة عندما انهارت فرنسا أمام الهجوم الألماني عندما تجنبت القوات الألمانية المتحركة مهاجمة خط ماجينو واكتفت بالالتفاف خلفه عن طريق مهاجمة بلجيكا، الدولة المحايدة فلم تجد مقاومة من القوات الفرنسية المزروعة " زرع بصل " داخل خط ماجينو.

خط بارليف

لقد واجهت إسرائيل نفس المعضلة التاريخية عندما انتصرت في حرب 1967 ووصلت قواتها الى الضفة الشرقية لقناة السويس حيث لم تستطع الوصول الى الهدف السياسي للحرب ، بإخراج مصر من الصراع العربي الإسرائيلي ، نتيجة للإصرار الشعبي الهائل على المقاومة ، الذى تجلى في المظاهرات العارمة يومي 9 و10 يونيو برفض استقالة عبد الناصر ، معضلة الاغراء بالاحتماء خلف خط دفاعي يستند الى مانع مائي عميق والتخلي عن تبنيها الكامل لحرب الحركة، حرب وحدة القوات المقاتلة المتحركة بالاعتماد على الألوية المدرعة والمشاة الميكانيكية والطيران ، انتظارا لانهيار الأوضاع الداخلية المصرية والتسليم بالهزيمة.

لقد امسكت إسرائيل بالعصا من المنتصف فأقامت خط دفاعي يستند على قناة السويس وحائط رملي بارتفاع 20 مترا مدعما بالنقاط الحصينة المنتشرة على طول الخط الدفاعي على مسافات طويلة نسبيا بحيث لا تستطيع تقديم الدعم لبعضها البعض ، وتحتل هذا الخط قوات قليلة العدد حسنة التسليح داخل الحصون وهو ما يسمى بخط النسق الأول وخلفة قوات النسق الثاني بقوات أكثر عددا ومتحركة ثم قوات النسق الثالث بقوات أكبر قليلا ، لكن هذه الخطة الدفاعية كانت تستند الى كفاءة نظام التعبئة العام والى كفاءة أجهزة جمع المعلومات والمخابرات بحيث تستطيع إجراء التعبئة العامة في زمن قياسي يوفر حجم قوات ملائم لهزيمة هجوم القوات المصرية.

وبرغم ذلك فإن هذا التصور الاستراتيجي اثبت فشله الزريع حين لم تستطع أجهزة التحليل السياسي والمعلوماتي الوصول إلى استنتاج مبكر بنوايا القوات المصرية بما يسمح بزمن كاف لتعبئة الاحتياط وتعديل أوضاع القوات، فانهار الخط الدفاعي واستسلمت معظم النقاط الحصينة خلال 24 ساعة، وبانهيار الخط الدفاعي عادت إسرائيل إلى استراتيجيتها المعتمدة، حرب الحركة والاقتراب غير المباشر، ولكن التقديرات الاستراتيجية والتكتيكية لمسار حرب 1973 تحتاج إلى التوقف أمامها بشكل منفصل.

الازمة الروسية ومشكلات الحروب المحدودة

وإذا كانت الخطوط الدفاعية بطريقة ماجينو وبارليف قد أثبتت عدم فاعليتها في الحرب الحديثة فإن حروب تعديلات الحدود قد كشفت كذلك عن جوانب ضعف خطيرة في استراتيجيتها بما يحولها الى حروب ممتدة زمنيا تنهك الأطراف المشاركة فيها ولا تسفر عن أوضاعا نهائية مستقرة، ولعل الحرب الإيرانية العراقية التي امتدت لتسع سنوات كاملة تقدم لنا مثالا باهرا على ذلك.

ويتكرر الامر الان في الحرب الأوكرانية الروسية التي تحولت الى صراع دولي تساهم فيها القوى العظمى بطرق غير مباشرة سواء بالدعم العسكري والاقتصادي أم بالعقوبات الاقتصادية والسياسية، فالإستراتيجية العسكرية الروسية وقعت في الخطأ الاستراتيجي التقليدي بالبحث عن التوسع الإقليمي بديلا عن البحث عن هزيمة العدو هزيمة شاملة تجبره على قبول مطالب الطرف المنتصر ومنها المطالب الإقليمية.

لقد كانت روسيا قادرة على إلحاق الهزيمة الكاملة بأوكرانيا لو كانت قد قامت بتعبئة قواتها العسكرية بشكل كامل واستخدمتها بلا تحفظات، ولكنها تبنت ما أطلقت علية بالعملية المحدودة في اختراع نظري ليس له مثيل، فالحرب هي الحرب مهما كانت المسميات.

والان تواجهه روسيا خط حدودي جديد وطويل يمتد لألف كيلومتر وتحاول الدفاع عنه بعد أن فقدت المبادأة وتتعرض قواتها لهجمات في الزمان والمكان الذي يحدده الطرف الأخر الذي يتزايد دعمة بالأسلحة الحديثة والخبراء ووسائل الاستطلاع الحديثة والمتطورة، وبدون أن تغيير روسيا استراتيجيتها فان هذه الحرب قد تمتد

لسنوات عديدة ولن يوقفها الا تغييرات داخلية في أحد البلدين المتقاتلين، إلا إذا تخلصت روسيا من أوهام العمليات العسكرية المحدودة، تخلصا سريعا وفوريا بما لا يسمح بتنامي قوى الخصم المدعوم من الغرب.

ولعلنا لم نتوقف عند الاحتمال النظري الثاني بهزيمة روسيا في هذه الحرب الإقليمية لأن مثل هذا الاحتمال بعيد عن إمكانية التحقق سواء لموازين القوى الفعلية، رغم الدعم الغربي، ولأنها دولة مسلحة بأسلحة دمار شامل لا يمكن منع فاعليتها والتي تضع قيودا كبيرة على مستوى الدعم الغربي لأوكرانيا.

هل الحرب هي امتداد للسياسة أم للحماقة؟

هل آن أوان دفن كلاوزفيتز؟

الكل يردد مقولة كلاوزفيتز الشهيرة أن الحرب هي امتداد للسياسة، ولكن غالبا ما يتم تحويل هذه المقولة العبقرية الى مجرد مقولة مجردة عن تطبيقها على أحداث التاريخ في الزمان والمكان، وفى الحقيقية وإذا تجرءنا على هذه المقولة فإن الحرب ليست امتدادا للسياسة، بل هي التعبير النقي الخالص عن اللحظة الكاشفة في السياسة، هي السياسة بلا اقنعة أو رتوش، ولذلك لا يمكن فهم الحرب إلا باعتبارها عملا سياسيا متجردا من............السياسة!!

بالقطع فان السياسة قد تكون حمقاء، ولكنها تبقى سياسة، فالحماقة السياسية هي أيضا سياسة ولذلك فكثيرا ما تكون الحرب هي الحماقة ذاتها، لذلك فمن حقنا أن نصف الحرب باعتبارها سياسة بصرف النظر عن حماقتها.

والغريب أن الكثيرون يقفون من الحرب باعتبارها عملا معزولا عما قبلها أو بعدها، برغم قناعاتهم بالمقولة الكلاوزيفيتزية، هذه الرؤيا للحرب التي كثيرا ما تكون بسبب الانحياز العاطفي أو النفسي او حتى السياسي لأحد أطراف الحرب، رؤية قد تتسبب في صدمة نفسية أو عاطفية أو حتى سياسية لصاحبها عندما تتضح نتائج الحرب التي تبدو كما لو كانت هابطة من السماء أو بفعل شيطان رجيم تبنى سياسات تتناقض مع نتائج الحرب أو مع المسار الكلي للسياسة قبل الحرب وبعدها.

لذلك لا يمكن فهم حرب السياسة وسياسة الحرب إلا بفهم التطور التاريخي الذي قاد السياسة الى اعلى درجات التجرد، أي الى الحرب، ثم عودة السياسة، من جديد، إلى حرب السياسة.

ولعل أحد أبرز الأمثلة في تاريخنا المعاصر هي حرب أكتوبر 73، فالملاحظ أن هناك احتفالية كبرى بأبطال هذه الحرب بمناسبة ذكراها، وهو أمر مشروع وواجب وضروري، ولكن لا أجد اهتماما جديا بتطور السياسة قبل وأثناء وبعد الحرب لان هذا التطور هو وحده القادر على فهم سياسة الحرب وحرب السياسية، وهو وحده القادر على تفسير الاستراتيجية والتكتيك العسكريين التي تبنتها مختلف الأطراف المشاركة في سياسة الحرب سواء بشكل مباشر أم بالوقوف خلف المشتبكين فيها والى فهم أعمق للقرارات العسكرية التكتيكية التي اتخذت أثناء القتال.

وبدون مثل هذا الفهم لا يمكن الوصول الى تقييم دقيق وحقيقي لأدوار وخلافات كبار القادة، السياسيين والعسكريين، من كافة الأطراف، التي تعم وسائل التواصل الاجتماعي والكتب والمذكرات، فيرفع البعض الى مستوى الاجلال والتقدير الكبيرين استجابة للميول العاطفية أو انحيازا لاعتبارات سياسية جزئية لتغييرات حرب السياسة بعد انتهاء سياسة الحرب.

وتدور الآن سياسة الحرب بين أوكرانيا وروسيا حيث تحظى بمتابعة واسعة مليئة بالانحياز العاطفي لدى الكثيرون مما يجعلهم عاجزون عن رؤية حماقات سياسات الحرب، أي حماقة التكتيك والاستراتيجية المستخدمين من الأطراف المشتبكة بشكل مباشر أم غير مباشر، ويجعل النتائج المتغيرة للقتال الدائر تبدو مفاجئة وتثير الدهشة برغم انها، لو تروينا قليلا وتخلصنا من ميولنا العاطفية، قد لا تثير أي دهشة.

والتاريخ ملئ بحماقات سياسات الحرب منذ أن مارست البشرية توحشها بشن الحروب ولكن الدوافع عديدة ومتعددة للوقوع في حماقة تبنى استراتيجية وتكتيك حرب الحماقة ويأتي على راسها أن الحرب هي حقا وفعلا سياسة وأن السياسات العليا للحرب يجب أن تتلاءم مع مقتضيات الحرب الحديثة ، أي حرب الحركة لإيقاع الهزيمة بالطرف الأخر ، لذلك عليك أن تقيس وتقدر العناصر الكلية المؤثرة على مسار العمليات العسكرية والتي لا تتوقف عند حجم القوات ونوعية التسليح ومستويات التدريب و تنظيم القوات المشاركة وسلطات القادة الأصاغر ، بل أيضا عناصر القوة الشاملة للأطراف المتصارعة التي تشمل الأوضاع لاقتصادية والتعليمية وتمتد الى الخطوط الخلفية الداعمة على الصعيدين الإقليمي والدولي ، أي على مصادر التمويل والإمداد وتعويض الخسائر من حلفاء الأطراف المتصارعة.

ويبقى أخيرا الإجابة على التساؤل الثاني، لأن التساؤل الأول تمت الإجابة علية، وهي هل حان أوان دفن كلاوزفيتز؟ وهو أمر لن يأتي أبدا لأن تصوراته ستظل صحيحة سواء أكانت السياسة أم حماقتها هي السائدة.

أليس كذلك؟

هؤلاء الرجال العظام والبخاري!!

هكذا أنا ابن محمد مندور

بالقطع فإن هؤلاء الرجال عظام بما قدموه للوطن، ولكن هم بشر مثلنا ولا يأتيهم الوحي ومناقشة ادبهم ودورهم العام هو واجب وضرورة ومسؤولية، واجب وضرورة ومسؤولية ليس فقط لحسن تفهم تاريخنا ،بل أيضا لفهم الحاضر والاستعداد للمستقبل.

ولقد تعجبت كثيرا من ردود البعض من مناقشتي لآراء نجيب محفوظ المواطن حيث اكتشفت أن البعض لا يفرق بين محفوظ الكاتب ومحفوظ المواطن ويرفعه فوق النقد كمواطن وفى الغالب ككاتب أيضا بحيث يبدو الأمر وكأني قد ارتكبت خطيئة في البخاري!

ولقد تسائل البعض هل يرضى الدكتور محمد مندور عن ما كتبته عن محفوظ المواطن فانتابني العجب فأنا لست محمد مندور ولقد علمني محمد مندور أن أكون مستقلا ولست تابعا لاحد وعلمني حتى عدم الخضوع للسائد من الآراء والمعتقدات ، مهما كانت ، بل علي ان استخدم هذا الذي داخل جمجمتي بحرية ، وان أكون قناعاتي وآرائي طبقا لرؤيتي الخاصة ، وهو ما فعله هو نفسه مع أساتذته وعلى راسهم أبية الروحي طه حسين الذي لم يكتف باختلافه معه في الكثير من مقالاته وكتبة بل أيضا في رسالته للدكتوراة المسماة " النقد المنهجي عند العرب " ، ولكنه احتفظ دائما بتقديره الإنساني والفكري لهؤلاء الأساتذة ولدورهم التاريخي ولذلك كان إهداءه لكتابة الأول لطه حسين رغم انه يحتوى على الكثير من الخلاف والاختلاف مع آراء أستاذه.

هكذا أنا ابن محمد مندور وهكذا لو توقفت عند آراء مندور الاجتماعية والسياسية لاختلفت مع بعضها، ولكن لا ينتقص هذا من حبي وتقديري له كاب وكانسان ولدورة التاريخي الاجتماعي والأدبي، ولو لم أكن هكذا لما كنت

ابن محمد مندور وكأنه لم يعلمني شيئا ولثبت فشله العام والخاص وانا لن افشله أبدا ولو انطبقت السماء على الأرض، ولذلك سأكتب عن دور هؤلاء الرجال العظام العام، الأمر الذي أفهم به، وليس عن دورهم الأدبي.

ولا يمكن فهم دورهم العام إلا بفهم زمانهم وعندها يمكن الوصول الى تقييم أكثر دقة لهذا الدور.

هل هي حرب المائة عام؟

المعضلة الأوروبية وهل انتصرت روسيا؟

تراجيديا الحرب والسياسة والدعاية والتشهير تتكرر أمامنا في الأمم المتحدة ومجلس الأمن والاتحاد الأوروبي والخطب المتلفزة والجماهيرية والبيانات الرسمية والأحاديث الصحفية وصيحات حقوق الانسان وحق تقرير المصير بحيث يبدو الأمر وكأنه مسرحية هابطة من مسرح روض الفرج .

والجميع يكذبون، وبعضهم يكذب الى حد الاجرام، والبعض يرتكب جرائم قاطعة في حق المسالمين ويلقى عبئها على الأخر، وتدمر المنشآت الاقتصادية ويتنصل الجميع من هذا التدمير برغم أن طفلا صغيرا يستطيع أن يؤشر على الجاني وتتعرض المحطات النووية لخطر جسيم نتيجة لتطرف ورعونة واجرام البعض.

وتغيب الدوافع والمصالح الحقيقية التي قادت لاندلاع الحرب ويعجز الجميع عن تقدير كيف يمكن لها أن تنتهي، والغريب أن البعض قد وقع أسيرا لدعايته وتشهيره وديماغوجيته وأصبح أسيرا لها.

لكل ذلك يجب أن نحاول اكتشاف الدوافع الحقيقية لعلنا نستطيع أن نجد لبلادنا مخرجا من هذا الجحيم الذي أحاط بنا ونحن لا ناقة ولأ جمل لنا فيه.

فما هي أصول الحرب الروسية الأوكرانية؟

المياه الدافئة

أن المياه الدافئة، الحلم التاريخي لروسيا ما قبل الإمبراطورية الى روسيا الامبراطورية او السوفيتية او الاتحادية، احتياج استراتيجي ملح للخروج من صقيع الشمال المتجمد.

صقيع الشمال الذي كان يتحكم به السويديون فخرج إليهم القيصر الخامس بطرس الاكبر ويهزمهم ويؤسس درة التاج الروسية، سانت بيترسبرغ أو لينينغراد، كي تؤمن طريق الشمال الغربي، طريق بحر البلطيق، ولكنه طريق يتحكم فيه، برغم كل ذلك، حلف الأطلنطي بعضوية كلا من ألمانيا والنرويج والدنمارك واستونيا ولاتفيا، وليتوانيا، وأخيرا بالسويد، وفنلندا.

وتدور معارك طاحنة في الشمال الشرقي وفي الشرق مع الإمبراطورية اليابانية ويكون أحد أهم الدوافع هو تأمين طريق الى الجنوب الشرقي، وتهزم وتفوز روسيا الى أن ينتهي الأمر بتأمين الطريق بضم ما يسمى بالجزر المتنازع عليها مع اليابان في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولكن التحالف الأمريكي الياباني مازال يطل على الطريق.

ولكن يبقى الحلم الروسي الدائم بالوصول إلى المياه الدائمة الدفء، الى البحر الاسود.

معارك واتفاقات واختلافات مع الدولة الامبراطورية العثمانية وينجح الروس في النهاية في وضع قدم ثابتة على البحر الأسود خروجا من البحر الصغير قليل العمق، بحر آزوف عن طريق مضيق كيرتش ، ولكن مخرج البحر الأسود تتحكم به تركيا العضو في حلف الأطلنطي ، مضيق الدردنيل ، الى البحر الابيض الذى تتحكم في مخرجه

الى المحيط بريطانيا الجاثمة في جبل طارق رغم انف الإسبان والعضو المؤسس لحلف الأطلنطي ، وبرغم انضمام اسبانيا المتأخر للحلف فما زال الاختلاف حول جبل طارق.

أن أحد أهم دوافع الحرب الروسية الأوكرانية الدائرة الآن هي تأمين الوصول الى المياه الدافئة والتي هددتها الحماقة البالغة للاتجاهات القومية الأوكرانية، فتحركت روسيا باستعادة جزيرة القرم والتهديد باستخدام القوة لمنع دخول جورجيا وأوكرانيا إلى حلف الأطلنطي، وهو ما يتحقق الآن.

هذا هو الواقع الاستراتيجي للصراع الدائر في المنطقة، صراع أسهم في احتدامه غباء البحث عن المصالح واستخدام أساليب قديمة من عهد الحرب الباردة، برغم أن روسيا الاتحادية ليست الاتحاد السوفيتي الذي لم يكن يمثل فقط تهديدا للمصالح الاقتصادية والسياسية، بل أيضا تهديدا أيديولوجيا كبيرا.

هل انتصرت روسيا؟

أن النظر الى الخريطة ونتائج الاستفتاء الأخير توضح بجلاء أن روسيا قد حصلت على هدفها المباشر، فعدلت حدودها وامنت الوصول الى المياه الدافئة، لكن المسالة الاوكرانية هي جزء من التناقضات بين روسيا والحلف الغربي الذي تمدد الى حدودها، بل مجرد حلقة في مسار الصراع بين الدول العظمى على المصالح والنفوذ العالميين.

صراع سيكون طويلا ولا يمكن حله إلا بتقلص قوى ونفوذ أحد المتصارعين أو باندماج مصالحهم ورضى الأقل قوة بنصيب يتلاءم مع قوته.

ففي مثل هذا الصراع الاستراتيجي الطويل المدى لا تقاس قوة الدول بمستوى تسليحها، بل بعناصر القوة الشاملة، أي بحجم اقتصادها ومستوى تطوره وقدرته على خلق التطبيقات العلمية في حقل الإنتاج وعلى القدرة العلمية والبحثية وعلى موارده الطبيعية ولا يفوتنا هنا الأهمية الحاسمة لتطور التعليم والبحث العلمي.

أن مثل هذه الصراعات لا يمكن تقدير نتائجها التاريخية إلا في علاقتها بموازين القوى العالمية وهي تتغير، لذلك لا يمكن استنتاج أن النتائج المتحققة، حتى الآن، تشكل نقطة تحول في موازين القوى العالمية إيذانا ببروز قوى عظمى جديدة، روسيا أو الصين، بديلا عن القوة السائدة حاليا، الولايات المتحدة الأمريكية ،نتيجة لاعتبارات متعددة.

الأول منهما أن الموقف الحالي ما زال يعبر عن اختلال موازين القوى لمصلحة روسيا في منطقة النزاع، ولكنه لا يعبر عن بداية تعديل موازين القوى عالميا، والسبب الثاني أن الصراع الحالي ما زال في بداياته حيث لم يضع الطرف الآخر ما يستطيع أن يحشده في منطقة الصراع أو من أجلها، أن الصراع من أجل أوكرانيا مازال في بداياته رغم الدعم الغربي الاقتصادي والعسكري.

دروس التاريخ

أن الدروس القريبة تقدم لنا العديد من الأمثلة على مسار الصراعات بين القوى العظمى ، فالتقدم الألماني جاء متأخرا عن الدولتين الكبيرتين في القرن التاسع عشر ، إنجلترا وفرنسا ، ولم يكتمل توحد ألمانيا إلا في أعقاب انتصارها في الحرب الدائرة مع فرنسا سنة 1870 ، إلا أن هذا الانتصار العسكري المؤقت لم يضمن لألمانيا موقعا وطيدا كأحد القوى العظمى واضطرت الى خوض حربين عالميتين وهزمت في كلاهما، ليصل بها الأمر إلى أن أصبحت حليفا ضمن المعسكر الغربي وتنال ما يتلاءم مع عناصر قوتها الشاملة ، ولعل بزوغ قوى عظمى جديدة ، الاتحاد السوفيتي ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية كان العامل الأساسي لاندماج ألمانيا في الحلف الغربي

بقيادة الولايات المتحدة ، اى اننا نتحدث عن خمسة وسبعون عاما كاملة لبداية استقرار وضع المانيا داخل التحالف الغربي الذي انبثق في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

وإذا كان الاتحاد السوفيتي وكتلته قد انبثقا كقوي عظمى في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فإن مسار الصراع بين الكتلتين أسفر عن استنزاف قوى المعسكر الشرقي ، صراع لا يدور بشكل مباشر بين الكتلتين بل في سائر بقاع الأرض ، بين قوى محلية تلقى الدعم من المعسكرين ، في كوريا وفيتنام وكوبا وانجولا والكونغو وموزمبيق وسائر بلاد ما كان يسمى ببلدان العالم الثالث ، ويضاف إلى ذلك سياسات التسليح الكثيفة التي القت أعباء إضافية كبيرة على اقتصاد الكتلة السوفيتية ، الآمر الذى صرح به روبرت مكنمارا ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، في عهد كينيدي، حين صرح بأنه يمكن القضاء على الكتلة السوفيتية بسياسات تسليح كثيفة، الامر الذي اسفر عن انهيار الكتلة السوفيتية بعد 45 عاما.

الصراع الدولي والقوة الشاملة

إذا توقفنا أمام عناصر القوى الشاملة للقوى العظمى الحالية سنجد أن عناصر التفوق الشامل للولايات المتحدة ما زالت سائدة رغم التغييرات التي تتراكم لدى غيرها من القوى ، فبرغم التقدم الكبير الذي حققته روسيا في أعقاب فترة الفوضى التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي ، فإن الحجم الكلي لاقتصادها في حدود خمس الاقتصاد الأمريكي ، وبرغم قدراتها العلمية و تسارع اندماج العمليات الإنتاجية مع الاكتشافات العلمية إلا أنه مازال الشوط طويلا أمامها للوصول إلى ما وصلت إليه الولايات المتحدة من اندماج العلم بالإنتاج ، ولعل أحد أبرز الأمثلة التي يمكن التدليل بها أن روسيا ما زالت تجاهد اقتصاديا لإنتاج طائرتها الشبحية الأولى السوخوى 57 ، برغم الموارد الطبيعية الكبيرة المتوفرة بأراضي روسيا، في حين أن الولايات المتحدة تنتج الأن طرازين منها F22 وF35 ، الأمر نفسه الذى حققته الصين بإنتاج طائراتها الشبحية الأولى.

وإذا كان هذا هو وضع روسيا فإن الصين، رغم ان حجم اقتصادها يتجاوز اقتصاد الولايات المتحدة، إذا قيس بالقوة الشرائية، إلا أنها ما زالت لم تلحق بعد بمستوى تطور وديناميكية الاقتصاد الأمريكي، بصرف النظر عن الفارق الكبير في مستوى دخل الفرد الذي يؤثر تأثيرا كبيرا في مستوى فاعلية القوى البشرية.

أن تغيير موازين القوى العالمية مازال طويلا وبعيدا والاحتمالات ما زالت متعددة ولم نصل الى نقطة التغيير بعد، وهو ما يدفعنا الى التفكير في المعضلة الأوروبية الحديثة، أي علاقتها بروسيا.

المعضلة الأوروبية الحديثة

منذ أن سبقت الدول الأوربية العالم في الوصول إلى الرأسمالية الحديثة وتاريخ العالم وثيق الارتباط بالصراعات الأوروبية، سواء داخل أوروبا نفسها أم على الصعيد العالمي.

صراع يتغير ويتشكل طبقا لتغير موازين القوى داخلها ومحاولة كل منها زيادة نفوذها ومصالحها على الصعيد العالمي، صراع لم يترك موقعا على سطح الأرض إلا وكان يدور داخلة.

صراع إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال على أمريكا الشمالية والجنوبية، ثم الصراع الفرنسي البريطاني داخل أوروبا وحول مستعمرات العالم القديم في أفريقيا وآسيا، ويصل إلى حد القتال المسلح بين القوتين الأكبر عالميا، في ذلك الزمان، إنجلترا السباقة إلى مرحلة أبعد في التطور وفرنسا الثائرة البونابرتية.

وعندما تختل موازين القوى من جديد ببدايات التقدم الألماني يندلع الصراع المسلح مع فرنسا في 1870، ثم يتكرر الأمر مرة ثانية مع تصاعد النمو الألماني لتندلع الحرب العالمية الأولى، وتهزم ألمانيا لتعود من جديد سنة 1939 وتصبح القارة محلا لصراع مسلح واسع النطاق.

لقد لعبت روسيا الإمبراطورية السوفيتية والاتحادية الحديثة أدوار بالغة الأهمية في الصراع الأوروبي سواء داخل أوربا نفسها أم على الحدود المتاخمة خصوصا في الشرق الآسيوي.

وبرغم أن روسيا، بصرف النظر عن طبيعة نظامها السياسي، قد جاهدت للوصول إلى الرأسمالية الحديثة فلقد كانت متأخرة كثيرا عما وصلت اليه البلدان الأوروبية الغربية وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا ثم لاحقا ألمانيا، إلا أنها كانت دائما الدولة التي تحسم الصراع الأوروبي نتيجة حجمها الكبير.

فلقد كانت الإمبراطورية الروسية القوة التي قسمت ظهر فرنسا النابليونية حين تجاوز حدود قوته فهاجمها هجوما مباشرا وصل إلى احتلال موسكو نفسها، ولكن الروس، بتحالفهم مع القوى العظمى الأوروبية الأخرى، الإمبراطورية النمساوية وإنجلترا، هزمت فرنسا النابليونية وأرسل نابليون إلى المنفى.

ويتكرر الأمر ثانية مع روسيا السوفيتية حين أخطأت ألمانيا النازية بتجاوز حدود قوتها وعجزها عن الوصول إلى اتفاق مع القوة الأوروبية الأخرى الكبيرة، إنجلترا، فهاجمت الاتحاد السوفيتي، رغم وجود معاهدة عدم اعتداء، حيث يدور قتالا ضاريا وصلت فيه القوات الألمانية إلى مداخل المدن الروسية الأساسية، ستالين جراد(فولجا جراد) وموسكو ولينينغراد (سانت بطرسبرج)، بحجم قوات هائل يصل إلى 220 فرقة ألمانية.

ويستمر القتال سنوات طوال، بخسائر فادحة بين الطرفين، إلا أن الأمر يسفر في النهاية عن إجبار الحلفاء على فتح الجبهة الغربية خوفا من السيطرة السوفيتية على كامل الأراضي الأوروبية، وبرغم ذلك فإن القوات الروسية تدخل إلى برلين وينتحر هتلر.

والآن يتكرر الأمر مرة ثانية حين أصاب الضعف روسيا مع انهيار الاتحاد السوفييتي واختلال موازين القوى داخل أوروبا، فيتوسع الطرف الآخر إلى ما يمكن تسميته بالمجال الحيوي للأمن القومي الروسي، توسعا لم يلق إلا مقاومة ضعيفة من روسيا المنهارة مؤقتا.

والآن يدور الصراع من جديد حيث استعادت روسيا جزءا كبيرا من قوتها المفقودة وتعالت مقاومتها للتوسع الغربي وعلى رأسه توسع حلف شمال الأطلنطي بعد أن ضم إليه معظم الدول الأوربية التي كانت داخل الكتلة السوفيتية ومنها دول البلطيق الثلاثة ولم يتبق إلا أوكرانيا وجورجيا.

وبرغم كل الضجيج الإعلامي الذي يثير السخرية لكل من يدرك المصالح المختفية خلفه فإن المعضلة الأوربية الحالية لا يمكن لها أن تتطور إلى قتال مسلح يشمل كامل المسرح الأوربي لأن المخاطر جسيمة وسوف تطال جميع الأطراف، فروسيا الاتحادية مدججة بالسلاح واستعادت جزءا كبيرا من قوتها وان كانت لم تلحق بعد بالتقدم على الجانب الآخر، ولكنها عادت لتصبح من جديد إحدى القوى العظمى التي لا يمكن تجاهل مصالحها، هذا بالطبع أذا تحلى الجميع بالرشاد الكامل.

افاق الصراع

فكيف سيتطور الصراع وهل تستطيع أوربا تحقيق الاندماج الروسي، اندماجا كانت ألمانيا أكثر الدول الأوربية مساهمة فيه، اندماجا لا يمكن النظر إليه إلا من خلال رؤية أكبر وأوسع انتشارا تنظر إلى كامل الأوضاع العالمية وعلى رأسها القوى الصاعدة الآسيوية، الصين الشعبية، وتأثيرات التطورات الاقتصادية والسياسية العالمية على وزن ودور القوة الأعظم، الولايات المتحدة الأمريكية!

أن المشكلة الروسية الاوكرانية هي التعبير الأمثل عن النتائج المأساوية حين يتم تجاهل المصالح القومية للدول وتهديد سلامتها وعدم التعلم من دروس التاريخ، ولذلك فالحرب ستستمر وقد تمتد للمائة عام!!

هل لدينا جمهورية الجديدة؟

كلمة مثيرة للجدل تلقى سخرية بعض فئات المعارضة السياسية وترحيب واحتفال البعض الآخر فهل حقا لدينا جمهورية جديدة؟ وكيف لنا أن نحدد موقفنا طبقا لمعايير نظرية وعملية تتجاوز الديماغوجية السائدة المثيرة للملل، ولذلك سنتوقف عن أهم الملامح التي يمكنها أن تحدد لنا أجابه تقترب من الدقة أخذين في الاعتبار تصورا ديالكتيكيا لتطورها، ليس لأننا من هواة الديالكتيك، بل لان التغييرات الديالكتيكية هي حقيقة من حقائق التغييرات العلمية والاجتماعية ولا يمكن الوصول إلى فهم صحيح لها بدون ملاحظة هذه التغيرات وهي تتحقق مشكلة واقع جديد بتناقضاته واحتمالات تطوره.

شكل الحكم

يبدو أن مناقشة شكل الحكم كما لو كان طرفا من الفكاهة وهو ليس كذلك، فالقواعد القانونية والدستورية المنظمة لممارسة الحكم تبدو متقاربة برغم التغييرات الدستورية بين الدستور القديم والدستور الجديد بتعديلاته، وفى الحقيقة فإن الأكثر أهمية ليست القواعد القانونية والدستورية، بل الممارسة الفعلية للسلطة.

ومما لا شك فيه أن هناك تغييرا كبيرا في ممارسة السلطة، فلقد عادت رئاسة الجمهورية الى ممارسة سلطاتها كاملة منذ 2013، بعد أن كانت قد تخلت عنها طواعية وبشكل تدريجي منذ بدايات القرن الواحد والعشرين، حين أصبحت مجموعة صغيرة ملتفة حول الوريث هي المركز الحقيقي لاتخاذ القرارات بصرف النظر عن توليها مناصب رسمية تتيح لها الصلاحيات القانونية لممارسة السلطة أم لا، وقد أصبحت حكومة رجال الاعمال أعلى تمثيل سياسي وقانوني لها.

النشاط الاقتصادي

لا نستطيع الحديث عن تغيير القواعد القانونية الحاكمة للنشاط الاقتصادي ولكن نستطيع أن نلمس تغييرات في النشاط الاقتصادي الفعلي، بعضها يمثل امتدادا لما كان سائدا قبل 2011 والبعض الأخر يمثل عودة الى ما قبل سيادة عهد الانفتاح ، فالدولة تقوم بتحديث مصانعها للغزل والنسيج بإعادة تنظيمها ودمجها وتغيير شامل في آلاتها ومنشأتها ، وتجرى تحديثا شاملا لجميع مصافى النفط لتلبية الاحتياج للمنتجات البترولية ووقف استيرادها ، وتنشئ مصانع جديدة للكيماويات وتطور بعض من القديم منها تطويرا وتوسعا جديدا لها (كيما وسيماف والدلتا للصلب)، و تستثمر بكثافة في توليد الكهرباء ومعالجة مياه الصرف الزراعي والصحي وتتوسع توسعا كبيرا جدا في استصلاح الأراضي القابلة للزراعة في الدلتا الجديدة وتوشكي والمنيا وشرق العوينات وسيناء وفى الزراعة المحمية وفى تطوير الموانئ البحرية و تطوير النقل بالسكك الحديدية وإنشاء وسائل كهربائية سريعة بين المدن وإنشاء وتطوير النقل الكهربائي داخل المدن (خطوط المترو والترام في القاهرة والإسكندرية) .

الا ان هذا الجهد الحكومي الكبير صاحبة توسع كبير آخر في استثمارات القطاع الخاص المحلى والأجنبي والذي يمثل امتدادا لما كان سائدا قبل 2011 ولكن بحجم ملحوظ وامتد إلى مجالات جديدة، فيحدث توسع كبير في توليد الكهرباء من الطاقة التقليدية)أكوا باور في الأقصر بقدرة 2300 ميجاوات(والطاقات الجديدة ، التي كان دور هذا القطاع الخاص محدودا قبل 2011 ، و لكنه توسع توسعا كبيرا الآن، ويستثمر القطاع الخاص والأجنبي

بالاشتراك مع القطاع الحكومي في توسعة مصفاة مسطرد الذى تم و يقوم بتلبية 25% من احتياجات المنتجات البترولية وفى مصنع السكر الكبير في المنيا وفى مصنع الكيماويات الكبير في السويس.

ولعل أهم التغييرات في سياسات الدولة هو تطور دورها في قيادة النشاط الاقتصادي سواء بالاستثمار المباشر أم في توفير الفرص للقطاع الخاص للاستثمار في بعض الأنشطة الاقتصادية التي تستجيب لسياسات الدولة في معالجة عجز الميزان التجاري، الأمر الواضح في المجالات الزراعية وفى صناعة الكيماويات وفى طرح الرخص الجديدة في صناعة الصلب التي تستجيب لمعالجة الخلل الهيكلي التي تعاني منة، الأمر الذي يمثل خروجا عن السياسات السابقة التي كان أهم أهدافها مجرد البحث عن موارد جديدة للدولة.

وإذا كانت استثمارات القوات المسلحة قد بدأت في بداية ثمانينيات القرن الماضي لتلبية احتياجات القوات المسلحة وطرح بعض من فائض الإنتاج في السوق المحلية، فان استثماراتها قد توسعت توسعا كبيرا في بعض القطاعات القديمة والجديدة، فيتم التوسع في إنتاج الأسمنت (العريش والمنيا) وفى الحديد والصلب (بشراء حصص الجارحي في السويس للصلب وحصة الشريك الأجنبي في الوطنية للصلب) وفى المساهمة في شركة الذهب بحلايب والمساهمة في شركة الرمال السوداء(رشيد) وفى الزراعة في الساحل الشمالي وشرق العوينات وتوشكي وفى مصانع الكيماويات في السويس.

ولكن تستمر القواعد القانونية لتصدير الأرباح وإعادة تصدير راس المال كما هي وهو ما يستمر في إلقاء مزيدا من الأعباء على موارد النقد الأجنبي.

وبرغم أن الهدف من هذا المقال ليس تقديم تصورا كاملا لتطور الاقتصاد الوطني وتناقضات هذا التطور فإن الأمثلة السابق بيانها تكفي للخروج باستنتاجات للاستدلال على ملامح الجمهورية.

ولعلنا ما زلنا في حاجة للتوقف أمام سياسات الخصخصة.

سياسات الخصخصة

وبرغم أن الخصخصة قد توقفت لسنوات برغم الإعلان الحكومي المتكرر عن نيتها في الخصخصة بتبني سياسات جديدة، سياسات تتضمن طرح حصص في الاستثمارات الحكومية وحتى التخارج او البيع لبعض الأصول الصغيرة، فان تحقق هذه السياسات الجديدة يتم الآن بشكل تدريجي في بعض الاستثمارات الكبيرة ببيع حصص غير حاكمة أو في التمهيد بالبيع الكامل لبعض الاستثمارات الصغيرة، بصرف النظر عن الدوافع الاقتصادية والسياسية للبدء في تطبيق هذه السياسات.

ولعلنا في حاجة للتوقف أمام التصورات المتعلقة ببيع أصول الموانئ والنقل، وهي تصورات غير حقيقية، فالدولة تهدف إلى استدعاء شركاء أجانب لإدارة الأصول وقد يتضمن هذا الاستثمار فيها باستكمال البنية العلوية، الأمر الذي ينطبق على بعض توسعات الموانئ، ويبقى أن هذا الاقتراب ليس جديدا فلقد تم فعليا في ميناء السخنة منذ سنوات طويلة، ولكنه يتوسع الان توسعا كبيرا.

إن سياسات الخصخصة الحالية تختلف اختلافا كبيرا عن السياسات السابقة في تسعينيات القرن الماضي.

سياسات التسليح

لقد حدث تغيير كبير في سياسات التسليح السابقة قبل 2011، فبدلا من الاعتماد على مصدر وحيد للأسلحة وسط تقييد كبير في نوعيتها وامكانياتها، رغم الاستمرار في تحديث الأسلحة القديمة السوفيتية المنشأ، فان السياسات الجديدة تتضمن توسعا كبيرا في مصادرها من بلدان متعددة وفى نوعيتها مع استبدال الأسلحة السوفيتية القديمة بأسلحة وأنظمة جديدة حديثة من نفس المصدر، أي من روسيا.

السياسات الداخلية

وبرغم أن السياسات الداخلية لم تشهد انتقالا كبيرا إلا فيما يتعلق بمواجهة تيارات الإسلام السياسي وعلى رأسها مواجهة التيارات المتطرفة ثم الانتقال من سياسة احتواء الإخوان المسلمين الى سياسة التصفية الكاملة لهم تنظيميا وماليا، مع بقاء أسس العلاقات مع التيارات السلفية كما هي، ولكن السياسات المتعلقة بحرية التنظيمات النقابية وحرية حركة الأحزاب وحرية التنظيمات الأهلية مازالت لم تتغير، ولعل أهم ملامح التغيير هي تغيير سياسة " خليهم يتسلوا."

السياسات الإقليمية والدولية

وبرغم أن السياسات الإقليمية والدولية للدولة لا تشكل جزءا من القدرة على الإجابة على التساؤل الذى نناقشه هنا فان ملاحظة تغيرات سياسات الدولة قد تسهم في الوصول الى تصور أكثر شمولا للجمهورية ،فمن الملاحظ أن هناك قدرا أعلى من الاستقلالية في تبنى سياسات تختلف مع مصالح القوى العظمى وقد اتضح ذلك في الموقف من ليبيا وسوريا في نفس الوقت الذى استمر تدعيم العلاقات مع المملكة العربية ودول الخليج وانتقالها الى مستويات أعمق الأمر الذي لا يشكل تباينا مع التوجه العام السابق ، كما وضح هذا القدر الأعلى من الاستقلالية في الموقف من الحرب الروسية الأوكرانية وفى العلاقات مع روسيا والصين.

ولعلنا الآن قد أصبحنا قادرين على الإجابة عن السؤال

هل لدينا جمهورية جديدة؟

نعم أيها السادة لدينا جمهورية جديدة، جمهورية يمكن تميزها بالطابع الأساسي لها، أي كيف يمارس الحكم، أما التفاصيل الأخرى، وهي تبقى تفاصيل، فهي تشكل ملامح الجمهورية الجديدة، ملامح متغيرة تغييرا كبيرا عن نهاية عهد الجمهورية القديمة، ملامح تتغير وفق معطيات التناقضات المحلية والدولية، ولكنها ليست شرطا لوصف الجمهورية بالجديدة.

فلنراقب لنرى كيف تستجيب الجمهورية الجديدة للتناقضات المحلية والدولية وتغير من ملامحها.

تجازيع النفس البشرية والكتابة!

محمد مندور في "الميزان الجديد"

ولكن ما كتبه محمد مندور لا ينطبق فقط على الأدب، بل يمتد الى أي كتابة في أي مجال وهي ما تفرق بين الكاتب الجيد الذي يستطيع الاقتراب من عقل القارئ وقلبه وغيره من الكتاب.

أن الكتابة عمل خطير يجب أن يؤخذ بالجدية اللازمة وباحترام كامل للقارئ.

ولذلك كتب محمد مندور في كتابه " في الميزان الجديد "

"منذ عودتي من أوروبا بعد السنين الطويلة التي قضيتها بها وأنا أرسل للثقافة المقال تلو المقال فتنشر القليل وتمسك الكثير بحجة أن فيما أكتب غمو اضا وكثرة استطراد وإشارات إلى بعض الآداب الأجنبية، لا يستطيع القارئ المصري فهم معناها، وقد خلا ذهنه مما تفترضه معلو اما لديه من أسس الثروة العقلية التي يملكها مثقفو

القوم في أوروبا، والرأي عندها أنه من واجبنا أن نلحظ القارئ ونقدم إليه ما يتناسب وثقافته في وضوح وجلاء. وفي هذا إهدار لكل القيم، فالماء الوشل لا يعرف إلا لونا واح ادا تتفق عليه كل الأبصار، ونحن نحرص على أن نترك له عمقه حتى تتهيأ له من تكافؤ طبقاته تلك الألوان المتباينة تباين ما يلقى عليه من ضوء أو تنعكس فيه من ألوان السماء، وفي نفسي — إذا أقول ذلك — صور لبحيرة Bourget في جبال السفوا بفرنسا، فهناك تتغير ألوان مياهها بتغير حالات الجو وساعات النهار، فطو ارا تنحدر الأضواء عما يحيطها من جبال شامخة لتنتهي إلى صفحة الماء وكأنها مأخذ آلة مصورة تجتمع إليها الأشعة، فإذا بشدة البريق تلهينا عن لون مياهها، فكان البريق لونا، وطورا يخف الضوء بما انتشر فوقه من ظلال، وإذا بالماء في زرقة قاتمة أو خفيفة كالعين المبصرة. وكثيرا ما تعبس السماء فلا ترى إلاَّ ما يشبه النحاس علاه الصدأ، وفي ذلك من الجلال مثل ما نحسه بإزاء أثر قديم قد كساه الزمن بذلك الطلاء القاتم، الذي يخلع على ما يكسوه من نبل القدم، ما يأخذ بكل نفسٍ صادقة الحس، وعلى شاكلة تلك البحيرة أود أن لو كان كل مقال، أود أن نترك له عمقه حتى لا يجد فيه كل قارئ ما يجد الآخر. والنفوس متباينة، وبحكم هذا التباين نفسه لن نستطيع أن نقدم لكل منها ما تبغي، فالسبيل إلى تغذية النفوس بالحق والجمال لا يمكن أن يكون بغير ترك احتمالات لا حد لها ترقد تحت ألفاظنا فتلتقط منها كل نفس ما تريد، وحسبما كان لونها الدائم أو الموقوت.

ونحن بعد ذلك لا نكتب لنسكب ما في نفوسنا في أنفس الغير، وإنما لنعين كل نفس على الوعي بمكنونها؛ إذ النفوس عامرة بكل حق وجمال، والمقال الجيد هو ما يأخذ بتلك النفوس إلى حيث يستقر منها ذلك الحق وذلك الجمال.

يخيلَّ إليَّ أن الطبيعة البشرية كقطعة الرخام حَلتَّها الطبيعة بأجمل «التجازيع»، ولكنها مختفية كما هو الأمر في الرخام، ولكي تظهر تلك التجازيع لا بد لها من محك يذهب بالطبقة السطحية التي تخفيها، وهذا المحك في الطبيعة البشرية هو الحياة. فنحن إذ نكتب لا نفعل ذلك إلا لأن الحياة قد كشفت لنا عما في طبيعتنا من «تجازيع» نطلع الغير عليها لتعينهم على اكتشاف ما اكتشفنا، فيجدون في أنفسهم ما وجدنا. ذلك أنه وإن تكن تجاربنا الخاصة لن تغني الغير عن التجربة الذاتية، إلا أنه ما من شك في أن حياتنا الروحية خاضعة لقانون عام هو قانون «ادخار الطاقة»؛ فالرواية التمثيلية نراها فتشفي النفس من غريزة مكبوتة أو أمل مكتوم، وكأننا أحيينا تلك الغريزة وحققنا ذلك الأمل، وهكذا تحل المشاهدة وما يصاحبها من مساهمة خيالية محل المزاولة الفعلية، وبهذا نجنب أنفسنا التجربة المباشرة، وندخر ما في جهدنا من طاقة، والأمر في الرواية كغيره في كل أثر أدبي أو فني.

وإذن، فنحن نكتب لنساعد الغير على اكتشاف نفسه، ونحن نريحه بتجاربنا من المزاولة الفعلية، وخلاصة تجاربنا في أكثر الأحيان ليست من الوضوح بحيث يظُن إلا أن تكون تجارب مدعاة، فالحياة لسوء حظنا أعمق من أن تسلم إلينا أسرارها، والخلق الأدبي ليس خلقا عقلياً، بل خلق حواس، فليس لرجل الفن أن ينتظر حتى تأخذ الصور الحسية عنده دلالتها العقلية، وإلا حكمنا عليه ببعد طبيعته عن إمكان ذلك الخلق، وإنما هو يأخذها عند نبعها، قبل أن تصل إلى نفسه فتسقط في الميدان العقلي الذي يشترك فيه جميع الناس.
وكيف نستطيع أن ندعي الخلق بما هو شائع بين البشر؟

ومن هذه الصورة الحسية نصوغ ما نعرضه على القارئ وقد شاطرنا صفة الإنسانية واثقين أنه واجد في نفسه ما يماثلها، ونحن بعد ذلك لا نعرض عليه ما في نفوسنا من حب أو ألم تطف الا منا وزجًّا له فيما لا يعنيه ليضيق بنا نف اسا، بل لإيماننا بأنه يحب ويألم كما نحب ونألم. والواقع أنه ليس هناك أي خلق أدبي يسند إلى حادثة بذاتها، فالكاتب للغزل لا يتغنى بامرأة بعينها بالغا حبه لها ما بلغ، وإنما أقصى ما يستطيع أن يفعل هو أن يحضرها إلى نفسه ليخلق جوًّا يستطيع بفضل ما يشيع فيه من حرارة أن ينفذ إلى صميم النفس البشرية إطلاقا.

والفنان يعرف أنه صائر إلى الفناء، وهو منذ نشأته يحس بأن في نفسه رسالة لا بد من أدائها، وهمه الأول هو تحديد تلك الرسالة وقد شاعت في نفسه غامضة، فليس لإنسان أن يزيده نصبا وقد شد عزمه لجمع ما انتثر من تلك الرسالة، ولا أن يطالبه بتأديتها دفعة واحدة، فلو أنه استطاع لما توانى، وإنما لنا وعلينا أن نمهله متلقين ما يحمل لنا من فتات، مقدرين له جهده، عالمين أنه خير للإنسانية أن تؤدي نفس واحدة رسالتها ولو نقطة نقطة من أن يملأ الناس آلاف الصفحات المستعارة.

هذا هو الأديب كما أظنه، وأما من يدَّعون الأدب بغير رسالة تطرب بها نفوسهم فتلك أرواح خلقت خطأ كما خلق أكثر الناس بغير سبب، ولا مبرر إلا إتلاف الحياة على من يستحق الحياة".

السلفية بين العلم والمنهج

في نقاش حار بين الكثير من الاصدقاء حول السلفية وكيف امتدت طريقة التفكير السلفية إلى كل الاتجاهات الفكرية والسياسة في بلادنا وفى الكثير من البلاد التي تمر بظروف مماثلة.

هذه السلفية التي تستدعى حلول الماضي لتطبيقها على مشكلات الحاضر و وتحديد أفاق المستقبل وهو توجه خطير يصيب المفكرين والسياسيين وحتى العلماء، و يجعلهم غير قادرين على القيام باللازم، اى التحليل الملموس للواقع الملموس، الأمر الذى يستدعى، من جديد، ضرورة النقاش حول الفوارق بين العلم و المنهج ، سواء في العلوم الطبيعية أم الاجتماعية.

وسأضرب أمثلة لتوضيح وجهة نظري

هل يمكن الحديث عن الوقائع الجديدة، في العلم والمجتمع، دون التحليل الملموس للواقع الملموس باستخدام أخر نتائج الاكتشافات العلمية ذات العلاقة سواء في العلوم الطبيعية أم فى العلوم الاجتماعية، وباستخدام طرائق البحث التي نجحت في اكتشافها وأصبحت هي نفسها أحد الاكتشافات العلمية الجديدة.

فهل يمكن الحديث عن جسم يتحرك بالسرعات البطيئة، منسوبة لسرعة الضوء، دون استخدام قوانين نيوتن للحركة المكتشفة في القرن السادس عشر الميلادي، وهل يمكن الحديث عن الحركة بالسرعات العالية، منسوبة أيضا لسرعة الضوء، دون استخدام النظرية النسبية المكتشفة في بدايات القرن العشرين؟! وهل يمكن القيام بالأبحاث الميكروبية دون استخدام طرائق البحث التي استخدمها باستور في القرن التاسع عشر وقادته إلى اكتشاف الحقائق العلمية المتعلقة بالميكروبات؟!

إذا كان هذا على صعيد العلم المادي حيث يمكن قياس النتائج وبالتالي تقييم طرق البحث ونتائجه، ولكن الأمور تزداد تعقيدا عند دراسة المجتمعات لأن نتائج وطرق هذه الدراسات يتداخل معها و يؤثر فيها المصلحة الاجتماعية للقائمين عليها، و لأن النتائج المكتشفة لا يمكن الإقرار بصحتها على وجه اليقين، لأنه لا يمكن قياسها، مثل ما يحدث على صعيد العلوم الطبيعية.

ولكى أزيد الأمور وضوحا، فان الاكتشافات العظمى في فهم حركة المجتمعات، التي يمكن الاستدلال عليها بوضوح، تبدء فى القرن الرابع عشر على يد العربي ابن خلدون واخر اكتشافاتها في القرن الواحد والعشرين على يد الفرنسي توماس بكيتي.

ولكن الأمر ، على الصعيد الاجتماعي ، يزداد تعقيدا ، لأن السلوك السياسي و الاجتماعي للقوى الاجتماعية و أحزابها السياسية ليست انعكاسا مباشرا لفهمها الاجتماعي النظري ، بل هي انعكاس مباشر لمصالحها الاجتماعية

او للمصالح الاجتماعية التي تطمع لتمثيلها أو تنتهى الى تمثيلها، حتى و لو تبنت بعضها نفس الاكتشافات النظرية ، و لعل الحزب الاشتراكي الألماني يقدم مثالا واضحا على ذلك ، فلقد بدء انقسامه على الموقف السياسي من الحرب العالمية الأولى وليس على الاكتشافات النظرية ، الاجتماعية و السياسية ، لكبار مفكري الحزب.

إذن سلفية التيارات السياسية والاجتماعية تتحدد عند استخدامها النتائج السياسية والاجتماعية السابقة وحتى البرامج السياسية نفسها رغم تغير الظروف الاجتماعية والسياسية، ولعل التيارات السلفية الدينية تقدم لنا نموذجا شديد الدلالة على ذلك.

إن مقاومة التفكير السلفي تبدء من عدم تجاهل الاكتشافات العلمية والاجتماعية والاقتصادية وطرائق البحث التي تم الوصول اليها واحيانا النتائج اذا كانت مازالت ملائمة للزمان الجديد، واذا تم تجاهلها، وهو حق مشروع للبشر، فإننا نتحدث عن قوى علمية او اجتماعية او سياسية مختلفة، سلفية مهما كان توجهها الأصلي ، يساري او يميني او ديني ، و عدم تطابق اسمها القديم مع محتوى وتوجهات نشاطاتها الجديدة.

باريس والقاهرة

بين البونابرتية والخديوية

يبدو الأمر مثيرا للجدل، فلماذا قام نابليون الثالث بتحديث وتوسعة مدينة باريس في أعقاب ثورة 1848؟ ولماذا قام الخديوي إسماعيل بتطوير القاهرة وانشاء مركزها الجديد خارج الحدود القديمة للقاهرة الفاطمية؟

تحديث نابليونى لم يتوقف على إعادة تخطيط وتوسعة الشوارع الرئيسية في قلب المدينة وهدم الأحياء القديمة، بل امتد الى ضم المدن القديمة المجاورة والى خدماتها التحتية وإنشاء الحدائق والمتنزهات ومحطات القطارات فلماذا قام بذلك؟ هل يمكن اختصار هذا التحديث في الخبرات المكتسبة من ثورة 1848 حيث كانت تدور حرب الشوارع والمتاريس في شوارعها الملتوية والضيقة بحيث أصبح مواجهة الغضبة الجماهيرية صعبا على قوات الأمن، بل وضع المقار الأمنية ذاتها تحت التهديد الشعبي.

ام ان هذا التحديث كان تعبيرا عن العظمة الإمبراطورية الكاذبة ومحاولة نابليون الثالث التشبه بالعظمة الحقيقية لنابليون بونابرت الذي قام بالجهد الأولى المحدود لتطوير المدينة؟

في الغالب أن كلا من الاعتبارين كان يشكل الخلفية الحقيقية لهذا التطوير الذي بدأ مع استتباب سلطة الإمبراطور الجديد عام 1852 الذي حول فرنسا، بعد أن خدع الجميع، من جمهورية كان هو رئيسها إلى إمبراطورية تحت سلطته المطلقة.

ولكن سخرية القدر أن جاءت الثورة الباريسية عام 1870 وسط أزمة وطنية عامة بعد الهزيمة من الألمان لتطيح بنظامه وتؤسس بدايات الجمهورية الثالثة برغم الشوارع الواسعة، فلا يحمى حذر من قدر، فثورة شعبية حقيقية لن توقفها الشوارع الواسعة ولا قتال فيها.

وبصرف النظر عن الدوافع فإن باريس الحديثة، باريس نابليون الثالث، تركت أثرا هاما على الخديوي إسماعيل صاحب الأحلام الإمبراطورية، فأنشأ القاهرة الخديوية ونقل مقر الحكم الرئيسي من قلعة الجبل إلى قصر عابدين الذي أنشأه.

ولكن، مرة أخرى، فان الشوارع المستقيمة لن تردع أو توقف ثورة شعبية حقيقية ، فثورة حقيقية تمتد تأثيراتها إلى كافة أجهزة الدولة وتجعلها عاجزة عن مواجهتها بل أن بعض من هذه الأجهزة تنضم هي ذاتها إلى الثورة او تقف على الحياد المؤقت انتظارا للحظة تغيير موازين القوى أو تتعرض للتفتيت والانهيار إذا أسئ استخدامها ،

ففي زمن الثورات يصبح الزمن سريعا جدا والتغييرات متلاحقة بحيث يصبح صعبا تتبع التغييرات إذا لم يتملك المراقب وعيا ورؤية واضحة ، ولعل ميداني عابدين و التحرير ، أكبر ميادين القاهرة الخديوية ، يقدم لنا مثالا باهرا عن ذلك في أحداث الثورة العرابية والثورة المصرية الحديثة.

فهمت يا لبيب أم تريد مزيدا من القول!!

البونابرتية بين هيجل وبيتهوفن وماركس

بعد 200 عاما على وفاة نابليون

"إنه روح أوروبا يمتطي جوادا" هيجل

السيمفونية الثالثة "إيرويكا" لبيتهوفن - مهداة أولا إلى نابليون بونابرت ثم سحب الاهداء وأسماها البطولة "إيرويكا"

"أن التاريخ يعيد نفسه الأولى كمأساة، والمرة الثانية كمهزلة "- ماركس في الثامن عشر من بروميير

نابليون بونابرت ابن الثورة الفرنسية الكبرى الذى أشاع الآمال لدى الرأي العام الأوربي بمثقفيه ولكنه انفرد بالسلطة وعين نفسه امبراطورا والبس نفسه التاج ولم يسمح لأحد أن يقوم بذلك فى احتفال التتويج، وأصاب المثقفين بالإحباط فتغيرت مواقفهم.

ويدور الزمان وتقوم ثورة 1848 وينجح ابن اخية لويس بونابرت فى الاستيلاء على السلطة ويعين نفسه امبراطورا حيث يلقى سخرية الرأي العام الأوروبي ويسخر منة الجميع ويكتب ماركس في تحليله "أن التاريخ يعيد نفسه الأولى كمأساة، والمرة الثانية كمهزلة.»

وبرغم ذلك فإن لفظ البونابرتية دخلت الأدب السياسي كمعنى لشكل معين من أنظمة الحكم، وما زالت تستخدم إلى الآن.

يبقى اخيرا الإشارة الى أن ما كتبه ماركس حول الدراما التاريخية النابليونية هو قول صحيح في الحالة البونابرتية بين نابليون و لويس بونابرت ولكنه لا ينطبق على غيره من أحداث التاريخ، فالتغييرات الاجتماعية أكثر تعقيدا بحيث لا يمكن إخضاعها لقواعد ثابتة، فليس بالضرورة أن يتكرر الأمر بشكل كاريكاتيري.

الصرامة ونجيب محفوظ!!

الصرامة لفظ ساحر، ولكن هل تستطيع الوصول اليها وانت تفكر؟ هل تستطيع ان تكون صارما وعادلا في نفس الوقت؟ هل تستطيع أن تكون صارما وعادلا وأن تكون قادرا على التخلص من الميول العاطفية وان تراعى خصوصية المجال الذي تتعامل معه وبه؟ اسئلة صعبة تتطلب هى نفسها أن تعامل نفسك وأفكارك بنفس الصرامة وان تتمسك بالعدل؟ ولكن العدل نفسه لفظ خادع لأن محتواه يختلف ليس فقط بمجال تطبيقه، بل ايضا بالصراع الاجتماعي الدائر منذ انقراض المشاعة البدائية ونشوء الملكية الخاصة.

لقد كتبت عن نجيب محفوظ المواطن وفرقت بشكل واضح بينة وبين محفوظ الكاتب وكنت، كما أعتقد، هينا لينا في إبداء وجهة نظري لأني أعرف جيدا أنه قد تم تأليهه في نظر البعض وان النقاش مع الآخرين يجب أن يبدأ

من حيث هم ، رغم إدراكي أن محفوظ المواطن سيظهر في أعمال محفوظ الكاتب ولكنى كنت اعتقد ، ومازلت ، أن كتابات الكاتب تكتسب كينونتها الخاصة ويجب رؤيتها في حدودها فقط.

ولذلك فقد كتبت في تعليقي السابق

"وبرغم أن المعتقدات الفكرية للكاتب ستنعكس، بالضرورة على أعماله الأدبية، إلا أن الأعمال الأدبية تكتسب كينونتها المستقلة ويجب أن يكون التعرض لها في حدودها وفى حدود تطور كتابات الكاتب نفسها".

ولكن هل هذا صحيح؟ وكيف أصل الى فهم صحيح للعمل الأدبي؟ كيف يصل المواطن إلى رؤية للعمل الأدبي تقترب من رؤية الكاتب الذي فقد كينونته كمواطن واختفى داخل العمل الأدبي!!

الامر يحتاج الى استشارة الخبراء، الى الاستماع إلى نصيحة كبار النقاد والا ما هي وظيفتهم؟ أليس كذلك؟

ولذلك بحثت عن رؤية محمد مندور للأمر، وبرغم أنى لم أجد اجابة شاملة لتساؤلاتي لأن طبيعة مشكلتي لم تكن مطروحة بالشكل الذي أواجه الآن، ولكنى وجدت إجابة قد تستطيع أن تجد لي مخرجا.

نعم أن دراسة الكاتب باعتباره مواطن خارج العمل الأدبي تساهم في فهم العمل الأدبي، ولكنها يجب أن تبقى في هذه الحدود.

لكل هذا فإن على كل من يتفق او يختلف مع هذه الرؤية أن يكون عادلا فلا أحد يأتيه وحى من السماء لا المواطن ولا الكاتب ولا القارئ بل هي " الحرب والمكر والخديعة " ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمني بحجر!!!!!!

ما بين نجيب ونجيب!!

السؤال الذي يعاود الظهور الدائم ويتكرر دائما عن العلاقة بين الكاتب وما يكتبه، فالكثير من النقاد، بل والرأي العام ذاته يخلط كثيرا بين العمل الأدبي وبين الكاتب بحيث أحيانا كثيرا يتم تالية الكاتب لأنه أنتج أعمالا أدبية عظيمة، وكثيرا ما يتم الحط من قيمة الكاتب أو رفعها لأنه اتخذ مواقف سياسية معينة. وبرغم أن المعتقدات الفكرية للكاتب ستنعكس، بالضرورة على أعماله الأدبية، إلا أن الأعمال الأدبية تكتسب كينونتها المستقلة ويجب أن يكون التعرض لها فى حدودها وفى حدود تطور كتابات الكاتب نفسها

.

وأحد أهم الكتاب المصريين الذين يجب التوقف عند ادبهم فقط هو نجيب محفوظ، أما نجيب محفوظ المواطن فهو شيء أخر رغم أن آراء محفوظ المواطن تنعكس بشكل غير مباشر في كتاباته الأدبية، ولا أريد أن أتوسع فى نقاش محفوظ المواطن وسأكتفي بمثال من أراء محفوظ المنشورة في خطاب له إلى صديقة أدهم رجب حيث يكتب "عزيزي أدهم

أخبار الشيوعية غطت عندنا على المعاهدة نفسها، فضلا عن الأدب والسينما، فما ندري إلا والبوليس يطرق على البيوت، ويسوق الشابات والشبان إلى السجون، وكلهم من المثقفين ثقافة عالية، ثم صودرت الجرائد والمجلات التي تدافع عن العدالة الاجتماعية، وعلى رأسها "الوفد المصري".. الخ، وقيل من ضمن ما قيل الآن أن الدكتور محمد مندور مقبوض عليه، طبعا واسطة بين النحاس باشا وروسيا، وأن الوفد متهم بالشيوعية، وقد جاوز المقبوض عليهم ال،300 ويخيل إل ي أن لهذا القبض صلة بالسياسة الداخلية، ويخيل إل ي أيضا أن مهمة إسماعيل صدقي باشا في الحكم هي القضاء على ما يسمونه باليسارية قبل كل شيء) هذا شيء يسرني لأنني في طريق الرأسمالية (وبعد".............

المخلص..

ولا نحتاج إلى التوقف عند الجزء الاول من الخطاب لأنه مكتوب في هيئة إخبارية ليبلغ صديقة موقف رئيس الحكومة، إسماعيل صدقي، فى محاولته تمرير مشروع معاهدة صدقي بيفن سنة 1946 ، هذه المعاهدة التي عارضها الشعب المصري وكل قواه الحية وقادت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال إضرابا عاما فى كل البلاد أسفر في النهاية عن استقالة حكومة صدقي نفسها التي حاربت مقاومة الشعب المصري وقبضت على قياداته بتهمة الشيوعية ، التهمة التقليدية القديمة والدائمة.

ويبدو أن المواطن محفوظ لا يدرك الهدف الحقيقي من حكومة صدقي، حكومة الاعتداء على الديمقراطية والدستور والمعاهدة المرفوضة شعبيا وهي الوصول الى الاتفاق مع الاحتلال إلى الاتفاقية المرفوضة، ويبدو أن المواطن محفوظ يؤيد الاعتداء على الديمقراطية ما دامت تلتقي مع معتقداته السياسية.

أن هذا المواطن يتبنى، لاحقا، مواقف سياسية تتناقض تناقضا واضحا حتى مع آماله وآمال الشعب المصري في تناقض واضح مع مواقف العديد من المثقفين والأدباء الآخرون سواء من الأجيال السابقة أم اللاحقة مثل طه حسين وسلامة موسى ونعمان عاشور وأمل دنقل الذين استمروا في تطوير مواقفهم انسجاما مع تطور مصالح الشعب المصري.

أن نجيب محفوظ المواطن ليس نجيب محفوظ الكاتب وحتى كتاباته يجب النظر إليها بنظرة نقدية في كافة جوانبها الادبية والاجتماعية، بل والسياسية فليس لدينا الهة ولا يجب تالية أحد، ولا يجب التوقف عن ذلك فجائزة نوبل ليس لها علاقة بالنقد الأدبي.

الشعر بين الموسيقى والعروض

لقد استوقفني ما كتبه محمد مندور عن الشاعر حسن كامل الصيرفي لسببين، الأول منهما أن حسن كامل الصيرفي قد ذهب فى غياهب النسيان برغم تقدير مندور الكبير له وبرغم انه كان عضوا في جماعة أبولو، والثاني هو رؤية مندور للشعر ، وقد لا يتضح الأمر إلا بقراءة ما كتبه مندور أولا في كتابة " الشعر المصري بعد شوقي - جماعة أبولو"

"وأما عن تجديد الصيرفي في موسيقى الشعر وما سماه "خروجا عن الذوق العروضي طوعا للذوق الموسيقي" كعدم التزام القافية الموحدة واصطناع القافية المزدوجة في الكثير من قصائده، وعدم التزام الوحدة العروضية للبيت كما تحجرت في تقاليد الشعر العربي القديم والتحرر في توزيع التفاعيل في وحدات مختلفة الكم دون إخلال بالموسيقى التي فطر عليها الصيرفي، وكانت كما أوضحنا خطوته الأولى للتدريب على نظم الشعر عندما كان في مستهل حياته ينظم الألفاظ في أسماط موسيقية دون أن ينظر إلى معناها أو تركيبها اللغوي - كل هذه التجديدات الموسيقية اعترف لنا الصيرفي بأنه قد استوحى فكرتها من الموشحات الأندلسية التي كان يدمن قراءتها والتأمل فيها وحفظ بعضها منذ شبابه الغض.

والذي لا شك فيه أن حسن كامل الصيرفي قد جدد تجديدا أصيلا في موضوعات الشعر وروحه وموسيقاه ووسائل تعبيره الرمزي، ولكنه لم يقصد هذا التجديد، ولا افتعله، ولا رسم له خطة نظرية أو نقدية، وإنما جاء تجديده وجاءت أصالته من ذلك النوع الذي يدخل تحت عبارة الكاتب الفرنسي الشهير أندريه جيد "إن الأصالة الحقة هي تلك التي تجهل نفسها."

وبالرغم من كل هذا لا يستطيع الناقد المنصف إلا أن يأسف عندما يلاحظ أن هذا الشاعر الكبير قد ظل حتى اليوم مغمورا لا يحتل المكانة الأدبية والاجتماعية التي تليق بشاعريته الفذة، كما يستشعر أسى أشد مضاضة عندما يعلم أن هذا الشاعر الموهوب لم يستطع أن ينشر حتى اليوم غير ديواني "الألحان الضائعة "و"الشروق" بينما لا تزال لديه أربعة دواوين أخرى قيمة تنتظر من ينشرها، وهي كما قلنا "قطرات الندى "و"رجع الصدى" و"حول النور" ثم ديوان "دموع وأزهار" الذي يضم مراثيه لأحبابه وأصدقائه، وقد جاء في هذه المراثي بأروع الشعر وأشده نفاذا إلى القلب، مما يضعه في القمة من شعراء الرثاء في الأدب العربي كله".

ولعل أبرز ملاحظات مندور حول الصيرفي هو تجديده فى موسيقى الشعر و في موضوعات الشعر وروحه وموسيقاه ووسائل تعبيره الرمزي فى نفس الوقت التحرر في توزيع التفاعيل في وحدات مختلفة الكم دون إخلال بالموسيقى الأمر الذى يوضح إلى حد بعيد كيف أصبح مندور مناصرا ومؤيدا كبيرا للشعر الحديث ، لاحقا ، هذا الشعر الحديث الذي كان يحوله العقاد إلى لجنة النثر للاختصاص عندما كان رئيسا للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للآداب!!!!!!

وبرغم ذلك فان الصيرفي نجح في نشرة دواوينه الباقية بعد زمن طويل من وفاة أبي ولكنه لم يصبح جزءا من حركة الشعر الحديث التي تجاوزت انجازاته الباهرة ولعل هذه الانجازات كانت أحد مقدمات انبثاق الشعر الحديث.

فالصيرفي في ديوان الشروق المنشور 1948 يقول

عيناك حولتا حياتي جدولا ------------تهفو إليه حمائم الوديان

تتمايل الأزهار عند ضفافه ------------ متجددات العطر والألوان

وتمر بي النسمات تلثم صفحتي-------في مثل همس الوحي في الوجدان

تحنو على الناشرات غصونها -----------فأقبل الأغصان وهي دوان

عيناك حولتا حياتي جدولا------------- يجري مع الأيام دون توان

بين سيبويه والخليل بن أحمد

"مبتفهموش فيها"

والمتمرد المبادر

محمد مندور عندما ينتهي من مناقشته لتطور اللغة لا يترك الخليل بن أحمد في حالة واليكم كيف كتب في كتابه "في الميزان الجديد. "

وهذا الجزء من مقال هو محصلة دراسته لبحور الشعر العربي، دراسة تطبيقية مع التسجيلات الصوتية في السوربون، مع معرفة دقيقة بالشعر الأوروبي ، والمقال الكامل عن أوزان الشعر منشور فى الكتاب ، حيث يتناول كلا من الشعرين ، الأوربي والعربي.

دراسة علمية حقيقية، ولكن للأسف لم يقم مندور بترجمتها ومن المفروض انها محفوظة في جامعة الإسكندرية ولم نجد أصلها في المنزل ولكن أهميتها انها تقدم مثالا باهرا على الأهمية الحاسمة للتطور العلمي للنقد و الا لأكتفينا بما قدمه الخليل ابن أحمد وسيبويه منذ عشرات المئات من السنين.

يبقى أخيرا أن أشير أنه عند عودة مندور من فرنسا دون أن يحصل على الدكتوراه لأسباب منها أنه كان لدية برنامجه الخاص للتأهيل ولم ينصاع لبرنامج طه حسين ، ومنها هذه الدراسة التي نال عليها شهادة الدبلوم العالي من السوربون بالإضافة الى الدبلومات العالية فى القانون والتشريع والاقتصاد وتاريخ العمارة ، طلب منه التقدم بهذه الدراسة لنيل الدكتوراه فرفض حيث صرح قائلا " مبتفهموش فيها " ، والمؤسف أن الحال مازال كما هو منذ تصريح مندور " مبتفهموش فيها " ، وما زلنا عاجزين عن تطوير استنتاجات وقواعد الخليل ابن احمد!!!

وأنا أعرف أن فهم ما كتبه مندور صعب جدا على القارئ العادي وقد يكون كذلك لدى بعض المتخصصين ولكنى نشرته لكى انبهه إلى حقيقة تطوير الدراسات العلمية التي تطور النقد الأدبي ولا تجعلنا مجرد ناقلين لاستنتاجات الجدود المبهرة، الخليل أبن أحمد وسيبويه!!!!

واليكم النص المندورى

الشعر العربي

ليس من شك في أن الخليل بن أحمد كان رج الا عبقرياً نفخر به مع من نفخر بهم من أجداد، ولكن العلم لا يعرف الوقوف، ولقد تقدمت الدراسات اللغوية تقد اما يحملنا على أن نطمح إلى معرفة أدق من معرفة الخليل بالعناصر الموسيقية في شعرنا العربي، والذي لا شك فيه أن الخليل قد وضح حقيقة أساسية في الشعر العربي لا نستطيع أن نغفلها، وهي انقسام كل بيت إلى تفاعيل متساوية، كما هو الحال في الرجز والهزج وغيرهما، أو متجاوبة)التفعيل الأول يساوي الثالث والثاني يساوي الرابع(، كما هو الحال في الطويل والبسيط وغيرهما، وهذا التقسيم من أسس الموسيقى والشعر عند الأوروبيين اليوم، فهنالك وحدات موسيقية متساوية isometriques وأخرى متجاوبة symetriques كما وضح الخليل.

ولكننا لا نكاد نترك وجود التفاعيل إلى بنية تلك التفاعيل حتى نختلف مع الخليل؛ وذلك لأنه لم يدلنا على وحدة الكلام وهي المقطع، وأكبر ظني أن الخليل لم يعرف العروض اليوناني، وإلا لفطن إلى المقطع، وإن يكن قد علم — فيما نرجح — بالموسيقى اليونانية بفرعيها: علم الإيقاع rythmique وعلم الانسجام Les harmoniques والعروض اليوناني كما هو معلوم يقوم على المقطع. والسبب الذي منع الخليل من الوقوع على المقطع مزدوج فيما أظن:

(1)

عدم كتابة الحروف الصائتة القصيرة voyelle bréves التي نسميها حركات «الفتح والضم والكسر» في صلب الكتابة العربية التي لا تزال إلى اليوم مقطعية إلى حد بعيد؛ بمعنى أننا نكتفي برسم الحروف الصامتة ،وأما الصائتة فلا نكتب إلا الطويل منها «الألف والواو والياء»، فكتابتنا وسط بين الكتابة الفينيقية والكتابة الإغريقية، ومن الثابت تاريخياً أن الإغريق عند أخذهم بالكتابة الفينيقية قد أضافوا إليها رسو اما خاصة للحروف الصائتة كلها طويلة وقصيرة، وانبنى على ذلك أن الخليل لم يفطن إلى أن الحروف الصائتة القصيرة تكون مع الحرف الصامت Consonne الذي توضع فوقه كحركة، مقطعا تامًّا مستقلاً؛ ولهذا اكتفى في تقطيع التفعيل بالحروف التي تكتب مميِ ازا بينها بالحركة والسكون.

(2)

السبب الثاني هو أن اللغة العربية كغيرها من اللغات السامية تغلب فيها الحروف الصامتة فيما يرجح، وتلك الحروف يقع معها عادة الوقف أي السكون؛ ولهذا لاح للخليل أن التتابع إنما يقع في الحركات والسكنات.
بينما نجد في اللغة اليونانية أن الحروف الصائتة هي الغالبة، ولهذا لا نحس فيها بالسكنات الموجودة في اللغة العربية، بل نحس فوق كل شيء باختلاف كم الحروف الصائتة في تتابعها.

هذان السببان لا يجوز أن يحجبا عنا الحقيقة اللغوية التي تصدق على كل لغة، وهي أن المقطع هو وحدةالكلام ، وفي اللغة العربية أربعة أنواع من المقاطع، هي:)١(المقطع القصير المفتوح، وهو المكون منحرف صامت وحرف صائت طويل «ألف أو واو أو ياء، حروف اللين» مثل: «كا» في كانت .

)٢(المقطع الطويل المزدوج وهو المكون من حرف صامت وحرفين صائتين مثل: بي bia في بيت مع احتفاظنا بالمناقشة العلمية التي تدور حول طبيعة الياء في هذا المقطع أهي صائتة أم صامتة) .٣(المقطع المغلق وهو المكون من حرف صامت، ثم حركة فحرف صامت آخر نحو «تن» في بيتن، والحرف الصائت في هذا المقطع قصير دائ اما. فهذا قانون مهم من قوانين اللغة العربية وليس له استثناء إلا في حالات محصورة أهمها حالات الوقف على الاسم المنون مثل «نار»، فهي تتكون في هذه الحالة من مقطع واحد مغلق حرفه الصائت طويل. وكذلك الوقف في حالتي التثنية والجمع مثل «محمدان ومحمدون» فالمقطع «دان» والمقطع «دون» كل منهما حرفه الصائت طويل. وإذن فالقانون العام هو قصر الحرف الصائت في المقطع المغلق، فهل نعتبره مقطعاا طوي الا أم قصي ارا؟ الواقع أنه مقطع طويل ويأتيه الطول من الزمن الذي يستغرقه الحرفان الصامتان ،فهذا الزمن لا بد من حسابه وإن لم يحسبه علماء العروض الإغريقي واللاتيني .
ولقد أثبت البحث الحديث أنه من الواجب أن يحسب كم الحروف الصامتة في جميع اللغات ومن باب أولى في اللغات السامية؛ حيث تغلب تلك الحروف، ثم إنه إذا كانت في جميع اللغات حروف آنية momentanées كحروف الانفجار «باء ودال مث الا »، فإن هناك حروفاا متمادة continues كالسين واللام مث الا، فهذه من الممكن أن نمد في نطقها كما نشاء، وإذن فالمقطع المغلق نعتبره طوي الا .

ونخلص من هذا إلى وجود مقاطع في اللغة العربية، وهذه المقاطع تختلف في كَ مِها، فهل نستنتج من ذلك أن الشعر العربي كَ مِيٌّ؛ بمعنى أن كل تفعيل فيه يتكون من مقاطع مختلفة الكم بنسب محدودة؟

ذلك ما رآه المستشرق إولد Ewald فقد وضع للشعر العربي عرو اضا على غرار العروض اليوناني، وهو عروض مستقيم سهل الفهم مبسط عن عروضنا تبسي اطا كبي ارا، ولقد درسناه للطلبة بالجامعة فأجادوا فهمه ،ويستطيع القارئ أن يجده في الجزء الثاني من «قواعد اللغة العربية Arabic Grammar «للمستشرق المشهور ريت .Right ولكننا مع ذلك لا نقر إولد ومن نحا نحوه من عامة المستشرقين في اكتفائهم برد العروض العربي إلى المقاطع الكمية كما هو الحال في العروض اليوناني واللاتيني؛ وذلك لأنهم لم يبصرونا بالإيقاعRythme ، فالكم كما قلنا لا يكفي لإدراك موسيقى الشعر، بل لا بد من الارتكاز الشعري الذي يقع على كل تفعيل ويعود في نفس الموضع على التفعيل التالي وهكذا، ولقد كان على نسب محدودة يوضح ذلك الإيقاع، وكذلك تتابع المقاطع المختلفة الكم.

والواقع أن الارتكاز في اللغة العربية موضوع شاق لا يزال في حاجة إلى البحث. نحن لا نظن أن المستشرقين يستطيعون بحثه؛ لأن معرفتهم باللغة مهما اتسعت لا يمكن أن تصل إلى الإحساس بمسائل موسيقية لغوية دقيقة كهذه، فهل مستطيعون نحن ذلك؟

ليسمح لي القارئ بأن أقول: إنني قد حاولت حل هذه الأشكال في بحث طويل كتبته باللغة الفرنسية بعد دراسة وتحليل لثلاثة أبحر من الشعر العربي بمعمل الأصوات بباريس، هي الطويل والبسيط والوافر.٧ ولنأخذ مث الا من هذه الدراسة بيت امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدول

عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فهو يوزن على مذهب إولد كما يأتي «مع رمزنا للمقطع القصير بالعلامة ب والطويل بالعلامة:»—

ولكن هذا الوزن لا يبصرنا بالحقيقتين الكبيرتين اللتين يقوم عليهما الشعر في جميع اللغات، وهما: الكم والإيقاع.

الكمMesure

نقصد بالكم لا كم كل مقطع منفر ادا، فذلك ما سبق أن أوضحناه، بل كم التفاعيل، فنحن هنا أمام تفاعيل متجاوبة)التفعيل الأول يساوي الثالث والثاني يساوي الرابع(، ولكننا مع ذلك نسلم بجواز دخول زحافات وعلل. فكيف يستقيم الكم برغم هذه الزحافات والعلل التي تنقص من التفعيل في الغالب؟

هذه المشكلة قد ح يَّرت المستشرقين، ولقد حاول العالم الفرنسي جويار Guyard **أن يحلها في كتاب له بعنوان**Nouvelle theorie de ja metrique arabe **، وفيه يطبق مواضعات الموسيقى وأصولها على الشعر العربي، ولكنه لا يدخل في حسابه غير الحروف الصائتة كما يفعلون في الموسيقى، فيغطي تلك الحروف المختلفة بقيم متفاوتة من نقطة بيضاء إلى نقطة سوداء إلى كروش مزدوج ... إلخ. ومن البين أنه قد أخطأ لسوء الحظ بإهماله كم الحروف الصامتة العظيمة الأهمية في اللغة العربية واللغات السامية عامة كما أشرنا.**

والذي اهتدينا إليه بحساب الآلات الدقيقة هو ما يأتي)مقدرين كم كل تفعيل بأجزاء من مائة من الثانية(:

٧٤ | | | ١٢٣ | ٧٧ | | | ١٣٣.

وهذه نتائج غريبة نلاحظ عليها:

) •١(

أن التفاعيل المزحفة كالتفعيل الخامس والسابع قد ساوى كمها في النطق مع كم التفاعيل الصحيحة، بل زاد.

) •٢(

أن هناك فروقاا بين التفاعيل المتساوية كالتفعيل الثاني، والرابع والسادس والثامن.

وتفسير ذلك هو:

•أو الا: أن الفروق التي ظهرت في حساب الآلات لا تدركها الأذن؛ لأنه من الثابت أن الفرق الذي لا يزيدعلى من الثانية لا تكاد تدركه الأذن، وإذن فهذه نستطيع إسقاطها.

•ثانيا: وأما عن مساواة التفاعيل المزحفة للتفاعيل الصحيحة فهذا يفسر بحقيقة مهمة تحدث عند إنشاد الشعر، وهي عبارة عن عمليات تعويض نقوم بها آلياً، وهذا التعويض يحدث بطريقة مختلفة؛ منها: تطويل حرف صائت بشرط ألا ينتج عن ذلك لبس يأتي من قلب الحرف القصير بطبيعته اللغوية إلى حرف طويل، ومنها:

مد النطق في حرف صامت متماد كالسين أو اللام أو غيرهما، ومنها: الصمت بعد لفظ أو عند حرف آني كحروف الانفجار، مثل: الباء والفاء والدال ... وغيرها.

إذن، فالزحافات والعلل لا تغير شيئا في كم التفاعيل عند النطق، وهي لذلك لا تكسر الوزن.

الارتكاز الشعري

الارتكاز عنصر أساسي في الشعر العربي، بل عنصر غالب، ومن تردده يتولد الإيقاع؛ ولهذا بحثنا عنه في عناية، والذي يبدو لنا هو أن هناك ارتكا ازا على المقطع الثاني من التفعيل القصير «فعولن». وأما التفعيل الكبير فيقع عليه ارتكازان؛ أحدهما: أساسي على المقطع الثاني، والآخر: ثانوي على المقطع الأخير في «مفاعيلن». وقد رمزنا للارتكاز الأساسي بالعلامة) -(وللارتكاز الثانوي بالعلامة)//(. ومن المعلوم أن الارتكاز لا يقع إلا على مقطع طويل، ومن ثم نلاحظ أن هذا الوزن لا بد أن يسلم منه دائ اما مقطع طويل بعد المقطع الأول القصير، فإذا لم يحدث ذلك انكسر البيت، فالمجموعة) ب//(الموجود في أول كل تفعيل من البحر الطويل هي النواة الموسيقية للبيت، وهي عبارة عن وتد مجموعة في لغة الخليل.

ومن عودة الارتكاز على هذا المقطع من كل تفعيل يتكون الإيقاع؛ لأنه كما قلنا عبارة عن عودة ظاهرة صوتية ما على مسافات زمنية محددة.

وإذن، فاستقامة الوزن أو عدم استقامته لا تعود إلى الكم الذي تؤثر فيه الزحافات والعلل تأتي ارا ظاهرياً فقط، إلا إذا نتج عن هذه الزحافات والعلل فقدان للنواة الموسيقية التي تحمل الارتكاز.

ولكن، هل ينتج عن ذلك أن الشعر العربي شعر ارتكازي؛ بمعنى أن مقاطعه تتميز بأنها تحمل ارتكاز ضغط أو لا تحمله؟ الجواب أي اضا بالنفي، فالمقاطع العربية كما تحمل الارتكاز تتميز بالكم كذلك، وإذن فالشعر العربي يجمع بين الكم والارتكاز وربما كان هذا سبب تعقد أوزانه.

ونلخص طبيعة الأوزان العربية بأنها تتكون من وحدات زمنية متساوية أو متجاوبة هي التفاعيل، وأن هذه التفاعيل تتساوى أو تتجاوب في الواقع عند النطق بها بفضل عمليات التعويض، سواء أكانت مزحفة معلولة أو لم تكن، وأن الإيقاع يتولد في الشعر العربي من تردد ارتكاز يقع على مقطع طويل في كل تفعيل ويعود على مسافات زمنية محددة النسب، وعلى سلامة هذا الإيقاع تقوم سلامة الوزن.

وهكذا ننتهي في هذا الحديث إلى ما انتهينا إليه في الحديث السابق من قيام جميع الأشعار على عنصري الكم والإيقاع، وأما موضع الاختلاف بين الأشعار المختلفة فهو في كيفية تحقيق هذين العنصرين.٨

---

1 كتابة المسرحيات شعرا، رأي نادى به الأستاذ خشبة في عدة مقالات بالرسالة وهو رأي لا نقره.

2 هذا البيت في مطلع الأغنية الثامنة من «الإلياذة»، وترجمته: «أيتها الملكة، إنك تأمرين بتجديد ألم لا تمكن العبارة عنه!» قاله إينوس بطل الملحمة عندما طلبت إليه ديدون ملكة قرطاجنة أن يقص عليها نبأ ما كان من تدمير الإغريق لمدينة طروادة وطن البطل الأصلي.

3 ترجمته: «دق ناقوس المساء ينعي النهار المدبر».

4 الإنجليز يضمون حرف r إلى f وإلى t في المقطعين الثالث والسادس، ولكنا جارينا التقسيم العلمي.

5 وترجمته: «نعم، لقد أتيت أعبد الرب الخالد في معبده».

6 يسمى الأستاذ الزيات الكلاسيكيين بالإتباعيين والرومانتيكيين بالاتباعيين، ولكنهم جميعاا كانوا في الحق اتباعيين: الكلاسيكيون أخذوا عن اليونان واللاتين، والرومانتيكيون أخذوا عن القرون الوسطى، أي عن الأدب الروماني وهو ذلك الأدب الذي كتب باللغة أو اللغات الرومانية Langues Romanes واللغة الفرنسية إحدى هذه اللغات، فالرومانتيكيون قد فضلوا أن يستوحوا أدبهم القومي من القرون الوسطى بد الا من الرجوع إلى قدماء الإغريق واللاتين، وهذا هو سبب تسميتهم بالرومانتيكيين.

٧ هذا البحث لا يزال مخطوطا؛ لأن الحرب حالت دون نشره بأوروبا ولا يستطيع نشره غير هيئة علمية لكثرة السجلات الصوتية والرسوم فيه، ثم لخصوصية موضوعه.

الرقيقة والنادرة والصراع الدولي!؟

لا يذهب خيالكم بعيدا فالصراع الدولي المحتدم على الصعيد العالمي، بعد تغيير الأوزان النسبية للقوى العظمى، يحتوي داخلة على صراعا، ليس حول كينونة بشرية رقيقة ونادرة، بل حول الرقائق الاليكترونية وحول العناصر المعدنية الأرضية النادرة.

فالعناصر الأرضية النادرة تتكون من خمسة عشرة فلزا وتقع في خانة واحدة في جدول مندليف للمواد ويضاف اليها عنصرين اخرين لانهما يتمتعان بالكثير من الخواص المتشابهة.

وهذه العناصر الأرضية النادرة ليست في حقيقتها نادرة، بمعنى أنها موجودة ومنتشرة في مكونات القشرة الأرضية، ولكنها لا تتواجد في هيئة تجمعات كبيرة مثل النحاس او الحديد او الالمنيوم، بل تختلط اختلاطا كبيرا بنسب تركيز صغيرة داخل مكونات القشرة الأرضية لذلك فان استخراجها عالي التكلفة وعالي الاستهلاك للطاقة الكهربائية وذو تأثير سلبي كبير على البيئة.

لذلك فإنه مع زيادة الاحتياج إليها في التطبيقات العلمية والإنتاجية المتطورة فإن الدول الصناعية المتقدمة اعتمدت على تطور إنتاجها في الدول النامية أو في الدول الصناعية الجديدة.

ويشكل عام 2010 عاما فارقا في إنتاج العناصر الأرضية النادرة حيث كان يتركز في ثلاثة بلدان، الصين تنتج 92% من الإنتاج العالمي وتايلند 8.5% ثم روسيا 5.1% ، وكانت الصين وتايلند هما المصدرين الأساسيين وكان التصدير يتم في هيئة أكاسيد المعادن النادرة ، ولكن مع تطور القدرات الإنتاجية والتكنولوجية والحجم الاقتصادي الكلى للصين قررت التوقف عن تصدير الأكاسيد والاكتفاء بتصدير المعادن بعد استكمال استخلاصها في هيئة بلوكات معدنية مع التحكم في سياسات واتجاهات التصدير ، وهو توجهه ذو تأثيرات كبيرة على التوازنات الدولية ، خصوصا مع تصاعد الطلب على هذه الفلزات نتيجة لما يمكن أن نسميه بالثورة العلمية والتكنولوجية التي تتزايد بشكل متسارع ، لذلك فإن الخريطة الإنتاجية بدأت في التغيير منذ ذلك التاريخ.

لقد تجاوز إنتاج العناصر النادرة التوجهات الأصلية للدول المتقدمة في نقل الصناعات الملوثة للبيئة الى الدول الأقل تطورا وأصبح احتياجا استراتيجيا ليس فقط لزيادة احتياج الصناعات المتقدمة له، ولكن للزيادة الملحوظة والتدريجية لتأثير الصين.

لذلك فلقد بدء إنتاج العناصر النادرة في أستراليا سنة 2011 وفى الولايات المتحدة عام 2012 وتايلند التي كانت سباقة في الإنتاج عام 2009، واستمر تطوير الإنتاج بحيث تناقصت الأهمية النسبية للإنتاج الصيني فأصبح

إنتاجها 59% من الإنتاج العالمي وبلغ نصيب استراليا 9.7% والولايات المتحدة 15% وتايلند 8.2% مع زيادة الطاقة الإنتاجية العالمية الكلية ثلاثة أضعاف في مثل هذا الزمن القصير.

والغريب والعجيب أن إنتاج الدول الاوربية الغربية المتقدمة لا يكاد يذكر في البيانات العالمية المنشورة، ماعدا الإنتاج الروسي، فمازالت أوروبا العجوز تتمسك بالاعتبارات البيئية، ولكنها لا تتوقف عن توسيع استهلاكها من نفس المواد التي يتمتع بتلوث إنتاجها الآخرون!

وهو نفس الأمر الذي ينطبق على انتاج الخامات البترولية فهي تمنع استخدام التكسير الهيدروليكي ، حماية للبيئة في تقديرها ،هذا التكسير الذى أعاد الولايات المتحدة الى صدارة إنتاج النفط والغاز الطبيعي على الصعيد العالمي بعد انخفاض إنتاجها بالطرق التقليدية وبرغم محدودية احتياطاتها مقارنة بالدول الكبيرة الإنتاج ، توجهات اوروبية توضح الى مدى بعيد ضعف نفوذها السياسي على الصعيد العالمي رغم قدراتها الاقتصادية الكلية التي تتساوى مع قدرة كلا من الصين أو الولايات المتحدة ، الأمر الشديد الوضوح في الصراع الروسي الأوكراني المحتدم ، وتكتفي بتشنيف أذاننا بالحفاظ على البيئة وحقوق الإنسان كما تراها.

أما الرقائق الإليكترونية فلها قصة مشابهة فإنتاجها له تأثير سلبى على البيئة ، وبرغم أن اختراعها تم في الولايات المتحدة فإن إنتاجها يتركز في تايوان بنسبة 57% والصين بنسبة 16% برغم أن أكبر الشركات المنتجة لها هي الشركة التايوانية TSMC وسامسونج الكورية وانتل الامريكية ، ولا يغيب عن البال أن هذه الرقائق الالكترونية أصبحت كالماء والهواء في الحياة البشرية على كافة الأصعدة ، في الصناعة والتجارة وأعمال البنوك وصناعة الأسلحة وفى جيبك أنت أيها القارئ في بطاقة بنكك ، ويحكم تطورها تطور الإنتاج العالمي و تمتد تأثيراتها إلى الأوزان النسبية الاقتصادية والسياسية للقوى العالمية.

ولكن مقتضيات الصراع العالمي دفعت الدول العظمى الى تغيير سياستها سواء بتكثيف استثماراتها ام بالتغيير الكامل في هذه السياسات ، فالولايات المتحدة تقرر تخصيص 52 مليار دولار لتطوير ولأبحاث الرقائق الإلكترونية وشركة إنتل تعتزم استثمار 20 مليار دولار والشركة التايوانية تعتزم استثمار 100 مليار دولار خلال السنوات الثلاثة القادمة وسامسونج 116 مليارا ، أما الصين ، أكبر مستوردي الرقائق المعدنية ، فتعتزم الوصول إلى تغطية 75% من احتاجتها عام 2025 باستثمار العشرات من المليارات ، ولعل الأمر قد ازداد وضوحا في أحد دوافع زيارة نانسي بلوشي لتايوان.

العالم يتغير بمعدلات متزايدة ويحتدم الصراع هنا وهناك ويتم استخدام السلاح ويتعالى الصياح الديماغوجي الباعث على السأم والسخرية كي يخفى حقائق الدوافع الحقيقية لاحتدام الصراع وتتعرض البلاد الأقل تطورا لمصاعب جسيمة وتحاول القوى العظمى دفعها الى اتخاذ مواقف تابعة ستؤثر تأثيرا كبيرا على مستقبلها اذا لم تستطع اتخاذ مواقف وسياسات تراعى مصالحها، فنجنا من المهالك يا رب.!

أنا وجفروش المندورى

يلح على جفروش الحاحا شديدا منذ عدة أيام، جفروش الخيال والأدب كما هو في البؤساء، وجفروش كما قدمه محمد مندور في كتابه البديع نماذج بشرية فأعاد خلقه من جديد، ولكن الاكثر الحاحا هو جفروش الذي رأيته وتمتعت بحبة و " دلعه " وراقبته وتسللت لكى اجلس صامتا وهو يملى مقالاته، وانتظرت في " البلكونة " كي اتلقى الجرائد لأعيد قراءة المقال قبل أن يتنبه ويطلبها، ويلح على سؤال هل هو فعلا جفروش ، وهل هذا الجفروش أثر على بحيث أصبحت أنا أيضا جفروش ؟

سؤال عويص ولكن من هي هذه الروح الحرة التي اجتمعت فيها قوة الثورة على الظلم الى جوار روح المرح والسخرية من آلام الحياة التي تخرج عن صفاء في النفس وحرارة في القلب وإمعان في الحياة، جفروش الذى يفكر كرجل ويحس كامرأة و يتصرف كطفل، جفروش الذي لا يمكن إخضاعه للأحكام الوضعية للبشر.

ولعل الصفة الوحيدة الجفروشية التي لم يعيد طرحها محمد مندور في جفروشة فى نماذج بشرية هي صفة التمرد، صفة اصيلة غير مفتعلة أو منفصلة عن الجفروشية.

وبرغم حيرتى الأولية في اختياره لجفروش من البؤساء وليس جان فالجان مثلا، اختيارا يبدأ به كتابه البديع، اختيارا لم يكن صدفة، بل هو انجذاب جفروش لجفروش.

نعم ايها السادة فجفروشنا الناقد الكبير يتشابه في جوانب عديدة مع جفروش فيكتور هيجو في البؤساء، وقد أثر على تأثيرا كبيرا بحيث أصبحت أطمع أن أكون جفروشا أخرا.

اشتاق الى جفروشى

بين محمد مندور وسيد قطب

هل تتأثر أراء الانسان بطبيعته الشخصية؟ وهل تحكم تطور أفكاره؟

من المؤكد انى أعرف جيدا كيف أثرت شخصية مندور على أراءه، فهذا الودود العطوف صاحب المزاج الشعرى دون أن يكتب الشعر، المبتسم الساخر الذي يعرف جيدا الواقع الاجتماعي وما يرتبط به من معتقدات، يعرف أيضا كيف يحاول تغييرة بالصبر والدأب والمراكمة.

وأعرف أيضا أنه معجون بأصلة ولم ينساه ابدا أو يتجاهله او يقفز علية فتطورت أراءه بانحياز دائم لفقراء هذا الوطن، ليس فقط على الصعيد الأدبي بل ايضا سياسيا.

واليكم نقاش محمد مندور مع سيد قطب وكلاهما لم يبلغ الاربعون بعد والمنشور في كتاب "في الميزان الجديد " لمحمد مندور.

ولكن قبل أن تقرا النص عليك ان تتأمل الصور كي تحس بما أقوله!!

"الفتات

وأما فتات الحياة «التي يعرف كبار الأدباء كيف يلتقطونها بأنامل ورعة» فالظاهر أن الأستاذ قطب لم يدرك ما أردته منها، وها أنا أبسط القول. والأستاذ قطب لا بد قد فهم عن الأستاذ الكبير العقاد أن كل فن اختيارات للتفاصيل الدالة، فالمصور يختار من الألوان والأضواء وتفاصيل المنظر أقدر الجزئيات على الإيحاء، وكلما سما الفنان في فنه ورهف في وسائله عرف كيف يختار تلك الجزئيات الصغيرة. وليس ثمة علاقة بين «فتات الحياة»

التي يختارها «وضخامة الإحساس» الذي يريد أن يثيره، فالإحساس من الواجب طبعا أن يكون قوياً. وموضع الإعجاز هو أن يثير الفنان هذا الإحساس القوي «بالفتات» التي لن يدركها الأستاذ قطب، بل إن جميع المثقفين في حقائق الفن والأدب ليعلمون — لخبرتهم الطويلة بكافة الفنون في العالم المتمدين — أن إثارة الإحساسات القوية لا يمكن أن تكون بغير فتات الحياة الأليفة الوثيقة الصلة بالبشر. وأما الطنطنة، وأما تضخيم التوافه، وأما عجيج الألفاظ، وأما التبجح بالقوة الجوفاء؛ فهذه وسائل العجز والادعاء والجهل.

أضرب للأستاذ قطب مثلا بسيطا أختاره من السينما لنبعد عن الأدب العسير الفهم.

في إحدى الأفلام أراد مؤلف القصة أن يحمل المشاهدين على إدراك ضيق بطل الرواية لطول انتظاره أم ارا يهمه فلم ينطقه بخطبة، ولم يعبث بملامحه ولم يحمله على تمزيق ملابسه أو شد شعره، بل ولا على الصياح في أجواز الفضاء، بل عرض على الشاشة بطلنا وأمامه منفضة سجاير خالية، ثم غير المنظر وعرض الرجل في نفس الجلسة، وأمامه المنفضة وقد امتلأت بأعقاب السجاير حتى فاضت. هذه المنفضة المليئة بأعقاب السجاير لا شك من فتات الحياة، بل من هناتها. ولكن، أوَما يرى الأستاذ قطب أنها وسيلة قوية من وسائل الأداء وأنها قد حملتنا على إدراك نفسية البطل إدراكا لن تبلغه قصيدة طويلة من قصائد الأستاذ قطب؟

هذه هي فتات الحياة التي يجب أن نعرف قدرها في الفن، ولكننا قوم فطريون، نظن الفن ألوانا فاقعة وضجيجا خاويا. نعم يا أستاذ قطب، أنا أوثر «الأطياف الباهتة»؛ لأنها نسيج كل فن رفيع، وأما الأطياف الزاهية فلا تسر غير البدائيين من الناس، أوَلا ترى إلى زنوج أفريقيا كيف يستهويهم الأحمر القاني والأصفر الكركم؟"

معضلات الديمقراطية الليبرالية

كلما طار طير وارتفع كما طار وقع!

هذه قصة الديمقراطية الليبرالية في البلدان الأقل تطورا، ليس لان سكان هذه البلدان مصابون بالعته، ولكن لأسباب أخرى وطيدة العلاقة مع مستوى نضج الطبقات الاجتماعية.

فشكل الحكم الليبرالي على النمط الغربي هو نتاج لعملية طويلة من التطور الاجتماعي تم خلال قرون كاملة، أي انه لم يولد جاهزا كما نراه الان، بل مر بعملية تطور كبيرة دفع خلالها خسائر فادحة من حياة البشر بالحروب والتمييز وحتى اعدام العمالة الزائدة بتهمة التشرد!

وبرغم كل ذلك الا ان هذا التطور الذي نستطيع ان نصفة بالدموي قد أنتج تطورا مماثلا في المعتقدات الإنسانية العامة.

ولكن يبقى ان هذه الديمقراطية وليدة أوضاع اجتماعية عامة ومستوى معين من التبلور الطبقي بحيث أصبحت ضرورة حياة لهذه المجتمعات للحفاظ على أوضاعها السائدة، ولا يجب ان نقع في وهم ديمومة هذا النوع من شكل الحكم، فاذا اقتضت مصلحة الطبقات السائدة التخلي عنة او تعديله فستقوم بذلك، وهو ما قدمة بشكل دراماتيكي جاك لندن في قصته الشهيرة "العقب الحديدية " وهو ما شعرت به في الإجراءات المؤقتة للحكومة الامريكية في اعقاب 11 سبتمبر.

ولعل احد أسباب تخلفنا الاجتماعي والثقافي هو تبعيتنا الثقافية والفكرية، فنحن نستورد الأفكار والمعتقدات ولا ننظر اليها بنظرة نقدية ويصل الامر أحيانا الى تبنيها بشكل كامل بحيث يبدو الامر مثيرا للسخرية، الامر الذى يعمق من الانفصال الفعلي بين حركة المثقفين وبين جماهير الشعب، وهى خسارة فادحة لكلاهما.

والمصيبة الكبرى ان هذه التبعية الفكرية والثقافية قد امتدت، أيضا، الى المجال السياسي، فنجد تيارات سياسية تتبنى توجهات من نتاج مجتمعات في مرحلة مختلفة من التطور، والكثير من هذه التوجهات السياسية لا تستطيع ان تجد تجسدها في السلوك الفعلي لهذه التيارات، بحيث يبدو الامر وكانه شخص يرتدى الجبة والقفطان ويتعمم بالكاسكيت .

الامر باختصار ان المبادئ الإنسانية العامة قد تطورت تطورا كبيرا وهو ما يجب التمسك به وحتى الدفاع عنة في مواجهة قوى اجتماعية معادية لها، ولكن استيراد شكل معين للحكم ناتج عن مجتمعات في مرحلة مختلفة من التطور لن يؤدى الا الى " كلما طار طير وارتفع كما طار وقع."

ولعل التجارب في البلدان التي يقترب واقعها الاجتماعي من واقعنا بالغة الدلالة في ذلك، فتجارب بلدان أمريكا اللاتينية وغيرها من البلدان واضحة لمن يريد ان ينظر خارج الصندوق.

ويبقى السؤال الأكبر الذي يجب الإجابة علية، هل نستطع التخلص من الجبة والكاسكيت ونجد ما يلائم مرحلتنا من التطور؟

اسماعيل باشا "ابو السباع"

حاكم مصري مثير للجدل ، كان صاحب مشروعا للنهضة ، بقى منة الكثير في قلب القاهرة الخديوية بحدائقها الخلابة ، والتي مازالت خلابة ، رغم يد منون الإهمال، و المدرسة الاولى للبنات ، السنية الثانوية الان ، و مصانع السكر و الترع الجديدة و طريق الاهرام و اكمال حفر قناة السويس وتوسيع السكك الحديدية وزيادة اعداد الجيش المصري و المغامرات العسكرية المكلفة في افريقيا و امريكا ، و الاوبرا التي احرقها الاهمال ، و اختلاط الانفاق بين ما هو مفيد و ضروري و بين ما هو تحقيقا لرغباته الخاصة حتى و ان كان ضارا ويلقى بالمزيد من الاعباء.

حكم البلاد بشكل مطلق، متبعا أسلافه، وزادت في عهدة الديون الحكومية أكثر من عشرة اضعاف، وألقيت اعبائها على كاهل الشعب وانحدر مستوى المعيشة و تعرضت البلاد لضغوط كبيرة من الدول الاستعمارية.

عندما لم يستطع ان يواجه هذه الضغوط، مستندا الى سلطاته المطلقة، قدم تنازلات ديمقراطية، لعلة يحظى بمساندة وتأييد الحركة الشعبية واصحاب المصالح، لكنها جاءت متأخرة كثيرا و لم يكن ممكنا ان يحظى بالتأييد و الدعم الشعبيين او حتى تأييد اصحاب المصالح الذين عانوا من سياساته، فعزل، و استمر الشعب في المقاومة مدافعا عن نفسه.

وإذا توقفنا امام تاريخنا الحديث، منذ صاحب الجنان محمد على باشا، وألقينا نظرة فاحصة، تخلو من الانحياز العاطفي والميول الفكرية السلفية ، لاكتشفنا ان هناك ثلاثة مشاريع كبرى للنهضة ، مشروع محمد على ثم مشروع أبو السباع ثم المشروع الناصري ، وجميعها لم يكتب لها النجاح ، برغم الإنجازات التي حققتها ، لم يكتب لها النجاح لأسباب متعددة ، يأتي على راسها انها جاءت متأخرة كثيرا عن التطور العالمي ، محاولات اصطدمت بمصالح القوى الرأسمالية العالمية التي كانت ومازالت تبدى اهتماما بالغا ببلادنا ليس لثرواتها الدفينة بل لأهميتها الاستراتيجية في صرة العالم.

ولعل أحد أهم عناصر ضعف هذه المحاولات، التي قادت الى هزيمتها، هو انها جاءت من أعلى على أيدي حكام يحكمون بشكل مطلق، حظي بعضهم بتأييد شعبي غلاب، وبرغم ذلك فان عناصر الضعف الدفينة في البنية الاجتماعية والانحياز الاجتماعي لم تمكن الشعب من تخليص المحاولات من عناصر ضعفها الداخلي او حتى من الدفاع عن اهم إنجازاتها بشكل فعال، فانهارت تحت الضغوط الخارجية، انهيارا كان، في غالب الأحيان، بتأييد ومشاركة فئات اجتماعية داخلية كانت تدرك انها بين شقى الرحى ، المصالح الدولية والطموح الشعبي.

درس بليغ يقدمه تاريخنا لمن يحلم بالمستقبل.

حرب الغاز والبترول!!

ملاحظات أولية

نعم أنها حرب الغاز والبترول ولكنها جزء من صراع عالمي يختفى خلف الحرب الأوكرانية التي تدور على الأراضي الأوكرانية ، فلم يخطئ العالم حين تحدث عن " الحرب الباردة " في زمن مضى وانقضى ، فالحرب لا يمكن اختصارها في الأعمال العسكرية فقط ، برغم أن العمل العسكري هو الأكثر والأقدر تمثيلا للحرب ، ولكن الأعمال العسكرية لا تأتى وحدها ، بل دائما ما تكون مصحوبه أو مسبوقة بالحرب الاقتصادية والفكرية والدعائية ، التي قد تبقى طويلا بعد انتهاء الأعمال العسكرية ، حتى يكتمل تحقيق الهدف السياسي من الحرب ، أو ليست الحرب هي امتداد للسياسة بوسائل أخرى.!!

ولفهم حرب الغاز البترول، المحتدمة الآن، لابد من التعرف على الحقائق الاقتصادية والإنتاجية لإنتاج وتصدير الغاز والبترول وعدم الانجرار خلف الأخبار اليومية الساخنة التي قد تكون دلالاتها كبيرة جدا أو حتى محدودة جدا.

وللتعرف على الحقائق الاقتصادية والإنتاجية لابد من التوقف أمام أوضاع أطراف الصراع الدائر ألان، أي الولايات المتحدة وأوروبا وروسيا، ثم التوقف أمام الأطراف غير المشتبكة في الصراع بشكل مباشر، التي يمكن لها التأثير على مجرى الصراع، سواء كمصادر بديلة للتوريد والتصدير أم كمستهلك بديل يمكنه استيعاب بعض الطاقات التصديرية كبديل عن الأسواق التي أصبحت احتياجاتها متناقصة سواء كنتيجة للمقاطعة من طرف الدول المستوردة أم لتقليل الدول المصدرة لكميات التصدير من النفط والغاز.

فما هي الحقائق الاقتصادية والإنتاجية للنفط والغاز؟

أنتاج وتصدير النفط

لابد أولا من توضيح أن حجم إنتاج النفط في أي من بلدان العالم محدود الدلالة في الحرب الدائرة الآن، فالأكثر دلالة هو حجم التصدير أو الاستيراد ونسبته لاحتياجات الاستهلاك المحلى بالنسبة للدول التي محصله نشاطها هي الاستيراد، وما هي نسبته من الإنتاج المحلى الكلى للدول التي محصلة نشاطها التصدير.

ولنتوقف قليلا حول الأرقام

ولعلة من الواجب الإشارة الى أن أرقام استيراد أو تصدير النفط الخام والمنتجات البترولية هي المحصلة النهائية للتصدير والاستيراد للبلاد المذكورة.

فالدولة الأعلى إنتاجا للنفط هي الولايات المتحدة بطاقة إنتاجية تبلغ 2.11 مليون برميل يوميا، تليها روسيا بطاقة إنتاجية تبلغ 5.10 مليون برميل يوميا، ثم المملكة العربية السعودية بطاقة إنتاجية تبلغ 4.9 مليون برميل يوميا، ولكن أي منهما أكثر تأثيرا على أوضاع سوق النفط؟

فالولايات المتحدة تستورد 336.3 مليون برميل يوميا، وروسيا تصدر 3.5 مليون برميل يوميا، والسعودية تصدر 5.6 مليون برميل يوميا، ولكن هل دلالات الأرقام واضحة؟ أم لابد من مراجعة الأرقام المتعلقة بالمنتجات النفطية، فهي الهدف النهائي لإنتاج النفط.

فالولايات المتحدة تصدر 75.2 مليون برميل يوميا، وروسيا تصدر 94.2 مليون برميل يوميا، والسعودية تصدر 860 ألف برميل يوميا من المنتجات النفطية.

فاذا أخذنا في الاعتبار التأثير الكلى للنفط الخام والمنتجات البترولية فان التأثير الأكبر على أوضاع السوق يعود الى روسيا باعتبارها أكبر مصدر للمنتجات البترولية وثاني مصدر للنفط الخام، ثم الولايات المتحدة باعتبارها أكبر مستورد للنفط الخام وثاني مصدر للمنتجات البترولية.

والان فلنلقى نظرة على حالة الدول الأوربية، الواقعة بين شقي الرحى، فهي تستورد 66.8 مليون برميل يوميا من النفط الخام و 82.1 مليون برميل منتجات بترولية، وتنتج 3 مليون برميل نفط خام يوميا، ولكن من أين تحصل على ما تحتاجه؟

تستورد 6.29% من احتياجاتها من البترول الخام من روسيا و38% من المنتجات البترولية أيضا من روسيا، أي أن روسيا هي الأكبر في حجم التعاملات في البترول الخام ومنتجاته المكررة مع أوروبا.

والان من هو أهم مستورد للنفط ومنتجاته ومن أين يحصل على احتياجاته؟

أنها الصين الشعبية، فهي تستورد يوميا 6.10 مليون برميل من النفط الخام و 900 ألف برميل من المنتجات البترولية ،15% من احتياجاتها من النفط الخام من روسيا، ولا يوجد مصدر رئيسي للمنتجات البترولية، ولكن من مصادر متعددة كثيرة.

والان لنتوقف حول أوضاع سوق الغاز

فالولايات المتحدة هي أكبر منتج في العالم للغاز الطبيعي بما مقداره 90 مليار قدم مكعب يوميا، تليها روسيا بما مقداره 67 مليار قدم مكعب، تليها إيران بما مقداره 24 مليار قدم مكعب، ثم أوروبا والصين وكلاهما بما مقداره 20 مليار قدم مكعب، وقطر 17 مليار قدم مكعب، في حين تنتج مصر 56.6 مليار قدم مكعب.

والان من هم اهم المصدرين؟

ولابد هنا من التفرقة بين التصدير في الهيئة الغازية عن طريق خطوط الأنابيب والتصدير في هيئة غاز مسال الذي يحتاج الى مؤسسات صناعية خاصة لتسييله ومؤسسات صناعية خاصة لإعادة تسييله للصورة الغازية بعد تحميلة وتنزيله من سفن الشحن الكبيرة.

فالولايات المتحدة يبلغ استهلاكها 80 مليار قدم مكعب يوميا، أي تقوم بتصدير 10 مليار قدم مكعب يوميا ،وروسيا يبلغ استهلاكها 46 مليار قدم مكعب يوميا، اى تقوم بتصدير 21 مليار قدم مكعب يوميا، ثم أيران ويبلغ استهلاكها 3.23 مليار قدم مكعب أي تستطيع تصدير 7.0 مليار قدم مكعب، وقطر يبلغ استهلاكها39. مليار قدم مكعب أي تستطيع تصدير 1.13 مليار قدم مكعب يوميا.

أما دول أوروبا فهي تستهلك 55 مليار قدم مكعب يوميا، أي تحتاج الى استيراد 20 مليار قدم مكعب يوميا، والصين الشعبية تحتاج الى استيراد 16 مليار قدم مكعب يوميا.

فمن أين تحصل أوروبا على احتياجاتها؟

تحصل على 45% من احتياجاتها من الغاز المورد عن طريق الأنابيب من روسيا وهو يمثل 35% من احتياجاتها الكلية والباقي عن طريق الأنابيب من مصادر متعددة أهمها من الدول الأوربية نفسها وعلى راسهم النرويج، أما باقي الاحتياجات فيتم تلبيتها عن طريق الغاز المسال ومقداره 6.22% من الاستهلاك الكلى للغاز، وتقوم الولايات المتحدة بتوريد 6.27% منة وهى تمثل 30% من طاقتها التصديرية الكلية ، وروسيا، مرة ثانية، تورد ما مقداره 16% ، ثم قطر والجزائر ونيجيريا) 20% و 14% و 12%(، أي أن روسيا وحدها تورد 5.38% من الاحتياجات الكلية.

تبقى ملاحظة أخيرة لابد من التوقف حولها وهى الطاقة التصديرية لمصر من الغاز المسال)الإمكانية الوحيدة للتصدير حاليا الى أوروبا هي الغاز المسال(فتبلغ ما قيمته 8.1% من الاحتياجات الأوربية ، واذا أضفنا لها إمكانيات إسرائيل وقبرص بعد إكمال تنفيذ اتفاق التصدير لمصر وتسيله في المعامل المصرية فستبلغ في حدود 8% من الاحتياجات الأوربية ، ولكن مثل هذه الإمكانيات ستتناقص مع تزايد الاحتياجات الداخلية اذا لم تكتشف حقول جديدة ومع الأخذ في الاعتبار أن مصر تصدر لبلاد مختلفة ، فهي تصدر 67% من طاقتها التصديرية الى البلدان الأسيوية و 27% الى البلدان الأوربية.

استنتاجات أولية

أن أوضاع النفط والغاز على الصعيد العالمي أكثر تعقيدا بكثير من الانطباعات المنتشرة والسائدة خصوصا أن أوضاع الإنتاج والتسويق أكثر تعقيدا بكثير مما يبدو من الوهلة الأولى، فالدول الكبرى، ومنها روسيا بالطبع، تتشارك وتدير حقول النفط والغاز على الصعيد العالمي ولدينا مثال واضح من حقل ظهر للغاز حيث تشارك شركة روسية بما مقداره 30% من حصة الشريك الأجنبي.

ولعل أهم الملاحظات على إنتاج وتسويق وتكرير النفط والغاز في ارتباطها بالصراع المسلح الدائر على الأراضي الأوكرانية، انه لا بديل للنفط والغاز الروسيين المصدر الى أوروبا، وان حماقة الاندفاع الغربي يمكن أن تؤدى الى تعميق الأزمة الاقتصادية العالمية ودخول أوروبا، أولا، الى وضع اقتصادي خانق وستنعكس، بالضرورة، على باقي العالم، ومن المؤكد انه سيكون لها تأثير سلبي كبير على اقتصاد الولايات المتحدة برغم إن هذا التأثير سيتراكم لاحقا.

أن استخدام إنتاج وتسويق الغاز والبترول ومنتجاتها في الصراع الدائر الآن سيتصاعد وسيتراكم تأثيره ولعل التغييرات الداخلية الدائرة الآن في بريطانيا وإيطاليا تقدمان لنا تصورا للقادم.

ولعلة من الواجب الإشارة الى أن إنتاج المنتجات البترولية من الزيت الخام ما زال يتركز في البلدان الغربية المستوردة للنفط برغم التقدم الكبير الذي حققته البلدان المصدرة للنفط من البلدان الأقل تطورا وأن كان الطريق أمامها مازال طويلا.

وما زال الطريق طويلا أمام استخدام الطاقات الجديدة والمتجددة بحيث تصبح المصدر الأساسي للطاقة على الصعيد العالمي، ف 9.30% تولد عن طريق المنتجات البترولية السائلة و 4.24% عن طريق الغاز و 9.26% عن طريق الفحم 2.4% عن طريق الطاقة النووية و7.6% عن طريق مساقط المياه و6.6% عن طريق المصادر المتجددة الأخرى) الشمس والرياح والطاقات العضوية (، برغم تسارع التقدم في استخدامها وبشكل خاص في الدول الأكثر تقدما.

أن هناك حاجة موضوعية لدراسة إنتاج وتوزيع النفط والغاز على الصعيد العالمي، دراسة أكثر تفصيلا ودقة كي تكون دليلا للسلوك الاقتصادي والسياسي للدول والقوى الاجتماعية للبلدان غير المشتركة في هذا الصراع المسلح، التي ستتأثر مصالحها به تأثرا كبيرا، ولعلة من الواجب الإشادة بموقف الدول العربية المنتجة للنفط والغاز التي تتجنب الانخراط أو الانحياز لهذا الطرف أو ذاك.

فيروساتنا

هل نستطيع أن نرتقي إلى مستوى فيروساتنا؟

تقدم لنا الطبيعة درسا بليغا، ففيروساتنا مختلفة عن فيروسات الآخرين، ففيروس الكبد الوبائي الخاص بنا مختلف عن نفس الفيروس في بلاد أخرى، فلماذا لا يكون لنا أفكارنا الثقافية و الاجتماعية و السياسية الخاصة بنا و النابعة من ظروفنا ، مستفيدين من كل الإنجازات الفكرية التي أنتجتها البشرية في الهند و السند و بلاد واق الواق.

وإذا كان تاريخنا الاجتماعي والسياسي مليئا بالفرق والتيارات السياسية والثقافية عندما كنا أكثر بلاد العالم تقدما فلماذا ننقسم حول أو مع تيارات فكرية وسياسية وأدبية من نتاج مجتمعات في مرحلة أخرى من التطور؟

لماذا نختلف حول الليبرالية الأوروبية أو حول الاشتراكية الديمقراطية في شمال أوروبا وجنوبها أو حول الشيوعية على النمط الستاليني أو الترو تسكي ونتسمى بأسمائها.

لماذا تستخدم تعبيرات اقتصادية مثل الركود التضخمي وهو تعبير اكتشفه كبار المفكرين الغربيين للتعبير عن الأزمة الاقتصادية للرأسمالية الناضجة لنوصف أوضاعنا الاقتصادية؟ فهل نحن اقتصاد رأسمالي متطور؟ لماذا نقدم حلولا كينزية أو نتبع مدرسة شيكاغو لحل مشاكلنا الاقتصادية؟ لماذا ننظر الى الخلف ونتمسك بنماذج وإنجازات لها ما لها وعليها ما عليها ونضعها مثلا أعلى؟

هل فكرنا قليلا لماذا بقي سيد درويش ومحمود مختار رغم محاولات طمسهم وتجاهلهم؟

ولماذا يبعثوا من جديد كلما تحرك الشعب، ولماذا اختفت سريالية أربعينات القرن الماضي؟ ولماذا بقى وسيبقى أمل دنقل وصلاح عبد الصبور و أمثالهم.

لماذا لا نختلف حول اتجاهات سياسية وثقافية واجتماعية نابعة من اختلاف التصورات والحلول لمواجهة أوضاعنا، وهو ما يتطلب جهدا حقيقيا من المثقفين والسياسيين، باستيعاب كل منجزات البشرية الفكرية ثم دراسة واقعنا بمنتهى الجدية ، وأكرر ، بمنتهى الجدية ، وعندها وعندها فقط يستمع الناس .

فهل نستطيع أن نرتقي إلى مستوى فيروساتنا

هل الحرب هي امتداد للسياسة!!

المعضلة الأوكرانية وحرب أكتوبر

عنوان غريب يعرف الإجابة عنة من استطاع الحصول على الشهادة الابتدائية، وقد يدركه اى مواطن صالح ام غير صالح لم يتلق اى قدر من التعليم، نعم فالحرب هي امتداد للسياسة، ولكن بوسائل أخرى ،حتى وأن لم يكتب عن ذلك كلاوزوفيتز بهذا الوضوح الساطع.

استنتاج ليس حديثا، بل اكتشفته الإنسانية منذ زمن المشاعة الابتدائية ودعمته خبرة الحروب المتوالية التي لم تتوقف منذ ذلك الزمان البعيد ولن تتوقف إلا بغياب أصلها، المصالح الاجتماعية الخاصة.

الأمر الذى كان شديد الوضوح في تكتيكات واستراتيجية حرب أكتوبر ، فالسادات حين كان يتناقش مع قادة القوات المسلحة ويطالبهم بتحرير 10 سنتي فقط من سيناء كان يتبنى هدفا سياسيا معينا ، والفريق سعد الدين الشاذلي حين يتحدث فيذكر أن ثلاثة فقط كانوا يعلمون بانة لن يتم تطوير الهجوم ، السادات واحمد إسماعيل وهو نفسة ، يعنى موافقته على الهدف السياسي من الحرب ، ادرك ذلك أم لم يدركه ، ومحاولات اللواء الجمسي رئيس هيئة العمليات أقناع وزير الدفاع بتطوير الهجوم يعنى اقتناعه بهدف سيأسى مختلف ، سواء أدرك ذلك أم لا أيضا.

أما الاختلافات حول تطوير الهجوم بين فريق الشاذلي وقادة الجيشين الميدانيين وفريق السادات احمد إسماعيل فكان في حقيقته اختلافا سياسيا متخذا شكلا عسكريا، الأمر الذي يتكرر مرة ثانية في الاختلافات حول مواجهة اختراق العدو ووصوله الى الضفة الغربية، وما اعقبها من اتفاقيات الفصل بين القوات.

وللأسف الشديد فان الكثير من الكتابات حول هذه الحرب، بعد الموجة الأولى من كتابات كبار القادة، تركز على بطولات الأفراد، قادة وجنود، وهي بطولات حقيقيه يفخر بها الوطن، ولكنها لا تقدم تقيما حقيقيا للحرب.

أن الفهم الصحيح لحرب أكتوبر لا يمكن الوصول له ألا باعتبارها عملا عسكريا يشكل جزءا من صراع سياسي دائر فيما قبلها وبعدها، الأمر الذي ينطبق أيضا على الحرب الساخنة الدائرة الآن على الأرض الأوكرانية.

فالحرب، أي حرب، لا يجب أن يكون هدفها تحطيم قوة الخصم العسكرية أو حتى احتلال أراضي متنازع عليها، بل فرض الإرادة السياسية على الخصم لتلبية مطالب المنتصر، وقد يتم ذلك بتحطيم قواه العسكرية أو باحتلال أراضية أم أجزاء منها أو حتى بالتهديد بالحرب.

وبصرف النظر عن الموقف السياسي من الحرب الروسية الأوكرانية فانة من المفيد التوقف عند الهدف السياسي من الحرب وكيف تطابق مع الاستراتيجية والتكتيك العسكريين المستخدمين واحتمالات تطور الصراع الدائر الآن والذي أصبح صراعا دوليا تختفي خلف أحداثه العسكرية مصالح مختلف الأطراف المشتبكة في الميدان أم وراءه.

فمتى اندلعت الحرب الأوكرانية الروسية؟

هذه الحرب لم تندلع هذا العام ، بل اندلعت فعليا عام 2014 ، عندما رفضت أوكرانيا تمديد عقد إيجار جزيرة القرم ، بصرف النظر عن كونها جزءا من روسيا قبل أن يضمها الاتحاد السوفيتي الى أوكرانيا أم لا ، فالوصول الى البحار الدافئة هو هدف دائم للإمبراطورية الروسية وللاتحاد السوفيتي ثم لروسيا الاتحادية ، قاتلت من أجلة ثلاثة قرون كاملة منذ تأسيس الإمبراطورية على أيدى بطرس الأكبر ، هدفا دونة استخدام القوة لاستمراره ، حاولت الاتجاهات القومية الأوكرانية المتطرفة حرمان روسيا منة وصحب ذلك موقف الدولة الأوكرانية المعادي للروس بالأقاليم التي يتمتعون فيها بالأغلبية ، وصحب ذلك محاولة منع تقديم الخدمات والموارد

الطبيعية للجزيرة ، مثل قطع مياه نهر الدنيبر التي تمثل 85% من احتياجات القرم المائية ، وهو ما أدى الى اندلاع الاضطرابات وتعاظم الميول الانفصالية في المناطق الشرقية ذات الأغلبية الروسية.

أن القتال الدائر الآن هو تصاعد للقتال الذي كان يدور منذ سنوات، قتال قد يستمر لسنوات طوال نتيجة لانحسار الهدف السياسي منة الى مجرد استقطاع الأجزاء التي تشكل الأقلية الروسية الأغلبية بها والى تامين الموانئ الروسية في مياه البحرين الأسود وأزوف الدافئة، ونتيجة لتحوله الى قتال تتدخل به، بكثافة، قوى دولية ذات مصالح مختلفة عن مصالح كلا من روسيا وأوكرانيا.

فعلى صعيد استراتيجية هذه الحرب، فان روسيا الاتحادية قد أخطأت أخطاء كبرى بتبني استراتيجية البحث المباشر عن المكاسب الإقليمية المحدودة، برغم التفوق العسكري الساحق الذي كان يسمح لها بهزيمة أوكرانيا هزيمة شاملة تجبرها على القبول بمطالبها وتوقف امتداد أمد الحرب على الصعيد التاريخي المنظور.

فهل ستستمر الحرب طبقا لهذه الاستراتيجية الروسية، وهل سيستمر الدعم الغربي الذي يتعاظم رغم الخسائر المادية الفادحة التي لا تتعرض لها فقط أوروبا، بل العالم اجمع بتأثيراتها السلبية على الأزمة الاقتصادية العالمية، أم يحدث تغيير في استراتيجيات الأطراف المختلفة بحيث نجد أمامنا واقع جديد يفتح الباب لنهايتها.

الحرب والسلاح وأوكرانيا

يكثر النقاش حول تأثير نوعية السلاح على مسار العمليات العسكرية ، نقاش ليس جديدا بل هو قديم قدم الحرب نفسها ، ففي الحرب العالمية الثانية كانت المدرعات الألمانية متخلفة عن المدرعات الغربية في بداية العمليات العسكرية ، ألا أن تكتيك واستراتيجية القوات الألمانية كانت متقدمة تقدما كبيرا على كل التكتيكات والاستراتيجيات التي تبناها الحلفاء في الغرب والشرق ، الأمر الذى ترتب علية التفوق الساحق للقوات الألمانية حيث طبقت الاستراتيجية الحديثة في حرب الحركة بخروجها من السلفية الفكرية العسكرية للحرب العالمية الأولى .

وبرغم أن تكتيكات الحرب الحديثة كان قد تم التوصل اليها داخل كل البلدان التي ستتقاتل في الحرب إلا أن أصحابها من المفكرين العسكريين تعرضوا للتهميش والى رفض أفكارهم وسط سيادة السلفية العسكرية المستمدة من خبرات حرب الخنادق في الحرب العالمية الأولى.

فالمدرعات الفرنسية كانت أكثر تقدما عن الألمانية إلا أن تكتيكات استخدامها حولتها الى مدافع ثابتة تقبع خلف خط ماجينو برغم أن الدبابات لا تمتلك المدى أو عيار مدفعية الميدان، ففقدت قدراتها باعتبارها مدفعية متحركة ولم تصل الى إمكانيات المدافع الأصلية، فسقطت باريس في قبضة الألمان خلال 14 يوما ، برغم خط ماجينو الحصين الذى لم يقترب منة أحد ،بل تم الالتفاف حولة بالقوات الألمانية المتحركة التي حققت الوحدة القتالية للمدرعات والمشاة الميكانيكية والطيران.

الأمر الذي يتكرر مرة ثانية في شمال أفريقيا حيث أذاق رومل الحلفاء الأمريين برغم التفوق الساحق في أعداد وكفاءة مدرعات الحلفاء، ولم تحسم المعركة إلا نتيجة نقص أمدادات القوات الألمانية.

الأمر الذى يتكرر في حرب أكتوبر، في الأيام الأولى للقتال، حيث تتفوق القوات المصرية، داخل مناطق القتال ، نتيجة لسلامة التكتيكات والاستراتيجية العسكرية المطبقتين برغم الدعاوى السابقة المتكررة بتخلف الأسلحة السوفيتية ، هذا الادعاء الذى لا يمكن الموافقة علية كتقدير يشمل كافة أنواع الأسلحة ، الأمر الذى أثبتته خبرات الأيام الأولى من القتال .

ولعل هناك عامل أخر شديد التأثير في الحروب الحديثة والمتعلق بقدرات المتحاربين على استخدام كامل قدراتهم العسكرية في ميدان القتال، ولعل نتائج الحرب الفيتنامية تقدم لنا مثالا باهرا على ذلك، فبرغم التفوق الساحق للقدرات العسكرية الأمريكية إلا أن استخدامها كان مقيدا بالعديد من القيود السياسة، الأمر الذى ترتب علية خسائر فادحة للقوات الأمريكية وتزايد الضغوط الشعبية الداخلية للانسحاب من الحرب، فانسحبت القوات الأمريكية وانتصرت فيتنام.

هذه القدرات العسكرية التي لا يمكن اختصارها في اختراع الأسلحة المتقدمة ، بل في تحديث تسليح القوات بجعل الأسلحة المتقدمة تشكل القوام الرئيسي للتسليح ، فبرغم اختراع العديد من الأسلحة الأكثر تقدما على الصعيد العالمي في روسيا ، مثل طائرات القتال الرئيسية SU-57 والدبابةT-14 التي لا تؤثر فيها معظم الأسلحة الغربية المضادة للدبابات ، إلا أن إمكانيات روسيا الاقتصادية لم تسمح لها بجعل هذه الأسلحة تشكل القوام الرئيسي للقوات الروسية ، فما زالت روسيا تجاهد لإدخال أعدادا كافية من السلاح الأقل تطورا مثل الدبابات T-90 بديلا عن دبابات القتال الرئيسية الحالية T-72 المعدلة ، الأمر الذى يتكرر مع الطائرات ، فمازلت روسيا تجاهد لجعل طائرة القتال سو 35 طائرة القتال الرئيسية .

وبرغم ذلك فان سو 35 و تي 90 قد بدأت في الظهور في ساحة المعركة الأوكرانية نتيجة للتغيير في مستوى الأسلحة التي تستخدمها القوات الأوكرانية الغربية التصنيع.

أن الاستنتاج النهائي هو أن نوعيات الأسلحة شديدة الأهمية لكسب الحرب، ولكنها ليست العامل الحاسم فيذلك فالتكتيك والاستراتيجية العسكريين هما العوامل الأكثر أهمية وحسما.

يد المنون والإهلاك المعنوي

الموت من حقائق الحياة ولا ينطبق فقط على البشر، بل يمتد كذلك الى الحجر، الحجر بمعنى المنشأت الحجرية وتمتد كذلك الى الأكثر أهمية، اى الآلات وأساليب الإنتاج.

لقد تسببت الثورة العلمية والتكنولوجية الى تسارع الإهلاك المعنوي للآلات وأساليب الإنتاج، اى جعلها غير ملائمة لاستمرارها في الإنتاج برغم صلاحيتها الفنية، الأمر الذي ليس جديدا ، فقد اكتشفت القوانين الحاكمة للتطور الرأسمالي في القرن التاسع عشر التي حددت أن احد اهم القواعد الحاكمة للتطور الرأسمالي هو زيادة التركيب العضوي للرأسمال، أي زيادة نسبة راس المال الثابت) العدد والآلات (مقارنة براس المال المتحرك ، وان الرأسمالي الذى لا يستجيب لهذه الحقيقية لن يكون مصيرة استثماراته إلا فقدان السوق والخروج خارج المنافسة.

ثورة علمية وتكنولوجية يتزايد تأثيرها بمعدلات متسارعة، فمن تطور التحكم الألى والبرمجة التي سمحت بالاستخدام الواسع النطاق للروبوت في العمليات الإنتاجية، الى التحسن الكبير في التحكم في العمليات الإنتاجية وضمان الجودة، الى الزيادة الهائلة في الإنتاجية وتقليل الفاقد والارتفاع الهائل في الكفاءة.

أن هذه التطورات أدت الى تضاعف إنتاجيه الآلات الحديثة مقارنة بنفس الآلات القديمة التي كانت تقوم بنفس العمليات الإنتاجية بحيث تحل ألة واحدة حديثة محل العديد من الآلات القديمة بإنتاجية وبكفاءة اعلى بما لا يقاس.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك، بل يمتد أيضا الى قدرة الآلات الحديثة، في بعض الأنشطة الإنتاجية، الى الحلول محل العديد من الآلات المختلفة التخصص وقد يمكن استخدامها كجزء من خطوط الإنتاج بديلا عن استخداماتها السابقة بالإنتاج الأحادي حسب الطلب.

ومنذ سنوات قلائل حدث تطور هام جديد سيكون له تأثير بالغ الأهمية على تطور العمليات الإنتاجية برفع الكفاءة وتقليل الهالك أثناء العمليات الإنتاجية وتقليل الوقت اللازم للإنتاج.

إلا أن هذا التطور الجديد يفتح أفاقا اقتصادية وسياسية أمام البلدان الأقل تطور حيث يمكن بتطبيق هذا التطور التكنولوجي الواسع النطاق رفع الكفاءة الإنتاجية وتقليل الأضرار الاقتصادية الناتجة عن لجوء الدول الأكثر تطورا الى فرض المقاطعات الاقتصادية عند احتدام الخلافات السياسية بتمكين البلدان الأقل تطورا من إنتاج قطع الغيار وأجزاء الآلات البديلة بدقة متناهية وسهولة وبإنتاج يلبى الاحتياجات في زمن قصير ، الأمر الذى لا ينطبق فقط على تلبية الاحتياجات في القطاع المدني بل يمتد أيضا الى الاحتياجات العسكرية ، باستخدام أساليب الهندسة العكسية.

هذا التطور الجديد، الذي ما زال في بداياته الأولى، برغم النتائج الباهرة التي حققها، هو الطباعة الثلاثية الأبعاد والتي لا يقصد منها، استنادا الى اسمها، إنتاج نماذج للأعمال الفنية والأثرية، بل يمتد تأثيرها الى إنتاج قطع الغيار وأجزاء الآلات ونماذج الآلات الجديدة لإخضاعها للاختبار قبل انتقالها للإنتاج السلعي في خطوط الإنتاج، بل أيضا الى استخدامها كجزء من خطوط الإنتاج نفسها. ن والى استخدامها في المجالات الطبية مثل طباعة الأسنان والعظام.

وبرغم حداثة هذا التطور فان بدايات تطبيقه قد بدأت فعليا في بعض القطاعات الإنتاجية الخاصة والعامة المصرية ومنها على سبيل المثال في الشركة الخاصة الرائدة في المنتجات المنزلية، العربي، برغم أن الماكينة الأولى المستوردة لم يمكن الإفراج عنها من الجمرك إلا بعد مرور احدى عشرة شهرا نتيجة للتعقيدات الجمركية والأمنية الكبيرة، إلا أن استخدامها يتم الآن بنجاح.

فهل يعقل أن الطاقة الإنتاجية الكلية لإنتاج الأسمنت تبلغ 83 مليون طن ويعود نصف ملكيتها لشركات أجنبية في حين يبلغ الاستهلاك المحلى 50 مليون طن فقط، ، وبرغم هذا الفائض الأسمى فان منتجاتها لا تستطيع المنافسة في السوق الدولي نتيجة لانخفاض الكفاءة، طبقا للدراسة المشتركة بين الاتحاد الأوربي و الحكومة المصرية.

الآمر الذي لا ينطبق فقط على قطاع الأسمنت، بل يمتد كذلك الى العديد من الاستثمارات الخاصة في العديد من القطاعات الإنتاجية وبالأخص في صناعة الغزل والنسيج والملابس.

أن اى توجه لتطوير أو إعادة تأهيل أو إنشاء صناعات جديدة لا تراعى إنجازات الثورة العلمية والتكنولوجية لا يمكن لها أن تكون إلا حرثا في البحر وتبديدا للموارد وقطعا لإمكانيات التطور، وتشكل واجبا شديد الأهمية لأي دولة رشيدة، بصرف النظر عن قيامها بتطوير ما تملكه أم بأنشائها لاستثمارات صناعية جديدة، الأمر الذي عليها القيام به كذلك فيما يتعلق الاستثمارات الخاصة المحلية والأجنبية كشرط ضروري للحصول على التراخيص اللازمة ولديمومة هذه التراخيص.

هل يستيقظ الضمير؟

الراقص مع الذئاب والعسكري الأزرق

هل هناك حقا ما يسمى باستيقاظ الضمير؟ سؤال غريب من شخص غريب!!

ولكنى لا اعتقد أن هناك ما يمكن أن نسميه باستيقاظ الضمير ، فالضمير هو في النهاية مجموعة القيم والأفكار الناتجة من النمط الإنتاجي السائد بما يحتويه من بنية فكرية وثقافية واجتماعية تضمن ديمومته وقبوله من الجميع ، لكن مثل هذه البنية الفوقية ليست مجرد انعكاسا ميكانيكا لنمط الإنتاج السائد بل تحتوى بعض من التراث الفكري والثقافي للبنيات الاجتماعية السابقة وعلى بعض من البنية الفكرية والثقافية القادمة في عملية ديالكتيكية يتمخض عنها الصراع والاختلاف الفكري والثقافي بين المدافعين عن السائد وبين الطامحين الى المستقبل ، كما يتضمن أيضا من يستدعى رؤيته للماضي محاولا استعادته.

فلو توقفنا أمام صعود الرأسمالية، في أول البلدان التي وصلت اليها، وحاكمنا هذا الصعود بمقاييس عصرنا الحالي الفكرية والثقافية الناتجة عن نفس النمط الإنتاجي، بعد أن نضج وساد، لأصابنا الاشمئزاز!!

فالرأسمالية الصاعدة في بريطانيا لم تتورع عن نزع ملكية الفلاحين وتحويل الأراضي الى مراعى، حولت الملايين من الفلاحين الى متسولين في المدن بحثا عن العمل في المصانع الرأسمالية الناشئة، حيث استخدمت منهم احتياجاتها في ظروف عمل بالغة القسوة قد تصل الى 16 ساعة يوميا بمعدل أجور بالغة الانخفاض، ولم يتوقف الامر عند ذلك، بل حوكم الفلاحون الهائمون في المدن بحثا عن عمل بتهمة التشرد وبتطبيق عقوبة الإعدام عليهم .

وهو ما يتضح كذلك في التحول الرأسمالي العاتي في الولايات المتحدة الذي تم بالتضحية بالملايين من أصحاب الأرض الأصليين بوسائل وحشية يوضح بعض منة هذين الفيلمين الأمريكيين، الراقص مع الذئاب والعسكري الأزرق.

ولكن لا يجب أن ننسى أن هذا الصعود الرأسمالي هو الذي أدى، ضمن عوامل أخرى مرتبطة بالصراع الاجتماعي، الى ما وصلنا الية من التغني بحقوق الانسان وبالديمقراطية حتى في الحدود الضيقة للفهم الغربي لها، وبمستوى معيشة يتجاوز كثيرا ما كان سائدا في التركيبة الاجتماعية السابقة.

لقد أسفر الامر عن انتصار مجموعة من القيم الفكرية والثقافية الناتجة عن هذا النمط الإنتاجي الذي أصبح سائدا، ولكن درجات نضجه تتفاوت تفاوتا كبيرا بين المراكز والأطراف ، الأطراف التي كانت محلا لاستعمارها المادي من المراكز الأكثر تقدما ، ومازالت تعانى من تحكم وسيطرة المراكز بوسائل تتجاوز الاحتلال المباشر باستخدام القوى العسكرية وأن كان الامر قد يستدعى استخدام القوى العسكرية عندما تقتضى مصالح المراكز ذلك ، أو بالاعتماد على قوى محلية تقوم بالدور المطلوب منها الامر الذى يوضحه التاريخ الإنساني الحديث في النصف الثاني من القرن العشرون وحتى الان.

ولكن استخدام هذه القيم الفكرية والثقافية يتم بأسوأ الطرق، فصناع القرار في المراكز يستخدمونها أوسع استخدام لإجبار الأطراف، التي مازالت في مرحلة مختلفة من التطور، لإجبارها على الاستجابة للمصالح المادية للمراكز المدعومة بالرأي العام الذي يتم أقناعه بالقيم الفكرية والثقافية السائدة لدية.

أن الاعمال الفنية مثل العسكري الأزرق والراقص مع الذئاب لا تمثل فقط تصفية حساب مع الماضي، بل هي في حقيقتها تمثل نظرة الى مستقبل أفضل، بالذات في البلدان الأقل تطورا، وتمثل أضافة إنسانية مهمة قد تجعل تقدم البلدان الأقل تطورا أقل ايلاما وصعوبة أذا حظي بتايد الرأي العام في البلدان الأكثر تطورا.

فهل نستطيع أن نرقص، أجمعين، مع الذئاب؟

الهنود الحمر واكتشاف أمريكا!!

مهزلة التبعية

سؤال يبدو بريئا وساذجا لأنه، ببساطة، يتناقض مع العرف والاتفاق السائدين، نعم هناك هنود حمر تمتلئ بهم الشاشات ونعم تم اكتشاف أمريكا.

ولكن هذه الحقائق ليست حقائق على الاطلاق الا في العقل الغربي الذي عم العالم وشاع ولقى قبولا من الشعوب الأخرى التي تم استعمارها أو، أذا بالغنا، تم اكتشافها لولا بقية من حياء!!

فأمريكا كانت دائمة موجودة وتسكنها شعوب على درجات مختلفة من التطور، من القبائل البدائية في شمال أمريكا الى الشعوب الأكثر تقدما في الجنوب والوسط، كالانكا والمايا، ولذلك فان أمريكا استعمرت من الاوربيين ولاقى أهلها العذاب بتحطيم حضارتهم وسبل حياتهم، بل وابادتهم أحيانا، ومازال بعضهم يعانون من سيطرة المستوطنين ويعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية في مستعمرات محدوده المساحة والموارد.

ولم يكن سكان الشمال هنودا حمرا الا في العقل الاستيطاني الأبيض، بل هي قبائل لها أسماء كالسو والشيان وغيرها ولها لغات متعددة وبنية ثقافية متفردة.

وليس القصد، هنا، التحدث عن تاريخ احتلال أمريكا والنتائج التي ترتبت على ذلك، ولكن الهدف من هذا التعليق هو مجرد لفت الانتباه الى أنه برغم تحرر بلادنا من الاحتلال العسكري المباشر، فان بلادنا ما زالت محتلة احتلالا أكثر خطورة وأعمق اثرا وأصعب في التخلص منة، أنه الاحتلال الفكري والثقافي.

وبرغم أن التقدم الفكري والثقافي الذي حققته البلدان الأكثر تقدما يحتوي على منجزات فكرية وثقافية عامة تتجاوز اطر مجتمعاتها وأصبحت جزءا من التراث الإنساني العام الذي يخص كل البشرية في البلدان المتقدمة او المتأخرة، مثلها مثل كل المنجزات البشرية التي حققتها البلدان التي كانت متقدمة في عصور سابقة مثل الحضارات القديمة لمصر والعراق والصين، فان الوقوع في شرك المحاكاة لا يمكن له ان يقود البلدان المتأخرة الى التقدم.

انها دعوة للتمرد على المحاكاة والى محاولة اكتشاف طريقنا الخاص للتقدم، دعوة لا تتجاهل المنجزات الإنسانية الكبرى التي حققتها الإنسانية منذ الحضارات القديمة الى الحضارة الحالية، سواء على طريق العلم أم الأفكار الاجتماعية، ولكنها لا تتجاهل، بل تنطلق من الواقع الفعلي لبلادنا.

دعوة لا يجب ان تترك حجرا على حجر الا بالتوقف أمامه، بدءا من التنظيم الاجتماعي وشكل الحكم الى الأفكار والمعتقدات الفكرية والسياسية والمدارس الفنية والثقافية ولا تتجاهل الميراث الفكري والثقافي لبلادنا.

أنه نفس الاقتراب الذى حاول اباؤنا واجدادنا القيام به منذ بدء محاولات النهضة في القرن التاسع عشر ، ولكن هذا الاقتراب عانى مما نعانى منة الان ، حيث اختلطت المحاولات المتمردة الاصيلة مع المحاكاة التي كانت ومازالت غريبة على مجتمعنا ولا يمكن أن يترتب عليها الا تبديد واضعاف محاولات النهضة والتقدم ، برغم أن هذا الاقتراب كان أكثر انسجاما واصرارا مما نمر به الان ، وبرغم المقاومة المستميتة من دعاة الماضي ،وليته كان من دعاة الماضي المزدهر بل ماضي التخلف والجمود الفكري والعقائدي لعصور الانحطاط والتي تمثله بأوضح الصور التيارات الإسلاموية المعاصرة.

أن الطريق مازال شاقا وطويلا، ولكنة يحتاج، اول ما يحتاج، الى حسن تفهم الواقع والى إدراك ان محاولات التقدم تحتاج الى الشجاعة والوضوح وتقبل المخاطر في مواجهة قوى الظلام والاظلام التي استفحلت وامتد

نفوذها الى ما تحت كل حجر، الى حياة الناس اليومية ومعتقداتهم المباشرة، ولا يقتصر الامر على ذلك بل يمتد الى القوى والاتجاهات المنوط بها محاولة اللحاق بالمستقبل التي أصابها الجمود الفكري والسلفية العقائدية، فانعزلت وتعثرت.

انها دعوة للتمرد ورفض المحاكاة مع الاستفادة من كل الإنجازات البشرية الكبرى على صعيد الأفكار الاجتماعية او العلمية.

السوق الحرة بين محمود شكوكو وسيد مرزوق

بالقطع فان الجميع يعرفون محمود شكوكو، هذا الفنان المبدع الكبير، ولكن من منا يعرف " سيد مرزوق "، هذه الشخصية السينمائية التي قدمها فليسوف الإخراج المبدع، داود عبد السيد في فيلمه الفلسفي البديع " البحث عن سيد مرزوق."

فشكوكو صريح ومباشر ويطرح المشاكل ويقدمها بتعبيراته الساخرة ويقدم لها الحلول، أما سيد مرزوق الفكرة، فهو سيد ومرزوق ولا يمكن تحميلة نتائج أعماله حتى ولو تخفيت خلف الاستكانة وعزلت نفسك عن العالم بحيث لا تستطيع التفرقة بين أيام الأسبوع ولن يغنيك شيئا بناء صوبة معقمة لتحميك من التلوث والامراض فسيد مرزوق سيتسبب في اقتحام الاخرين لها، ولن تجد له أثرا فهو سيد ومرزوق.

والمصيبة أن السيد " سيد مرزوق " قد وصل الى عقول العامة وغير العامة، فهم يرددون "كلام تخين "ومزوق وملئ بالمحسنات اللفظية، يستخدمه الناس بسهولة ويسر، والمصيبة عندما يستخدمه المفكرون والمساهمون في العمل العام او حتى في التوجهات الرسمية للمؤسسات الدولية، دولية مجازا، مثل البنك الدولي وصندوق النقد، فأحيانا يصيبني الحزن وأحيانا اكاد أن استلقى على ظهري من الضحك.

هل راءى أي منكم " سيد مرزوق "، أقصد السوق الحرة على الصعيد العالمي؟ أم اننا مازلنا نبحث عن هذا السيد؟

فالدول الرأسمالية المتقدمة تضع قوانينها الداخلية لمنع الاحتكار في السوق الداخلي، ولكنة لا يطبق الا أذا اتفق أصحاب المصالح على ذلك، وتستخدم سلطة الدولة لحماية الاحتكارات الكبرى، ولعل صناعة الطيران تقدم لنا مثالا باهرا لما اقصده هنا، فكم هي الشركات الكبرى التي تنتج الطائرات الكبيرة على الصعيد العالمي؟ شركتين فقط لأغير، بوينج وإيرباص، أحدهما أمريكية بدعم الحكومة الامريكية والثانية أوربية بدعم الدول الاوربية الكبرى.

حتى صناعة المحركات لها فان اعداد الشركات القادرة على انتاجها انقرضت الى عدد محدود من الشركات، رولزرويس في أوروبا و جنرال الكتريك في الولايات المتحدة وأصبحت برات اند وتيني الامريكية على وشك الانقراض.

وإذا كان هذا في قطاع الطيران فانة يتكرر بأشكال مختلفة في الصناعات الأخرى، فشركة لافارج الفرنسية تمتلك عشرات من مصانع الاسمنت في العشرات من الدول ومنها مصر، وحين تلجأ احدى الدول النامية لفرض ضرائب جمركية في حدود الاتفاقات الدولية التي اجبر الجميع على الانضمام لها، لحماية سوقها، يتململ السادة في البنك الدولي وصندوق النقد.

وإذا كان هذا على صعيد الإنتاج وعلاقات السوق فان الامر لا يتوقف عند هذا، فاذا تدخلت الدولة في احدى الدول النامية واستثمرت بنفسها، يتعالى الصياح حول الخطأ الكبير الذي ترتكبه وحول فاعلية وكفاءة القطاع

الخاص، وهي أكذوبة كبرى سنعود اليها، وإذا تجرأت واحتجت بقولها " يا عم الحاج نريد أن نكون مثلك " فانت تفعل هذا وتمتلك دولتك البهية نسبة عالية من راس مال الشركات قد تتجاوز 30% في العديد من دولكم الرأسمالية المتقدمة، يتعالى الصياح " مش لما تقلع البامبرز الأول. "

فلو توقفنا قليلا أمام ما يسمى بالقطاع الخاص في الدول الرأسمالية المتقدمة لاكتشفنا أنه ليس قطاعا خاصا، فلقد تطورت الرأسمالية بحيث تحقق الانفصال التام ما بين الملكية والإدارة، واختصر دور الملاك الى قطع كوبونات الأرباح في نهاية العام وتداول ملكية الأسهم في البورصة ثم محاسبة مجالس الإدارات في نهاية العام في الجمعية العمومية السنوية، أذا اهتم ملاك الأسهم بحضورها.

والامر لا يتوقف على الشركات الكبيرة التاريخية، بل يمتد أيضا الى الشركات الحديثة التي يؤسسها النابهون، مثل ميكروسوفت، فهي تنتقل تدرجيا الى الشكل السائد من الشركات القديمة التاريخية، الانفصال التام بين الملكية والإدارة.

ويزداد الامر تفاقما حين يتم المطالبة بتبني منهج لإدارة الاقتصاد مبنى على الخبرات التاريخية لتطور الرأسمالية، أي الانتقال من الإنتاج السلعي الصغير الى الإنتاج الرأسمالي الكبير القائم على تقسيم العمل وتطبيق التكنولوجيا الحديثة وعلى الفصل بين الإدارة والملكية، فيتم تقديم تشجيع الإنتاج السلعي الصغير باعتباره طريق التقدم الموصي به.

فلماذا لا نحاول التقدم من حيث انتهى الاخرون؟ وهل هذه الوصفة " الدولية " تتلاءم مع أوضاع تطورنا، ولماذا يجب أن نمر بنفس الالام التي عاناها الاخرون؟

ويبقى الإجابة على السؤال الحقيقي المخفي خلف الايدولوجية، هل هذا هو حقا الطريق لتقدمنا؟

وهل استثمار الدولة لابد وان يفضي الى سوء الإدارة واهدار الموارد العامة والفساد؟

صياح أيديولوجي عالي الصوت يخفى مصالح عميقة مختفية تحته وهو ما يضحكني كلما سمعته، ولكن الامر المحزن عندما استمع الى مفكرين أو سياسيين من الدول النامية وهم يرددون هذا الهراء، متمنطقين بأوهامهم الليبرالية المستوردة من الدول الرأسمالية التي فقدت الكثير من ليبراليتها المزعومة، ويتم مكافأة بعضهم بمناصب مهمة في هذه المؤسسات "المرموقة. "

ان حسن أدارة الاقتصاد واستثمارات الدولة في البلدان النامية لا يمكن تحقيقهما بمجرد تغيير القواعد والاسس القانونية الاقتصادية ومستوى تدخل الدولة، بل في مجال أخر يبدو للمراقب الحسن النية بعيدا تماما، في السياسة، ولكنها قضية كبيرة أخرى موردة للمهالك!!!!

فلماذا ننساق الى استخدام مثل هذه الاصطلاحات الخادعة ولماذا لا نسمى الأشياء بحقيقتها الفعلية؟ وهو طلب يخلو من التزيد لان مواجهة الواقع كما هو، هو الطريق الوحيد للتقدم.

عاش شكوكو الصريح والمباشر ويسقط " سيد مرزوق " السوق الحرة لأنه غير موجود منذ زمان بعيد!!!!!

حلف الأطلنطي أم المياه الدافئة!

المعضلة الروسية

"أقوى المحاربين هما الصبر والوقت".

منذ ان استيقظ هذا العملاق الأوربي الأسيوي في القرن الثامن عشر على أيدي بطرس الأكبر وهو يشكل معضلة حقيقية في الوضع الأوروبي ثم امتد تأثيره الى الأوضاع العالمية بعد توحد العالم مع انضمام القوى العظمى الجديدة في أمريكا.

ويبدأ الامر بالمحاولات الروسية الدائمة لتعديل أوضاعها في الشمال والشرق والجنوب الغربي، فتعدل أوضاعها في بحر البلطيق في مواجهة السيطرة السويدية وتنشا درة التاج لروسيا الإمبراطورية، سانت بيتروسبورج، وتصل الى بحر أزوف في الجنوب الغربي وتقاتل الإمبراطورية العثمانية المتهالكة للوصول الى البحر الأسود.

ولكن مشروع ومحاولات النهضة بقيادة بطرس الكبير تلقى مصيرا مشابها لمشروع محمد على في مصر، ولكنها تضع بدايات التغييرات الاجتماعية الداخلية وتظل روسيا متأخرة كثيرا عن التطورات الاجتماعية والسياسية العاصفة الجارية في أوروبا، تطورات لم تكن روسيا بعيدة عنها وتلعب أدوارا كبيرة جدا وأحيانا حاسمة في الصراع الأوروبي.

فتكسر ظهر نابليون بونابرت عندما تجرأ وهاجمها ووصل الى موسكو نفسها، وصل الى موسكو، التي تركها أصحابها بدون قتال، عبر روسيا التي احرقها أصحابها بقيادة القائد الروسي العبقري، كوتزوف، كي لا يجد نابليون أمامه مواردا يقتات عليها جيشه، أنها الاستراتيجية العبقرية التي تتجنب الدخول في معارك كبرى، ولكنها تركز على اضعاف الخصم باتباع استراتيجية " "أقوى المحاربين هما الصبر والوقت"، حتى يأتي زمان ومكان المعارك الكبيرة.

ويتكرر الامر مرة ثانية بانتصار البلاشفة في الثورة الروسية الكبرى سنة 1917 التي هزت أوروبا وحظيت بتعاطف شعبي أوروبي كبير واشاعت الاضطراب في العديد من البلدان الاوربية، لكن الامر يسفر في النهاية عن تأسيس دولة كبيرة أعادت لحمة الإمبراطورية الروسية على أسس جديدة، الاتحاد السوفيتي، دولة تواجه الدول الاوربية الرئيسية التي كانت قد نجحت في الاتفاق على تقسيم المصالح والوصول الى اقتسام العالم القديم.

ولكن هذه الدولة الكبيرة، التي كانت مازالت متخلفة عن التقدم الأوربي العام، تلعب دورا حاسما في حرب أعادة تقسيم العالم التي فجرتها المانيا النازية، للمرة الثانية، بعد محاولتها الأولى في الحرب العالمية الأولى، حين أخطأت المانيا خطئها الاستراتيجي الكبير بمهاجمة الاتحاد السوفيتي سنة 1941.

قتالا ضاريا يدور، للمرة الثانية، على الأراضي الروسية بقيادة سوفيتية مصممة على الصمود والمقاومة، رغم اخطأها الاستراتيجية الكبيرة في بداية الحرب، بحيث نستطيع أن ندعى أن هذه الحرب كانت حربا فيما كان يسمى بالجبهة الشرقية، رغم الكم الهائل من البروبوجندا السياسية والإعلامية التي تختصر الحرب في أفلام الاكشن الغربية.

حجم قوات المانية هائل يبلغ 220 فرقة يقاتل على الأراضي الروسية في مقابل 4 فرق المانية فقط يقاتل في شمال افريقيا يصنع من قادتها اساطير عسكرية.

يموت في الحرب على الجبهة الشرقية ملايين من البشر وتدمر المئات من المدن والاف القرى وتسفر الخسائر النهائية ما يتجاوز 20 مليونا من السوفييت وثمانية ملاين من الالمان وستة ملايين من البولنديين وبضع مئات الالاف من الفرنسين والبريطانيين والأمريكيين، الا أن بداية نهاية الحرب يبدأ من معركة كورسك عام 1943، حيث تهزم المانيا النازية في معركتها الكبيرة الأولى وياسر من قواتها 900 الف جندي ، ومنذ هذه المعركة يتغير مسار الحرب وتضطر الدول الغربية الى فتح الجبهة الثانية برغم السياسات البريطانية التي كانت تتجنب ذلك املا في تأكل كلا من المانيا والاتحاد بعضهما ، جبهة ثانية والقوات السوفيتية على أعتاب دخول المانيا ، وبرغم ذلك فان من دخل برلين واطبق على انفاس المانيا النازية ودفع هتلر للانتحار هو الجيش الأحمر.

وللمرة الثانية في التاريخ الحديث يكون دور روسيا، التي كانت مازالت متخلفة، دورا حاسما في الصراع العالمي وتخرج روسيا أو الاتحاد السوفيتي دولة عظمى ذات تأثير كبير على الصعيد العالمي ويتغير شكل الصراع العالمي من جديد.

صراع يسفر في نهايته، بعد خمسة واربعون عاما، عن هزيمة الدولة السوفيتية وتعم الفوضى المعسكر السوفيتي وتنهار أنظمته وتتفتت دولة، الا أن روسيا تستطيع الحفاظ على وحدة أراضيها الأساسية برغم الفوضى العارمة التي تعم داخلها والفساد الهائل الذي يتعاظم.

ومنذ أن بدأت روسيا في استعادة عافيتها، برغم استمرار الفجوة العلمية والاقتصادية والاجتماعية بينها وبين الغرب الأكثر تقدما، الا انها دولة كبيرة مدججة بالسلاح وتملك موارد هائلة من المواد الطبيعية، رغم ان حجم ناتجها الإجمالي، بمقياس القوة الشرائية، مازال لا يتجاوز حجم الاقتصاد الألماني رغم أن عدد سكانها يقترب من أن يكون ضعف عدد سكان المانيا، تبدأ روسيا في محاولة استعادة نفوذها المفقود وتنجح في ذلك، نسبيا، في جنوبها الشرقي الأسيوي وفى علاقتها مع المارد الصيني الصاعد.

محاولة تمتد الى استعادة أجزاء من دول أخرى حيث تتركز الأقليات الروسية الامر الذي لا يثير غضبا كبيرا في المعسكر الغربي، فتضم أجزاء كانت خاضعة لجورجيا، وبرغم الاحتجاجات الروسية على امتداد حلف الأطلنطي الى الدول الاوربية، التي كانت عضوا في حلف وارسو وكانت جزءا من الكتلة السوفيتية، الإ ان هذه الاحتجاجات تبقى على الصعيد اللفظي برغم امتداد الحلف الى دول البلطيق الثلاث الصغيرة، استونيا ولاتفيا وليتوانيا، الا أن هذا الانضمام لا يشكل تهديدا مباشرا على الممر الروسي في بحر البلطيق.

ولكن احتمالات انضمام أوكرانيا لحلف الأطلنطي يثير الغضب والقلق الروسيين، فالأمر هنا يتجاوز انضمام أي دولة أوربية أخرى، فالتطور الحالي في الأسلحة الروسية وبالذات التطور الهائل والغير مسبوق في الصواريخ الاستراتيجية لا يجعل أي بلد أمنا منها في حالة قيام حرب، وبرغم ذلك فان الموقف الروسي، في تقديري، ينطلق من تأثيرات هذا الانضمام على المصالح الروسية في زمن السلم!!

فللمرة الأولى من المكن أن يتحول بحر أزوف من شبه بحر داخلي لروسيا القيصرية أو السوفيتية الى بحر دولي في عهد روسيا الاتحادية بما يمثله ذلك من تهديد استراتيجي للمصالح الروسية، والى أمكانية تزايد تأثيرات حلف الأطلنطي بعد انضمام كلا من رومانيا وبلغاريا انتظارا لانضمام أوكرانيا، على التوازن الاستراتيجي في البحر الأسود.

ولذلك فلقد تحركت روسيا لتعديل الأوضاع بضم شبة جزيرة القرم وتأييد الحركات القومية في شرق أوكرانيا.

وبصرف النظر عن الدعايات الإعلامية الصادرة عن الأطراف المتصارعة، سواء اكانت تقاتل على الأرض أم تدعم أحد الأطراف، فان أوضاع القتال الحالية وأوضاع القوات يؤكد أن الهدف الروسي الحقيقي هو، من جديد، تامين الوصول الى المياه الدافئة، الحلم الروسي القديم والدائم، في مواجه حماقة سياسات تجاهل المصالح الروسية الاستراتيجية.

فاين سيتوقف الهجوم الروسي؟ وهل سيمتد الى اكمال الاستيلاء على كامل الساحل الأوكراني على البحر الأسود وصولا الى اوديسة واتصالا مع الأقلية الروسية المتمردة في مولدافيا؟

يبقى أخيرا ضرورة التنبه الى حقيقية الازمة الاقتصادية العالمية، فهي ليست نتيجة للحرب الروسية الأوكرانية، بل كانت تتجمع عناصرها منذ اجتياح كرونا للعالم وتأثيرات هذا الاجتياح على الأوضاع الاقتصادية العالمية، لكن الحرب والسياسات الدولية للأطراف المتصارعة حول الازمة الروسية الأوكرانية تقود الى تفاقم الازمة واحتدامها وتدعم محاولات البعض بتفسير أعباء الازمة بالحرب او بمحاولة القاء عبئها على الكثير من الأطراف

الغير مشاركة بمطالبتها باتخاذ إجراءات تدعم هذه الأطراف، الامر الذي رفضته الكثير من الدول ومن ضمنها الدول العربية.

رأسمالية الدولة والتخلص من الدجما

"رأسمالية الدولة الوطنية أم رأسمالية الدولة التابعة"

ظاهرة عالمية تنتشر من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ولم تترك مجتمعا الا وكانت ظاهرة وأحيانا قائدة فيه، انها رأسمالية الدولة.

تظهر بشكل أكثر وضوحا في البلدان التي تتطور بشكل سريع، فقيمة اسهم شركات الدولة في البورصة الصينية تبلغ 80% من حجمها وفى روسيا 62% والبرازيل 38. %

أما في البلدان الرأسمالية المتقدمة فتتراوح ملكية الدولة من 25 الى 30 % من ملكية الشركات الصناعية.

ظاهرة تستحق التوقف عندها طويلا وكثيرا، ولكن الأكثر أهمية، الان، التوقف حول هذه الظاهرة في البلدان النامية ، ومنها بلادنا ، لأهميتها البالغة في النمو الاقتصادي والاستقلال الوطني وتحسين توزيع الدخل.

واذا كانت رأسمالية الدولة قد انتشرت في البلدان النامية في اعقاب الاستقلال وسط ظروف احتدام الصراع العالمي بين المعسكرين الامر الذى هيئ مناخا مناسبا لطموح الطبقات الاجتماعية الجديدة التي شكلتها سلطة الدولة الوطنية الجديدة لكى تكون اكثر طموحا لتحقيق درجة أعلى من الاستقلال الاقتصادي و السياسي عن القوى الاستعمارية القديمة ، هذا النهوض الذى يتطلب زيادة الانفاق على التعليم والصحة والبنية الأساسية والتعديل الجزيء لتوزيع الدخل القومي لتوسيع السوق الداخلي ، وكلها ضرورات اقتصادية واجتماعية بدونها لا يمكن تحقيق الطموحات الاقتصادية لهذه الطبقات ، الامر الذى اسفر عن تدعيم التايد الشعبي لهذه الأنظمة بدرجات متفاوتة ولكنة في نفس الوقت مكن الطبقات الاجتماعية الجديدة من الانفراد بالسلطة وقمع الحركة السياسية المستقلة للطبقات الشعبية ، بحيث أصبحت هذه البلدان أقل قدرة على الصمود في مواجهة القوى الاستعمارية التي انتقلت اشكال استغلالها من الاحتلال العسكري المباشر الى تمتين الارتباط الاقتصادي والسياسي مع البلدان المتحررة حديثا.

لقد انهارت هذه المحاولات تحت ضغط القوى الرأسمالية العالمية سواء بالتدخل العسكري المباشر وبالضغوط الاقتصادية أم بالانقلابات العسكرية الداخلية، ولكن رأسمالية الدولة عادت من جديد في العديد من البلدان النامية بأشكال مختلفة ولم تعد مرتبطة بالسياسات القديمة وبطموح مختلف عن سياسات محاولات تدعيم الاستقلال، رفض سياسات التحالفات العسكرية والحياد بين المعسكرين ومواجهة النفوذ الاستعماري المباشر ام غير المباشر.

لقد أصبح لدينا بانوراما كاملة من رأسماليات الدولة في البلدان النامية، بعضها تم أدامجها كشريك صغير بالسوق العالمية والبعض الاخر تم اسقاط قياداتها المنتخبة التي كانت أكثر طموحا وتحاول تحقيق درجات اعلى من الاستقلال الاقتصادي والسياسي، الامر الشديد الوضوح في تجارب أمريكا اللاتينية.

لقد تغيرت الظروف الدولية السياسية والاقتصادية وحتى الظروف الداخلية ولم تصبح رأسمالية الدولة قرين الحزمة كاملة من السياسات، بل أصبحت قرينة للظروف الخاصة لكل بلد، واصبح الامر أما الاندماج مع السوق العالمية أو مواجهة اشكال مختلفة من الضغوط، لان وجود ونمو رأسمالية الدولة يشكل تناقضا موضوعيا مع مصالح الرأسمالية العالمية.

ولعل من الواجب الإشارة الى أن رأسمالية الدولة لا تعني بالضرورة وجود الطبقة الاجتماعية الانتقالية التي أطلق عليها الرأسمالية البيروقراطية، فرأسمالية الدولة لا يحدد طبيعتها الاجتماعية شكل الملكية بل طبيعة النظام السياسي، أي كيف تدار هذه الملكية ولمصلحة من، فرأسمالية الدولة احتياج موضوعي للبلدان المتخلفة في زماننا هذا، لاعتبارات متعددة سياسية واقتصادية ودولية، ومن الممكن أن تديرها سلطة شعبية حقيقة تحضيرا للزمن القادم!

ولعلة من الواجب التوقف قليلا على ما كتبته المجلة الاقتصادية البريطانية الشهيرة، الإيكونيميست سنة 2012، التي تمثل الموقف التقليدي للرأسمالية العالمية من الرأسماليات الناشئة في البلدان النامية

"بالنسبة للبلدان الناشئة التي ترغب في ترك بصمتها على العالم، فإن رأسمالية الدولة تتمتع بجاذبية واضحة. إنه يمنحهم النفوذ الذي ستستغرقه شركات القطاع الخاص سنوات لبناءة. لكن مخاطرها تفوق مزاياها.

من أجل مصلحتهم الخاصة، ولصالح التجارة العالمية، يحتاج ممارسو رأسمالية الدولة إلى البدء في تفكيك ممتلكاتهم الضخمة في الشركات المفضلة وتسليمها إلى المستثمرين من القطاع الخاص. إذا كانت هذه الشركات جيدة كما تفتخر، فهي لم تعد بحاجة إلى عكاز دعم الدولة"

الامر الذي لا يعنى الا شيئا واحدا، التحق بنا تابعا ومندمجا لأنك الأصغر والاضعف والاقل تطورا ويكفيك ما فعلته!

ولعلنا نستطيع أن نلخص الامر بالتساؤل الأساسي

"رأسمالية الدولة الوطنية أم رأسمالية الدولة التابعة. " !

رأسمالية الدولة ونمط الإنتاج

عندما تظهر ظاهرة يعتبرها البعض جديدة، برغم أنها ليست جديدة، وعندما يريد البعض التغطية على اختياراتهم السياسية ستجد العجب العجاب من الاستخراعات النظرية التي تبرر مواقفهم.

فتاريخ تطور المجتمع الإنساني مر بمراحل مختلفة، من المشاعة الى المجتمع العبودي الى الاقطاع ثم انتهى الى الرأسمالية الحديثة، هذه الرأسمالية التي يدعى المفكرين النظريين المؤيدين لها، انها نهاية التاريخ بعد انهيار ما كان يسمى بالبلدان الاشتراكية و النمو الرأسمالي العاتي في الصين الشعبية، ولذلك اختفت الملاعيب النظرية المتعلقة بالنمو في البلدان النامية حين اطلق عليها ، في حينه ، طريق النمو اللا رأسمالي.

اصطلاح غريب يصف نموا رأسماليا بقيادة وسيادة ملكية الدولة، كان مرتبطا في حينة، بسياسات خارجية وداخلية جديدة وسط أجواء من الصراع الدولي بين المعسكرين.

ولكن هل انتهى نمط التنمية الرأسمالية بقيادة الدولة، على صعيد القيادة العامة للنمو الرأسمالي وبالاستثمار المباشر للدولة، بانتهاء الأوضاع التي انتجته؟ بالقطع لم ينته، ولكنة تغيير ولم يصبح مرتبطا، بالضرورة ، بالسياسات القديمة التي كانت جزءا منه في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.

أن التنمية، من أي نوع، لا يمكن تحقيقها في البلدان النامية بدون دور قائد للدولة يتضمن الاستثمار المباشر، الأمر الذى تجده في بلدان ذات أنظمة حكم متباينة ، بدرجات متفاوتة من النجاح والتعثر وبمستويات مختلفة من تدخل ومساهمة الدولة.

هذه القطعية في التقرير التي أتبناها قد تجد من يختلف معها لاعتبارات متعددة، منها ما يتعلق بالطابع الانتقالي لها أو بكفاءة الإدارة او بحسن توجيه الموارد ام باحتمال استشراء الفساد.

الكثير من الاعتراضات والردود المضادة، ولكن يبقى دور هام على المتخصصين دراسته، دراسة التجارب والخبرات المنتشرة من اقصى الشرق الى اقصى الغرب، دراسة لابد وان تتضمن الشروط السياسية والدولية التي تمت وتتم فيها.

الأوغاد الابطال

راس الامر وذروه سنامه!

تحير كبير يصيبك انت الذي يحلم وتكاد ان تكون بيوروتانيا، حين تنظر الى البشر وتقدر بطولتهم وتضحياتهم وقبولهم التعرض للخطر الشديد من اجل مستقبل الأخرى وتصيبك الحيرة وانت ترى نفس هؤلاء البشر يرتكبون احط أنواع السلوك الإنساني، ليس فقط في مواجهة الاخرون، بل أيضا مع زملاء خط النار، لتكتشف أن البطولة الحقة لا تظهر فقط في الاختيارات الكبرى، بل هي اختبار يومي ومتكرر في الحياة اليومية العادية، كل لحظة تمثل لحظة اختبار جديدة للبطولة.

وتكتشف أن هؤلاء الابطال منتشرون كالنار في الهشيم ببطولة اختياراتهم اليومية، وتكتشف ان البطولة هي أصعب ما تكون في الحياة اليومية العادية، حتى بدون وجود أهدافا كبرى.

وتكتشف أيضا أن هؤلاء البشر المزدوجون لا يمكن لهم تحقيق أي نتائج بطولية كبرى الا عن طريق الصدفة، أما هؤلاء الابطال أصحاب الاختيارات اليومية الصغيرة، اللذين لا تبدو عليهم أي بطولة ولا يحسون بها، يحققونها بسهولة ويسر بلا فخر او ادعاء. وأحيانا دون إدراك لها.

فيا أيها الاوغاد، الذين يعتقدون انهم ابطال، تجنبوني لان حبل الصبر قد نفذ وستكون ردودي جارحة ومباشرة وبلا رحمة.

أما هؤلاء الابطال، ابطال الاختيارات اليومية الصغيرة أو حتى من لديهم الانسجام الكامل ما بين الاختيارات لكبيرة والصغيرة، فمرحبا بهم لقناعتي الكاملة بان البطولة هي أعلى تحقق لإنسانية الانسان، بل هي راس امر الإنسانية وذروة سنامها.

النداهه

تعبير شعبي مرتبط بالتصورات حول الجنية التي من الممكن ان تظهر في أشكالا متعددة ومنها في شكل امرأة رائعة الجمال، وتستدعى من تحبهم من الرجال فلا يستطيعوا مقاومة ندائها.

تعبير استخدمه يوسف إدريس عنوانا لمجموعته القصصية التي اسماها النداهه التي تحتوي، من ضمن ما تحتويه، قصة النداهه القصيرة، قصة لم تجذبني برغم براعة يوسف إدريس الباهرة، لأنها أثارت اشمئزازي، ورغم انى لست متخصصا في النقد، ولكنى اعتقد انها تمثل تعبيرا عن تطور شخصية يوسف ادريس نفسها.

فهناك فارق كبير بين يوسف إدريس في لا وقت للحب وبينة في النداهه، ولعل أحد النقاد المتخصصين يحدثنا عن تطور أعمال يوسف إدريس.

ولكن النداهه التي اتحدث عنها هنا ليست نداهه يوسف إدريس، بل نداهه أكثر اقترابا من التصور الشعري الشعبي للنداهه، أي حين يتملكك الوجد بفكرة او دور في الحياة أم حتى احلاما شخصية ام عامة تتحكم في سلوكك واستعدادك لتقبل المخاطر وتمثل دافعا لا يمكن مقاومته للتحرك أو اتخاذ موقف أو سلوك أنساني.

فالعالم يتغير بجهود هؤلاء البشر الذين يستجيبون لنداء النداهه سواء أكانت نداهه علمية أم اجتماعية فيقودون التغيير، فمرحبا بأصحاب النداهه الذين سيتبعهم الغواة غدا، الذين سينتجهم تراب الأرض.

العالم الراهن والمجال الحيوي

تعبير مخادع هذا المجال الحيوي يخفى خلفه حقائق كبرى متعلقة بمصالح القوى العالمية الكبرى والقوى الإقليمية الكبيرة.

تعبير يتيح لمثل هذه القوى الدولية او الاقليمية التدخل في شؤون الدول الاصغر او الاقل تطورا والاضعف وهو تعبير في منتهى الخطورة إذا تم الموافقة عليه أو تأييده.

فلنتخيل انه تم تبنى والموافقة على مثل هذا المجال الحيوي للدول الإقليمية في منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا فما الذي سيحدث؟

فما هو المجال الحيوي لأكبر الدول الإقليمية من حيث حجم الكلى والتطور؟ فماذا سيكون مصير العراق وسوريا وقبرص واليونان أمام المجال الحيوي لتركيا الذي امتد ليشمل ليبيا وفشل في التأثير على مصر وحاول الوصول الى السودان.

وما هو المجال الحيوي لإيران على منطقة الخليج والتي تحاول تمديد ما يسمى بمجالها الحيوي ليشمل العراق وسوريا واليمن.

وهل ما زلنا نتذكر مبدأ مونرو، الذي تبنته الولايات المتحدة في بدايات القرن التاسع عشر، ليتحول مع الزمن إلى مبدأ التدخل العسكري والضغوط الاقتصادية على بلدان أمريكا الوسطى والجنوبية.

أن الاستناد إلى مبدأ المجال الحيوي لروسيا الاتحادية لتحديد موقف من الصراع المسلح الدائر الآن على ومع أوكرانيا يفتح عمل الشيطان.

فالصراع حول أوكرانيا هو صراع للقوي العظمى حول النفوذ والقدرة على التأثير، وبرغم أن الحقائق تؤكد أن الطرف الغربي هو من تسبب فيه حين استفاد من انهيار الكتلة السوفيتية ليمتد حلف الأطلنطي إلى حدود روسيا الاتحادية، تطور في منتهى الخطورة على مصالح روسيا، في نفس الوقت الذي تم التواطؤ على تصاعد نفوذ الاتجاهات الأكثر يمينية وتطرفا وتزايد تفاقم التهديد على مجال روسيا " الحيوي."

وبرغم كل ذلك فإن من الواجب الدفاع عن مصالحنا ومصالح أشقاءنا برفض هذا المنطق، منطق المجال الحيوي، والتمسك بالموقف العاقل الذي اتخذته بلادنا العربية مع الصين والهند والمكسيك والبرازيل في نفس الوقت الذي لا نتنازل فيه أمام الهوس السياسي والاقتصادي للغرب الذي من الممكن أن يقود العالم الى كارثة.

ان الحل الوحيد للصراع الدائر الآن، الذي ستتراكم تأثيراته السلبية، إذا استمر، هو وقف القتال والتوقف عن امتداد حلف شمال الأطلنطي وضمان حياد أوكرانيا وحق شعوبها في تقرير المصير وضمان حق روسيا في الوصول إلى المياه الدافئة في البحر الأسود والتوقف عن فرض الحصار الاقتصادي على روسيا، إجراءات لابد منها لإنقاذ العالم من كارثة اقتصادية مؤكدة لن تترك أحدا في حالة.

أن تعبير رأسمالية الدولة يبدو مثيرا للجدل والاختلاف، فالرأسمالية الخاصة تدعو إلى الحد الأدنى من النشاط الاقتصادي للدولة، والدولة التي تدرك الضرورات السياسية لنشاطها الاقتصادي تتصرف بشكل مختلف عن مطالبات الرأسمالية الخاصة، خصوصا عن مطالبات القطاعات الأكبر والأكثر ارتباطا مع السوق العالمي سواء بالاستثمار المباشر خارج البلاد أم بالاندماج الإنتاجي خارج وداخل البلاد.

ومؤسسات اقتصادية دولية تتبنى موقفا أيديولوجيا معاديا لرأسمالية الدولة بدعوى أنها أقل كفاءة وأكثر إهدار للموارد ، وتتجاهل أن رأسمالية الدولة لها أوزان نسبية كبيرة في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، وهو ما يلمح أن موقفها هذا لا يمكن اختصاره في الأسباب الاقتصادية ، فراس الذئب الطائر منذ خمسينات القرن الماضي مازالت تلوح في الأفق ، حين تبنت الكثير من بلدان العالم الثالث رأسمالية الدولة طريقا وحيدا للتقدم ، هذا الطريق الذى ارتبط بسياسات دولية مختلفة في عالم كانت تتحكم به جبهتين مسببة متاعب سياسية وتأثيرات على صراع الجبهتين العالميتين.

وبرغم أن رأسمالية الدولة في بلدان العالم الثالث تعرضت لمصاعب كبيرة وتقلص وانهار بعضها وتغير بعضها واندمج مع الرأسمالية الخاصة بحيث تغيرت هذه الرأسمالية بأشكال مختلفة إلا أنها تعاود الانبعاث في بلدان كانت من الأكثر عداء لرأسمالية الدولة وانعكاساتها السياسية في ذلك الزمان، وتعود أيضا فيبلدان رأسمالية الدولة السابقة، ولكن بأشكال مختلفة.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك فلقد ارتبط صعود رأسمالية الدولة في البلدان المتخلفة، في ذلك الزمان، بالدولة الديكتاتورية وبالعداء للحريات الديمقراطية، واختلطت مفاهيم رأسمالية الدولة مع الشعارات السياسية التي استخدمت أسماء أخرى بدءا من الشعارات الاشتراكية الى طريق النمو اللا رأسمالي وغيرها من الشعارات والتوصيفات التي تخفى الحقائق السياسية والاقتصادية لهذه الأنظمة الجديدة.

والان يدور النقاش من جديد، وسط كم هائل من الأوهام النظرية وبالانحياز الفكري وضغوط المؤسسات الدولية، بل يمتد الأمر الى محاولة استدعاء الماضي بكامل أوهامه، خصوصا لدى قوى المعارضة بكل فئاتها.

نقاشا ليس ترفا، بل في منتهى الأهمية لمستقبل بلادنا، ولكن هذا النقاش يتعرض للانحطاط من كل الأطراف المشتركة فيه، معارضة أو مؤيدة، دولية أم محلية، لسبب اصيل ووحيد، أن لا أحد يستمع لنصائح الأجداد!!

التحليل الملموس للواقع الملموس ولا شيء غيره!!!

رأسمالية الدولة بين الصندوق والبنك

جدل كبير يدور حول النشاط الاقتصادي الإنتاجي للدولة، سواء من حيث طابعه الاجتماعي أو كفاءته الإنتاجية أو أساليب مراقبته من الرأي العام، نقاش يغيب عنه، في معظم الأحوال، دور هذا النشاط الإنتاجي في توجيه السياسات العامة للدولة أو العكس ووضع الطبقات الاجتماعية وفي تحقيق التنمية وفى مدى الارتباط مع السوق العالمية الأمر شديد الارتباط مع السياسات الدولية للدولة التي قد تكون أكثر أهمية عن نمط التنمية المحلي ودور الطبقات الاجتماعية المختلفة فيه.

وبادئ ذي بدء لابد من التنبه الى أن مثل هذا التوقف لابد وأن ينطلق من الأوضاع الملموسة، أي من تحليل الأوضاع الفعلية واحتمالات تطورها والأهداف والمصالح المختفية خلفها، وحتى الى الخبرات التاريخية السابقة.

ولعل من الواجب التنبه ان رأسمالية الدولة، أي قيامها بالاستثمار المباشر أو تملك أصولا إنتاجية، ليس اختراعا اشتراكيا أو أنه نشأ في بلدان العالم الثالث، بعد استقلالها، ولكنها جزء اصيل من التطور الرأسمالي في البلدان المتطورة، ولكن الفوارق والفروق بين رأسمالية الدولة في البلدان المختلفة لا يمكن اختصاره في شكل الملكية، بل في ان طابعها الحقيقي يتجسد في وظيفتها الاجتماعية.

أن دراسة رأسمالية الدولة لا يمكن لها أن تتحقق الا بمراجعة المفاهيم القديمة حولها، فالاصطلاح الذي مازال سائدا حول رأسمالية الدولة يحصرها في الأنشطة الصناعية أو الزراعية هو تعبير قاصر، فإن فهم رأسمالية الدولة فهما صحيحا يتطلب اعتبار أن أي أنشطة يترتب عليها خلق قيمة مضافة نشاطا إنتاجيا وتشكل جزءا من رأسمالية الدولة.

ولابد من التفرقة بين الأنشطة التي تدر دخلا، ولكنها لا تخلق قيمة مضافة والتي لابد من استبعادها منالنظر اليها باعتبارها جزء من رأسمالية الدولة لان دخلها هو في حقيقته جزء من القيمة المضافة التي تم خلقة في قطاعات أخرى.

ولا يجب الاعتداد هنا بالأساليب الرسمية في حسابات الدخل القومي التي لا تفرق بين القطاعات الإنتاجية الخالقة للقيمة المضافة وبين القطاعات الخدمية التي تخلق دخلا، ولكنها لا تخلق قيمة مضافة، بل تستحوذ على جزء منه تم خلقة في قطاعات إنتاجية أخرى.

لذلك فان قطاعات النقل والتوزيع بكل أنواعها وتوليد الكهرباء وتوزيعها والري ومعالجة مياه الصرف الصحي والصناعي هي أنشطة خالقة للقيمة المضافة بصرف النظر عن مستوى ما تحققه من دخل، على العكس من أنشطة التعليم والصحة التي تدر دخلا إلا أنها لا تخلق قيمة مضافة.

ويبدو الامر مثيرا للعجب حين يطالب كلا من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي البلدان الأقل تطورا بضرورة تبنى نمط للتنمية يعتمد على القطاع الخاص متجاهلين أن الكثير من البلدان المتطورة تزيد فيها نسبة القيمة المضافة في قطاعات رأسمالية الدولة عنها في البلدان الأقل نموا، الامر الذي يبدو ظاهريا كما لوكان استجابة فكرية لما يسمى بالليبرالية الجديدة ، الأمر الذى يثير مزيدا من السخرية لدى كل من يدرك المصالح الدولية والمحلية المختفية خلف هذه الفخامة اللفظية التي تتشدق بها المؤسسات الدولية ومن يروج لها من أساتذة الاقتصاد العاملين لديهم أو الذين أصابتهم غمامة الانحياز الطبقي.

ولنتوقف الآن قليلا حول واقعنا الفعلي وخبراتنا القديمة القريبة

ولابد أولا من التوقف على الكيفية التي تعد بها البيانات الرسمية ، فهذه البيانات تعد على أساس من التوصيف القانوني لشكل الملكية وليس المالك الحقيقي لها ، فالشركات التي تمتلكها مؤسسات وهيئات الدولة بشكل

مشترك ، أي في صورة شركات مساهمة ، تعتبر لدى معد البيانات شركات خاصة وليست شركات لرأسمالية الدولة ، الأمر الذي ينطبق كذلك على الشركات المشتركة بين رأسمالية الدولة وبين الرأسمال الخاص ، الامر الذي يضيف عوائق إضافية لحسن تقدير المساهمات والأوزان النسبية وطرق اندماجهما ، الأمر الذي يستلزم دراسة أكثر تفصيلا.

ولعل تطور شكل ملكية استثمارات رأسمالية الدولة، بعد تطبيق ما سمي بالانفتاح الاقتصادي، كان أحد ملاعيب رأسمالية الدولة في الاستجابة للضرورات السياسية والاقتصادية دون التعرض لمزيد من ضغوط هذه المؤسسات.

هذه الضرورات السياسية والاقتصادية التي دفعت الدولة الى الاستثمار الكثيف في القطاعات الإنتاجية المنتجة للقيمة المضافة بعد 2014 وهو ما اثار تململ المؤسسات المسماة بالدولية، تململ ليس دافعة خيري وإنساني يستهدف المساعدة في تنمية بلادنا، بل لأهداف أخرى أكثر عمقا قد لا يدركها حتى الكثير من المتململين.

فالخبرات التاريخية توضح أنه لا يمكن تحقيق نمو حقيقي ومستدام في البلدان الأقل تطورا دون تدخل حاسم من الدولة، مهما كانت طبيعتها الاجتماعية، تدخل بتنظيم سياسات الاستثمار أم بالاستثمار المباشر وبتنظيم السوق، تدخل يمتد من البلاد البترولية إلى غير البترولية.

ولعل أحد أهم الهواجس هو احتمالات أن تتبنى مثل هذه الدول سياسات أكثر استقلالية تؤثر على مصالح واستثمارات الرأسمالية العالمية وتضعف من تأثير الاندماج أو التبعية للرأسمال الخاص الذي يشكل ضمانة لاستمرار نفس السياسات التي تطالب بها هذه المؤسسات " الدولية " وتؤثر بالتالي على إعادة تصدير رأس المال، سواء في هيئة أرباح، أو فوائد، أم وفق شروط التبادل غير المتكافئ.

أن السياسة هي اللهو الخفي المختفي خلف هيولي نصائح وضغوط المؤسسات الدولية برغم كل البلاغة اللفظية التي تثير التقزز لكل من يدرك ما وراء الأكمة.

مقاتل الخط الأمامي

ولماذا مقاتل الخط الأمامي؟ وكيف انبثق هذا التعبير؟

وهل فكر به قبل كتابته؟ أم أنه أتى حاملا نفسه معلنا عن وجودة ومكملا للصورة الشعرية للنص النثري؟ فهل انبثق كما انبثقت أثينا من رأس زيوس مصطحبا معه مقاتل هيئة العمليات؟

مفكر وناقد أدبي وسياسي يكتب نثرا بصرامة فكرية وتحدد قاطع، ولكنه يكتب نصوصه النثرية بمزاج الشعراء، يتزوج شاعرة تصف زوجها بالشاعر الذي يكتب نثرا، فيأتي رابع الأبناء وهو يحمل هذا المزيج السحري من التحدد القاطع والمزاج الشعرى، فيكتب نثرا، ولكنه يتمثله بصورة شعرية، فينبثق النص!!

مزيج وراثي مؤلم لوريث مقاتل الخط الأمامي وشاعرة نجمة الغروب، الأمر الذي يجعله دائما يشعر أنه غريب ومختلف، اختلاف لا يميزه عن الآخرين ولكنه يمثل له عبئا نفسيا ثقيلا يجعله، دائما، يتساءل هل هو من هذا الزمان ؟ ام انه من زمان ذهب وانقضى؟ أم أن زمانه لم يأت بعد؟

جينات وراثية يدعمها نهم للقراءة تؤثر به تأثيرا كبيرا منذ الطفولة، فيحس بالنص النثري احساسا شعريا، فيبكي أحر البكاء وهو يغلق على نفسه حمام المنزل لان قطز قد قتل، ويشعر بألم شديد عندما يقرأ الفتنة الكبرى ويقع في غرام على وبنوه وتخلب لبه مقولة " كرم الله وجهه " فلا ينساها حتى بعد أن أصبح شيخا يفكر بصرامة قاطعة.

ويعود إلى المنفى مع عبد الله النديم ويؤرقه ضميره كيف لم يعد النديم من منفاه في ارض أردوغان؟ وينتابه غضب جامح على من يدافعون عن مقابر كبار القوم الذين يستحق بعضهم أن توضع رفاتهم في العظامة والنديم لم يعد بعد.

والذى نفس محمد بيده لو كان يملك ان يعود بالنديم الى ارض الوطن من منفاه، لنظم له استقبالا شعبيا لا يقل روعة عن استقبال رمسيس الثاني من رحلة علاجه الباريسية، ولغير مراسم استقبال الملوك الي مراسم استقبال ملوك قلوبنا، ولأقام تمثالا للنديم في باب الشعرية أو العطارين حيث ينتمى.

وتمسك بعقله الصورة الشعرية

لو مش هتحلم معايا

مضطر احلم بنفسي

لكن ى في الحلم حتى

عمري ما هأحلم لنفسي

فيحلم وهو يعلم أن مصيره النهائي هو العظامة فلا نامت أعين الجبناء!!

بين محمد مندور ولويس عوض! (النص المعدل)

هل تعرفوا الفارق بين محمد مندور ولويس عوض؟ وهل هناك فارق؟

فالأمر يبدو من اللحظة الاولى أنهم من مدرسة واحدة، مدرسة واحدة تتسع للتباينات، لأنها مدرسة واسعة يجمعها الاحساس الوطني العميق والانحياز العام للطبقات الشعبية، مدرسة تحلم بالحرية والعدل الاجتماعي والديمقراطية، مدرسة تحارب الإغماء العقلي والتخلف الفكري والاجتماعي.

ولكن هناك فارقا كبيرا قد لا يلاحظه القارئ، فارق متعلق في كيف يكتب كلا منهما، فمحمد مندور كان يكتب وهو مشتبك في الصراع العملي، يكتب وهو شاهرا سيفه، ولذلك فكتاباته أوسع مجالا من الأدب إلى السياسة والاقتصاد والقانون، ولأنه مشتبك دائما فلقد تعلم أن يكتب للجماهير العريضة، يكتب الأفكار العميقة بلغة سهلة بسيطة للوصول الى القارئ العادي وليس فقط للمثقفين، ولذلك فمعظم كتب محمد مندور هي في حقيقتها مقالات كتبت أثناء القتال ويستطيع أي قارئ عادي ان يفهمها ويتابعها بسهولة.

فكتاب نماذج بشرية، الذي يحظى بشعبية كبيرة، كان مجموعة مقالات كتبت عبر سنوات اثناء الاشتباك العملي وبسببه.

وكتابة في الميزان الجديد ذو التأثير الواسع كان ، في أصله ، مجموعة من المقالات نشرت في المجلات الثقافية عبر فترة زمنية في بداية الأربعينات ، والعجيب والغريب أن كتابة الام المسمى بالنقد المنهجي عند العرب كتب ايضا اثناء المعركة رغم أنه كتب لنيل درجة الدكتوراه ، كتب كتحدي علمي للنظم الجامعية التي كانت تسمح للأجانب الغير مؤهلين بالتدريس وتولى اعلى المناصب الجامعية وتحرم أبناء البلاد الأعلى كفاءة من نيل نفس الفرصة ، فكتبه مندور في ستة أشهر فقط لأغير وينال الدكتوراه ، ويبقى كتابة كأحد أهم المراجع إلى يومنا هذا

، وبرغم ذلك يستقيل من الجامعة لرفضها تعديل وضعه ويتحرر تحررا كاملا فيتحرر سيفه من غمده تحررا كاملا في غبار المعارك السياسية من أجل الاستقلال والعدل الاجتماعي والديمقراطية.

وبرغم أن كتابات لويس عوض كانت في نفس التوجه العام وتعرض بسببها للكثير من الأذى الذي وصل إلى حد الاعتقال سنة 1959 وفصل من الجامعة سنة 1954 وأصدر بعض من أهم كتبه بعد وفاة مندور المبكرة، إلا أن كتاباته كانت في شكل كتب بشكل مقصود، الأمر الذي لم يستطع مندور القيام به نتيجة اختلاف شكل المساهمة في العمل العام.

فمندور كان على رأس الاتجاه الجديد الذي انبثق في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تيار الديمقراطية الثورية ومن ضمنه الطليعة الوفدية، وتركزت معظم كتاباته في تلك الفترة على الكتابات السياسية والاقتصادية ثم دخل عضوا في أخر برلمان انتخب بشكل ديمقراطي عام 1950، فمندور لا يمكن اختصاره في النقد الأدبي، بل يمثل حالة شاملة للديمقراطية الثورية على العكس من لويس عوض حيث تطغى على مجهوداته الطبيعة الأدبية والفكرية.

ولو توقفنا عند توصيف لويس عوض لنفسه ولصديقة مندور حين يصف نفسه الاشتراكي الديمقراطي ومندور بالديموقراطي الاشتراكي يبين إلى حد بعيد طبيعة دور كل منهم، رغم عدم اتفاقي مع هذا التوصيف، فالتوصيف الأكثر انطباقا مع شمولية مندور هو التوصيف الذي تبناه إبراهيم فتحي في مقالته المعروفة في التعليق على كتاب برادة عن محمد مندور حين وصفه بالديموقراطي الثوري.

أن تعبير كلا من محمد مندور ولويس عوض عن نفسيهما هو انعكاس للملكات الشخصية لكل منهما، ملكات شخصية لا تنتقص من قيمة وقامة كلا منهما، فالنوازع والملكات الشخصية لمندور تدفعه للقتال في الخط الأمامي، وملكات وشخصية لويس تجعله يقاتل في هيئة العمليات، وكلا لما خلق له.

لكل ذلك فإن مقاتل الخط الأمامي كان أكثر اقترابا من الجمهور غير المتخصص وهو ما دعمة دورة العام خارج المجال الأدبي، ولذلك وبرغم الانتماء إلى مدرسة واحدة فإن مندور كان أوسع انتشارا وتأثيرا واعتقد انه كان ايضا أكثر تجنبا للشطحات الفكرية التي كثيرا ما يقع فيها المفكرون الغير مشتبكون في النشاط العملي في الخط الأمامي حتى ولو كانوا في هيئة العمليات، فالنشاط العملي المباشر مع الجمهور يمثل واقيا فعالا من مثل هذه الشطحات.

يبقى اخيرا ان كلا من التوجهين ضروري ولازم، كما يقول المثل الشعبي العميق " كل فولة ولها كيال "ولعل تعبير لويس عوض في مقاله الذي ينعى فيه صديقة كان بالغ الدلالة حين يتحدث عن خروجهما سويا لمحاربة الشر.

أرجو أن أكون قد نجحت في التعبير عن وجهة نظري وإزالة اللبس الذي فهمه البعض من الصياغة الأولى وكأني كنت أفاضل بينهما وهو فهم غير صحيح، فلقد كنت أتحدث فقط عن كيف يكتب كلا منهما وكيف كان يكتب مندور فقط لا غير، فأنا لست مختصا كي أقدم تقييما نقديا لدور كلا منهما الأدبي، ولكني على علم كامل بالدور الديمقراطي الثوري لمندور الذي يتجاوز حتى دورة الأدبي الذي اضطر الى الاكتفاء به في العهد الناصري. الميمون.

ولعل من الواجب الإشارة إلى ان ما كتبته كان في الحدود التي كنت اريدها وأنا لست مسؤولا عن كتابة ما يريده القارئ، ولكني احتراما للملاحظات التي تلقيتها من الأصدقاء الأعزاء قررت تعديل النص احتراما لهم، الأمر الذى لن يتكرر ثانية لان النقاش يجب أن يدور حول النص وليس تعديله.

ويبقى أخيرا أن أشير الى انطباعي الشخصي، فكثيرا عندما كنت أقرأ كتب أبي أن أرى المشروع الذي يطمح إليه وكان كثيرا ما يشير الية فيما يتعلق بموضوع الكتاب وكان ينتابني الغيظ، فالمشروع موجود وعناصره واضحة ومحددة إلا أنه لم يتمكن أبدا أن يجد فسحة من الوقت، ما بين المعارك، أن يتفرغ لكتابة الموضوع، ولم أصل الى حسن الفهم والتقدير الا عندما قادني الزمان أن أكتب على القهوة ما بين المعارك!!!!

عندما يتحدث الكبار لويس عوض يقدم محمد مندور

ويعود رجع الصدى محملا بالعطر الفواح من حلايب وشلاتين

من أديب طبيب أو طبيب أديب، خلطة عجيبة من توليفة مصرية اصيلة فشكرا له.

ماذا كتب لويس عوض عن محمد مندور (منقول عن الاهرام)

.. حين التقيت في باريس بمحمد مندور سنة 1937، وكنت يومئذ في طريقي الى مقر بعثتي فى انجلترا ،لا زمنى يومين أو ثلاثة ليطلعني على معالم باريس، فكان ينتقل بى من السوربون إلى البانتيون إلى نوتردام إلى النفاليد وغير ذلك من الآثار الباقية، ويشرح لى تاريخها ويحلل لى قيمتها. وفى الطريق كنا نتجادل في الأدب، والفن، والسياسة، والاجتماع.»..

ثم يمضي لويس عوض موضحا أنه أخذ عن مندور أشياء أعدها من أسس تكوينه الحالي: فمندور هو الذى ألهب ف ي حب اليونان الذين فتُن بهم الى حد الهوس أولا بحكم تخصصه وثانيا بحكم إقامته المديدة في باريس التي قيل فيها إنها تحس بقلب أثينا وتفكر بعقل روما. وقد تعلمنا حب اليونان واليونانيين أول ما تعلمناه على أستاذنا طه حسين، ولكن سنوات تخصصي في قسم اللغة الانجليزية على مؤدبين غير ناضجين صرفتني عن اليونان الى الرومان. كذلك ألهب مندور ظمئي الى دراسة الأدب الفرنسي، فلم أعد استهين به كما أراد لى أساتذتي الانجليز فى جامعة فؤاد الأول أن استهين.

وكنت أيام الجامعة أقرأ راسين وبوالو وهوجو، فأقول والله ما هذا أقل من شكسبير وبوب وشلي وإن اختلف عنه، فكان أساتذتي ينهروننى نهرا شديدا فأثور في أعماقي دون أن أعرف لثورتي سببا واضحا إلا ثورة الثائر على من يريد أن يحجب النور عن بصره بعصابة ثقيلة». ويستطرد لويس عوض مبينا الى أي مدى كان مندور مؤثرا على مسيرته فيقول: فلما التقيت بمندور علمني كيف أحب رونسار وبودلير وفرلين ورامبو، شهور وشهور قضيناها معا ولا حديث لنا إلا الآداب الأوروبية، فقد ترددت على باريس عدة مرات لاستكمال أبحاثي في كامبريدج وقضيت معه ديسمبر 1938 وأبريل 1939 وصيف 1939 حتى قبيل اعلان الحرب العالمية الثانية في 4 سبتمبر.

ومندور هو الذي عمق في نفسي الإحساس بوحدة الفنون، فقد كنت قبل أن أعرفه أجنح الى الإسراف في التخصص الأدبي. ومندور هو الذي أيقظ في نفسى حب العمارة والنحت والتصوير حين كان يطوف بي في أبهاء متحف اللوفر أو يقف بي بين أعمدة كنيسة المادلين ليشرح لي الفرق بين العمود الكورنثي , العمود الأيوني والعمود الدوري، أو يجوس بى خلال نوتردام ودير البندكتين ليروي لي قصة القوس المكسور والزجاج المعشق بالرصاص فى المعمار القوطي أو يحدثني عن أسس التكوين البيزنطي في كاتدرائية الساكركير أو يلهب خيالي بوصف ما رآه من آثار في الأكروبول وفى صاموتراس أثناء رحلته اليونانية، أو يقودني حول سور حديقة لوكسمبورج وعلى ضفة السين عند كوبرى سان ميشيل لنتصفح معا لوحات الرسامين المعروضة في العراء تحت الرذاذ على عيون المارة بين عمارة التوبلرى وفرساي ولوحات جينيسبورو ورينولدزر وموسيقى فيفالدى وباخ وأدب راسين وموليير وفكر بولنجيروك وشافتبورى ونقد بوالو وساموبل جونسون .

عصرا عصرا ومدرسة مدرسة. كنا معا ندرس هذه الملامح المشتركة من القوطية الى الرنيسانس ومن الرنيسانس الى الكلاسيكية الجديدة ومن الكلاسيكية الجديدة الى الرومانسية ومن الرومانسية الى التأثيرية ومن التأثيرية الى

الواقعية ومن الواقعية إلى ما بعد الواقعية الشهيرة بالسيريالزم، وكانت هذه خاتمة المطاف عندنا: بيكاسو في التصوير واسترافتسكى فى الموسيقى وأندريه بريتون في الأدب.

ومندور هو الذي عمق إحساسي بالجمال وقوى التفاتي إلى الجانب الشكلي في الآداب والفنون، فقد كنت قبل أن أعرفه أشد التفاتا الى مادة الفن ومضمونه منى الى صورة الفن وشكله، أي الى ماذا يقول الفنان وليس الى كيف يقوله. ومندور هو الذي أنقذني من اقليمية الثقافة، تلك اللعنة التي تنزل بكل من يطلب العلم فى بلاد الانجلو سكسون ويأخذ عنها عزلتها وعنجهيتها واكتفاؤها الذاتي، أنقذني منها حين كسر ذلك الحجاب الحاجز الذي كان يفصل عادة بين المصريين وبين باريس بسبب قصورهم في اللغة الفرنسية. كل هذه الأشياء أخذتها عن مندور وهي ليست بالأمر الهين، بل هي دعامات قوية في تكويني الثقافي، أعانتني على مراجعة كثير من القيم التي كنت أؤمن بها وأعانتني على كسر تلك القوقعة الإقليمية التي كنت أتململ داخلها بسبب تخصصي في الثقافة الإنجليزية.»

تعليق أخير من المندورى الصغير (أنا)

هل اتضح الآن لماذا أصبح محمد مندور ما هو عليه، وهل اتضح الآن لماذا أصبح لويس عوض ما هو عليه!!

لقد كانوا يبحثون عن استيعاب ثقافة عصرهم، استيعابا نقديا لا يدفعهم الى الغربة والتغرب الفكريين، بل سبيلا الى المزيد من الارتباط بواقع بلادهم، ولذلك نادرا ما تجد في كتابات مندور أي إشارة إلى استشهادات بمراجع أو كتاب أجانب، لقد استوعب ثقافة عصرة وخرج مقاتلا من أجل بلاده ومن طينها، أبن الفلاحين الذي كان يفخر بأصله ونقل الينا نحن الابناء نفس الفخر والاحساس.

نظرة إلى الخلف من اجل نظرتين الى الامام

تصفية الحساب

حساب عسير يؤرقني ليس لأني كنت مشارك فيه بشكل مباشر، ولكنى كنت أنتمي لجيل كامل ثائر لم يضع حدودا بين الاختلافات الفكرية بين جيلنا والجيل السابق لنا وبين الموقف الشخصي.

بين النظرة الموضوعية التي كان عليها أن تدرك أنهم واجهوا تغييرات كبرى غير مسبوقة محلية ودولية وقدموا تضحيات كبرى رغم عدم قدرتهم على عمق تفهمها.

ومر جيلنا بتغييرات جديدة وسريعة وارتكب الكثير من الأخطاء والخطايا برغم أنه كان أقرب إلى فهم التغييرات الكبرى التي واجهها، قصة طويلة وكبيرة وتحتاج توقفا خاصا تراجع مسار هذا الجيل.

ولعل أحد أسباب قربنا الى حسن الفهم أن التغييرات الملتبسة لم تعد جديدة وكانت نتائجها قد أصبحت أكثر وضوحا وجلاء، الأمر الذي يتطلب نظرة نقدية لتاريخ جيلنا.

بالقطع فإن هذه النظرة النقدية تتطلب الحزم الفكري، حزم فكرى يتطلب فهم المسار التاريخي لتطور بلادنا يتضمن المراجعة الشاملة لأفكار ذلك الزمان الى عصرنا الحالي، فهل نمتلك مثل هذا الحزم؟ وهل توصلنا الى فهم أعمق يختبر تصورات ذلك الزمان ويضعها موضع الاختبار؟ وهل نمتلك تصورا شاملا لتغييرات زماننا هذا بعيدا عن الديماغوجية والشعبوية؟

أعتقد أننا لم نصل بعد الى بدء محاولة ذلك وهو أمر مؤسف رغم إدراكي أن المهمة ثقيلة وكبيرة، ولكن مازال الكثيرون يلوكون الماضي بنفس أساليب الماضي وكأن التاريخ قد ذهب هباءا، بل امتد الأمر إلى الاحتفاء بمن

سبقونا، احتفاءا ضروريا تقديرا لتضحياتهم واخلاصهم، ولكنه يخلو من النظرة النقدية الواجبة لأفكارهم، وكأن التصورات السابقة والمنهج الذى أدى إليها قد اختفيا ، فيالها من كارثة.!!

الاب والجد" ان كبر ابنك خاويه"

مات محمد مندور فى حياة أستاذه طه حسين وابدى طه حسين حزنة البالغ على وفاة تلميذة الاول وانة لن ينسى ما عناه مندور فى حياته ، وفى مقال لمحمد مندور سنة 1962 بجريدة الجمهورية كتب تعليقا على ما صرح به لويس عوض ، في حديث لفؤاد دوارة ، بأن جيلهم لم يقم بما هو مطلوب منه فى دعم المواهب الجديدة ، نافيا ذلك بشدة ، حيث أكد أن جيلهم " قد كان أكثر موضوعية وأكثر دقة فى تزجية المواهب الجديدة ، ويكفينا اننا لم نحارب قط موهبة حقيقية وان المواهب التي عملنا على إبرازها لم تكن من قش بل كانت مواهب صلبة أثبتت وجودها."

ويعلق على الجيل السابق بقوله " وإذا كان كل من هؤلاء الأدباء الكبار قد كان له تلاميذه وحوارية فيخيل الى اليوم ان موقف كل من هؤلاء الكبار من تابعيه قد كان موقفا عاطفيا أكثر منه موقفا موضوعيا ، ولسوء الحظ أخطأوا كثيرا عندما احتضنوا احيانا أشباحا لا مواهب حقة ، بل ويؤسفني ان اقول ان بعضهم حارب احيانا المواهب الحقة عند بعض تلاميذه ومريديه ذوي الشخصية و الاصالة مما ادى الى اختلاط الحابل بالنابل فى جيلنا الاوسط واحداث عملية تقديم و تأخير كان لها بالغ الضرر في تطور الحركة الثقافية العامة فى بلادنا ، ولولا صلابة بعض هذه العناصر الممتازة لسقطت تحت وطأة الكبار."

لقد ترددت كثيرا ان اكتب حول هذا الموضوع، الموضوع الذى لم يصرح به اصحابه الا ضمنيا، فالجد المكلوم يشعر بحزن بالغ لوفاة ابنة الاول، و الأب الذى يكن احتراما عميقا لأبيه الثاني يقترب من حبه لأبيه البيولوجي بشعر باسى بالغ ، كما هو واضح مما كتبة ، وانا كذلك اشعر بحزن بالغ لم يمحوه الزمان ، ويزداد كلما ازداد وعي بما تعرض له محمد مندور في حياته من مصاعب جمة بدون دعم حقيقي من ابيه الروحي ، بعد ان عاد من بعثته الاوربية ، الا فيما ندر.

فالجد هو الذى دعم واستثار التمرد الأصيل لدى تلميذه، الذى مارس التمرد إلى مداه الكامل فتمرد حتى على أستاذه، الذى لم يستطع ان يستوعب ان تمرد تلميذة هو بالضبط ما كان يستحثه عليه، ولولا هذا التمرد لما أصبح محمد مندور الذى نعرفه، ولكان قد اكتفى ان يصبح استاذا جامعيا مرموقا، مثلة مثل الأبناء الآخرون النابهون، مثل سهير القلماوي أو شوقي ضيف.

فان كبر ابنك خاويه حتى لا تصيب الأحفاد " بوجع القلب"

حتحور ربة الأمومة

حضارة قديمة تشكلت عبر آلاف السنين وواجهت مشاكل تفسير العالم وقدمت القوى الغيبية والطبيعية في صورة الهة، آلهة كانت تخص مناطق بعينها إلى ان توحدت البلاد فافتضت الضرورة توحيد الإلهة، فحدث

اندماجات وصعد نجم بعضها وبقي بعضها في المستوى المحلي الإقليمي الى أن جاء زمانه مع صعود أهمية منطقته، ولذلك لا يمكن فهم الديانة المصرية القديمة الا بفهم زمانها الفرعوني المتغير.

فأمون، مثلا، كان الهه محلي في المدينة الاقليمية طيبة، ولم يصعد نجمة إلا بصعود طيبة نفسها وتحولها إلى عاصمة الدولة، فأصبح أمون هو أمون رع بدمجه مع الإلهة الأعظم "رع."

ولكن مع كل هذه الاندماجات والصعود والهبوط للإلهة مع التغيير الاجتماعي، فإن المصريين احتفظوا بالتصورات الشعرية لألهتهم.

ولقد لفت نظري تطور فهم المصريين للأمومة في تطور وإندماجيات شخصية حتحور، الهة الأمومة التي كانت تمثل في صورة البقرة المرضعة أو في صورة أنثى.

ربة الأمومة وزوجة وحامية حورس التي أعادت إليه بصره في عينه المصابة اثناء قتالة لإقامة العدل، وهى نفسها التي تتحول الى سخمت، التي تتمثل في هيئة اللبوة، القاتلة وحامية الديار اذا تعرضت البلاد للخطر ، و الى باستت ، التي تتمثل في هيئة القطة ، ربة المرح والبهجة وحامية الدار.

فهل فهمتم أيها المصريون كيف كان ينظر اجدادكم الى أصل الحياة والبهجة والدفاع عن الوطن وعن حماية الدار والديار ومساندة القتال من اجل اقامة العدل، انها الأم مهما كان اسمها.

أحب أمي.

الاوليجاركية

أحد التعبيرات الفخيمة التي يستعملها بعض العاملين في الحقل العام أو بعض المهتمين به، وبرغم ان هذا التعريف قديم قدم الحضارة اليونانية إلا أنه لا يوجد تعريفا واحدا له، فمثل هذه التعريفات لا تكتسب دلالتها إلا من زمانها ومكانها، اى من التركيب الطبقي ومن شكل الحكم.

ولذلك فإن استخدامها، بدون التعرف الدقيق على التركيب الطبقي وشكل الحكم، لا يمكن إلا أن يكون اقترابا شعبويا ديماغوجيا يستجيب لنوازع الاستياء وعدم الرضا، وأحيانا لتحديد موقف من بلاد أخرى حيث يصيبك العجب من جرأة استخدامه

والامر لا يتوقف عند هذا التعبير، بل يمتد الى كافة التعريفات المماثلة، مثل الريع والأوتوقراطية والبونابرتية والبرلمانية وغيرها من العناوين الفخيمة، التي لا تغنى المؤمنين شر القتال.!!

البعض يفضلونها.......... ساخنة!!

بالطبع فهي ليست الساحرة مارلين مونرو في فيلمها الشهير، بل المياه الدافئة، الحلم التاريخي لروسيا الامبراطورية او السوفيتية او الاتحادية، احتياج استراتيجي ملح للخروج من صقيع الشمال المتجمد.

صقيع الشمال الذي كان يتحكم به السويديون فخرج إليهم القيصر الخامس بطرس الاكبر ويؤسس درة التاج الروسية، سانت بيترسبورج أو لينينغراد، كي تؤمن طريق الشمال الغربي.

وتدور معارك طاحنة فى الشمال الشرقي وفى الشرق مع الإمبراطورية اليابانية ويكون أحد أهم الدوافع هو تأمين طريق الشمال الشرقي، وتهزم وتفوز روسيا الى ان ينتهي الأمر بتأمين الطريق بضم ما يسمى بالجزر المتنازع عليها مع اليابان في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولكن التحالف الأمريكي الياباني مازال يطل على الطريق.

ولكن يبقى الحلم الروسي الدائم بالوصول إلى المياه الدائمة الدفء، الى البحر الاسود.

معارك واتفاقات واختلافات مع الدولة الامبراطورية العثمانية وينجح الروس في النهاية في وضع قدم ثابتة على البحر الأسود خروجا من البحر الصغير قليل العمق، بحر آزوف، عن طريق مضيق كيرتش ، ولكن مخرج البحر الأسود تتحكم به تركيا العضو في حلف الأطلنطي ، مضيق الدردنيل ، الى البحر الابيض الذى تتحكم فى مخرجه الى المحيط بريطانيا الجاسمة في جبل طارق رغم انف الإسبان والعضو المؤسس لحلف الأطلنطي ، وبرغم انضمام اسبانيا المتأخر للحلف فما زال الاختلاف حول جبل طارق.

أن أحد أهم دوافع الحرب الروسية الأوكرانية الدائرة الآن هي تأمين الوصول الى المياه الدافئة والتى هددتها الحماقة البالغة للاتجاهات القومية الأوكرانية، فتحركت روسيا باستعادة جزيرة القرم والتهديد باستخدام القوة لمنع دخول جورجيا وأوكرانيا إلى حلف الأطلنطي، وهو ما يتحقق الآن.

هذا هو الواقع الاستراتيجي للصراع الدائر في المنطقة، صراع أسهم في احتدامه غباء البحث عن المصالح واستخدام أساليب قديمة من عهد الحرب الباردة، برغم أن روسيا الاتحادية ليست الاتحاد السوفيتي الذي لم يكن يمثل فقط تهديدا للمصالح الاقتصادية والسياسية، بل أيضا تهديدا أيديولوجيا كبيرا.

ولكن يبقى النظر بدقة الى التصورات الروسية حول الأزمة الراهنة، فهل صحيح الاعتقاد الروسي في أن من يأتي الى بيتي قاتلا يرتد عن بيتي قتيلا؟ وهل احتمالات انضمام اوكرانيا الى حلف الأطلنطي وعدم تعاونها مع روسيا في تأمين الوصول إلى المياه الدافئة هو عمل قاتل في زماننا هذا؟ وهل تستطيع روسيا مواجهة الضغط الغربي الذي سيتصاعد دون التعرض للاستنزاف؟ نفس الاستنزاف الذي تعرض له الاتحاد السوفيتي، وهل كان ممكنا للغرب دمج روسيا الجديدة الاتحادية في منظومته، وهو ما حاولت ألمانيا أن تقوم به ؟ وهل الخيار الروسي الحالي هو الخيار الصحيح؟ وهل السلوك الغربي هو السبيل الأمثل لمواجهة لازمة؟

الكثير من الأسئلة وواقع جديد ملئ بالمشاكل التي ستنعكس على الكبير والصغير في هذه الكرة الزرقاء الجميلة التي لم تنعم بالراحة بعد.

ويبدو أن الحل الأمثل لأمثالنا هو البحث عن فيلم البعض يفضلونها ساخنة ليشاهد البراءة الجميلة التي لم تتحمل قسوة الحياة.

هل انتصرت روسيا؟

سؤال سهل الإجابة، ولكنه ايضا صعب الاجابة!

نعم أيها السادة لقد حصلت روسيا على هدفها المباشر، فعدلت حدودها وأوضحت بجلاء كامل عما يمكن أن تفعله أذا انضمت أوكرانيا إلى حلف الأطلنطي، تهديد جدي سيلقى مزيدا من الضغوط الداخلية على السلطة الاوكرانية.

ولكن المسالة الاوكرانية ليست هي أصل التناقضات بين روسيا والحلف الغربي الذي تمدد الى حدودها، بل مجرد حلقة في مسار الصراع بين الدول العظمى على المصالح والنفوذ العالميين.

صراع سيكون طويلا ولا يمكن حله إلا بتقلص قوى ونفوذ أحد المتصارعين أو باندماج مصالحهم ورضى الأقل قوة بنصيب يتلاءم مع قوته.

ففي مثل هذا الصراع الاستراتيجي الطويل المدى لا تقاس قوة الدول بمستوى تسليحها، بل بعناصر القوة الشاملة، أي بحجم اقتصادها ومستوى تطوره وقدرته على خلق التطبيقات العلمية في حقل الإنتاج وعلى القدرة العلمية والبحثية وعلى موارده الطبيعية ولا يفوتنا هنا الأهمية الحاسمة لتطور التعليم والبحث العلمي.

أن مثل هذه الصراعات لا يمكن تقدير نتائجها التاريخية إلا في علاقتها بموازين القوى العالمية وهي تتغير، لذلك لا يمكن استنتاج أن النتائج المتحققة، حتى الآن، تشكل نقطة تحول في موازين القوى العالمية إيذانا ببروز قوى عظمى جديدة، روسيا أو الصين، بديلا عن القوة السائدة حاليا، الولايات المتحدة الأمريكية، نتيجة لاعتبارات متعددة.

الأول منهما أن الموقف الحالي يعبر عن اختلال موازين القوى لمصلحة روسيا في منطقة النزاع، ولكنه لا يعبر عن بداية تعديل موازين القوى عالميا، والسبب الثاني أن الصراع الحالي ما زال في بداياته حيث لم يضع الطرف الآخر ما يستطيع ان يحشده في منطقة الصراع او من أجلها، أن الصراع من أجل أوكرانيا مازال في بداياته.

أن دروس التاريخ القريبة تقدم لنا العديد من الأمثلة على مسار الصراعات بين القوى العظمى ، فالتقدم الألماني جاء متأخرا عن الدولتين الكبيرتين في القرن التاسع عشر ، إنجلترا وفرنسا ، ولم يكتمل توحد ألمانيا إلا في أعقاب انتصارها في الحرب الدائرة مع فرنسا سنة 1870 ، إلا ان هذا الانتصار العسكري المؤقت لم يضمن لألمانيا موقعا وطيدا كأحد القوى العظمى واضطرت الى خوض حربين عالميتين وهزمت في كلاهما ، ليصل بها الامر إلى أن أصبحت حليفا ضمن المعسكر الغربي وتنال ما يتلاءم مع عناصر قوتها الشاملة ، ولعل بزوغ قوى عظمى جديدة ، الاتحاد السوفيتي ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية كان العامل الأساسي لاندماج ألمانيا في الحلف الغربي بقيادة الولايات المتحدة ، اى اننا نتحدث عن خمسة وسبعون عاما كاملة لبداية استقرار وضع المانيا داخل التحالف الغربي الذي انبثق في أعقاب الحرب العالمية الثانية

.

وإذا كان الاتحاد السوفيتي وكتلته قد انبثقا كقوي عظمى في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فان مسار الصراع بين الكتلتين أسفر عن استنزاف قوى المعسكر الشرقي ، صراع لا يدور بشكل مباشر بين الكتلتين بل في سائر بقاع الأرض ، بين قوى محلية تلقى الدعم من المعسكرين ، في كوريا وفيتنام وكوبا وانجولا والكونغو وموزمبيق وسائر بلاد ما كان يسمى ببلدان العالم الثالث ، ويضاف إلى ذلك سياسات التسليح الكثيفة التي القت أعباء إضافية كبيرة على اقتصاد الكتلة السوفيتية ، الآمر الذى صرح به روبرت مكنمارا ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، في عهد كينيدي، حين صرح بأنه يمكن القضاء على الكتلة السوفيتية بسياسات تسليح كثيفة، الامر الذي اسفر عن انهيار الكتلة السوفيتية بعد 45 عاما.

وإذا توقفنا أمام عناصر القوى الشاملة للقوى العظمى الحالية سنجد أن عناصر التفوق الشامل للولايات المتحدة ما زالت سائدة رغم التغييرات التي تتراكم لدى غيرها من القوى ، فبرغم التقدم الكبير الذي حققته روسيا في أعقاب فترة الفوضى التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي ، فإن الحجم الكلي لاقتصادها في حدود خمس الاقتصاد الأمريكي ، وبرغم قدراتها العلمية و تسارع اندماج العمليات الإنتاجية مع الاكتشافات العلمية إلا أنه مازال الشوط طويلا أمامها للوصول إلى ما وصلت إليه الولايات المتحدة من اندماج العلم بالإنتاج ، ولعل أحد أبرز الأمثلة التي يمكن التدليل بها أن روسيا ما زالت تجاهد لإنتاج طائرتها الشبحية الأولى السوخوى 57 في حين أن الولايات المتحدة تنتج الان طرازين منها F22 و F35 ، برغم الموارد الطبيعية الكبيرة المتوفرة بأراضي روسيا.

وإذا كان هذا هو وضع روسيا فإن الصين، رغم ان حجم اقتصادها يتجاوز اقتصاد الولايات المتحدة، إذا قيس بالقوة الشرائية، إلا أنها ما زالت لم تلحق بعد بمستوى تطور وديناميكية الاقتصاد الأمريكي، بصرف النظر عن الفارق الكبير في مستوى دخل الفرد الذي يؤثر تأثيرا كبيرا في مستوى فاعلية القوى البشرية.

أن تغيير موازين القوى العالمية مازال طويلا وبعيدا والاحتمالات ما زالت متعددة ولم نصل الى نقطة التغيير بعد ، ومن مصلحة كل القوى الدولية الأصغر، الحالمة بالمستقبل ، أن تكون في منتهى الحذر من صراع يدور داخل الكرة الأرضية وفضائها ولن يترك أحدا في حالة ، برغم كل الادعاءات التي يصرح بها المتصارعون حول حقوق الانسان والقانون الدولي والاتفاقات المبرمة وحق تقرير المصير وحدود الدول المعترف بها وغيرها من الأقاويل التي تستهدف التأثير على الرأي العام داخل هذه الدول و عالميا ، فالماضي القريب يفضح هذه " البروباجندا " المثيرة للغثيان.

والخلاصة " كل واحد يخلى بالة من لغاليغة"